ترطيب الأفواه

بذكر

من يظلهم الله

المجلد الأول

تأليف
دكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ أبو بكر الجزائري
الشيخ محمد صفوت نور الدين
الشيخ أبو إسحاق الحويني
الشيخ أحمد فريد
الشيخ محمد حسان
الشيخ محمد القاضي

مكتبة معاذ بن جبل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى

* شيخي الذي ربّانا على حب السلف وآثارهم ووعظهم... بقية السلف شيخ المربّين والوعّاظ .. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، وهبنا أغلى الملك فلا ننساه أبداً لكرامة الدّلاّل الشيخ الدكتور **أحمد فريد** .

* الشيخ التقيّ النقيّ الربانيّ - نحسبه كذلك - شقيق الروح .. بقية السلف الذي جعل الله له في قلوب المؤمنين وُدّاً الشيخ **أبي أحمد محمد حسان** .

* شقيق الروح ... طيِّب القلب ... سمح الوجه ... الفياض الكريم كتيّار النيل

كريم الخُلُق ... الذي إذا رُئيَ ذُكر اللّه برؤيته

بقية السلف ... الشيخ **محمد عطية** ـ حفظه اللّه ـ

المؤلف

بِسۡمِ اللَّهِ الرَّحۡمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ أبي بكر الجزائري

شيخ المسجد النبوي بالمدينة النبوية

كلمة تقريظ

الحمد للَّه ، والصلاة والسلام علىٰ رسول اللَّه وآله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه .

وبعد لقد أهدىٰ إليّ المحب الدكتور/ **سيد بن حسين العفاني** كتابه القيّم النافع بإذن اللَّه المفيد ، والمسمَّىٰ : « **ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم اللَّه** » والحاوي (لأربع مُجَلدات)[1] .

والكتاب لما حواه من العلوم والمعارف الربانية أراني - واللَّه - عاجز عن وصفه الوصف الكامل الذي يستوعب كل ما حواه من الأحكام والآداب والأخلاق ، وحسبي أن أقول :

إنه روضة من رياض العلم الشرعي الذي لا غنى لمسلم عنه بحال .

ومما يجب التنبيه له هو أن هذا الكتاب العلمي الفريد قد نجا نجاة تامة من الآفات الثلاث التي هي الأحاديث الموضوعة ، وشطحات الصوفية ، والمظاهر الشركية وبهذا أصبح هذا الكتاب خزانة العلم الشرعىٰ الذىٰ لا غنىً لطالب العلم اليوم عنه : « فاللَّهم اجز مؤلفه خير الجزاء ، إنك بر رحيم سميع الدعاء . وسلام علي المرسلين ، والحمد للَّه رب العالمين .

أبو بكر جابر الجزائري

المدرس بالمسجد النبوي الشريف

بالمدينة النبوية

---

(١) تم ضم المجلدات الأربعة في مجلدين فقط .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم فضيلة الشيخ محمد صفوت نور الدين

الحمد للَّه الذي خلق الخلق وجعل الحكمة فيهم بالغة ، وأرسل الرسل الكرام وجعل الطريق بهم واضحة ، وأنزل الوحي فجاء لحاجات الخلق مفصلاً لا يحتاجون بعده إلى بيان . فكان آخر ذلك القرآن أنزله على خاتم الرسل وإمامهم فقال سبحانه : ﴿ **الرحمن علم القرآن خلق الإنسان** ﴾ فالقرآن هو المنهج الذي لا يصلح حال الإنسان إلا أن يعمل به .

واللَّه سبحانه - رحمة منه وتفضلاً - لم يدع الخلق أمام نص مكتوب يقال لهم اعملوا بما فيه ؛ فتتفاوت الأفهام ، ويتنازع في الأصول العلماء ، ويعسر الفهم على العوام ، ويتحزب الكثير في أحزاب متضاربة ؛ فتقع العداوات محل الوئام والتلاعن موضع التراحم ، وما فِرقُ اليهود والنصارىٰ في ذلك ببعيد عمن نظر واعتبر .

لكن رحمة من اللَّه سبحانه اصطفى أمة ختم بها الأمم ، واختار منها رسولاً أدبه واصطنعه لنفسه فأحسن تأديبه وصنعته ، وجعله أفصح الناس في أمة الفصاحة ، وأبلغهم في أمة فاقت الأمم في الفهم والإدراك والبلاغة . وأنزل على ذلك الرسول كتابًا هو القرآن وتولى بنفسه حفظه في النص والبيان ﴿ **إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه** ﴾ . وأمر الرسول أن يعمل به وأن يبلغه للناس واللَّه عليه رقيب ﴿ **بلغ ما أنزل إليك من**

ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ وسدد رب العزة في ذلك خطاه ، وصوب سلوكه وقوله حتى صار القرآن له خلقًا كما قالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ : « كان خلقه القرآن » ، ثم أمر الناس أن يعملوا بالقرآن على هذا المثال العملي الذي يرونه . فإذا جاء الأمر ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾ جاء التفصيل والبيان في : «**صلوا كما رأيتموني أصلي**» ، وإذا جاء الأمر : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ جاء التوضيح في : « **خذوا عني مناسككم**» وهكذا حتى كان جماع ذلك في قوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول اللَّه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر اللَّه كثيراً** ﴾ .

والمولى سبحانه رب كل شيء ومليكه بيده ملكوت كل شيء علق سعادة الدارين بطاعته وشقاءهما بمعصيته ومخالفة رسله : ﴿ **فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ .

ولما كانت الدنيا دار ممر لا دار مستقر ، ودار اختبار وابتلاء لا دار مكافأة وجزاء لم يجعل فيها من صنوف الجزاء إلا ما تتعلق به التذكرة والعبرة . بل أعطى الكافرين فيها عطاء طغوا به ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون**﴾ ومن شفقته سبحانه بخلقه أنه لم يجعل المال والمتاع في الدنيا حكرًا على الكافرين فقال سبحانه : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابًا وسررًا عليها يتكئون * وزخرفًا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ .

واعلم أخا الإسلام أن الدنيا قليلة في أمدها ونعيمها وكذلك في عذابها قليلة في شقائها وسعادتها ، وأن ما في القبر من العمر أطول ومن الأهوال

أشد وأفظع . ويفوق ما في القبر من الأهوال ما أعد اللَّه ليوم البعث يوم القيامة يوم الحساب والنشور . وأن الأشد والأكثر والأدوم والأطول من العذاب ما كان يعد الساعة من عذاب في النار أجارنا اللَّه وإياكم منها ، وجعل اللَّه للمؤمنين العاملين وللأنبياء ومن تبعهم مخرجًا ونجاة من كل ذلك ، وجعل عاقبتهم جنة عرضها كعرض السماوات والأرض أعدت للمتقين . فالفائز المفلح الذي ينجو يوم العرض فيزحزح عن النار ويدخل الجنة ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ .

والعذاب الأخري كثير الألوان شديد الوقع لا يحتمله أهل الصبر والجلد ، وجعل رب العزة عذاب يوم القيامة مقدمة له لا يطيقه الصابرون ويشفق منه الأنبياء والمرسلون فيقولون : « **سلم . سلم** » .

من ذلك العذاب الأخروي الفضيحة على ملأ الخلق جميعًا « **ينصب لكل غدْرة لواء يقال : هذه غدرة فلان ابن فلان** » ، ومنه العطش الشديد الذي تنقطع منه الأعناق ، ومنه الفزع والهلع الذي تنقطع منه القلوب ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ومنه دنو الشمس من الرءوس قدر ميل أو ميلين ، وزيادة العرق حتى يغرق فيه الخلق .

وربنا الرحمن الرحيم أعد في هذا اليوم العظيم للمؤمنين العاملين من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، فالعامل المخلص لربه المتتبع لشرعه يتغمده اللَّه برحمته الواسعة في ذلك اليوم العصيب ؛ فيحميه بفضله وينجيه من كل كرب . من ذلك أنه جعل في ذلك اليوم للمؤمنين من العطش حوضًا يشرب منه الشاربون فلا يصيبهم الظمأ أبدًا ، ونصب ملائكة على الحوض تقصي أصحاب المحدثات فلا يشرب منه إلا من كان بالسنة مهتديًا وبالرسول ﷺ مقتديًا ، وجعل في ذلك اليوم سترًا يستر به عباده فمن ستر مسلمًا في الدنيا ستره اللَّه تعالى يوم القيامة . وجعل لمن فرج عن مؤمن

كربة من كرب الدنيا فرج اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة . وأعد سبحانه في ذلك اليوم من الحر والعرق ظلا لا يأوي إليه إلا من أرادهم اللّه برحمته فعدهم أصنافًا لا يملك غيرهم أن يشاركهم أو يستظل معهم إنما يبلغ اللّه ظله لأهل الظل وريه لأهل الري وستره لأهل الستر وهو علي كل شيء قدير .

فانظر أيها العاقل الذكي يا من تستعد في الدنيا من عزوبتك لزواجك ومن ليلك لنهارك . وتستعد طوال سنتك إن كنت طالبًا ليوم امتحانك . انظر فذلك اليوم أحق أن تستعد له ﴿ **يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾

وقال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ .

انظر أيها العبد بما تستحق الجنة وهي لا تنال بالأماني إنما بالتقوىٰ ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ .

واعلم أن السالكون الصابرون من قبلك كثير قد صبروا علىٰ ما أوذوا حتىٰ أتاهم نصر اللّه فأدركهم في الدنيا ، وإن لم يدركهم في الدينا فهم مع المؤمنين من مثل أصحاب الأخدود قال عنهم سبحانه : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز العظيم** ﴾ واذكر قوله سبحانه : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند اللّه والله عنده حسن الثواب * لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ***

متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد * لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار ﴾ .

واعلم أيضًا أن المفرطين من قبلك كثير كانوا أشد منك عتوًا وجبروتًا فأخذهم اللَّه أخذ عزيز مقتدر وجعلهم في قبورهم ﴿ النار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا ﴾ ولا يكون ذلك نهاية مصيرهم إنما عذاب الآخرة أشد فأين أنت من قوم عاد وثمود وقوم فرعون وأصحاب الأيكة وكل أولئك الجبابرة ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾ فالعذاب الدنيوي لا يفوتهم ، وإن ظن ظان أنهم لم يكافئوا في الدنيا فإن في الآخرة عذاب النار لا ينجو منه كافر أبدًا قد زال عنه ملكه وسؤدده وجاءوا في ذلك اللَّه ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ .

وبعد ...

فهذه مقدمة متواضعة أسوقها بين يدي هذه الأمواج المتتالية في ذلك البحر العميق بدرره ونفائسه من كتاب « ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم اللَّه» والذي كتبه أخونا الحبيب الدكتور/سيد حسين العفانى جمع فيه فوق السبعة المذكورين فى الحديث المشهور ما صح نسبته إلى الرسول ﷺ ممن جعل اللَّه وعده يوم القيامة بالظل يوم لا ظل إلا ظله ، وقد جلى ذلك بالشرح والبيان والتوضيح والمثال ، وبحث في كتب المصنفين ، وجمع ما ذكره في ذلك السابقون من القدماء والمحدثون بأسلوب علمي رصين ، اعتنى فيه بالتحقيق والتدقيق والجمع الشامل الدقيق ، وأضاف عليه الموعظة البليغة الأخّاذة بالقلوب والألباب مع ضرب المثال في السابقين والصالحين من أهل الإيمان والتقى ؛ لتطلب الرفيق مع طلبك للطريق فلا تستوحش في السفر ولا

تشعر بالغربة فى الإقامة مع أولئك الذين جعلهم الله مع الأنبياء والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

فهذا سفر جليل مع الظل الظليل والعمل الصالح لتختار وتغتنم إن كنت إمامًا فكن عادلاً ، أو شابًا فكن في الطاعة ناشئًا ، أو متصدقًا فكن للصدقة مخفيًا ، أو ذاكرًا فكن بالعين باكيًا . فاختر لنفسك من هذا الخير العميم طريقًا واحذر أن تكون معرضًا فتحرم فإن النار تسع الخلق جميعًا إذا دخلوها ، وأبشر فإن الجنة تسع الخلق جميعًا إذا دخلوها .

أخي القارئ فإلى الأسلوب العلمي الرصين والجمع الشامل والموعظة التي تجلي الصدور وتزيل غبارها فتأخذ بالقلوب لتتعرف فإذا عرفت فالزم واغتنم الفرصة قبل أن تضيع وسل الله من رحمته يرحمك فإنه واسع العطاء يحب الدعاء ويقبل من العبد العمل ويحقق الرجاء .

فاللهم إنا نسألك أن تنفع المسلمين بهذا الكتاب وتجعله زخرًا لصاحبه في الدارين وأن تلحقنا بأهل هذه الأعمال الذين تظلهم في ظلك يوم لا ظل إلا ظلك إنك على كل شيء قدير .

فاجعلنا أهلاً لعفوك ورحمتك . ونجنا من عذابك وسخطك يا أرحم الراحمين .

والله من وراء القصد

كتبه / **محمد صفوت نور الدين**

***

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ أبي إسحاق الحويني

إنَّ الحمد للَّه تعالى نحمُدُه ، ونستعين به ونستغفره ، ونعوذُ باللَّه تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد اللَّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبدُهُ رسوله .

أما بعد

فإن أصدق الحديث كتابُ اللَّه تعالى ، أحسن الهدي هديُ محمدٍ ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثةٍ بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في انار .

أما بعد

فإنَّ حديث « السبعة » الذين يظلُّهم اللَّه تعالى يوم القيامة ، حديثٌ كثير الفوائد ، جمُّ الفرائد ، علمتُ ذلك لمّا شرحتُ هذا الحديث في عشرين مجلسًا منذ عامٍ مضى ، وكنت أتمنى أن أتفرغ لكتابة شيءٍ في هذا الحديث الماتع ، أُجلِّي فيه بعض فوائده ، وتصرَّمت الشهور ، **وما زلت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، حتى فجأني صاحبنا في اللَّه تعالى ـ الشيخ الودود سيد بن حسين العفاني بمجلدين حافلين في شرح هذا الحديث** ، **ففرحتُ به غاية الفرح** ، **ورأيت أنه أربى فيه على ما كنت أريدُ** ، **فبارك اللَّه في سعيه** ، **ونفعه به في يــوم تكون العاقبةُ فيه للمتقين** وقد اتفقت روايات الحديث على تقديم الإمام العادل ، ثم اختلف الترتيبُ بعد ذلك ، وجُلُّها على التثنية بالشاب الذي نشأ في عبادة اللَّه . وإنما تقدَّم ذكرُ الإمام العادل ، لأن به صلاحُ العالم ، وقيام الشرائع ، وأمان الخلق ، وتستطيع أن تدرك ذلك بأدنى نظر إذا نظرت إلى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ ، وهو في ذلك أشهر من نار في رأس عَلَم ، ودعني أذكر لك موقفًا واحداً .

فأخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سمرة قال : شكىٰ أهلُ الكوفة سعداً إلىٰ عمر رضي اللَّه عنه فعزله واستعمل عليهم عماراً فشكوا حتىٰ ذكروا أنه لا يحسن يصلي ، فأرسل إليه فقال : يا أبا إسحاق ، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي ، قال أبو إسحاق : أمّا أنا ـ واللَّه ـ فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول اللَّه ﷺ ما أخرم عنها ، أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين ، وأخف في الأخريين ، قال : ذاك الظن بك يا أبا إسحاق ، فأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلىٰ الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ، ولم يدع مسجداً إلا سأل عنه ، ويثنون عليه معروفًا حتىٰ دخل مسجداً لبني عبس فقام رجل منهم يقال له أسامة بن قتادة يكنىٰ أبا سعدة قال : أمّا إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسرية ، ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية ، قال سعد : أما واللَّه لأدعون بثلاث : اللَّهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة فأطل عمره ، وأطل فقره ، وعرضه بالفتن . قال : وكان بعد إذا سئل يقول : شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد . قال عبد الملك : فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه علىٰ عينيه من الكبر ، وإنه ليتعرض للجواري في الطريق يغمزهن .

* قلتُ : فأنت ترىٰ أن أهل الكوفة جميعًا أثنوا خيراً علىٰ سعد إلا رجلاً واحداً هو الذي قدح في سيرته ، فكان خليقًا أن يهدر عمر رأيه ، ويضرب به عُرض الحائط ، ولكنه لم يفعل ، بل عزل سعداً ، واستعمل عليهم عماراً ، وهذا من دقيق فقه عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ في السياسة ، إذ ما الفائدة من ترك رجل تكلم بعض الناس فيه ، والذين لم يُتكلم فيهم موجودون متوافرون ، وهذه المسألة اجتهادية لا شك في ذلك ، ولكن الإمام لا يدع الريبة تدخل علىٰ الرعية فيفسدوا ، ولم يعزل عمر سعداً لسوء رأيه فيه ، فأخرج البخاري (٧/ ٦١) في قصة مقتل عمر أنه قال في وصيته : «إن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر ، فإني لم

أعزله عن عجز ولا خيانة » . وبهذا الحزم ، وتلك الحكمة مضىٰ عمر -رضي اللَّه عنه- حميد السيرة . حتىٰ قال قائل لعلي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه : لم ثارت الفتن في عصرك وكانت ساكنة في عهد عمر ؟ قال : لأن عمر كان واليًا علىٰ مثلي ، وأنا والٍ علىٰ مثلك . ومن هنا تأتي براعة الترتيب في الحديث ، فالصنف الثاني : «وشاب نشأ في عبادة اللَّه » . فالشباب هم عدة الأمة ، فمنهم الوزراء ، والقادة ، وهم الحشو نعم حشو الأمم الكلام عن هذا الحديث يطول ، **وقد أشبع صاحبنا الشيخ سيد بن حسين العفاني المقام بحثًا وتحريرًا** ، وإن لم يسلم عمله ولا عمل غيره من النقصان ، فتلك شيمة بني آدم .

لكن يبقىٰ شيء لم يتعرض [1] له صاحبنا أحببت أن أفيه ، وهو الرواية التي وقعت في « صحيح مسلم » : «**ورجل تصدق بشماله حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله** » . فهذه الرواية مقلوبة وصوابها : « **ورجل تصدق بيمينه ..** » قد ظن بعض أهل العلم أن هذا الوهم وقع من مسلم ، وليس كذلك .

وقد نقل الحافظ في « الفتح » (٣/ ١٤٦) عن الجوزقي أنه قال : «سمعت أبا حامد بن الشرقي يقول : يحيىٰ القطان عندنا واهم في هذا » . فتعقبه الحافظ بقوله : والجزم بكون يحيىٰ هو الواهم فيه نظر ، لأن الإمام أحمد قد رواه عنه علىٰ الصواب ، وكذلك أخرجه البخاري هنا عن محمد بن بشار ، وفي « الزكاة » عن مسدد ، وكذلك أخرجه الإسماعيلي من طريق يعقوب الدورقي وحفص بن عمر كلهم عن يحيىٰ ، وكأن أبا حامد لما رأىٰ عبد الرحمن قد تابع زهيرًا ترجح أن الوهم من يحيىٰ القطان ، وكذلك قال ابن خزيمة في «صحيحه » ، وبيانه أن أصحاب يحيىٰ القطان اختلفوا عليه في الحرف ، فرواه مسدد وأحمد بن حنبل وعمرو بن علىٰ الفلاس ، ومحمد بن خلاد ويعقوب الدورقي وحفص بن عمر ستتهم عن

(١) ثم أخبرني الشيخ -حفظه اللَّه- أنه تكلم عن هذه المسألة ، وألحقها بالكتاب قبل أن أكتب هذه المقدمة ، فتركتُ البحث علىٰ حاله زيادة في الفائدة . والحمد للَّه .

يحيى القطان بسنده فقالوا : « **حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه** » ورواه زهير بن حرب ومحمد بن المثنى وعبد الرحمن بن بشر بن الحكم ثلاثتهم عن يحيى القطان فرووا اللفظ المقلوب . ورواه محمد بن بشار عنه باللفظين معًا .

فأخرجه البخاري عنه عن القطان على الصواب ، وأخرجه ابن خزيمة عنه عن القطان على القلب ، وقد رواه محمد بن المثني على الصواب أيضًا . فأخرجه البزار في «مسنده» (ج٢ / ق١٥٩ / ١-٢) قال : حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن عليٍّ ، قالا : نا يحيى القطان بسنده سواء بلفظ : « **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه ، أو ما تنفق يمينه**» .

فالحاصل أن محمد بن المثنى ومحمد بن بشار روياه عن يحيى القطان باللفظين معًا فدلَّ ذلك على أن الاختلاف من يحيى دون الرواة عنه ، وهذا هو الصواب الموافق لقواعد المحدثين خلافًا لما ادَّعاه البيهقي أن الاختلاف هو من الرواة عن يحيى . والله أعلم .

أمّا الكتاب ؛ فالله أسأل أن ينفع به مؤلفه وقارئه ، يوم تكون العاقبة فيه للمتقين .

والحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

وكتبه
أبو إسحاق الحويني الأثري
حامدًا الله تعالى ، ومصليًا
على نبينا محمد وآله صحبه
رجب / ١٤١٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم شيخي فضيلة الدكتور أحمد فريد

إنَّ الحمد للَّه تعالىٰ نحمده ، ونستعين به ونستغفره، ونعوذُ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد اللَّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلىٰ اللَّه عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا .

ثم أما بعد

فمن أصول الإيمان الستة الإيمان باليوم الآخر ، والمقصود باليوم الآخر يوم القيامة وما قبله وما بعده ، ما قبله من الموت وحياة البرزخ ، وأشراط القيامة ، وما بعده من دار القرار الجنة والنار .

وقد قدره القرآن وكرر أمور الآخرة علىٰ قلوب المؤمنين حتىٰ يزداد يقينهم وإيمانهم بها ، فكأنهم يرونها رأي العين وحتىٰ لا يقول المؤمن قولاً أو يعمل عملاً وهو يعلم أنه يسود به وجهه يوم القيامة ، فمقتضىٰ الإيمان الصادق أن تكون أقوال العبد وأعماله مما يوافق الإيمان ويرضي الرحمن ، وهي الاستقامة المأمور بها كما قال تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾ [فصلت : ٣٠، ٣١، ٣٢] .

وقال النبي ﷺ : « **قل آمنت باللَّه ثم استقم** »[١] فما أطيبه وأجمعه لخيري الدنيا والآخرة ، وكيف لا يكون كذلك وهو من كلام أفصح من نطق بالضاد وأوتي جوامع الكلم ، مع أنه ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ،

---

(١) رواه الترمذي (٨/ ١٥٥عارضة) البر ، وأحمد (٥/ ١٥٨) . وقال الترمذي : هذا حسن صحيح وحسنه الألباني في « صحيح الترمذي » (١٦١٨) .

وقال : « **نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا وهكذا** » ، ولكن أدَّبه ربه ، وعلمه خالقه ، وجعله نورًا وهدىٰ ، وأهداه إلىٰ البشرية فما فارق الدنيا حتىٰ استضاءت جزيرة العرب بالإسلام ، وجاء نصر اللَّه والفتح ، ودخل الناس في دين اللَّه أفواجًا .

والاستقامة هي التقوىٰ ، والمداومة علىٰ التقوىٰ ، ولما كان الحفاظ علىٰ التقوىٰ والمداومة عليها عزيز فلا يخلو العبد من تقصير وذنوب وعيوب ، أمر اللَّه عز وجل المؤمنين بأن يجمعوا بين الاستقامة والاستغفار فقال : ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: ٦] .

ودل علىٰ هذا المعنىٰ كذلك قوله ﷺ : « **استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن** »(١) .

وقد ذكر اللَّه تعالىٰ يوم القيامة في كتابه وأكثر من أساميه ، لتقف بكثرة أساميه علىٰ كثرة معانيه ، فسمَّاه يوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم ، وكذا لطول القيام فيه للَّه رب العالمين .

وسمّاه يوم التناد ؛ لكثرة المناداة فيه ، فينادي علىٰ الخلائق فردًا فردًا ، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ، وينادي أهل الأعراف علىٰ رجال يعرفونهم بسيماهم .

وسماه يوم التغابن لكثرة المغبونين فيه ، والمغبون هو الذي باع شيئًا بأقل من ثمنه ، أو اشترىٰ شيئًا بأكثر من ثمنه ، وإنما كان ذلك في الدنيا ، ولكن يظهر يوم القيامة مقدار هذا الغبن ، وكثرة المغبونين الذين باعوا نفوسهم بثمن بخسٍ ، وكانوا فيها من الزاهدين .

وهو يوم البطشة الكبرىٰ ، حيث يبطش اللَّه عز وجل فيه بكل الكافرين

---

(١) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٣٤) الطهارة ، بلاغًا ، ورواه ابن ماجه (٢٧٧) الطهارة ، والدارمي (١/ ١٦٨) ، والحاكم (١/ ١٣٠) ، وقال : صحيح علىٰ شرط الشيخين ولست أعرف له علة . وصححه الألباني بطرقه في « الإرواء » رقم (٤١٢) .

والمجرمين والذين يصدون عن سبيل رب العالمين .

وهو يوم الزلزلة لأن الأرض تزلزل فيه زلزالها ، ويوم الصاخّة والطامّة والقارعة والواقعة وغير ذلك مما ثبت بالكتاب العزيز والسنة المشرفة .

وقد أشارت السنة الصحيحة إلىٰ أن الشمس تدنو من العباد يوم القيامة فعن المقداد بن الأسود الكندي ـ رضي اللّٰه عنه ـ قال : سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول : « **إذا كان يوم القيامة أُدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين ، فتصهرهم الشمس فيكونوا فى العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً** »(١) .

وعن عائشة ـ رضي اللّٰه عنها ـ قالت : « يقوم الناس لرب العالمين حتىٰ يغيب أحدهم في رشحه إلىٰ أنصاف أذنيه »(٢) .

فيوم القيامة يوم عسير علىٰ الكافرين غير يسير .

وقد أشارت سنة النبي ﷺ إلىٰ جملة صفات أو هيئات أو أعمال صالحات ، من وفق إليها تشرف بظل عرش اللّٰه يوم القيامة ، وقد تتبع **أخونا الفاضل الداعية الرقيق الدقيق المتفاني سيد بن حسين العفاني** .

صاحب الهمة العالية في الطلب والدعوة والتصنيف مثل هذه الأحاديث الشريفة وطيب بها الأفواه والأسماع والأبصار والقلوب في مصنف سماه : « **ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم اللّٰه** » **وهو كتاب جامع ماتع، وحيد في بابه ، فريد في محرابه** ، وأنفاس أخينا الفاضل تحسها من بين السطور ، وكلماته الرقيقة الدقيقة تجد طريقها سريعًا إلىٰ أغوار الصدور فتضيء حياتها ، وترق بها الأفئدة ، وتعلو بها القلوب ، فتقترب من علام الغيوب وغفار الذنوب ، وتمهد لها طريق التوبة حتىٰ تتوب .

وقد وفق أخونا الفاضل **الشيخ/ سيد حسين** في تصنيف عدة كتب ،

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ١٩٦) « صفة القيامة » ، والترمذي (٩/ ٥٥ ٣عارضة) « الزهد » .

(٢) رواه البخاري (١١/ ٣٩٢) « الرقاق » ، ومسلم (١٧/ ١٩٥) « صفة يوم القيامة » .

وإن شئت قلت مراجع وموسوعات علميه زاخرة بالخير والعلم والبركة ، وقد انتفع الإخوان بكثير من هذه الدرر الفاخرة والمآثر الناضرة ، ومن أنفس هذه الكتب في نظري كتابه الجامع « صلاح الأمة في علو الهمة » . . . ، وإنما يصنف في علو الهمة من كان عالي الهمة ، أما ضعيف الهمة فلا ينبغي له أن يرتقي هذا المرتقىٰ ، ويعلو هذه الهضبة العالية ، والرتبة السامية .

وكذا كتابه « الجزاء من جنس العمل » وفيه من القصص والعبر والمواعظ ما يروق القارئ ويحدو بقلبه وعقله إلىٰ رضا اللَّه الخالق الباري ، وكذا هذا الكتاب الذي نقدم له اليوم « ترطيب الأفواه » وأنا أنصح طلاب العلم من شباب الصحوة الإسلامية باقتناء هذه الكتب ، والانتفاع بها ، والعض عليها بالنواجذ ؛ فإنها جامعة نافعة إن شاء اللَّه تعالىٰ ، فجزىٰ اللَّه مصنفها خير الجزاء ، ورفعنا وإياه بها مع النبين والشهداء ، وأدام اللَّه عز وجل محبتنا فيه ، ونفع بقلمه وما يخرج من فيه ، وكذا سائر الدعاة الكرام علىٰ منهج أهل الحق والسنة ، مصابيح الدجىٰ ، ومنارات الهدىٰ ، وثبتنا وإخواننا المسلمين علىٰ الصراط المستقيم ، وجعلنا من أهل الفوز والسعادة وممن يحوز الحسنىٰ وزيادة ، وصلىٰ اللَّه علىٰ المبعوث رحمة للعالمين ، وقدوة للعاملين ، ومحجة للسالكين ، وحجة علىٰ العباد أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

وكتبه الفقير إلىٰ رحمة ربه

أحمد فريد

عفا اللَّه عنه وعن والديه وعن المسلمين

في الرابع عشر من شهر شعبان ١٤١٩هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة بقلم فضيلة الشيخ محمد حسان

الحمد للَّه الذي أكرمنا بنور العلم المبدد لظلمات الجهالة . وأنقذنا بالوحي من السقوط في دَرْك الضلالة . . وأنعم علينا بإرسال المصطفىٰ إرشاداً للعباد ودلالة .

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . . البشير النذير . . . والسراج المزهر المنير . . . خير الأنبياء مقاماً . . . وأصدقهم كلاماً . . . لبنة تمامهم . . . ومسك ختامهم .

أرسله اللَّه عز وجل والناس صنفان :

مغضوبٌ عليهم جُفاة . . . وضالون غُلاة . . . فجاء بالدين الوسط . . . وحذر من الزيغ والشطط . . . وتركنا علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

اللَّهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين . . . وبعد فإن الأمةَ الآن في أمس الحاجة إلىٰ دُعَاةٍ ربانيين وَحُداةٍ صادقين . . . تتجمع عليهم القلوب . . وتتآلف حولهم النفوس . . . ينطلقون من فهم صحيح للقرآن والسنة . . . بوعي دقيقٍ وإداكٍ عميق . . لإعادة المسلمين من جديد إلىٰ دينهم الحق من ناحية . . ولتبصيرهم وتحذيرهم من المؤامرات الخطيرة التي تحاك لهم في الليل والنهار من ناحية أخرىٰ . . دعاة . . لا يعيشون لأنفسهم وذواتهم . . . بل يعيشون لدعوتهم ودينهم . . . يؤثرون التعب والنصب علىٰ ما يراه الآخرون راحة وسكونًا . . . وكيف يسكنون ويسترحيون وهم يرون دماءَ أمتهم الجريحة تنزف بغزارة في كل مكان ؟!

لذا . . . فالدعوة إلىٰ اللَّه تعالىٰ علىٰ بصيرة . . . هي همهم بالليل والنهار . . . هي فكرهم في النوم واليقظة . . . هي شغلهم في السر والعلن . . . يضحون في سبيلها بالوقت والجهد والمال . ويستعذبون في سبيل إبلاغها كل ابتلاء ، ويخوضون بدعوتهم معركة تلو معركة . . . في

عالم الواقع وعالم الضمير . . . في عالم الواقع مع الشر والباطل والضلال . . . وفي عالم النفس والضمير مع الشهوات والأهواء والشبهات . . . ولا يعرف حجم هذه المعارك إلا من عرف حجم الباطل وقوته من ناحية . . . وحجم التواءات النفس البشرية إذا طال عليها الأمد من ناحية أخرىٰ .

هؤلاء الدعاة الكرام . . . بجدارة . . . هم الحواريون والأنصار لدعوة النبي المختار . . . قال تعالىٰ : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ .

وفي « صحيح مسلم » من حديث عبد اللَّه بن مسعود - رضي اللَّه عنه - أن النبي ﷺ قال : « **ما من نبي بعثه اللَّه فى أمّة قبلي إلا كان له من أُمّته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف . يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبَة خردل** » .

نعم . . . إنهم الناصحون المصلحون المتجردون . . . إنهم الدعون إلىٰ تحرير البشر من عبادة العباد إلىٰ عبادة ربِّ العباد . . . إنهم المنادون بتخليص الأمة من الذل والهوان بالعودة إلىٰ شريعة الرحمن . . إنهم قادةُ سفينة الإنقاذ بقوة وجدارة وسط هذه الرياح الهوجاء والأمواج المتلاطمة العاتية ! !

إنهم الشموع التي تحترق لتضيء للأمة طريق نبيها ﷺ .

إنهم وَعْيُ الأمة المستنير .

إنهم فكر الأمة الحر .

إنهم قلب الأمة النابض بالحياة .

إنهم أطباء القلوب المريضة والنفوس الجريحة .

حقًا . . . ما أحوج الأمة إلى هذا الصنف الكريم من الدعاة في هذا الظرف الحرج !!

وإني لأحسب أن أخي الحبيب الرقيق الدكتور / سيد بن حسين العفاني من هؤلاء المخلصين الصادقين المتجردين ـ أحسبه كذلك ولا أزكيه على اللَّه ـ فهو لا يعرف الكلل ولا الملل . . ويبذل وقته وجهده وفكره وعقله للدعوة إلى اللَّه عز وجل وإلى تذكير الناس بحياة السلف الحافلة العامرة . . . في عصر طغت فيه الماديات والشهوات وانصرف كثيرٌ من الناس عن منهج ربِّ الأرض والسموات يتحرك بهمة عالية ـ ولا شك أن الهمومَ بقدر الهمم ـ

وإن هذا السفر الجليل الذى بين أيدينا لمن أعظم الأدلة على أن اللَّه سبحانه قد تفضل على أخينا المبارك بمعالي الأمور وهمَّة أهل الأجور .

أسأل اللَّه تعالى أن يجعل سعيه مشكوراً وذنبه مغفوراً وأن يجمعنا به وجميع إخواننا وأحبابنا مع هؤلاء السعداء الذين يظلهم ربُّ الأرض والسماء .

فهيَّا ـ أيها الأحبة الكرام ـ لِنُسْعِدَ القلوب ونرطبَ الأفواه بذكر من يظلهم اللَّه ـ جعلنا اللَّه منهم بمنه وكرمه إنه وليُّ ذلك ومولاه ـ **فهو كتاب فريدٌ فى بابه ومحتواه .**

كتابٌ جليلٌ وسفرٌ جميلْ ... عَزيزُ الوجودِ قليلُ المثيلْ
أبانَ بأسلُوبه حكمة ... تُنيرُ الفؤادَ وتُشفي العليلْ
كأنَّ المَطالعَ فى رَوْضَةٍ ... فيها الثمارُ وظلٌّ ظليلْ

أسأل اللَّه أن ينفع به وأن يجعل له القبول . وصلى اللَّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه

أبو أحمد محمد بن حسان

المنصورة / شهر رجب ١٤١٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بقلم فضيلة
الشيخ محمد عبد الحكيم القاضي

حَنَانَيْكَ أيُّها الآخذُ بأزِمَّةِ قلوبنا إلى أكناف العرش ، السائقُ - بلا هوادَةٍ - رغائبنا إلى نور القيامة .

« رُوَيْدَكَ القواريرَ » ؛ قلوبٌ لم تتعوَّدْ صَدْعَ الحقِّ ، في وسط صُدَاع الحياة ، هذه الحياة الماديَّة التي ضربت سُوراً مِنَ الفولاذ بين أرواحنا وبين عالم الخلود ، حَبَسَتْنَا داخِلَ جُلُودنا ، وحجبتنا بغيوم بلادتِنا عن ميدان المشاهَدَةِ ، وغَطَّتْ بصائرنا ، في فظاظة الجلاَّدِين - بعصَابةِ غفلتنا عن : ﴿ **فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير** ﴾ ، حتى لا نُوقَظَ إلاَّ بِحَرٍّ : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ .

« **هُودٌ وأخواتُها** » - أبا سُمَيَّة - تُتْلَى على قلوبنا صباح مساءَ ، كالمقارع فوق جلامِدِ الصَّفَا :

إذا أنتَ لم تَعْشَقْ ، ولم تَدْرِ ما الهوَى
فكُنْ حَجَراً من يابس الصَّخْرِ جَلْمَدا

أتدري لماذا لم تشيبنا هودٌ ، وأَخَوَاتها ؟ لأنَّ مَرَضَ الغَفْلَةَ أصابَ قلوبنا فأَمْرَطَ شعرها ، والقَلْبُ الأصْلَعُ لا يظهر عليه تشيب ، أو شبابَ .

آه من روائح العرش ، ونسمات ظلاله ، تلك التي نستنشقُها من «ترطيب الأفواه» ، إلا أنه ليس تهويمًا حَوْلَ المَعاني المُجَرَّدةِ لحديث السبعة الذي يتململ الآن على أفواه المذكرين والوُعَّاظ ، ويتململ أيضًا على آذانِ القاعدين في مجالس الوَعْظ والتذكير ، وإنما هو رحْلَةٌ داخلَ النفوس المَؤمنة المطمئنة تُصَوِّرُ حناياها ، وتقيس أبعادهَا ، وتُعْطِي تقريراً بالغ الدِّقَّةِ ، والطَّرافةِ معًا حول هُويَّتها وانتمائها .

هذه هي السلفية الحقة . . . كيف تتحول المعاني إلى رجال تمشي على الأرض؟ كيف تتجسَّد القيم ؟

هذه هي السلفية الحقَّة . .

السلفية في حقيقتها هي عملية بعْث مكارم الأخلاق ، وهذا لا يكون إلا إذا صُوِّر في هيئة بشرية ، ذلك أننا نسمع ونقرأ عن مكارم الأخلاق فنشعر ببُعد ما بيننا وبينها ، وكأنما « نتنورَّها من أذرعات ، وأهلها بيثرب » على حد تعبير ذي القروح[1] ، بل هي أبْعد . ولكن حين تُصاغ لنا هذه المكارم في صورة بشر يحملونها بين ضلوعهم ، ويسيرون بها في الناس : ﴿ **نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ أقول : حين تصاغ تلك المكارم بهذه الصورة المركزة التي عودنا عليها د/ **سيد حسين العفاني** ، حينئذ يحدث الاقتراب بيننا وبينها ، بل يحدث التلاحم بين أمانينا الممتدة الأعناق ، وهذه المكارم المُطلَّة من جوارح القوم .

لقد تعوَّدنا من **الأخ الحبيب الدكتور سيد حسين** حين يكتب أن يكشف لنا عن وجه الحبيبة ، أن يُبْدي لنا محاسن الحُبّ ، حين يُظهر لنا ملامح أهلِه ، كيف كانوا يُحبّون ، وكيف كانوا يُقاسون في هذا الحب ، وكيف كانوا يحملون حبهم في قلوبهم جنينًا يحافظون عليه ، وأنغامًا شجِيَّةً يشعر بها - ويسمعها - كل من حولهم ، ثم كل من بعدهم .

هنا تظهر واضحة تقاسيم وجه الإسلام ، ويتحَقَّقُ ما نسميه (التربية بالقُدْوَة) ، إن الإسلام في قيمه يتخطى منزلة (الحقائق المجرَّدة) ويتجاوز مرحلة (المعارِف الجافَّة) ، إلى كونِه (رجالاً تتجسَّد فيهم هذه الحقائق ، وتختال في حركاتهم وسكناتهم هذه المعارف / فحينما نرى مفهوم الإمام العادل قد تحقق في عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - وابن عبد العزيز

---

(١) وهو قوله في لاميته :

تنوَّرتُها من أَذْرَعاتٍ وأهلُها بيثربَ ، أدْنى دارِها نَظَرٌ عالِ

ومحمود بن سبكتكين وألب أرسلان ومحمود زنكي وصلاح الدين وشريح ، وجُميع بن حاضر الباجي والعز بن عبد السلام والمئات من الأسماء ، وحينما نرىٰ مفهوم الشاب الذي نشأ في عبادة اللَّه قد تجسّد في علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وأسامة بن زيد والحسن والحسين ـ رضي اللَّه عنهم أجمعين ـ ومحمد بن القاسم الثقفي ، وأيوب ابن كيسان . . إلخ هذه الأسماء ، وإلىٰ آخر هذه المفاهيم ـ أقول : حينما نرىٰ تحقق مثل هذه المفاهيم وتجسّدها في هذه الأسماء المتزاحمة بل المتدافعة ـ علىٰ صفحات كتاب « ترطيب الأفواه » حينئذ نشعر أنَّ الأمر ليس مجرد (مفهوم) ، وإنما هو (قدوة) .

كان يقال : إن الفلسفة قبل أرسطو كانت في السماء ، فلما جاء أرسطو أنزلها من السماء إلىٰ الأرض . ويمكن أن يقال : إن الوعظ والرقائق في عصرنا الحاضر ما يزال لونًا من ألوان الغرائب ، يضطرك الواعظ إلىٰ الإحساس بأنك تنازل العنقاء ، وتبحث عن الغراب الأبلق ، فإذا بـ **سيد حسين العفاني** يحدُّ من كبرياء هذه المعارف ، ويجعلها واقعًا يمكن محاكاته ، وسلوكًا بشريًا يسهل الاقتداء به . .

صديقي العفّاني الحبيب :

لتكن منك هذه السُّنَّةُ الحسنة ، فأحسبك جديرًا بها ، « عِلْم التوجيه بالقدوة » ، و« علم التربية بالقدوة » ، إشاعة الروح السلفي في الوعظ والتوجيه ، بَعْث القيم من القِمم ، واستدراجها إلىٰ السُّفوح ، إليَّ وإلىٰ أمثالي الكُسالىٰ المغرورين ، عسىٰ أن تنفث فيهم ضياء الحق ، وتبث فيهم دماء الحياة .

محمد عبد الحكيم القاضي

حامدًا ومصليًا

المنيا ـ صفط الخمار

عشية الثالث من شعبان ١٤١٩هـ

ترغيب الدُّعَـــاة

فـــي

« ترطيب الأفـــواه »

لفضيلة الشيخ : محمد عبد الحكيم القاضي

امْنَحِيني يا رياضَ الهِمَمِ ... زَهْرةً يَشْفِي شَذاهـا سَقَمِي
ضَوِّعي مِسْكَ العُلا في أضْلُعِي ... وانشُرِي عَرْفَ التُّقَى في قَلَمِي
قَدْ أَضَعْتُ العُمْرَ في معصيةٍ ... آلَمَتْ نَفْسِي ، أذَلَّتْ شَمَمِي
وأَرِقْتُ اللَّيْلَ ، مَا أَطْوَلَهُ ! ... أتمنَّى لذةً لَمْ تَدُمِ
أينَ طَعْمُ الحقِّ في حَلْقِ الذي ... غُصَّ بالباطلِ حتى المَأْثَمِ ؟
أَينَ ضوءُ الحَقِّ في قلبِ الذي ... أَلْزَمَ القلبَ طريقَ الظُّلَمِ ؟
فتلوَّى بي طريقٌ ضَيِّقٌ ... في متاهاتِ الزَّمانِ المُعْتِمِ
تتحاشى النفسُ فيه نَفْسَها ... فَاحِمِ الأردانِ ، غَثٍّ الجَثْمِ
أَيْنَ مِنِّي إبلٌ غادَرْتُها ... حين غادرتُ استواءَ الحِصْرِمِ ؟
أَيْنَ مني إبِلِي : كَيْفَ سَرَتْ ؟ ... أَيْنَ ضَلَّتْ في سفوحِ الحَشْرَمِ
يا مطايا الشوقِ عُوجِي بِي عَلَى ... غادياتِ البَهْمِ في الشِّعْبِ الهَمِي
وَقِفِي بي عِنْدَ (سَلْمَى) بُرْهَةً ... في مُحَيَّاها أرى مُعْتَصَمِي
جَدِّدي في الشَّوْقِ أشجاني فلي ... عِنْدَهُ أخبارُ صِدْقٍ تَنْتَمِي
غَرَّدَتْ وُرْقِي على أغصانه ... وشَدَتْ لَحْنَ الغرامِ الأكرمِ
وتَهادتْ بي مطاياهُ إلى ... أُفُقِ الحقِّ وَضِيءِ الأَنْجُمِ

تحتَ ظِلِّ العَرْشِ رُوحي سَبَحتْ … بَيْنَ ذرّاتِ الضياءِ الأَعْظَمِ

تحت ظِلِّ العرشِ أَلْقَى أنفُسًا … ما أعزَّ النفسَ بينَ القِمَمِ !!

مِن إمامٍ عادلٍ ؛ إنْ جِئْتَهُ … جئتَ ميزانًا قليلَ اللَّمَمِ

وشبابٍ مُشْرِقٍ في حُبِّه … وافرِ الشوقِ همِّي الدِّيَمِ

مَنْ لقلبٍ ساقَهُ الحَقُّ إلى … ساحهِ الرَّطْبِ ، زَكيِّ الشِّيَمِ

ذاهلٍ عن كلِّ شيءٍ حَوْلَهُ … غيرَ بيتِ اللَّه صلبِ الدَّعَمِ

تَحْتَ ظلِّ العرشِ قَلْبانِ على … وترٍ رَهْفِ المغَنَّى أَهْيَمِ

في رياضِ اللَّه لما اجتمعا … عَرَّفَا السُّحْبَ غُيوثَ المَوْسِمِ

وحَصُورٍ ، زانَهُ استعصامُه … فَلَنِعْمَ العائذ المُسْتَعْصِمِ

عَلَّمَ الخُودَ ـ وقد راوَدْنَهُ ـ … خُلُقَ العفِّ الأَبِيِّ المسلمِ

ورأَتْ نَفْسيَ في تطوافها … تحت ظِلِّ العرشِ حَوْلَ العَلَمِ

مُنْفِقًا سَيْلَ العطايا مُخْفِيًا … راغبًا في الأجرِ عند المُنْعِمِ

مستظلاً في رُبا إحْسَانِه … هل جزاءُ البِرِّ غير الأَنْعُمِ ؟

وحَيِيٍّ مِنْ عُلا خالقه … قد خلا بالنفس كالمُتَّهَمِ

فأدار الفِكْرَ في زلاّته … وأراقَ الدَّمْعَ مُرَّ العَلْقَمِ

ورأَتْ نفسي رجالاً طُيِّبُوا … للقاءِ الحقِّ في اليومِ الظَّمِي

أَنَّت الأشواقُ في أكفانها … ورَبَتْ تَرْغُو بنفسي والدَّمِ

وأَجَلْتُ الطَّرْفَ في واقِعِنا … شاكيًا عَجْزي وضعفَ المعْصَمِ

لَمْ أَزَلْ أسقي عَطاشَى أدمُعي … وأُواسي باشتياقي أَلَمي

وإذا بي شاخصًا عند امرىءٍ … عبقريِّ العِلْمِ فَذِّ القَلَمِ

من (بني عفانَ) يُزجي موْكبًا ... ويَغُذُّ السير نحوَ القِمَمِ
قد أحالَ الفكْرَ فينا واقعًا ... نَيِّرَ الأركان دفَّاقَ الدَّمِ
جَسَّدَ الأخلاقَ في أمَّتنا ... في رجالٍ صَنعوا منْ قِيَمِ
هو ذا [الترطيبُ] يَغْدُو مؤنسًا ... مُوحشَ الدَّرْبِ الكئيب المُعْتمِ
هل تَرَى الأقمارَ من طُرَّته ... برزتْ تَهْدي فؤادَ الأنجُمِ ؟
في رحاب العَرْشِ أعطانا يدًا ... مَنْ يَزِغْ عن كَفِّهَا لا يَسْلَمِ
أنا يا شيخُ أناخَتْ ناقتي ... وتعثَّرْتُ ، وزلَّتْ قَدَمي
فاعتذرْ لي عِنْدَ ربِّي يا أخي ... وارْجُهُ ما عِنْدَهُ من كَرَمِ
أنا لَمْ أَنْشَأْ مُطيعًا ، أو أُفِقْ ... منْ ضلالِ السَّعْيِ قَبْلَ المَنْدَمِ
غير أني ـ والذي تعْبدُه ـ ... آمُلُ العَفْوَ لدى المنتقِمِ
وأرى في وَجْهِه فيضَ النَّدَى ... فهو يأسُو يا صديقي سَقَمي
يا ابن عفان أعِنِّي كَيْ أرَى ... واسْتَعِدْ يا ابنَ حُسَيْنٍ شَمَمي

* * *

أخوك العائذ بالله الفارّ منه إليه

محمد عبد الحكيم القاضي

المنيا ـ صفط الخمّار

ليلة الاثنين ـ ٤ من شعبان ١٤١٩ هـ

مقدمة

لمثل يوم القيامة وحديثه فلنطل البكاء ، هذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه .

قال عمر بن ذر ـ رحمه اللَّه ـ أعَليَّ تحملون جمود أعينكم وقسوة قلوبكم ؟ احملوا العيَّ عليَّ إن لم أسمعكم اليوم واعظًا من كتاب اللَّه عز وجل : ﴿ **أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[(١)] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً** ﴾[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا** ﴾[(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً** ﴾[(٤)] .

فياله من يوم ما أطوله ! . وقال تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾[(٥)] .

وقال تعالى : ﴿ **مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾[(٦)] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى**

---

(١) سورة المطففين الآيات (٤ ، ٥ ، ٦) .
(٢) سورة الإنسان الآية (٢٧) .
(٣) سورة الإنسان الآية (١٠) .
(٤) سورة المعارج الآية (٤ ، ٥) .
(٥) سورة غافر الآية (١٨) .
(٦) سورة إبراهيم الآية (٤٣) .

النَّاس سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾[٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾[٦] .

ياله من يوم ما أهوله... شاب منه سيد البشر ﷺ .

قال ﷺ : « **شيبتني هود وأخواتها** »[٧] .

---

(١) سورة الحج الآية (١ ، ٢) .
(٢) سورة المزمل الآيتان (١٧ ، ١٨) .
(٣) سورة الكهف الآيتان (٤٧ ، ٤٨) .
(٤) سورة النمل الآية (٨٧) .
(٥) سورة الجاثية الآيتان (٢٧ ، ٢٨) .
(٦) سورة المعارج الآيات (٨ : ١٤) .
(٧) صحيح : رواه الطبراني عن عقبة بن عامر و عن أبي جحيفة وصححه الألباني في « صحيح =

وقال ﷺ : « شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت »[١] .

وقال ﷺ : « شيبتني هودٌ وأخواتها قبل المشيب »[٢] .

وقال ﷺ : « من سره أن ينظر إلى القيامة كأنه رأي عينٍ ، فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و﴿ وإذا السماء انفطرت ﴾ ،و﴿ وإذا السماء انشقت ﴾»[٣] .

*** تنمحي فيه علوم الأنبياء وتُدهش عقولهم فلا يدرون بما يجيبون : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾[٤] .**

*** قال الفضيل بن عياض : « لو خُيرّت أن أعيش كلبًا وأموت كلبًا ولا أرى يوم القيامة لا خترت ذلك »[٥] .**

وقال : « ما يسرني أن أعرف الأمر حق معرفته ، إذًا لطاش عقلي»[٦] .

*** وبكى مسعر بن كدام وقال لأمه : « يا أماه لمثل ما نهجم عليه غدًا فنطل البكاء . قالت : وما ذاك ؟ فانتحب فقال : القيامة وما فيها، ثم غلبه البكاء فقام »[٧] .**

كيف أنت إذا سمعت أنك إلى العرض على الملك الأعلى ، أفلا يطير

= الجامع » رقم (٣٦١٤) و« الأحاديث الصحيحة » رقم (٩٥٣) .

(١) صحيح : رواه الترمذي والحاكم في « المستدرك » عن ابن عباس ، ورواه أيضًا الحاكم في «المستدرك» ، عن أبي بكر ، وابن مردويه ، عن سعد وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦١٧) .

(٢) صحيح : رواه ابن مردويه ، عن أبي بكر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦١٥) .

(٣) صحيح : رواه أحمد في «المسند » والترمذي والحاكم في « المستدرك » ، عن ابن عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦١٦٩) ، و« الصحيحة » رقم (١٠٨١) .

(٤) سورة المائدة الآية (١٠٩) .

(٥) « سير أعلام النبلاء » .

(٦) « سير أعلام النبلاء » .

(٧) « صفة الصفوة » لابن الجوزي (٣/ ١٣٠) دار المعرفة - بيروت .

فؤادك ويشيب رأسك للنداء ؟

توهم نفسك بعُريك ومذلتك ، وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك ، وهمومك في زحمة الخلائق ، عراة حفاة ، وهم صموت ، أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة .

قال ﷺ : « **تحشرون حفاة عراة غرلا** »(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا** ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** ﴾(٣) .

* أقبلت الوحوش من البراري وذرىٰ الجبال ، منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ، ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ، ولا خطية أصابتها .

* وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها ، خاشعة لذل العرض علىٰ اللَّه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء ، وأختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض ، قد أذلهم البعث ، وجمع بينهم النشور .

* وتوهم ملائكة السموات قد انحدروا محشورين إلىٰ الأرض للعرض والحساب ، بعظم أجسامهم وأخطارهم ، وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلىٰ الذي أنزلهم محشورين إلىٰ الأرض بالذلة والمسكنة والعرض عليه والسؤال بين يديه .

* فتوهمهم ، وقد تسربلوا بأجنحتهم ، ونكّسوا رؤوسهم في عظم

---

(١) رواه البخاري عن عائشة ، والترمذي والحاكم في « المستدرك » ، عن ابن عباس .
(٢) سورة النبأ الآية (٣٨) .
(٣) سورة هود الآية (١٠٥) .

خلقهم بالذلة والمسكنة والخشوع لربهم ، كل أهل السماء محدقين بالخلائق صفًا واحدًا .

فياطول حزننا وغمنا ويا طول جهدنا وكمدنا ، إن كان اللَّه قد قطع ما بينه وبيننا فواللَّه ما أنصب العباد وأضناهم إلا ذكر المقام ، وخوف الحساب وحر يوم القيامة بطوله ، وروعة النداء بالعرض على اللَّه .

* ولم لا تذوب أبدان العباد والزهاد والخدام فزعًا ، والقيامة أمامهم ، وفي العرصات مقامهم ، وعلى الصراط جوازهم ، ولهم في يوم ما قد عملوا ؟ ! فمن لنا في ذلك الموقف ، من لتحيرنا وتلددنا ، ولجوعنا وعطشنا ؟ ! فواطول وقفتاه ؟ واتحيراه ! وآثقل ظهراه من حمل الذنوب والمظالم والخطايا وأوساخ العيوب ، أوه من حملها ! أوه من ذكرها ! أوه من ثقلها ! أوه من إقراري بها .

* قطع ذكر يوم العرض على اللَّه أوصال المحبين .

قال ابن مسعود : « إن هاهنا رجلاً ود لو أنها قامت ألا يبعث » ، يعني القيامة .

قال الحسن : يحق لمن يعلم أن الموت مورده ، وأن الساعة موعده ، وأن القيام بين يدي اللَّه تعالى مشهده أن يطول حزنه .

وسفيان الثوري : كان إذا أخذ في ذكر الآخرة يبول الدم[1] .

وقال الفضيل : ما أغبط ملكًا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلاً يعاين القيامة وأهوالها ، ما أغبط إلا من لم يكن شيئًا .

---

(١) في « السير » (٧/ ٢٤٢) .

وعلي بن الفضيل يموت من آية : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) .

قال بهز بن حكيم : أمَّنا زرارة بن أوفى في مسجد بني قشير ، فقرأ المدثر ، فلما انتهى إلى هذه الآية : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾(٢) ، فخرّ ميّتًا(٣) .

« وعبد اللَّه بن وهب قرئ عليه كتاب أهوال القيامة « تأليفه » ، فخرّ مغشيًا عليه ، فلم يتكلم بكلمة ، حتى مات بعد أيام »(٤) .

« وكان عبد العزيز بن سليمان إذا ذكر القيامة صرخ كما تصرخ الثكلى ، ويصرخ الخائفون من جوانب المسجد ، وربما رفع الميت والميّتان من جوانب مجلسه »(٥) .

« وبشر بن منصور - رحمه اللَّه - يقول : إني لأذكر الشيء من أمر الدنيا ، ألهي به نفسي عن ذكر الآخرة ، أخاف على عقلي »(٦) .

« ويحيى البكاء قرئ عنده : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ... ﴾(٧) .

فصاح صيحة مكث منها مريضًا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة »(٨) .

أخي : إن حضر قلبك فهجير الشمس في الدنيا يذكرك إن كنت لا تستطيعه

---

(١) سورة الأنعام الآية (٢٧) .

(٢) سورة المدثر الآية (٨) .

(٣) أحمد في « الزهد » ، وابن سعد في « الطبقات » ، وابن نعيم في « الحلية » ، وابن الجوزي في «صفة الصفوة» ، والذهبي في « السير » (٤/ ٥١٦) ، وقال : صحّ .

(٤) « السير » (٩/ ٢٢٦) ، و« الانتقام » لابن عبد البر (ص٤٩) .

(٥) « الحلية » (٦/ ٢٤٣) ، و« صفة الصفوة » (٣/ ٣٧٧) .

(٦) « روضة الزاهدين » (ص٣٢) .

(٧) سورة الأنعام الآية (٣٠) .

(٨) « الإحياء » (٤/ ١٩٤) .

في دار الدنيا فكيف تصبر على حرها يوم القيامة . . . إذا كان يوم القيامة كسيت الشمس حر عشر سنين ، وأدنيت من رؤوس الخلائق فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضحوّ بحرّ الشمس ، قد صهرته بحرها ، واشتد كربه وقلبه من وهجها ، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت ، فيدفع بعضهم بعضًا ، وتضايقت ، فاختلفت الأقدام ، وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حر الشمس ووهج أنفاس الخلائق ، وتزاحمُ أجسامهم ، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض على الأبدان ، على مقدار مراتبهم ومنازلهم عند اللَّه عز وجل بالشقاء .

وأنت لا محالة أحدهم فيالكربك وقد علاك العرق ، وأطبق عليك الغم ، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب ، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو دار الشقاء ﴿ **ويوم تقوم الساعة يؤمئذ يتفرقون** ﴾ .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قيد ميل أواثنين ، فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه** [(١)] **ومنهم من يلجمه**[(٢)] **إلجامًا** »[(٣)] .

وعن سليم بن عامر ، عن المقداد بن الأسود - رضي اللَّه عنه - قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم**

---

(١) موضع شد الأزار .

(٢) المراد : يبلغ العرق فمه .

(٣) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » ، والترمذي عن المقداد ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٨٩) .

كمقدار ميل » ، قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل : أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين ؟ قال : « **فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمهم العرق إلجامًا** » ، قال وأشار رسول الله بيده إلى فيه»(١) .

وقال رسول الله ﷺ : « **يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا أو يلجمهم حتى يبلغ آذانهم** »(٢) .

وقال رسول الله : « **إن العرق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعًا وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم** »(٣) .

عن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ قال : « **يقوم أحدهم في رشحه إلى نصف أذنيه** »(٤) .

وعن عبد العزيز العطار ، عن أنس بن مالك ـ لا أعلمه إلا رفعه ـ قال : «**لم يلق ابن آدم شيئًا منذ خلقه الله عز وجل أشد عليه من الموت ، ثم الموت أهون مما بعده ، وإنهم ليلقون من هول ذلك اليوم شدة حتى يلجمهم العرق ، حتى إن السفن لو أجريت فيه لجرت** »(٥) .

أخي : أحدنا يؤثر الظل على الشمس في دار الدنيا فكيف لا نؤثر ظل عرش

---

(١) رواه مسلم عن المقداد بن الأسود .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه البخاري والترمذي وقال : حديث صحيح مرفوعًا وموقوفًا .

(٥) إسناده جيد : قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٣٣٤) : رواه الطبراني في « الأوسط » وإسناده جيد ورواه أحمد باختصار عنه ولم يشك في رفعه وإسناده جيد .

الرحمن . . . . كيف إذا آواك الودود إلى ظله . . . فواللّه لو مات إنسان من شدة الفرح لمت . . . حين ترجو هذا وأنت في دار الدنيا فكيف إذا أتاك اليقين يوم القيامة بأنك ممن يظلهم اللّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؟ .

إذا أتاك اليقين أنك من الذين شملتهم العناية والرعاية ، فلا يحزنهم الفزع الأكبر ﴿ **وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ حتى يُقضى بين الخلائق ، ولا يعتريهم حزن ولا يتنابهم خوف .

« إنها أعلى منزلة بعد الوسيلة لرسول اللّه ﷺ ، وشفاعة الأنبياء في إممهم »[1] .

والحمد للّه أن هؤلاء الذين يظلهم اللّه في ظله زادوا على السبعة ، كثيراً فاحرص على أن تكون منهم سواءً من جهة أو جهتين أو أكثر .

أنت القتيل بكل من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

وثامِن بنفسك النفيسة لا تبعها بالغبن ، وقدّم لنفسك ليوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب .

أخي : أحدنا يؤثر الظل على الشمس في دار الدنيا أفلا نؤثر ظل عرش الرحمن والقرب منه على شمس تطحن الناس طحنا ، لم نرحم من أنفسنا ما نرحم من غيرنا إذا رأينا رجلاً يسير في الهجير قلنا : ألا ترحم نفسك . . .

فرحمة بنفسك أخي . . . وقربا من الظلال . . . . ظلال العرش

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » لعطية محمد سالم (ص٥٩) .

يا عــرشُ تحـت ظلـك الحبيـــب   يا ليـت لي فـي الظـــل من نصيــب

اللَّهم اجعلنا منهم ، ولا تحرمنا أجر الدلالة على فضلهم .

وآخر دعوانا أن الحمد رب العالمين .

* * *

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

السيد بن حسين العفاني

ليلة الجمعة ١٣ ربيع الثاني

محافظة بني سويف ـ مدينة بني سويف

صندوق بريد ١٢٣

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، عن النبي ﷺ أنه قال :

« سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظله إلا ظله :

إمام عادل .

وشاب نشأ في عبادة الله .

ورجل قلبه معلق بالمساجد .

ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه ، وتفرّقا عليه .

ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله .

ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه.

ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه .

وقفة مع حديث السبعة ومعناه الإجمالي

أحسن حديث في فضائل الأعمال وأعمها وأصحها

منزلة هذا الحديث عند العلماء عظيمة .

قال الذهبي في « العلو » : « وقد ورد في ظل العرش أحاديث تبلغ التواتر »[1] .

وقال ابن عبد البر في « التمهيد » : « هذا أحسن حديث يروىٰ في فضائل الأعمال وأعمها وأصحها إن شاء اللَّه ، وحسبك به فضلاً ؛ لأن العلم محيط بأن كل من كان في ظل اللَّه يوم القيامة لم ينله هول الموقف . . . » إلىٰ أن قال : « وفي فضل الإمام العادل ، وفضل الشاب الناسك ، وفضل المشي إلىٰ المسجد والصلاة فيه ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وفي المتحابين في اللَّه ، وفي البغض في اللَّه والحب في اللَّه ، وفي العين الباكية من خوف اللَّه مع قول اللَّه : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ ، وفي العفة وفضلها ، وفي ذم الزنا وأنه من الكبائر وما انضاف إلىٰ هذا المعنىٰ من قصة ذي الكفل ، وفي فضل الصدقة في السر مع قول اللَّه عز وجل : ﴿ **وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** ﴾ ، وفي تضعيف اللَّه الصدقة المقبولة من الكسب الطيب إلىٰ سائر ما ينتظم بهذه المعاني آثار كثيرة جداً تحتمل أن يفرد لها كتاب ، فضلاً عن أن ترسل في باب ، ومن طلب

---

(١) « مختصر العلو » للذهبي ـ اختصار الألباني (ص١٠٥) طبع المكتب الإسلامي ـ طبع وزارة الأوقاف المغربية .

العلم للَّه فالقليل يكفيه إن شاء اللَّه وباللَّه التوفيق »[١] .

قال الشيخ عطية محمد سالم : « وهو كما قال ـ رحمه اللَّه ـ : تحتمل معانيه أن تُفرد في كتاب ، وقد أفردت بالفعل ، ولكن كل التآليف التي أفردت لهذا الحديث تتجه إلى العدد ، وتضيف أصنافًا أُخَر . . .

إن تلك التآليف لم تتوسع في بيان المعاني التي قال فيها ابن عبد البر إنها تحتمل كتابًا ، أي : لسعة مدلولاتها ، ووفرة معانيها ، وشمولها لجوانب المجتمع الإسلامي ، وحكمة التشريع ، وقوة التأثير في الفرد ومن ثم في الجماعة . . . ثم عوامل تكوين الإنسان التي استطاع بها أن يكتسب هذه الصفة أو تلك ، إذْ أنها كلها صفات مثالية كاملة لا تُنال إلا بجهد وجهاد .

وكيف نربي عليها الإنسان المسلم من شبابه إلى إمامته ، وما بين ذلك من عدل ، وتقى وعفة وتعاون ، وتحابب وذكر اللَّه تعالى ، إلى غير ذلك من أعطيات هذا الحديث أسلوبًا وموضوعًا »[٢] .

شمول الحديث واستيعابه :

يلحظ المتأمل في هذا الحديث من جهة الشمول والاستيعاب : أنه اشتمل أطراف المجتمع الإسلامي من الإمام في عدالته وعدله ، والشباب في نشأتهم ، والأفراد في ترابطهم ، والجنسين في تعففهم ، والطبقات الغنية والفقيرة في تقاربهم ، وأعمال الدنيا والدين في ذكرهم للَّه وعدم غفلتهم .

انتظم أصنافًا متفاوته ، من قمة المجتمع إلى قاعدته . . . رجل في

(١) « التمهيد » لابن عبد البر (٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤) .
(٢) في « ظلال عرش الرحمن » (ص٢٧ ـ ٢٨) .

نفسه لا يعلم به أحد إلا اللَّه يذكر اللَّه خاليًا حتىٰ تفيض عيناه .

المعاني المشتركة بين الأجناس السبعة :

قال الشيخ عطية محمد سالم : « من مبادئ البلاغة والعادة : أنه لا تورد متعددات إلا مع التجانس ، لحسن النسق وجمال التنسيق ، كلبنات الجوار ، وحبّات العقد ، وكذلك الكلام والبلاغة النبوية : هي الذروة والقمة ، وقد أعطىٰ ﷺ جوامع الكلم ، وكذلك مجامع الحكم .

فكما أن أسلوب الحديث النبوي مُبَرّأ من تنافر الكلمات ، ونشاز العبارات ، فكذلك في المعاني .

فإيراد هذه الأصناف السبعة في أسلوب واحد ، مع تفاوتها في مواضيعها ، وبُعد ما بين بعضها البعض ، لابدّ أن فيها ما يربط بعضها ببعض من معنىٰ شامل ، يسوغ نظمها في إيرادها لما تقتضيه البلاغة النبوية العالية ، ويستوجبه خلو الحديث النبوي من النشز والتنافر .

وقد أعطىٰ في ذلك ما لم يُعْطه أحد ، وهو ﷺ أفصح العرب والعجم ، مما يدعونا إلىٰ تأملها بعين تتطلع إلىٰ ما يقال له : فائدة الخبر لازم الفائدة ، وهو أبعد غايات البلاغة »[1] .

أولاً : الرغبة والرهبة في اللَّه ومن اللَّه :

ثانيًا : مراقبة اللَّه والإخفاء عن الناس :

وإن كان بعض الصور تبدو ظاهرة محسوسة ، إلا أنه مرتبط بعنصر الإخفاء حتىٰ لتكاد تكون من باب واحد ، وهو مراقبة اللَّه ، والخوف منه ، وإيداع ودائع السر عند اللَّه لسان حالهم : ضع كنزك عند من لا يضيّعه .

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٥٩ ـ ٦٠) .

الإمام العدل والعادل :

فأما الإمام العدل والعادل ، فعدالته لم تتحقق إلا بتقوىٰ من اللَّه ، وأما عدله فلا يكون إلا خوفًا من اللَّه من مظالم العباد ، أو رجاءً فيما عند اللَّه من دوام ولايته .

ومعلوم أنه لا سلطان عليه من الرعية ، وإنما حقيقة السلطان عليه هو اللَّه - ومن ناحية أخرىٰ لا يطّلع علىٰ حقيقة عدله إلا اللَّه ، فكم يعطي ويمنع ويدني ويقضي ويكرم ويهين ، ولكم يعمل سراً وخفية ، وكل ذلك لا يطّلع عليه إلا اللَّه سبحانه ، وقد يوقع ما قد يُستنكر منه فيتعلل أنه للصالح العام ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾[1] .

والشاب الناشئ في عبادة اللَّه :

هو لا يرجو ولا يرهب إلا جناب اللَّه، ثم إنه لا يطلع علىٰ حقيقة عبادته وسر إخلاصه إلا اللَّه ، ولا يراه دائمًا في خلوته وجلوته ، وسره وجهره إلا اللَّه سبحانه وتعالىٰ .

والرجل المعلق قلبه في المساجد :

لم يتعلق قلبه به لدنيا يصيبها ، ولا لامرأة يتزوجها ، ولا لجاه يحصل عليه ، وإنما رغبة ورهبة للَّه ، وفي اللَّه لَمّا تذوّق من حلاوة المناجاة للَّه في بيت اللَّه .

ومن السر النبوي هنا : أنه أسند التعلق لقلبه لا لجسمه ، ولا لنظره ، لأن حلاوة الإيمان محلها القلب ، وأقوىٰ مؤثر في ذلك هي الصلاة ، كما جاء عنه ﷺ : « **وجعلت قرة عيني في الصلاة** » .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٢٠) .

وأما المتحابون في اللَّه :

أي لا مال بينهم ، ولا نسب يربطهم ، ولا رحم يجمعهم ، ولا على مصالح تدفعهم ، إنما هو للَّه ، وفي ذات اللَّه ، وكذلك لا يعلم حقيقة نصح كل منهما الآخر إلا اللَّه ، فإذا اجتمعا كان للَّه وإذا افترقا كان للَّه ، أي لما يقع من أحدهم ما لا يرضي اللَّه ، فارتباطهم حقا في ذات اللَّه .

والمتصدّق في الخفاء :

تغلّب على شُحّ نفسه في ماله ، وتخطّى حب الثناء وطبيعة حب المدح ، فغالب في نفسه غريزتين : غريزة الشح الحاضرة في الأنفس ، وغريزة حب الثناء المجبولة عليها النفوس .

وبذل المال في قانون الحياة لا يكون إلا بمعاوضة إلا في الصدقة ، فالمعاوضة فيها معدومة ، بل العوض منتظر من اللَّه ، فالإخفاء ركنها الأكبر ، والرغبة فيما عند اللَّه الدافع الأول ، فإخفاؤها يُطهّرها من شائبة الرياء ، وهذا نهاية إرادة وجه اللَّه .

وأما الباكي من خشية اللَّه :

فإن عنصر الإخفاء في نص قوله ﷺ : « **ذكر الله خاليًا** » أي خاليًا عن الناس وفي خلوة وحده ـ أو خاليًا قلبه من الشواغل فسواء ، وكذلك عنصر الخوف ، وهل أبكاه إلا خوفه من اللَّه ؟ إما من ماضٍ أساء فيه ، أو مستقبل لا يعلم ما اللَّه فاعل به ﴿ **وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ** ﴾[1] [2] .

* * *

(1) سورة المعارج الآية (27) .

(2) « في ظلال عرش الرحمن » (ص60 ـ 61) .

المعنى الثالث : ارتباط هذه الأجناس بعضها ببعض ، وتأثير بعضها في بعض .

ولا سيما في النَّسق الذي أورده البخاري ـ رحمه اللَّه ـ في بعض رواياته ، فقد اتفق الرواة في ترتيب الأصناف الثلاثة الأولى : إمام عادل ، شاب نشأ في عبادة اللَّه ، رجل قلبه معلق بالمساجد ، وإن اختلفوا في التقديم والتأخير في البقية فعلى بعض روايات البخاري ، ورجلان تحابا في اللَّه ، ورجل دعته امرأة ، ورجل تصدّق ، ورجل ذكر اللَّه .

وبتأمل هذا الترتيب ، نجد تلك الأصناف بعضها مع بعض ، بمثابة المقدمات والنتائج والأسباب ومسبباتها ، والآثار ومؤثراتها ، فما يشهد حقًا بأن كل متعددات في الحديث النبوي مترابطة المعاني وإن اختلفت المباني .

• فالإمام العادل سيقيم مجتمعًا فاضلاً ولا سيما وهو في ذاته عدل أي مستقيم آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر مقيمًا للصلاة ، ومؤتيا للزكاة ، ومن الأمر بالمعروف : إقامة محاسن التشريع ، ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود ، سيكون مجتمعه حقًا فاضلاً تنشأ فيه النشأة ، ويشب فيه الشباب على هذا المنهج في عبادة اللَّه .

• ومن أخص تلك النشأة ارتياد المساجد ، حفاظًا على الصلوات في الجماعة ، ومن كان هذا حاله من أول نشأته ، لا شك أنه سيتعلق قلبه بالمساجد ، ومن تعلق قلبه بالمساجد داوم على ارتيادها ، وكان من لوازم ذلك التعارف على المصلين ومحبتهم والشعور بالإخاء معهم ، فينتج قطعًا التحاب في اللَّه ، لأنهم جميعًا مثله ما جاؤوا إلى المساجد إلا لما جاء هو إليه ، وهو ابتغاء وجه اللَّه ، وإلى هنا قوى وجه هذا الارتباط ، وظهر مدى هذا التأثير في تكوين أفراد المجتمع .

• أمّا من دعته امرأة فتعفف عنها ، فإن عفّته عنها لم تأت عفواً بل بعد مغالبة الغريزة والفطرة ولا يغلب الغرائز إلا ما كان أقوىٰ منها ، ولا يكون إلا الإيمان بالله ، والخوف من الله ، ولا يورّث هذا إلا تلك الصلوات في تلك المساجد ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[1] .

• وكذلك إخراج المال في غير معاوضه ، وتخّطي غريزة الشح ، وجبلة حب الثناء كان من تلك المؤثرات ، ومن قوىٰ علىٰ مغالبة الغريزة الجنسية فهو علىٰ غيرها أقوىٰ ، وهل من يستطيع ذلك كله يكون غافلاً عن ذكر الله في السر والعلانية ؟ لا ، وكلا ، وهكذا فكل صفة في صنف تؤثر في الصنف الذي يليها »[2] .

المعنى الرابع : اشتراكهم في مخالفة هواهم :

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « إنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوىٰ ،

• فإن الإمام المسلّط القادر لايتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه .

• والشباب المؤثر لعبادة الله علىٰ داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر علىٰ ذلك .

• والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله علىٰ ذلك مخالفة الهوىٰ الداعي له إلىٰ أماكن اللذات .

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٥) .

(٢) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٦٢ ـ ٦٣) .

• والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله لو لا قهره لهواه لم يقدر على ذلك .

• والذي دعته المرأة الجميلة الشريفة فخاف اللَّه عزَّ وجلَّ وخالف هواه .

• والذي ذكر اللَّه عز وجل خاليًا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه ، فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدَّته سبيل عليهم يوم القيامة .

الجزاء من جنس العمل في هذا الحديث :

قاعدة « الجزاء من جنس العمل » متحققة في هذا الحديث : -

بحيث أن اللَّه سبحانه نظر إلى هذه الأصناف وقد جمعت بين الخوف من اللَّه وإخفاء العمل رجاءً فيما عند اللَّه .

وأنه سبحانه أمّنهم يوم الفزع الأكبر فقابل خوفهم بالأمن ، وقد جاء الأثر : « إني لا أجمع على عبدي خوفين أو أمنين ، فمن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة . . . » الحديث .

ولمّا كانوا مخلصين إليه العمل وكانت أعمالهم خفيّة تولّى سبحانه جزاءهم في الآخرة ، فآواهم إلى ظله وظل عرشه ، كما جاء في الصوم إذ قال عنه : « فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشرابه من أجلي . . . » .

وهكذا هؤلاء أقوام أتوْا وتركوا ما تركوا من أجله هو سبحانه ، جعلنا اللَّه تعالى منهم وحشرنا معهم »[1] .

* * *

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٦٣) .

قوله ﷺ : « ســــــبعة ...

الكلام على العدد ســـبعة

قال الشيخ عطية محمد سالم :

أولاً : عند علماء الحساب :

قال صاحب « العذب الفائض في علم الفرائض » ما ملخصه :

أن الأعداد بعد السبعة مكررة المكرر ، وأن نهاية العدد حقيقة هو العدد سبعة ، كما يقول الجميع بأن المائة تكرار العشرة ، والألف تكرار المائة وهكذا .

وبيان ذلك على حد قولهم : أن كلا من الأعداد واحد واثنين وثلاثة أعداداً أولية أي ليست مركبة من مكرر بناءً على أن الواحد ليس داخلاً في العدد ، وأن ابتداء العد من اثنين .

ثم تأتي الأربعة مجموع الاثنين ، والخمسة مجموع الاثنين والثلاثة ، والستة مجموع الثلاثة مرتين ، والسبعة مجموع الثلاثة والأربعة .

وما فوق السبعة ففيها تكرار المكرر ، وتكرار المكرر لا نهاية له ، فالثمانية تكرار الاثنين أربع مرات ، ولوقيل : هي مجموع الأربعة مرتين ، لقيل : إن الأربعة نفسها تكرار الاثنين ، فلا تخرج عن تكرارالمكرر .

والتسعة تكرار المكرر الذي هو الثلاثة ثلاث مرات .

والعشرة تكرار الاثنين خمس مرات .

● قال ابن القيم في « زاد المعاد » (٣/ ٢٠٠) : « والسبعة جمعت معاني العدد كله وخواصه » وعلى هذا يكون العدد سبعة هو النهاية للعدد ، وما بعده يكون تكرار المكرر إلى المئات والآلاف وما فوقها .

ولعلّ في هذا نوع بيان لذكر هذا العدد في أمور عديدة ونصوص متعدده على ما سيأتي إن شاء اللّه .

دخول هذا العدد (٧) فى عدة مجالات :

وقد تكلم ابن القيم ـ رحمه اللّه ـ في « زاد المعاد » (٣/ ٢٠٠) كلامًا لطيفًا نورده ، ثم نعقِّب عليه بما لم يذكره ، مع بعض التنبيهات على الربط بين كون هذا العدد نهاية العدد ، وما ورد فيها من نهاية جنسه .

قال ابن القيم ـ رحمه اللّه ـ ما نصه :

أما خاصية السبع فإنها قد وقعت قدراً وشرعًا ، فخلق اللّه عز وجل السماوات سبعًا ، والأرضين سبعًا ، والأيام سبعًا ، والإنسان كمل خلقه في سبعه أطوار ، وشرع اللّه سبحانه لعباده الطواف بالبيت سبعًا ، والسعي بين الصفا والمروة سبعًا ، ورمي الجمار سبعًا سبعًا ، وتكبيرات العيدين سبعًا في الأولى ، وقال ﷺ : « **مروا أبناءكم بالصلاة لسبع ...** » .

وإذا صار الغلام سبعًا خيّر بين أبويه .

وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يُصَبَّ عليه من سبع قرب .

• وسخر اللّه الريح على قوم عاد سبع ليال ، ودعا النبي ﷺ أن يعينه على قومه بسبع كسبع يوسف .

• ومثّل اللّه سبحانه ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة .

• والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبعًا ، والسنين التي زرعوها دَأبًا سبعًا ، والبقرات السمان والعجاف سبع ، وتضاعف الصدقة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفًا .

• فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره ، والسبع جمعت معاني العدد كله وخواصه ، فإن العدد شفع ووتر ، والشفع أول وثان ، والوتر كذلك ، فهذه أربع مراتب : شفع أول وثان ، ووتر أول وثان ، ولا تجتمع هذه المراتب من أقل من سبعة ، وهي عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة أعني الشفع والوتر ، والأوائل والثواني ، ونعني بالوتر الأول : الثلاثة ؟ وبالثاني : الخمسة ، وبالشفع الأول : الاثنين ، وبالثاني : الأربعة .

• وللأطباء اعتناء عظيم بالسبعة ، ولا سيما في البحارين ، وقد قال بقراط : كل شيء من هذا العالم فهو مقدر على سبعة أجزاء .

• والنجوم سبعة ، والأيام سبعة ، وأسنان الإنسان « سبعة » . . . ولا يخفى أنه لم يذكر حديث « **سبعة يظلهم الله** ... » لأن ما ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ إنما هو من قبيل الأمثلة لا الاستقصاء وإلا ففي كل باب ذكره ، أو أكثرها توجد سبعات أخرى نسوق أهمها مع التنبيه على ما أشرنا من ارتباط بين العدد والمعدود كالآتي :ـ

أولاً : وأهمها السبع المثاني والتي هي أم الكتاب فهي متناسبة مع السبعة أم العدد .

ثانياً : أنزل القرآن على سبعة أحرف وهو الإمام والمرجع .

ثالثًا : ليلة القدر وهي أم الليالي في سبعة وعشرين أو كما قال ابن عباس : لسبع بقين أو لسبع خلون .

وخلق الإنسان على أطوار سبع ، وغذاؤه من سبع ، (راجع ابن كثير) .

رابعًا : صلاة الجماعة وهي عماد الدين تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة .

خامساً : أعضاء السجود التي تخشع للّه سبع .

سادساً : البدنة عن سبعة ، والبدنة هي النهاية في أجسام بهيمة الأنعام .

سابعًا : يبعث في آخر كل سبع أمم نبي .

ثامنًا : أنتم توفون سبعين أمة .

تاسعًا : المهدي يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً ، نهاية العدل والأمن .

عاشراً : الكافر يأكل في سبعة أمعاء .

أحد عشر : صيام بعض أيام عوض دم الهدي (وسبعة إذا رجعتم) .

اثنا عشر : المقام عند البكر سبع .

ثلاثة عشر : العقيقة بعد سبع ، قالوا : لا ستكمال الدورة الزمنية أسبوعًا .

أربعة عشر : العادة عند الالتباس بالحيضة سبعة أيام .

خمسة عشر : « الأخذ من سبعة آبار » ، وفد موسى (٧٠) رجلاً .

ستة عشر: تسبيع الإناء من ولوغ الكلب .

سبعة عشر : « هذا العود الهندي فيه سبعة أشفية » .

ثمانية عشر : « بادروا بالأعمال سبعًا » .

تسعة عشر : « أمر النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع .

عشرون : « **اجتنبوا السبع الموبقات** » .

واحد وعشرون : الأعمال عند اللَّه سبع .

اثنان وعشرون : ﴿ **وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ** ﴾[1] .

---

(١) سورة لقمان الآية (٢٧) .

هذا إيراد ما تيسّر على سبيل الإجمال ، وإليك إيراد تفصيل الأربعة الأخيرة .

(أ) « **بادروا بالأعمال سبعاً : هل تنظرون إلا فقرا منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرمًا مفقداً ، أو موتًا مجهزاً ، أو الدجال فشرّ غائب يُنتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمرّ** » رواه الترمذي وقال : غريب حسن[١] ، « تحفة الأحوذي » (٦/ ٢٩٥) .

(ب) « **وأمرنا بسبع** » حديث البراء : أمرنا النبي ﷺ بسبع ونهانا عن سبع : أمرنا باتباع الجنائز ، وعيادة المريض ، وإجابة الداعي ، ونصر المظلوم ، وإبرار القسم ، ورد السلام ، وتشميت العاطس ، ونهانا عن آنية الفضة ، وخاتم الذهب ، والحرير والديباج ، والقَسِيّ ، والاستبرق » رواه البخاري في كتاب الجنائز .

(جـ) « **اجتنبوا السبع الموبقات** » : الشرك باللَّه ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم اللَّه إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات من المؤمنات الغافلات .

(د) « **والأعمال عند اللَّه سبع** » : عملان موجبان وعملان بمثلهما ، وعمل بعشر ، وعمل بسبعمائة وعمل لايعلم قدره إلا اللَّه ، فأما العملان الموجبان : فالإشراك باللَّه موجب النار ، والإيمان موجب الجنة والعملان بمثلهما ، منّ هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن همّ بسيئة فعملها كتب سيئة واحدة وأما العمل بعشر فالحسنة بعشر أمثالها ، وأما العمل بسبعمائة فالدرهم في سبيل اللَّه ، وأما العمل الذي

---

(١) ضعّفه الألباني في تحقيق « رياض الصالحين » .

لا يقدر قدره إلا اللَّه فالصوم .

هذا ما أصبنا إيراده وإلا ففي كتب الحديث من ذلك كثير .

المراد بالسبعة :

قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٧٣) :

« ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له ، بل يشترك النساء معهم فيما ذكر ، إلا إن كان المراد بالإمام العادل الإمامة العظمى ، وإلا فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم ، وتخرج خصلة ملازمة المسجد لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد ، وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لهن » .

● قال الزرقاني : سبعة من الأشخاص ، ولم يقدر غيره شيئًا .

● وقال أبو عبيد اللَّه سيد محمد مصطفى ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل الشنقيطي في رسالته « منيل البش فيمن يظلهم اللَّه بظل العرش » : قوله سبعة أي من الأشخاص ، ليدخل النساء فيما يمكن أن يدخلن فيه شرعًا ، فلا يدخلن في الإمامة العظمى ، ولا في ملازمة المساجد لأن صلاتهن في بيوتهن أفضل ، نعم قد يمكن أن يكن ذوات عيال فيعدلن بينهم فيدخلن في الإمامة كغيرها .

قال الشيخ عطية سالم : إنه كما افترض إمكان كونهن ذوات عيال ، فيعدلن فيهم ، فيصدق عليهن الوصف بالإمامة أي بالمعنى ، فكذلك يقدر لها من حيث المسجد لو افترضنا لها مسجداً في بيتها وتعلق قلبها به حرصًا على أداء الصلوات في أوقاتها .

● وفي « إرشاد الساري » للقسطلاني (٢/ ٣٢) : سبعة من الناس .

● قال الشيخ عطية سالم « في ظلال عرش الرحمن » (ص٦٤ ـ ٦٥) :

« بما أنه لم يرد تمييز للعدد[١] ، ويحتمل تقديره رجالاً أو أشخاصًا ، وتقديره بالرجال يخرج النساء ، وتقديره بالأشخاص قد يُشعر بالحصر والتحديد في سبعة بأعيانهم ؛ فإن الأولى عندي تقدير بـ (أصناف) ليشمل العدد من الأفراد في كل واحد من الأقسام السبعة ، مما لا يعلم عدده إلا اللَّه ، واللَّه تعالى أعلم ، إذ سياق الحديث للترغيب في هذه الأعمال وليس للإخبار عن أفراد معينين » .

● قال ابن حجر معلقًا على : « **اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه** » : عدت هذه الخصلة واحدة مع أن متعاطيها اثنان لأن المحبة لا تتم إلا باثنين ، أو لما كان المتحابان بمعنى واحد . . . لأن الغرض عدّ الخصال لا عدّ جميع من اتصف بها .

سبعة :

قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٦٨) :

« ظاهره اختصاص المذكورين بالثواب المذكور ، ووجهه الكرماني بما محصله : أن الطاعة إما أن تكون بين العبد وبين الرب ، أو بينه وبين الخلق :

فالأول : باللسان وهو الذكر ، أو بالقلب وهو المعلق بالمسجد ، أو بالبدن وهو الناشئ في العبادة .

والثاني : عام وهو العادل ، أو خاص بالقلب وهو التحاب ، أو بالمال وهو الصدقة ، أو بالبدن وهو العفة ، وقد نظم السبعة العلاّمة أبو شامة قال :

---

(١) أي لم ترد به رواية ، وكذلك لم يذكره أئمة الحديث كابن عبد البر وابن حجر مثلاً . . . قاله الشيخ عطية محمد سالم .

وقال النبي المصطفى إن سبعة يظلهم الله الكريم بفضله

محب عفيف ناشىء متصدق وباك مصل والإمام بعدله

• **ملحوظة** : قال الشيخ عطية سالم :

« السبعة » المذكورون في هذا الحديث بمثابة الأصل لكل ما نصوا عليه، سواءً بأسانيد صحيحة أو ضعيفة لأنها كلها داخلة في إطار إخفاء العمل، أو إخلاصه للّه رغبة أو رهبة من اللّه .

وقال في كتابه : « في ظلال عرش الرحمن » (ص٧٣) :

« في هذه السبعة النماذج الكافية[1] ، بل قد يمكن إدخال بقية الأصناف ضمنها وذلك للآتي :

أولاً : اشتملت تلك الأصناف السبعة طبقات المجتمع من القمة إلى القاعدة : إمام عادل ، ورجلان تحابا في اللّه .

ثانيا : قسّم العلماء أعمال الخير إلى قسمين : بدنية ومالية . . . وهذه الأصناف السبعة جمعت القسمين : البدنية والمالية على أكمل وجه .

ثالثا : قسّم الأصوليون الأحكام التكليفية إلى ثلاثة أقسام :

(أ) ضروريات . (ب) حاجيات . (جـ) تتميمات .

فالضروريات : الحفاظ على الجواهر الست .

والحاجيات : عقود المعاملات .

والتتميمات : الحث على مكارم الأخلاق .

وهذا الحديث في نسق هؤلاء السبعة قد شملها ضمنًا والتزامًا بدلالة الإيماء والتنبيه فأغنى بيانه عن غيره وللّه الحمد والمنة » .

---

(١) في هذا نظر ، وذلك لورود أصناف تختلف عن السبعة اختلافًا بيّنا وظاهراً .

لطيفة : قال الزرقاني في رسالته التي لخصّ فيها رسالة السخاوي :

« يقال إن السبعة الأولىٰ اجتمعت في يوسف عليه السلام ، فهو : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة اللَّه تعالىٰ ، وتحاب هو ووالده يعقوب عليهما السلام في اللَّه ، ودعته « زليخا » وهي ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف اللَّه ، وتصدّق علىٰ إخوته سرًّا كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ** ﴾[1] .

ولاشك أن قلبه كان يحب مواطن العبادات وأنه شديد الشوق إلىٰ اللَّه .

العدد « سبعة » لا مفهوم له :

قال الحافظ في « الفتح » (٢/ ١٦٨ـ١٦٩) :

« وقع في « صحيح مسلم » من حديث أبي اليسر مرفوعًا « **من أنظر معسرًا أو وضع له أظله اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله** » وهاتان الخصلتان غير السبعة الماضية فدلّ علىٰ أن العدد المذكور لا مفهوم له . . . ثم تتبعت بعد ذلك الأحاديث الواردة في مثل ذلك فزادت علىٰ عشر خصال ، وقد انتقيت منها سبعة وردت بأسانيد جياد ونظمتها في بيتين تذييلاً علىٰ بيْتيْ أبي شامة وهما :

وزِدْ سبعةً : إظلال غاز وعونه وإنظارُ ذي عسر وتخفيف حمله

وإرفاد ذى غرم وعون مكاتب وتاجر صدق فى المقال وفعله »

قال الحافظ السيوطي في « تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش » (ص٦٦) :

---

(١) سورة يوسف الآية (٦٢) .

« أنشدني شيخ الإسلام في عموم إجازته لنفسه :

وزد سبعة إظلال غاز وعَوْنه وانظار ذى عسر وتخفيف حمله

وحَامي غُزاةٍ حين ولّوا وعون ذي غرامة حقٌ معْ مُكاتبِ أهله

• قال الزرقاني : « دل استقراء الأحاديث على أن هذا العدد لا مفهوم له » فهو ممن يقول لا مفهوم لهذا العدد .

• وقال القسطلاني في « إرشاد الساري » (٢/ ٣٣) عند باب « من جلس في المسجد ينتظر الصلاة » : وتقييد العبد بالسبعة لا مفهوم له ، بدليل ورود غيرها » وسرد بعض النصوص عند مسلم وغيره ، إلى أن قال : « ومن تتبّع دواوين الحديث وجد زيادة كثيرة على ما ذكرته »، ثم قال : « وللحافظ ابن حجر مؤلف سماه « معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال » .

• وقال القسطلاني في شرحه على باب مشروعية الصدقة باليمين : «لا مفهوم للعدد بالسبعة فقد روى الإظلال لذي خصال أخر كثيرة غير هذه أفردها شيخنا الحافظ السخاوي في جزء فبلغت مع هذه السبعة ثنتين وتسعين »[١] .

قوله ﷺ « يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله »

اعلم يا أخي أن كل روايات حديث « **السبعة الذين يظلهم اللّه في ظله** » وردت هكذا : « **يظلهم اللّه في ظله يوم لا ظله إلا ظله** » إلا رواية النسائي وبعض روايات البخاري في بعض المواطن من صحيحه ، ففيها زيادة كلمة «يوم القيامة ، هكذا : « **سبعة يظلهم اللّه عز وجل يوم القيامة** » .

---

(١) « إرشاد الساري » (٣/ ٢٤) أغلب هذه الخصال وردت بأحاديث ضعيفة ضعفها أهل العلم كما سنبيّن ذلك إن شاء اللّه .

وكذا كلمة العرش إنما جاءت في بعض روايات مالك فيما ساقه ابن عبد البر في «التمهيد» وعلى هذا فالكلام على «**يظلهم الله في ظله**»؛ ما هو ظله ؟ وكيف يظلهم ؟

«بادئ ذي بدء نقول : ليس هذا من باب الصفات ولا أحاديثها إذْ لم يرد لا في آيات الصفات ولا أحاديثها وصف اللَّه وصفًا مستقلاً بذلك وهذا ما يظهر واللَّه تعالى أعلم»(١) .

في ظله :

قال ابن حجر في «فتح الباري» (٢/ ١٦٩) : «قوله : «في ظله» ، قال عياض : الظل إلى اللَّه إضافة مُلك ، وكل ظله فهو ملكه ، وكذا قال .

وكان حقه أن يقول : إضافة تشريف ليتحصل امتياز هذا على غيره كما قيل للكعبة بيت اللَّه مع أن المساجد كلها ملكه .

وقيل : المراد بظله كرامته وحمايته ، كما يقال : فلان في ظل الملك ، وهو قول عيسى بن دينار ، وقوّاه عياض .

وقيل : المراد في ظل عرشه ، ويدل عليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه**» فذكر الحديث ، وإذا كان المراد ظل العرش استلزم ما ذكر من كونهم في كنف اللَّه وكرامته من غير عكس فهو أرجح وبه جزم القرطبي .

ويؤيده أيضًا تقييد ذلك بيوم القيامة كما صرّح به ابن المبارك في روايته عن عبيد اللَّه بن عمر وهو عند المصنف في كتاب الحدود وبهذا يندفع قول من قال : المراد ظل طوبى أو ظل الجنة لأن ظلها إنما يحصل بعد الاستقرار

---

(١) «في ظلال عرش الرحمن» للشيخ عطية سالم (ص٧١) .

في الجنة ، ثم إن ذلك مشترك لجميع من يدخلها ، والسياق يدل على امتياز أصحاب الخصال المذكورة ، فيرجح أن المراد ظل العرش وروى الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد مرفوعًا : « **أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عدل** » اهـ .

وقال الحافظ أيضًا في « الفتح » (١١/ ٣١٨) : « ظل كل شيء بحسبه ، ويطلق أيضًا بمعنى النعيم ومنه ﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾ وبمعنى الجانب ومنه «يسير الراكب في ظلها مائة عام» وبمعنى الستر والكنف والخاصة ، ومنه أنا في ظلك ، وبمعنى العز ومنه « أسبغ الله ظلك » اهـ .

وقال القسطلاني : « **يظلهم الله في ظله** » أي عرشه « يوم لا ظل في القيامة ودنو الشمس من الخلق « **إلا ظله** » .

وقال ابن عبد البر : « والظل في هذا الحديث يراد به الرحمة والله أعلم ومن رحمة الله : الجنة ، قال الله عز وجل ﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾ وقال : ﴿ **وظل ممدود** ﴾ وقال : ﴿ **في ظلال وعيون** ﴾ .

ومن كان في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله نجا من هول ذلك الموقف إن شاء الله ، والله أعلم جعلنا اللهم منهم برحمته آمين »[١] .

وقال النووي في « شرح مسلم » (٧/ ١٢٠) : « قال القاضي : إضافة الظل إلى الله تعالى إضافة ملك ، وكل ظل فهو لله وملكه وخلقه وسلطانه والمراد هنا ظل العرش كما جاء في حديث آخر مبينًا .

والمراد يوم القيامة إذا قام الناس لرب العالمين ودنت منهم الشمس واشتد عليهم حرها وأخذهم العرق ولا ظل هناك لشيء إلا العرش وقد يراد

---

(١) « التمهيد » لابن عبد البر (٢/ ٢٨٢) .

به ظل الجنة وهو نعيمها والكون فيها كما قال تعالىٰ : ﴿ وندخلهم ظلا ظليلاً ﴾ قال القاضي : وقال ابن دينار : المراد بالظل هنا الكرامة ، والكنف ، والكف عن المكاره في ذلك الموقف ، قال : وليس المراد ظل الشمس ، قال القاضي : وما قاله معلوم في اللسان ، يقال : فلان في ظل فلان أي في كنفه وحمايته ، قال : وهذا أولىٰ الأقوال ، وتكون إضافته إلىٰ العرش لأنه مكان التقريب والكرامة وإلا فالشمس وسائر العالم تحت العرش وفي ظله » .

وقال الإمام أبو بكر بن العربي في « عارضة الأحوذي » (٩/ ٢٣٧) : « حديث « **سبعه يظلهم الله فى ظله** » الظل : الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس أي شيء كان ، وقيل هو مخصوص بما كان منه إلىٰ زوال الشمس ، أي الغداة ، وما كان بعده أي العشىٰ ، فهو الفيء : وهو نقيض الضحىٰ ، ويجمع علىٰ ظلال وظلول وأظلال ، وفي الحديث « **الجنة تحت ظلال السيوف** » وهو كناية عن الدنو من الضراب في الجهاد حتىٰ يعلوه السيف ويصير ظله عليه ، وقد روىٰ « سبعة في ظل العرش » أي في ظل رحمته ، وفي حديث آخر « **السلطان ظل الله في الأرض لأنه يدفع الأذى عن الناس كما يدفع الظل أذى حر الشمس** » .

وقد يكنىٰ بالظل عن الكنف والناحية ، ومنه « **إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام** » أي في ذراها وناحيتها ، وفي شعر العباس يمدح النبي ﷺ :

من قبلها طبْت في الظلال وفي ... مستودع حيث يُخصفُ الورقُ

أراد ظلال الجنة ؛ أي : كنت طيبًا في صلب آدم حيث كان في الجنة » .

تعليق للشيخ عطية محمد سالم :

أولاً : معنى الإظلال . **ثانياً** : وقته . **ثالثاً** : مكانه . . . **وأخيراً** : تحديد المراد في هذا الحديث .

أولاً معنى الإظلال : فمما تقدّم من قول أئمة الحديث تجده دائراً بين الحقيقة والمجاز .

أ ـ فعلى الحقيقة : يكون الإظلال في ظل العرش ، وهذا من حيث الصناعة تقييد للمطلق ، ولا يتعارض مع الروايات الأخرى « **يظلهم الله في ظله** » ، إذ ظل العرش للَّه تعالى وليس لغيره سبحانه، ولا يملك أحد أن يظل أحداً في ظل العرش إلا اللَّه سبحانه وحده ، فهو ظل مضاف إلى العرش ، والعرش مضاف إلى اللَّه سبحانه وتعالى وحده فصدق عليه أنه للَّه سواءً على ما قال القاضي عياض إضافة ملك أو على ما وجّهه ابن حجر : إضافة تشريف أو من باب بيان المجمل إذ في « ظل اللَّه » مجمل ، وإضافته إلى العرش بيان له ، ويكون ذلك جمعاً بين الروايتين وإعمالاً لهما معا

أما اعتبار الإظلال في الجنة أو طوبى فإن هذا لا ذكر له في الحديث وهو من باب تأويل اللفظ ، لا من باب النص عليه وإن الكل للَّه ويصدق عليه جملة أنه ظل للَّه أي مملوك له سبحانه إلا أنه تأويل مردود بما تقدم من أن هذا الإظلال يكون بعد دخول الجنة فإذا أدخل الناس الجنة كان هذا الإظلال عام لجميع أهل الجنة ، والحال أن الحديث سيق لتخصيص هؤلاء السبعة بظل خاص ، فلم يبق صالحًا للحمل على الحقيقة إلا ظل العرش كما تقدم .

ب ـ أما على مجازه وكناياته :

فكل ما قيل من المعاني محتمل إلا أنه أعمّ من المراد إذ الكنف والعز والسلطان للَّه تعالى شامل لأوليائه وأصفيائه وعباده الصالحين في الدنيا قبل الآخرة .

بل في الحديث ما يشير إلىٰ القيد بغير الدنيا بأمرين :

١ ـ قوله : « **يوم لا ظل إلا ظله** » : والناس في الدنيا قد يكون بعضهم في ظل بعض وكما في حديث « **السلطان ظل اللّٰه في الأرض** » فهذا ظل للسلطان وإن كان مرجعه إلىٰ اللّٰه إلا أنه مضاف إلىٰ عدل السلطان .

٢ ـ وقوله في بعض الروايات الصحيحة : « **يوم القيامة** » إلا أنه في ذلك اليوم أظهر وأشد فعالية وأعظم منّة وتفضيلاً حيث تمس الحاجة إليه ، وليس هناك ما يغني عنه إذ لا ملجأ ولا منجا منه سبحانه إلا إليه .

فإذا لم يحمل علىٰ حقيقته بظل العرش ، فلا سبيل إلىٰ حمله علىٰ حقيقته بالنسبة إلىٰ ذات اللّٰه إذ محال علىٰ اللّٰه أن يكون له ظل كما نتصور في المخلوق حينما يكون حاجزاً للشمس فينشأ له ظل »[(١)] .

تنبيه :

قال الشيخ عطية محمد سالم : « إن حقيقة الإظلال بالعرش لانستطيع تكييفها كتكييفنا للظل في الدنيا لأن الشمس من كواكب السماء والدنيا أو حتىٰ علىٰ ما قيل في السماء الرابعة ، فأين هي من العرش حتىٰ تعلوه ؟ فيكون هو الحاجز دونها ويستظلون بظله .

إنه لولا حديث : « تدنو الشمس من الخلائق قدر ميل . . . » المتقدم ذكره لما استطعنا تصوّر وجود شمس في ذلك اليوم لأن اللّٰه تعالىٰ يبدل العالم كله كما قال تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾[(٢)] ، وقوله في حق الشمس خاصة : ﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ**

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٧٠ـ٧١) .

(٢) سورة إبراهيم الآية (٤٨) .

﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾(١) .

تغير شامل للعالم كله ، والأرض وما عليها من جبال وبحار ودواب ، والسماء وما فيها من الشمس والنجوم ، فمتى يكون ذلك التكوير ؟ أهو عند تسيير الجبال وانكدار النجوم ؟ .

قال الفخر الرازي : « واعلم أن هذه العلامات الست يمكن وقوعها في أول زمان تخريب الدنيا ويمكن وقوعها أيضًا بعد قيام القيامة وليس في اللفظ ما يدل على أحد الاحتمالين .

وكذلك قال القرطبي بعد روايات عديدة .

أما ابن جرير الطبري فقد أورد كل الأقوال ، ثم جاء بأثر عن أبي العالية في قوله : ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال : سيأتي أولها والناس ينظرون ، وسيأتي آخرها إذا النفوس زوجت .

فإذا أخذنا بعين الاعتبار رواية أبي العالية أن تغيرات الشمس تبدأ والناس ينظرون وتنتهي إذا النفوس زوجت ، ولاحظنا حديث « دنو الشمس من الرءوس في الموقف فإنه يمكن أن يقال : لا مانع من وجود الشمس حالة الموقف ودنوها من الرءوس ، ثم بعد الانتهاء من الموقف تكور الشمس وتلقى سواء في البحر فتسجر بها أو في النار ، أو يطفأ نورها على الروايات التي جاءت في هذا كله ومصير العلم حقيقة للَّه تعالى .

ومهما يكن من شيء فليس هناك جواب حقيقي لبيان الحقيقة وإن حقيقة الأمر مردها إلى اللَّه سبحانه إلا أن المعنى كما

---

(١) سورة التكوير الآيات (١ : ١١) .

قال ابن عبد البر : « ومن كان في ظل اللَّه يوم لا ظل إلا ظله نجا من هول ذلك الموقف إن شاء اللَّه ، واللَّه أعلم ، جعلنا اللَّه منهم برحمته آمين » .

لأننا نعلم يقينًا أن المعنىٰ العام في جملته : هو التنويه بفضل هذه الصفات وفضيلة هذه الأصناف ، وتفضل اللَّه تعالىٰ عليهم ، وكرامته إياهم ، وتخصيصهم دون غيرهم .

وقريب منه في عمومه : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾[1] .

حيث لا يعلم كنه ذلك إلا اللَّه ، جعلنا اللَّه تعالىٰ منهم جميعًا بفضله وتفضله ورحمته وإحسانه ، إنه ولىٰ ذلك والقادر عليه[2] .

من عظمة العرش تعرف عظمة ظله :

اعلم رحمك اللَّه أن سلف الأمة كانوا يثبتون للَّه تعالىٰ العرش دون تأويل أو تحريف ، إلىٰ أن غزت الفلسفة اليونانية التعاليم الإسلامية ، ونشأ علم الكلام فوجدت طائفة أنكرت العرش .

فقال جماعة من هؤلاء : إن العرش هوعبارة عن معنىٰ الملك وسعة السلطان ، وليس هو سرير الملك الذي يعرفه الناس وهو قول أكثر المعتزلة وقوم من الخوارج وجماعة من الأشاعرة .

وهناك قول آخر للفلاسفة والمتكلمين : وهو أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة ، وهو الذي قد يسمونه بالفلك الأطلس أو الفلك التاسع .

وذكر الدارمي في الرد علىٰ الجهمية (ص١٣) قولاً آخر لأحد زعماء

---

(١) سورة القمر الآية (٥٤ : ٥٥) .

(٢) « في ظلال عرش الرحمن » .

المعطلة فإنه قال : لما خلق اللّه الخلق يعني السموات والأرض وما فيهن سمىٰ ذلك كله عرشًا له واستوىٰ علىٰ جميع ذلك .

وهذه الأقوال كلها باطلة لأنها خلاف ما استفاضت به الأدلة من القرآن والسنة الصحيحة وقد ورد فيها ما يقطع ببطلان ما ذهبوا إليه من هذه الأقوال ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** ﴾[1] .

فلا يمكن أن يقال في هذه الآية : « كان ملكه علىٰ الماء » وكذلك ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « **فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش** » فهل يجوز أن يؤول العرش بما ذهب إليه هؤلاء الناس بعد هذا التصريح .

وقد قال تعالىٰ : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾[2] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾[4] .

فهذه الآيات كلها تمنع منعًا باتًا أن يكون المراد من العرش ما قالته هذه الطوائف من الملك أوسعة السلطان أو الفلك الأطلس أوغيرها من الأقوال لأنه لا يمكن أن يحمل الملائكة كل ذلك .

وقال النبي ﷺ فيما أخرجه البخاري في « صحيحه » من حديث أبي هريرة : « **فإذا سألتم اللّه فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه**

---

(١) سورة هود الآية (٧) .
(٢) سورة غافر الآية (٧) .
(٣) سورة الحاقة الآية (١٧) .
(٤) سورة الزمر الآية (٧٥) .

عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة » فهل يسوغ أن يقال : إن ملك الرحمن أوسلطانه فوق الفردوس ؟ ونظراً لهذه الأدلة وغيرها فقد ذهب أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة وخلفها إلىٰ الإيمان بعرش اللَّه سبحانه وتعالىٰ علىٰ ما جاء في القرآن والأحاديث الصحيحة وهو عندهم سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة علىٰ العالم ، وهو سقف المخلوقات ، وأمر اللَّه تعالىٰ ملائكته بحمله ، وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به وهو أعظم المخلوقات علىٰ الإطلاق وكان هذا هو المعروف لدىٰ أصحاب القرون الأولىٰ دون غيره ، وقد قال الدارمي في « الرد علىٰ الجهمية » (ص٨) : باب الإيمان بالعرش وهو أحد ما أنكرته المعطلة ، ثم قال في هذا الباب : «وما ظننا أن نضطر إلىٰ الإحتجاج علىٰ أحد ممن يدعي الإسلام في إثبات العرش والإيمان حتىٰ ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات اللَّه فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا وإلىٰ اللَّه نشكو ما أوهت هذه العصابة من عرىٰ الإسلام وإليه نلجأ وبه نستعين » اهـ .

ولا يلزم في إثبات العرش للَّه تعالىٰ علىٰ وجه يليق بذاته وبجلاله أي مانع من النقص أو التشبيه بعرش الملوك ، فإنه سبحانه لم يستو علىٰ عرشه لأنه يحتاج إليه ، بل هو غني عن العرش وعن كل ما سواه لا يفتقر إلىٰ شيء من المخلوقات ولا يُمَثَّل استواؤه باستواء المخلوقين بل يثبت للَّه تعالىٰ كل ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات والعرش والكرسي ، وينفي عنه مماثلة المخلوقات مع العلم بأن اللَّه ليس كمثله شيء لا في ذاته لا في صفاته ولا في أفعاله وبالتالي فإنه لا يجوز أن يقال إن في إثبات العرش له مساواته بالأجرام والأجسام »[1] .

---

(١) انظر التعليق علىٰ : « كتاب العظمة » لأبي الشيخ الأصبهاني تعليق رضاء اللَّه المباركفوري (٢/ ٦٥٤ - ٦٥٦) - نشر دار العاصمة - الرياض .

العرش أول المخلوقات على أرجح الأقوال :

العرش أول المخلوقات ، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير ، وشارح الطحاوية ، ونسبه ابن كثير وابن حجر نقلاً عن أبي العلاء الهمداني إلى الجمهور ، ومال إليه ابن حجر أيضًا[(١)] .

واستدلوا على قولهم هذا بما رواه مسلم في « صحيحه » بسنده عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص مرفوعًا قال : « كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء » . ففي هذا الحديث تصريح بأن التقدير وقع بعد خلق العرش وحديث عبادة[(٢)] .

صرّح بأن التقدير وقع عند أول خلق القلم فدل ذلك على أن العرش سابق على القلم وهذا هو الراجح من الأقوال .

العرش خلقه اللَّه بيده :

قال مجاهد : قال عبد اللَّه بن عمر : « خلق اللَّه أربعة أشياء بيده : العرش ، القلم ، وآدم ، وجنة عدن ، ثم قال لسائر الخلق كن فكان »[(٣)] .

---

(١) انظر : « مجموع الفتاوى » (١٨/ ٢١٣-٢١٦) ، « مختصر الصواعق المراسلة » (٢/ ٣٢٣) ، و« اجتماع الجيوش الإسلامية » (ص٩٩-١٠٠) ، و« البداية والنهاية » (١/ ٩) ، و« العقيدة الطحاوية » (ص٢٩٥) ، و« فتح الباري » (٦/ ٢٨٩) .

(٢) قال رسول اللَّه ﷺ إن أول ما خلق اللَّه القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ... الحديث رواه الترمذي وأبو داود واللفظ له .

(٣) إسناده جيد ، على شرط مسلم : أخرجه الدارمي « في الرد على بشر المريسي » ، والآجري في « الشريعة » والحكيم الترمذي في « الرد على المعطلة » واللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة » والحاكم في « مستدركه » (٢/ ٣١٩) إلا أنهما زادا فيه : احتجب من الخلق بأربع : بنار وظلمة وبنور وظلمة .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وأورده في العلو =

العرش ياقوتة حمراء :

قال إسماعيل بن أبي خالد : أخبرت أن العرش ياقوتة حمراء .

قال الحافظ الذهبي : « هذا ثابت عن هذا التابعي الإمام » .

قال قتادة : « إن العرش من ياقوتة حمراء »(١) .

عظم العرش :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**»(٢) .

وعن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : ﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾(٣) قال : « الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره »(٤) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أُذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى وعلى قرنه العرش وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير**

= باللفظ الأول وقال : إسناده جيد ، وقال الألباني : على شرط مسلم .

(١) « العلو للعلي الغفار » (ص٧١) تحقيق أشرف بن عبد المقصود - مكتبة أضواء السلف .

(٢) صحيح : أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب « العرش » ، وابن جرير في « تفسيره » . وقال الألباني « الحديث بهذه الطرق صحيح وخيرها لطريق الأخير » انظر : «السلسلة الصحيحة» الحديث رقم (١٠٩) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

(٤) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » والدارمي في « الرد على بشر المريسي » وعبد اللَّه بن الإمام أحمد في « السنة » وابن أبي شيبة في « العرش » وابن خزيمة في « التوحيد » ، والطبراني في «الكبير» وابن جرير في « التفسير » والحاكم في « مستدركه » وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافق الذهبي ، وقال الذهبي في « العلو » : رواته ثقات ، وقال الألباني في « مختصر العلو » (ص١٠٢) : هذا إسناد صحيح .

سبعمائة عام ، يقول ذلك الملك ، سبحانك حيث كنت »(١) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه عز وجل أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض ، ورأسه مثنية تحت العرش وهو يقول : سبحانك ما أعظمك ربنا فيردّ عليه : ما يعلم ذلك من حلف بي كاذبا** » (٢) .

• عن ابن عباس - رضي اللَّه عنه - حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام ، و[زعموا أن] خطوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب(٣) .

• وعن ابن مسعود - رضي اللَّه عنه - قال : إن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام ، وتضد - كل سماء - يعني - غلظه - خمسمائة عام - ، وما بين السماء السابعة وبين الكرسي مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء ، واللَّه تبارك وتعالى فوق العرش ، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء »(٤) .

• عن أبي عيسى يحيى بن رافع التيمي قال : إن ملكًا لما استوى الرب

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الأوسط » عن أنس وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٥٠) و« صحيح الجامع » رقم (٨٥٣) .

(٢) صحيح : أخرجه الطبراني في « الأوسط » ، وأبو يعلي في « مسنده » ، والحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة وقال : « وعنقه مثنيه » وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٥٠) .

(٣) موقوف صحيح : أخرجه ابن أبي شيبة في « العرش » ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » صحيح بمجموع الطرق انظر : « العظمة » (٣/ ٩٢٤) ، (٣/ ٩٥٢) .

(٤) إسناده صحيح : أخرجه الدارمي في : « الرد على بشر المريسي » ، وابن خزيمة في « التوحيد » ، والطبراني في « الكبير » ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٣/ ٥٦٦ ، ٦٨٨) ، وصحح إسناده الذهبي في « العلو » ، و« المختصر » (ص١٠٣) ، وابن القيم في « الصواعق المرسلة » انظر : « مختصره » (٢/ ٣٧٣) .

على عرشه سجد لم يرفع رأسه حتى تقوم الساعة ، فتقول الملائكة : سبحانك لم نعبدك حق عبادتك[1] .

عن العباس بن عبد المطلب ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : كنا عند النبي ﷺ ، فمرت سحابة فقال : « **ما هذا ؟** » قلنا : السحاب ، قال : « **والمزن ؟** » قلنا : والمزن ، قال : « **والعنان ؟** » قلنا : والعنان ، قال : « **تدرون ما بعد السماء إلى الأرض ؟** » قالوا : اللَّه ورسوله أعلم ، قال : « **كذا وكذا سنة ، ثم عد سبع سماوات ، وفوق ذلك بحر ، ما بين أعلاه إلى أسفله ما بين سماء إلى سماء وفوق ذلك ثمانية أوعال[2] ما بين أظلافهن وركبهن ما بين سماء إلى سماء والعرش فوق ذلك واللَّه تبارك وتعالى فوق ذلك بعلمه على العرش** »[3] .

وعند أحمد التصريح بأن بعد ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة .

وكيف يقدر قدر العرش وهو سقف الجنة ، وأرواح الشهداء تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش .

---

(١) إسناده كلهم أئمة ثقات : أخرجه ابن المبارك في « الزهد » ، وأبو الشيخ في « العظمة » وأورده ابن القيم في « اجتماع الجيوش الإسلامية » (ص١٠٢ ـ ١٠٣) وقال : هذا الإسناد كلهم أئمة ثقات ، وأورده الذهبي في « العلو » ، وأبو أحمد العسال في كتاب « المعرفة » .

(٢) الأوعال : جمع وعل بكسر العين وهو تيس الجبل . « النهاية » (٥/ ٢٠٧) .

(٣) أخرجه الترمذي ، وأبو داود ، وابن أبي عاصم في « السنة » ، وابن خزيمة في كتاب «التوحيد»، واللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة » ، وابن منده في « التوحيد » .
قال الألباني في « تخريج السنة » (١/ ٢٥٤) : « إسناده ضعيف ، وعبد اللَّه بن عمير قال الذهبي : فيه جهالة ، قال البخاري : لا نعلم له سماعًا من الأحنف بن قيس » اهـ .
وصرح الجوزقاني في « الأباطيل » (١/ ٧٩) بصحة الحديث ، ومال أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » (٣/ ١٩٢) ؛ وتلميذه الحافظ ابن القيم في « تهذيب السنن » (٧/ ٩٤) إلى تصحيحه .

ومن الأحاديث الثابتة في العرش حديث ابن مسعود - رضي اللَّه عنه - قال : « العرش فوق الماء ، واللَّه فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم »[(١)] .

• قال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : « الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره »[(٢)] .

• وعن أبيّ بن كعب - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**يا أبا المنذر ، أي آية في كتاب اللَّه أعظم** ؟ قلت : اللَّه ورسوله أعلم [فرددها مراراً] ثم قال [أبيّ] : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ فضرب صدري وقال : «**ليهنك العلم أبا المنذر ، والذي نفسي بيده إن لهذه الآية لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش** »[(٣)] .

• وعن أبي ذر قال : قال النبي ﷺ : « **أتدري أين تغرب هذه الشمس** ؟ قلت : اللَّه ورسوله أعلم ، قال : « **فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش عند ربها وتستأذن** .... » أخرجه البخاري .

• عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لما قضى**

---

(١) إسناده صحيح : رواه عبد اللَّه بن الإمام أحمد في « السنة » والبيهقي في « الأسماء والصفات » وابن خزيمة والدارمي وأبو الشيخ في « العظمة » واللالكائي في « شرح أصول أعتقاد أهل السنة» ، وسنيد بن داود بإسناد صحيح كما قال ابن القيم في « جيوشه » . قال الذهبي في «العلو» : إسناده صحيح ، وقال الشيخ الألباني في « مختصر العلو » (ص١٠٤) : سندهم جيد .

(٢) صحيح موقوف : أخرجه ابن خزيمة في « التوحيد » ، والدارمي في « الرد على المريسي » وابن أبي شيبة في « العرش » وعبد اللَّه بن أحمد في « السنة » . قال الذهبي : رواته ثقات ، وقال الألباني في « مختصر العلو » (ص١٠٢) : إسناد صحيح ، رجاله كلهم ثقات .

(٣) حديث صحيح : قال الألباني في « مختصر العلو » (ص٩٣) : حديث صحيح ، أخرجه أحمد بسند صحيح على شرط مسلم ، وقد أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة دون الشطر الأخير منه ، لكن قال المنذري في « الترغيب » (٢/ ٢٢١) : رواه ابن أبي شيبة في كتابه بإسناد مسلم وزاد . . .

الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » وفي لفظ : « **إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق : إن رحمتي سبقت غضبي ، فهو عنده فوق العرش** » وفي لفظ آخر : « **لما خلق الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو مرفوع فوق العرش : إن رحمتي تغلب غضبي** »[1] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعداً ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه ، كأن عينيه كوكبان دريان** »[2] .

● وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « **الرحم معلقه بالعرش ، وليس الواصل بالمكافيء**[3] **، ولكن من إذا قطعه ذو رحم وصله** »[4] .

● وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم : « **اهتز لها عرش الرحمن** » رواه مسلم .

قال الذهبي : فهذا متواتر أشهد بأن رسول الله وسلم قاله .

---

(١) حديث صحيح : قال الألباني في « مختصر العلو » (ص٩٢) : حديث صحيح ، وبعض ألفاظه عند الشيخين ، واللفظ الأخير للترمذي ، وقد خرجته في « الصحيحه » (١٦٢٩) ، وفي «تخريج السنة » لابن أبي عاصم (٨١٠) .

(٢) صحيح : قال الألباني : أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في « تلخيصه » (٤/ ٥٥٩) وزاد : « على شرط مسلم » وهو كما قال ، وأخرجه أبو الشيخ أيضاً في « العظمة » (٧٣/ ١) .
قوله : ما طرف : أي ما غفل لحظة ترقبًا لأمر الله وانتظاراً له .

(٣) الذي يصل من بدأ بوصله .

(٤) سنده صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ١٦٣ ، ١٩٣) وسنده صحيح على شرط البخاري ، وقد أخرجه في « صحيحه » دون قوله « الرحم معلقة بالعرش » وصححه الترمذي ، ولهذه الزيادة شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة منهم عائشة عند الشيخين . قاله الألباني في « مختصر العلو » (٩٦) .
وقال الذهبي : إسناده قوي .

• وفي حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ : « **لا تخيروا بين الأنبياء ، أنا أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفي الصعقة الأولى بعث أم بعدي ؟** »[١] .

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**لا تخيّروني على موسى ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق ، فإذا بموسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي ، أم كان ممن استثنى اللَّه عز وجل**» متفق على ثبوته .

• وفي حديث عبد اللَّه بن عمرو قال : « **العرش مطوّق بحيّة ، والوحي ينزل في السلاسل** »[٢] .

• قال مجاهد في « وقربناه نجيًا » قال : « بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب ، فما زال يقرب موسى حتى كان بينه وبينه حجاب ، فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم قال : ﴿ **رب أرني أنظر إليك** ﴾[٣] .

قال الذهبي في كتابه « العلو » : « في الجنة قطعًا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فما الظن بالعرش العظيم الذي اتخذه العلي العظيم لنفسه في ارتفاعه وسعته ، وقوائمه ، وماهيته ،

---

(١) أخرجه البخاري بتمامه في موضعين (٢/ ٨٩) ، (٤/ ٣٢٧) .

(٢) قال الألباني في « مختصر العلو » (١٢٦) : إسناده حسن ، واشار الحافظ في ترجمة « البكالي » من « الإصابة » إلى هذا الأثر وقال : رويناه في « البشرانيات » . وقال الألباني أيضًا : «إسناده صحيح» أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٣٣/ ١ ـ ٢) ثم رأيته في « السنة » (ص١٥٠) . قال ابن عراق في « تنزيه الشريعة » : رجاله ثقات ولكن لا يستبعد أن يكون من الزاملتين .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات » ، وأبو الشيخ في « العظمة » . وقال الذهبي : هذا ثابت عن مجاهد إمام التفسير ، وقال الألباني في « مختصر العلو » (ص١٣٢) : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات كلهم » .

وحملته ، والكرو بيين الحافين من حوله ، وحسنه ، وورنقه ، وقيمته ؟ فقد ورد أنه من ياقوته حمراء ، ولعلّ مساحته مسيرة خمسمائة ألف عام .

لا إله إلا هو الحليم الكريم ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، لا إله إلا اللَّه رب السموات السبع ورب العرش الكريم ، الحمد للَّه رب العالمين ، سبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه وزنة عرشه ، ورضىٰ نفسه ومداد كلماته ، ضاعت الأفكار وطاشت العقول ، وكلّت الألسنة عن العبارة عن بعض المخلوقات ، فاللَّه أعلىٰ وأعظم ﴿ **آمنا باللَّه واشهد بأنا مسلمون** ﴾ تبًا لذوي العقول الخائضة ، والقلوب المعطلة ، والنفوس الجاحدة ، فما قدرو اللَّه حق قدره ، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالىٰ عما يشركون ، اللَّهم بحقك عليك ، وباسمك الأعظم وكلماتك التامة ، ثبت الإيمان في قلوبنا ، واجعلنا هداة مهتدين ، نعم : ما السموات والأرض في الكرسي إلا كحلقة في فلاة ، وما الكرسي في العرش العظيم إلا كحلقة في فلاة ، اسمع وتعقل ما يُقال لك وتدبر ما يلقىٰ إليك ، والجأ إلىٰ الإيمان بالغيب ، فليس الخبر كالمعاينة .

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾ .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وترى الملائكة حافين حول العرش يسبحون بحمد ربهم** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **رفيع الدرجات ذو العرش** ﴾ . والقرآن مشحون بذكر العرش ـ وكذلك الآثار ـ بما يمتنع أن يكون مع ذلك أن المراد بذلك المُلك : فدع المكابرة والمراء ، فإن المراء في القرآن كفر ، ما أنا قلته بل المصطفىٰ ﷺ قاله »[1] .

---

(١) « مختصر العلو » (ص٩٩ ـ ١٠٠) .

إمــــام عـــــادل

« من رأس العين يأتي الكدر ، وإذا صفا رأس العين صفت السواقي »

« الليث بن سعد »

إمـــام عـــادل

العدالة لغة :

« حقيقة معنىٰ العدالة التي بمعنىٰ الإنصاف يوضحها فقه اللغة ، إذ أن أسماء المعنويات كلها مأخوذ من أسماء المحسوسات ، كما قالوا في الأذان والإذن والاستئذان ، والمأذون والآذن : إن كلها يرجع إلىٰ اسم حاسة (الأُذن) فكذلك قالوا في العدل والعدالة والمعادلة والعادل كلها مأخوذة من اسم (العِدلة) بكسر العين التي هي إحدىٰ شقي حمل البعير ، والعدالة هي تعادل شقي حمل البعير وتوازنهما ، فإذا اختل توازنهما وتفاوت ثقلهما مال الحمل إلىٰ جهة الثقل .

ومنه الميل والحيف : ضد العدل والإنصاف .

وعليه فالعادل هو الذي عدل في حكمه وسوّىٰ بين طرفي القضيّة كصاحب البعير في تسويته بين شقي حمله .

فهو وصف عام لكل من عادل بين كل متساويين ، وهو الذي يضع الأمور في مواضعها أيًّا كان موضوعها ، وأيًّا كان طرفاها »[1] .

قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠) :

« وأحسن ما فُسِّر به العادل أنه الذي يتبع أمر اللّه بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط » .

« وقدّمه في الذكر لعموم النفع به » .

الألفاظ الواردة فيه :

١ ـ إمام عادل : رواية مالك ، وإحدىٰ روايات البخاري وعند الترمذي والنسائي .

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٧٧) .

٢ ـ الإمام العادل : بتعريف العرفين : وهي لمسلم وإحدىٰ روايات البخاري .

٣ ـ إمام عدل : بتنكير إمام وعدْل علىٰ وزن فَعْل نعت بالمصدر ، إحدىٰ روايات البخاري ، وبعض الرواة عن مالك ، قال ابن حجر : « وهو أبلغ لأنه جعل المسمىٰ نفسه عدلاً » كأن العدل تجسّم في شخصه .

قال ابن عبد البر : « وأكثر رواة « الموطأ » في هذا الحديث إمام عادل ، وقد رواه بعضهم عَدْل وهو المختار عند أهل اللغة يقال : رجل عدل ورجال عدل وامرأة عدل وكذلك رضا سواء .

ويجوز عادل علىٰ اسم الفاعل يقال : عدل فهو عادل »[(١)] [(٢)] .

٤ ـ إمام مقسط : عزاها السيوطي لابن عساكر .

• وكل من ابن عبد البر وابن حجر يريان أن الأصل لـ (عدل) و(عادل) واحد وهو العدالة ضد الظلم .

• (عدل) و(عادل) بينهما عموم وخصوص :

قال الشيخ عطية سالم :

« الذي يظهر لي أن بينهما فرق في الأصل ، وأن بينهما عموم وخصوص .

• فالعادل من العدل الذي هو ضد الظلم كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾[(٣)] ، واسم الفاعل منه عادل علىٰ وزن فاعل .

---

(١) « التمهيد » (٢/ ٢٧٩) .

(٢) « للعادل في اللغة معاني مختلفة ، منها العدول عن الحق ، ومنها الإشراك باللّٰه عزوجل وليس هذان المعنيان من هذا الحديث في شيء » قاله ابن عبد البر في « التمهيد » (٢/ ٢٧٩) .

(٣) سورة النساء الآية (٥٨) .

• والعدل من العدالة التي هي ضد الفسق ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾[١] .

• والأول مبحثه في الحقوق والأحكام ، وقد يكون الحاكم عادلاً وهو كافر .

وعليه المثل من قول عمر - رضي اللَّه عنه - لعامله علىٰ مصر « نحن أحق بالعدل من كسرىٰ » .

وقوله ﷺ في حق النجاشي : « **فإن فيها ملكاً عادلاً** » وكان ذلك قبل أن يسلم فوصفه ﷺ بأنه ملك عادل ، وقال : « **لا يُظلم أحد بجواره** » .

وعلىٰ هذا فوصف الإمام بالعدل في هذا الحديث أخص لأن العادل قد يكون مع الكفر سياسة للملك ، أما العدْل فلا يكون إلا مع الإسلام ، «فكل عدل عادل وليس كل عادل عدل »[٢] .

والعدالة هي مجتمع الأخلاق الفاضلة من صدق الحديث وكرم النفس والشجاعة والعلم والأدب وفعل المأمور وترك المحظور . . .

والإمام العادل ، أي العدل في نفسه ، العادل في حكمه ، قال تعالىٰ : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[٤] .

---

(١) سورة الطلاق الآية (٢) .
(٢) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٧٥) .
(٣) سورة الحج الآية (٤١) .
(٤) سورة النور الآية (٥٥) .

• وهؤلاء هم الأمناء المؤدون الأمانة : سواء أمانة في الحكم أو أمانة الخلق في الحق ، فهم عدول في أنفسهم عادلون في أحكامهم .

المراد بالإمام العادل :

والمراد بالإمام العادل في هذا الحديث ، قال ابن حجر : هو صاحب الولاية العظمى ، ويلتحق به كل من ولي شيئًا من أمور المسلمين فعدل فيه .

قال ابن عبد البر : « يدخل تحت قوله عليه السلام « إمام عادل » بالمعنى دون اللفظ كل من لزمه الحكم بين اثنين » واستدل بحديث ابن عمر « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » .

وأحسن ما يفُسَّر به معنى الإمام العادل : الذي جمع الأمرين العدالة في نفسه والعدل في حكمه ، هو الذي يتبع أمر اللَّه فيضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط ، ولا تأخذه في اللَّه لومه لائم .

عموم النفع بالإمام العادل ... « إذا صفا رأس العين صفت السواقي »

والإمام العادل هو أحد الأفراد الذين قاموا بالعدل في أحكامهم وتصرفاتهم ، ولكنه خُصّ بالنص هو بالذات لأهميته ، وخطر منصبه ، وعموم صلاحياته ، وإذا طاب الأصل طاب الفرع . . « ومن رأس العين يأتي الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي » كما قال الليث بن سعد لهارون الرشيد .

أولاً : لأن عدله يشمل كل الرعية ، وشمول عدله سواء في الحكم والعطاء والحفاظ والعناية بالأمة كلها ، ومراعاة مصالح العامة والخاصة .

ثانيًا : بعدله سيردّ المظالم ، ويمنع وقوع الظلم ، ويكون الناس عنده سواء .

ثالثًا : سيقوم بعدله بتنفيذ حكم اللَّه في خلق اللَّه ، ويحكّم كتاب اللَّه كما شرع اللَّه ، وهذا هو مناط عدالة الإمام .

ومجمع القول في ذلك أن يقال : عدالة الإمام هي تنفيذ عدالة السماء في الأرض وذلك بتطبيق كتاب اللَّه على عباد اللَّه .

وقد جاء عن الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ بيان هذا المعنى بقوله : « لو كانت لي دعوة مستجابة لجعلتها للسلطان ، لأن بصلاحه صلاح الأمة » .

***

الإمام العادل :

الإمام العادل زمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقِوَام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدنيا ، وهو حمى اللَّه في بلاده ، وظله الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم ، واللَّه عز وجل يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

ومتى « سلم السلطان من الحيف لم يزاحم في فضيلته ، وتزيد مرتبة السلطان العادل على قوّام الليل وصوّام النهار ، لأن نفع أولئك لا يتعداهم ونفعه يتعدى ، إذ بنظره يتعبد المتعبدون ، ويسافر التاجرون ، ويشتغل بالعلم المتعلمون ، فكأنه عَبَد اللَّه بعبادة الكل »[1] .

قال الثوري : « صنفان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة : السلطان والعلماء »[2] .

قال اللَّه تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ

---

(١) « الشفاء من مواعظ الملوك والخلفاء » لابن الجوزي (ص٤٣) تحقيق فؤاد عبد المنعم نشر مؤسسة شباب الجامعة .

(٢) « حلية الأولياء » للأصبهاني (٧/ ٥) .

بالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾[1] .

قال ابن القيم : « قسّم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلىٰ الحق وهو الوحي الذي أنزله اللَّه علىٰ رسوله ، وإلىٰ الهوىٰ وهو ما خالفه »[2] .

قال ابن كثير : « هذه وصية من اللَّه عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالىٰ ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله ، وقد توعد تعالىٰ من ضلّ عن سبيله ، وتناسىٰ يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد »[3] .

● والعدل الذي يطالب الخلفاء في الأرض والحكام بين الناس طرف من الحق الذي يقوم عليه ناموس اللَّه في خلق الكون الذي قامت عليه السماء والأرض ، وما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن سنة اللَّه وناموس الكون وطبيعة الوجود .

قال اللَّه تبارك وتعالىٰ : **﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾**[4] .

قال ابن القيم : « أنزل اللَّه كتابه وأنزل الميزان وهو العدل ليقوم الناس بالقسط »[5] .

---

(١) سورة ص الأيتان (٢٦ ـ ٢٧) .
(٢) « إعلام الموقعين » لابن قيم الجوزية (١/ ٨١) .
(٣) « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٧/ ٥٤) طبع ـ الشعب .
(٤) سورة الحديد الآية (٢٥) .
(٥) « مفتاح دار السعادة » (٣٣٦) .

« ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل فالتوحيد أعدل العدل والشرك أظلم الظلم »[١] .

هذا الميزان الذي أنزله اللّه مع الكتاب وفي الكتاب « يقيم حياة الناس في مأمن من اضطراب الأهواء ، واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع .

ميزانًا لا يحابي أحدًا ، هذا الميزان هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات ، يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة[٢] .

نداء علوي جميل للأمة التي لها القوامة والشهادة على البشرية:

قال اللّه تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[٤] .

« إنه نداء للذين آمنوا ، نداء لهم بصفتهم الجديدة ، وهي صفتهم

---

(١) « الجواب الكافي » بتصرف (ص١٩٠) .
(٢) « في ظلال القرآن » لسيد قطب (٦/ ٣٤٩٤) بتصرف دار الشروق .
(٣) سورة البقرة الآية (١٤٣) .
(٤) سورة النساء الآية (١٣٥) .

الفريدة ، صفتهم التي بها أنشئوا نشأة أخرىٰ ، وولدوا ميلاداً آخر ، ولدت أرواحهم ، وولدت تصوراتهم ، وولدت مبادئهم وأهدافهم ، وولدت معهم المهمة الجديدة التي تناط بهم ، والأمانة العظيمة التي وكلت إليهم ، أمانة القوامة علىٰ البشرية ، والحكم بين الناس بالعدل ، ومن ثم كان للنداء بهذه الصفة قيمته وكان له معناه .

وكان التكليف بهذه الأمانة الكبرىٰ تكليفًا شاقًا ثقيلاً .

إنها أمانة القيام بالقسط . . . بالقسط علىٰ إطلاقه في كل حال وفي كل مجال ، القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض ، والذي يكفل العدل بين الناس ، والذي يعطي كل ذي حق حقه .

﴿ **كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله** ﴾ . . .

حسبة للَّه ، وتجرداً من كل ميل ، ومن كل مصلحة ، ومن كل اعتبار

﴿ **ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ﴾ . . .

وهنا يحاول المنهج تجنيد النفس في وجه ذاتها ، وفي وجه عواطفها ، تجاه ذاتها أولاً ، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيًا ، وهي محاولة شاقة . . . أشق كثيراً من نطقها باللسان ، ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل . . . ولكن المنهج يجنِّد النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة . . . لأنها لابد أن توجد في الأرض هذه القاعدة ، ولابد أن يقيمها ناس من البشر .

ثم هو يُجنِّد النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً ، تشفق النفس من شهادة الحق ضده ، وتود أن تشهد له ، معاونة لضعفه ، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية .

وحين يكون المشهود له أو عليه غنيًا ، تقضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته ، أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده ! وهي مشاعر فطرية أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع . . . والمنهج يجنِّد النفس تجاهها كذلك كما جنَّدها تجاه حب الذات وحب الوالدين والأقربين .

﴿ **إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما** ﴾ .

وهي محاولة شاقة . . . ولا نفتأ نكرر أنها محاولة شاقة . . . وأن الإسلام حين دفع نفوس المؤمنين - في عالم الواقع - إلىٰ هذه الذروة ، التي تشهد بها تجارب الواقع التي وعاها التاريخ ، كان ينشيء معجزة حقيقية في عالم البشرية ، معجزة لا تقع إلا في ظل المنهج الإلهي العظيم القويم .

﴿ **فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾ .

والهوىٰ صنوف شتىٰ . . . حب الذات هوىٰ ، وحب الأهل والأقربين هوىٰ ، والعطف علىٰ الفقير - في موطن الشهادة والحكم - هوىٰ ، ومجاملة الغني هوىٰ ، وكراهة الأعداء - ولو كانوا أعداء الدين - في موطن الشهادة والحكم هوىٰ ، وأهواء شتىٰ الصنوف والألوان . . . كلها مما ينهىٰ اللَّه الذين آمنوا عن التأثر بها ، والعدل عن الحق والصدق تحت تأثيرها .

وأخيرًا يجيء التهديد والإنذار والوعيد من تحريف الشهادة ، والإعراض عن هذا التوجيه فيها . . . ﴿ **وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ ويكفي أن يتذكرالمؤمن أن اللَّه خبير بما يعمل ليستشعر ماذا وراء هذا من تهديد خطير ، يرتجف له كيانه ، فقد كان اللَّه يخاطب بهذا القرآن المؤمنين »[١] .

---

(١) « في ظلال القرآن » لسيد قطب (٢/ ٧٧٥ - ٧٧٦) - دار الشروق .

وقال تعالىٰ : ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(١) .

وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾(٣) .

وقال تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٤) .

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(٥) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٦) .

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

---

(١) سورة المائدة الآية (٤٢) .
(٢) سورة الحجرات الآية (٩) .
(٣) سورة الشورىٰ الآية (١٥) .
(٤) سورة المائدة الآية (٨) .
(٥) سورة النساء الآية (٥٨) .
(٦) سورة النحل الآية (٧٦) .

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[١] .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص - رضي اللَّه عنهما - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين ؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا**[٢] »[٣] .

وعن سلمان - رضي اللَّه عنه - قال : « سبعة يظلهم اللَّه في ظل عرشه يوم القيامة : رجل إذا ذكر اللَّه خاليًا فاضت عيناه ، ورجل أفنى شبابه ونشاطه في عبادة اللَّه ، ورجل قلبه معلَق بالمساجد من حبها ، ورجل تصدّق بيمينه ، وكان يخفيها من شماله ، ورجلان التقيا ، فقال كل واحد منهما : إني أحبك في اللَّه تصادراً على ذلك ، ورجل أرسلت إليه امرأة ذات منصب تدعوه إلى نفسها ، فقال : إني أخاف اللَّه ، وإمام مقتصد»[٤] .

وعن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **ثلاثة لا يـــــرد الله دعاءهم : الذاكر اللّه كثيراً ، والمظلوم ، والإمام المقسط** »[٥] .

وعن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول

---

(١) سورة النحل الآية (٩٠) .
(٢) وَلَوُا ، وأيضًا أتى الضبط هكذا « وما وُلُّوا » .
(٣) رواه مسلم وأحمد والنسائي .
(٤) إسناده حسن : رواه سعيد بن منصور في « سننه » ، وحسّن إسناده الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٢/ ٤٤) .
(٥) حسن : رواه البيهقي في « شعب الإيمان » ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٢١١) و«صحيح الجامع» رقم (٣٠٦٤) .

في بيتي هذا : « **اللَّهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به** »[١] .

وكفى منقبة وفضلاً للإمام العادل أن إجلاله من إجلال اللَّه وطاعته طاعة لرسول اللَّه ﷺ .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **مَــن أجــلّ ســلطـان اللَّه ، أجـلـه اللَّه يــوم القيامة** »[٢] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من أهان سلطان اللَّه في الأرض ، أهانه اللَّه**»[٣] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من أطاعني فقد أطاع اللَّه ، ومن عصاني فقد عصى اللَّه ، ومن يُطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعصي الأمير فقد عصاني** »[٤] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنما الإمام جُنَّة يقاتَل من ورائه ، ويُتَّقَى به ، فإن أمر بتقوى اللَّه وعدل فإن له بذلك أجراً ، وإن أمر بغيره فإنّ عليه وزراً** »[٥] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أخبركم بخيار أمرائكم وشرارهم ؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتدعون لهم ويدعون لكم ، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم** »[٦] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون**

---

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) حسن : رواه الطبراني عن أبي بكرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٨٢٨) ، و«الصحيحة» (٢٢٩٨) : حم ، وابن أبي حاتم .

(٣) حسن : رواه الترمذي عن أبي بكرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩٨٧) ، و«الصحيحة» (٢٢٩٦) : الطيالسي ، حم .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

(٦) صحيح : رواه الترمذي عن عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٥٩٦) .

عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم »[١] .

قالت الحكماء : إمام عادل ، خير من مطر وابل ، وإمام غشوم خير من فتنة تدوم ، ولما يزعُ اللَّه بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .

فحق على من قلده اللَّه أمّة حكمه ، وملّكه أمورخلقه ، واختصه بإحسانه ، ومكّن له في سلطانه ، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته ، والاعتناء بمرافق أهل طاعته ، بحيث وضعه اللَّه عز وجل من الكرامة ، وأجرىٰ له من أسباب السعادة ، قال اللَّه عز وجل : ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾[٢] .

قال كعب الأحبار : « مَثَل الإسلام والسلطان والناس ، مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد ، فالفسطاط : الإسلام ، والعمود : السلطان، والأطناب والأوتاد : الناس ، ولا يصلح بعضها إلا ببعض » .

لا يصلح الناس فوضى لا سَرَاةَ لهم ... ولا سراةَ إذا جُهّالهم سادوا

والبيت لا يُبتنى إلا له عَمَدٌ ... ولا عمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ

فإنْ تجمّع أوتاد وأعمدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذى كادوا

* * *

(١) رواه مسلم عن عوف بن مالك .

(٢) سورة الحج الآية (٤١) .

• وصلاح الرعية بصلاح الإمام :

قالت الحكماء : الناس تبع لإمامهم في الخير والشر .

وقال ابن القيم : أعمالكم عُمّالكم ، فإن ولاتنا من جنس أعمالنا .

وقال أبو حازم الأعرج : الإمام سُوق ، فما نفق عنده جُلِب إليه .

وقالوا : إذا صلحت العين صلحت سواقيها .

وقالوا : لا سلطان إلا بالرجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل .

وأسوس الناس لرعيته ، من قاد أبدانها بقلوبها ، وقلوبها بخواطرها ، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة .

والمُلْك والعدل أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر ، فالمُلْك أُسٌّ والعدل حارس ، والبناء ما لم يكن له أس فمهدوم ، والملك ما لم يكن له حارس فضائع .

وخير الملوك من إذا وَلِيَ لمْ يُطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه فهو غائب عنهم شاهد معهم ، فالمحسن راج والمسيء خائف .

ولا يصلح لهذا الأمر إلا اللَّيِّن من غير ضعف ، والقويّ من غير عنف .

قال سعيد بن سُويد بحمص : أيها الناس إن للإسلام حائطًا منيعًا ، وبابًا وثيقًا ، فحائط الإسلام الحق وبابه العدل ، ولا يزال الإسلام منيعًا ما اشتد السلطان ، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضربًا بالسوط ، ولكن قضاءً بالحق وأخذًا بالعدل .

* * *

• وصف الحسن البصري ـ الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء ـ للإمام العادل :

كتب عمر بن عبد العزيز ـ رحمه اللَّه ـ لَمّا ولي الخلافة إلىٰ الحسن بن أبي الحسن البصري ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن ـ رحمه اللَّه ـ : « اعلم يا أمير المؤمنين ، أن اللَّه جعل **الإمام العادل** قِوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونَصَفَة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالراعي الشفيق علىٰ إبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويُكنها من أذىٰ الحرّ والقرّ .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالأب الحاني علىٰ ولده ، يسعىٰ لهم صغاراً ، ويُعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كُرها ، ووضعته كرها ، وربّته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، تُرضعه تاره وتفطمه أخرىٰ ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ وصي اليتامىٰ ، وخازن المساكين ، يربُي صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالقلب بين الجوارح ، تصلح الجوارح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ هو القائم بين اللَّه وبين عباده ، يسمع كلام اللَّه ويُسمعهم ، وينظر إلىٰ اللَّه ، ويُريهم ، وينقاد إلىٰ اللَّه ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك اللّه عز وجل كعبد ائتمنه سيّده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدّد المال وشرّد العيال ، فأفقر أهله وفرّق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن اللّه أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها ؟! وأن اللّه أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم ؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويُفارك أحباؤك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾[١] .

واذكر يا أمير المؤمنين ﴿ أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾[٢] .

فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد اللّه بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فأنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزاراً مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك .

---

(١) سورة عبس الآية (٣٤ : ٣٦) .
(٢) سورة العاديات الآيتان (٩ ، ١٠) .

ولاتنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي اللَّه في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحي القيوم .

إني يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي ، فلم آلُك شفقة ونصحًا ، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمه اللَّه وبركاته »[١] .

* الترهيب من الإمارة وظلم وغش الرعية :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة ، وما هي ؟ أولها ملامة، وثانيها ندامة ، وثالثها عذاب يوم القيامة إلا مَنْ عدل** »[٢] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنكم ستحرصون على الإمارة ، وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة ، فنِعْمِ العِرافة المرضعة وبئست الفاطمة** »[٣] ،[٤] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه تعالى سائل كل راع عما استراعاه ، أحفظ ذلك أم ضيّعه ؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته** »[٥] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **العرافة أولها ملامة ، وآخرها ندامة ،**

---

(١) « العقد الفريد » (١/ ٣٥-٣٦) .

(٢) حسن : رواه الطبراني عن عوف بن مالك وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » رقم (١٥٦٢) ، و في « صحيح الجامع » رقم (١٤٣٣) .

(٣) المرضعة : مثل للإمارة وما توصله لصاحبها من المنافع ، والفاطمة : مثل للموت الذي يهدم عليه لذاته ويقطع منافعها .

(٤) رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) حسن : رواه النسائي وابن حبان في « صحيحه » ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٧٧٠) ، و« الصحيحة » رقم (١٦٣٦) .

والعذاب يوم القيامة »[١] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوام وُلُّوا هذا الأمر أنهم خروا من الثريا، وأنهم لم يَلوا شيئاً »**[٢] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ليودَّنَّ رجل أنه خرّ من عند الثريا ، وأنه لم يَلِ من أمر الناس شيئاً »**[٣] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ليوشكنَّ رجل أن يتمنّى أنه خرَّ من الثريا ولم يل من أمر الناس شيئاً »**[٤] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من أمير عشرة ، وإلا وهو يُؤتى به يوم القيامة مغلولاً ، حتى يفكّه العدل ، أو يوبقه الجور »**[٥] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من أمير عشرة ، إلا وهو يُؤتى به يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه »**[٦] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك ، إلا أتى اللَّهَ مغلولاً يدُه إلى عنقه ، فكّه برُّه أو أوثقَهُ إثمه ، أولها ملامة ، وأوسطها ندامة ، وآخرها خزي يوم القيامة »**[٧] .

---

(١) حسن : رواه الطيالسي عن أبي هريرة ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٠٠٧) .

(٢) حسن : رواه أحمد في « مسنده » عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٢٣٦) ، و« الصحيحة » (٣٦١) .

(٣) حسن : الحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٣٦١) ، و« الصحيحة » (٣٦١) .

(٤) حسن : الحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٣٦٢) ، و« الصحيحة » (٣٦١) .

(٥) صحيح : البيهقي في « سننه » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٥٧١) ، و« الصحيحة » رقم (٣٤٤) .

(٦) صحيح : البيهقي في « سننه » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٥٧٢) .

(٧) حسن : أحمد في « مسنده » عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم =

• الإمام العادل أبعد شيء عن ظلم الناس لعلمه بعاقبته :

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أربعة يبغضهم اللَّه تعالى : البيّاع الحلاّف ، والفقير المختال ، والشيخ الزاني ، والإمام الجائر** »(١) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أشد الناس عذابًا للناس فى الدنيا ، أشد الناس عذابًا عند اللَّه يوم القيامة** »(٢) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أشد الناس يوم القيامة عذابًا إمام جائر** » (٣) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أخاف عليكم ستًا : إمارة السفهاء ،وسفك الدماء، وبيع الحُكْم ، وقطيعة الرحم ، ونشوًا يتخذون القرآن مزامير ، وكثرة الشُّرَط**»(٤) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون**»(٥) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن شر الرِّعاء الحُطَمَة** »(٦) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أيما راع غش رعيته فهو فى النار** »(٧) .

= (٥٥٩٤) ، و« الصحيحة » رقم (٣٤٨) .

(١) صحيح : رواه النسائي والبيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٩٣) ، و« الصحيحة » رقم (٣٦٢) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » والبيهقي في « شعب الإيمان » عن خالد بن الوليد ، والحاكم في «المستدرك» عن عياض بن غنم وهشام بن حكيم ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم(١٠٠٩) ، و« الصحيحة » رقم (١٤٤٢) .

(٣) حسن : رواه أبو يعلى في « مسنده » والطبراني في « الأوسط » وأبو نعيم في « الحلية » عن أبي سعيد ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٠١٢) .

(٤) صحيح : رواه أحمد والطبراني في « الكبير » عن عوف بن مالك ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢١٦) ، و« الصحيحة » رقم (٩٧٩) .
ونشوا : أي الناشئون الصغار .

(٥) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » والطبراني في « الكبير » عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٥٤٧) ، و« الصحيحة » رقم (١٥٨٢) .

(٦) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » ومسلم عن عائذ بن عمرو .

(٧) صحيح : رواه ابن عساكر عن معقل بن يسار ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم =

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ثلاث أخاف على أمتي : الاستسقاء بالأنواء ، وحيف السلطان ، وتكذيب بالقدر** »[١] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ثلاثة لا يكلمهم اللّه يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر**»[٢] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي : إمام ظلوم غشوم ، وكل غال مارق** »[٣] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من أمير يلي أمر المسلمين ، ثم لا يَجْهد لهم وينصح ، إلا لم يدخل معهم الجنة** »[٤] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من عبد يسترعيه اللّه رعية ، يموتُ يوم يموت، وهو غاش لرعيته ، إلا حرّم اللّه عليه الجنة** »[٥] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : «**ما من إمام أو وال ، يَغلقُ بابهُ دون ذوي الحاجة والخَلّة ، والمسكنة ، إلا أغلق اللّه أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته** »[٦] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من ولي من أمور المسلمين شيئاً ، فاحتجب دون**

= (٢٧١٠) ، و« الصحيحة » رقم (١٧٥٧) : حم ، م .

(١) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » والطبراني في « الكبير »عن جابر بن سمرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٠١٩) ، و« الصحيحة » رقم (١١٢٧) : ع ، ابن أبي عاصم ، طب ، طص ، عم .

(٢) صحيح : رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة .

(٣) حسن : الطبراني في « الكبير » عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦٩٢) ، و« الصحيحة » رقم (٤٧٠) .

(٤) صحيح : رواه مسلم عن معقل بن يسار .

(٥) صحيح : رواه البخاري ومسلم عن معقل بن يسار .

(٦) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » والترمذي عن عمرو بن مرة ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٥٦١) ، و« الصحيحة » رقم (٦٣٠) .

خلتهم ، وحاجتهم ، وفقرهم ، وفاقتهم ، احتجب اللَّه عنه يوم القيامة ، دون خلته، وحاجته ، وفاقته ، وفقره »[١] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لعن اللَّه الراشي والمرتشي في الحكم** »[٢] .

* الإمام العادل قدوته وأسوته رسول اللَّه ﷺ :

الإمام العادل يضع نصب عينيه قول رسول اللَّه ﷺ **وهو القدوة والأسوة : « إني لأرجو أن أفارقكم ولا يطلبني أحد منكم بمظلمة ظَلَمته »**[٣] .

وعن أنس - رضي اللَّه عنه - قال : وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه تعالى هو : الخالق ، القابض ، الباسط ، الرازق ، المسعِّر ، وإني لأرجو أن ألقى اللَّه ، ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال** »[٤] .

أكرم بـه هادياً لولا هدايتـــه لم يظهر العدل في أرض ولم يقم

بأبي وأمي رسول اللَّه ﷺ إذ يقول :

« **أما بعد ، فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » .

● وروىٰ البخاري عنه قوله ﷺ : « **إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعلّ**

---

(١) صحيح : لأبي داود وابن ماجه والحاكم في « المستدرك » عن أبي مريم الأزدي ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٤٧١) ، و« الصحيحة » رقم (٦٢٩) .

(٢) صحيح : أحمد في « مسنده » والترمذي والحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٩٦٩) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، ورواه أحمد ، والطبراني في « الأوسط » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٤٨٠) .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والبيهقي في «سننه» ، وصححه الألباني في « غاية المرام » (٣٢٣) و« صحيح الجامع » رقم (١٨٤٦) .

بعضكم أن يكون ألحن من بعض ، فأحسب أنه صادق ، فأقضي له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » .

● ويقدم أعدل الناس ﷺ نفسه للقصاص :

فبينما كان رسول اللَّه ﷺ يعدل صفوف جيشه ، مرّ بسواد بن غزية ، وهو خارج عن الصف فطعن في بطنه بعود كان في يده قائلاً : « **استو يا سواد**» ، وهنا قال سواد : أوجعتني يا رسول اللَّه ، وقد بعثك اللَّه بالحق والعدل ، ثم طلب من الرسول ﷺ أن يعطي القصاص من نفسه قائلاً : أقدني ، فلم يتردد ﷺ ، وكشف عن بطنه ﷺ ليقتص منه سواد قائلاً له : «**استقد**» .

ولكن سواد بدلاً من أن يطعن في بطن الرسول قصاصًا ، أخذ يقبّلها ، فقال له الرسول ﷺ : « **ما حملك على هذا يا سواد ؟** » .

قال : يا رسول اللَّه حضر ما ترىٰ ـ يعني القتال ـ فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك ، فدعا له الرسول ﷺ بخير[١] .

● وقضيته مع ابن عباس وأبي بكر ـ رضي اللَّه عنهما ـ ، هذا غلام وذاك شيخ له منزلته وصحبته ، فكان ابن عباس عن يمينه وأبو بكر عن يساره ، فأتىٰ ﷺ بقدح فشرب ، ومن حق العطاء لمن علىٰ اليمين ، فلم يقدم أبا بكر مع طول صحبته وعلو منزلته وعظيم مِنَنه علىٰ ابن عباس مع حداثة سنّه ، ولكن قال لابن عباس : « **الحق لك ، ولكن هل تأذن لأبي بكر فيشرب قبلك؟** » فيقول ابن عباس : واللَّه لا أوثر علىٰ سؤرك أحدًا يا رسول اللَّه . فيناوله فيشرب قبل أبي بكر .

ولقد أمر رسول اللَّه ﷺ بالعدل مع عامة الناس وخاصتهم حتىٰ الوالد

---

(١) « سلسلة معارك الإسلام الفاصلة » ـ غزوة بدر ـ لمحمد أحمد بشاميل (ص١٥٦ ـ ١٥٧) ـ دار الفكر .

في ولده فقال : « **اتقوا اللّه واعدلوا بين أولادكم في العطاء** » .

وأمر الزوج بالعدل بين الزوجات ، بل أمر الإنسان نفسه أن يعدل بين نفسه فإذا انقطعت شراك إحدىٰ نعْليه خلع الأخرىٰ ، وقال : « **لينعلهما معًا أو ليحفهما معًا** »[1] .

* الإمام العادل من يدعو إلى التوحيد ويطهر بلاده من الشرك ويقيم حدود اللّه :

ولما كان التوحيد هو أعظم القسط ورأس العدل وأعدل العدل كان من صفة الإمام العادل الدعوة إليه وإلىٰ عقيدة أهل السنة والجماعة ، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وعليه أن يطهر بلاده من البدع وأهلها ويقمع باطلهم بما كان عليه صحابة رسول اللّه ﷺ والقرون الخيرية ورد الأمر إلىٰ ما كان عليه في الصدر الأول .

قال عمر بن عبد العزيز : لولا سنة أُحييها أو بدعة أُميتها ، لما باليت أن لا أعيش فواقًا » .

وقال ـ رحمه اللّه ـ : لو كان كل بدعة يميتها اللّه علىٰ يدي ، وكل سنة ينعشها اللّه علىٰ يدي ببُضعة من لحمي ، حتىٰ يأتي آخر ذلك علىٰ نفسي ، كان في اللّه يسيرًا .

وقال أحمد بن حنبل : « إن اللّه تعالىٰ يقيض للناس في كل رأس مائة سنة من يعلمهم السنن وينفي عن رسول اللّه ﷺ الكذب ، فنظرنا ، فإذا في رأس المائة الأولىٰ عمر بن عبد العزيز .

قال ابن الجوزي عن الإمام العادل : « ينبغي أن لا يخلي مجلسه من كبار العلماء الأخيار الأفاضل الذين يخافون اللّه فإن ذلك زيادة في دينه

---

(١) « ظلال عرش الرحمن » (ص٨٨) .

ودنياه ولا يعمل شيئًا إلا بفتواهم »[١] .

والإمام العادل من أقام حدود اللَّه ، قال ﷺ : « **إقامة حد من حدود اللَّه خير من مطر أربعين ليلة فى بلاد اللَّه** »[٢] .

وقال ﷺ : « **حدّ يُعمل فى الأرض ، خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحًا** »[٣] .

وقال ﷺ : « **أقيموا حدود اللَّه تعالى في البعيد والقريب ولا تأخذكم باللَّه لومة لائم** »[٤] .

وقال ﷺ : « **إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد** »[٥] .

والإمام العادل لا يحابي في إقامة الحدود ، نبراسه قول النبي ﷺ لحبه وابن حبه أسامة بن زيد : « **يا أسامة أتشفع في حدّ من حدود اللَّه ؟** »[٦] .

وقوله ﷺ : « **من حالت شفاعته دون حد من حدود اللَّه فقد ضاد اللَّه في أمره** »[٧] الحديث .

---

(١) « الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء » لابن الجوزي (ص٥٧) .
(٢) حسن : رواه ابن ماجه عن عبد اللَّه بن عمر ، و حسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١١٥٠) ، و« الصحيحة » رقم (٢٣١) .
(٣) حسن : رواه ابن ماجه والنسائي عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣١٢٥) ، و« الصحيحة » رقم (٢٣١) .
(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٢٠١) ، و« الصحيحة » رقم (٦٣٨) .
(٥) صحيح : البخاري ومسلم عن عائشة .
(٦) رواه البخاري ومسلم عن عائشة .
(٧) صحيح : لأبي داود والطبراني في « الكبير » والحاكم والبيهقي في «السنن » عن ابن عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٠٧٣) ، و« الصحيحة » رقم (٤٣٨) .

والإمام العادل يلتزم آداب الشرع في التعزير قال ﷺ : « **لا عقوبة فوق عشر ضربات إلا في حدّ من حدود الله** »[١] ، وقال ﷺ : « **لا تعزروا فوق عشرة أسواط** »[٢] .

قال ابن الجوزي : « وليحذر السلطان من العمل بالهوىٰ والغضب أو يجري علىٰ قانون العادة فيما كان من قبله يفعل ، فإن خلقا من الأمراء يقطعون يد من لا يجوز قطعه ، ويقتلون من لا يجوز قتله ، ويسمون ذلك سياسة وهذا انتقاد علىٰ الشرع معناه : أن الشرع قاصر وأنه ما ورد بما يكفي من الردع فنحن نضم إليه برأينا هذا .

وهذا من أقبح الأشياء ، بل الشريعة هي السياسة »[٣] .

وقال ابن الجوزي : « إن الشريعة سياسة إلهية ومحال أن يقع في سياسة الإله خلل يحتاج معه إلىٰ سياسة الخلق ، قال الله عز وجل : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾[٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** ﴾[٥] .

فمدعي السياسة مدّعي الخلل في الشريعة وهذا يزاحم الكفر »[٦] .

* * *

(١) صحيح : رواه البخاري عن رجل .
(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي بردة بن نيار .
(٣) « الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء » لابن الجوزي (ص٥٨ ، ٥٩) .
(٤) سورة الأنعام الآية (٣٨) .
(٥) سورة الرعد الآية (٤١) .
(٦) « تلبيس إبليس » لابن الجوزي (ص١٢٩) .

نور الدين محمود زنكي مثل يُحتذى به في التزام حدود الشرع وعدم تعدّيها :

« كان نور الدين لما صارت له الموصل ، قد أمر كمشتكين شحنة[١] الموصل أن لا يعمل شيئًا إلا بالشرع إذا أمره القاضي به ، وأن لا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئًا إلا بأمر الشيخ عمر الملاّء .

فكان لا يعُمل بالسياسة وبطُلت الشحنكية ، فجاء أكابر الدولة وقالوا لكمشتكين : قد كثر الزعار وارتاب الفساد ، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب ، فلو كتبت إلىٰ نور الدين وقلت له في ذلك فقال لهم : أنا لا أكتب إليه في هذا المعنىٰ ولا أجسر علىٰ ذلك فقولوا للشيخ عمر الملاّء يكتب إليه فحضروا عنده وذكروا له ذلك فكتب إلىٰ نور الدين وقال له : إن الزعار والمفسدين وقطّاع الطريق قد كثروا ونحتاج إلىٰ نوع سياسة ، فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرْب وإذا أخذ أموال الإنسان بالبرّية ، من يجيء يشهد له ؟ فقلب نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ كتابه وكتب علىٰ ظهره : إن اللَّه تعالىٰ خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم ، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه علىٰ وجه الكمال فيها ، ولو علم أن المصلحة في زيادة الشريعة لشرعه فما حاجة إلىٰ زيادة علىٰ ما شرعه اللَّه ؟ فجمع الشيخ عمر الملاّء أهل الموصل وقال : انظروا كتاب الزاهد إلىٰ الملك وكتاب الملك إلىٰ الزاهد»[٢] .

حالت لفقدكم أيامنا فغــدت سـودا وكانت بكم بيضا ليالينا

ليسُق عهدكم عهد الســرور فما كنتم لأرواحنــا إلا رياحينــا

---

(١) رئيس الشرطة .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير ، و« عيون الروضتين في أخبار الدولتين » .

الإمام العادل يتفقد أحوال رعيته وخواصه :

اعلم أن رعية الإمام علىٰ نوعين : خواص وعوام ، فينبغي أن يكون التفقد لأحوال الخواص أكثر لأنهم كالأدوات والآلات فمثلهم كمثل الأعضاء والسلطان كالقلب ، وإنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه ومتىٰ نزلت آفة بعضو لم يأمن تعدّيها إلىٰ القلب ومتىٰ علم ولاة السلطان أنه يقصد شيئًا فإنه كالسوق مهما نفق فيه جلب إليه فإن رأوه يحب العدل عدلوا .

عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال : رأيت أبا بكر عمرو بن حزم يعمل بالليل كعمله بالنهار لاستحثاث عمر بن عبد العزيز إياه .

وكان الجراح بن عبد اللَّه عامل عمر بن عبد العزيز علىٰ خراسان كلها ، فكتب إليه عمر : « بلغني أنك استعملت عمارة ، ولا حاجة لي بعمارة ، ولا بضرب عمارة ولابرجل قد صبغ يده في دماء المسلمين فاعزله » .

وكتب إليه عدي بن أرطاة : « من عدي بن أرطاة : أما بعد أصلح اللَّه أمير المؤمنين ، فإن قبلي أناسًا من العمال قد اقتطعوا من مال اللَّه عز وجل مالاً عظيمًا ، ليست أرجو استخراجه من أيديهم ، إلا أن أمسهم بشيء من العذاب ، فإنْ رأىٰ أمير المؤمنين - أصلحه اللَّه - أن يأذن لي في ذلك ، أفعل .

فأجابه : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر ، كأني لك جُنة من عذاب اللَّه ، وكأن رضائي عنك يُنجيك من سخط اللَّه عز وجل ، فانظر من قامت عليه بينة عدول ، فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقرّ لك بشيء فخذه بما أقرّ به ، ومنْ أنكر فاستحلفه باللَّه العظيم وخلّ سبيله ، وايم اللَّه ، لأنْ يلقوا اللَّه عز وجل بخياناتهم ، أحب إليّ من أن ألقىٰ اللَّه بدمائهم والسلام .

الإمام العادل يُسهّل الإذن للعوام :

فإن علم النواب بذلك يكفّهم عن ظلم العوام ، وشدة الحجاب توجب انبساط النواب في الرعية كما قال المأمون : ما انفتق عليّ فتق إلا رأيت سببه من العمّال .

انظروا إلىٰ نور الدين محمود زنكي ، فقد بنىٰ هذا السلطان العادل داراً للعدل ، وكان سبب بنائها أن أمراءه وقوّاد جيوشه تعدّوْا علىٰ من يجاورهم، فكثرت الشكاوىٰ إلىٰ القاضي كمال الدين فأنصف بعضهم ، ولم يتجرأ علىٰ القائد أسد الدين شيركوه ، فلما سمع نور الدين بذلك ، بنىٰ هذه الدار ، وأحسن نور الدين بهذا ، فقال لنُوّابه : واللّه لئن أُحضرْتُ إلىٰ دار العدل بسبب أحدكم ، لأصلبنه ، فامضوا إلىٰ كل من بينكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال[1] معه ، فقالوا : إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتطون في الطلب ، فقال : خروج أملاكي عن يدي أسهل علّي من أن يراني نور الدين بعين أبيٍّ ظالم .

وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع ، فلما علم ما حصل مع أسد الدين شيركوه سجد للّه شكراً ، و قال الحمد للّه الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[2] .

قال الفضيل : « لو كانت عندي دعوة مستجابة لم أجعلها إلا في الإمام، فإنه إذا صلح الإمام صلحت البلاد وأمن العباد ، فقام ابن المبارك فقبّل رأسه، وقال : أحسنت يا معلم الخير »[3] .

---

(١) أي انهوا المشكلة بأي طريقة .
(٢) « عيون الروضتين في أخبار الدولتين » (١/ ٨) .
(٣) «الحكمة الخالدة » لابن مسكويه .

فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها ، وإلى هذه الهيبة ما أعظمها!! .

الإمام العادل يضع كل شيء في موضعه اللائق به :

قال الغزالي : « ربما ظن الناس أن الظلم هو الإيذاء ، والعدل هو إيصال النفع إلى الناس وليس كذلك ، بل لو فتح الملك خزائنه المشتملة على الأسلحة والكتب وصنوف الأموال ولكنه فرق الأموال على الأغنياء ، ووهب الأسلحة على أهل العلم ، وسلّم إليهم القلاع ، ووهب الكتب للأجناد وأهل القتال ، وسلّم إليهم المساجد والمدارس ، فقد نفع ، ولكنه ظلم إذ وضع كل شيء في غير موضعه اللائق به »[1] .

لله در شوقي حين يقول :

خلائف اللّه جلُّوا عن موازنة ... فلا تقيسنَّ أملاك الورى بهمِ
مَن في البرية كالفاروق مَعْدَلَةً ... وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم
وما بلاء أبي بكر بمتّهم ... بعد الجلائل في الأفعال والخدم
بالحزم والعزم حاط الذين في محن ... أضلت الحِلمْ من كهل ومُحْتِلَمِ

* * *

الصديق الأكبر القريب والبعيد عنده سواء : (حالب شياه اليتامى)

كان ـ رضي اللّه عنه ـ يقول : « إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق »[2] .

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنه ـ وهو يعدّد مناقب الصديق بعد وفاته : « لم يكن لأحد فيك مهمز ولا لقائل فيك مغمز ، ولا فيك

---

(١) « له الأسماء الحسنى » (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤) ، للدكتور أحمد الشرباصي ـ دار الجيل بيروت .
(٢) « الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء » (ص٨٠) ، و« صفة الصفوة » (١/ ٢٦٠) .

طمع ، ولا عندك هوادة لأحد ، الضعيف الذليل عندك قوي حتىٰ تأخذ له بحقه ، والقوي العزيز عندك ذليل حتىٰ يؤخذ منه الحق ، والقريب والبعيد عندك في ذلك سواء »(١) .

• لو لم يكن للصديق إلا ثباته وحمايته لدين اللَّه في أيام الردة لكفاه منقبة تنقطع دونها أعناق البشر جميعًا .

• ومن في الناس كأبي بكر وعمر اللذين قال فيهم رسول اللَّه ﷺ : «**هذان السمع والبصر**» يعني أبا بكر وعمر(٢) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، إلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما يا عليّ** » يعني أبا بكر وعمر(٣) .

فهما مبرّزان في العدالة ، وكذا ذي النورين وأمير المؤمنين علي - رضي اللَّه عنهم جميعًا .

• ومن عدل الصديق : أنه سوّىٰ بين رعيته في العطاء وقسمة المال ، واعتبر أن سابقة بعضهم في الخيرات إنما يثاب عليها في الدار الآخرة .

عن عائشة - رضي اللَّه عنها - : « قسم أبي أول عام الفيْء ، فأعطىٰ الحُرّ عشرة ، وأعطىٰ المملوك عشرة ، والمرأة عشرة ، وأمَتها عشرة ، ثم قسّم في العام الثاني ، فأعطاهم عشرين عشرين »(٤) .

---

(١) « مجمع الزوائد » (٩/ ٤٨) للهيثمي .
(٢) صحيح : رواه الترمذي ، والحاكم في « المستدرك » عن عبد اللَّه بن حنطب ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٠٠٤) ، و« الصحيحة » رقم (٨١٤) .
(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أنس وعلي وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٠٠٥)، و« الصحيحة » رقم (٨٢٢) .
(٤) إسناده حسن لغيره : أخرجه ابن سعد (٣/ ١٩٣) .

وقال سهل بن أبي حثمة ـ رضي اللَّه عنه ـ : قدم مال في خلافة الصديق، فكان أبو بكر يقسمه على الناس نُقراً نُقر ؛ فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا ، وكان يسوّي بين الناس في القسم ، الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير فيه سواء »[١] .

للَّه در أبي بكر من إمام عظيم متفوِّق لم تفلت منه مَزّيّة ، ولم تغب عنه فضيلة ، يقول هذه الكلمات المعجزات في مستهل حكمه ، ينطق كل حرف منها بالحكمة والقسطاس .

للَّه دره كم كان ولاؤه لتطبيق هدي نبيه ﷺ حرفيًا حتى في الظروف التي تجيش فيها العواطف وهو أرق الناس أفئدة .

لقد كُتب عليه أن يبدأ عهد خلافته بواقعة امتحن فيها ولاؤه للعدل وهدي نبيه امتحانًا عظيمًا ، حين ذهبت إليه فاطمة عليها السلام بنت رسول اللَّه ﷺ تسأله قطعة أرض باعتبارها ميراث أبيها ﷺ ، فقال لها أبو بكر : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة**»[٢] ، إني واللَّه لا أدع أمرًا رأيت رسول اللَّه ﷺ يصنعه إلا صنعته ، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ ، وهو يعلم أن أولى الناس بالرعاية بنت حبه ورسوله ﷺ . . فللَّه دره وهو يحمل إيمان العباقرة لا تثنيه عن عدله أرق الوشائج .

* * *

---

(١) إسناده حسن لغيره : أخرجه ابن سعد .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد (٨/ ٣٦٤) ، وابن الأثير في « أُسد الغابة » (٣/ ٣٢٨) .

حالب شياه الجواري ... وهوخليفة !!! أمر فريد في التاريخ :

عن أنيسة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين ، سنتين قبل أن يُستخلف ، وسنة بعدما استُخلِف ، فكان جواري الحي يأتينه بغنمهنّ ، فيحلبهن لهنّ .

وفي رواية لابن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ : كان يحلب للحي أغنامهم ، فلما بويع بالخلافة ، قالت جارية من الحيّ : الآن لا يحلب لنا منائحنا ، فسمعها أبو بكر فقال : بلى ، لعمري لأحلبنها لكم ، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلتُ فيه عن خُلق كنت عليه .

فكان يحلب لهم ، فربما قال للجارية : أتحبين أن أُرغي لك ، أو أن أصرِّح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت : صرّح ، فأيّ ذلك قالت ، فعل(١) .

« أنت هو لعمري » ... السباق دائماً :

عن أبي صالح الغفاري أن عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزًا فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ، فأصلح ما أرادتْ ، فجاءها غير مرّة كيْلا يُسبق إليها ، فرصده عمر ، فإذا هو أبو بكر الذي يجيئها ، وهو يومئذ خليفة ، فقال عمر : « أنت هو لعمري » ويرحم اللَّه عبد الحليم المصري حيث يقول في بكريته الرائعة :

رأى عمرُ يومًا عجوزًا بدارها ... غدا الموت منها للبقية حاسيا
فقال : أُواسيها وأقضي أمورها ... فقد عَدمت في المسلمين مُواسيا
مضى غاشيًا في نَهْرة الصبح دَارها ... فألفى لها في نَهْرَة الفجر غاشيا
فقال لهَا :مَنْ كان في الحي سابقي ... ومن ذا الذي يبدو له ما بَدَاليَا ؟

---

(١) إسناده حسن لغيره : أخرجه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ١٨٦) .

فقالت : كريم يعتري الدار سحْرة فيجمع أشـــتاتي ويرحـــمُ ما بيـــا
فقال : سأحيي الليل أرعى طُرُوقَه وأرصدُ سبّاقًا إلى الخير ساعيـــا
فشقّ رواقُ الليل عن رونق الضحى ولكنه الصدّيق من كان باديـــاَ
فألقى الكُلى[(١)] عن عاهل عزّ قبلها وما حملتـــــه النَفس إلا المعاليـــا
وألقى العصا في جانب من خنائها وهيّأ فيه للقدور الأثافيـــــا
فصاح به الفاروق : ما كان سابقي سواك أبا بكر ولا كنتُ راضيـــا
أفي كلِّ دارٍ من أبي بكـــر امـــرؤ إذا أهلها نَادَوا أجابَ المناديَـــا
ألا عائـــــلٌ إلا تمثّلتَ كافـــــلاً ولا مُشْتَكٍ إلا تمثّلْتَ آسيَـــــا

أبو بكر الورع عن مال المسلمين :

عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ : لما مرض أبو بكر مرضه الذي مات فيه قال : « انظروا ما زاد في مالي منذ دخلتُ الإمارة ، فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي ، فإني قد كنت أستحلّه .

وفي رواية : أستصلحه جهدي ، وكنت أصيب من الودك[(٢)] نحواً مما كنت أصيب في التجارة ، قالت عائشة : فلما مات نظرنا : فإذا عبد نوبي كان يحمل صبيانه ، وإذا ناضح كان يسقي بستانًا له ، فبعثنا بهما إلى عمر ، فأخبرني جدي أن عمر بكى ، وقال : ـ رحمة اللَّه ـ على أبي بكر لقد أتعب مَنْ بعده تعبًا شديداً[(٣)] .

---

(١) جمع كلية وهي ما يحمل فيها الماء .
(٢) الودك : دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه .
(٣) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ١٩٢) .

وعن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : إن أبا بكر حين حضره الموت قال : إني لأعلم عند أبي بكر من هذا المال شيئًا غير هذه اللقحة ، وغير هذا الغلام الصيقل ، كان يعمل سيوف المسلمين ، ويخدمنا ، فإذا متّ فادفعيه إلىٰ عمر ، فلما دفعته إلىٰ عمر قال : رحم اللَّه أبا بكر ، لقد أتعب مَنْ بعده[١] .

وفي رواية أن الصديق قال لعائشة : « أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ، ولا درهما ولكنا قد أكلنا من جريش[٢] طعامهم في بطوننا ،ولبسنا من خشن ثيابهم علىٰ ظهورنا ، وليس عندنا من فِيء المسلمين قليل ، ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجَرْدَ هذه القطيفة ، فإذا متّ فابعثي بهن إلىٰ عمر ، وابرئي منهن ، ففعلتُ .

فلما جاء الرسول عمر بكىٰ حتىٰ جعلت دموعه تسيل في الأرض ، ويقول : رحم اللَّه أبا بكر ، لقد أتعب من بعده ، رحم اللَّه أبا بكر لقد أتعب من بعده »[٣] .

وللَّه در الشيخ عبد الحليم المصري وهو يقول في قصيدته « البكرية » :

وقال : وقد حان الفراقُ لأهله ... إذا متُ رُدُّوا عبدهم وردائيا

وردوا عليهم حائطي في دارهم ... تقاضيتها منهم وردّوا صحافيا

فذكرك في الأحياء سال مدائحًا ... وذكرك في الأموات حال مراثيا

فمن لي بدمع المسلمين إذا جرى ... وما سوف يغدو للأجنة جاريا

(١) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد في « طبقاته » (٣/ ١٩٢) .
(٢) الجريش : غليظ الطعام .
(٣) إسناده حسن لغيره : أخرجه ابن سعد (٣/ ١٩٦) وفيه انقطاع ، لكن له متابعات كثيرة .

سنبذل من تلك العيون كرائما ... ونُرخِصُ من تلك الدموع غواليا
وفاءً وتَحْنَانا إلى الزمن الذي ... تضوّع عن عطر الخلافة ذاكيا
ليالي كان الناس لا المالُ مالهم ... وما هو إلا مالُ مَن جاء عافيا
وما فضل مولود على مال والدٍ ... وما ذنب مولود من المال خاليا
ولا فرق فهم بين مولى وعبده ... إذا جاءهم عبد لمولاه شاكيا
وما الحق إلا حائط بين قوة ... وضعف وليس العدل إلا تقاضيا
أربٌّ أبي بكر سيخلقُ مثله ... فيدرك من بُنيانه متراميا
بقيةُ إيمان وآثارُ أمة ... توارث عن الأبصار إلاّ بواقيا
ذكرتُ أبا بكر لقومي وليتني ... بلغت به ما كنت فى القول راجيا
لعلّ سراة الدهر تبلغ فجره ... فأنّى أرى الأصباح تتلو الدياجيا

بذكر عمر وعدله تطيب المجالس :

للّه در عمر بن الخطاب من إمام « ناصح اللّه فنصحه اللّه تعالىٰ »[1] كما قال علي بن أبي طالب ، لقد كانت مواقف عدله مترعة بإجلال منقطع النظير . . في كل موقف عظائم تتفوق علىٰ نفسها ، ويزحم بعضها بعضًا . . إمام يحمل مسئولياته علىٰ نمط فذّ ، ويعطي البشر جميعًا إلىٰ آخر لحظة في الأبد ، درسًا في الأمانة ، أي درس ، وقدوة في الذمة والقسطاس ـ أي قدوة . . . !!

موقفه من نفسه . . . موقفه من أهله . . . موقفه من الضعيف ومن

(١) « تاريخ دمشق » لابن عساكر ـ ترجمة عمر بن الخطاب (ص٣١٠) ، تحقيق سكينة الشهابي ـ مؤسسة الرسالة .

القوي في قومه وأمته . . . موقفه من ولاته . . . موقفه من أموال الأمة .

للّه در إمام منفعل بمسئوليته ، ويتبتّل لها ، ويقبل عليها في مثل عزم المرسلين . . . إن بين جوانحه ، وملء نفسه تفانيًا رهبانيا ، لا يسأل عن العواقب ولا يُجري بين يديها أيّ تقدير أو حساب . . . !!

عن عامرالشعبي قال : « قال عمر رضوان اللّه عليه : واللّه قد لان قلبي حتىٰ هو ألين من الزبد ، ولقد اشتد قلبي حتىٰ هو أشد من الحجر » .

وكان رضوان اللّه عليه ، إذا أتاه الخصمان برك علىٰ ركبته وقال : «اللّهم أعني عليهما ، فإن كل واحد منهما يردني عن ديني »[١] .

وكان من خطبته ـ رضي اللّه عنه ـ : « ألا وإني واللّه ما أُرسل عمّالي إليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلهم إليكم ليعلِّموكم دينكم وسنّتكم ، فمن فُعل به سوىٰ ذلك فليرفعه إليَّ فوالذي نفسي بيده لأقصنه منه » . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أفرأيت إن كان رجل من المسلمين علىٰ رعية فأدَّب بعض رعيته ، إنك لتقصنه منه ؟ قال : « إي والذي نفس عمر بيده إذًا لأقصنه منه ، ألا أقص منه وقد رأيت رسول اللّه ﷺ ، يقصّ من نفسه ، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيِّعوهم »[٢] .

● عن عبد الرحمن بن غنم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : ويل

---

(١) « مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » لابن الجوزي ، تحقيق دكتوره زينب القاروط (ص٩٤). دار الكتب العلمية .

(٢) « مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » لابن الجوزي (ص٩٤ ـ ٩٥) .

لديّان الأرض من ديّان السماء يوم يلقونه ، إلا من أمر بالعدل ، فقضىٰ بالحق ، ولم يقض علىٰ هوىٰ ، ولا علىٰ قرابة ، ولا علىٰ رغبة ولا رهب ، وجعل كتاب اللَّه مرآة بين عينيه »[1] .

عمر وأبو موسى الأشعري :

عن جرير بن عبد اللَّه البجلي ، أن رجلاً كان مع أبي موسىٰ الأشعري وكان ذا صوت ونكاية في العدو ، فغنموا مغنمًا فأعطاه أبو موسىٰ بعض سهمه ، فأبىٰ أن يقبله إلا جميعًا ، فجلده أبو موسىٰ عشرين صوتًا وحلقه، فجمع الرجل شعره ، ثم ترحل إلىٰ عمر بن الخطاب ، حتىٰ قدم عليه ، فدخل علىٰ عمر بن الخطاب ، قال جرير : وأنا أقرب من عمر بن الخطاب، ثم قال : أما واللَّه لولا النار ، فقال عمر : صدق واللَّه لولا النار، فقال : يا أمير المؤمنين إني كنت ذا صوت ونكاية ، فأخبره أمره ، قال : ضربني أبو موسىٰ عشرين سوطًا ، وحلق رأسي وهو يرىٰ أنه لا يُقتص منه ، فقال عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ : لأن يكون الناس كلهم علىٰ صرامة هذا ، أحب إلي من جميع ما أفاء اللَّه علينا ، فكتب عمر إلىٰ أبي موسىٰ : سلام عليك أما بعد ، فإن فلانًا أخبرني بكذا وكذا ، فإن كنت فعلت ذلك في ملأ من الناس فعزمت عليك لما قعدت له في ملأ من الناس، حتىٰ يقتص منك ، وإن كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس ، فاقعد له في خلاء من الناس حتىٰ يقتص منك ، فقدم الرجل فقال له الناس: اعف عنه فقال : لا واللَّه لا أدعه لأحد من الناس ، فلما قعد أبو موسىٰ ليقتص منه ، رفع الرجل رأسه إلىٰ السماء ، ثم قال :

(١) إسناده صحيح : رواه سمويه في « فوائده » (٣٨) ، وأخرجه الدارمي مختصراً (ص١٠٤) قال الألباني في « مختصر العلو » (ص١٠٣) : وإسنادهما صحيح .

اللَّهم إني قد عفوت عنه[١] .

الفاروق وعمرو بن العاص :

عن عمر بن شيبة قال : قال عمرو بن العاص لرجل من تُجَيب[٢] : «يا منافق» ، فقال التجيبي : يا أمير المؤمنين : إن عَمْرًا نفّقني ، ولا والله ما نافقتُ منذ أسلمت ، فكتب عمر - رضوان اللَّه عليه - إلى عمرو ، وكان إذا غضب كتب : إلى العاصي بن العاصي : أما بعد ، فإن فلانًا التجيبي ذكر أنك نفقته ، وقد أمرته إن أقام عليك شاهدين ، أن يضربك أربعين أو قال سبعين ، فقام فقال : أنشد اللَّه رجلاً سمع عَمْرًا نفّقني إلا قام فشهد ، فقام عامة من في المسجد ، فقال له حنتمة : « أتريد أن تضرب الأمير ؟ » وعرض عليه الأرش[٣] ، فقال : لو ملأت لي هذه الكنيسة ما قبلت ، فقال له حنتمة : أتريد أن تضربه ؟ قال : « ما أرىٰ لعمر ههنا طاعة ، فلما ولّى قال عمرو : ردوه ، فأمكنه من السوط ، وجلس بين يديه ، فقال : « أتقدر أن تمتنع عني بسلطانك ؟ قال : لا ، فامض لما أُمِرتَ به ، قال : فإني قد عفوت عنك »[٤] .

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارًا ؟! :

عن أنس بن مالك - رضي اللَّه عنه - قال : « كنا عند عمر بن الخطاب - رضوان اللَّه عليه - إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ، قال : ومالك ؟ قال : أجرىٰ عمرو بن العاص بمصر

---

(١) المصدر السابق (ص٩٥) . [مناقب أمير المؤمنين] .
(٢) قال في « القاموس » : تُجَيب بالضم وفتح بطن من كندة .
(٣) دية الجرح .
(٤) « مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » (ص٩٥ - ٩٦) .

الخيل، فأقبلت فرسي فلما رآها الناس ، قام محمد بن عمرو فقال : فرسي ورب الكعبة ، فلما دنا مني عرفته ، فقلت : فرسي ورب الكعبة ، فقام إلي يضربني بالسوط ويقول : خذها وأنا ابن الأكرمين . قال : فواللَّه ما زاده عمر علىٰ أن قال له : اجلس ، ثم كتب إلىٰ عمرو : إذا جاءك كتابي هذا فأقبل ومعك ابنك محمد ، قال : فدعا عمرو ابنه فقال : أأحدثت حدثًا ؟ أجَنَيْت جناية ؟ قال : لا ، قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟ قال : فقدم علىٰ عمر ، قال أنس : فواللَّه أنا عند عمر ، إذا نحن بعمرو قد أقبل في إزار ورداء ، فجعل عمر يلتفت هل يرىٰ ابنه فإذا هو خلف أبيه ، فقال : أين المصري ؟ فقال : ها أنذا ، قال : دونك الدِرة فاضرب ابن الأكرمين ، اضرب ابن الأكرمين ، قال : فضربه حتىٰ أثخنه ، ثم قال أجِلها علىٰ صلعة عمرو ، فواللَّه ما ضربك إلا بفضل سلطانه ، فقال :يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربني قال : أما واللَّه لو ضربته ما حلنا بينك وبينه، حتىٰ تكون أنت الذي تدعه ، أيا عمرو متىٰ استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارًا؟! ، ثم التفت إلىٰ المصري فقال :انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إليّ»[1].

عمر وأبو سفيان :

عن عبد الرحمن بن حاطب ، عن أبيه قال : قدمنا مكة مع عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ فأقبل أهل مكة يسعون : يا أمير المؤمنين ، أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا ، فأقبل عمر ومعه الدرة ، فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال له : ارفع هذا ، فرفعه ، ثم قال : وهذا وهذا، حتىٰ رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة ، ثم استقبل عمر الكعبة فقال : « الحمد اللَّه الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه »[2] ،

---

(١) « مناقب أمير المؤمنين عمر » (ص٩٨ ـ ٩٩) .

(٢) المصدر السابق (ص٩٧) .

وفي رواية « الحمد اللَّه الذي أذلّ أبا سفيان بأبطح مكة »[١] .

إني خائف أن أسأل عنك :

« عن سالم بن عبد اللَّه أن عمر بن الخطاب ـ رضوان اللَّه عليه ـ كان يدخل يده في دبر البعير ويقول : إني خائف أن أُسأل عنك .

وعن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب ـ رضوان اللَّه عليه ـ يضرب رجلاً ويقول : حمّلت جملك ما لا يطيق »[٢] .

ماذا تقول لربك غداً إذا أتيته ؟

عن الأحنف بن قيس قال : وفدنا إلى عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ بفتح عظيم ، فقال أين نزلتم ؟ فقال : في مكان كذا ، فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ رواحلنا ، فجعل يتخللها ببصره ويقول : ألا اتقيتم اللَّه في ركابكم هذه ؟ أما علمتم أن لها عليكم حقًا ؟ ألا خلّيتم عنها ؟ .

فقلنا : أحببنا التسرع إلى أمير المؤمنين وإلى المسلمين بما يسرّهم ، ثم انصرف راجعًا ونحن معه ، فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني على فلان فإنه ظلمني ، قال : فرفع الدرة فخفق بها رأسه وقال : تدعون عمر وهو معرض لكم ، حتى إذا اشتغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه أعدني أعدني ؟! فانصرف الرجل وهو يتذمّر ، فقال عمر : عليّ بالرجل فألقى المخفقة إليه فقال : امسك واضربني ، قال : لا ولكن أدعها للَّه ولك ، قال : ليس كذلك ، إما تدعها للَّه وإرادة ما عنده ، أو تدعها لي فأعلم ذلك قال : أدعها للَّه ، قال : انصرف ، ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ، ونحن معه فافتتح الصلاة فصلى ركعتين ، ثم جلس فقال : يا ابن الخطاب ، كنت وضيعًا فرفعك اللَّه ، وكنت ضالاً فهداك اللَّه ، وكنت ذليلاً

---

(١) المصدر السابق (ص٩٧) .

(٢) المصدر السابق (ص٩٧) .

فأعزك اللَّه ، ثم حملك على رقاب المسلمين ، فجاءك رجل يستعديك فضربته ، ما تقول لربك غدًا إذا أتيته ؟ فجعل يعاتب نفسه معاتبة ظننت أنه من خير أهل الأرض .

واللَّه ما نسيتها :

وعن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مرّ عمر بن الخطاب ـ رضوان اللَّه عليه ـ وأنا في السوق وهو مارّ في حاجة له ، ومعه الدرة قال : هكذا أمِط عن الطريق يا سلمة ، قال : ثم خفقني بها خفقة ، فما أصاب إلا طرف ثوبي ، فأمطت عن الطريق ، فسكت عني ، حتى كان في العام المقبل ، فلقيني في السوق فقال : يا سلمة أردت الحج العام ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، فأخذ بيدي ، فما فارقت يدي يده حتى دخل بي بيته ، فأخرج كيسًا فيه ستمائة درهم فقال : يا سلمة استعن بهذه ، واعلم أنها من الخفقة التي خفقتك عام أول ، قلت : واللَّه يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها! قال : وأنا واللَّه ما نسيتها بعد .

فعله في بيت المال وعدله في القسمة :

عن مالك بن أوس قال: كان عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ يحلف على أيمان ثلاث يقول : « واللَّه ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، وواللَّه ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبدًا مملوكًا ، ولكنا على منازلنا من كتاب اللَّه تعالى ، وقسمنا من رسول اللَّه ﷺ ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته ، واللَّه لئن بقيت لهم ليأتيَنّ الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه » [١] .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ـ٢٩٩) .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يستنفق كل يوم درهمين له ولعياله ، وأنفق في حجته ثمانين ومائة درهم .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول : أنا أخبركم بما أستحل منه : حلتنا ، حلة في الشتاء وحلة في الصيف ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر ، وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا أفقرهم .

وعن قتادة قال : كان معيقيب على بيت مال عمر ، فكسح بيت المال يومًا فوجد فيه درهما ، فدفعه إلى ابن لعمر ، قال معيقيب : ثم انصرفت إلى بيتي ، فإذا رسول عمر ، قد جاء يدعوني ، فجئت فإذا الدرهم في يده ، فقال : « ويحك يا معيقيب : أوجدت علي في نفسك سببًا ؟ أو مالي ولك ؟ فقلت : ماذاك ؟ قال : أردت أن تخاصمني أمة محمد ﷺ في هذا الدرهم يوم القيامة »[١] .

يقول هذا الإمام الجهبذ العادل : « كيف يعنيني شأن الناس ، إذا لم يصبني ما يصيبهم » !! ويدمن ـ رضي اللَّه عنه ـ أكل الزيت في عام الرمادة حتى تئن أمعاؤه وتقرقر ، فيضع كفه على بطنه ، ويقول : « أيها البطن لتُمَرَنَنَّ على الزيت ، ما دام السمن يُباع بالأواقي »!! .

وفي عام الرمادة أمر يومًا بنحر جزور ، وتوزيع لحمه على أهل المدينة ، وعند الغداء ، وجد عمر أمامه سنام الجزور وكبده ، وهما أطيب ما فيه . . ! فقال : من أين هذا ؟ قيل : من الجزور الذي ذُبح اليوم ، قال : «بخ بخ» بئس الوالي أنا أن طعمت طيبها ، وتركت للناس كراديسها » ،

---

(١) « مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » (ص٦ ـ ١٠) .

يعني عظامها ، ثم نادىٰ خادمه أسلم ، وقال له : يا أسلم ، ارفع هذه الجفنة وائتني بخبز وزيت .

للَّه درك من إمام وعاهل منقطع النظير ، وصاحب العدل في ذراه العالية التي تتقطع الأنفاس دون بلوغها .

أَكُلُّ المسلمين يأكل هذا ؟

وذات يوم يتلقىٰ الفاروق هدية من الحلوىٰ ، ولا تكاد توضع بين يديه حتىٰ يسأل الرسول الذي جاء يحملها : ما هذا ؟

قال : حلوىٰ يصنعها أهل أذربيجان ، وقد أرسلني بها إليك عتبة بن فرقد ـ وكان واليًا علىٰ أذربيجان ـ فذاقها عمر ، فوجد لها مذاقًا شهيًا ، فعاد يسأل الرسول : أكل المسلمين هناك يطعمون هذا ؟

قال الرجل : لا . . . وإنما هو طعام الخاصة .

فقال عمر للرجل : أين بعيرك ؟ خذ جملك هذا ، وارجع به لعتبة ، وقل له : عمر يقول لك ، اتق اللَّه ، وأشبع المسلمين مما تشبع منه . . !!

ملاحظته لعماله ووصيته لهم بالعدل :

قال ـ رضي اللَّه عنه ـ : « لئن سلَّمَني اللَّه لأدعنَّ أرامل العراق لا يحتجن إلىٰ رجل بعدي أبدًا » ، فما أتت عليه رابعة حتىٰ أصيب[1] .

وقال ـ رضي اللَّه عنه ـ : « لئن عشت إن شاء اللَّه لأسيرنّ في الرعية حولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني ، أما هم فلا يصلون إلي ، وأما عمالهم فلا يرفعونها إليَّ ، فأسير إلىٰ الشام ، فأقيم بها شهرين ، ثم

---

(١) « مناقب أمير المؤمنين » (ص ١١٤) .

أسير إلىٰ مصر ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلىٰ البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلىٰ الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلىٰ البصـرة فأقيم بها شهرين »[١] .

فمن يجاري أبا حفص وسيرته   أو مَنْ يحاول للفاروق تشبيهـا

وعن ابن المسيب ـ رحمه اللَّه ـ عن عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ : أيما عامل لي ظلم أحداً ، وبلغتني مظلمته ، ولم أغيرها فأنا ظلمته[٢] .

وعن عمار بن خزيمة بن ثابت ـ رحمه اللَّه ـ قال : كان عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ ، إذا استعمل عاملاً وكتب عليه كتابًا ، وأشهد عليه رهطًا من الأنصار ، أن لا يركب برذونا ، ولا يأكل نقيًا ، ولا يلبس رقيقًا ، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول : اللَّهم اشهد[٣] .

وكان ـ رضي اللَّه عنه ـ قد استعمل علىٰ مصر عاملاً فترك ما أمره به عمر ، فأرسل إليه رجلين فقال : « سلا عنه ، فإن كان كذب عليّ فأعلماني ، وإن كان صدق ، فلا تملكاه من أمره شيئًا حتىٰ تأتياني به ، فسألا عنه ، فوجداه قد صدقا عليه ، فاستأذنا ببابه فقال : إنه ليس عليه إذن فقالا : ليخرجن إلينا أو لنحرقن بابه ، وجاء أحدهما بشعلة من نار ، فلما رأىٰ ذلك آذنه فأخبره ، فخرج إليهما ، وقالا : إنا رسولا عمر لتأتيه ، قال : إن لي حاجة بتزود ، قالا : ما أنت بالذي تأتي أهلك ، فاحتملاه فأتيا به عمر ـ رضوان اللَّه عليه ـ فسلم عليه ، فقال : استعملتك وشرطت

---

(١) المصدر السابق (ص١٤١) .
(٢) المصدر السابق (ص١١٦) .
(٣) المصدر السابق (ص١١٤) .

عليك شروطًا فتركت ما أمرتك به ، وانتهكت ما نهيتك عنه ، أما والله لأعاقبنك عقوبة أبلغ إليك فيها ، ايتوني بدرَّاعة من كساء ، وعصا ، وثلاثمائة شاة من شاء الصدقة .

قال : البس هذه الدراعة ، وقد رأيت أباه ، وهذه خير من دراعته ، وهذه خير من عصاه ، اذهب بهذه الشاء ، فارعها في مكان كذا وكذا وذلك في يوم صائف ، ولا تمنع السائل من ألبانها شيئًا ، واعلم أنا آل عمر لم نُصب من شاء الصدقة ومن ألبانها ولحومها شيئًا ، فلما أمعن ، رده ، قال : أفهمت ما قلته لك ؟ وردد عليه الكلام ثلاثًا ، فلما كان في الثالثة ، ضرب بنفسه الأرض بين يديه ، وقال : ما أستطيع ذلك ، فإن شئت فاضرب عنقي ، قال : فإن رددتك فأي رجل تكون ؟ قال : لا ترىٰ إلا ما تحب فرده فكان خير عامل »[1] .

للّه در عمر ورجال عمر :

لما استعمل عمر بن الخطاب سعيد بن عامر علىٰ رأس جيش مددًا لجبهة الشام قال له : يا سعيد بن عامر ، إني قد وليتك علىٰ هذا الجيش ولست بخير من رجل منهم إلا أن تكون أتقىٰ للّه منه ، فلا تشتم أعراضهم ولا تضرب أبشارهم ، ولا تحقر ضعيفهم ، ولا تؤثر قويهم ، وكن للحق تابعًا ولا تتبع هوىٰ شاذًا !! .

قال سعيد : يا أمير المؤمنين إنك قد أوصيتني فاستمعت منك ، فاستمع مني أوصيك ، قال : هات ، قال : يا أمير المؤمنين خف اللّه في الناس ولا تخف الناس في اللّه ، وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك

---

(١) المصدر السابق (ص١١٩ ـ ١٢٠) .

وأهل بيتك ، واكره لقريب المسلمين وبعيدهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك ، وخض الغمرات إلىٰ الحق حيث علمته ، ولا تأخذك في اللَّه لومة لائم ، فأكب عمر طويلاً وفي يده عصا له وهو واضع جبهته عليها ، ثم رفع رأسه ودموعه تسيل علىٰ خديه .

فقال : للَّه أبوك يا سعيد ، ومن يستطيع هذا العمل الذي تذكر ؟

قال : من قطع للَّه في عنقه مثل الذي قطع في عنقك فهو جدير عليك ألا تفعل ، إنما عليك أن تأمر فيطاع أو يعصىٰ ، فتبوء بالحجة ويبوء القوم بالمعصية(١) .

هذا رجل من رجالات عمر ، وهذي تربية عمر لعماله .

لا رخصة في العدل :

وللَّه در عمر ـ الذي أوحدت به أمّه ـ يكتب إلىٰ سعد بعد نصر القادسية « أما العدل ، فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا شدة ولا رخاء ، والعدل إن رُؤيَ لينا فهو أقوىٰ وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وإن رُؤيَ شديدًا فهو أنكش للكفر »(٢) .

يا خالق عمر سبحانك :

عن عبد اللَّه بن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : « اشتريت إبلاً ، وارتجعتها إلىٰ الحمىٰ فلما سمنت قدمت بها ، قال : فدخل عمر بن الخطاب السوق فرأىٰ إبلاً سمانًا ، فقال : لمن هذه ؟ قيل : لعبد اللَّه بن عمر ، قال : فجعل يقول : يا عبد اللَّه بن عمر ، بخ بخ ! ابن أمير المؤمنين ،

---

(١) « الطريق إلىٰ دمشق » لأحمد عادل كمال (ص٤١٤ ـ ٤١٥) ـ دار النفائس .

(٢) « تاريخ الطبري » (٣/ ٥٨٤) ، و« القادسية » لأحمد عادل كمال (ص٢١٤) ـ دار النفائس .

قال : فجئته أسعىٰ ، فقلت : مالك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما هذه الإبل ؟ قلت : إبل أنضاء[١] اشتريتها وبعثت بها إلىٰ الحمىٰ أبتغي ما يبتغي المسلمون ، قال : فقال : ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين ، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ! يا عبد اللَّه بن عمر ، اغد علىٰ رأس مالك ، واجعل باقيه في بيت مال المسلمين .

حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر :

عن أنس بن مالك أن الهرمزان رأىٰ عمر بن الخطاب نائمًا في مسجد المدينة فقال : هذا واللَّه هو المِلِك الهنيء[٢] .

وللَّه در حافظ إبراهيم حيث يقول :

قد راع صاحب كسرى أن رأى عمراً ... بين الرعيـــة عُطْلا وهْو راعيــها

وعهدهُ بملوك الفــرس أن لها ... سوراً من الجند والأحراس يحميــها

رآه مستغـرقًا في نومـــه فرأى ... فيه الجلالة في أسـمى معانيــها

فوق الثرى تحت ظل الدّوح مشتمـلاً ... ببرُدة كاد طول العهــد يُبليــها

فهان في عينـه ما كان يكبـــره ... من الأكاسـر والدنيـا بأيديــها

وقال قــولة حقٍّ أصبحـت مثـلاً ... وأصبح الجيل بعد الجيـل يرويــها

أمِـنت لما أقمت العــدل بينــهم ... فنمت نوم قرير العيــن هانيــها

قد جاء في « التبر المسبوك » (١٧) أن قيصر روما أرسل رسولاً إلىٰ عمـر ابن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد أفعاله ، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقـال :

---

(١) مفردها نضو وهو المهزول من الحيوان ، والأنثىٰ : نضوة .

(٢) « تاريخ دمشق » لابن عساكر ترجمة عمربن الخطاب (ص٢٧٢) .

أين ملككم ؟ فقالوا : ما لنا ملك ، بل لنا أمير قد خرج إلىٰ ظاهر المدينة ، فخرج الرسول في طلبه ، فرآه نائمًا في الشمس علىٰ الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع جبته كالوسادة والعرق يسقط من جبينه وقد بلّ الأرض ، فلما رآه علىٰ هذه الحال وقع الخشوع في قلبه وقال : رجل لا يقرّ للملوك قرار من هيبته وتكون هذه حاله ! ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت ، وملكنا يجور فلا جرم أنه لا يزال ساهرًا خائفًا ، أشهد أن دينك الدين الحق ولولا أنني أتيت رسولاً لأسلمت ، ولكني أعود وأسلم »[١] .

عمر وعفته عن مال المسلمين :

قال عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ : « إني أنزلت مال اللَّه مني بمنزلة مال اليتيم، من كان غنيًا فليستعفف ، ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف »[٢] .

وفي رواية أخرىٰ : « إني مُمسِك بحلاقيم قريش ، إني أنزلت مال المسلمين مني بمنزلة مال اليتيم »[٣] .

عن عبد اللَّه بن الأرقم ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « أُتي عمر بابن له يُحمَل ، يقال له : عبد الرحمن ، فقال : يا أبتاه ، هب لي خاتمًا ، فقال : اذهب إلىٰ أمك تسقيك سويقًا ، وما أعطاه شيئًا[٣] .

● وقال معيقيب ـ رحمه اللَّه ـ : أرسل إليّ عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ فإذا هو في بيت يطالب ابنه عاصمًا فقال : أتدري ما صنع هذا ؟ إنه انطلق إلىٰ

---

(١) « الفاروق في شعر حافظ إبراهيم » لسليمان محمد سليمان (ص٧٩ـ٨٠) دار الأرقم .
(٢) خبر صحيح أخرجه ابن شبة (٢/ ٧١٠) وابن سعد (٣/ ٢٧٦) .
(٣) صحيح : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الإشراف » (١٩٦) ، وابن عساكر وابن شبة .

العراق : فأخبرهم أنه ابن أمير المؤمنين ، فانتفقهم فأعطوه آنية وفضة ، ومتاعًا ، وسيفًا مُحَلّىٰ .

فقال عاصم : ما فعلتُ ، إنما قدمت علىٰ أناس من قومي فأعطوني هذا .

فقال عمر : خذه يا معيقيب ، فاجعله في بيت المال ، فجعلته ، فلمّا كان العشي حدّث القوم شأنه ، وانطلق عاصم فتكلم إلىٰ ناس في السيف ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أما السيف له ، فإنه ليس له سيف ، يعني الآن .

قال عمر : يا معيقيب ، انزع حليته وأعطه النصل .

قال : فما أصنع به ؟!

قال : ما شئت ، فأخذ النصل[1] .

● قال ابن نجيح : نزلت علىٰ عمر - رضي اللَّه عنه - فكانت له ناقة يحلبها ، فانطلق غلامه ذات يوم فسقاه لبنًا أنكره ، فقال : ويحك من أين هذا اللبن لك؟

قال : يا أمير المؤمنين ، إن الناقة انفلت عليها ولدها فشربها ، فحلبت لك ناقة من مال اللَّه .

فقال : ويحك تسقيني ناراً ، ادع لي علىٰ بن أبي طالب .

قال : فدعاه ، فقال : إن هذا عمد إلىٰ ناقة من مال اللَّه فسقاني بعضها ، أفتحله لي ؟

قال : نعم ، هولك حلال يا أمير المؤمنين[2] .

اللَّه بيننا وبين عمر ، يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟!

● قال أسلم مولىٰ الفاروق عمر : خرجنا مع عمر بن الخطاب إلىٰ حرّة

---

(١) صحيح : أخرجه ابن شبة (٢/ ٧٠٠) في « تاريخ المدينة » .

(٢) إسناده صحيح : ابن شبة (٢/ ٧٠٣) ، وابن الجوزي في « المناقب » (ص١٣٩) .

واقم[١] حتىٰ إذا كان بصرار[٢] إذا نار ، فقال : يا أسلم ، إني لأرىٰ ها هنا ركْبا قصّر بهم الليل والبرد ، انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتىٰ دنونا منهم ، فإذا امرأة معها صبيان ، وقدر منصوبة علىٰ نار ، وصبيانها يتضاغون[٣] .

فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، وكره أن يقول : يا أصحاب النار .

فقالت : وعليك السلام ، فقال : أدنو ؟ فقالت : ادن بخيرٍ أو دع .

قال : فدنا ، وقال : ما لكم ؟

قالت : قصّر بنا الليل والبرد .

قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : الجوع .

قال : فأي شيء في هذه القدر ؟ قالت : ماء ، أُسكتهم به حتىٰ يناموا والله بيننا وبين عمر .

قال : إي - رحمك الله - وما يدري عمر بكم ؟ قالت : يتولىٰ أمرنا ثم يغفل عنا ؟!

قال : فأقبل عليّ ، فقال : انطلق بنا ، فخرجنا نهرول حتىٰ أتينا دار الدقيق ، فأخرج عدلاً من دقيق ، وكبّة شحم ، فقال : احمله عليّ .

فقلت : أنا أحمله عنك . فقال : أنت تحمل وزري يوم القيامة - لا أمَّ لك - فحملته عليه ، فانطلق وانطلقتُ معه إليها نهرول ، فألقىٰ ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئًا ، فجعل يقول لها : ذُرِّي[٤] عليّ وأنا

---

(١) إحدىٰ حرتيّ المدينة ، وهي أرض ذات حجارة سود .

(٢) اسم موضع .

(٣) يبكون .

(٤) ذرىٰ : ذر الشيء يذره : أخذه بأطراف أصابعه ، ثم نثره علىٰ الشيء .

أُحرَّ[١] لك ، وجعل ينفخ تحت القِدر ، ثم أنزلها ، فقال : ابغني شيئًا ، فأتته بصحفة فأفرغها فيها ، ثم جعل يقول لها : أطعميهم وأنا أسطح لهم ، فلم يزل حتىٰ شبعوا ، وترك عندها فضل ذلك ، وقام وقمت معه ، فجعلت تقول : جزاك اللَّه خيرًا ، كنت أولىٰ بهذا الأمر من أمير المومنين .

فيقول : قولي خيرًا ، إذا جئتِ أمير المؤمنين ، وجدتني هناك ـ إن شاء اللَّه ـ ثم تنحىٰ عنها ناحية ، ثم استقبلها فربض مربضًا .

فقلت : إن لك شأنًا غير هذا ، فلا يكلمني ، حتىٰ رأيت الصبية يصطرعون ، ثم ناموا وهدءوا ، فقال : يا أسلم ، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتىٰ أرىٰ ما رأيت[٢] .

وفي رواية أخرىٰ : يا أسلم ، أتدري لم ربضت حذاءهم ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : رأيتهم يبكون ، فكرهت أن أذهب وأدعهم حتىٰ أراهم يضحكون ، فلما ضحكوا طابت نفسي[٣] .

وللَّه در حافظ إبراهيم حين يقول في عمريته :

ومن رآه أمـــام القـــدر منبطحًا	**والنار تأخذ منه وهو يُذكيهـا**
وقـد تخـلل فى أثنــاء لحيتــه	**منها الدخان وفُوهُ غاب في فيهـا**
رأى هنــاك أميـــر المؤمنـين على	**حال تروع لعمــرُ اللَّه رائيهـا**
يستقبل النار خوف النــار في غــده	**والعينُ من خشية سـالت مآقيهـا**

---

(١) أحُرّ لك : أي ذري الدقيق في القدر لأعمل لك حريرة .

(٢ ، ٣) خبر صحيح بطرقه : أخرجه عبد اللَّه بن أحمد في « الفضائل » ، وابن عساكر .

عمر بن الخطاب الوقافُ عند كتاب اللَّه :

قال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - : قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحرّ بن قيس - وكان من النفر الذين يدينهم عمر - رضي اللَّه عنه - وكان القرّاء أصحاب مجلس عمر - رضي اللَّه عنه - ومشاوريه - كهولاً كانوا أو شبّانًا - فقال عيينة لابن أخيه الحرّ بن قيس : هل لك وجهٌ عند هذا الأمير فتستأذن لي عليه ؟ قال : سأستأذن لك عليه .

قال ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - فاستأذن الحرّ لعُيينة ، فلما دخل عليه قال : يا ابن الخطاب ، واللَّه ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل .

قال : فغضب عمر - رضي اللَّه عنه - حتى همّ أن يقع به ، فقال الحرّ : يا أمير المؤمنين ، إن اللَّه تعالى قال لنبيه : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾(١) قال : فواللَّه ما جاوزها عمر - رضي اللَّه عنه - حتى تلاها ، وكان وقّافًا عند كتاب اللَّه (٢) .

عمر مع ولاته وعمّاله :

قال الأسود بن يزيد : كان الوفد إذا قدموا على عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - سألهم عن أميرهم ، فيقولون خيراً ، فيقول : هل يعود مرضاكم ؟ فيقولون : نعم .

فيقول : هل يعود العبد ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : كيف صنيعه بالضعيف ؟ هل يجلس على بابه ؟ فإن قالوا لخصلة منها : لا ، عزله(٣) .

• وعن زيد بن وهب - رحمه اللَّه - قال : خرج جيش في زمن عمر - رضي اللَّه عنه - نحو الجبل ، فانتهوا إلى نهر ليس عليه جسر ، فقال أمير

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٩٩) .

(٢) رواه البخاري ، وابن شبة ، وابن عساكر ، وابن عبد البر ، وابن منده ، وأبو نعيم .

(٣) صحيح : أخرجه الطبري في « تاريخه » (٤/ ٢٢٦) .

ذلك الجيش لرجل من أصحابه : انزل ، فابغنا مخاضة نجوز فيها ، وذلك في يوم بارد شديد البرد ، فقال الرجل : إني أخاف إن دخلت الماء أن أموت، فأكرهه ، فقال : يا عمراه . يا عمراه ، ثم لم يلبث أن هلك ، فبلغ ذلك عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ وهو في سوق المدينة ، فقال : يا لبيكاه ، يالبيكاه ، وبعث إلىٰ أمير ذلك الجيش فنزعه وقال له : لولا أن تكون سنة لأقدت منك لا تعمل لي علىٰ عمل أبداً[١] ، وفي رواية : لولا أن تكون سنة لضربت عنقك ، اذهب فأعط أهله ديته .

● وعن إسماعيل بن محمد الوقاصي ـ رحمه اللَّه ـ : قدم علىٰ عمر مسك وعنبر من البحرين ، فقال عمر : واللَّه لوددت أني وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لي هذا الطيب ، حتىٰ أقسمه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد : أنا جيدة الوزن ، فهلّم أزن لك ، قال : لا ، قالت: لم ؟ قال : إني أخشىٰ أن تأخذيه فتجعلينه هكذا : وأدخل أصابعه في صدغيه ، وتمسحين به عنقك ، فأصيب فضلاً علىٰ المسلمين[٢] .

● وقدم بريد ملك الروم علىٰ عمر بن الخطاب ، فاستقرضت امرأة عمر ابن الخطاب ديناراً فاشترت به عطراً ، وجعلته في قوارير ، وبعثت به مع البريد إلىٰ امرأة ملك الروم ، فلما أتاها فرّغتهن وملأتهن جواهر ، وقالت: اذهب به إلىٰ امرأة عمر بن الخطاب ، فلما أتاها فرغتهن علىٰ البساط ، فدخل عمر بن الخطاب ، فقال : ما هذا ؟ فأخبرته الخبر ، فأخذ عمر الجواهر ، فباعه ، ودفع إلىٰ امرأته ديناراً ، وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين[٣] .

---

(١) صحيح : أخرجه ابن شبة (٣/ ٨١٣) وابن الجوزي(ص١٨٥) في « المناقب » .
(٢) حسن لغيره : أخرجه ابن أبي الدنيا في « الورع » ، وأحمد في « الزهد » ، وفي « الورع » .
(٣) صحيح : أخرجه ابن عساكر في « تاريخه » (٥٢/ ٢٧٧ ، ٢٧٨) .

ومن عدل عمر :

روىٰ أنس ـ رضي اللّه عنه ـ أن الطعام غلا بالمدينة علىٰ عهد عمر فجعل يأكل الشعير ، فاستنكره بطنه ، فأهوىٰ بيده إلىٰ بطنه ، وقال : واللّه ما هوإلا ما ترىٰ حتىٰ يوسع اللّه علىٰ المسلمين[١] .

• واختصم إلىٰ عمر يهوديٌّ ومسلم ، فرأىٰ الحق لليهودي ، فقضىٰ له عليه ، فقال اليهودي : واللّه ، إن الملكيْن : جبريل ، وميكائيل لمعك ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، وإنهما ليتكلمان بلسانك ، فعلاه بالدرّة .

قال : ما يُدريك ؟ لا أمّ لك !

قال : لأنهما مع كل قاضٍ يقضىٰ بالحق ، فإذا ترك الحق عرجا ، ووكلاه إلىٰ شيطان الإنس والجن .

فقال عمر : إني لأحسبه كما قال[٢] .

قال المسور بن مخرمة : سمعت عمر ـ رضي اللّه عنه ـ يقول : يا معشر المسلمين . . إني لا أخاف الناس عليكم ، إنما أخافكم علىٰ الناس إني قد تركت فيكم اثنتين لن تبرحوا بخير ما لزمتموهما : العدل في الحكم ، والعدل في القسم »[٣] .

ويقول ـ رضي اللّه عنه ـ : لا تضعوا الجزية إلا علىٰ مَنْ جرت عليه المواسىٰ ، ولا تضعوا الجزية علىٰ النساء ، ولا علىٰ الصبيان .

---

(١) صحيح : أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٥٣) .
(٢) حسن : أخرجه وكيع في « أخبار القضاة » (١/ ٤٥) .
(٣) صحيح : أخرجه البيهقي في « سننه الكبرىٰ » (١٠/ ١٣٤) .

● رجل لا تأخذه في اللَّه لومة لائم :

قال عبد اللَّه بن عمر : شرب أخي عبد الرحمن بن عمر ، وشرب معه أبو سروعة عقبة بن الحارث ، ونحن بمصر في خلافة عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - فسكرا .

فلما صحا انطلقا إلى عمرو بن العاص وهو أمير بمصر فقالا : طهرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه ، فقال عبد اللَّه بن عمر : فلم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص ، قال : فذكر لي أخي أنه قد سكر ، فقلت له : ادخل الدار أطهرك ، قال : إنه قد حدّث الأمير .

قال عبد اللَّه ، فقلت : واللَّه لا تُحلق اليوم على رءوس الناس ، ادخل أحلقك ، وكانوا إذ ذاك يُحلقون مع الحد ، فدخل معي الدار .

قال عبد اللَّه : فحلقت أخي بيدي ، ثم جلدهما عمرو بن العاص ، فسمع عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - بذلك فكتب إلى عمرو : أن ابعث إليّ عبد الرحمن بن عمر على قتب ، ففعل ذلك عمرو ، فلما قدم عبد الرحمن على عمر - رضي اللَّه عنه - جلده ، وعاقبه من أجل مكانه منه ، ثم أرسله ، فلبث أشهراً صحيحًا ، ثم أصابه قدره ، فيحسب عامة الناس أنه مات من جلد عمر ، ولم يمت من جلده »[1] .

● وعن السائب بن يزيد قال : صلى عمر - رضي اللَّه عنه - على جنازة ، ثم أقبل علينا بوجهه ، فقال : إني وجدت من عُبيد اللَّه بن عمر وأصحابه ريح شراب ، وأنا سائل عما شربوا ، فإن كان مسكرًا حددتهم .

---

(١) صحيح : رواه البيهقي في « سننه» (٨/ ٣١٣) ، وابن شبة في « تاريخه » (٣/ ٨٤١) ، وابن عساكر ، قال ابن الجوزي : « لا ينبغي أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر وإنما شرب النبيذ متأولاً وظن أن ماشرب منه لا يسكر ، وكذلك أبو سروعة ، وأبو سروعة من أهل بدر ، فلما خرج بهما الأمر إلى السكر طلبا التطهير بالحد ، وقد كان يكفيهما مجرد الندم على التفريط ، وأما كون عمر أعاد الضرب على ولده فليس ذلك حداً ، وإنما ضربه غضبًا وتأديبًا .

قال السائب : فأنا شهدته يحدهم [١] .

للَّه در عمر بن الخطاب وخلقه :

فذاك خُلْق من الفـردوس طينتـه　　اللَّه أودع فيهـا ما يُنَقّيهـا
لا الكبْرُ يسكنها ، لا الظلم يصحبها　　لا الحقد يعرفها ، لا الحرص يُغْويها
فلا الحسابـة فى حق يجاملهـا　　ولا القرابةُ فى بُطْل يحابيهـا
وتلك قـوة نفس لو أراد بهـا　　شم الجبال لما قرّتْ رواسيهـا

وللَّه در حافظ إبراهيم حين يتكلم عن عمر وجبلة بن الأيهم :

كم خفت فى اللَّه مضعوفا دعـاك به　　وكـم أخفت قويّـا ينثنـي تيهـا
وفى حديث فـتى غسّان موعظـة　　لكـل ذى نعـرة يأبى تناسيهـا
فما القوى قويّـا رغـم عزّتـه　　عند الخصومة والفاروق قاضيهـا
وما الضعيـف ضعيـفا بعـد حجته　　وإن تخاصـم واليهـا وراعيهـا

عدله وإنصافه لزوجته :

حين أتاه رجل ليشتكي زوجته عنده ، فسمع صوت امرأة عمر من داخل البيت تخاصم عمر ويصغي إليها ولا يعاقبها ، فيرجع الرجل قبل أن يصل إلىٰ عمر ، فيراه عمر فيطلبه ، ويسأله حاجته فيخبره بأمره وأنه رضي عن زوجته لما رأىٰ من زوجة عمر مع عمر ، فيقول له : وما لي لا أصبر عليها وهي أم أولادي وغاسلة ثيابي وطاهية طعامي .

● وقد حدث أن بعض الناس حاول أن يهدي إليه ، فلم يقبل منه ، لما

---

(١) صحيح : أخرجه ابن شبة (٣/ ٨٤٢) .

يعرفه من ذاك الرجل ، فاحتال الرجل وقدّم الهدية إلىٰ أهل بيت عمر وهي قطيفة فلما رآها عمر في بيته سأل عنها من أين أتتهم فأخبروه ، فقال : عجز عن طريقي فجاءني عن طريق أهلي ، لا واللَّه وكانوا قد عملوها طرّاحة وحشوها صوفا فأخذها عمر ليردها إليه فلحقته الجارية تقول : الحشو الذي فيها لنا أعطنا حقنا[1] .

ومع ولده :

كان ولداه عبد اللَّه وعبيد اللَّه بالشام فأرادا العودة إلىٰ المدينة وكانا في الجيش ، وكان أبو موسىٰ عاملاً علىٰ الشام ، فأراد أن ينفع ولديْ عمر ويضمن مال المسلمين ، فقال لهما : عندي مال بيت المسلمين أقرضكماه فتشتريان به تجارة من الشام وتبيعانها بالمدينة فتربحا وتؤديا رأس المال لعمر ، ففعلا وربحا ، فلما قدما علىٰ عمر برأس المال قال لهما : أكُلّ الجيش فعل معهم هكذا ؟ قالا : لا ، فقال : ابنا أمير المؤمنين وخصّكما بذلك ، لا ، أدّيا الربح ورأس المال . فسكت عبد اللَّه وتكلم عُبيد اللَّه فقال : أليس إذا هلك المال كنا ضامنين له ؟ قال : بلىٰ . فقال : إذًا يكون ربحه لنا ، فلم يقبل منه عمر ذلك ، وقال : إنما ربحتما بمال المسلمين ، فقال أحد الحاضرين : يا أمير المؤمنين : اعتبره مضاربة واقتسم الربح معهما لبيت مال المسلمين فرضىٰ بذلك » .

مثل رائع في شخصه هو ومع نفسه :

اختصم معه أبيّ بن كعب ـ رضي اللَّه عنه ـ في نخيل ادّعاه علىٰ عمر ونفاه عمر ، وقال : اختر من شئت نحتكم إليه ، فقال أبيّ : نحتكم إلىٰ زيد بن ثابت ، فذهب معه عمر إلىٰ بيت زيد وقالا له : أتيناك محتكمين

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٨٩) .

إليك، فقال زيد وعلى البداهة : مرحبًا ها هنا يا أمير المؤمنين وأشار إلى صدر المجلس ، فصاح به عمر : جُرت من أول أمرك ، فقال له زيد : وفيم جُرت ؟ قال له : تناديني بأمير المؤمنين ونحن جئنا إليك في محاكمة ، وتشير إلى صدر المجلس ، يجب أن أجلس حيث يجلس خصمي ، فأجلسهما معًا ، وسأل أبيًا عن بيّنته فلم يجد عنده بيّنة ، وقال : أطلب تحليف عمر اليمين، فقال زيد : أوَ تعفي أمير المؤمنين من اليمين ؟ فصاح به عمر مرة ثانية : جُرْتَ يا يزيد ، فقال : وفيم الجور ؟

فقال : أكُلّ الخصوم تشفع لهم في ترك اليمين ؟ فقال له : أتحلف ؟

فقال عمر : ومالي لا أحلف مادمت صادقًا ؟ فأحلفه اليمين ، فقضى لعمر لعجز أبيّ عن البينة وحلف عمر ، فلما خرجا من مجلس المحاكمة قال عمر لأبيّ : النخل مني هدية لك . فقيل لعمر : ولماذا لم يكن ذلك قبل حلف اليمين ؟ قال : لكراهيتي أن يتخذها الناس سنة » .

مع خادمه في السفر :

وفي مسيره إلى الشام لتسلّم بيت المقدس اقتسم الطريق مع خادمه في الركوب على راحلتهما ، فكان عمر يمشي مرحلة ويركب الخادم ، ثم يركب عمر والخادم يمشي ، حتى اقتربا من الشام والقوم في استقباله ، فكانت النوْبة في الركوب للخادم ، فعرض على عمر أن يركب ليقدم على القوم راكبًا فأبى إلا أن يوفيه حقه فيقدمان على القوم والخادم راكب وعمر يمشي .

قال طارق بن شهاب ـ رحمه الله ـ :

لما قدم عمر الشام أتته الجنود ، وعليه إزار وخفان وعمامة ، وهو آخذ برأس بعيره يخوض الماء ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين ، تلقاك الجنود

وبطارقة الشام ، وأنت على هذا الحال ؟!!

فقال عمر : **إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلن نلتمس العزّ بغيره**[1] .

وفي رواية : ليس الأمر ها هنا ، إنما الأمر ها هنا وأشار إلى السماء .

فمن يُباري أبا حفـــص وسيرتـــه — أوْ من يحاول للفاروق تشبيهـــا

هذى مناقبه فى عهـــد دولتـــه — للشاهدين وللأعقـاب أحكيهـــا

فى كل واحدة منهـــن نابلـــة — من الطبائع تغزو نفس راعيهـــا

لعلّ في أمة الإســلام نابتـــة — تجلو لحاضرها مـــرآة ماضيهـــا

حتى ترى بعض ما شـادت أوائلهـــا — من الصروح وما عاناهُ بانيهـــا

وحسبُهـــا أن ترى ما كان من عمـــرٍ — حتى يُنبَّه منها عيـــن غافيهـــا

* * *

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ١٤٦) بسند صحيح .

• • ذو النورين عثمان الرحيم العادل :

عثمان الرحيم الذي تشع الرحمة في حياته ، وتكون نبراسًا لكل تصرفاته ، يغضب على خادمٍ له يومًا ، فيعرك أذنه حتى يوجعه . . ثم سرعان ما يدعو خادمه ويأمره أن يقتص منه فيعرك أذنه . . . ويأبى الخادم ، ويأمره في حزم فيطيع : « اشدد يا غلام ، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة » .

وقفات للذبّ عن ذي النورين ـ رضي اللَّه عنه ـ :

ما نقموا على عثمان ؟ وهو الجواد الرحيم العدل العادل :

ما الذي عابوه على عثمان وهو من هو . . . جوده . . . عدله . . . رحمته . . .

قال الحسن البصري ـ رحمه اللَّه ـ :

« أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قلّما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً ، فيُقال لهم : يا معشر المسلمين ، اغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافرة ، ثم يُقال لهم : اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة ، ثم يُقال لهم : اغدوا على السمن والعسل .

الأعطيات جارية ، والأرزاق دائرة ، والعدو منفي ، وذات البيْن حسن ، والخير كثير ، وما مؤمن يخاف مؤمنا ، من لقيه فهو أخوه مَنْ كان ، ألفَته ، ونصيحته ، ومودته ، قد عُهد إليهم أنها ستكون أثرة ، فإذا كانت أن تصبروا .

ولو أنهم صبروا حين رأوها لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير ، قالوا : لا واللَّه ما نصابرها ، فواللَّه ما رُدّوا ولا سَلموا ، والأخرى كان السيفَ مغمداً على أهل الإسلام ، ما على الأرض مؤمن

يخاف أن يسل مؤمن عليه سيفًا حتىٰ سلوه علىٰ أنفسهم ، فواللَّه ما زال مسلولاً إلىٰ يوم الناس هذا .

وأيم اللَّه إني لأراه سيفًا مسلولاً إلىٰ يوم القيامة »[١] .

● يقول عروة بن الزبير ـ رحمه اللَّه ـ : « أدركت زمن عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ وما من نفس مسلمة إلا ولها في مال اللَّه حق »[٢] .

● **لين جانبه ورحمته بالرعية :**

من شمائل عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ : لين جانبه ، ورأفة قلبه ، وإحسانه إلىٰ الرعية ، ولينه معهم ، وخروج أهل الزور والبهتان عليه ، وقتله مظلومًا .

قال ابن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ : « لقد عبتم علىٰ عثمان أشياء ، لو أن عمر فعلها ما عبتموها »[٣] .

وقال الحسن البصري ـ رحمه اللَّه ـ : « عمل أمير المؤمنين عثمان ثنتي عشرة سنة لا ينكرون من إمارته شيئًا ، حتىٰ جاء فَسَقَة فداهن واللَّه في أمره أهل المدينة »[٤] .

● ومن المواقف التي تبدو فيها شفقته بالرعيّة جليًا ، ما رواه موسىٰ بن طلحة يقول : سمعت عثمان بن عفان ، وهو علىٰ المنبر ، والمؤذن يقيم الصلاة ، وهو يستخبر الناس عن أخبارهم وأسعارهم ، وعن مرضاهم»[٥] .

هذا عثمان فأين مثل عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ ؟!

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن عساكر ، والطبراني في « الكبير » ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٩/ ٩٤) : إسناده حسن ، وأخرجه ابن شبة في « تاريخ المدينة » .

(٢) إسناده حسن : أخرجه ابن شبة .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » .

(٤) إسناده صحيح : أخرجه البخاري في « التاريخ الصغير » ، وابن عساكر في « تاريخه » .

(٥) إسناده صحيح : أخرجه أحمد في « مسنده » ، وابن سعد في « طبقاته » .

عُبـاب البحر تنقص منـه قـدراً إذا شبهتـه قلبـاً ذمامـاً[١]

ولله در القائل :

ألم تر أن السيف ينقـص قـدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا

* * *

إقامة عثمان ـ رضي الله عنه ـ الحدود على القريب والبعيد :

من عظام الأعمال وكبارها في خلافته ظهور حدود الله تعالى .

فهذا الوليد بن عقبة من أقرب الناس إليه ، إنه أخوه لأمه ، ومع ذلك لم تأخذه شفقة عليه ولا رحمة .

قال الحافظ في « الفتح » (٧/ ٥٦) : « إنما أخّر إقامة الحدّ عليه ليكشف عن حال من شهد عليه بذلك ، فلما وضح له الأمر أمر بإقامة الحدّ عليه » .

قال حنين بن المنذر : شهدت عثمان بن عفان ، وأتى بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ، ثم قال : أزيدكم ؟

فشهد عليه رجلان ؟ أحدهما حُمران أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيّأ ، فقال عثمان : إنه لم يتقيّأْ حتى شربها ، فقال : يا عليّ قم فاجلده، فقال علي : قم يا حسن فاجلده ، فقال الحسن : ولِّ حارَّها من تولىَّ قارَّها[٢] ـ فكأنه وجد عليه ـ فقال : يا عبد الله بن جعفر ، قم فاجلده، فجلده ـ وعليّ يعدّ ـ حتى بلغ أربعين ، فقال : أمسكْ ، ثم قال : جلد النبي ﷺ أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وهذا أحبّ إليّ »[٣] .

---

(١) القلب الذمام : الآبار الصغيرة .

(٢) ولِّ حارها من تولى قارها : قال الأصمعي : ولِّ شديدها من تولى هيِّنها ، والقارد البارد أي ولِّ العقوبة والضرب من توليه العمل والنفع .

(٣) أخرجه مسلم ، وأحمد في « مسنده » ، وابن شبة في « تاريخ المدينة » (٣/ ١٩٧٣) وابن الأثير في « أسد الغابة » (٥/ ٤٥٣) .

وفي رواية : وكلٌّ سنّة .

قال ابن عبد البرّ في « الاستيعاب » (٤/ ١٥٥٤) : « لما شهدوا على الوليد بن عقبة بشرب الخمر ، أمرعثمان به فجُلد ، وعزُل عن الكوفة ، واستعمل عثمان بعد عليها سعيد بن العاص » .

قالوا : لم يقتل عبيد اللّه بن عمر بالهرمزان ، مع ظهور القصاص ووجوبه :

ولقد ردّ ابن العربي ردًا شافيًا وكافيًا في « العواصم من القواصم » (ص٧٧ ، ١١٦) فليرجع إليه .

أما تلك القصة سندًا ومتنًا ففيها اضطراب ، يقول ابن عبد البر : « قصته في قتل الهرمزان وجفينة ، وبنت أبي لؤلؤة ، ففيها اضطراب ، وفي الرواية الصحيحة أن عثمان ـ رضي اللّه عنه ـ تشاور مع المهاجرين والأنصار ، ولم يقتل مسلمًا بكافر ، وأعطى الديه بدلاً من ذلك فأي مخالفة في ذلك ؟ .

قال المفترون عنه أنه ولىّ أقاربه :

مّما قاله المفترون في هذا الشأن عن عثمان : ولّى أقاربه : معاوية ، وعبد اللّه بن عامر بن كريز ، ومروان ، والوليد بن عقبة ، وأعطى مروان خمس إفريقية .

قال ابن العربي ـ رحمه اللّه ـ :

هذا كله باطل سندًا ومتنًا ، فأما معاوية : فعمر ولاّه ، وجمع له الشام كلها ، وأقرّه عثمان ، وأما عبد اللّه بن كريز ، فولاه كما قال : لأنه كريم العمّات والخالات .

• وأما تولية الوليد بن عقبة فقد قال عثمان : ما وليّته لأنه أخي ، وإنما وليّته لأنه ابن أم حكيم عمّة النبي ﷺ وتوأمة أبيه .

والولاية اجتهاد ، وقد عزل عمر سعد بن أبي وقاص ، وقدّم أقل منه درجة .

• ومروان رجل عدل من كبار الأئمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، والفقهاء على تعظيمه ، والتلفت إلى فتواه ، والانقياد إلى روايتُه ، أما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم .

• وأما الوليد وحدّه في الخمر ، فقد حدّ عمر قدامة بن مظعون على الخمر ، وهو أمير وعزله ، وليست الذنوب مسقطة للعدالة إذا وقعت منه التوبة .

وأما إعطاؤه خُمس إفريقية لواحد فلم يصح .

إعطاء العطاء من مال الصدقة :

ومن تلك المطاعن الواهية : أنه أمر بالعطاء من مال الصدقة وأن الناس أنكروه .

وللرد على ذلك يقول أبو نعيم الأصبهاني - رحمه اللَّه - :

« عثمان - رضي اللَّه عنه - أعلم ممن أنكر عليه ، وللأئمة إذا رأوا المصلحة للرعية في شيء أن يفعلوه ولا تجعل إنكار من جهل المصلحة حجة على من عرفها ، ولا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفون .

ولا يلزم عثمان فيما أمر به إنكار من أنكر لما رأى من المصلحة ، فقد فرّق رسول اللَّه ﷺ غنائم حنين في المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة ، وترك الأنصار لما رأى من المصلحة حتى قال قائلهم : تقسم غنائمنا في الناس

وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟!

فكان الذي دعاهم إلى الإنكار على ما فعل رسول اللَّه ﷺ قلة معرفتهم بما رأى من المصلحة فيما قسم ، وكان أعظم من إنكار مَنْ أنكر على عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ لأن مال المؤلفة من الغنيمة ، فلا يلزم عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ من إنكار من أنكر عليه شيئًا إلا ما لزم رسول اللَّه ﷺ حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء بنبيه ﷺ »[1] .

الطعن بأنه أخرج أبا ذر إلى الربذة :

وهذا ظلم عظيم ، ومنكر أثيم . . . فعثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ أعدل وأفضل من أن يفعل بالأفاضل من الصحابة ما لا يستحقون ، أوينالهم بمكروه ؛ وإنما كان هذا من عثمان تخييراً لأبي ذر والدليل على ذلك ما رواه زيد بن وهب قال :

« مررتُ بالربذة ، فقلت : لأبي ذر ـ رضي اللَّه عنه ـ : ما أنزلك هذا المنزل ؟ فقال : أُخبرك ، إني كنت بالشام فتذاكرت أنا ومعاوية هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[2] .

فقال معاوية : هذه نزلت في أهل الكتاب ، وقلت أنا : هي فيهم وفينا ، فكتب معاوية إلى عثمان في ذلك فكتب إليّ : أن أقدم عليّ ، فقدمتُ عليه فانثال عليّ الناس كأنهم لم يعرفوني فشكوت ذلك إلى عثمان، فخيّرني فقال : انزل حيث شئت »[3] .

---

(١) « تثبيت الإمامة » لأبي نعيم (ص١٤٩) نقلاً عن سيرة وحياة ذي النورين عثمان بن عفان تأليف مجدي فتحي السيد (ص٩٤) ـ دار الصحابة بطنطا .

(٢) سورة التوبة الآية (٣٤) .

(٣) حديث صحيح : أخرجه أبو نعيم (١٣٩) في « تثبيت الإمامة » .

• وقال عبد اللَّه بن الصامت : « دخلت مع أبي ذر في رهط من غفارعلىٰ عثمان بن عفان من الباب الذي لا يُدخل عليه منه ، قال : وتخوفنا عثمان عليه ، فانتهىٰ إليه فسلّم عليه ، قال : ثم ما بدأه بشيء إلاّ أن قال : أحَسبتني منهم يا أمير المؤمنين ؟! واللَّه ما أنا منهم - يعني الخوارج - ولا أدركهم ، ولو أمرتني أن أعضّ علىٰ عرقوبي قتب لعضضت عليهما حتىٰ يأتيني الموت وأنا عاض عليهما .

قال : صدقت يا أبا ذر ، إنا إنما أرسلنا إليك لخير ؛ لتجاورنا بالمدينة .

قال : لا حاجة لي في ذلك ، ثم استأذنه في الربذة ، فقال : ائذن لي في الربذة .

قال : نعم نأذن لك ، ونأمر لك بنَعَم من نعم الصدقة تغدو عليك وتروح فتصيب من رسْلها[1] .

قال : لا حاجة لنا في ذلك ، يكفي أبا ذر صِرْمته[2] ، ثم خرج فنادىٰ : دونكم معاشر قريش ، دنياكم فاعْذَمُوها لا حاجة لنا فيها ، ودعونا وديننا[3] .

قال غالب القطّان : قلت للحسن البصري : أعثمان أخرج أبا ذر ؟

قال : لا ، معاذ اللَّه[4] .

وكان محمد بن سيرين - رحمه اللَّه - إذا ذُكر له أن عثمان بن عفان سيَّره

---

(١) اللبن .

(٢) الصرمة : القطعة من الإبل .

(٣) صحيح : أخرجه ابن سعد في « طبقاته » (٤/ ٢٣٢) ، وابن شبة في « تاريخ المدينة » (٣/ ١٠٣٦ ، ١٠٤١) وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٠) .

(٤) إسناده حسن : أورده الذهبي في « تاريخ الإسلام » وابن شبة (٣/ ١٠٣٧) .

أخذه أمر عظيم ، ويقول : هو خرج من قِبَلِ نفسه ، ولم يُسيِّره عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ[(١)] .

الطعن عليه بأنه ضرب عمار بن ياسر وابن مسعود وكله كذب :

أما الطعن عليه بأنه ضرب عماراً حتى فتق أمعاءه !! فقال أبو نعيم في «تثبيت الإمامة» (ص١٥١ ، ١٥٢) : هذا غير ثابت عنه ، وقال ابن العربي : وأمّا ضربه عماراً فزور ، وإفك .

ودعوى ضربه ابن مسعود ، وكسر أضلاعه ، ومنعه عطاءه سنتين !! كل هذا باطل وزور ، ولا أصل له .

● ولمّا قالوا : إنه حمى الحمى . قال عثمان : وأما الحمى فما حميته لإبلي ، ولاغنمي ، إنما حميته لإبل الصدقة لتسمن ، وتصلح ، وتكون أكثر ثمنا للمساكين .

قال عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ : « أما قولهم تناول أصحاب النبي ﷺ ، إنما أنا بشر ، أغضب وأرضى ، فمن ادعى قبلي حقًا ، أو مظلمة ، فهذا أنا ، فإن شاء قودٌ ، وإن شاء عفوٌ ، وإن شاء أرضِيَ »[(٢)] .

* * *

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن شبة (٣/ ١٠٣٧) .

(٢) حسن : أخرجه ابن أبي الدنيا في « المصاحف » (ص٣٦) ، وابن عساكر في « تاريخه » (ص٢٤٢) .

قضية ولا أبا الحسن لها :

• علي بن أبي طالب ما زانته الخلافة بل زانها بعدله :

رضي اللَّه عن أبي الحسن : « يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، كانت حظوظه مع نفسه في طهرها وعدلها وتقاها رابية ووافية ، وكان عدله سامقًا يبقىٰ علىٰ مر الزمان منارًا لذوي الرشد والنهىٰ ، وكان ولاؤه للعدل ولاء مطبوعًا ، ولاء فطرة وولاء يقين .

يقول ـ رضي اللَّه عنه ـ : « أأقنع من نفسي أن يقال : أمير المؤمنين ، ثم لا أشارك المؤمنين في مكاره الزمان ؟ واللَّه لو شئت لكان لي من صفو هذا العسل ، ولُباب هذا البُّر ، ومناعم هذه الثياب ولكن ، هيهات أن يغلبني الهوىٰ ، فأبيت مبطانًا وحولي بطون غرثىٰ وأكباد حرّىٰ » .

قال ابن عبد البر في « التمهيد » (٢/ ٢٨٤) : « قال علي بن أبي طالب ـ رضي اللَّه عنه ـ علىٰ المنبر في يوم الجمعة : « أيها الرعاء ، إن لرعيتكم حقوقًا : الحكم بالعدل ، والقسم بالسويّة ، وما من حسنة أحبّ إلىٰ اللَّه من حكم إمام عادل » .

• عن العلاء بن عمار أن عليًا ـ رضي اللَّه عنه ـ خطب الناس فقال : أيها الناس . . . والذي لا إله إلا هو ما رزأت[١] من مالكم قليلاً ولا كثيرًا إلا هذه ـ وأخرج قارورة من كمّ قميصه فيها طِيب ـ فقال : أهداها إليّ الدِّهقان[٢] ، ثم أتىٰ بيت المال فقال : خذوا ، ثم أنشأ يقول :

أفلح من كانت له قوصـــرة[٣] يأكل منها كل يـــوم مرة[٤]

---

(١) ما رزأت : أي ما أصبت ولا أخذت .

(٢) زعيم فلاحي العجم ، ورئيس إقليمهم .

(٣) القوصرة : وعاء التمر .

(٤) لا بأس به : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ، وابن كثير في « البدية » (٨/ ٣) ، والذهبي في=

وفي رواية : طوبىٰ لمن كانت له قوصرة .

● وعن عبد اللَّه بن زُرير ـ رحمه اللَّه ـ قال : دخلت مع علي ـ رضي اللَّه عنه ـ يوم الأضحىٰ ، فقرّب إلينا خزيرة[1] ، فقلنا : أصلحك اللَّه ، لو أطعمتنا من هذا البط ، فإن اللَّه قد أكثر الخير ، فقال : يا ابن زرير ، إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **لا يحلّ للخليفة من مال اللَّه إلا قصعتان : قصعة يأكلها هو وأهله ، وقصعة يطعمها بين الناس** »[2] .

هكذا التقىٰ الورع مع العدل ، وما أروع علي وهويتورع عن الأخذ من مال الأمة شيئًا زهيدًا : قال عنترة بن عبد الرحمن الشيباني : دخلتُ علىٰ عليّ بن أبي طالب بالخورنق ، وعليه قطيفة ، وهو يرعد من البرد ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن اللَّه قد جعل لك ، ولأهل بيتك نصيبًا في هذا المال ، وأنت ترعد من البرد ؟!!

فقال : إني واللَّه لا أرزأ من مالكم شيئًا ، وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي ، أو قال من المدينة[3] .

ومن عدالته : ما رواه علي بن ربيعة الوالبي ، قال : إن علي بن أبي طالب قد جاءه ابن النباج ، فقال : يا أمير المؤمنين ، امتلأ بيت مال المسلمين

= «تاريخ الإسلام» .

(١) طعام عبارة عن لحم يقطع صغاراً ، ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذُرّ عليه الدقيق ، وقيل الحساء من سمن ودقيق .

(٢) حديث صحيح : أخرجه أحمد (١/ ٧٨) وفيه ابن لهيعة ، لكن الراوي عنه في رواية حرملة عن ابن وهب ، وهو أحد العبادلة .

(٣) صحيح : أخرجه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » ، وأبو نعيم في « الحلية » ، والذهبي في «تاريخ الإسلام » ، والخورنق : موضع بالكوفة .

من صفراء ، وبيضاء . فقال : اللَّه أكبر !! فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين ، فقال :

هذا جناي وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه

يا ابن النباج ، عليّ بأشياع الكوفة ، قال : فنودي في الناس ، فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين ، وهو يقول : يا صفراء . . . ويا بيضاء . . . غرّي غيري . . . ها ، وها .

حقي ما بقي منه دينار ولادرهم ، ثم أمره بنضحه ، وصلى فيه ركعتين(١) .

• وعن علي بن الأرقم ، عن أبيه قال : رأيت عليّا ، وهو يبيع سيفًا له في السوق ، ويقول : من يشتري مني هذا السيف ، فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به عن وجه رسول اللَّه ﷺ ، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته(٢) .

كان ـ رضي اللَّه عنه ـ يمشي في أسواق الكوفة وهو خليفة المسلمين ، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقي بالشيخ المسنّ الكهل ، فيحمل عنه حاجته ، ولا يسكن قصر الإمارة ويقول : « قصر الخبال هذا ، لا أسكنه أبدًا » وحين نتكلم عن أمير المؤمنين ـ رضي اللَّه عنه ـ فإنا نؤرخ للعظمة الإنسانية والعدل في نموذجه الباهر . . . هو الذي علّم الأمة فقال أهل القبلة وللَّه دره حين يقول لعسكره : لا تقتلوا مدبرًا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقربوا النساء بأذى وإن شتمنكم وشتمن أمراءكم وصلحاءكم ، واذكروا

---

(١) حسن : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » .
(٢) صحيح : أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨٣) .

اللَّه كثيراً لعلكم تفلحون » .

للَّه در أبي الأسود الدؤلي حيث يقول في عليّ :

يقيم الحقّ لا يرتاب فيه ويعدل في العدى والأقربينا[١]

وللَّه در القائل :

أبا السِّبْطين كيف تفي المعاني نثاراً في مديحك أو نظاما
مقام دونه نُجُبُ القوافي وإن كانت مسوَّمة كراما

وللَّه دره وهو يقول :

ونفساً لم تذق طعم الدنايا ولا لذّت من الدنيا طعاماً
غذاها الدين مُذْ كانت فشبّتْ على التقوى رضاعا وانفطاما
ونشأها على كرم وأيدٍ وصاغ من الجلال لها قواماً
ذكت فسمَتْ عن الدنيا طلابا وأضنى حبها قوماً وتاماً[٢]
طوى عنها على الضرّاء كشحاً وعاف نُصارها تبرا وسَاما

* * *

وأكبر همّه مذ كان طفلاً حدود اللَّه يحرص أن تقاماً
يذل لعزها نفساً ويرضى لدفع الضيم عنها أن يضاماً
إذا ما رنّ صوت الحق منه تولّى الإفك وانحطم انحطاماً[٣]

(١) « تاريخ الطبري » (٥/ ١٥٠ ، ١٥١) ، و« أسد الغابة » (٤/ ١٢٤) .
(٢) تامه : أي تيّمه .
(٣) « العلوية » لمحمد عبد المطلب .

ولما طُعِن - رضي اللَّه عنه - ، وهو يتهيأ للصلاة ، بعد أن مرَّ بشوارع الكوفة يوقظ أهلها لصلاة الفجر . . . قال لبنيه بعد أن علم قاتله : «أحسنوا نزله ، وأكرموا مثواه ، فإن أعش ، فأنا أولى بدمه قصاصًا أو عفوًا ، وإن أمت ، فألحقوه بي ، أخاصمه عند رب العالمين ، ولا تقتلوا بي سواه ، إن اللَّه لا يحب المعتدين » .

وهذا مشهد لا نجد كلمات ترتفع إلى مستواه !! مسك الختام في عدل وحياة الإمام .

بروحي إذ يجود بخير نفْس تخاف على الحنيفة أن تضاما
بنيّ العدلَ إن شئتم قصاصًا كفى بكتاب ربكم إماما
كتاب اللَّه لا تغلوا فإني أخاف عليكمُ ألا يُقاما
إلى دار السلام قضى عليّ وجاور في منازلها السلاما[1]

الإمام العادل :

والإمام العادل أبعد الناس عن ظلم الناس . . . ليس سفاحًا . . . ليس حجاجًا يقول الشاعر العربي في وصفه للحاكم الظالم تحت عنون « يوميات سفاح عربي » :

أيها الناس ... أيها الناس
لقد أصبحت سلطانًا عليكم فاعبدونى
فاكسروا أصنامكم بعد ضلال
إننى لا أتجلى دائمًا

(١) « العلوية » لمحمد عبد المطلب .

فاجلسوا فوق رأس الصبـر حتى تبصرونـــي
اتركوا أطفالكم من غير خبز واتبعونــي
احمــدوا اللّــه علــى نعمتـــه
فلقــد أرسلنـــي كي أكتب التاريخ
والتاريخ لا يُكــتب دوني
إنني يوسـف في الحســـن
ولم يخلق شعراً ذهبياً مثل شعري
وجبينــا نبــويــاً كجبــيني
وعيوني غابة من شـجر الزيتـون واللوز
فصلـــوا دائمـــاً كي يحفظ اللّه عيوني
أيهــا النــاس ... أيهــا النــاس
شـــرف أن تأكلــوا حنطة جسمي
شــرف أن تقطعـــوا لوزي وتينـــي
فأنـــا حادثــة ما حدثت منذ آلاف القرون
أيهــا النـــاس
أنا الأول والأعدل والأجمل بين جميع الحاكمين
وأنا مخترع المشنقة الأولى وخير المرسلين
كلما فكرت أن أعتزل السلطة ينهاني ضميري
مَن تُرى يحكمُ بعدي هؤلاء الطيّبين ؟
من سيشفي بعدي الأعرج والأبرص والأعمى ؟

ومَن يُحيـــي عظام الميتـين ؟
مَن تُرى يُخرج من معطفه ضوء القمر؟
مَنْ تُـرى يرســل للنــاس المطــر ؟
مَنْ تُرى يجلــدهم تسعـين جَلْـدة ؟
مَنْ تُـرى يصلبهــم فــوق الشــجر ؟
مَنْ تُرى يرغبهم أن يعيشوا كالبقر ؟ ويموتوا كالبقر ؟
كلما فكَّرت أن أتركهم فاضت دموعي كغمامة
وتوكلت على اللّه وقررت بأن أركب الشعبَ
من الآن إلى يـوم القيامـة

* * *

أيهـا الناس ... أيهـا الناس
أنا أملككم كما أملك خيلي وعبيدي
وأنـا أمشـي عليكم مثلمـا
أمشــي عــلى سَجّــاد قصــري
فاسجــدوا لــي فــي قيــامي
واسجــدوا لــي فــي قعــودي
أو لـــم أعثـــر عليــكم ذات يــوم
بـــين أوراق جـــدودي
حاذروا أن تقرأوا أي كتاب فأنا أقرأ عنكم
حاذروا أن تكتبوا أي خطاب فأنا أكتب عنكم
حاذروا أن تسمعوا القرآن بالسر

فـإني بنوايـاكم عليـم
حـاذروا أن تنشـــدوا الشـــعر أمامي
فهـو شيطان رجيـم
حـاذروا أن تدخلـوا القبـر بلا إذني
فهذا عندنا إثم عظيم
والزموا الصمت إذا كلمتكم
فكلامي هو قرآن كريم

* * *

أيهـا النـاس
أنا مَهْدِيُكم فانتظروني
ودمي ينبض في قلب الدوالي .. فاشربوني
أوقفوا كل الأناشيد التى ينشدها الأطفال
فى حب الوطن فأنا صرت الوطن
إنني الواحد والخالد ما بين جميع الكائنات
وأنا المخزون في ذاكرة التفاح والنار
وهمس الأمنيات
ارفعوا فوق الميادين تصاويري
وغطوني بغيم الكلمات
واخطبوا لي أصغر الزوجات سنًا فأنا لست أشيخ
وشجوني لا تشيخ
وجهاز القمع في مملكتي ليس يشيخ

أيهـــــا النـــــاس
أنا الحجاج إن أنزع قناعي تعرفوني
وأنا جنكيز خان جئتكم
بحرابي وكلابي وسجوني
لا تضيقوا أيها الناس ببطشي
فأنا أقتل كيلا تقتلوني
وأنا أشنق كيلا تشنقوني
وأنا أدفنكم في ذلك القبر
الجماعي ... كيلا تدفنوني
أيها الناس .. أيها الناس
اشتروا لي صحفاً تكتب عني
اشتروا لي صحفاً تكتب عني
اشتروا لي ورقاً أخضر مصقولاً
كأعشاب الربيع
ومدادا ومطابع
كل شيء يُشترى في عصرنا
حتى الأصابع
اشتروا فاكهة الفكر
وخلُّوها أمامي
واطبخوا لي شاعراً
واجعلوه بين أطباق طعامي

أنا أمّيٌّ عنده عقدة
مما يقول الشعراء
يتغنون بحُسني
اشتروا لي كل ما لا يُشترى
في أرضنا أو في السماء
اشتروا لي غابة
من عسل النحل
ورطلاً من نساء
فأنا بالعُملة الصعبة
أشترى كيف أريد
أشترى ديوان « حسان بن ثابت »
وشفاه المتنبي
وأناشيد لبيد
فالملايين التي في بيت مال المسلمين
هي ميراث قديم لأبي
فخذوا من ذهبي
واكتبوا في أمهات الكتب
أن عصري عصر هارون الرشيد
يا جماهير بلادي
يا جماهير الشعوب العربية
إنني روح نقي

جاء كي يغسلكم
من غبار الجاهلية
سجلوا صوتي على أشرطة
إن صوتي أخضر الإيقاع
كالنافورة الأندلسية
صوروني وأنا أقطع كالتفاح
أعناق الرعية
صوّروني وأنا أفترس
الشعر بأسناني
وأمتص دماء الأبجدية
صوّروني بوقاري وجلالي
وعصاي العسكرية
صوّرونى عندما أصطاد
وعلا أو غزالاً
صوروني عندما أحملكم
فوق أكتافي الأبية
يا جماهير الشعوب العربية[1]

* * *

(١) قصيدة « يوميات سفاح عربي » ، لنزار قبّاني بتصرف - جريدة الشعب ، عدد ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٩٦ الصفحة الثالثة .

بالعدل قامت السموات والأرض :

كان رسول اللَّه ﷺ يبعث عبد اللَّه بن رواحة إلىٰ خيبر فيخرص بينه وبين يهود ، فجمعوا حُلِيًّا من نسائهم فقالوا : هذا لك وخفِّف عنا ، قال : يا معشر يهود ! واللَّه إنكم لمن أبغض خلق اللَّه إليَّ ، وما ذاك بحاملي علىٰ أن أحيف عليكم ، والرشوة سحت ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض[١] .

وفي رواية : « واللَّه لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ ولأنتم واللَّه أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم ، علىٰ أن لا أعدل فيكم » . . . فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض[٢] .

وعند ابن هشام (٢/ ٣٥٤) : « كان رسول اللَّه ﷺ يبعث عبد اللَّه بن رواحة خارصًا بين المسلمين ويهود ، فإذا قالوا : تعديت علينا ، قال : إن شئتم فلكم ،وإن شئتم فلنا ، فتقول يهود : « بهذا قامت السماوات والأرض » .

معاوية بن أبي سفيان ـ رضي اللَّه عنه ـ أعدل الملوك وأحلمهم :

ترجم له الذهبي بقوله : « أمير المؤمنين ملك الإسلام معاوية بن أبي سفيان أعدل الملوك وأحلمهم » .

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : ما رأيت أحدًا بعد عثمان أقضىٰ بحق من صاحب هذا الباب ، يعني معاوية .

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (١/ ٢٣٧) .
(٢) « في ظلال القرآن » (٢/ ٧٧٦ـ ٧٧٧) .

وعن قبيصة بن جابر قال : صحبت معاوية ، فما رأيت رجلاً أثقل حلمًا ، ولا أبطأ جهلاً ، ولا أبعد أناة منه .

قال معاوية ـ رضي اللَّه عنه ـ : « إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أوزن من حلمي » .

قال فيه أبو الجهم العدوي :

ونُغضِبُه لِنَخْبُـــرَ حالَتَيْـــهِ فنُخبَـــرَ منهمـــا كرما ولينا

نَميـــلُ على جوانبـه كأنَّــا نَمِيـلُ إذا نَميـلُ على أبيـــنا

وقال عنه عبد اللَّه بن الزبير : « للَّه در ابن هند ، إنْ كنَّا لنفرقه ، وما الليث على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا ، وإن كنا لنخدعه ، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه ، فيتخادع لنا ، واللَّه لوددت أنَّا مُتِّعنا به ما دام في هذا الجبل حجر » .

وللَّه در هذا الملك العادل حيث يقول : « إني لأستحي أن أظلم من لا يجد عليَّ ناصرا إلا اللَّه » .

وقال : « إني لأستحيي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، أو جهل أكبر من حلمي ، أو أن تكون عورة لا أواريها بستري » .

وقال : « ما يسرني بذُلِّ الحلم عزّ النصر » .

وسليمان بن عبد الملك يعقد عقدا ليس للشيطان فيه نصيب :

قال عنه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٥/ ١١١) : « كان دينًا فصيحا مفوَّها عادلاً محبًا للغزو » .

وقال عنه السيوطي في « تاريخ الخلفاء » : « كان من خيار ملوك بني أمية ، وكان مؤثرًا للعدل محبًا للغزو » .

وقال ابن كثير في « البداية والنهاية » (٩/ ١٩١) : « يرجع إلىٰ دين وخير ومحبة للحق وأهله ، واتباع القرآن والسنة ، وإظهار الشرائع الإسلامية ـ رحمه اللَّه ـ وللَّه دره ما أعظم عدله حين يترك بني أبيه ويعهد بإمرة المؤمنين من عبده والخلافة لعمر بن عبد العزيز قائلاً : « واللَّه ، لأعقدنَّ لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب » .

عمر بن عبد العزيز أشج بنى أمية إمام عدل :

قال سفيان الثوري : « أئمة العدل خمسة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز » . ، وقال : « لا أوافق رأىٰ أحد أحب إلىٰ من عمر بن عبد العزيز لأنه كان إمام هدىٰ »[1] .

وقال أحمد بن حنبل : « إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ، ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً ، إن شاء اللَّه »[2] .

وقال ميمون بن مهران : « إن اللَّه عز وجل تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز »[3] .

قال عمر بن العزيز لجلسائه : « ومن صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال : يدلني من العدل إلىٰ ما لا أهتدي له ، ويكون لي علىٰ الخير عونا ، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، ولا يغتاب عندي أحد ، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس ، فإذا كان كذلك فحيّ هلا به ، وإلاّ

(١) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي ، تحقيق نعيم زرزور ، (ص٧٣) ـ دار الكتب العلمية .
(٢) المصدر السابق (ص٧٤) .
(٣) المصدر السابق (ص٧٤) .

فهو خرج من صحبتي والدخول عليَّ »(١) .

قال سفيان بن عيينة : « لما رجع عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان ، كان أول شيء راعهم منه ، حين قدَّموا إليه مركبه ، فقال : أخروه ، فقربوا إليه بغلته ، فركبها ، فلما أن رجع إلىٰ منزله دخل ، فقال له مولاه : يا أمير المؤمنين ، كأنك مهتم ؟ فقال : لمثل الأمر الذي نزل بي اهتممت ، إنه ليس من أمة محمد ، في مشرق ولا مغرب ، أحد إلاّ له قبلي حق يحق عليّ أداؤه إليه ، غير كاتب إلي فيه ، ولا طالبه مني »(٢) .

قال مالك بن دينار : « لما ولىٰ عمر بن عبد العزيز ـ رحمه اللَّه ـ قالت رعاة الشاء في ذروة الجبال : من هذا الخليفة الصالح الذي قد قام علىٰ الناس ؟ فقيل لهم : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : إنا إذا قام علىٰ الناس خليفة صالح ، كفَّت الذئاب والأسد عن شأننا »(٣) .

بأبي وأمي ذلكم الإمام الرباني العادل الذي كان يستدرج الناس إلىٰ الخير والعدل فعن ميمون بن مهران، أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال : يا أبةِ ! ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فواللَّه ما كنت أبًا لي ، لوْ غَلَتْ بي وبك القدور في ذلك ، قال : يا بُنَيَّ ! إنما أروض الناس رياضة الصعب ، إن لأريد أن أحيي الأمور من العدل ، فأوخز ذلك حتىٰ أخرج معه طمعًا من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ : ما طاوعني الناس علىٰ ما أردت من الحق ، حتىٰ

---

(١) المصدر السابق (ص٧٩) .
(٢) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص٦٥) .
(٣) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص٨٧) .

بسطت لهم من الدنيا شيئًا »[١] .

قال عمر ـ رحمه اللَّه ـ لميمون بن مهران : كيف لي بأعوان على هذا الأمر أثق بهم وآمنهم ؟ قال : يا أمير المؤمنين لا تشغل قلبك بهذا ، فإنك سوق ، وإنما يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ، فإذا عرف أن النافق عندك الصحيح ، لم يأتوك إلا بالصحيح .

ولما استخلف ـ رحمه اللَّه ـ جاءه الناس من كل مكان ، فجلس على المنبر ، وحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، أيها الناس ! فالحقوا ببلادكم ، فإني أنساكم ها هنا وأذكركم في بلادكم ، وإني قد استعملت عليكم عمالاً ، لا أقول هم خياركم ، فمن ظلمه عامل بمظلمة ، فلا إذن له عليَّ ليأتيني ، وايم اللَّه لئن كُنتُ منعت نفسي وأهلي هذا المال ، ثم ضننت به عليكم إني إذا لضنين، واللَّه لولا أن أنعش سُنَّة ، وأسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقًا »[٢] .

وكتب ـ رحمه اللَّه ـ في المحابس : « لا يقيد أحد بقيد يمنع من تمام الصلاة » .

كتابه إلى أهل الموسم :

كتب عمر ـ رحمه اللَّه ـ إلى أهل الموسم : « أما بعد ، فإني أُشهد اللَّه ، وأبرأ إليه في الشهر الحرام ، والبلد الحرام ، ويوم الحج الأكبر ، أني بريء من ظلم من ظلمكم ، عدوان من اعتدى عليكم ، أن أكون أمرت بذلك ، أو رضيت ، أو تعمدته ، إلا أن يكون وهما مني ، وأمرًا خفي عليَّ لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعًا عني ، مغفورًا لي ، إذا عُلم مني

---

(١) المصدر السابق (ص٨٨) .
(٢) المصدر السابق (ص٨٩) .

الحرص والاجتهاد ، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني ، وأنا معول كل مظلوم ، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم ، ألا وإنه لا دولة ببرٍّ أغنيائكم ، ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم ، ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح اللَّه به ، خاصة و عامة ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار على قدر ما نوى من الحسبة ، وتجشّم من المشقة ، فرحم اللَّه امرءاً لم يتعاظمه سفر يحيي اللَّه به حقًا لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها اللَّه لكم ، وأموراً من الباطل أماتها اللَّه عنكم ، فلا تحمدوا غيره ، ولو وكلني إلى نفسي كنت كغيري ، والسلام عليكم »[1] .

عدله بين الخصوم :

قال الحكم بن عمر الرعيني : شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة ، فقال عمر لمسلمة : لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي ، ولكن وكل بخصومتك من شئت ، وإلا فجاثي القوم بين يدي ، فوكل مولى له بخصومته ، فقضى عليه بالناعورة .

للَّه دره من إمام عادل :

انظر إلى عدله الرائع الباهر وموقفه الجميل من قضية « كنيسة يوحنا » بدمشق ، فقد كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءاً كبيراً من كنيسة يوحنا ليقيم عليه امتداد المسجد الأموي ، وصار هذا الجزء مسجداً ، وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل في مثل هذا الموقف أن يعطي تعويضًا سخيًا

---

(١) المصدر السابق (ص٩١) .

أو أرضًا بديلة ، لكن « ابن عبد العزيز » ، يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن أساليبنا ، إنه أسلوب قديس جليل !!

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، وإعادة الأرض التي أقيم عليها إلىٰ الكنيسة !! .

ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره ، ولكن أمير المؤمنين أصدر أمرًا جديدًا حدد فيه اليوم بل الساعة التي يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم !! .

ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوىٰ أن يفاوضوا زعماء الكنيسة في دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقًا يرضونه ، ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم ، ثم يذهب وفد من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق ، فيحمد اللَّه عليه ، ثم يقره ويرضاه !![1] .

وعن عبيدة بن حسن السنجاري أن رجلاً من أهل أذربيجان أتىٰ عمر ابن عبد العزيز فقام بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اذكر بمقامي هذا مقامًا لا يشغل اللَّه عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق ، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ، ولا براءة من الذنب ، قال : فبكىٰ بكاءً شديدًا ، ثم قال : ويحك ، اردد عليَّ كلامك هذا ، فجعل يردده عليه وعمر يبكي وينتحب ، ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : إن عامل أذربيجان عدا عليَّ فأخذ مني اثنا عشر ألف درهم ، فجعلها في بيت مال المسلمين ، فقال عمر : اكتبوا له الساعة ، إلىٰ عاملها حتىٰ يرده إليه ـ أو عليه[2] .

---

(١) « خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد (ص٥٨٠ ـ ٥٨١) ـ طبع دار الجيل .
(٢) « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي (ص٩٢ ـ ٩٣) .

وانظر إلى قول عمر ـ رحمه اللَّه ـ : « ما من طينة أهون عليَّ فتّا ، ولا من كتاب أيسر عليَّ ردًا من كتاب قضيت به ، ثم أبصرت أن الحق في غيره ففتتها »[١] .

وعن غيلان بن ميسرة أن رجلاً أتى عمر بن عبد العزيز فقال : زرعت زرعًا فمر به جيش من أهل الشام فأفسده ، فعوضه منه عشرة آلاف درهم[٢] .

رفقه ـ رحمه اللَّه ـ بالحيوان :

وانظر ما بلغ عدله ورفقه :

قال أبوعثمان الثقفي : كان لعمر بن عبد العزيز غلام على بغل له يأتيه بدرهم كل يوم ، فجاءه يومًا بدرهم ونصف ، فقال : ما بدا لك ، قال : نفقت السوق ، قال : لا ، ولكنك أتعبت الخيل ، أجمه ثلاثة أيام »[٣] .

ويكتب عمر إلى واليه على مصر : « أما بعد ، فقد بلغني أن الحمَّالين في مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ماتطيق . . . فإذا جاءك كتابي هذا ، فامنع أن يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل » .

يا لها من قصةٍ باهرةٍ تريك قلب عمر الكبير :

للَّه در عمر ، ما هتفت به حاجه فرد ولا مظلمة مظلوم في أدنى الأرض وأقصاها ، إلا ألفته وكأنه في انتظارها وحدها !! ويتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء ، وصغار الأمور عنده مثل كبارها ، فانظر : « كتبت إليه

---

(١) المصدر السابق (ص٩٣) .

(٢) المصدر السابق (ص٩٧) .

(٣) المصدر السابق (ص٩٧) .

سوداء مسكينة تسمى « فرتونة السوداء » من الجيزة بمصر ، أن لها حائطًا متهدمًا لدارها ، يتسوره اللصوص ويسرقون دجاجها ، وليس معها مال تنفقه في هذا السبيل .

فيكتب عمر إلى واليه على مصر « أيوب بن شرحبيل » : « من عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين ، إلى أيوب بن شرحبيل ، سلام اللَّه عليكم .

أما بعد ، فإن فرتونة السوداء كتبت إليَّ تشكو إليَّ قصر حائطها ، وأنَّ دجاجها يُسرق منها ، وتسأل تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فاركب بنفسك وحصِّنه لها » .

وكتب إلى فرتونة : « من عبد اللَّه عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء : سلام اللَّه عليك ، أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك ، حيث يُقتحم عليك ويُسرق دجاجك . . . وقد كتبت إلى أيوب بن شرحبيل ، آمره أن يبني لك الحائط حتى يُحصِّنه مما تخافين ، إن شاء اللَّه » ، يقول ابن عبد الحكم راوى هذه القصة الباهرة : «فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عن فرتونة حتى وجدها ، فإذا هي سوداء مسكينة ، فأعلى لها حائطها » ، رحمة وإحسان وعدل وأُبُوَّة ، لا يفلت منها شاردة ولا واردة!!

ملاحظته لعماله ومكاتبته إياهم في القيام بالعدل :

رحم اللَّه أَشَجَّ بني أمية فإن موقفه من أموال الأمة لعجيب ، ثم عجيب!! انظر باللَّه عليك ثم خبرني عن وجيب قلبك ألا ينبض بحب هذا الصدِّيق العادل :

كتب إلى عماله أن لا تكتُبُنَّ في طومار[1] بقلم جليل ، ولا تَمُدُنَّ

---

(١) صحيفة .

فيـه . وكانت كتبه شبرا أو نحو ذلك[١] .

وكتب ـ رحمه اللَّه ـ إلىٰ أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم واليه علىٰ المدينة :

« أما بعد ، فقد قرأت كتابك ، الذي كتبت به إلىٰ سليمان بن عبد الملك وكنت الُمبتلىٰ بالنظر فيه دونه ، كتبت تسأله أن يقطع لك من الشمع مثل الذي كان يقطع لمن قبلك ، وتذكر أن الشمع الذي قبلك نفد .

ولعمري لقد طالما رأيتك تخرج من منزلك إلىٰ مسجد رسول اللَّه ﷺ ، في الليلة المظلمة الوحلة بغير ضياء ، ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم ، والسلام عليك .

وكتبت تسأله أن يقطع لك شيئًا من القراطيس ، مثل الذي كان يقطع قبلك ، فأدِقَّ قلمك ، وقارب بين سطورك واجمع حوائجك ، فإني أكره أن أُخرج من أموال المسلمين مالاً ينتفعون به ، والسلام »[٢] .

يا خالق عمر سبحانك !!

ما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعًا وأقلامًا وورقًا ، وإنما المسألة في وعي « الحاكم القديس » هي حرمة هذه الأموال وقداستها . . . هي درجة الولاء لمسئولية رعياتها وحفظها . . . وهكذا يُرسىٰ لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس .

وانظر مع هذا إلىٰ فرحه بدخول فرد واحد إلىٰ نور الإسلام وهُداه ،

---

(١) « مناقب عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي (ص٨٨ ، ١٠٠) .

(٢) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص١٠٠ـ ١٠١) .

وأن هذا عنده خير من ملء الأرض مالاً وذهبًا .

يرسل إليه عدي بن أرطاة واليه على العراق : « إن الناس قد دخلوا في الإسلام أفواجًا حتى خشيت أن يقل الخراج ، فيجيبه الخليفة المقسط العظيم بكلماته الوضيئة : « إن اللَّه بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا ، واللَّه ، لوددت أن الناس كلهم يسلمون ، حتى تكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا ! » .

وكتب إلى واليه على اليمن « عروة بن محمد » :

« أما بعد فقد كتبت إليَّ تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة في أعناقها كالجزية يؤدونها على كل حال . . . إن أخصبوا أو أجدبوا . . . إن حيوا ، أو ماتوا ، فسبحان اللَّه رب العالمين ! ! ثم سبحان اللَّه رب العالمين ! ! إذ أتاك كتابي هذا ، فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق . . . واعلم أنك إن لم ترفع إليَّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[1] فقد علم اللَّه أني سأكون بها مسروراً ما دام في ذلك بقاء على الحق والعدل . . . ! ! ! » .

ويكتب إليه عنبة بن سعيد وهوأحد المقرَّبين إليه يسأله حاجة لنفسه فقال له : « يا عنبة ، إن يكن مالك الذي عندك حلالاً ، فهو كافيك ، وإن يكن حرامًا ، فلا تضيفن إليه حرامًا جديداً . . . أخبرني يا عنبة . . . أمحتاج أنت . . . ؟ قال : لا . . . أفعليك دين ؟ لا ، إذن فكيف تطمع في أن أعمد إلى مال اللَّه فأعطيكه في غير حاجة ، وأدع فقراء المسلمين؟! لو كنت غارمًا ، لأديت عنك غرمك . . . أو محتاجًا لأمرت لك بما يصلح

(١) الكتم : نبات يخفف به الشعر ، وصنع منه مداد الكتابة .

شأنك فليكن لك في مالك غناء . . . واتق اللَّه ، وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين »[١] .

وكتب إلىٰ ولاته : « لابد لكل مسلم من مسكن يأوي إليه، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، فوفروا ذلك كله، ومن كان غارمًا ، فاقضوا عنه دينه !!! » .

وراح الميمون المبارك ينشئ في طول البلاد وعرضها دور الضيافة ، يأوي إليها المسافرون وأبناء السبيل ، ويمد بيت المسلمين بمطابخ ، وأمر لكل أعمىٰ بقائد يقوده ويقضي له أموره علىٰ حساب الدولة ، ولكل مريض أو مريضين بخادم ، علىٰ حساب الدولة ، وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين فقضىٰ عنهم ديونهم ، وافتدىٰ أسرىٰ المسلمين جميعًا ، وأغدق عليهم العطاء ، وكفل اليتامىٰ الذين لا عائل لهم ، وأمر أن يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته وليس بعد فطامه .

وهكذا تحولت شهقات البائسين إلىٰ بسمات متهللة وفرح غامر ولِلَّه دره وهو يقول : « قرة عين الملوك في استفاضة الأمن في البلاد ، وظهور مودة الرعية لهم ، وحسن ثنائهم عليهم » .

العجب كل العجب من استئذانك إيَّاي في عذاب بشر !!! :

كتب عدي بن أرطأة إلىٰ عمر بن عبد العزيز : « من عدىٰ بن أرطأة ، أما بعد ، أصلح اللَّه أمير المؤمنين ، فإن قبلي أناسًا من العمَّال قد اقتطعوا من مال اللَّه وعز وجل مالاً عظيمًا ، لست أرجو استخراجه من أيديهم ، إلا أن

---

(١) « خلفاء الرسول » (ص٥٧٤) .

أمسهم بشيء من العذاب ، فإن رأىٰ أمير المؤمنين أصلحه اللَّه أن يأذن لي في ذلك ، أفعل » .

فأجابه عمر : « أما بعد ، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر ، كأني جُنَّة من عذاب اللَّه ، وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط اللَّه عز وجل ، فانظر من قامت عليه بينة عدول ، فخذه بما قامت عليه به البينة ، ومن أقرَّ لك بشيء فخذه بما أقرَّ به ، ومن أنكر فاستحلفه باللَّه العظيم ، وخلِّ سبيله ، وأيم اللَّه ، لأن يلقوا اللَّه عز وجل بخياناتهم أحبَّ إليَّ من أن ألقىٰ اللَّه بدمائهم ، والسلام »[1] .

وكتب إلىٰ عامله علىٰ خراسان الجراح بن عبد اللَّه : « بلغني أنك استعملت عمارة ، ولا حاجة لي بعمارة ، ولا بضرب عمارة ، ولا برجل قد صبغ يده في دماء المسلمين فاعزله » .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ ينهي عمَّاله عن صنائع الحجَّاج الثقفي فكتب إلىٰ عدي بن أرطأة : « أما بعد ، فإني كتبت إليك بكتب كثيرة أرجو بذلك الخير من اللَّه تعالىٰ ، والثواب عليه ، وأنهاك فيها عن أمور الحجاج بن يوسف ، وأرغب عنها وعن اقتدائك به ، فإن الحجاج كان بلاء وافق خطيئة قوم بأعمالهم ، فبلغ اللَّه عز وجل في مدته ما أحب من ذلك ، ثم انقطع ذلك ، وأقبلت عافية اللَّه عز وجل ، فلو لم يكن ذلك إلا يومًا واحدًا أو جمعة واحدة ، كان ذلك عطاء من اللَّه عز وجل » .

وقال عن الحجاج : « إن اللَّه عز وجل قد أراح منه ، وطهَّر العباد والبلاد من شره » .

---

(١) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص١٠٣) .

وقال عنه : «لو أن الأمم تخابثت يوم القيامة ، فأخرجت كل أمة خبيثها ، ثم أخرجنا الحجاج لغلبناهم »[١] .

واستعمل عمر ـ رحمه اللَّه ـ عاملاً ، فبلغه أنه عمل للحجاج فعزله ، فأتاه يعتذر إليه ، فقال : لم أعمل له إلا قليلاً ، قال : « حسبك من صحبة شر يوم أو بعض يوم »[٢] .

وبعث عمر ـ رحمه اللَّه ـ بآل أبي عقيل . . . أهل بيت الحجاج . . . إلىٰ صاحب اليمن وكتب إليه : « أما بعد ، فإني قد بعثت إليكم بآل أبي عقيل ، وهم شر بيت في العرب ، ففرقهم في عملك علىٰ قدر هوانهم علىٰ اللَّه وعلينا ، وعليك السلام »[٣] وإنما نفاهم .

حصّن مدينتك بالعدل :

كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه : « أما بعد ، فإن مدينتنا قد خربت ، فإن يرىٰ أمير المؤمنين أن يقطع لنا ما نرمّها به فعل » ، فكتب إليه عمر : « أما بعد ، فقد فهمت كتابك ، وما نكرت أن مدينتكم قد خربت ، فإذا قرأت كتابي هذا فحصّنها بالعدل ، ونقِّ طرقها من الظلم فإنه مرمتها ، والسلام »

وكتب إليه واليه علىٰ خراسان يستأذنه في أن يرخِّص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها قائلاً في رسالته له : « إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط » فكان رده التقي الحازم « كذبت . . . بل يصلحهم العدل

---

(١) المصدر السابق (ص١٠٨) .
(٢) المصدر السابق (ص١٠٨) .
(٣) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص١٠٩) .

والحق ، فابسط ذلك فيهم ، واعلم أن اللَّه لا يصلح عمل المفسدين » .

وكذا لما أرسل إليه صالح بن عبد الرحمن وصاحب له يعرضان له مثل ما قال واليه على خراسان فكتب إليهما « خبيثين من الخبث ، دريئين من الردئ ، تعرضان لي بدماء المسلمين ؟ ما أحد من الناس إلا ودماؤكما أهون عليَّ من دمه » .

نعم . . . الحق والعدل بهما وعليهما قام منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحب المستقيم ستمضي خطاه . . . آخذا معه على ذات الطريق جميع الناس ، أمراءهم وعامتهم ، أغنياءهم ، وفقراءهم . . . أقوياءهم وضعفاءهم .

الخليفة الذي نراه نراه دائم البكاء ، بل النحيب كلما ذكر اللَّه واليوم الآخر . . . والذي ينتفض تحت تقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسبه لا يصلح لغير الصومعة يتحنث فيها ويتعبد ! ! هذا الخليفة يبهرنا ونحن نطالع منهجه وأسلوبه في الحكم حيث تطل علينا من وراء دموعه المُنثالة روح عالية تناضل في جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحق . . . حيث تُطلُّ علينا كذلك بصيرة نافذة لا يُفلت من ضيائها شيء ، ورادة حازمة لا يهولها صعب ، لا يُجفلها خطر .

ولقد أحسن عمر اختيار ولاته ، وقضاته ، وأمناء بيوت المال ، وأحاط نفسه بالأبرار الذين لا يخافون في اللَّه لومة لائم ، والذين لا يُزيفون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل وإن قطعت منهم الرقاب ، وكان أول ما أوصاهم به : « كونوا في العدل والاصلاح والإحسان بقدر ما كان من قبلكم في الظلم والفجور والعدوان ! ! » .

وراحت أضواء قداسته وعدله وقدوته تتعالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية وَسِعت الدولة كلها والأمة

جميعها بأنوارها الغامرة وهُداها الوثيق .

عمر بن عبد العزيز مع بني أمية :

للَّه در رجاء بن حيوة من رجل اختارته المقادير ليكون السبب الأول والأوثق في إفضاء الخلافة لعمر الحاكم الورع العادل الطهور ، حين أشار على سليمان بن عبد الملك بذلك .

وللَّه در سليمان حين يقول عبارته الباهرة : « واللَّه لأعقدن لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب » ، فأوصى لعمر الذي ليس للشيطان فيه نصيب .

وللَّه در عمر رجل القداسة والعدل يقف لقومه بني أمية كالقدر ، ويُحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم يدفع بهم جميعًا أمامه على طريق العدل والحق ، مصفِّيا ترفهم المنهوم .

عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قال : لَمَّا ولي عمر بن عبد العزيز ، جعل لا يدع شيئًا مما كان في يده ويد أهل بيته من المظالم إلا ردَّها مظلمة مظلمة فبلغ ذلك عمر بن الوليد بن عبد الملك فكتب إليه :

« إنك أزريت على من كان قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم ، وسرت بغير سيرتهم بغضًا لهم وشنآنا لمن بعدهم من أولادهم ، قطعت ما أمر اللَّه به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدوانًا ، يا ابن عبد العزيز ! اتق اللَّه وراقبه إن شططت ، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور ، فوالذي خصَّ محمد ﷺ ، بما خصَّه به ، لقد أزددت عن اللَّه بعداً في ولايتك هذه إذ زعمت أنها عليك بلاء ، فاقصر بعض ميلك ، واعلم بأنك بعين جبار وفي قبضته ، ولن تترك على هذا » .

فردَّ عليه أشجَّ بني أمية رد الأسد الذي يزأر ، والجلال الذي يهاب ،

وتحوَّل الإنسان الوديع ، العذب الذي يجلس للناس على الأرض وهو خليفة . . . و يكتب إلى « فرتونة السوداء » خطابه الجميل . . . تحول إلى إعصار مُدمـــدم أمام جبروت الباطل أنَّى يكون ، وكتب العادل عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن عبد الوليد :

« ﴿ بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴾ من عبد اللَّه عمر ، أمير المؤمنين ، إلى عمر بن عبد الوليد ، السلام على المرسلين والحمد للَّه رب العالمين .

أما بعد ، فإنه بلغني كتابك وسأجيبك بنحو فيه ، أما أول شأنك يا ابن الوليد كما زعم ، فأمك بنانة أمة السكون ، كات تطوف في سوق حمص وتدخل في حوانيتها، ثم اللَّه أعلم بها اشتراها ذبيان بن ذبيان من فيء المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملت بك ، فبئس المحمول وبئس المولود، ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً ، تزعم أني من الظالمين لم حرمتك وأهل بيتك فيء اللَّه عز وجل ، الذي فيه حق القرابة والمساكين والأرامل ، وإن أظلم مني ، وأترك لعهد اللَّه ، من استعملك صبيًا سفيهًا على جند المسلمين تحكم بينهم برأيك ، ولم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده ، فويل لك وويل لأبيك ، ما اكثر خصماؤكما يوم القيامة ؟ وكيف ينجو أبوك من خصمائه ؟

وإن أظلم مني ، وأترك لعهد اللَّه، من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب ، يسفك الدم الحرام ، ويأخذ المال الحرام .

وإن أظلم مني، وأترك لعهد اللَّه ، من استعمل قرَّة بين شريك أعرابيًا جافيا على مصر ، أذن له في المعازف واللهو والشرب .

وإن أظلم مني ، وأترك لعهد اللَّه ، مَنْ جعل لعالية البربرية سهمًا في خمس العرب .

فرويداً يا ابن بنانة ، فلو التقت حلقتا البطان ، ورُدَّ الفيء إلى أهله ،

لتفرَّغت لك ولأهل بيتك ، فوضعتهم على المحجة البيضاء ، فطالما تركتم الحق وأخذتم في بنيَّات الطريق ، وما وراء هذا من الفضل ، ما أرجو أن أكون رأيته ، بيع رقبتك ، وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل ، فإن لكل فيك حقًا ، والسلام علينا ، ولا ينال سلام اللَّه الظالمين » .

وعن علي بن أبي حملة وابن شوذب ، قال : كتب عمر بن الوليد بن عبد الملك إلى عمر ابن عبد العزيز كتابًا يغلظ له ، فكتب عمر :

« إن أظْلَمَ منِّي وأجْوَرَ ، مَنْ ولَّى عبد ثقيف العراق فحكم في دمائهم وأموالهم ، إن أظلم مني وأجور ، وأترك لعهد اللَّه من ولى قرَّة مصر جلفًا جافيًا وإن أظلم مني وأجور ، وأترك لعهد اللَّه من ولى عثمان بن حيان الحجاز ، فأنشد الأشعار على منبر رسول اللَّه ﷺ ، وإنما أمك كانت تختلف إلى حوانيت حمص ، فاشتراها ذبيان بن ذبيان ، فبعث بها إلى أبيك فحملت ، فبئس الجنين وبئس المولود ، ثم وضعتك جبارًا شقيًا ، لقد هممت أن أبعث إليك من يحلق جمتك فبئس الجمة »[1] .

ومما كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد :

« . . . وقسَّم أبوك لك الخمس كله ، وإنما سهم أبيك كسهم رجل من المسلمين ، وفيه حق اللَّه ، وحق الرسول وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة ، فكيف ينجو من كثر خصماؤه ؟ وإظهار المعازف والمزامير بدعة في الإسلام ، لقد هممت أن أبعث إليك من يجزُّ جمتك ، جمة السوء . . . » .

قال الأوزاعي : لما قطع عمر بن عبد العزيز على أهل بيته ما كان

---

(١) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز » (ص١٣٣ ـ ١٣٥) .

يجري عليهم من أرزاق الخاصة ، وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم ، تكلم في ذلك عتبة بن سعد فقال : يا أمير المؤمنين ! إن لنا قرابة ، قال : « لن يتسع مالي لكم ، وأما هذا المال فحقكم فيه كحق رجل بأقصى برك الغماد ، فلا يمنعه من أخذه إلا بعد مكانه ، والله ، إني لأرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم ، لنزلت بهم بائقة من عذاب الله » .

لولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم :

قال جويرية بن أسماء : « قال عمر بن عبد العزيز لآذنه : لا يدخل عليَّ اليوم إلاَّ مروانيّ ، فلما اجتمعوا عنده ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا بني مروان : إنكم قد أعطيتم حظًا وشرفًا وأموالاً ، إني لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها في أيديكم » .

فسكتوا ، فقال عمر : ألا تجيبوني ؟ فقال رجل من القوم : والله لا يكون ذلك حتى يُحال بين رءوسنا وأجسادنا ، والله لا نكفِّر آباءنا ، ولا نفقِّر أبناءنا .

فقال عمر : « والله لولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم ، قوموا عني » .

وقال ابن وهب : حدثني مالك أن عمر بن عبد العزيز ذكر ما مضى من الجور والعدل ، وعنده هشام بن عبد الملك ، فقال هشام : إنا والله لا نعيب آباءنا ، ولا نضع شرفنا في قومنا ، فقال عمر : وأي عيب أعيب ممن عابه القرآن؟ »[1] .

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٦ - ١٣٧) .

لأسكرن تلك السواقي حتى أجريه مجراه الأول :

عن نوفل بن الفرات ، أن عمر بن عبد العزيز قال لعمته : « يا عمة ! إن رسول اللَّه ﷺ قُبض ، وترك الناس على نهر مورود ، فولي ذلك النهر بعده رجل فلم يستخص منه بشيء ، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك رجل آخر فلم يستخص منه بشيء ، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك رجل آخر فكرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقي حتى تركوه يابسًا ليس فيه قطرة ، وايم اللَّه ، لئن أبقاني اللَّه لأسكرن تلك السواقي حتى أجريه مجراه الأول »[١] .

كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني اللَّه شره :

ولما دخلت عليه عمته أم عمر بعد أن أخذ القطائع التي كانت في أيدي بني أمية ، قالت له : « إن قرابتك يشكونك ويزعمون أنك أخذت منهم خير غيرك ، قال : ما منعتهم حقًا أو شيئًا كان لهم ، فقالت : إني رأيتهم يتكلمون ، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا ، قال : « كل يوم أخافه دون يوم القيامة ، فلا وقاني اللَّه شره ، ودعا بدينار وجنب ومجمرة ، فألقى ذلك الدينار في النار ، وجعل ينفخ على الدينار ، حتى إذا احمرَّ تناوله بشيء ، فألقاه على الجنب ، فنشَّ وقتر ، فقال : أي عمة ! أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا ؟ فقامت فخرجت على قرابته فقالت : تزوجون آل عمر ، فإذا نزعوا إلى الشبه جزعتم اصبروا له »[٢] .

وفي رواية : « لا تلومون إلا أنفسكم ، عمدتم إلى صاحبكم

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٧) .
(٢) المصدر السابق (ص١٣٨ ـ ١٣٩) .

فزوجتموه بنت ابن عمر ، فجاءتكم بعمر » .

إني وجدت كتاب اللَّه الأقدم ، فأنا حامل عليه من أتاني :

قال عمر بن علي بن مقدم : « قال ابن سليمان بن عبد الملك لمزاحم : إني لي حاجة إلىٰ أمير المؤمنين عمر ، قال : فاستأذنت له ، فقال : أدخله ، فأدخلته علىٰ عمر ، فقال ابن سليمان : يا أمير المؤمنين ! علىٰ ما ترد عليَّ قطيعتي ؟ قال : معاذ اللَّه أن أردَّ قطيعة رسخت في الإسلام ، قال : فهذا كتابي فأخرج كتابًا من كمه ، فقرأه عمر ، فقال : لمن كانت هذه الأرض ؟ قال : للفاسق ابن الحجاج ، قال عمر : فهو أولىٰ بما له ، قال : يا أمير المؤمنين ، فإنها من بيت مال المسلمين ، قال : فالمسلمون أولىٰ بها ، قال : يا أمير المؤمنين ردَّ عليَّ كتابي ، قال : لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذ جئتني به ، فلاندعك تطالب بباطل .

قال : فبكىٰ ابن سليمان : قال مزاحم : فقلت : يا أمير المؤمنين ، ابن سليمان تصنع به هذا ؟ قال : ويحك يا مزاحم ! إنها نفسي أحاول عنها ، وإني لأجد له من اللوط ما أجد لولدي .

ودخل هشام بن عبد الملك علىٰ عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين ! إني رسول قومك إليك ، وإن في أنفسهم ما أكلمك به ، إنهم يقولون : استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخل بين من سبقك وبين ما ولوا ، بما عليهم ولهم ، فقال له عمر : أرأيت إن أتيت بسجلين : أحدهما من معاوية ، والآخر من عبد الملك بأمر واحد ، فبأىٰ السجلين آخذ ؟ قال : بالأقدم ، فقال عمر : فإني وجدت كتاب اللَّه الأقدم ، فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي وفيما سبقني .

وقال له سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان : يا أمير المؤمنين ! امض

لرأيك فيما وليت بالحق والعدل ، وخلِّ عمن سبقك وما ولي ، فخيره وشره ، فإنك مكتف بذلك ، فقال له عمر : أنشدك اللَّه الذي إليه نعود أرأيت لو أن رجلاً هلك ، وترك بنين صغاراً وكباراً ، فعز الأكابر الأصاغر بقوتهم ، فأكلوا أموالهم ، فأدركك الأصاغر فجاءوا بهم وبما صنعوا في أموالهم ، ما كنت صانعًا ؟ قال : كنت أرد عليهم حقوقهم حتى يستوفوها ، قال : فإني وجدت كثيراً ممن قبلي ، من الولاة عزوا الناس بقوتهم وسلطانهم ، وعزَّهم بها أتباعهم ، فلما وليت أتوني بذلك ، فلم يسعني إلا الرد على الضعيف من القوي وعلى المستضعف من الشريف فقال : وفقك اللَّه يا أمير المؤمنين »[١] .

للَّه درك يا عمر . . . قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : وذكر عمر ابن عبد العزيز ، ما كان أشده على بني أمية .

نعم . . . إنه عمر الذي يصدع بالحق قبل أن يتولى الخلافة . . . لما قال سليمان بن عبد الملك : ما أخال النساء يرثن في العقار شيئًا : فقال له عمر : سبحان اللَّه ! وأين كتاب اللَّه ؟ فقال : يا غلام : اذهب فأتني بسجل عبد الملك بن مروان الذي كتب في ذلك ، فقال له عمر : لكأنك أرسلت إلي المصحف ؟ وفي رواية أخرى ، قال : إلي المصحف أرسلته ، قال : أيوب بن سليمان ، واللَّه ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ، ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه ، فقال له عمر : إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك فما يدخل على أولئك أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا ، فغضب عند ذلك سليمان وسبَّ ابنه وقال له : لأبي حفص تقول هذا !

---

(١) « المصدر السابق (ص١٣٩ - ١٤١) .

نعم لقد صار الحق والعدل وحده هو الفيصل والحكم ، فلا صكوك ولا مواثيق إلا صكوك الحق والعدل ومواثيقه . . . ولا رحم ولا قرابة إلا رحم الحق وقرابته .

للَّه دره حين يقول : « واللَّه ، لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل إلا بتقطيع أوصالي وأعضائي لأمضيت ذلك وأنا سعيد !! » .

للَّه دره وهو يقول : « واللَّه ، لو لبثت فيكم خمسين عامًا ، ما أقمت إلا ما أريد من العدل !! » .

للَّه دره وهو يكتب إلىٰ كبير الخوارج الذين خرجوا بسلاحهم علىٰ الأمة : « . . . أما بعد ، فقد بلغني أنك خرجت غضبًا للَّه ورسوله. . . ولست أولىٰ بذلك مني . . . فهلم أناظرك . . . فإن يكن الحق معنا تدخل فيه ، وإن يكن الحق معك ، نراجع أنفسنا ، وننظر في أمرنا . . !! » .

ويكتب عمر إلىٰ حاكم الموصل لما اشتكىٰ له من حرورية الموصل فقال : إذا رأوا أن يسيحوا في البلاد في غير أذىٰ لأهل الذمة . . . وفي غير أذىٰ للأمة فليذهبوا حيث شاءوا . . . وإن نالوا أحدًا من المسلمين ، أو من أهل الذمة بسوء ، فحاكمهم إلىٰ اللَّه . . . » .

قال ابن الجوزي : « لما بلغت الخوارج سيرة عمر ، وما ردَّ من المظالم ، اجتمعوا وقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل »[1] .

إنه عمر الإمام العادل الذي قال : « لو كان كل بدعة يميتها اللَّه علىٰ يدي ، وكل سنة ينعشها اللَّه علىٰ يدي ببضعة من لحمي ، حتىٰ يأتي آخر

---

(١) المصدر السابق (ص٦٧) .

ذلك على نفسي ، كان في اللَّه يسيراً » .

إنه عمر الذي يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن واليه على الكوفة : « سلام عليك ، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة ، وجور في أحكامهم ، وسنن خبيثة سنَّها عليهم عُمَّال السوء ، وإن أقوم الدين العدل والإحسن ؛ فلا يكوننَّ شيء أهم إليك من نفسك أن تُوَطِّنها لطاعة اللَّه ، فإنه لا قليل من الإثم »(١) .

إنه عمر الإمام العادل الذي يخرج متنكراً ومعه غلامه مزاحم إلى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين يسأل الغادين والرائحين عن بلادهم . . .

يقول لرجل : كيف تركت الناس في بلدك ؟

فقال الرجل : إن شئت جمعت لك خبري ، وإن شئت بعضتُّه تبعيضاً .

فقال عمر : بل اجمعه ، فقال الرجل : « تركت البلاد الظالم بها مقهور ، والمظلوم منصور ، والغني موفور ، والفقير مجبور . . . » وتحدرت الدموع من عيني عمر وهو يقول لمزاحم : « واللَّه لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل ، لأحبَّ إلي مما طلعت عليه الشمس » .

نعم . . . للَّه درك . . . ما كان في الحياة بأسرها متعة تشيع في روحك البهجة مثل أن ترى وتسمع أن ظلماً قد دُحِض ، وأن عدلاً قد نهض .

نعم . . . إنه عمر القائل : « لا تتَّخذوا على أبوابكم حُجَّابا يمنعون

---

(١) المصدر السابق (ص١١٤) .

ذوي الحاجات والمظلومين » .

إنه عمر الذي يكتب إلىٰ ولاته : « تعاهدوا حُجَّابكم ورؤساء حرسكم وشُرَطكم والعاملين معكم، وأكثروا المسألة عنهم حتىٰ تستيقنوا أنهم لا يرتكبون غشًا ولا ظلمًا » .

إنه عمر الذي يقول لولاته ويكتب : « تحرَّوا الحق ، ثم اعملوا به بالغًا ما بلغ بي وبكم . . . حتىٰ وإن ذهب بحياتنا وبمُهَج أنفسنا . . ! ! » .

إنه عمر الصديق غيَّر في أثناء حكمه أعدل وأنبل ما شهدت دنيا الناس من تغيير .

قداسة وصديقية جاءت الحياة ومعها الزهد ، والورع ، والطهر ، والتُّقىٰ، والعدل ، والرحمة ، ما كان يحسبون أن الدنيا فرغت منه إلىٰ الأبد ، قداسة لم تكد تجلس علىٰ الأرض فور توليها الخلافة حتىٰ أنبتت الأرض عدلاً ورحمة ، وأمطرت السماء عدلاً ورحمة . . . ورعىٰ الذئب مع الشاة، في تآخ وسلام .

إنه عمر الذي يكتب إلىٰ سالم بن عبد اللَّه بن عمر : « قد رأيت أن أسير في الناس بسيرة عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ ، إن قضىٰ اللَّه ذلك واستطعت إليه سبيلاً ، فابعث إليّ بكتب عمر وقضائه في أهل القبلة وأهل العهد ، فإني متبع أثره وسائر بسيرته إن شاء اللَّه تعالىٰ ، فاسأل الذي ابتلاني من أمر هذه الأمة بما ابتلاني به أن يعينني علىٰ ما ولاَّني وأن يرزقني منهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وأن يرزقهم مني الرأفة والمعدلة » .

إنه عمر الذي بكاه بعض الرهبان لما مات ، وترحم عليه ، فقال له

مجاهد : لم تترحم عليه وليس هو على دينك ؟ فقال : إني لا أبكي عليه، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ . . .

إنه العادل الذي بكاه إمبراطور الروم « ليو الثالث » بكاءً مرًا أذهل حاشيته وأساقفته وقال : « مات واللَّه ملك عادل ، ليس لعدله مثيل !! واللَّه لقد كان حريًا أن يعجل به ، فأهل الخير لا يلبثون مع أهل الشر إلا قليلاً !! » وقال : « لأحسب أنه لو كان أحد يحيي الموتى بعد عيسى بن مريم لأحياهم عمر بن عبد العزيز »[1] .

إنه عمر الذي قيل فيه :

وتدعو اللَّه مجتهدًا ليرضى ... وتذكر في رعيتك المعادا

وقيل فيه :

إن الذي بعث النبي محمدا ... جعل الخلافة في الإمام العادل

قد نال عدلك من أقام بأرضنا ... فإليك حاجة كل وفد راحل

وقال فيه محارث بن دثار :

لو أعظم الموت خلقًا أن يواقعه ... لعدله ، لم يصبك الموت يا عمرُ

كم من شريعة حق قد نعشت لهم ... كادتْ تموت وأخرى منك تنتظرُ

يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي ... علي العدول التي تغتالها الحفرُ

وللَّه در من قال فيه :

أقولُ لمّا نعى الناعون لي عمرا ... لا يبعدن قوام العدل والدين

لم تلهه عمره عين يفجّرها ... ولا النخيل ولا ركض البراذين

قد غادر القوم في الذي لحدوا ... بدير سمعان قسطاس الموازين

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٣) .

كم بين عمر قسطاس الموازين وورثة الفراعين من الزعماء الملهمين :

حدّقت في رأسي
فلاح الضوء ... وسط الليل فيه
ساءلت نفسي
أى شيء يا فؤادي تشتهيه
أوطانك الخضراء أجهضها
خريف الظلم ... والزمن السفيه
فالناس باعت أجمل الأيامِ
في سوق الجواري
لم يَعُد في العمر شيء تشتريه
باعوا الليالي البكر
والحلم البريء ... ونشوة الذكرى
وباعوا نخوة الزمن النزيه
قد شيّدوا للقهر أوكاراً
فصار النهر مقبرة
وضاق الماء بالعفن الكريه
خنقوا خيوط الفجر في رحم الليالي
ثم راحوا يرجمون الضوء فيه
قل لي بربك يا فؤادي
أي حُلْمٍ بعد هذا ... ترتجيه

* * *

فالمخبرون على جدار البيت
في لعب الصغار
وفي أواني الزهر
في أعلى المنابرْ
المخبرون يُلَوّحون
على رغيف الخبز للجوعى
ويختبئون في همس السرائرْ
هم يسكنون جلودنا
ويُحَدّقون من الأظافر والخناجرْ
وأصابع الجلاّد في أعماقنا نارٌ
وفي دمنا خناجرْ
لم يبق من ثُوّار هذا العصرِ
غيرُ سُلالة الفئران
تلتهم القلوب ... مع الضمائرْ
لم يبق من أمجادهم غير الليالي السودِ واللقطاءِ
والجوعى ... وسكان المقابر
ما بين جلاد ... ودجّال ... وفاجرْ
الكل يحمل في بلادي اسم ثائرْ
هتكوا بكارة عمرنا المغزول من ضوء المشاعرْ
داسوا رفات الأنبياءِ

وتوّجوا الرشّاش سُلطاناً على كل المصائرْ
هجروا محمد ... والقرآن
فأحرقوا الفرقان ... وانتهكوا المنابرْ
قالوا بأن الوحي يأتيهم إذا شاءوا
وأن البطش دستور الشعائرْ
قالوا بأن الأنبياء جميعهم
في الأصل من جنسِ العساكرْ
آهِ ... وآهِ منك يا زمن العساكرْ

* * *

يا أيها الجلاّد ...
بين القمامةِ طفلةٌ عرجاءُ
يصرخُ في جوانحنا نزيفْ
فالعمر عندك ...
ليلةٌ حمراءُ ... في قصرٍ منيف
والعمر عندي ...
بسمة الأطفال في وطن شريفْ
يا أيها الشبحُ المخيف
ما زلت تبني كلَّ يومٍ
في بلادي حصنَ زيفْ
ما زال يخرجَ من جُحورك كل يوم

قاتلٌ ... وزمانُ خوفْ
ما زلت تغرس في ضلوعي
كلَّ يومٍ ... ألفَ سيف

* * *

يا أيها الجلادُ ارحلْ عن ربوع مدينتي
دع أغنيات النورس المقهور
تُشرِقُ فوق وجه سفينتي
دَعْ فرحة الفجر الذي
سجنوه في وطني ... تُعانقُ فرحتي
كل الملامحِ هاجرت كالحلم
دعني كي أرى وجهي
وأرحلَ في عيون حبيبتي ...
فمتى أعودُ إلى بلادي
إنني سافرتُ من وطني
إلى وطني ... وطالتْ غربتي
دعني أُلملمُ في بقايا العمرِ
ما أقساهُ موت كرامتي
وغداً أُحاسبُ
كل فئران الحديقة ... واللصوصِ
ومن أضاعوا قبّتي
من نصّبوا الطغيان سلطاناً

فباعوا عرض أمي واستحلُّوا طفلتي
من مزّقوا جسدي ...
وداسوا ضوء عيني واستباحوا أمّتي
يا أيها الجلاَّدُ
سيفُك لم يَعُدْ أبدا يهزُّ سكينتي
إني سأطلق من قبورك غضبتي
حطَّمتُ أصنام المعابد كلَّها
وعَرَفْتُ في زمن النخاسةِ
أين تاهتْ قبلتي
عقيدتي... يا قبلتي
يا نبضيَ المخبوء في صدري
ويا حُلمي الذي صلبوه جَهْراً
في سماء مدينتي
يا صوتيَ المخنوقُ في زمن الموالي
يا شعارَ طهارتي
يا أيها الوطن الذي قتلوه في عيني
وراحوا يَسْكَرُون على بقايا مُهجتي
عقيدتي ... يا قبلتي
يا موطني مهما تَغَرّبنا
وضاعتْ في الدروب هَويّتي

ميعادنا آتٍ ... فضوء الصبح
يدفع كل يوم ... جبهتي
قدْ كنتُ أدمنتُ الظلامَ
وداست الأقدام عمراً ... قامتي
يا أيها الجلاَّدُ
لا تُطلقْ خيولَك في دمي
نيشانُكَ المهزومُ تاجرَ
من سنينٍ في بقايا أعظمي
قد بعِتني حُلْماً
وبعْتَ العمرَ أطلالاً
وبعتَ الأرض إنسانا بأبخسِ مغنمِ
قدْ بعتَ للأصنامِ توبةَ مُسْلم
وأقمتَ عُرسكَ في سُرادِقِ مأتمي
ودفنتَ ضوء الصبح
في سرداب ليلٍ مُعْتم
كبّلتني بالصمت
حتى ماتتِ الكلماتُ حُزْنا في فمي
قيّدتني حتى ظننتُ
بأنَّ هذا القيد يسكنُ مِعْصمي
وقتلتني

حتى ظننتُ بأن قتل النفس
في الأديان غيرُ مُحَرَّمِ
فإلى متى ...
ستظلُّ تركعُ للضلالِ
وبين أحضان الخطايا ترتمي
والى متى ...
ستظلُّ خلف سجون قهرِك تحتمي
صارت نياشين الزعامة
في عيون الناس
جلاَّداً ونهراً من دم
قد خدَّرونا بالضلالِ
وبالأماني الكاذباتِ ...
وبالزعيمِ المُلْهَم ...
ماذا تقول الآن يا وطني ؟ أجِب ...
مَنْ كان في عينيك يوماً ثائراً
الآن أصبحَ في سجلِّ القهرِ
أكبرَ ... مُجْرِمٍ[1]

* * *

(١) من قصيدة « من أغاني مانديل » بتصرف ، ديوان « كانت لنا أوطان » (ص١٠٥ ـ ١٢١) . للشاعر فاروق جويدة ، مكتبة غريب .

كم الفرق بين عمر بن عبد العزيز ـ العادل الذي أحيا السنن ـ وبين الزعيم المُلْهَمِ هُبَلْ

هُبَلٌ ... هُبَلْ ... رَمْزُ السَّخافة والدَّجَل
مِنْ بعد ما اندثرتْ على أيدي الأُباةْ
عادتْ إلَيْنا اليوم في ثوبِ الطُّغاةْ
تَتَنَشَّقُ البخورَ تحرقُهُ أساطير النفاقْ
مَنْ قُيِّدَت بالأسر في قَيْد الخنا والآرتزاقْ
وَثَنٌ يقدُ جموعَهمْ ... يا للخجلْ

* * *

هُبَلٌ ... هُبَلْ
رمزُ السَّخافةِ والجهالةِ والدَّجَلْ
لا تسألَنْ يا صاحبي تلكَ الجُموعْ
لمن التعبُّدُ والمثوبةُ والخضوعْ
دَعْهَا فما هيَ غيرُ خرفانِ القطيعْ
معبودُها صَنَمٌ يراهُ ... العَمُّ سامْ
وتكَفَّلَ الدولارُ كي يُضْفِي عليه الاحترامْ
وسعى القطيعُ غباوةً ... يا للبطلْ

* * *

هُبَلٌ ... هُبَلْ
رمزُ الخيانةِ والجهالةِ والسخافةِ والدَّجَلْ

هُتَّافَةُ التَّهريجِ ما ملّوا الثناءْ
زعموا له ما ليس عند الأنبياءْ
مَلَكٌ تَجَلْبَبَ بالضّياء وجاءَ مِنْ كَبِدِ السّماءْ
هو فاتحٌ ... هو عبقريٌ مُلْهَمٌ
هو مرسلٌ ... هو عالمٌ ومعلمٌ
ومِنَ الجهالةِ ما قتلْ

* * *

هُبَلٌ ... هُبَلْ
رمزُ الخيانةِ والعمالةِ والدجلْ
صِيغتْ له الأمجادُ زائفةً فصدَّقها الغبيّ
واستنكر الكذبَ الصُّرَاحَ وَردَّهُ الحُرُّ الأَبِيّ
لكنما الأحرارُ في هذا الزمانِ هُمُ القليلْ
فليدخلوا السجنَ الرهيبَ ويصبروا الصبرَ الجميلْ
وليشهدوا أقسى روايةْ ... فلكل طاغيةٍ نهاية
ولكل مخلوقٍ أجل ... هُبَلٌ ... هُبَلْ
هُبَلٌ ... هُبَلْ[١] .

* * *

---

(١) قصيدة « هُبَل » ، من ديوان سيد قطب (ص٢٨٩ ـ ٢٩٠) ، جمع عبد الباقي محمد حسين ، طبع دار الوفاء .

المتوكل خليفة عادل ناصر للسنة :

للَّه دره من إمام عادل

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٣١ـ٣٤) : « قال خليفة بن خياط : استخلف المتوكل ، فأظهر السنة ، وتكلم بها في مجلسه ، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة ، وبسط السنة ونصر أهلها .

قال ابن الأثير في « الكامل » (٧/ ٥٢) : « كان قاضي البصرة إبراهيم ابن محمد التيمي يقول : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز في رد المظالم من بني أمية ، والمتوكل في محو البدع وإظهار السنة » .

وقال ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٠/ ٣٦٥ـ٣٦٦) : « كان المتوكل محببًا إلى رعيته ، قائمًا في نصرة أهل السنة ، وقد شبهه بعضهم بالصديق في قتله أهل الردَّة ، لأنه نصر الحق ورده عليهم ، حتى رجعوا إلى الدين ، وبعمر بن عبد العزيز حين رد مظالم بني أمية ، وقد أظهر السنة بعد البدعة ، وأخمد أهل البدع وبدعتهم بعد انتشارها واشتهارها » .

المهتدي بأمر اللَّه من أحسن الخلفاء عدلاً وعبادة :

قال جعفر بن عبد الواحد : « ذاكرت المهتدي بشيء ، فقلت له : كان أحمد بن حنبل يقول به ، ولكنه كان يخالف ، كأني أشرت إلى آبائه ، فقال : رحم اللَّه أحمد بن حنبل ، لو جاز لي لتبرأت من أبي ، تكلم بالحق وقل به ، فإن الرجل ليتكلم بالحق ، فينبل في عيني » .

كان ـ رحمه اللَّه ـ يحب الاقتداء بما سلكه عمر بن عبد العزيز في خلافته من الورع والتقشف وكثرة العبادة وشدة الاحتياط ، وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول لمن ينكر عليه زهده : « إني فكرت أنه كان في بني أمية عمر بن

عبد العزيز ، فغرت على بني هاشم ، وأخذت نفسي بما رأيت »[1] .

وكان - رحمه اللَّه - قد أطرح الملاهي ، وحرم الغناء ، وحسم أصحاب السلطان عن الظلم .

روى الخطيب أن رجلاً استعان المهتدي على خصمه ، فحكم بينهما بالعدل ، فأنشأ الرجل يقول :

حكّمتموه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر

لا يقبل الرشوة في حكمه ولا يبالي غبن الخاسر

فقال له المهتدي : أما أنت أيها الرجل ، فأحسن اللَّه مقالتك ، ولست أغتر بما قلت ، وأما أنا ، فإني ما جلست مجلسي هذا ، حتى قرأت : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾[2] فبكى الناس حوله ، فما رئي أكثر باكيًا من ذلك اليوم .

وفاتح الهند محمود بن سبكتكين يتحرى العدل :

قال عنه ابن كثير في « البداية والنهاية » (١٢/ ٣٢-٣٣) :

« يمين الدولة ، وأمين الملة ، وصاحب بلاد غزنة وما والاها ، وجيشه يقال لهم : السامانية سار فيهم وفي سائر رعاياه سيرة عادلة ، وقام في نصر الإسلام قيامًا تامًا . . . » .

وقال عنه السبكي في « طبقات الشافعية » (٥/ ٣٢٢) : « أحد أئمة العدل ومن دانت له البلاد والعباد وظهرت محاسن آثاره ، كان إمامًا عادلاً

---

(١) « تاريخ بغداد » (٣/ ٣٥٠) ، و« تاريخ الخلفاء » (٣٦١) .

(٢) سورة الأنبياء سورة (٤٧) .

شجاعًا . . . وهو أحد أربعة لا خامس لهم في العدل بعد عمر ابن عبد العزيز : نور الدين محمود زنكي ، وصلاح الدين ، ونظام الملك » .

قال عنه ابن كثير : « كان عادلاً جيدًا ، اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملك يهجم عليه في داره وعلى أهله ، في كل وقت ، فيخرجه من البيت ويختلي بامرأته ، وقد حار في أمره ، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر لا يجسر أحد عليه ، خوفًا وهيبة للملك ، فلما سمع الملك ذلك ، غضب غضبًا شديدًا ، وقال للرجل : ويحك ، متى جاءك فأتني فأعلمني ، ولا تسمعن من أحد منعك من الوصل إلي ، ولو جاءك في الليل فأتني فأعلمني ، ثم إن الملك تقدم إلى الحجبة وقال لهم : إن هذا الرجل متى جاءني لا يمنعه أحد من الوصول إلي من ليل أو نهار ، فذهب الرجل مسرورًا داعيًا ، فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى هجم عليه ذلك الشاب فأخرجه من البيت ، واختلى بأهله ، فذهب باكيًا إلى دار الملك ، فقيل له : إن الملك نائم ، فقال : قد تقدم إليكم أن لا أمنع منه ليلاً ونهارًا ، فنبهوا الملك ، فخرج معه بنفسه وليس معه أحد ، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد ، وعندهما شمعة تقد ، فتقدم الملك فأطفأ الضوء ، ثم جاء فاحتز رأس الغلام ، وقال للرجل : ويحك ، الحقني بشربة ماء ، فأتاه بها فشرب ، ثم انطلق الملك ليذهب ، فقال له الرجل : باللَّه ، لم أطفأت الشمعة ، قال : ويحك ، إنه ابن أختي ، وإني كرهت أن أشاهده حالة الذبح ، فقال : ولم طلبت الماء سريعًا ؟ فقال الملك : إني آليت على نفسي منذ أخبرتني ، أن لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أنصرك ، وأقوم بحقك فكنت عطشان هذه الأيام كلها ، حتى كان ما كان فما رأيت ، فدعا له الرجل ، وانصرف الملك راجعًا

إلىٰ منزله ، ولم يشعر بذلك أحد »[١] .

اشتراطهم كون الإمام مجتهداً تحرياً للعدل :

قال السبكي تعليقًا علىٰ القصة السابقة :

« قلت : وفي هذه الواقعة من هذا السلطان ، ما يدل علىٰ حسن نيته ، وتحريه العدل ، غير أنها ممزوج عدلها بالجهل بالشريعة ، فلم يكن له لو ثبت عنده أنه زنىٰ بعد الإحصان أن يتعدىٰ الرجم إلىٰ حز الرقبة ، ثم ليس في الحكاية ما يقتضي ثبوت الزنا عنده ، فإنه لم يشاهده يزني ، ولو فرضت مشاهدته إياه زانيًا ، وأنه علم زناه وتحققه بالقرائن ، فهي مسألة القضاء في الحدود بالعلم .

ومن هذا وأشباهه يعرف سر الشريعة ، في اشتراط كون السلطان مجتهداً ، لأن غير العالم إذا تحرىٰ العدل لا يتأتىٰ له إلا بصعوبة شديدة ، بخلاف العالم فإنه يعرف ما يأتي وما يذر »[٢] .

المقتدي بأمرالله يخرّب أبراج الحمام صيانة لحرم الناس ، ويأمر بنفي المغنيات والخواطئ :

تسلم الخلافة وهو ابن عشرين سنة ، قال عنه الذهبي : « كان حسن السيرة ، وافر الحرمة ، أمر بنفي الخواطئ والقينات » وأن لا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر ، وأخرب أبراج الحمام ، وفيه ديانة ونجابة وقوة وعلو همة »[٣] .

---

(١) « البداية والنهاية » (١٢/ ٣٣) .

(٢) « طبقات الشافعية » للسبكي (٥/ ٣٢١) تحقيق دكتور عبد الفتاح الحلو .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٣١٨-٣١٩) .

قال السيوطي في « تاريخ الخلفاء » (ص٤٢٣) : « كانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة ، وافرة الحرمة ، نفى المغنيات والخوطئ ببغداد ، وخرب أبراج الحمام صيانة لحرم الناس » .

السلطان الكبير ، والملك العادل ألب أرسلان :

قال عنه ابن كثير : « عادلاً يسير في الناس سيرة حسنة ، كريمًا رحيمًا ، شفوقًا على الرعية ، رفيقًا على الفقراء ، بارًا بأهله وأصحابه ومماليكه ، كثير الدعاء بدوام النعم به عليه ، كثير الصدقات ، يتفقد الفقراء في كل رمضان بخمسة عشر ألف دينار ، ولا يعرف في زمانه جناية ولا مصادرة ، بل كان يقنع من الرعية باخراج في قسطين رفقًا بهم .

كتب إليه بعض السعاة في « نظام الملك » وزيره ، وذكر ماله في ممالكه، فاستدعاه وقال له : خذ ، إن كان هذا صحيحًا فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك ، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم ، وكان شديد الحرص على حفظ أموال الرعايا » (٢) .

السلطان العادل جلال الدولة ملك شاه بن ألب أرسلان :

كان ـ رحمه الله ـ محبًا للعدل والإنصاف ، فركب يومًا إلى الصيد فلقيه سوادي يبكي ، فقال : ما لك ؟ قال : لقيني ثلاثة غلمان فأخذوا حمل بطيخ كان معي ، هو ما أملك وهو بضاعتي ، فقال له : امض إلى العسكر ، فهناك قبة حمراء ، فاقعد عندها ولا تبرح إلى آخر النهار ، فأنا أرجع ، وأعطيك ما يغنيك ، فلما عاد السلطان ، قال : للشرابي : قد اشتهيت بطيخًا ففتش العسكر وخيمهم على شيء من ذلك ، ففعل الشرابي ، فوجد

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (١٨/ ٣١٨-٣١٩) .
(٢) « البداية والنهاية » (١٢/ ١١٤) .

البطيخ ، فقال: عند من رأيتموه ، فقيل : في خيمة الحاجب فلان ، فقال : أحضروه ، فأحضر ، فقال له : من أين لك هذا ؟ قال : الغلمان جاءوا به فقال : أريدهم الساعة؟ فمضىٰ وقد أحسوا بالشر فهربوا خوفًا من أن يقتلهم ، وعاد فقال : قد هربوا لما علموا أن السلطان يطلبهم ، فقال : أحضروا السوادي ، فأحضر ، فقال له : أهذا الذي أخذ بطيخك منك ؟ قال: نعم قال : خذه ، وهذا الحاجب مملوك لي ، وقد سلمته إليك ، ووهبته لك ، حين لم يحضر الذين أخذوا بطيخك ، واللَّه لئن خليته لأضربن عنقك ، فأخذ السوادي بيد الحاجب ، فأخرجه ، فاشترىٰ الحاجب نفسه من السوادي بثلاثمائة دينار ، فعاد السوادي إلىٰ السلطان ، فقال : يا سلطان قد بعت المملوك الذي وهبته لي بثلاثمائة دينار ، قال : ورضيت ؟ قال : نعم ، قال: اقبضها وأمن مصاحبًا ، وكان هذا السلطان يقف للمرأة والضعيف .

وجاء رجلان قد ظلما فاستغاثا إليه ، فقال : خذا بيدي واحملاني إلىٰ الوزير فامتنعا ، فقال : لا بد ، فأخذ كل واحد منهما بيد ومشي معهما ، فبلغ ذلك الوزير نظام الملك فقام حافيًا وتلقاه ، وقال : ما هذا ؟ قال : أنت الذي أحوجتني إلىٰ هذا ؟ أنا أنصبتك لتدفع عني الظلم ، فإذا لم تدفع عني أخذاني يوم القيامة هكذا »[1] .

الخليفة المستضيء بأمر اللَّه :

قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » : « قال ابن الجوزي في «المنتظم» : بويع ، فنودي برفع المكوس ، ورد المظالم ، وأظهر من العدل والكرم ما لم نره من أعمارنا »[2] .

---

(١) « الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء » لابن الجوزي (ص٨٥ـ٨٦). تحقيق فؤاد عبد المنعم .
(٢) انظر ترجمته في « سير أعلام النبلاء » (٢١/ ٦٨ـ٧٢) .

والمقتفي لأمر اللّه كانت أيامه نضرة بالعدل :

رأىٰ المقتفي في منامه ـ قبل أن يستخلف بستة أيام ـ رسول اللّه ﷺ يقول له : « سيصل هذا الأمر إليك ، فاقتف بي ، فلذا لقب : المقتفي لأمر اللّه »[١] .

قال عنه الذهبي في « السير » : (٢٠/ ٤٠٠ ـ ٤٠١) : « كان حميد السيرة، يرجع إلىٰ تدين وحسن سياسة ، جدد معالم الخلافة ، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه ، قال أبو طالب بن عبد السميع : كانت أيامه نضرة بالعدل زهرة بالخير ، وكان علىٰ قدم من العبادة قبل الخلافة وبعدها ، ولم ير ـ مع لينه ـ بعد المعتصم في شهامته مع الزهد والورع ، ولم تزل جيوشه منصورة » .

نور الدين محمود زنكي مثل سامق في العدل كأنه الأساطير :

جاء في « عيون الروضتين » في ترجمة هذا السلطان العادل :

« كان ملك الشام ومالكها ، والذي بيده ممالكها ، الملك العادل نور الدين ، أعف الملوك وأتقاهم ، وأعدلهم وأعبدهم ، وأزهدهم وأطهرهم، وهو الذي أعاد رونق الإسلام في بلاد الشام » .

وقال عنه ابن عساكر في « تاريخه » : « بنىٰ المدارس ، ووقف الأوقاف ، وأظهر فيها العدل والإنصاف ، وأفاض علىٰ أهل دمشق الفوائد، وأصلح طرقها ، ووسع أسواقها ، وأرد اللّه علىٰ رعيته ببركته أرزقها ، وأبطل منها الأنذال ، ورفع عن أهلها الأثقال ، ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البطيخ وسوق البقل وضمان النهر والكيالة وسوق الغنم ، وغير ذلك من المظالم ، وأمر بترك ما كان يؤخذ علىٰ المكس . . .

---

(١) « السير » (٢٠/ ٤٠١) .

وتوخى العدل في الأحكام والقضايا ، وألان كنفه ، وأظهر رأفته بالرعايا ، وبنى في أكثر مملكته آدر العدل ، وأحضرها القضاة والفقهاء ، وحضرها بنفسه في أكثر الأوقات واستمع من المتظلمين الدعاوى والبينات ، وأدر على الضعفاء والأيتام الصدقات ، حتى وقف وقوفًا على المرضى والمجانين ، . . . ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس ، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج . . . وإن أشهى ما إليه : كلمة حق ليسمعها ، أو إرشاد إلى سنة يتبعها . . . ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته ، أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل ، قابله بإسقاط المنزلة والعزل .

ومناقبه خطيرة ، وممادحه كثيرة ، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكثروا ، ولم يبلغوا وصف الآية بل قصروا .

قال أبو الفتح بنجير بن أبي الحسن الأشتري - وهو فقيه ، كان معيدًا بالمدرسة النظامية ، وجمع لنور الدين - رحمه اللَّه - سيرة مختصرة - قال : كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربع أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعية وكشف الظلامة ، لا يطلب بذلك درهمًا ولا دينار ولا زيادة ترجعه إلى خزائنه ، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللَّه ، وطلبًا للثواب والزلفى في الآخرة ، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني ، ويكلمهم بأحسن الكلام ، ويستفهم منهم بأبلغ النظام ، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال ، ويحضر في مجلسه المرأة العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه ، فيأمر بمساواته لها ، فتغلب خصمها طمعًا في عدله ، ويعجز الخصم عن دفعها خوفًا من عدله ، فيظهر الحق عنده ، فيجري اللَّه عن لسانه ما

هو موافق للشريعة ، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة . . .

ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم ،كما يجري في مجلس سائر الملوك،ولا يطمع في أخذ أموال الناس ، ولا يرضى أن يأخذ أموال الرعية شيئًا بغير حق .

قال : وحدثنا الشيخ داود المقدسي قال : حضرت دار في شهر ربيع الأول سنه ثمان وخمسين ، فقال رجل وادعى على الملك العدل أن أباه أخذ من ماله شيئًا بغير حق قال : وأنا مطالب لك بذلك ، فقال نور الدين : أنا ما أعلم ذلك ، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد ما يخصني ، فإني ما ورثت جميع ماله ،كان هناك وارث غيري ، فمضى الرجل يحضر البينة فقلت في نفسي : هذا هو العدل .

قال : وحضر جماعة من التجار ، وشكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار ، فصار سبعة وستون بدينار ، وتنقص وتزيد فيخسرون ، فسأل نور الدين عن كيفية الحال ، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار بالوسط ، وإنما يعدون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين ، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه ، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية ،وتبطل القراطيس بالكلية ، فسكت ساعة ، ثم قال : إذا ضربت الدينار ، وأبطلت المعاملة بالقراطيس ، فكأني خربت بيوت الرعية ، فإن كل واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس ، إيش يعمل به ؟ فتكون سببًا لخراب بيته ، قال: فأي شفقة أعظم وأكثر من هذا على الرعية ؟!

وقال أبو الحسن ابن الأثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل

الإسـلام وبعد الإسلام ، فلم أر منها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، وإحسان يوليه ، وإنعام يسديه ، ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه ، فلو كان في أمة لافتخرت به ، فكيف بيت واحد ؟!

وكان - رحمه اللَّه - مع سبعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها - ، لا يأكل ، ولا يلبس ، ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان قد اشتراه من سهم ، من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك ، فأخذ ما أفتوه بحله ، ولم يتعده إلى غيره ألبتة .

«لا أخوض نار جهنم في هواها » :

قال ابن الأثير : « حدثني صديق لنا بدمشق ، كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين - زوجة نور الدين - قال : كان نور الدين إذا جاء إليها ، يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته ، لا تتقدم إليه إلا أن يأذن لها في أخذ ثيابه عنه ، ثم تعتزل عنه إلى المكان المختص بها ، وينفرد هو ، تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال ، أو في مطالعة كتاب أتاه ، ويجيب عنها ، قال : وإنها قلت عليها النفقة ، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها ، فلما قلت له ذلك ، تنكر واحمر وجهه ، ثم قال : من أين أعطيها ؟ أما يكفيها مالها ؟ واللَّه لا أخوض نار جهنم في هواها ، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي ، فبئس الظن ، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ، ومعدة لفتق إن كان من عدو الإسلام ، وأنا خازنهم عليها ،

فلا أخونهم فيها، ثم قال : لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكًا ، وقد وهبتها إياها فلتأخذها ، قال : وكان يحصل منها قدر قليل » اهـ .

وقال ابن الأثير عن نور الدين أيضًا : « كان أحسن الملوك سيرة ، وأعدلهم حكمًا ، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسًا ولا عشرًا بل أطلقها جميعها ، في بلاد الشام والجزيرة جميعها ، والموصل وأعمالها ، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه .

وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينارًا ، وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يتحرىٰ العدل ، وينصف المظلوم من الظالم كائنًا من كان ، القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، وكان يسمع شكوىٰ المظلوم ، ويتولىٰ كشف حاله بنفسه ، ولا يكل ذلك إلىٰ حاجب ولا أمير ، فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها .

قال : ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ، ويقف عند أحكامها ويقول : نحن شحن لها ، نمضي أوامرها .

فمن اتباعه أحكامها ، أنه كان يلعب بدمشق بالكرة ، فرأىٰ إنسانًا يحدث آخر ويومئ بيده إليه ، فأرسل إليه يسأله عن حاله ، فقال : لي مع الملك العادل حكومة ، وهذا غلام القاضي ليحضره إلىٰ مجلس الحكم ، يحاكمني علىٰ الملك الفلاني ، فعاد إليه ، ولم يتجاسر يعرفه ما قال ذلك الرجل ، وعاد يكتمه ، فلم يقبل منه غير الحق ، فذكر له قوله ، فألقىٰ الجوكان من يده ، وخرج من الميدان ، وسار إلىٰ القاضي ، وهو حينئذ كمال الدين الشهرزوري ، وأرسل إلىٰ القاضي يقول له : إنني قد جئت محاكمًا ، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر ساوي خصمه وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق ، وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين . . . ـ رضي اللَّه عنه ـ . . . حينئذ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له

عندي حق ؟ قالوا : لا . فقال : اشهدوا أني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه ، وهو له دوني ، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي ، وإنما حضرت معه لئلاً يظن أنني ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لي ، وهبته له .

قال ابن الأثير : وهذا غاية العدل والإنصاف ، بل غاية الإحسان ، وهي درجة وراء العدل ، فرحم اللَّه هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلىٰ الحق ، الواقفة معه .

ومن عدله ، أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار علىٰ الظنة والتهمة، بل يطلب الشهود علىٰ المتهم ، فإن قامت البينة الشرعية ، عاقبه العقوبة الشرعية من غيرتعد ، فدفع اللَّه بهذا الفعل عن الناس من الشر ما لا يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة، وأمنت بلاده مع سعتها ، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر .

يا خالق هذه النفس الطاهرة سبحانك !! :

قال : وحكىٰ لي من أثق به أنه دخل يومًا إلىٰ خزانة المال ، فرأىٰ فيها مالاً أنكره فسأل عنه ، فقيل : إن القاضي كمال الدين أرسله ، وهو من جهه كذا ، فقال : إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء ، وأمر برده وإعادته إلىٰ كمال الدين ليرده إلىٰ صاحبه ، فأرسله متولىٰ الخزانة إلىٰ كمال الدين ، فرده إلىٰ الخزانة ، وقال : إذا سألك الملك العادل عنه ، فقولوا له عني : إنه له ، فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرىٰ ، فرآه فأنكر علىٰ النواب قال : ألم أقل لكم : يعاد هذا المال علىٰ أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين ، فرده إليه ، وقال للرسول : قل لكمال الدين : « أنت تقدر علىٰ حمل هذا المال ، وأما أنا فرقبتي دقيقة ، لا أطيق حمل

المال والمخاصمة عليه بين يدي اللّه تعالىٰ ، يعاد قولاً واحدًا » .

إني جئت إلى ها هنا امتثالاً للشرع :

قال مختار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي : كان عند قاضي حلب تاج الدين الكردري غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعىٰ : سويدا ، يحضر الخصوم إلىٰ مجلس الحكم ، فحضر بعض التجار وادعىٰ أن له علىٰ نور الدين دعىً ، فقال الكردري لسويد المذكور : امض إلىٰ نور الدين وادعه إلىٰ مجلس الحكم ، وعرفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان ، فجاء سويد إلىٰ باب الميدان ، فخرج إسماعيل الخزندار فوجده ، فتقدم سويد إليه وقال : قد سيرني تاج الدين القاضي ، وقال لي : كذا وكذا ، فضحك إسماعيل الخزندار ، ودخل علىٰ نور الدين ضاحكًا وقال له مستهزئًا : يقوم المولىٰ ، فقال : إلىٰ أين ؟ فقال : قد حضر سويد غلام تاج الدين القاضي ، وقال : إنه أرسله يطلب المولىٰ إلىٰ مجلس الحكم ، فأنكر نور الدين علىٰ إسماعيل استهزاءه ، وقال : تستهزئ بطلبي إلىٰ مجلس الحكم ؟! ثم قال نور الدين ـ رحمه اللّه ـ : يحضر فرس حتىٰ نركب إليه ، السمع والطاعة ، قال اللّه تعالىٰ : ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى اللّه ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ الآية ، ثم ركب حتىٰ دخل باب المدينة فاستدعىٰ سويدا ، وقال : امضي إلىٰ القاضي وسلم عليه ، وقل له : إني جئت إلىٰ ها هنا ، امتثالاً لأمر الشـــرع ، وأحتاج في الحضور إلىٰ مجلسه سلوك هذه الأزقة وفيها الأطيان ، وهذا وكيلي يسمع الدعوىٰ ، وإن توجهت علىٰ يمين أحضر إن شاء اللّه تعالىٰ .

قال : فحضر الوكيل وسمع الدعوة ، وتوجهت اليمين ، فقال القاضي : قد توجهت اليمين فليحضر ، فلما بلغ نور الدين ذلك ، وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين ، استدعىٰ ذلك التاجر ، وأصلح

الأمر فيما بينه وبينه ، وأرضاه .

* * *

إطلاقه للمؤن والمكوس والأعشار :

قال صقر بن يحيى : بلغني أن موفق الدين خالدًا رأى في المنام : كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها ، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين ، فخجل موفق الدين ، وبقي أيامًا على غاية من الخجل ، فاستدعاه يومًا نور الدين ، وقال : تعال قد آن لك أن تغسل ثيابي ، اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار ، واكتب للمسلمين أني رفعت عنكم مارفعه اللَّه عنكم وأثبت لكم ما أثبته اللَّه عليكم ، قال : فكتب موفق الدين توقيعًا .

وكان نور الدين يلبس في الليل مسحًا ، ويقوم يصلي في قطعة من الليل، وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول : ارحم العشار المكاس .

قال قاضي القضاة بهاء الدين : سير نور الدين إلى بغداد كتابًا يعلم الخليفة بما أطلق ، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ ، بأن يستعجلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل ما كان قد وصل إليه - يعني من أموالهم - قال : فتقدم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك .

حدثني رضى الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر : أن نور الدين حين خرج لأخذ (شيزر) ، خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته ، فأمره نور الدين بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحران وسنجار والرحبة وعزاز وتل باشر وعداد العرب ، فكتب عنه توقيعًا أوله : «هذا ما يقرب إلى اللَّه سبحانه وتعالى » ، إلى أن قال : « علم أن الدنيا فانية ،

فاستخدمها للآخرة الباقية ، فصفح لكافة المسلمين وجميع المسافرين بالضرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه ، وحرمها على كل متطاول إليها ومتهافت عليها ، تجنبًا لإثمها واكتسابًا لثوابها ، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه ، وأنفذ الأمر إليه ـ اتباعًا لكتاب اللَّه وسنة نبيه محمد ﷺ ـ في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار . . . وما وقفه وتصدق به وأجراه في سبل الخيرات من وجوه البر والصدقات ، تقدير ثمنه مئتا ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ، وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والملكية والحنبلية وأئمتها ومدرسيها وفقهائها ، وما وقفه على آدر الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار ، وما وقفه على السبيل في طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأسرى ، وتعليم الأيتام ومقر الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين ، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين ، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور ـ حرسها اللَّه تعالى ـ من أملاكهم فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه ، جعل ذلك ذريعة عند اللَّه وتقربًا إليه ، مضافًا إلى ما أنفقه الغزاة والجهاد من خزانته وأمواله فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر ، أن يمده ويوده ويشد عضده ويقوي عزمه وينفذ حكمه ، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار » .

منشوره بإبطال ضريبة الأتبان عن أهل دمشق سنة (٥٩٦هـ) :

جاء فيه بعد حمد اللَّه :

« وبعد ، فإن من سنتنا العادلة ، وسير أيامنا الزاهرة : إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من الرسوم ، وما نزال نجدد للرعية رسمًا من الإحسان يرتعون في رياضه ،

ويرتوون من حياضه ، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونصفها من الشبه والشوائب ، ونلحق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة ، بما أسقطناه من المكوس والضرائب ، تقربًا إلى اللَّه تعالى ، الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة والمرج . . . ووفرناه على أربابه، طلبًا لمرضاة اللَّه وعظيم أجره وثوابه ، وهربًا من انتقامه وأليم عقابه ، وسبيل الثواب إطلاق ذلك على الدوام ، وتعفية آثاره ،والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من الدنس بأوضاره ، وإبطال رسمه من الدواوين ، لاستقبال سنة تسع وستين ،وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين » .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ فرد زمانه في تحريه للعدل .

الفقه في الخلاص من الظلم :

بنى نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ المدارس ، وبنى الجوامع في جميع البلاد، ومن ذلك جامعه في الموصل ، ومن أحسن ما عمل فيه ، أنه فوض أمرعمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملا ـ رحمه اللَّه ـ وهو رجل من الصالحين ، فقيل له : إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل ، فقال : إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب ، أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات ، ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم ، وإذا وليت هذا الشيخ ، غلب على ظني أنه لا يظلم ، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علي ، وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم .

وكان نور الدين لما صارت له الموصل ، قد أمر كمشتكين شحنة الموصل، أن لا يعمل شيئًا إلا بالشرع إذا أمره القاضي به ، وأن لا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئًا إلا بأمر الشيخ عمر الملاء .

قال عنه الطواشي شاذ بخيت الخادم : « كنت يومًا أنا وسنقر واقفين على رأس نور الدين وقد صلّى المغرب ، وجلس وهو مفكّر فكرًا عظيمًا ، وجعل ينكت بإصبعه في الأرض ، فتعجبنا من فكره وقلنا : تُرى في أي شيء يفكر ؟ أفي عائلته أو في وفاء دَيْنه ؟ ، فكأنه فطن بنا ، فرفع رأسه وقال: ما تقولان ؟ فقلنا : ما قلنا شيئًا ، فقال : باللَّه قولا لي ، فقلنا : عجبنا من إفراط مولانا في الفكر ، وقلنا : يفكر في عائلته أو في نفسه ، فقال : واللَّه إنِّي أفكِّر في والٍ وليته أمرًا من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني ، وأخاف المطالبة بذلك ، فباللَّه عليكم - وإلا فخبزي عليكم حرام - لا تريان قصة تُرفع إلى، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إليَّ » .

إيه يا نور الدين :

أيها المالك الذى ألزم النـّ ... ـاس سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل لما ... سِرْت في الناس سيرة الخلفاء

وللَّه در محمد بن نصر القيسراني حين يقول في نور الدين زنكي :

يا سائلي عن نهج سيرته ... هل غير مَفْرِق هامة الفجرِ
عَدْلٌ حقيق مَن تأمَّله ... أن يُحْيي العُمَرَيْن بالذكرِ

وللَّه در القائل فيه أيضًا :

عفَى جهادُك كلَّ رسم مَخُوفةٍ ... وعفَتْ بصفوةِ عدلك الأكدارُ
ومحا المظالمَ منك نظرةُ راحمٍ ... للَّه في خطراته أسرارُ
كم سيرةٍ أحييتها عُمَرِيَّة ... رُفِعتْ لها في الخافقيْن منارُ

***

وفي عصرنا يا ابن زنكي :

قطيعٌ نحن والجزَّار راعينا

ومنفيُّون نمشي في أراضينا

ونحملُ نعشنا قسراً بأيدينا

ونُعرِب عن تعازينا لنا فينا

فوالينا أدام اللّه والينا

رآنا أمة وسطاً

فما أبقى لنا دنيا .... وما أبقى لنا دينا

الإحسان والعدل الذي يكتب بماء الذهب :

كان نور الدين يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام ما لا يفعله غيره ، وكان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك ، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم ، وإذا نقلوا عن إنسان عيبًا يقول : ومن هو المعصوم ؟ وإنما الكامل من تعد ذنوبه .

واستقدم نور الدين قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي من خراسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه ، فحسده بعض أكابر الأمراء وقال عنه يومًا عند نور الدين ، فقال له نور الدين : يا هذا إن صح ما تقوله ، فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها ، وهي العلم والدين ، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت ، وليست لكم حسنة تغفرها ، ولوعقلت لشغلك عيبك عن غيرك ، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم ، أفلا أحتمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسنة ؟ على أنني لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أوغيره بسوء أدبتك ، فكف عنه .

قال ابن الأثير : هذا واللّه هو الإحسان ، والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب .

نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، أفلا نحفظ الدين وهو الأصل ؟!

قال ابن الأثير مثنيًا على نور الدين زنكي : « فهكذا كانت أحواله جميعها ـ رحمه اللَّه ـ مضبوطة محفوظة ، وأما حفظ أصول الديانات ، فإنه كان مراعيًا لها لا يهملها ، ولا يمكن أحدًا من الناس من إظهار ما يخالف الحق ، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته ، وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق ، والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ، ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل ؟!

وفي أيامنا : صورة الحاكم في كل اتجاه :

في عصرنا ، الحاكم في كل دولة ربما خصصوا وزارة لنشر صورة في كل أرجاء البلاد ، كما يقول الشاعر :

صورة الحاكم في كل اتجاه
أينما صرنا نراه
في المقاهي
في الملاهي
في الوزارات
وفي الحارات
والأسواق
والتلفاز
والمسرح والمبغى
وفي ظاهر جدران المصحّات
وفي داخل دورات المياه

أينما سرنا نراه
صورة الحاكم في كل اتجاه
باسمٌ
في بلد يبكي من القهر بُكاه
مشرقٌ
في بلد تلهو الليالي في ضحاه ناعمٌ
في بلدٍ حتى بلاياه
بأنواع البلايا مبتلاه
صارخٌ
في بلد معتقل الصوت
ومنزوع الشفاهْ
سالمٌ
في بلدٍ يُعدم فيه الناسُ بالآف ، يومياً
بدعوى الاشتباهْ

* * *

صورة الحاكم في كل اتجاه
نعمةٌ منه علينا
إذْ نرى حين نراه
أنّه لما يزلْ حيّاً
وما زلنا على قيد الحياة[1]

(١) قصيدة « حبيب الشعب » ، (ص٢٣ ـ ٢٥) ، ديوان « إني المشنوق أعلاه » لأحمد مطر ، الطبعة الأولى بلندن .

العجب العجاب عدل نور الدين بعد موته :

ومن أعجب ما يحكى : « إن إنسان كان بدمشق ، استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ ، فلما توفى تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه ، فلم ينصف ، فنزل من القلعة وهويستغيث ويبكي ، وقد شق ثوبه وهو يقول : يا نور الدين ، لورأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا ، أين عدلك ؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى ، وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له : احفظ البلد والرعية ، وإلا خرج عن يدك ، فأرسل إلى ذلك الرجل ـ وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ـ فطيب قلبه ووهبه شيئًا وأنصفه ، فبكى أشد من الأول ، فقال له صلاح الدين : لم تبكي ؟ قال : أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته ، فقال صلاح الدين : هذا هو الحق ، وكان ما نحن فيه من عدل فمنه تعلمناه » .

عدل صلاح الدين الأيوبي :

قال القاضي ابن شداد عن صلاح الدين الأيوبي :

« كان ـ رحمه اللَّه ـ عادلاً ، رءوفًا رحيمًا ، ناصرًا للضعيف على القوي ، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل كل أحد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة ، وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفرًا وحضرًا » .

على أنه كأنه في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفًا لما ينتهي إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع

الكاتب ساعة ، إما في الليل أو في النهار ، ويوقع على كل قصة بما يطلق اللَّه على قلبه ، ولم يرد قاصدًا أبدًا ، ولا منتحلاً ، ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة ، رحمة اللَّه عليه .

ولقد كان رءوفًا بالرعية ، ناصرًا للدين ، . . . ، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته ، وأخذ بقصته ، ولقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابن زهير ، على تقي الدين ـ ابن أخيه ـ فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم ، فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول ، أنه وكل القاضي أبا القاسم أمين الدين ـ قاضي حماه ـ في المخاصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان ، وأقاما الشهادة عندي في مجلسه ـ رضي اللَّه عنه ـ بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة وإنكار الخصم ، فلما ثبتت الوكالة ، أمرت أبا القاسم بمساواة الخصم ، فساواه ، وكان من خواص الملك ـ رحمه اللَّه ـ ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت اليمين على تقي الدين ، وانفض المجلس على ذلك وقطعنا عن إحضاره دخول الليل ، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق .

وأعظم من الحكاية السابقة :

قال القاضي ابن شداد : « وأعظم من هذه الحكاية ، مما يدل على عدله ـ رحمه اللَّه ـ قضية جرت مع إنسان تاجر يدعى « عمر الخلاطي » وذلك أني كنت يومًا في مجلس الحكم بالقدس الشريف ، إذ دخل عليَّ شيخ حسن تاجر معروف ، يسمى « عمرالخلاطي » معه كتاب حكمي يسأل فتحه فسألته : من خصمك ؟ فقال : خصمي السلطان ، وهذا بساط الشرع ، وقد سمعنا أنك لا تحابي ، قلت : وفي أي قضية هوخصمك ؟

فقال : إن « سنقرالخلاطي » كان مملوكي ، لم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ، ومات عنها ، واستولى عليها السلطان ، وأنا مطالبه بها ، فقلت له : يا شيخ ، وما أقعدك إلى هذه الغاية؟ فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخر ، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات فأخذت الكتاب منه ، وتصفحت مضمونه ، فوجدته يتضمن حلية « سنقر الخلاطي » وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش ، اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا ، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا ، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما ، وتم الشرط إلى آخره .

فتعجبت من هذه القضية ، وقلت للرجل : لا يسعني سماع الدعوى مع وجود الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده في ذلك ، فرضي الرجل بذلك واندفع ، فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية ، فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً ، وقال : كنت نظرت في الكتاب ؟ فقلت : نظرت فيه ، ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق ، وقد كتب عليه : كتاب حكمي من دمشق ، وشهد به على يد قاضي دمشق شهود معروفون ، فقال : مبارك ، نحضرالرجل ونحاكمه ، ونعمل في القضية ما يقتضيه الشرع ، ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة ، فقلت له : هذا الخصم يتردد ، ولابد أن نسمع دعواه ، فقال : أقم عني وكيلاً يسمع الدعوى ، ثم يقيم الشهود شهادتهم ، وأخر فتح الباب إلى حين حضور الرجل ها هنا ، ففعلت ذلك ، ثم أحضرالرجل ، واستدناه حتى جلس بين يديه ، وكنت إلى جانبه ، ثم نزل من طراحته حتى ساواه ، وقال : إن كان لك دعوى فاذكرها .

فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً ، فأجابه السلطان : إن

«سنقر» هذا كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي حتى أعتقته ، وتوفي وخلف ماخلف لورثته ، فقال الرجل : لي بينه تشهد بما ادعيته ، ثم سأل فتح كتابه ، ففتحته فوجدته كما شرحه ، فلما سمع السلطان التاريخ ، قال : عندي من يشهد أن « سنقر » هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته ، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين ، فشهدوا بذلك ، وذكر القصة كما ذكرها ، والتاريخ كما ادعاه ، فأبلس الرجل ، فقلت له : يا مولاي ، هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبًا لمراحم السلطان ، وقد حضر بين يدي المولى ، ولا يحسن أن يرجع خائبًا للقصد ، فقال : هذا باب آخر ، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة ، وقد شذ عني مقدارها ، فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة ، والتواضع ، والانقياد إلى الحق ، وإرغام النفس ، الكرم في موضع المؤاخذة ، مع القدرة التامة ، ـ رحمه اللّه رحمة واسعة ـ .

هشام بن عبد الرحمن الداخل شبيه عمر بن عبد العزيز في سيرته :

حكم ـ رحمه اللّه ـ الأندلس بعد أبيه ثمانية أعوام ، وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور «النواحي» ، فيسألون الناس عن سير عماله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ، ولم يستعمله بعد .

الحاجب المنصور القائل : « الملك لا ينام إذا نامت الرعية » :

« تحدث واحد ممن كانوا يلازمون المنصور ، فقال : قلت للمنصور ليلة طال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر ، وبدنه يحتاج إلى أكثر

من هذا النوم ، وهو يعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : يا هذا ، الملك لا ينام إذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومي ، لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة »[١] .

يوسف بن تاشفين القائل :« إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » :

ولله در ابن تاشفين ، لما فتح مدينة « فاس » خرب السور الفاصل بين عدوتها وقال : « إنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » .

عبد المؤمن بن علي ملك الموحدين العادل :

قال عنه الحافظ الذهبي في « السير » (٢٠/ ٣٧١) : « كان ملكًا عادلاً رحيمًا » .

قال عزيز في كتاب « الجمع » : كان عبد المؤمن يأخذ بالحق إذا وجب على ولده » .

السلطان المنصور يعقوب بن يوسف :

رحم الله السلطان المنصور بطل معركة الأرك ، أسقط المكوس ، وأطلق المسجونين في كل الولايات الذين اعتقلوا لذنوب ثانوية بسيطة ، وكان يؤثر الأطباء والمشرفين على المستشفيات التي آوت العجزة والعمي ، وأنشأ في الطرق الرئيسية وطرق القوافل أبراجًا وأحواضًا لخزن الماء وآبارًا للاستسقاء ، وفنادق لنزول المسافرين .

« كان ملكًا جواد ، عادلاً متمسكًا بالشرع المطهر ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من غير محاباة ، ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم الحق ، وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحم عليه من يمر به »[٢] .

---

(١) « نفح الطيب » للمقري (١/ ٤١٦) .
(٢) « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٧/ ١٠) .

للَّه درّه من سلطان عادل . . . لما كمل حشد الجيش في معركة الأرك في يوم المعركة قال قائد الجيش أبو يحيىٰ بن أبي حفص : « إن المنصور أمير المؤمنين يقول : لكم : اغفروا له ـ فإن هذا موضع غفران ـ وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم ، وأخلصوا للَّه نياتكم » فبكىٰ الناس ، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم العادل المخلص .

الملك العظيم الراشد : أورانك زيب عالمكير لا نظير له في العدل والزهد:

حكم ـ رحمه اللَّه ـ الهند وهو في الأربعين من عمره ، ففتح البلاد ، ونشر الأمن والعدل ، وامتدت دولة الإسلام من سفوح « الهملايا » في الشمال حتىٰ شواطئ البحر في أقصىٰ الجنوب . . . ومع هذه الفتوحات العظيمة ، كان ينظر في كل شئون الملك وقضايا الرعية بمثل عين العقاب ، أزال كل آثار زندقة الملك « جلال الدين أكبر » ، وعدل الضرائب ، ومد الطرق العظيمة ، وأسس دورًا للعجزة ، ومارستانات للمعتوهين، ومستشفيات للمرضىٰ ، وبنىٰ المساجد في أنحاء الهند ، وجعل لها أئمة ومدرسين ، وكان يكتب المصاحف بخطه ويبيعها ليعيش بثمنها ، بعد أن زهدت نفسه أموال المسلمين ، مع أن مفاتيح كنوز الهند كلها كانت بيده ، إلا أنه عاش زاهدًا ، وكان يمر عليه رمضان كله فلا يأكل إلا أرغفة من خبز الشعير ، من كسب يمينه ، لا من أموال الدولة .

قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي[1] : الذي يقرأ سيرة السلطان أورانك زيب عالمكير ، وما جمع من فضائل علمية وعملية ، ويقرأ تاريخه الحافل بجلائل الأعمال ، ويقرأ جهاده المتواصل الذي لم يقطع ولم يتوقف يومًا واحدًا في خمسين سنة حكم فيها ، وفتوحاته العظيمة ، وإصلاحاته الكبيرة، وتقشفه في الحياة ،

---

(١) « المسلمون في الهند » لأبي الحسن الندوي (ص٥٠ـ٥١) .

وتحمله الشدائد ، واستقامته ، وصلابته ، ومغامراته في سن عالية ، تسعين سنة ولم يزل مرابطًا مناضلاً إلى آخر ساعاته ، ويقرأ نظام أوقاته ، ومحافظته على الفرائض والسنن ، مع إشرافه الدقيق على أوسع مملكة في عصره ، واشتغاله بالعبادات والعلم والمطالعة آمن بأن هذا الرجل لا نظير له في علو الهمة وقوة الإرادة في ملوك العالم ، وأنه خلق من حديد ، وأنه من نوادر رجال العالم في جميع العصور وفي جميع الأجيال » .

لله درك يا « أرنك زيب » اهتدت بك أمة فاخشع لربك واسجد
خمسون عامًا كل عام درة في المجد نادرة وزهوة سؤدد
يا سادس الخلفاء رشدك آية للناس ملهمة ولهفة مقتدي

السلطان محمود شاه البهمني :

السلطان العادل الفاضل محمود بن الحسن البهمني ولي مملكة الهند في سنة ثمان وسبعمائة وافتتح أمره بالعدل والإحسان .

كان من خيار السلاطين عادلاً باذلاً كريمًا ، أنشأ المكاتب لتعليم اليتامى في كليركه وبيدر وقندهار وإيلجيور وجنير وجيول ودائل ، وجعل الأرزاق للعميان والمقعدين .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول : إن الملوك أمناء اللَّه على بيت مال المسلمين فلا ينبغي لهم أن يأخذوا منه ما يزيد على قدر الحاجة »[1] .

الحفصي ملك المغرب وصاحب تونس : لا ينام إلا أربع ساعات من الليل :

عبد العزيز بن أحمد بن محمد أبو فارس الهنتاتي الحفصي ملك

---

(١) «« الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للشيخ عبد الحي الندوي (٢/ ١٦٠ـ ١٦١) .

المغرب وصاحب تونس .

قال الشوكاني عنه في « الضوء اللامع » :

« كان لا ينام من الليل إلا قليلاً ، بل حرز بقدر أربع ساعات لا تزيد قط وربما نقصت ، وليس له شغل سوى النظر في مصلحة ملكه ، وكان يؤذن بنفسه ويؤم الناس في الجماعة ، وقد أبطل كثيراً من التركات والمفاسد بتونس كالعيالة وهو مكان يباع فيه الخمر للفرنجة يتحصل منه شيء كثير في السنة ولأكثر الجيش عليه رواتب وعوضهم عنه ، وكذا المكوس بحيث لم يكن ببلاده كلها شيء منها .

شكي إليه قلة القمح بالسوق فدعا تجاره فعرض عليها قمحًا من عنده وقال : أريد بيعه بدينار ونصف فاسترخصوه فأمر ببيعه بذلك السعر وأن لا يشترى من غيره بأزيد فاحتاجوا لبيع ما عندهم كذلك فترك هو حينئذ البيع فبلغه أنهم زادوا قليلاً ، فأمر ببيع ما عنده بدينار فقط ، وتقدم إلى خازنه أنه إن وجد القمح في السوق لا يبيع شيئًا وإلا باع بدينار فاضطربوا إلى أن مشى الحال فكانت من أحسن الحيل في تمشية حال الناس .

وكان محافظًا على عمارة الطرقات بحيث أمنت القوافل في أيامه ، بجميع بلاده .

حضر ـ رحمه اللَّه ـ محاكمة مع منازع له في بستان إلى القاضي ، فحكم عليه ، فقبل الحكم وأنصف الغريم .

كتب إليه ابن عرفة مرة : واللَّه ما أعلم يومًا يمر علي ولا ليلة إلا وأنا داع لكم بخير الدنيا والأخرة فإنكم عماد الدين ونصرة المساكين .

قال المقريزي : وكان خير ملوك زمانة صيانة وديانة وجودًا وإفضالاً وعزمًا وحزمًا وحسن سياسة وجميل طريقة . . . ومناقبه كثيرة ، وفضائلة

شهيرة ولقد فجع الإسلام وأهله بموته واللَّه يرحمه ويتجاوز عنه »[١] .

ابن طاهر ملك اليمن وقف جميع ما في ملكه من عقار على المسلمين :

ملك اليمن علي بن طاهر .

قال عنه الشوكاني : « ضبط اليمن وأمّن الطرقات ، وأحيا البلاد بعد خرابها وأحبه الكافة ، وكان ملكًا عادلاً ، شجاعًا عاقلاً وللمعروف باذلاً وعلى الفقراء ونحوهم غيثًا هاملاً ، صدقاته ومبراته ومعروفه فوق الوصف .

يقال إنه وقف جميع ما في ملكه من عقار على المسلمين ، وجعل النظر في ذلك للمتولي من أولاد أخيه ، وكان يرسل بألف دينار لفقراء مكة »[٢] .

سلطان المسلمين بالحبشة « ولسمع » :

محمد بن أبي البركات الملقب « ولسمع » : ويعرف بابن سعد الدين سلطان المسلمين بالحبشة ، كانت مدة مملكته سبع سنين ، وكان دينًا عاقلاً عادلاً خيرًا وقورًا مهابًا ذا سطوة على الحبشة أعز اللَّه الإسلام في إيامه .

كان من خير الملوك دينًا ومعرفة وقوة وديانة يصحب الفقهاء والصلحاء ، وينشر العدل في أعماله حتى في ولده وأهله ، وأسلم على يده خلائق من الحبشة[٣] .

حارب الحطي ملك الكفار بالحبشة ، وشن الغارات على بلاده ، وامتلأت الأقطار من الرقيق الذين سباهم حتى بيعت

---

(١) « الضوء اللامع » للشوكاني (٤/ ٢١٤-٢١٥) .
(٢) « الضوء اللامع » (٥/ ٢٣٣) .
(٣) « الضوء اللامع » (٧/ ١٥٣-١٥٤) .

الرأس من الرقيق بربطة ورق .

الملك إسكندر الكشميري كاسر الأصنام :

كان محبًا لأهل العلم يقرّبهم إلىٰ نفسه ويعظمهم ، بذل جهده في كسر الأصنام حتىٰ لقّبه الناس « باسكندربت شكن » ومعناه كاسر الأصنام.

ومن مآثره الجميلة أنه نهىٰ الناس أن يبيعوا الخمر في بلاده ، ومنها أنه نهاهم أن يُؤخذ المكس من أحد مسلمًا كان أو وثنيًا[1] .

ملك يُوصف بالظلم فيبكي ويترك الحكم :

هذا الملك هو السلطان علاء الدين البهمنيّ سلطان أرض الدكن ، افتتح أمره بالعدل والإحسان ، وفتح الفتوحات العظيمة ، وأخذ الجزية من ملوك بيجانكر وكوكن وغيرهم من كفار الهند .

وكان عادلاً فاضلاً كريمًا بارعًا في بعض العلوم ، يجتهد في العدل والإحسان ، ويعيّن الصدور والقضاة والأمناء والمحتسبين في بلاده ، وكان لا يفرّق في العدل بين العزيز والذليل والشريف والوضيع والغني والفقير وكان يقوم علىٰ المنبر ويخطب بنفسه أحيانًا ، ويصف نفسه بهذه العبارة : السلطان العادل الكريم الحليم الرءوف بعباد اللّٰه الغنيّ علاء الدنيا والدين علاء الدين بن أعظم السلاطين أحمد شاه البهمنيّ ، فبينما كان يخطب مرة ووصل إلىٰ هذه العبارة نهض أحد أهل الإحساء وقد وفد للتجارة فاشترىٰ منه السلطان أفراسًا ولم يعطه الوزراء أثمانها إلىٰ تلك الساعة فقال : لا واللّٰه لاعادل ولا كريم ولا حليم ولا رءوف ، أيها

(١) « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للشيخ عبد الحي الندوي (٣/ ٢٣ ـ ٢٤) .

الظالم الكذّاب ! تقتل الذرّية الطاهرة وتتكلم بهذه الكلمات على منابر المسلمين !

فتأثر منه السلطان تأثراً عظيماً ، وفاضت عيناه ، وغضب على الوزراء غضبًا شديدًا ، ثم دخل بيتة ولم يخرج منه إلى أن مات[1] .

مظفر الحليم الكجراتي مثل عظيم لعدل الملوك :

قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه « المسلمون في الهند » :

« السلطان الفاضل العادل ، المحدث الفقيه : مظفر حليم الكجراتي ، الذي روى عنه التاريخ من نوادرالإخلاص والإيمان ، والاحتساب والتقوى، والعمل بالعزيمة ، والعدل والإيثار ، والحمية في الدين ، والتبحر في العلم ما يندر وجوده في سير كبار الزهاد والربانيين وكبار المخلصين ، فضلاً عن الملوك والسلاطين » .

كان غاية في التقوى والعزيمة والعفو والتسامح عن الناس ، ولذلك لقّبوه بالسلطان الحليم ، وكان يقتضي آثار السنة السنية في كل قول وفعل ، ويعمل بنصوص الأحاديث النبوية ، وكثيراً ما يذكر الموت ويبكي ، ويكرم العلماء ويبالغ في تعظيمهم .

وكان كثير التفحص عن أخبار الناس ، عظيم التجسس عن أخبار الممالك ، وربما يغيّر زيّه ولباسه ويخرج من قصره آناء الليل والنهار ويطّلع على الأخبار ويستكشف الأسرار .

● قال الآصفي : إنه وصل إليه يوماً من القاضي بجانبانير رسول الطلب وقد تظلم منه مَنْ يتجر في الخيل ، فكما بلغه وعلى ما كان عليه في حال الخلوة أجاب الرسول وخرج ماشيًا إلى القاضي ، وجلس مع خصمه

---

(١) « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » (٣/ ٧٧-٧٨) .

بين يديه ، وأجاب التاجرعليه أنه لم يصله ثمن أفراسه ، وثبت ذلك وأبى التاجر أن يقوم من مجلسه قبل أداء الثمن وحكم القاضي به ، فمكث السلطان مع خصمه إلى أن قبض التاجر الثمن ، وكان القاضي لما حضر السلطان المحكمة وسلم عليه لم يتحرك من مجلسه ، وما كفاه ذلك حتى أنه أمره أن لا يترفع على خصمه ويجلس معه والسلطان لا يخرج عن حكمه ، ولما قبض التاجر الثمن وسأله القاضي : هل بقيت لك دعوى عليه ؟ وقال : لا ، عند ذلك قام القاضي من مجلسه ، وسلّم على سلطانه على عادته فيه، ونكّس رأسه فيما يعتذر به ، فقام السلطان من مجلسه مع الخصم ، وأخذ بيد القاضي وأجلسه في مجلس حكمه كما كان ، وجلس إلى جنبه وشكره على عدم مداهنته في الحق حتى أنه قال : لو عدلت عن سيرتك هذه رعاية لي لانتصفت للعدالة منك وأنزلتك منزلة آحاد الناس لئلا يتأسى بك بعدك غيرك فجزاك اللّه عني خيراً بوقوفك مع الحق ! فمثلك يكون قاضيًا ، فأثنى عليه القاضي ، وقال : ومثلك يكون سلطانًا .

• قال الآصفي : وفي سنه إحدى وثلاثين وتسعمائة خرج السلطان إلى مصلى العيد للاستسقاء وتصدّق ، وتفقّد ذوي الحاجة على طبقاتهم وسألهم الدعاء ، ثم تقدّم للصلاة ، وكان آخر ما دعا به كما يقال : « اللّهم إني عبدك ولاأملك لنفسي شيئًا ، فإن تك ذنوبي حبست القطر عن خلقك فهذه ناصيتي بيدك ! فأغثنا يا أرحم الراحمين » قال هذا ووضع جبهته على الأرض واستمر ساجداً يكرر قوله : يا أرحم الراحمين ، فما رفع رأسه إلا وهاجت ريح ونشأت بحرية ببرق ورعد ومطر ، ثم سجد للّه شكراً ، ورجع من صلاته بدعاء الخلق له وهو يتصدّق وينفح بالمال يمينًا وشمالاً .

وكان ـ رحمه اللّه ـ يقول : نظرت فيما أوثر به أولي الاستحقاق من الإنفاق فإذا أنا بين إفراط في صرف بيت المال وتفريط في منع أهله ، فلم أدر

إذا سُئلت عنهما بِمَ أجيب .

وفي آخر أيامه وكان يوم الجمعة قال : أما صلاة الظهر فأصليها عندكم ، وأما صلاة العصر فعند ربي في الجنة إن شاء اللَّه تعالىٰ ، ثم أذن للحاضرين في صلاة الجمعة واستدعىٰ مصلاه وصلىٰ ، ودعا اللَّه سبحانه بوجه مقبل عليه وقلب منيب إليه ، دعاء من هو مفارق القصر مشرف علىٰ القبر ، ثم كان آخر دعائه ﴿ **رب قد آتيتني من الملك وعلَمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ، أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾ ، وقام من مصلاه وهو يقول : أستودعك اللَّه ، اضطجع علىٰ سريره وهو مجتمع الحواس ووجهه يلتفت إلىٰ القبلة وقال : لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه ، وفاضت نفسه والخطيب علىٰ المنبر يدعو له ، وفي ذلك عبرة لمن ألقىٰ السمع وهو شهيد .

ويحسن الاستشهاد هنا بما رثىٰ به العماد الكاتب سلطانه الملك العادل نور الدين الشهيد ـ رحمه اللَّه ـ .

يا ملكـًا أيامــه لــم تــزل لفضلـــه فاضلــة فاخــرة

ملكت دنيـــاك وخلّفتهـــا وســـرت حتى تملك الآخــــرة [1]

* * *

قضاة زيّنوا وجه التاريخ بعدلهم :

قال الحافظ ابن حجر في المراد بالإمام العادل : « هو صاحب الولاية العظمىٰ ، ويلتحق به كل من ولي شيئًا من أمور المسلمين فعدل فيه » .

وقال ابن عبد البر : « ويدخل تحت قوله عليه السلام « إمام عادل » بالمعنىٰ دون اللفظ كل من لزمه الحكم بين اثنين .

---

(١) « الإعلام » (٤/٣١٦ـ٣٢٥) .

ومنصب القضاء من أعلى المراتب السنيّات ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾[1] ، فليعلم القاضي عمن ينوب في حكمه وفتواه ، وليوقن أنه مسئول غدًا وموقوف بين يدي اللّه .

قال ابن فرحون عن منصب القاضي : « الواجب تعظيم هذا المنصب الشريف ومعرفة مكانته من الدين ؛ فبه بُعثت الرسل ، وبالقيام به قامت السموات والأرض ، وجعله النبي ﷺ من النعم التي يباح الحسد عليها ؛ فقد جاء من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللّه مالاً فسلطه على هلكته بالحق ، ورجل آتاه اللّه الحكمة فعلمها للناس وقضى بها بين الناس** »[2] .

قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[3] فأي شرف أشرف من محبة اللّه »[4] .

قال الغزالي : « إنه أفضل من الجهاد ، ذلك للإجماع مع الاضطرار إليه ؛ لأن طباع البشر مجبولة على التظالم ، وقلّ من يُنصف من نفسه ، والإمام مشغول بما هو أهمّ منه ؛ فوجب من يقوم به ، فإن امتنع الصالحون له منه أثموا ، وأجبر الإمام أحدهم » .

فللّه دره من مقام تولاه النبي وكبار الصحابة .

قد ولىّ النبي ﷺ رجالاً من الصحابة على القضاء في حياته ؛ كعمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وعتّاب بن أسيد .

لقد جاءت دوحة الإسلام برجال وقضاة أفذاذ ؛ قوّالين بالحق ، أمّارين

---

(١) سورة غافر الآية (٢٠) .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) سورة المائدة الآية (٤٢) .

(٤) « تبصرة الحكام » لابن فرحون (١/ ١٣) .

بالمعروف ، لا يعصون الخالق في طاعة المخلوق ، وهؤلاء هم الذين تحتاج الأمة إلىٰ أمثالهم ؛ إذ الأمة لا تحتاج إلىٰ شيء من الأخلاق احتياجها إلىٰ العدل ، والمساواة ، وعدم الإغضاء علىٰ تعدي حدود اللَّه رهبة من السلطان . . . هؤلاء الذين تحيا بهم الأمم ، وتشرق بهم الأيام وتعلو بهم قداسة الحق ، فتطيب بهم الأيام .

قال ﷺ : « **إن اللَّه لا يقدس أمة لا يُعطون الضعيف منهم حقه** »(١) .

وقال ﷺ : « **إن اللَّه لا يُقدس أمة لا يأخذ الضعيف حقه من القوي وهوغير متعتع** »(٢) واللَّه مع القاضي العادل فأي شيء أشرف من هذا !! قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه مع القاضي ما لم يجُرْ ، فإذا جار تبرّأ منه وألزمه الشيـطان**»(٣) .

شريح القاضي : يحكم على أمير المؤمنين فيُسلم اليهودي :

شريح أقضىٰ الناس كما قال علي بن أبي طالب .

مرّ علي بن أبي طالب بسوق الكوفة يومًا ، فإذا به يمر أمام يهودي يعرض درعًا للبيع ، فلما رآها أمير المؤمنين عرف أنها درعه التي فقدها منذ سنين طويلة ، وعلامتها المميزة عليها ، فقال لليهودي : إن هذه الدرع درعي ، فقال اليهودي : بل هي درعي ، وأمامك القضاء .

ووقف أمير المؤمنين بجانب اليهودي أمام شريح ، فقال شريح : البيّنة

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٨٥٤) .

(٢) صحيح : رواه البيهقي في « سننه » عن أبي سفيان بن الحارث ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٥٣) .

(٣) حسن : رواه الحاكم في « المستدرك » ، والبيهقي في « السنن » عن ابن أبي أوفىٰ ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٨٢٣) .

علىٰ من ادَّعىٰ ، فقال علي : إن الدرع درعي وعلامتها كَيْت وكَيْت ، وهذا هو الحسن بن علي شاهدي علىٰ ذلك .

فقال شريح : يا أمير المؤمنين ، إني أعلم أنك صادق ، ولكن ليس عندك بيّنة ، وشهادة الحسن لا تنفعك ؛ لأنه ابنك ، وقد حكمنا بالدرع لليهودي .

فهزّ هذا الموقف اليهودي فقال : واللَّه إن هذا الدين الذي تحتكمون إليه لهو الناموس الذي أنزل علىٰ موسىٰ ، وإنه لدين حق ، إلا أن الدرع درع أمير المؤمنين ، وإني أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمداً رسول اللَّه »[1] .

● واشترىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فرسًا من أعرابي وأعطاه ثمنه ، ثم ركب الفرس ومضىٰ به ، لكنه ما كاد يبتعد بالفرس حتىٰ ظهر فيه عطب أعاقه عن مواصلة الجري ، فعاد به ثانية إلىٰ الأعرابي وقال له : خذ فرسك فإنه معطوب .

قال الأعرابي : لا آخذه يا أمير المؤمنين فقد بعته لك سليمًا صحيحًا .

فقال عمر : اجعل بيني وبينك حكمًا ، فقال الأعرابي : يحكم بيننا شريح بن الحارث .

فقال عمر : رضيت به .

فذهبا إلىٰ شريح ، فلما سمع مقالة الأعرابي التفت إلىٰ عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ وقال له : هل أخذت الفرس سليمًا يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر : نعم .

---

(١) « كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء » لمحمد فهمي عبد الوهاب (ص٧٦ ـ ٧٧) دار الاعتصام .

فقال شريح : احتفظ بما اشتريت يا أمير المؤمنين أوْ ردّ كما أخذت .

فنظر عمر إلىٰ شريح معجبًا وقال : وهل القضاء إلا هكذا ؟ . . قول فصل وحكم عدل ، سرْ إلىٰ الكوفة فقد وليتك قضاءها »[١] .

• ولِلَّه در مسروق بن عبد الرحمن الإمام العظيم . . . القاضي الذي كان لا يأخذ علىٰ القضاء أجرًا ، كان ـ رحمه اللَّه ـ يقول : « لأن أقضي بقضية وَفْق الحق أحبُّ إليّ من رباط سنة في سبيل اللَّه ، أو قال : من غزو سنة »[٢] .

شريك بن عبد اللَّه قاضي الكوفة عظمّ أمر اللَّه ، فأذل اللَّه له عظماء خلقه :

لقد كان القاضي شريك قاضي الكوفة من الربانيين الذين هم صور الحق في مناصب القضاء لا يطمع في جورهم سلطان ، ولا ييأس من عدلهم إنسان . . . أي إنسان .

« روىٰ عمر بن هياج بن سعيد قال : أتت امرأة يومًا شريك بن عبد اللَّه قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم ، فقالت : أنا باللَّه ، ثم بالقاضي ، قال : مَنْ ظلمك ؟ قالت : الأمير موسىٰ بن عيسىٰ ابن عم أمير المؤمنين ؛ كان لي بستان علىٰ شاطئ الفرات فيه نخل ، ورثته عن أبي ، وقاسمت إخوتي ، وبنيت بيني وبينهم حائطًا ، وجعلت فيه رجلاً فارسيًا يحفظ النخل ويقوم به ، فاشترىٰ الأمير موسىٰ بن عيسىٰ من جميع إخوتي وساومني ، ورغّبني فلم أبعه ، فلما كانت هذه الليلة ، بعث خمسمائة

(١) « صور من حياة التابعين » .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٤/ ٦٨ ـ ٦٩) .

غلام وفاعل ، فاقتلعوا الحائط ، وأصبحت لا أعرف من نخلي شيئًا ، واختلط بنخل إخوتي ، فقال شريك لحاجبه : يا غلام ، أحضِرْ ورقة ، ثم ختمها بخاتمه وقال لها : امضي إلىٰ بابه بالختم حتىٰ يحضر معك ، فجاءت المرأة بالورقة المختومة ، فطرقت باب الأمير فأخذها الحاجب منها ، ودخل بها علىٰ موسىٰ ، وقال له : قد أعْدَىٰ القاضي عليك ، وهذا ختْمه .

فقال موسىٰ : ادع لي صاحب الشرطة ، فدعا به .

فقال له : امض إلىٰ شريك وقل : يا سبحان اللَّه ! ما رأيت أعجب من أمرك ؛ امرأة ادّعت دعوىٰ لم تَصحّ ، أعْدَيتها عليّ ؟!

فقال صاحب الشرطة : إنْ رأىٰ الأمير أن يُعفِني من ذلك ؟

فقال الأمير : امضِ ، ويْلك !! فخرج صاحب الشرطة وقال لغلمانه : اذهبوا وأدخلوا إلىٰ حبس القاضي بساطًا وفراشًا وما تدعو الحاجة إليه في السجن !! ثم مضىٰ إلىٰ شريك ، فلما وقف بين يديه أدّىٰ الرسالة .

فقال القاضي لغلام الحبْس : خذْ بيده فضَعْه في الحبْس ، فقال صاحب الشرطة : واللَّه لقد عملتْ أنك تحبسني ، فقدّمت ما أحتاج إليه إلىٰ السجن، وبلغ موسىٰ بن عيسىٰ الخبر ، فوجّه الحاجب إلىٰ شريك، وقال له: رسول أدىٰ رسالة ، أي شيء عليه ؟! فقال شريك : اذهبوا به إلىٰ رفيقه إلىٰ الحبس ، فحبس ، فلما صلىٰ الأمير موسىٰ العصر ، بعث إلىٰ إسحاق بن الصباح الأشعثي ، وإلىٰ جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك ، وقال لهم : امضوا إلىٰ القاضي ، وأبلغوه السلام، وأعلموه أنه استخفّ بي وأني لست كالعامة ، فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر ، فأبلغوه الرسالة ، فلما انقضىٰ

كلامهم قال لهم: مالي أراكم جئتموني في غَثَرة[1] من الناس فكلّمتموني، ثم التفت حوله ونادىٰ : مَن ها هنا من فتيان الحيّ فأجابه جماعة من الفتيان، فقال لهم: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء، فيذهب به إلىٰ الحبس، ثم وجّه الكلام إلىٰ وجوه الكوفة وهمُ يسحبون فقال: ما أنتم إلا فتنة، وجزاؤكم الحبس.

فقالوا: له: أجادٌّ أنت ؟! قال: حقًّا، حتىٰ لا تعودوا برسالة ظالم، فحبسهم جميعًا وعلم موسىٰ بن عيسىٰ فركب في الليل إلىٰ باب السجن، وفتح الباب وأخرجهم كلهم، فلما كان الغد وجلس شريك للقضاء، جاءه السجّان فأخبره، فدعا شريك بالقِمطر فختمه، ووجّه به إلىٰ منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلي إلىٰ بغداد، واللّه ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا له فيه الإعزاز إذ تقلّدناه لهم، ومضىٰ نحو قنطرة الكوفة في الطريق إلىٰ بغداد وبلغ الخبر موسىٰ بن عيسىٰ، فركب في موكبه ولحقه، وجعل يناشده اللّه ويقول: يا أبا عبد اللّه تثّبتْ، انظر إخوانك تحبسهم، دع أعواني.

قال شريك: نعم لأنهم مشوا لك في أمر لم يجزْ لهم المشي فيه، ولست ببارح أو يُردّوا جميعًا إلىٰ الحبس، وإلاّ مضيت إلىٰ أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه مما قلدني فأمر موسىٰ بردهم جميعًا إلىٰ الحبس.

فقال شريك لأعوانه: خذوا بلجام دابة الأمير بين يدي إلىٰ مجلس الحكم، فمرّوا بين يديه حتىٰ أُدخل المجلس وجلس في مجلس القضاء، وجاءت المرأة المتظلمة وقال لها: هذا خصمك قد حضر، فقال موسىٰ

---

(١) في ظلمة وغشمة.

ـ وهو إلىٰ جانب المتظلمة بين يديه ـ : قبل كل أمر أنا قد حضرت ، أولئك يخرجون من الحبس ، فقال شريك : أما الآن فنعم ، أخرجوهم من الحبس .

وقال شريك للأمير : ما تقول فيما تدعيه هذه المرأة ؟

وأجاب موسىٰ : صدقت ، قال : تردّ ما أخذت منها وتبني حائطًا سريعًا كما كان .

قال موسىٰ : أفعل ذلك كله ، واتجه شريك نحو المرأة وقال : أبقىٰ لك عليه دعوىٰ ؟ قالت : بيت الفارسي ومتاعه ، قال موسىٰ : ويردّ ذلك كله .

قال شريك : أبقىٰ لك عليه دعوىٰ ؟ قالت : لا ، وبارك اللَّه عليك وجزاك خيراً ، فأمر شريك المرأة بالانصراف فانصرفت ، فلما فرغ قام وأخذ بيد موسىٰ بن عيسىٰ وأجلسه في مجلسه ، وقال : السلام عليك أيها الأمير ، أتأمرني بشيء ؟ قال الأمير : أي شيء آخر ؟! وضحك ، فقال له شريك : أيها الأمير ، ذلك الفعل حق الشرع ، وهذا القول الآن حق الأدب ، فقام الأمير وانصرف إلىٰ منزله وهو يقول :

مَنْ عظّم أمر اللَّه أذلّ اللَّه له عظماء خلقه »[1] .

كم اعتزّ الحق بأهله واعتزّوا به ، وانتصر بهم وانتصروا به ، وباء أعداؤه بذلّة العبيد وهم يضعون علىٰ رءوسهم تيجان الملوك .

واسعداه للحق ... ما أخذه في اللَّه لومة لائم أربعين سنة ... ذلكم قاضي المدينة سعد بن إبراهيم :

قاضي المدينة الإمام سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف :

---

(١) « كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء » (ص٨٢ـ٨٦) .

عن ابن أبي ذئب : قضى سعد بن إبراهيم على رجل برأي ربيعة ، فأخبرتُه عن رسول اللَّه ﷺ بخلاف ما قضى به .

فقال سعد لربيعة : هذا ابن أبي ذئب ، وهو عندي ثقة ، يحدّث عن النبي ﷺ بخلاف ما قضيتُ به، فقال له ربيعة : قد اجتهدتَ ، ومضى حكمك .

فقال سعد : واعجبا ! ! أنفذ قضاء سعد ابن أم سعد ، وأردّ قضاء قضى به رسول اللَّه ﷺ ! ! بل أردّ قضاء سعد ، وأُنفذ قضاء رسول اللَّه ﷺ، ودعا بكتاب الأقضية ، فشقّه وقضى للمقضي عليه .

• وفي مرض الموت دخل عليه ابن هرمز وجماعة يعودونه ، فاغرورقت عينا ابن هرمز .

فقال له سعد : ما يُبكيك ؟ فقال : واللَّه لكأني بقائلة غداً تقول : واسعداه للحق ولا سعد .

قال : واللَّه لئن قلت ذلك ، ما أخذني في اللَّه لومة لائم منذ أربعين سنة[١] .

قاضي مصر بكّار بن قتيبة : الملتقى قريب والقاضي اللَّه عز وجل :

قال الطحاوي : كان بكّار على نهاية الحمد في ولايته .

قال الذهبي : جمع أحمد بن طولون العلماء والأعيان ، وقال : قد نكث الموفّق أبو أحمد ـ وليّ العهد ـ بأمير المؤمنين ، فاخلعوه من العهد ، فخلعوه ، إلا بكار بن قتيبة ، وقال : أنت أوردت عليّ كتاب المعتمد بتوليته العهد ، فهات كتابًا آخر منه بخلعه .

---

(١) « السير » (٥/٤١٨ ـ ٤٢١) .

قال : إنه محجور عليه ومقهور .

قال : لا أدري ، فقال له : غرّك الناس بقولهم : ما في الدنيا مثل بكارٍ، أنت قد خرفت .

وقيدّه وحبسه وأخذ منه جميع عطائه من سنين ، فكان عشرة آلاف دينار ، فقيل : إنها وُجدت بختومها وحالها ، وبلغ ذلك الموفّق ، فأمر بلعن ابن طولون على المنابر .

ونقل القاضي ابن خلّكان ، أن ابن طولون كان يُنفذ إلى بكار في العام ألف دينار ، سوى المقرّر له ، فيتركها بختمها، فلما دعاه إلى خلع الموفق طالبه بجملة المال ، فحمله إليه بختومه ثمانية عشر كيسًا فاستحيا ابن طولون عند ذلك .

وكان بكار وهو في حبسه يلبس ثيابه وقت صلاة الجمعة ويمشي إلى الباب ، فيقول له الموكّلون به : ارجع ، فيقول : اللَّهم اشهد .

ولما اعتلّ أحمد بن طولون راسل بكّارًا ، وقال : إنا رادوك إلى منزلك، فأجبني .

فقال : قُل له : شيخ فانٍ ، وعليل مُدْنَف ، والملتقى قريب ، والقاضي اللَّه عز وجل »[١] .

القاضي نصر بن ظريف اليحصبي :

حكى أبو عمر بن عبد البر : أن حبيبًا القرشي دخل على الأمير عبد الرحمن بن معاوية، فشكا إليه القاضي نصر بن ظريف اليحصبي ، وذكر أنه يريد أن يُسجِّل عليه في ضيعة يقيم فيها ، وادعى عليه الاغتصاب لها ،

---

(١) « السير » (١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٤) ، « وولاة مصر وقضاتها » (٣٦١ـ٣٦٢) .

ولاذ بالأمير من إسراع القاضي إلىٰ الحكم عليه من غير تثبت .

فأرسل الأمير إليه وكلّمه في حبيب ونهاه عن العجلة عليه ، فخرج ابن ظريف من يومه ، وعمل بغير ما أراد الأمير ، وأنفذ الحكم ، وبلغ الخبر حبيبًا ، فدخل إلىٰ الأمير مُتّغراً غيظًا ، فذكر له ما عمله القاضي ، ووصفه بالاستخفاف بأمره والنقض له ، وأغراه ؛ فغضب الأمير علىٰ القاضي واستحضره ، فقال له : مَن أمرك أن تنفّذ حكمًا ، وقد أمرتك بتأخيره والأناة به ؟ فقال له : قدّمني عليه رسول اللّه ﷺ ؛ فإنما بعثه اللّه بالحق ؛ ليقضي به علىٰ القريب والبعيد والشريف والدنيء ، وأنت أيها الأمير ، ما الذي حملك علىٰ أن تتحامل لبعض رعيتك علىٰ بعض ، وأنت تجد مندوحة بأن ترضي من مالك مَن تُعنىٰ به ، وتمد الحق لأجله ؟ فقال له : جزاك اللّه يا ابن ظريف خيراً ، وخرج القاضي ، فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة لهم بالاستحقاق ، وكلمّهم فوجدهم راضين ببيعها إن أجزل لهم الثمن ، فعقد فيها البيع معهم ، وصارت إلىٰ حبيب ، فكان بعد ذلك يقول : جزىٰ اللّه ابن ظريف عنا خيراً ، كانت بيدي ضيعة حرام ، فجعلها حلالاً[١] .

قاضي البصرة سوار بن عبد اللّه ... يرد أبا جعفر المنصور إلى الحق :

كتب الخليفة أبو جعفر المنصور إلي سوار بن عبدالله قاضى البصرة كتابًا فيه : « انظر الأرض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر فادفعها الىٰ القائد »، فكتب إليه سوار : « إن البينة قد قامت عندىٰ أنها للتاجر . فلست أعطها لغيره إلا ببينة » ، فكتب إليه المنصور : «واللّه الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلىٰ القائد » فكتب إليه سوار : « واللّه الذي لا إله إلا هو لا

(١) « تاريخ قضاة الأندلس » (ص٤٤) ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ لبنان .

أخرجها من يد التاجر إلا بحق » فلما وصل كتابه المنصور قال : ملأتها واللّه عدلاً ، وصار قضاتي تردني إلىٰ الحق[1] .

ولما وشىٰ البعض بالقاضي سوار إلىٰ أبي جعفر المنصور ، فاستدعىٰ الخليفة القاضي ، فلما مثل بين يديه عطس الخليفة فلم يشمته سوار فقال له الخليفة : لماذا لم تشمتني ؟ . . . قال سوار : لأنك لم تحمد اللّه .

فقال المنصور : قد حمدت في نفسي . . . فقال سوار : وأنا شمّتك في نفسي ، فتبسّم المنصور ، وقال له : ارجع إلىٰ عملك فإنك إن لم تحابني لم تحاب غيري .

القاضي أبو عبيد بن حربويه :

« قاضي مصر المشهور بالعدل والهيبة ، كان أمير مصر يركب إلىٰ داره ، ولم يكن هو يركب إلىٰ دار الأمير ، ومن شدته في إنفاذ الشريعة أن مؤنسًا الخادم ـ وكان أكبر أمراء الخليفة المقتدر وكان يخطب له علىٰ المنابر مع الخليفـة ـ ورد إلىٰ مصر في عسكر كثير ، فعرض له ضعف ، فأرسل إلىٰ القاضي يطلب منه شهودًا يشهدهم عليه أنه أوصىٰ بوقف قرىٰ كثيرة علىٰ سبيل البرّ ، ويعتق ستمائة مملوك ، وبأنواع من الخير .

فقال القاضي : حتىٰ يثبت عندي أن مؤنسًا حُرّ .

وقال : إنه لم يرد عليّ كتاب من الخليفة بأنه أعتقه ، فلا أفعل . وكتب المقتدر إليه كتابًا ، فوصل الكتاب إلىٰ مؤنس ، فاستدعىٰ بعض الأمراء ليوصله إلىٰ القاضي ، فامتنع هذا ؛ هيبة منه ، فدعا تكين أمير مصر ، وحمله علىٰ أن يذهب إلىٰ القاضي ويوصل إليه الكتاب ، فأتىٰ تكين إلىٰ القاضي ومعه الكتاب وناوله إياه ، فقال القاضي : ما هذا ؟ فقال : كتاب أمير المؤمنين .

---

(١) « تاريخ الخلفاء » .

فقال : أَمِنْ يدك ؟ فقال : بل من أيدي شاهدَيْن عدلين يشهدان أنه كتاب أمير المؤمنين »[١] .

قاضي قرطبة المصعب بن عمران ، وردّه الضيْعة على الأيتام :

عُرِف - رحمه الله - بعدله وصلابته في القضاء ، وبتنفيذه الأحكام يؤيده الأمير الحكم بن هشام وأبوه ، ولا يسمح فيه بمقال ، ويجيز أفعاله ، وينفذ أحكامه ، وإن وقعت بغير المحبوب منه .

« وفي كتاب الحسن بن محمد : أن العباس بن عبد الملك المرواني اغتصب رجلاً من أهل جيّان ضيْعته ، فبينما هو يُنازعه فيها ، هلك الرجل وترك أيتامًا صغارًا ، فلما ترعرعوا وسمعوا بعدل القاضي مصعب وقضائه ، قدموا قرطبة وأنهوا إليه مظلمتهم بالعباس ، وأثبتوا ما وجب إثباته ، فبعث القاضي إلى العباس ، وأعلمه بما دفعه إليه الأيتام ، وعرّفه بالشهود عليه ، وأعذر إليه فيهم ، وأباح له المدافع ، وضرب له الآجال ، فلما انصرمت ، ولم يأت بشيء أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه ، ففزع العباس إلى الأمير الحكم، وسأله أن يوصي إلى القاضي بالتخلي عن النظر في قضية ؛ ليكون هو الناظر فيها .

فأوصل إليه الأمير ذلك مع خليفة له من أكابر فتيانه ، فلما أدى الوصية إليه ، اشتدت عليه ، وقال : « إن القوم قد أثبتوا حقهم ، ولزمهم في ذلك عناء طويل ، ونصب شديد ؛ لبعد مكانهم ، وضعف حالتهم ، وفي هذا على الأمير - أعزّه الله - ما فيه ، فلستُ أتخلّى عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه ، فليفعل الأمير بعده ما يراه صوابًا من رأيه » .

---

(١) مقدمة « محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي » للأمير شكيب أرسلان (ص٢٩ - ٣٠) دار مكتبة الحياة - بيروت .

فرجع الرسول إلى الأمير بجوابه ، فوجم منه ، وجعل العباس يغريه بمصعب ، ويقول : لقد أعلمتُ الأمير بشدة استخفافه وغلطه في نفسه وتقديره له أن الحكم له ولا حكم للأمير عليه ، وكرّر الأمير الطلب إليه أن يكفّ عن إصدار الحكم في القضية ، فأمر القاضي الرسول بالقعود ، وحكم للقوم بالضيْعة ، ثم أنفذ الحكم وأشهد عليه ، وقال : قد حكمتُ بالعدل ، فلينقضه الأمير إن قدر ، فاستشاط غيظًا ، وأطرق مليّا . . . وأقرّ حكم القاضي »[1] .

قاضي المرية بالأندلس : أبو عبد اللّه محمد بن يحيى بن البراء يردّ على أميرالمؤمنين يوسف بن تاشفين :

« كتب إليه سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين ـ فيمن كتب إليهم ـ بفرض معونة على الأهالي لأجل الجهاد ، فامتنع القاضي عن فرضها ، وكتب إلى أمير المسلمين بأنه لا يجوز له ذلك . فأجابه أمير المسلمين قائلاً له : إن القضاة عندي والفقهاء أباحوا فرضها ، وإن عمر بن الخطاب فرضها في زمانه ، فراجعه القاضي بكتاب يقول له فيه : الحمد للّه الذي إليه مآبنا وعليه حسابنا ، وبعد : فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخّري عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه أن عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ اقتضاها ؛ فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية فإن كان عمر اقتضاها ؛ فقد كان صاحب رسول اللّه ﷺ ، ووزيره ، وضجيعه في قبره ، ولا يُشك في عدله ، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول اللّه ، ولا بوزيره ، ولا مضجيعه في قبره ، ولا ممن لا يُشك في عدله . فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوه منزلته في العدل ، فاللّه تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك .

---

(١) « تاريخ قضاة الأندلس » (ص٤٦ ـ ٤٧) .

وما اقتضاها عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ حتىٰ دخل مسجد رسول اللَّه ﷺ ، وحضر من كان معه من الصحابة ـ رضي اللَّه عنهم ـ ، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم ؛ وحينئذ تجب معونته . . . إلخ .

فلما بلغه هذا الكتاب وعظه اللَّه بقوله ولم يُعدِ عليه في ذلك قولاً »(١) .

الإمام الشهيد قاضي برقة : محمد بن الحُبُلي :

« أتاه أمير برقة ـ وكان من الفاطميين العبيديين ـ فقال : غداً العيد ، قال : حتىٰ نرىٰ الهلال ، ولا أُفطِّرَ الناس وأتقلّد إثمهم ، فقال : بهذا جاء كتاب المنصور ، وكان هذا من رأىٰ العُبيدية يفطرون بالحساب ، ولا يعتبرون رؤية ، فلم يُر هلال ، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد .

فقال القاضي : لا أخرج ولا أصلي ، فأمر الأمير رجلاً خطب ، وكتب بما جرىٰ إلىٰ المنصور ، فطلب القاضي إليه ، فأُحضر ، فقال له : تنصَّلْ ، وأعفو عنك ، فامتنع ، فأمر ، فعُلِّق في الشمس إلىٰ أن مات ، وكان يستغيث من العطش ، فلم يسُق ، ثم صلبوه علىٰ خشبة ، فلعنة اللَّه علىٰ الظالمين »(٢) .

قاضي قضاة الأندلس محمد بن بشير :

كانت لديه دعوىٰ لعم الحكم ، علىٰ واحد من العامة ، وكان يظنّ المدعي أن له من علوّ مكانته ، ووثيق صلته بالملك ما يمكن له عندالقاضي ، وإذا بالقاضي يقول له : قف بحذاء خصمك ولا تتكلم ، حتىٰ أكون أنا الذي أسألك .

---

(١) مقدمة « محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي » لشكيب أرسلان (ص٣٠ـ٣١) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١٥/ ٣٧٤) .

فلما أدلى بدعواه ، قال للمدعى عليه : ما تقول ؟ : قال : ليس عليَّ شيء أصلح اللَّه القاضي .

قال القاضي للمدعي : هات بيِّنتك ، قال : ألا يكفيك قولي ؟ قال : لو كفاني ما سألتك البينة . بيِّنتك . قال : أمهلني .

وذهب العم إلى الحكم صاحب الأندلس ، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، فقال : ألست تعرف أن لي على فلان كذا ؟ قال : بلى .

قال : أتشهد لي ؟ قال : أنت تعرف القاضي وأخاف أن لا يقبل شهادتي ! قال : كيف وأنت الذي وليته القضاء ؟ قال : هو ما أقول لك .

قال : فمن يشهد لي ؟ فدعا الملك بفقيهين ، وكتب شهادته أمامهما وأشهدهما عليه ، وقال : امض بها إليه وأنا أخاف ألا يقبلها .

فلما كان يوم المحاكمة ، وقال له القاضي : بينتك ، أبرز له شهادة الملك ، فقال القاضي : أنا لا أقبل شهادته .

فاستشاط العمّ غضبًا ، وجن جنونه ، وذهب إلى ابن أخيه ، وقال : أنت ملك البلاد ، والقاضي ردّ شهادتك ! ماذا بقي لك من الكرامه والسلطان ؟ وضحك الحاكم وقال : ألم أقل لك يا عم ؟ إن القاضي رجل صالح لا تأخذه في اللَّه لومة لائم ، عمل ما يجب عليه ، فأحسن اللَّه جزاءه .

قال : فاعزله ، قال : أعوذ باللَّه ، أنا أخون المسلمين في عزل مثله ؟ أنا عملت ما عليّ وشهدت لك ، وللقاضي أن يقبل الشهادة أو يردّها .

ولما سئل القاضي بعد ذلك : لما رددت شهادته ؟

قال للسائل : واللَّه ما رددتها نقصًا في عدالته ، ولكن لابد من سؤال

المدعىٰ عليه عما يقوله في الشاهد ، فمن كان يجرؤ علىٰ الطعن في شهادته لو قبلتها ؟

• وأقام عاميٌّ لديه دعوىٰ علىٰ ابن فطيس الوزير ، وكان له في الأندلس سطوة ونفوذ ، فلما سأل المدعي بيّنته ، جاء بشهود فسمع شهادتهم بغيبة الوزير ولم يخبره عنهم ، ولم يعرفه بهم ، وحكم عليه ، فرفع الوزير شكوىٰ إلىٰ الحكم ، وكان القاضي حاضراً ، فأومأ إليه الحكم سائلاً .

فقال : ليس ابن فطيس ممن يُعَرَّف بمن شهد عليه ، لأنه إن لم يجد سبيلاً إلىٰ تجريح شهادتهم ، لم يتحرج من استعمال سلطانه في أذاهم في أنفسهم وأموالهم والانتقام منهم ، فيدع الناس الشهادة وتضيع أموال الناس »[١] .

القاضي المنذر بن سعيد البلوطي :

« ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن الناصر ، وناهيك من عدْل أُظهر ، ومن فضل أُشهر ، ومِنْ جَوْر قُبض ، ومن حق رُفع ، ومن باطل خُفض ، كان مهيبًا صليبًا ، غيرجبان ولا عاجز ، ولا مراقب لأحد من خَلْق اللَّه في استخراج حق ورَفْع ظلم ، استعفىٰ مراراً من القضاء فما أُعفي »[٢] .

« كان المنذر بن سعيد قاضي قرطبة وخطيب مسجدها الكبير ، وعندما أخذ الخليفة الناصر في بناء الزهراء انهمك في الإشراف عليها ، حتىٰ تأخَّر عن حضور صلاة الجماعة ـ في يوم الجمعة ـ ثلاث جمع متواليات ، فأراد

---

(١) « رجال من التاريخ » للشيخ علي الطنطاوي (جـ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٠) دار البشير .
(٢) « نفح الطيب » (١/ ٣٧٥) .

القاضي منذر أن يغضّ منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة ، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالىٰ : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾[1] ، ثم وصله بقوله : فمتاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقىٰ ، وهي دار القرار ، ثم مضىٰ في ذمّ تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته إلىٰ أن وصل إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[2] ، ثم خوّف بالموت ، ودعا إلىٰ الزهد حتىٰ خشع الناس ورقُّوا وبكوا ، وضجّوا ودَعَوْا وأعلنوا التضرع إلىٰ اللَّه في التوبة ، والابتهال في المغفرة وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود به ، فبكىٰ وندم علىٰ ما سلف له من فرطه ، واستعاذ باللَّه من سخطه ، إلا أنه وجد ـ غضب ـ علىٰ منذر لغلظ ما قرّعه به ، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر ، وقال : واللَّه لقد تعمدّني منذر بخطبته ، وما عنىٰ بها غيري ، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي ، ولم يُحسن السياسة في وعظي ، فزْعزع قلبي ، وكاد بعصاه يقرعني ، واستشاط غيظًا عليه ، فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة ، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ، ويُجانب الصلاة بالزهراء ، وقال الحكم : فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذا كرهته ؟! فزجره وانتهره ، وقال

---

(١) سورة الشعراء الآية (١٢٨ ـ ١٣٦) .

(٢) سورة التوبة الآية (١٠٩) .

له : أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ـ لا أم لك ـ يُعْزَل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟! هذا ما لا يكون ، وإني لأستحيي من اللَّه أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه ، ولكنه أحرجني فأقسمت ، ولوددتُ أني أجد سبيلاً إلىٰ كفارة يميني بملكي ، بل يُصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء اللَّه تعالىٰ ، فما أظننا نعتاض منه أبدًا »(١) .

قال ابن عفيف : من أخباره المحفوظة : أن أمير المؤمنين ـ الناصر ـ عمل في بعض سطوح الزهراء قبّة بالذهب والفضة ، وجلس فيها ، ودخل الأعيان ، فجاء منذر بن سعيد ، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله : هل رأيت أو سمعت أن أحدًا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا ؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدَّر ، ثم قال : واللَّه ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان ـ لعنه اللَّه ـ يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن يمكّنه من قيادك هذا التمكين ، مع ما أتاك اللَّه من فضله ونعمته وفضّلك به علىٰ العالمين ، حتىٰ يُنزلك منازل الكافرين .

فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال : انظر ما تقول ، وكيف أنزلني منزلتهم ؟ قال : نعم ، أليس اللَّه تعالىٰ يقول : ﴿ **وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾** إلىٰ قوله : ﴿ **وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾(٢) .

فنكّس الناصر رأسه طويلاً ودموعه تتساقط ، ثم قال : جزاك اللَّه عنا

---

(١) عبد الرحمن الناصر لبسام العسيلي (ص١٠٦ ـ ١٠٨) ، السُّنة أن يكفّر عن يمينه ويفعل ما هو خير ، والحديث الصحيح صريح في هذا واللَّه يقول : ﴿ ولا تجعلوا اللَّه عرضه لأيمانكم أن تبروا﴾ .

(٢) سورة الزخرف الآيات (٣٣ ـ ٣٥) .

خيراً وعن المسلمين ، والذي قلت هو الحق ، وأرمر بنقض سقف القبة »[١] .

● «و أراد الناصر أن يبني قصراً لإحدىٰ نسائه ، وكان بجوار المكان دار صغيرة وحمام لأيتام تحت ولاية القاضي ، فطلب شراءه ، فقالوا : إنه لا يباع إلا بإذن القاضي ، فسأله بيعه فقال : لا ، إلا بإحدىٰ ثلاث : حاجة الأيتام ، أو وهن البناء ، أو غبطة الثمن .

فأرسل الخليفة خبراء قدّروهما بثمن لم يعجب القاضي ، فأباه ، وأظهر الخليفة العدول عنهما والزهد فيهما ، وخاف القاضي أن يأخذهما جبراً .

فأمر بهدم الدار والحمام ، وباع الأنقاض ، بأكثر مما قدّر الخبراء ، وعزّ ذلك على الخليفة ، وقال له : ما دعاك إلىٰ ذلك ؟

قال : أخذت بقوله تعالىٰ : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾[٢] .

لقد بعت الأنقاض بأكثر مما قدرت للدار والحمام ، وبقيت للأيتام الأرض ، فالآن اشترها بما تراه لها من الثمن .

قال الخليفة : أنا أولىٰ أن أنقاد إلىٰ الحق ، فجزاك اللّٰه عنا وعن أمتك خيراً »[٣] .

قاضي القضاة شيخ الشافعية محمد بن المظفر الشامي الحموي :

قال السبكي في « طبقات الشافعية » (٤/ ٢٠٣ ـ ٢٠٥) : « كان من قضاة العدل ، واتفقت منه محاسن أيام قضائه ، امتنع الشامي من قبول

---

(١) « السير » (١٦/ ١٧٧) ، وعبد الرحمن الناصر لبسام العسيلي (ص١١٠ـ١١١) .

(٢) سورة الكهف الآية (٧٩) .

(٣) « رجال من التاريخ » لعلي الطنطاوي (١/ ٢٢٥ـ٢٢٦) .

القضاء فما زالوا به حتى تقلّده ، وشرط أن لا يأخذ رزقًا ، ولا يقبل شفاعة ، ولا يغيِّر ملبوسه ؛ فأجيب إلى ذلك .

قال ابن النجار : ما استناب أحدًا في القضاء ، وكان يسوِّي بين الوضيع والشريف في الحكم ، ويقيم جاه الشرع .

وكان يقول : ما دخلتُ القضاء حتى وجب عليّ ، ويقول : أعصي إن لم أَلِ القضاء .

● وقعت حادثة للسلطان ملكشاه ، فحُمِل قاضي القضاة الشامي إلى دار السلطان ليقضي في تلك الحادثة ، فجاء المشطبُ بن محمد بن أسامة الفرغاني أحد فحول المناظرين من الحنفية ـ وكان ذا جاه عريض ، وملازمة للسلطان ـ فشهد بين يديه ، فقال الشامي على رءوس الخلائق : لا أقبل شهادته ، فقالوا : لمَ ؟ قال : لأنه فاسق ، وكان على المشطب ثوب حرير ، فخجل المشطب من ذلك .

وجاء أمير من الأتراك ، وادّعى على واحد شيئًا ، فقال الشامي للأمير : ألك بيّنة ؟ قال : بلى . قال : مَن هما ؟ قال : فلان والمشطبّ ، فقال الشامي : لا أقبل شهادة المشطبّ ؛ لأنه يلبس الحرير .

فقال المشطبّ : تردّني ، والسلطان ووزيره نظام الملك يلبسانه ؟! فقال الشامي : لو شهدا عندي ما قبلت شهادتهما[1] ، وفي رواية « لو شهدا عندي في باقة بقْل ، ما قبلت شهادتهما »[2] .

* * *

(١) « طبقات الشافعية » للسبكي (٤/ ٢٠٣ـ ٢٠٥) .
(٢) « المنتظم » (٩/ ٩٦) ، و« الكامل » لابن الأثير (١٠/ ٢٥٣) .

القاضي جُميع بن حاضر الباجي ؛ يحكم بطرد المسلمين من سمرقند؛ واقعة صحيحة أشبه بالأساطير وأطيب من الشهد :

« لما استُخلِف عمر بن عبد العزيز ـ رحمه اللَّه ـ وفد عليه قوم من أهل سمرقند ، فعرّفوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدْر ، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضيًا ، ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين أُخرجوا ، فنصب لهم جُميع بن حاضر الباجي ، فحكم بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء ، فكَرِه أهل مدينة سمرقند الحرب ، وأقرّوا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم »[1] .

قاضي مصر عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع الملوك والأمراء :

لما تحالف حاكم دمشق الصالح إسماعيل مع الصليبيين ، وأسلمهم قلعة صفد وقلعة الشقيف وصيدا ، وبعض بلاد المسلمين اختيارًا ، ليساعدوه ضد حاكم مصر ابن أخيه نجم الدين أيوب ، ودخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا المسلمين فشق ذلك على سلطان العلماء وأفتى المتعيّشين من بيع السلاح وأهل الشام وقال : يحرم عليكم مبايعتهم ، لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا إخوانكم المسلمين .

وترك الدعاء للحاكم في الخطبة ، وجدّد دعاءه « اللَّهم أبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا تُعزّ فيه وليّك ، وتُذِلّ فيه عدّوك ، ويُعمل فيه بطاعتك ويُنهى فيه عن معصيتك » .

واعتقل سلطان العلماء ، وبقي مدة معتقلاً ، وانتقل الشيخ إلى بيت المقدس بعد خروجه من المعتقل .

وسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى سلطان العلماء قائلاً له

(١) « فتوح البلدان » للبلاذري .

«بينك وبين أن تعود إلىٰ مناصبك وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان ، وتقبّل يده لا غير »[١] ، وهنا قال سلطان العلماء كلماته النيِّرة ، وهي كلمات للحياة ، خرّ من هولها رسول الحاكم ، قال عز الدين : « واللَّه يا مسكين ، ما أرضاه أن يُقبِّل يدي ، فضلاً أن أُقبِّل يده ، يا قوم ، أنتم في واد، وأنا في وادٍ ، الحمد اللَّه الذي عافاني مما ابتلاكم به »[٢] .

ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر اللَّه الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج ، ونجّىٰ اللَّه سبحانه الشيخ ، فجاء إلىٰ الديار المصرية ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب وولاه خطابة مصر وقضاءها .

● وكان سلطان العلماء يقوم بإنكار المنكر وإبطال البدع بنفسه ، فقد اتفق أن الوزير فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ ، أستاذ دار المُلْك ـ وهو الذي كان إليه أمر المملكة ـ عمد إلىٰ مسجد بمصر فعمل علىٰ ظهره بناء لطبلخانات[٣] ، وبقيت تضرب هنالك ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عزّ الدين حكم بهدْم البناء ، بل وذهب بنفسه وجماعته وهدَم البناء ، ولم علم الوزير بذلك غضب لذلك ، فقام الشيخ بالإشهاد عليه ، وأسقط عدالته ، وحكم بفسقه ، وعزل نفسه عن القضاء .

العز وسلطان مصر نجم الدين أيوب :

وقد كانت لسلطان العلماء قصة مع سلطان مصر نجم الدين أيوب وقد كان جباراً متكبراً ، كثير التجبّر علىٰ أصحابه ، لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة .

(١ ، ٢) « طبقات الشافعية » (٨/ ٢٤٣ـ٢٤٤) .

(٣) دار لهو وغناء .

قال أبو الحسن الباجي تلميذ العزّ : « طلع شيخنا عز الدين مرّة إلىٰ السلطان في يوم عيد إلىٰ القلعة ، فشاهد العسكر مصطفِّين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبّهة ، وقد خرج علىٰ قومه في زينته ، علىٰ عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبّل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلىٰ السلطان ، وناداه : يا أيوب، ما حجتك عند اللّه ، إذا قال لك : يا أيوب ألم أبوِّئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور ؟! فقال : هل جرىٰ هذا ؟ قال : نعم ، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمور ، وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلّب في نعمة هذه المملكة - يناديه بأعلىٰ صوته ، والعساكر واقفون - فقال : يا سيدي ، هذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ... ﴾[1] ، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة .

يقول الباجي : فسألت الشيخ لما جاء من عند السلطان ، وقد شاع هذا الخبر : يا سيدي ، كيف الحال ؟ فقال : يا بنيّ ، رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ؛ لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه .

فقلت : يا سيدي ، أما خِفْته ؟ فقال : واللّه يا بني استحضرت هيبة اللّه تعالىٰ ، فصار السلطان قدّامي كالقط »[2] .

أمراء للبيْع :

حكىٰ السبكي والسيوطي أنه « لما تولىٰ الشيخ عز الدين القضاء تصدىٰ لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار ، وأن

---

(١) سورة الزخرف الآية (٢٢) .

(٢) « طبقات الشافعية » (٨/ ٢١١) .

حكم الرق مستصحب عليهم لبيْت مال المسلمين، فبلغهم ذلك ، فعظم الخطب عندهم ، واضَّرم الأمر ، والشيخ مصمم لا يصحِّح لهم بيعًا ولا شراء ولا نكاحًا ، وتعطلت مصالحهم لذلك ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستشار غضبًا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : نعقد لكم مجلسًا وينادىٰ عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلىٰ السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فجَرَتْ من السلطان كلمة فيها غلظة ، حاصلها الإنكار علىٰ الشيخ في دخوله في هذا الأمر وأنه لا يتعلق به ، فغضب الشيخ وحمل حوائجه علىٰ حمار ، وأركب عائلته علىٰ حمار آخر ، ومشىٰ خلفهم خارجًا من القاهرة قاصدًا نحو الشام ، فلم يصل إلىٰ نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالب المسلمين ، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يُؤْبه إليه يتخلّف ، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم ، فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له : متىٰ راح ذهب ملكك ، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه ، فرجع ، واتفقوا معه علىٰ أنه ينادَىٰ علىٰ الأمراء ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالمُلاطفة فلم يُفِد ، فانزعج النائب ، وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض ؟! واللَّه لأضربنه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلىٰ بيت الشيخ ، والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب ، فخرج ولد الشيخ ، فرأىٰ من نائب السلطنة ما رأىٰ ، وشرح له الحال ، فما اكترث لذلك ، وقال : يا ولدي أبوك أقلّ من أن يُقتل في سبيل اللَّه ، ثم خرج ، فحين وقع بصره علىٰ النائب يبُست يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكىٰ ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال: يا سيدي ، أيْش تعمل ؟ قال : أنادي عليكم وأبيعكم ، قال : ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين ، قال : ومن يقبضه ؟ قال :

أنا، فتمّ ما أراد ، ونادىٰ علىٰ الأمراء واحدًا واحدًا ، وغالىٰ في ثمنهم ، ولم يبعهم إلا بالثمن الوافي ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير ، وهذا لم يُسمع بمثله عن أحد ـ رحمه اللَّه تعالىٰ ـ »[1] .

سلطان العلماء وقطز :

« لمّا دهم التتار البلاد عُقَيْب واقعة بغداد ، جبن أهل مصر عنهم ، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض ، استشاروا الشيخ عز الدين ـ رحمه اللَّه ـ، فقال : اخرجوا ، وأنا أضمن لكم علىٰ اللَّه النصر ، فقال السلطان له : إن المال في خزانتي قليل ، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار ، فقال له الشيخ عز الدين : إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحليّ الحرام ، وضربتَه سكة ونقدًا ، وفرّقته في الجيش ولم يقم بكفايتهم ذلك الوقت ، اطلب القرْض ، وأما قبل ذلك فلا .

فأحضر السلطان والعسكر كلهم ـ ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيْبة ، بحيث لا يستطيعون مخالفته ، فامتثلوا أمره وانتصروا »[2] .

القاضي الفناريّ يردّ شهادة السلطان بايزيد لأنه تارك للجماعة :

محمد بن محمد بن حمزة الفناديّ ويقال الفناريّ تولي قضاء بروسا للأتراك، وهو مصنف « فصول البدائع في أصول الشرائع » ، وهو من أجلّ الكتب الأصولية وأنفعها وأكثرها فوائد .

من تصلبه في الدين وتثبته في القضاء وعدله أنه رد شهادة السلطان

---

(١) « حسن المحاضرة » للسيوطي (٢/ ١٦٢) ، و« طبقات الشافعية » للسبكي (٨/ ٢١٦) .

(٢) « طبقات الشافعية » (٨/ ٢١٥) .

العثماني بايزيد بن مراد في قضيّة فسأله السلطان عن سبب ذلك فقال : إنك تارك للجماعة ، فبنى السلطان قدّام قصره جامعًا ، وعين لنفسه فيه موضعًا ولم يترك الجماعة بعد ذلك .

فللَّه درّ هذا العالم الصادع بالحق مع ما هو فيه من التقلب في نعمة سلطانه ، ورب عالم لا يقدر على الكلمة الواحدة في الحق لمن له عليه أدنى نعمة مخافة من زوالها ، بل رب عالم يمنعه رجاء العطية ونيل المرتبة السنية عن التكلم بالحق ولم يكن بيده إلا مجرد الأماني الأشعبيّة[1] .

القاضي شكر اللَّه السندي وخبره العجيب :

تولى القضاء في تته من بلاد السند سنة سبع وعشرين وتسعمائة أيام شاهي بيك كان ـ رحمه اللَّه ـ لا يخاف في اللَّه سبحانه أحدًا ، حتى قيل إن شاه حسين بن شاهي بيك ملك السند اشترى أفراسًا من بعض التجار وماطله في أداء الثمن ، فرفع التاجر القضية إلى القاضي ، فأمر أن يحضر السلطان بين يديه ويقوم حيث ما قام التاجر ، ثم قضى عليه بحق التاجر ، فأرضى السلطان التاجر ، ثم قام القاضي من مقامه وقدم السلطان على جري العادة ، فقعد السلطان عنده وأراه خنجراً كان معه ، وقال له : جئت به لأقتلك لو عدلت عن الحق مهابة مني ، فأخرج القاضي السيف من تحت وسادته وقال له : وضعت هذا السيف لأقتلك لو جاوزت عن حدك ، ثم خرج السلطان مسروراً وكان مطله في أداء الثمن من أجل الامتحان[2] .

* * *

(١) « البدر الطالع » للشوكاني (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٩) .

(٢) « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » لعبد الحي الندوي (٤/ ١٢٤ ـ ١٢٥) .

وضاع العدل بضياع الخلافة :

فأصبحـــت دولـة الإســلام حائرةً   تشكو الوجيعة لما مات آسيهـــا
مضى وخلّفهـا كالطـود راســخة   وزان بالعدل والتقوى معانيهـــا
تنبوا المعـــاول عنها وهي قائمـــة   والهادمون كثير في نواحيهـــا
حتى إذا ما تولاّهـــا مُهَدِّمُـهـا   صاح الزوال بها فانْدَكَّ عاليهـــا
واهـًا على دولة بالأمس قد ملأت   جوانب الشرق رغدًا من أياديهـــا
كم ظلّلَتْها وحاطتهـــا بأجنحـة   عن أعين الدهر قد كانت تواريهـــا
من العناية قد ريشَـتْ قوادمهـا   ومن صميم التقى ريشَتْ خوافيهـا
لو أنهـم لنقيّ الديـــن قد حفظـوا   لما نعاها على الأيام ناعيهـــا
فيا أتاتورك لا جادتـــك غاديـــة   من رحمة اللّه ما جادت غواديهـــا
طعنت الخلافة مرتـــدًا ومنتقمـــًا   من الحنيفة في أعلى مجاليهـــا

* * *

وغاب العدل والنور بضياع الخلافة وحكم القرآن :

وضاع العدل والنور وغابا عن الحياة ، وأصبح الناس في ضنك الانقطاع عن الاتصال باللّه والاطمئنان إلى حماه ، ضنك الحيرة والقلق والشك ، لقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه فألقى بالهدى من بين يديه ، وهو أنفس ثراء وذخر .

إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن ؛ وليس أبشـع من تفريـط المتسـحفظ، وليس أخس من تدليس المستشهد . . . يخونون ويفرطون

ويدلسون ، ويسكتون على العمل لتحكيم ما أنزل اللَّه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه حتى ضاعت الخلافة وحكم القرآن . . . ، نعاني من ظلمة الحيرة والانقطاع عن الهدى ، والوحشة من الجناب الآمن المأنوس نعاني من ويلات حاضرنا والقرآن منا قريب في متناول أيدينا لو نشاء . . . فأية صفقة خاسرة هذه التي نستبدل فيها الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ ونشتري فيها الضلالة بالهدى ؟ ولله در شوقي وهو ينعي سقوط الخلافة :

عادت أغاني العرسِ رَجْعَ نُواحِ	ونُعيتِ بين معالمِ الأفراحِ
كُفِّنت في ليلِ الزفافِ بثوبه	ودُفنتِ عند تَبلجِّ الإصباحِ
شُيِّعتِ في هلعٍ بعبرة ضاحكٍ	في كل ناحيةٍ وسكرةِ صاحِ
ضجَّتْ عليك مآذنٌ ومنابرٌ	وبكتْ عليكِ ممالكٌ ونواحِ
الهند والهةٌ ومصر حزينةٌ	تبكي عليك بمدمع سَحّاحِ
والشام تسألُ والعراقُ وفارسٌ	أَمَحا من الأرض الخلافة ماحِ
أتت لك الجمعُ الجلائل مأتماً	فقعدن فيه مقاعد الأنواحِ
يا للرجال لحُرةٍ موءودةٍ	قُتلَت بغير جريرةٍ وجناحِ
هتكوا بأيديهم مُلاءةَ فخرهم	مَوْشِيَّةً بمواهب الفتّاحِ
نزعوا عن الأعناقِ خير قلادةٍ	ونَضَوْا عن الأعطافِ خيرَ وشاحِ
حَسَب أتى طول الليالي دونه	قد طاح بين عشية وصباحِ
وعلاقة فُصمت عرى أسبابها	كانت أبرّ علائقِ الأرواحِ
جمعت على البرِّ الحضورَ وربما	جمعت عليه سرائرُ النُّزّاحِ

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ... في كل غدوة جُمعـة ورواحِ
بكت الصلاةُ وتلك فتنةُ عابثٍ ... بالشرعِ عربيد القضـاء وقاحِ
أفتى خزعبلةً وقال ضلالـةً ... وأتى بكفر في البـلاد بـواح
إن الغرور سقى الرئيس براحِـهِ ... كيف احتيالك في صريـع الراحِ؟
نَقَل الشرائعَ والعقائد والقرى ... والناسَ نقل كتائبٍ في الساح
تركته كالشبح المؤلّهِ أمـةً ... لم تَسْلُ بعدُ عبـادةَ الأشباحِ
فلتسمعن بكل أرض داعيـاً ... يدعو إلى الكذّاب أو لسجاحِ
ولتشهدن بكل أرض فتنـةً ... فيها يُباع الدين بيع سماح
يفتي على ذهب المعز وسيفـه ... وهَوى النفوس وحقدها الملحاحِ

ولنا الفجر الآتي فلا تهييء كفني يا عاذلي :

يومًا ما ستعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة ، يقيننا بهذا أكبر من الدنيا بأسرها ، أكبر من يقيننا بوجودنا .

عن حذيفة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **تكون النبوة فيكم ما شاء اللَّه أن تكون ، ثم يرفعها اللَّه إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء اللَّه أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء اللَّه أن يكون ، ثم يرفعها إذا شاء اللَّه أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء اللَّه أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت** »(١) .

---

(١) حديث صحيح : رواه أحمد ، والبزار ، والطيالسي في « مسنده » ، والطبراني ببعضه في =

والمهدي يملأها قسطًا وعدلاً كما مُلئت جوْرًا وظلمًا :

والأحاديث في ظهور المهدي وخلافته تبلغ حد التواتر المعنوي كما قال حفاظ هذه الأمة نوقن بها . . . وهي من عقيدة أهل السنة والجماعة ، خلافًا للعقلانيين أفراخ المعتزلة .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **لتُمْلأن الأرضُ جَوْرًا وظلمًا ، فإذا مُلئت جورًا وظلمًا، يَبعثُ اللَّه رجلاً مني ، اسمه كاسمي ، واسم أبيه كاسم أبي ، فيملؤُها عدلاً وقسطًا ، كما مُلئت جورًا وظلمًا ، فلا تمنع السماء من قطرها[1] ، ولا الأرض شيئًا من نباتها ، يَمكث فيكم سبعًا أو ثمانيًا ، فإن أكثر فتسعًا** »[2] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لتُملأنَّ الأرضُ ظلمًا وعدوانًا ، ثم ليخرجن رجل من أهل بيتي ، حتى يملأها قسطًا وعدلاً ، كما مُلئت ظلمًا وعدوانًا** »[3] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لَطَوّل اللَّه ذلك اليوم ، حتى يُبعَثَ فيه رجل من أهل بيتي ، يواطئ[4] اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجورًا** »[5] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من خلفائكم خليفة ، يحثو المال حثيًا ، لا يعده**

= «الأوسط» وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٥/ ١٨٩) : رجال ثقات ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (٥) .

(١) المطر .

(٢) صحيح : رواه البزار ، والطبراني في« الكبير » ، عن أبي سعيد الخدري ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٠٠٧٣) ، و« الصحيحة » رقم (١٥٢٩) .

(٣) صحيح : أخرجه الحارث ، وأحمد ، وابن حبان ، والحاكم في « المستدرك » عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٠٧٤) ، و« الصحيحة » رقم (١٥٢٩) .

(٤) يواطئ : أي يوافق .

(٥) صحيح : رواه أبو داود في « سننه » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٣٠٤) ، و« المشكاة » رقم (٥٤٥٢) .

عدًا »[١] أي يغرف منه غرفًا ، كناية عن كثرة الخير وعدل الخليفة وهو المهدي وكرمه .

● وقال رسول الله ﷺ : « **المهدي من عترتي من ولد فاطمة** »[٢] .

● وقال رسول الله ﷺ : « **المهدي مني ، أجلى**[٣] **الجبهة ، أقنى**[٤] **الأنف ، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت جورًا وظلمًا، يملك سبع سنين**»[٥] .

● وقال رسول الله ﷺ : « **يكون في آخر الزمان خليفة ، يقسم المال ولا يعدّه** »[٦] .

طوبى لعيش بعد المسيح عليه السلام :

إن الإنسان ليعجب أشد العجب ممن ينكر نزول المسيح وقتله للدجال مع تواتر الأحاديث في ذلك ، ينقل هذا التواتر عِشرون أو أكثر ـ من أساطين علم الحديث : الطبري ، وابن كثير ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وابن حجر ، والشوكاني ، والذهبي ، والألباني ، فأين ذهبت عقول رجالات المدرسة العقلية .

● قال رسول الله ﷺ : « **كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فأمّكم ؟** »[٧] .

● وقال رسول الله ﷺ : « **والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن**

---

(١) رواه مسلم وأحمد ، عن أبي سعيد .

(٢) صحيح : رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم ، عن أم سلمة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٧٣٤) .

(٣) أي : منحسر شعره عن مقدم رأسه .

(٤) يعني : طويل مع دقة فيه .

(٥) حسن : رواه أبو داود ، والحاكم عن أبي سعيد ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٧٣٦) .

(٦) رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد وجابر .

(٧) أي أمّكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم . رواه مسلم عن أبي هريرة .

مريم حكماً مقسطاً ، وإماماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية، ويفيض[(١)] المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها »[(٢)] .

• وقال رسول الله ﷺ : « **والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً ، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ،ولتُتْركنّ القلاص[(٣)] ، فلا يُسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد،وليَدعُون إلى المالَ فلا يقبله أحد»[(٤)] .**

• وعند أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **الأنبياء إخوة لعلات[(٥)] أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني لأولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه، وإنه نازل فاعرفوه رجل مربوع[(٦)] إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصّران[(٧)] ، كأن رأسه يقطر إن لم يصبه بلل ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال ثم تقع الأمانة[(٨)] على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات فلا تضرهم فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون »[(٩)] .**

---

(١) أي يكثر .

(٢)رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٣) القلاص : جياد الإبل .

(٤) رواه أحمد ومسلم ، والآجري ، وابن منده عن أبي هريرة .

(٥) إخوة لعلات : أولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد وأراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة ، قال ابن حجر في « الفتح » : علات : ضرائر .

(٦) مربوع : يعني معتدل القامة بين الطويل والقصير .

(٧) ممصَّران : أي فيهما صفرة خفيفة .

(٨) الأمانة : أي الأمنة والسلام ، وترتع : أي تلعب .

(٩) رواه أحمد (٩٢٥٩) ، وأبو داود (٤/ ١١٧) ، وابن جرير (٩/ ٣٨٨) ، وابن حبان (٨/ ٢٧٧)، والحاكم (٢/ ٥٩٥) وصححه ، ووافقه الذهبي وابن أبي شيبة (١٥/ ١٥٨) ، وصحح سند أحمد الشيخ أحمد شاكر وكذا سند الطبري .

وعند ابن ماجه (٤٠٧٧) والحاكم (٤/ ٥٣٦) : من حديث أبي أمامة الباهلي « **وتنزع حمة [١] كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره ، وتُفر الوليدة الأسد فلا يضرها ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها ، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا اللّه وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش ملكها ، وتكون الأرض لها نور الفضة ، وتنبت نباتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف[٢] من العنب فيشبعهم ، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ...** » .

● وعند مسلم في كتاب الفتن باب « ذكر الدجال وصفته وما معه » من حديث النواس بن سمعان : « **... ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردّي بركتك فيومئذ تأكل العصابة[٣] من الرّمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرِّسْل[٤] حتى إن اللقحة[٥] من الإبل لتكفي الفئام[٦] من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[٧] من الناس ...** » .

حبذا هذا العيش وحبذا هذا الزمان الذي يعم فيه العدل والسلام . . .

***

---

(١) الحمة : هو السم ويطلق على إبرة العقرب للمجاورة لأن السم منها يخرج .
(٢) تفر الوليدة الأسد : أي تحمله على الفرار . والقطف : العنقود .
(٣) العصابة : الجماعة .
(٤) الرِّسْل : اللبن .
(٥) اللقحة : اللبون .
(٦) الفئام : الجماعة .
(٧) الفخذ : من الناس دون القبيلة .

شـــاب نشـــأ

فـــي

عبـــادة الله عز وجـــل

« إن ربك ليعجب للشاب

لا صبوة له » حديث جيد

شـــاب نشأ في عبادة الله عز وجل

عن سلمان الفارسي ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « **سبعة يظلهم اللَّه في ظل عرشه يوم القيامة : رجل إذا ذكر اللَّه خاليًا ، فاضت عيناه، ورجل أفنى شبابه ونشاطه في عبادة اللَّه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد من حبها ، ورجل تصدَّق بيمينه وكان يخفيها من شماله ، ورجلان التقيا ، فقال كل واحد منهما : إني أحبك في اللَّه ، تصادرا على ذلك ، ورجل أرسلت إليه امرأة ذات منصب تدعوه إلى نفسها فقال : إني أخاف اللَّه ، وإمام مقتصد** »(١) .

وعن عقبة مرفوعًا : « **إن ربك ليعجب للشاب لا صبوة له** »(٢) .

ولِلَّه در هذا ودر مكانته، ولو لم يكن له من ثناء إلا أن يعجب ربه منه لكفى : « يعظم عنده قدرًا فيجزل له أجرًا لكونه ليست له صبوة » أي ميل إلى الهوى بحسن اعتياده للخير وقوة عزيمته في البعد عن الشر ، قال حجة الإسلام : وهذا عزيز نادر ، فلذلك قُرِن بالتعجب »(٣) .

وهل الأفضل من نشأ لا صبوة له لكونه لم يلبس كبيرة ونجا من

---

(١) إسناده حسن : رواه سعيد بن منصور في « سننه » ، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٢/ ١٤٤) .

(٢) إسناده جيد : رواه الروياني في « مسنده » من رواية عبد اللَّه بن وهب وهو أحد العبادلة عن ابن لهيعة ، وأخرجه أحمد بلفظ : « إن اللَّه ليعجب » ، ورواه الطبراني في « الكبير » وأبو يعلى في « مسنده » وابن أبي عاصم في « السنة » وابن المبارك في « الزهد » ، وقال الهيثمي : « رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن » ، وجوَّد إسناده الألباني في « الصحيحة » (٦/ ٨٢٤ ـ ٨٢٦) حديث رقم (٢٨٤٣) .

وصبوة : أي ميل إلى الهوى ، وهي المَرَّة منه ، انظر « النهاية » .

(٣) « فيض القدير » للمناوي (٢/ ٢٦٣) .

ضررها وخطرها والسؤال عنها يوم القيامة ، أو من قارف الذنوب وتاب توبة نصوحًا لكونه قلع عن الشهوات اللَّه بعد إلفه لها وتعوده لذتها ، ثم فارق لذته وشهوته للَّه ؟ قولان والأول أولى وأفضل .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا تزولا قدما ابن آدم يوم القيامة عند ربه ، حتى يُسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيمَ أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه ، وماذا عَمِلَ فيمَ علِم** »[١] .

وللَّه در حفصة بنت سيرين حين قالت : « يا معشر الشباب ، اعملوا فإني رأيت العمل في الشباب هو القوة ، فالشمس لا تملأ النهار في آخره كما تملؤه في أوله » .

وفي الشباب نوع من الحياة تظهر كلمة الموت عنده كأنها أخت كلمة النوم .

وفي الشباب تصنع كل شجرة من أشجار الحياة أثمارها ، وبعد ذلك لا تصنع الأشجار كلها إلا خشبًا[٢] .

الشباب توثُّب رُوح واستنارة فكر ، وطفرة أمل وصلابة عزيمة . . وما ظهر ، الدين وعرف الناس شرائع النبيين إلا بفضل الشباب الصالحين : ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** ﴾[٣] .

فهم النقباء والحواريون ، والأنصار والمهاجرين ، وهم العلماء

---

(١) حسن : رواه الترمذي عن ابن مسعود ، وحسَّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٢٩٩) .
(٢) « وحي القلم » لمصطفى صادق الرافعي (٢/ ٢٣٠) .
(٣) سورة آل عمران الآية (١٧٢) .

والمعلمون ، والخطباء المصقعون ، والتاريخ أصدق شاهد بفضل الشباب الناشئين في طاعة اللَّه ، واللَّه تعالىٰ يقول في أصحاب الكهف : ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى** ﴾[1] .

فتية آمنوا على الوهلة بربهم ، آمنوا من غير مهلة ، لَمَّا أتتهم دواعي الوصلة قاموا للَّه ، وما استقروا حتىٰ وصلوا إلىٰ اللَّه . . . مَتَع نهار عرفانهم واستضاءت شموسهم بزيادة اليقين ، وتمَّت سكينة قلوبهم ، قعدت عنهم الشهوات فصحَّ قيامهم باللَّه ، ينكشف العجب في شأن القلوب الشابة المؤمنة ، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ، ومتاع الدنيا ، هؤلاء الذين يأوون إلىٰ الكهف الضيق الخشن المظلم ، هؤلاء يستروحون رحمة اللَّه ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة ، ولفظة (ينشر) ، تلقىٰ ظلال السعة والبحبوحة والانفساح ، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع ، تنتشر فيه الرحمة ، وتتسع خيوطها ، وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء .

من صَدَق رجوعه إلىٰ اللَّه في أحوله ، ولم يستعن بغير اللَّه من أشكاله وأمثاله ، آواه إلىٰ كنف أفضاله ، وكفاه جميع أشغاله ، وهيَّأ له محلاً يتفيأ فيه في برد ظلاله بكمال إقباله .

« إن العصبة المؤمنة التي تركزت في دار الأرقم وعلىٰ يديها تحقق نصر الإسلام كانوا شبابًا ، فرسول اللَّه كان عمره أربعين سنة عند البعثة ،

---

(١) سورة الكهف الآية (١٣) .

وأبو بكر الصديق كان أصغر من النبي بثلاث سنين ، وعمر - رضي اللَّه عنه - كان أصغر ، وعلي - رضي اللَّه عنه - كان أصغر من الجميع ، وهكذا كان عبد اللَّه بن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، والأرقم أبي بن الأرقم ، وسعيد بن زيد ، ومصعب بن عمير ، وبلال بن رباح ، وعمار ابن ياسر ، وعشرات غيرهم بل مئات كلهم كانوا شبابًا . . . هؤلاء الشباب هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة وهم الذي استعذبوا في سبيلها أسمى آيات الصبر والعذاب والتضحية ، وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم حتى حققوا لهذا الإسلام انتشاره وكيانه ولهذا الدين انتصاره وتمكينه »[1] .

وللَّه در أحمد الصديق حين يقول :

شباب الحق يا أملاً يُداعب فجرنا الزاهرْ

ويا صوتًا يشيع الرعب في قلب الدجى الغادرْ

ويا درعًا يصون الدين ... يحمي عرضنا الطاهرْ[2]

وللَّه دره حين يشدو :

ويا إخوتي ... يا منـــاط العُـــلا ويا صيحـة الحق مـــلءَ الفـــمِ

---

(١) « كان عُمُرُ عمر بن الخطاب ستًا وعشرون سنة ، وعثمان بن عفان عشرين سنة ، وعلي بن أبي طالب ثمان عشرة سنة ، وسعد بن أبي وقاص سبع عشرة سنة ، وصهيب الرومي تسع عشرة سنة ، وزيد بن حارثة عشرين سنة ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح سبعًا وعشرين سنة ، وعبد الرحمن بن عوف ثلاثين سنة ، وبلال بن رباح ثلاثين سنة ، والأرقم بن أبي الأرقم إحدى عشرة سنة الذي تأسست في داره أول دار علم في الإسلام » .

(٢) من قصيدة « جنود الحق » من ديوان نداء الحق لأمد الصديق (ص٩٨) .

ويا جُـــرح آمالنـــا الغالياتِ توَهَّـــج كالشـــرر المضـــرمِ
ويا صحـوة الفكر ... أرواحنـــا بغير البطـــولات لم تَحْلُـــمِ
يجلجل فينا نداء السمـــاء ويجـــأر كالقـــــدر المبـــرَمِ
يُحيِّي الرجال ذوي العزمـــاتِ ويهدي الضياء لعيـن العَمِـــي
يُحيل المشاعر نارًا ونـــورًا يشق سجوف الدجـى المظلـــمِ
ويشرح للدهر معنى الثبـــات على الحق في نهجـه القيِّـــمِ[1]

ولله دره حين يترنم للشباب غراس الآمال :

إنما أنت يا شبابُ ربيعٌ وعلى الأرض أنت ظل السماءِ
أنت روح مجنّحٌ ... وطُموحٌ صاغه الله من سنًا وسناءِ
فيك من روعة الخلود انفتاحٌ وانجذاب إلى الذرى الشمّاءِ
تتسامى أحلامك الغر حتى ترتقي عالم المثال النائي
أنت نبض الحياة يرفل بالطهـــ ـــر .. ودنيا تعبُّد ونقاءِ
وأمان تفتّر في كل صدر وهي ترنو لفجرها الوضّاءِ
يا أخي أنت شعلة الحق لا يخبو لظاها في زحمة الأنواءِ
كم عيون ترنو إليك ... وكم تهفو قلوب مكلومة الأحشاءِ
وبلاد غذّتك من شهدها الذاكـ ـــي تُرَجّى الغداة حسن الوفاءِ
أرضعت قلبك الإباء فأرضعْ فجرها يوم بعثها بالدماءِ[2]

(١) من قصيدة « التحدي » من ديوان نداء الحق لأحمد الصديق (ص٨٥) .
(٢) من قصيدة « الشباب » من ديوان نداء الحق لأحمد الصديق (ص٨١ـ٨٤) .

فتعال معي إلى الصفحات العطرة وقبس من حياة الشباب الذين أفنوا أعمارهم في عبادة اللّه وطاعته .

علي بن أبي طالب : حيدرة .. القاتل لصناديد قريش وهو شاب :

قتل حيدرة الأبطال علي بن أبي طالب - رضي اللّه عنه - وهو شاب في يوم بدر - شيبة بن ربيعة ، واشترك في قتل الوليد بن عتبة ، وقتل بعدهما في بدر : العاص بن سعيد ، وعامر بن عبد اللّه ، وطعيمة بن عديّ ، وزمعة ابن الأسود ، ونوفل بن خويلد ، وعقيل بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، وعمير بن عثمان ، ومسعود بن أمية ، وأبا قيس بن الفاكهة ، وحاجب بن السائب ، وعبد اللّه بن المنذر ، والعاص بن منبه ، وأوس بن معير ، خمسة عشرة رجل قتلهم عليٌّ في يوم بدر .

وقبله حمى علي - رضي اللّه عنه - دين اللّه عز وجل في شخص نبيه ﷺ ونام في فراشه في أصعب ليلة مرَّت بها الدعوة . . . نام في الفراش وهويعلم أن على الباب رجالاً لا يريدون إلا رأس النائم على الفراش .

وفي يوم أحد يقتل علي : أبا أمية بن أبي حذيفة ، وعبد اللّه بن حميد ابن زهير .

وفي يوم الأحزاب يقتل علي عمرو بن عبد ود ، فارس قريش في يوم الأحزاب « كبش الكتيبة » ، وكبرَّ المسلمون لقتل كبش الكتيبة . . .

فللّه در أبي الحسن والحسين .

وكان أخاً لنبي الهدى — وخُصَّ بذاك فلا يُكذَبِ
وفي ليلة الغار وافى النبي — عشاء إلى الفلق الأشهبِ
وبات دُوَيْنَهُ في الفراش — مُوَطِّنَ نفس على الأصعبِ
وعمرو بن ودٍّ وأحزابه — سقاهم حسا الموت في يثربِ

وسل عنه خيبر ذات الحصـــون تُخبِّـــرْك عنـه وعن مَرْحَـــبِ

للَّه در شاب كان أول من أسلم من الصبيان . . . ترعرع وتربى في بيت النبوة والرسالة . . . للَّه در شاب قال له النبي ﷺ : « **ألا يرضيك أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى** »(١) .

للَّه در شاب قال عنه النبي ﷺ ليلة خيبر : « **لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه اللَّه ورسوله** »(٢) ، فأعطاها لعلي ، وقتل علي مرحب فارس خيبر ، للَّه در شاب قال عنه النبي ﷺ : « **إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله** » فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر ـ فقال : « **لا ولكنه خاصف النعل** » : « يعني عليًا ـ رضي اللَّه عنه ـ . . . فقاتل الخوارج .

بأبي وأمي من قال عنه النبي ﷺ وهو شاب : « **إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة، علي وعمار وسلمان** »(٣) .

• معاذ بن جبل مقدام العلماء :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن معاذ بن جبل أمامَ العلماء رَتْوَة** »(٤) .

وقال عنه ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ : « إن معاذًا كان أمة قانتًا للَّه . . . إنما كنا نشبهه بإبراهيم »(٥) .

---

(١) صحيح : رواه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص ، والترمذي ، وأحمد ، وأبويعلى ، والبزار ، والطبراني .

(٢) أخرجه مسلم عن سعد وأبي هريرة ، والترمذي ، والطبراني .

(٣) حسن : رواه الترمذي والحاكم في « المستدرك » عن أنس ، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع»رقم (١٥٩٤) .

(٤) صحيح بمجموع طرقه : أخرجه ابن سعد في « الطبقات » عن محمد بن كعب ، وله شاهد عند ابن أبي شيبة وأبي نُعيم والحاكم .

(٥) موقوف صحيح : أخرجه ابن جرير في « التفسير » ، وابن سعد في « الطبقات » ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **استقرئوا القرآن من أربعة : من عبد اللّه بن مسعود** - فبدأ به - **وسالم مولى أبي حذيفة ، وأُبَيِّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل**»[1] .

وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال لمعاذ : « **يا معاذ ! ، واللّه إني لأحبك ، واللّه إني لأحبك** ... »[2] .

للَّه دره من سيد ، له أسبقيته ، وإيمانه ويقينه ، للَّه دره معلم وفاتح اليمن ، على أن آلق مزاياه وأعظم خصائصه ، كان فقهه ، وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام كما شهد له رسول اللَّه ﷺ ، ويقول عنه عمر : « لو لا معاذ بن جبل لهلك عمر » .

كان أصحا ب رسول اللَّه إذا تحدثوا وفيهم معاذ بن جبل نظروا إليه هيبة له ، للَّه دره . . . كأنما كان يخرج من فمه نور ولؤلؤ . . . بلغ منزلة عظيمة في العلم ، وفي إجلال المسلمين له ، أيام رسول اللَّه ﷺ وبعد مماته .

مات - رحمه اللَّه - يوم مات ولم يجاوز من العمر ثلاثًا وثلاثين سنة ، أو ثمانية وعشرين سنة . . . وحصَّل ما حصَّل وسبق الأمة في الفقه وعلم الحلال والحرام في تسع سنوات .

للَّه در معاذ من شاب ربَّاني قانت أمة فارس مغوار مشتاق إلى ربه .

كان - رضي اللَّه عنه - قائد الميمنة في « أجنادين » ، وقام في أصحابه فقال : « يا معشر المسلمون ، اشروا أنفسكم اليوم للَّه . . . فإنكم إن هزمتموهم اليوم ، كانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبدًا مع رضوان اللَّه والثواب العظيم من اللَّه » .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والطيالسي ، والنسائي في « الفضائل » .
(٢) رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم .

للَّه در معاذ قائد الميمنة في « محل بيسان » .

قال عنه ثابت بن سهل بن سعد : « كان معاذ بن جبل يومئذ من أشد الناس علينا حرصًا ، وأمضاهم في رقاب الروم سيفًا » ، وقبل معركة «فحل» قال له وجهاء الروم في مفاوضاتهم له : « اذهب إلىٰ أصحابك ، فواللَّه إنا لنرجوا أن نفرَّكم في الجبال غدًا ، قال معاذ : أما الجبال فلا ، ولكن وللَّه لَتَقْتُلُنَّا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون »(١) .

للَّه در معاذ قائد الميمنة في يوم اليرموك . . . يخطب في الناس صباح المعركة ، فيقول : « يا قُرَّاء القرآن ومستحفظي الكتاب وأنصار الهدىٰ وأولياء الحق ، إن رحمة اللَّه ـ واللَّه ـ لا تُنال وجنته لا تُدخل بالأماني ، ولا يؤتي اللَّه المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادقين المصدقين بما وعدهم اللَّه عز وجل ، ألم تسمعوا قول اللَّه عز وجل : ﴿ **وعد اللَّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** ... ﴾ الآية ، أنتم إن شاء اللَّه ، منصورون فأطيعوا اللَّه ورسوله ، ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن اللَّه مع الصابرين ، واستحيوا من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم وأنتم في قبضته ورحمته ، وليس لأحد منكم ملجأ من دونه، ولا متعزز بغير اللَّه »(٢) .

ولما نزل الطاعون في جند الشام وهو فيه قال للصحابة : « رحمة ربكم ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، اللَّهم فآت آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة » ، فماأمسىٰ حتىٰ طُعِنَ ابنه عبد الرحمن وأحب

(١) « الطريق إلىٰ دمشق » لأحمد عادل كمال (ص٣١١ ـ ٣٣٣) .
(٢) « الطريق إلىٰ دمشق » (ص٤٧٢) .

الناس إليه الذي كان يُكَنَّىٰ به ، فرجع معاذ من المسجد ، فوجده مكروبًا ، فقال : يا عبد الرحمن ، كيف أنت ؟ فاستجاب له ، فقال عبد الرحمن : يا أبة : ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾(١) .

فقال معاذ ـ رضي اللَّه عنه ـ : وأنا ستجدني إن شاء اللَّه من الصابرين فمات من ليلته ، ودفن من الغد »(٢) .

ـ رضي اللَّه عنك ـ من مشتاق إلىٰ ربك . . . يدعو ربه « اللَّهم إن كنت تعلم أن معاذ بن جبل سمعه من رسول اللَّه ﷺ ، فأعطه هو وأهل بيته ، الحظ الأوفر منه ، فأصابهم الطاعون ، فلم يبق منهم أحد ، فطُعِن في أصبعه السبابة فكان يقول : ما يسرني أن لي بها حمر النَّعَم .

ولما اشتد به نزع الموت ، نزع أشد العالم نزعه ، فكان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه فقال : اخنق خنقك ، فو عزتك إنك لتعلم أني أحبك .

وفي « الزهد » لأحمد : لما حضره الموت قال : « أعوذ باللَّه من ليلة صباحها إلىٰ النار ، مرحبًا بالموت مرحبًا زائرًا مغيب ، حبيب جاء علىٰ فاقة ، اللَّهم إني قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك ، اللَّهم إن كنت تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرىٰ الأنهار ، ولا لغرس الشجر ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر »(٣) .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٤٧) .

(٢) « بذل المعاون في فضل الطاعون » لابن حجر العسقلاني ، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب ، ط دار العاصمة ، (ص٢٦٧) .

(٣) « الزهد » لأحمد (ص١٨٠ ـ ١٨١) .

الحِبُّ بن الحِبّ : أسامة بن زيد ـ رضي اللّه عنهما ـ :

كان ـ رضي اللّه عنه ـ على حداثة سنه ، مؤمنًا صلبًا ، ومسلمًا قويًا ، يحمل كل تبعات إيمانه ودينه ، في ولاء مكين ، وعزيمة قاهرة جعلته قريبًا من قلب رسول اللّه ﷺ وكبيرًا في عيْنيه .

وفي سن مبكرة ، لم تجاوز العشرين ، أمَّر الرسول اللّه ﷺ أسامة بن زيد على جيش ، بين أفراده وجنوده أبو بكر وعمر وسرت همهمة بين نفر من المسلمين تعاظمهم الأمر ، واستكثروا على الفتى الشاب إمارة جيش فيه شيوخ الأنصار وكبار المهاجرين ، فقال رسول اللّه ﷺ : « **إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله ، وايم اللّه لقد كان خليقًا للإمارة ، وإن كان من أحب الناس إليّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده** »(١) .

« بعث رسول اللّه ﷺ أسامة على جيش المسلمين إلى حيث قُتل أبوه والصحابة ، وأمره أن يغير على « أُبْنَى » بالسراة ناحية البلقاء ، وقيل : إلى «آبل» الزيت بنفس الجهة ، وعقد له لواء في آخر يوم من صفر سنة ١١هـ ، ولكن مرض الرسول ﷺ مرضه الذي قبضه اللّه إليه فيه ، فتأخر خروج الجيش حتى هلال ربيع الآخر سنة ١١هـ ، وسار أسامة بجيشه ثلاثة آلاف يسرع السير على طريق ذي المروة ووادي القرى ، في اتجاه « أبنى » و«آبل الزيت» ، من نواحي مؤتة ، حتى إذا توَسَّط مواطن قضاعة توقف يسيرًا ، وبعث فرسانه لينهضوا الثابتين منهم على إسلامهم ، ويعينهم على من ارتَدَّ ، وهرب المرتدُّون إلى مكان بعيد . . . إلى « دومة الجندل » فاجتمعوا بها حول وديعة الكلبي ، لم تكن دومة الجندل من أهداف جيش أسامة ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وأحمد في « فضائل الصحابة » ، وابن سعد في «الطبقات» .

ولا على طريقه ، فما إنْ عادت إلى خيوله ، حتى مضى بجيشه إلى «الحمقتين» فأغار عليها ، وكان بها بنو الضُّبَيْب من جذام ، وبنو خيليل من لخم فهزم مَنْ هناك حتى « آبل » في إغارة شديدة سريعة ، وسبى وحرق بالنار منازلهم وحَرْثهم ونخلهم ، حتى صارت أعاصير من الدخان ، وأجال الخيل في نواحيهم ، وقضى يومه في تعبئة ما أصابوا من غنائم ، ثم لم يقم وإنما كرَّ راجعًا من مساء يومه ، حتى قدم وادي القرى في تسع ليال ، ثم قدم المدينة سالمًا غانمًا وقد غاب عنها خمسة وثلاثين يومًا ، وقيل : غاب شهرين وأيامًا ، عاد الجيش بلا ضحايا وقال عنه المسلمون يومئذ : « ما رأينا جيشًا أسلم من جيش أسامة »[(١)] .

وكان هرقل بحمص حين بلغه ما صنع أسامة بعملائه العرب النازلين بأطراف إمبراطوريته ، فدعا بطارقته وقال لهم : « هذا الذي حذَّرتكم فأبيتم أن تقبلوه مني ، قد صارت العرب تأتي من مسيرة شهر فتغير عليكم ، ثم تخرج من ساعتها ولم تُكْلَم »[(٢)] .

أي تجرح ، لقد حقق جيش أسامة هدفًا جليل الأثر ، وأجلى مرتدِّي قضاعة عن طريق الشام ، فرضي اللَّه عن الشاب الرباني الحب بن الحب .

مصعب بن عمير : الفاتح الأول للمدينة ، والداعية الشهيد :

الفائز بالآيات . . . المشرق بالهلات ، جبل الرحمة والبركات . . . غاسل يثرب بالقرآن . . . الوجه الفاتح للإيمان ديار الكفر . . . الماهد أرض رسول اللَّه . . . نبراس الدعاة وإمام الفاتحين الفتى المُنَّعَم الذي صاغه

(١) « رجال حول الرسول » لخالد محمد خالد (ص٤٤٩) .
(٢) « الطريق إلى دمشق » لأحمد عادل كمال ، دار النفائس (ص١٥٥) .

الإسلام على يديه ، تقَدَّم حين نادت المغارم ، وذهب إلى لقاء ربه قبل مجيء الغنائم ، اختاره اللَّه شهيداً بين يديْ رسول اللَّه ﷺ بعد أن أسلم على يديه : أُسَيْد بن حُضَيْر الذي تنزَّلت الملائكة لتلاوته القرآن وسعد بن معاذ الذي اهتزَّ لموته عرش الرحمن . . . مصعب غرَّة فتيان قريش ، وأوفاهم بهاء وجمالاً وشباباً ، ولؤلؤة أهل مكة ومجالسهم وندواتهم ، وبعد الإسلام صار أسطورة من أساطير الإيمان والفداء ، قصة حياته لبني الإنسان جميعًا .

(١) لاقى ما لاقى من أُمِّه وقد كان فتاها المُدَلَّل ، هاجر إلى الحبشة ، مصعب الذي كانت ثيابه كزهور الحديقة ، نضرة وألقًا وعطرًا ، يرتدي بعد ذلك المرقع البالي ، خرج من النعمة الوارفة إلى شظف العيش والفاقة ، وأصبح الفتى المتأنِّق المعطَّر لا يُرى إلا مرتديًا أخشن الثياب ، يأكل يومًا ويجوع يومًا ، ولكن روحه المتأنقة بسموِّ العقيدة ، والمتألقة بنور اللَّه ، جعلت منه إنسانًا يملأ العين إجلالاً والأنفس روعة .

(٢) اختاره رسول اللَّه ﷺ لأعظم مهمة في حينها ، أن يكون سفيره إلى المدينة ، يفقِّه الأنصار الذين آمنوا وبايعوا الرسول ﷺ عند العقبة ، ويفتح المدينة بالقرآن ، ويُعِدّها ليوم الهجرة العظيم ، وقد كانت هذه السفارة أخطر قضايا الساعة ، وأُلقي بين يدي مصعب بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون دار الهجرة وحمل مصعب الشاب ـ مصعب الخير ـ الأمانة ، ونجح نجاحًا منقطع النظير ، نجاحًا هو له أهل ، وبه جدير .

قال البراء : أول من قدم علينا : مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال ـ رضي اللَّه عنهم ـ ، رواه البخاري .

في مثل هدوء البحر وقوَّته ، وتهلُّل ضوء الفجر ووداعته ، انساب نور الإيمان على يدي مصعب إلي سادات الأنصار : أسيد بن حضير ، وسعد ابن

معاذ ، وسعد بن عبادة . . . شاب يقود ويُسَيِّر جبال الإيمان ، ويكون في ميزان حسناته الأنصار من الأوس والخزرج .

ويشهد مصعب غزوة بدر لينال شرف البدرية . . . وفي يوم أُحد حامل اللواء .

قال ابن سعد : « حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أُحد فلما جال المسلمون ثبت به مصعب ، فأقبل ابن قمئه وهو فارس ، فضربه على يده اليمنى فقطعها ، ومصعب يقول : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنا عليه فضرب يده اليسرى فقطعها ، فحنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنقذه واندَقَّ الرمح ، ووقع مصعب ، وسقط اللواء . . . ووقع مصعب كوكب الشهداء ، ومن كان ذكره عطر الحياة .

قال أبو وائل : عُدْنا خبَّابًا فقال : هاجرنا مع النبي ﷺ نريد وجه اللَّه ، فوقع أجرنا على اللَّه ، فمنا من مضى لم يأخذ من أجره شيئًا ، منهم مصعب بن عمير ، قتل يوم أحد وترك نَمِرة ، فكنا إذا غطَّينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجْلَيه بدا رأسه ، فأمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه شيئًا من إذخر ، ومنا من أينعت ثمرته فهو يَهْدِبُها[(١)] [(٢)] .

وعن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم ، أن عبد الرحمن بن عوف - رضي اللَّه عنه - : أُتي بطعام وكان صائمًا ، فقال : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني ، كُفِّنَ في بردة إن غُطِّي رأسه بدت رجلاه ، وإن غُطِّي رجلاه

(١) يهدبها : يجتنيها .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ، وأحمد وأبو داود ، وابن سعد .

بدا رأسه ، أو قال : أُعطينا من الدنيا ما أُعطينا ، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عُجِّلت لنا ، ثم جعل يبكي حتىٰ ترك الطعام ، رواه البخاري .

زيد بن ثابت : جامع القرآن ـ رضي اللّه عنه ـ :

عن قتادة عن أنس ـ رضي اللّه عنه ـ قال : جمع القرآن علىٰ عهد النبي ﷺ أربعة كلهم من الأنصار : أُبَيّ ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد بن ثابت ، قلت لأنس : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي[1] .

« حين تُنثر زهور التكريم علىٰ ذكرىٰ المباركين ، الذين يرجع إليهم فضل جمع القرآن وترتبه وحفظه ، فإن حظ زيد بن ثابت من تلك الزهور لحظ عظيم ، فقد ادَّخرت له المقادير شرف مهمة من أنبل المهام في تاريخ الإسلام كله ، مهمة جمع القرآن الكريم وهوشاب .

عن زيد بن ثابت ـ رضي اللّه عنه ـ قال : أرسل إليَّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر ـ رضي اللّه عنه ـ : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُرَّاء القرآن ، وإني أخشىٰ إن استحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القراء ، وإني أرىٰ أن تأمر بجمع القرآن : قلت لعمر : كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول اللّه ﷺ ؟ قال عمر : هذا واللّه خير ، فلم يزل عمر يُراجعني حتىٰ شرح اللّه صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأىٰ عمر ، قال زيد: قال أبو بكر : إنك لرجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتُبُ الوحي لرسول اللّه ﷺ فَتَتَبَّع القرآن فاجمعه ، فو اللّه لو كلفوني نقل جبل

---

(١) رواه البخاري ، والترمذي ، وأحمد وأبو يعلي ، والطيالسي ، والنسائي في « الفضائل » .

من الجبال ، ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : هو واللَّه خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني ، حتىٰ شرح اللَّه صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال ، حتىٰ وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع غيره ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه من عنتم** ﴾ حتىٰ خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتىٰ توفاه اللَّه ، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ(١) .

ومثل ما حدث مع أبي بكر حدث مع عثمان : فعن ابن شهاب ، أن أنس بن مالك حدَّثه أن حذيفة بن اليمان قدم علىٰ عثمان وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أميرالمؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارىٰ ، فأرسل عثمان إلىٰ حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلىٰ عثمان فأمر زيد بن ثابت ، عبد اللَّه بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتىٰ إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، رد عثمان الصحف إلىٰ حفصة ، فأرسل إلىٰ كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو

---

(١) رواه البخاري ، والترمذي ، وأحمد ، وأبو يعلىٰ ، والطيالسي .

مصحف ، أن يُحرق ، (رواه البخاري) .

قال ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ ، أن زيد بن ثابت من الراسخين في العلم .

الحسن والحسين سيدا أهل الجنة :

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة** »(١) .

وعن ابن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «**هما ريحانتاي من الدنيا** »(٢) .

وعن أبي بكرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ، ينظر إلى الناس مرَّة وإليه مرَّة ويقول : « **إنّ ابني هذا سيد، ولعل اللّه أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين** »(٣) .

فرضي اللَّه عمن درجا في بيت النبـوة وحجر جدهمـا سيد البشر ﷺ . . . رضي اللَّه عن الحسن بن علي ، أشبه الناس بالنبي ﷺ ، الذي حقن اللَّه علي يديه دماء المسلمين ، وإن جماجم أهل العراق تسير بين يديه، ورضي اللَّه عن الحسين بن علي ، الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر حتى القتل ، نبراسًا لأهل الحق الثابتين على مبادئهم .

* * *

---

(١) حسن : أخرجه أحمد ، والترمذي ، وقال : هذا حسن صحيح ، والحاكم ، وأبويعلي ، والنسائي ، في « فضائل الصحابة » ، وابن أبي شيبة في « المصنف » .

(٢) رواه البخاري والترمذي وأحمد ، والنسائي في « الخصائص » ، والطيالسي وابن أبي شيبة .

(٣) رواه أحمد ، والبخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، والترمذي .

الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ـ رضي الله عنه ـ :

الصحابي الجليل . . . من السباقين إلى الإسلام ، كانت داره مأوى للنور والرسالة ، وقد استخفى النبي ﷺ في داره، وإذا ذُكر البيت والدار الذي احتضن الدعوة بواكيرها . . . ذُكر بيت الأرقم . . . وترضى الناس عن صاحبها مثال الشاب الذي يغمر النور قلبه وبيته .

جعفر الطيار أبو المساكين ... المجادل في شبابه عن هذا الدين :

يا لجلال شبابه ، ويا لنضرة إهابه ، فيه كل رائعة من روائع الحسن والفضيلة والعظمة ، أشبه الناس بالرسول ﷺ خَلْقاً وخُلُقًا . . . طائر الجنة الغرِّيد . . . عظيم من عظماء الرعيل الأول الذين أسهموا أعظم إسهام في صوغ ضمير الحياة .

أقبل على الرسول ﷺ مؤمنًا ، آخذًا مكانه العالي بين المؤمنين المبكرين وحمل نصيبه من الأذى ومن الاضطهاد . . . وفي الحبشة كان ـ رضي الله عنه ـ المتحدث اللبق باسم الإسلام ورسوله .

ولئن كان يوم « مؤتة » الذي استُشهد فيه« الطيَّار » أروع أيامه وأمجدها وأخلدها . . . فإن يوم « المحاورة التي أجرها أمام النجاشي بالحبشة ، لن يقلَّ روعة، ولا بهاء ، ولا مجدًا . . . لقد كان يومًا فذًا ومشهداً عجبًا [1].

وصنع جعفر لنفسه موتة من أعظم موتات البشر . . . لقي ربَّه الكبير المتعال ، مضمَّخًا بفدائيته ، مدثَّرًا ببطولته .

* * *

---

(١) « رجال حول الرسول » لخالد محمد خالد (ص٢٨٧) .

معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن الحارث « معاذ بن عفراء » ومعوذ بن الحارث قتلة فرعون هذه الأمة أبي جهل :

عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « إني لواقف يوم بدر في الصف ، فنظرت عن يميني وعن شمالي ، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار ، حديثة أسنانهما ، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما ، فغمزني أحدهما ، فقال : يا عم ، أتعرف أبا جهل ؟ قلت : نعم ، وما حاجتك إليه؟ قال : أُخبرت أنه يسبُّ الرسول ﷺ ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا .

فتعجبت لذلك ، فغمزني الآخر ، فقال لي أيضًا مثلها ، فلم أنشب نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه ، فابتداره بسيفيهما ، فقال : « كلاهما قتله » .

وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء»[1] .

وعند البخاري عن عبد الرحمن بن عوف : « لإني لفي الصف الأول يوم بدر إذ التفتُّ عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السنّ ، فكأني لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عمّ أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ، ماذا تصنع به ؟ قال : عاهدت اللَّه إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ، وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله ، قال : فما سرَّني أنني بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما فشدًّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، هما ابنا عفراء « أي معاذ ومعوذ » صقران نشأ في عبادة اللَّه وجندلا رأس

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

الكفر وفرعون هذه الأمة .

يُسَرُّ بصنيعهما رسول اللّه ﷺ وخرساجداً كما جاء عند البيهقي .

عبد اللّه بن الزبير أمير المؤمنين ابن الحواري ... المقدم في العلم والجهاد والعبادة :

المُحَنَّكُ بريق النبوة . . . ومن مثله نشأ بين الزبير وأسماء والصديق وعائشة : جاء وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايع الرسول اللّه ﷺ ، وأمره بذلك الزبير ، فتبسَّم الرسول ﷺ حين رآه مقبلاً إليه ، ثم بايعه .

قال الذهبي : « عداده في صغار الصحابة ، وإن كان كبيراً في العلم والشرف والجهاد والعبادة » .

قالت عنه أسماء بنت أبي بكر : إنه قوَّام الليل ، صوَّام النهار ، وكان يُسمَّى حمام المسجد .

قال عثمان بن طلحة عنه : كان ابن الزبير لا يُنازع في ثلاثة : شجاعة، ولا عبادة ، ولا بلاغة[1] .

وكان إذا صلى فكأنه خشبة منصوبة لا تتحرك .

وعن ابن أبي مليكة قال : « كان ابن الزبير يواصل سبع أيام ، ويصبح في اليوم السابع وهو أَلْيَثَنَا »[2] .

وفي السادسة والعشرين من عمره ، يقتل ابن الزبير ملك إفريقية «جُرْجير» قال الحافظ ابن حجر : « وشهد ابن الزبير فتح (إفريقية) أيام

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (٣/ ٣٧٠) .

(٢) رواه الحاكم (٣/ ٥٤٩) ، أليثنا : أي كأنه ليث .

عثمان بن عفان تحت لواء عبد اللَّه بن سعد بن أبي السرح ، وكان الفتح على يديه»[١] .

قال ابن الزبير : « هجم علينا جرجير في عشرين ألف ومائة ، فأحاطوا بنا ونحن في عشرين ألفًا »[٢] .

« سيَّر عثمان ابن الزبير في جماعة إلى إفريقية ، سنة ست وعشرين الهجرية ، ليأتيه بأخبار الفتح ، فسار مُجِدًّا حتى وصل إلى المسلمين هناك وأقام معهم ، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين ، فسأل «جرجير» ملك إفريقية عن الخبر ، فقيل : « قد أتاهم عسكر» ففتَّ ذلك في عضده ، ورأي عبد اللَّه قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر ، فلما أذنّ سمع منادي « جرجير » يقول : « من قتل عبد اللَّه بن سعد فله مائة ألف دينار ، وأزوِّجُه ابنتي .

فخاف عبد اللَّه على نفسه ، فحضر ابن الزبير عند عبد اللَّه بن سعد وقال له : تأمر مناديًا ينادي : من أتاني برأس « جرجير » نفَّلته مائة ألف ، وزوجته ابنته ، واستعملته على بلاده ، ففعل فصار « جرجير » يخاف أشد من عبد اللَّه بن سعد ، ثم إن عبد اللَّه بن الزبير قال لعبد اللَّه بن سعد : إن أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم في أمداد متصلة ، وبلاد هي لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ، ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن نجد أن ينضجروا ويملُّوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ،

---

(١) « الإصابة » لابن حجر (٤/ ٧١) .
(٢) « السير » (٣/ ٣٧١) .

ركب مَنْ كان في الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال ، وهم مستريحون ، ونقصدهم على غِرَّة ، فلعل اللَّه ينصرنا عليهم ، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوا على ذلك .

وفي صباح الغد نفذ ابن سعد خطة ابن الزبير هذه ، فأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجة ، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً ، وهمَّ الروم بالانصراف على العادة ، لم يتركهم ابن الزبير وألَّح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبًا . . . عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكبَّروا ، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون ، ونظر عبد اللَّه فرأى « جرجير » وقد خرج من عسكره ، فأخذ معه جماعة من المسلمين وقصده فقتله »[1] .

فقد رأى ابن الزبير « جرجير » وراء عسكره على برذون أشهب ، ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس ، وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد ، فاختار ثلاثين فارسًا من المسلمين وأخذهم معه . . . ثم حمل في الوجه الذي فيه « جرجير » وقال للفرسان الذين معه : احموا ظهري . . . فخرق الصف إلى جرجير ، وخرج صامداً له ، فعرف الشر ، فثنى برذونه موليًا ، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه ، ودافَّه[2] بالسيف ، وحزَّ رأسه ، ونصبه في رمح ، وكبَّر . . . فحمل المسلمون من الوجه الآخر ،

---

(١) « أسد الغابة » (٣/ ١٦٢) ، و« الكامل » لابن الأثير (٣/ ٣٤) .
(٢) دافَّه : أي أجهز عليه .

فانهزم العدو في كل وجهة ، ومنح اللَّه المسلمين أكتافهم »[١] .

ولقد قاتل ـ رضي اللَّه عنه ـ يوم الدار دفاعًا عن عثمان ، فجُرح بضعة عشر جرحًا غائرة ، يقول : وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات ، فأرجو أن تكون خيرأعمالي .

قال الذهبي في « السير » (٣/ ٣٧٧) : « قد كان يُضرب بشجاعته المثل» .

ملكنـــا هذه الدنيـــا القرونـــا ... وأخضعهـا جـــــدود خالدونـــا

وسطَّرنا صحـــائف من ضيـــــاء ... فما نسي الزمـــان ولا نسينـــا

بنينا حقبـــة في الأرض مُلكــًا ... يُدَعِّمُــهُ شــباب طامحونـــا

شــباب ذلَّلُـــوا سُبُل المعـــالي ... وما عرفوا سوى الإسلام دينـــا

تعهـــدهم فأنبتـــهم نباتـــًا ... كريمًا طاب في الدنيا غصونـــا

إذا شهـدوا الوغى كانـوا كمـــاة ... يدكُّون المعاقل والحصونـــا

شباب لم تُحطِّمـــه الليالـــي ... ولم يُسلم إلى الخصم العرينـــا

وإن جنَّ المســــاء فلا تراهـــم ... من الإشفاق إلا ساجدينـــا

كذلك أخرج الإســـلام قومـــي ... شبابا مخلصًا حـــرًا أمينـــا

* * *

(١) « تهذيب ابن عساكر » (٧/ ٤٠١ ـ ٤٠٢) .

زُهْرَة بن الحَوِّية التميمي : فاتح ما بين القادسية والمدائن وقاتل الجالينوس أحد ملوك الفرس :

زهرة وما أدرك ما زهرة . . . واللّه إن خبره أطيب من أريج الزهور . . الصحابي الجليل . . . الشاب الذي تول قيادة الجيوش في عهد عمر ، وبذل جهده في محاربة المرتدين من أهل البحرين حتىٰ عادوا إلىٰ الإسلام .

ويذكر التاريخ بكل الفخر لزهرة قيادته لميسرة المسلمين في معركة القادسية ، وكان لبلاء زهرة وثباته أثر كبير في انتصار المسلمين علىٰ الفرس في تلك المعركة ، لذلك كان من بين خمسة وعشرين بطلاً فضَّلهم سعد في العطاء ، لبلائهم في القادسية بلاءً مشرِّفًا .

ولما انكشف أهل الفرس أمر سعد زهرة بمطاردتهم ، فخرج علىٰ رأس المقدمة في آثارهم ، فأدرك الجالينوس يحمي انسحاب قوات فارس عند «الخرَّارة» فدهمه زهرة ومن معه ، فحمل علىٰ الجالينوس ، وهو لا يعرفه ، فطاعنه ، فاختلفا ضربتين ، ثم قتله زهرة ، وانهزم عن جالينوس أصحابه ، وأخذ زهرة سلبه ، وكان عليه ياراقان ـ أساور تلبس في العضد ـ ومُلْبان قُرْطان ، وإن حصان زهرة يومئذ ما عِنانه إلا حبل مضفور ، وما حزامه إلا شعر منسوج ، وحين عاد زهرة من المطاردة ، كان قد تدرَّع بما كان علىٰ جالينوس ، فعرفه الأسرة الذين كانوا عند سعد ، وقالوا : هذا سَلَبَ جالينوس ، فقال له سعد : هل أعانك عليه أحد ؟ قال : نعم ، قال : من؟ قال : اللّه ، وكان زهرة يومئذ شاب له ذؤابة ، وقد سُوِّد في الجاهلية وحسن بلاؤه في الإسلام ، وغضب سعد أن تسرَّع زهرة فلبس ما كان علىٰ جالينوس ، فنزعه عنه وقال : ألا انتظرت إذني[1] .

(١) « تاريخ الطبري » (٣/ ٥٦٧) ، (٣/ ٥٦٨) .

وكتب زهرة إلىٰ عمر في هذا الشأن ، فكتب عمر بن الخطاب إلىٰ سعد في شأن زهرة : « أنا أعلم بزهرة منك . . . تَعْمِد إلىٰ مثل زهرة وقد صَلِي بمثل ما صَلِي به ، وقد بقي عليك من حربك ما بقي ، تكسر قرنه وتفسد قلبه ؟! أمض له سلبه وفضِّله علىٰ أصحابه عند العطاء بخمسمائة . . . » .

وكان زهرة علىٰ مقدمة الجيش الذي فتح ما بين القادسية والمدائن ، وقد نجح زهرة في هذا نجاحًا باهرًا يدعوا إلىٰ الإعجاب الشديد ببطولته النادرة التي تجعله في مصاف أبطال الحروب في التاريخ . . . وأعانه علىٰ ذلك شبابه وحيويته وإيمانه ، فرضي اللَّه عن زهرة ، فلرب يوم من أيام المسلمين ، قد حَسُن فيه بلاؤه ، وعظم فيه غناؤه ، ولرب خيل للمشركين قد هزمها ، وسرية لهم قد أغارها وقرية من قراهم قد افتتحها .

محمد بن القاسم الثقفي : فاتح السند والهند وعمره سبعة عشر عاماً:

للَّه دره من عبقري تمسك بذروة سنام الإسلام ، أرسله الحجاج لغزو السند فأتىٰ « فنزبور » ففتحها ، ثم « أرمائيل » ففتحها ، ثم حاصر «الديبل» وبها معبد الهنادكة الأكبر « البد » وفتح المدينة عُنوة ، وهرب ملكها داهر ، وسار إلىٰ « النيرون » فصالحه أهلها ، وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها ، وصالحه أهل « سربيدس » ثم سار إلىٰ « سهبان » ففتحها ، ثم صالحه علىٰ «سدوستان» وسار إلىٰ بلاد الملك « راسل » ملك قصة من الهند ، وهناك التقىٰ مع « داهر » وقُتِل داهر ، وقتل المسلمون رجال داهر كيف شاءوا ، ولمَّا قُتِل داهر ، غلب محمد علىٰ بلاد السند ، ففتح « رأور » عُنوة ، وسار شمالاً حتىٰ فتح « برهمنآباد » وبها المنهزمون من أصحاب داهر ، ففتحها

محمد وقتل بها بشرًا كثيرًا وخرَّبها ، ثم سار إلىٰ « ساوندري » فصالحه أهلها ، ثم صالح أهل « بسمد » ، وسار عنها إلىٰ « الرور » فحاصرها شهور ، ثم فتحها صلحًا ، ثم صار إلىٰ « السكة » ففتحها ، ثم سار إلىٰ مدينة « المُلتان » أعظم مدن السند الأعلىٰ وأقوىٰ حصونها ، وبها صنم يعظمه الهنود ، وتحج إليه من أقصىٰ بلدانها ، ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، فامتنعت عليه شهورًا ، وقاتله أهلها فانهزموا ، ولما قطع مدخل الماء الذي يشربون منه ، نزلوا علىٰ حكمه ، فقتل محمد المقاتلة وسبىٰ الذرية ، وسبىٰ سدنة « البد » وهم ستة آلاف ، وكثرت الغنائم والأموال حتىٰ قال الحجاج « شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر »[1] .

وفتح محمد « الرور » و« النعرور » و« البيلمان » و« سرشت » وفتح «الكيرج» واستعد لفتح مملكة « قنوح » أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلىٰ البنغال إلا أنه عُزِل وهو يستعد لفتح قنوح ومعه عشرة آلاف فارس .

فللَّه در الشاب الضخم ، الذي سارت بذكره الركبان ، ولم يكن له نظير في عصره . . . الشاب الذي فتح السند والهند وعمرة سبع عشرة سنة .

قال فيه حمزة الحنفي :

إن المروءة والسماحة والنـــدى ... لمحمد بن القاســم بن محمـدِ
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددًا من مولـدِ

---

(١) « فتوح البلدان » للبلاذري (ص٤٢٧) ، و« الكامل » لابن الأثير (٤/ ٢٠٦) ، و« مقدمة ابن خلدون » (٣/ ٦٠ ـ ٦١) .

وقال فيه يزيد بن الأعجم :

ساس الجيوش لسبع عشـرة حجة ولِدَاته عن ذاك في أشغـال
فغدت بهم أهواؤهم وسمــت بــه هِمَمُ الملوك وسَوْرَةُ الأبطـالِ[1]

ومحمد بن المنكدر على الطريق :

قال سفيان : تعبَّد ابن المنكدر ، وهو غلام .

وعمر بن عبد العزيز اشتهر بالعلم والعقل في المدينة المنورة مع حداثة سنِّه :

جمع القرآن ـ رحمه اللَّه ـ وهو صغير ، بكى وهو غلام صغير فسألته أمه عن سر بكائه ، قال : ذكرت الموت .

وعن العتبي قال : إن أول ما استبين من عمر بن عبد العزيز ، أن أباه وَلِيَ مِصر ، وهو حديث السن يُشَكُّ في بلوغه ، فأراد إخراجه ، فقال : يا أبت ، أوَ غير ذلك ؟ لعله يكون أنفع لي ولك : تُرَحِّلُني إلى المدينة ، فأقعد إلى فقهاء أهلها ، وأتأدَّب بآدابهم ، فوجَّهه إلى المدينة ، فاشتهر بها بالعلم والعقل مع حداثة سنِّه »[2] .

وجعل اللَّه لعمر وزيراً من أهله عبد الملك ابنه :

ولد سنة ٨٢ هـ ، ومات سنة ١٠١ هـ ، وهو في التاسعة عشرة من عمره ، مات شابًا في زهرة شبابه ، زهرة نضرة لم تعرف آثام الحياة ، ماءً صافيًا يتدفق حكمة وزهدًا .

---

(١) انظر : كتاب « محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند » ، للواء الركن محمود شيت خطاب ، دار قتيبة .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٥/١١٦ـ١١٧) .

وينشأ ناشئ الفتيان منّا على ما كان عوّده أبوه

نعم الفتى المكتهل ، الذي كان قائدًا مع أبيه لأمة انحرفت عن السبيل ، كان عونًا لأبيه ، ولمّا يتجاوز السادسة عشرة ، كان ـ رحمه اللَّه ـ ابن أم ولد ، قد أُعجب به والده أيما إعجاب .

قال ابن رجب الحنبلي : لقد كان ـ رحمه اللَّه ـ مع حداثة سنه ، مجتهدًا في العبادة ، ومع قدرته على الدنيا وتمكنه منها ، راغبًا مؤثرًا للزهادة ، فعسى اللَّه أن يجعل في سماع أخباره لأحد من جنسه أسوة ، لعل أحدًا كريمًا من أبناء الدنيا تأخذه بذلك حميَّة على نفسه ونخوة ، وأيضًا ففي ذكر أمثال أخبار هذا السيد الجليل مع سنِّه ، توبيخ لمن جاوز سنَّه وهو بطَّال ، ولمن كان بعيدًا عن أسباب الدنيا وهو إليها ميَّال »[1] .

روى الحافظ أبو نعيم في « حلية الأولياء » عن بعض مشيخة أهل الشام قال : كنا نرى أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك .

وروى الإمام أبوعبيد القاسم بن سلام بسنده في كتاب « فضائل القرآن » عن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان ـ وهو ابن أخي عمر ابن عبد العزيز ـ قال : وفدت إلى سليمان بن عبد الملك ، ومعنا عمر بن عبد العزيز ، فنزلت على ابنه عبد الملك ، وهو عزب ، فكنت معه في بيت ، فصلينا العشاء ، وأوى كل رجل منا إلى فراشة ، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه ، ثم قام يصلي ، حتى ذهب بي النوم ، فاستيقظت فإذا هو في هذه الآية : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا**

---

(١) « سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز » لابن رجب الحنبلي (ص٢٨ ـ ٢٩) دار ابن حزم .

يُوعَدُونَ ﴾ (١) ، فيبكي ، ثم يرجع إليها ، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك ، حتىٰ قلت : سيقتله البكاء ، فلما رأيت ذلك قلت : لا إله إلا اللَّه والحمد للَّه ، كالمستيقظ من النوم ، لأقطع ذلك عليه ، فلما سمعني سكت فلم أسمع له حسًا ، ـ رحمه اللَّه ـ .

وفي كتاب الدورقي « مناقب عمر بن عبد العزيز » : أن عمر بن عبد العزيز جمع الناس واستشارهم في رد مظالم الحَجَّاج ، فكان كلما استشار رجلاً قال له : يا أمير المؤمنين ، ذاك أمر كان في غير سلطانك ولا ولايتك ، فكان كلما قال رجل ذلك أقامه ، حتىٰ خلص بابنه عبد الملك ، فقال له ابنه عبد الملك : يا أبهْ ما من رجل استطاع أن يردَّ مظالم الحجَّاج إن لم يردَّها أن يُشركه فيها .

فقال عمر : لو لا أنك ابني لقلتُ : إنك أفقه الناس .

وفي رواية : قال عبد الملك : أرىٰ أن تردَّها ، فإن لم تفعل كنت شريكًا لمن أخذها .

وعن ميمون بن مهران قال : دخلت علىٰ عبد الملك ، فحضر طعامه ، فأتي بقَلْية مدنية وهي عظام اللحم ، ثم أتي بثريدة قد مُلئت خبزًا وشحمًا ، ثم أتي بزبد وتمر ، فقلتُ : لو كلَّمت أمير المؤمنين يخصّك منه بخاصة ، فقال : إني لأرجو أن يكون أوفىٰ حظًا عند اللَّه من ذلك ، فقلت لنفسي : أنت لأبيك ، ودخل عليه مرة أخرىٰ ، فإذا بين يديه مائدة عليها ثلاثة أرغفة وقصعة فيها خل وزيت .

* * *

(١) سورة الشعراء الآيتان (٢٠٥ـ٢٠٦) .

ما تُغني سعة جوفي إن لم أردّ فيه الغضب :

عن إسماعيل بن أبي الحكم قال : غضب عمر بن عبد العزيز يومًا فاشتد به غضبه ـ وكان فيه حِدَّة ـ وعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حاضر ، فلما سكن غضبه ، قال : يا أمير المؤمنين ! أنت في قدر نعمة اللَّه عليك فهو موضعك الذي وضعك اللَّه به وما ولاَّك من أمر عباده ، يبلغ بك الغضب ما أرئ ؟ قال : كيف قلت ؟ فأعاد عليه كلامه ، فقال له عمر : أما تغضب يا عبد الملك ؟ قال : ما تغني سعة جوفي إن لم أردَّ فيه الغضب ، حتىٰ لا يظهر منه شيء أكرهه ، قال : وكان له بُطَيْن ـ رحمه اللَّه تعالىٰ ـ .

وعن الدورقي أنه قال لأبيه : لا والذي أكرمك بما أكرمك به ، إنْ ملأني غضب قط .

والمعنىٰ : ما ملأني الغضب قط .

وعن أبي الدنيا : أن عمر بن عبد العزيز أمر غلامه بأمر ، فغضب عمر ، فقال له عبد الملك : يا أبتاه ! وما هذا الغضب والاختلاط ؟! فقال عمر : إنك لتتحلَّم يا عبد الملك ؟ فقال له عبد الملك : لا واللَّه ما هو التحلُّم ولكن الحِلم .

قال ابن رجب الحنبلي : ومراد عبد الملك ـ رحمه اللَّه ـ : أن الحلم عنده صفه لازمة له ، وهو مجبول عليها ، ولا يحتاج أن يتعاطاه ويتكلفه من غير أن يكون عنده حقيقة .

قال عمر بن عبد العزيز : لولا أن يكون زُيِّن لي من أمر عبد الملك ما يُزَيَّنُ في عين الوالد من ولده لرأيت أنه أهل للخلافة .

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال : جلس عمر بن عبد العزيز يومًا للناس ، فلما انتصف النهار ضجر وعلَّ وملَّ ، فقال للناس : شأنكم ، حتىٰ

أنصرف إليكم ، فدخل يستريح ساعة ، فجاء ابنه عبد الملك فسأل عنه ، قالوا : دخل ، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فلما دخل ، قال : يا أمير المؤمنين! ما أدخلك ؟ قال : أردت أن أستريح ساعة ، قال : أَوَ أَمِنْتَ الموت أن يأتَيك ، ورعيتك ينتظرونك وأنت محْتَجِب عنهم ؟ فقام عمر من ساعته وخرج إلىٰ الناس .

ورویٰ أبو بكر الآجري : أنه لما دُفن سليمان بن عبد الملك ، خطب الناس ونزل ، ثم ذهب يتبوَّأ مقيلاً ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ لك أن تعيش إلىٰ الظهر ؟! قال : اُدْن مني أي بُني ، فدنا منه والتزمه وقبَّل بين عينيه ، وقال : الحمد اللَّه الذي أخرج من صُلبي من يُعينني علىٰ ديني ، فخرج فلم يَقِل ، وأمر مناديًا أن ينادي : ألا من كان له مظلمة فليرفعها .

وعن يحيىٰ بن إسماعيل قال : مات ابن لعمر بن عبد العزيز فجاء عمر فقعد عند رأسه وكشف الثوب عن وجهه ، فجعل ينظر إليه ويستدمع ، فجاء عبد الملك ابنه ، فقال : أشَغَلك يا أمير المؤمنين ، ما أقبل من الموت إليك ؟! بل وهو في شغل عمَّا حلَّ لديك ، فكأن قد لحقت به وساويته تحت التراب بوجهك .

فبكىٰ عمر ثم قال : رحمك اللَّه يا بني ، فواللَّه إنك لعظيم البركة ـ ما علمتك ـ علىٰ أبيك ، نافع الموعظة لمن وَعَظْتَ ، وايم اللَّه ، إن كان الذي رأيتَ من جزعي علىٰ أخيك ، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل داري فراعني دخوله ، فكان الذي رأيت .

وجمع عمر بن العزيز قُرَّاء الشام وفيهم ابن أبي زكريا الخزاعي ، فقال : إني قد جمعتكم لأمر : قد أهمَّتني هذه المظالم التي في أيدي أهل بيتي ، ما ترون فيها ؟ قالوا : ما نرىٰ وزرها إلا علىٰ من غصبها قال : فقال

عبد الملك : ما أرىٰ من قَدر علىٰ أن يردَّها فلم يردَّها والذي غصبها إلا سواء ، فقال : صدقت يا بُني ، ثم قال : الحمد اللَّه الذي جعل لي وزيراً من أهلي عبد الملك ابني .

وقال عمر بن العزيز يوماً لمولاه مزاحم : إن هؤلاء القوم - يعني بني عمه الخلفاء الذين كانوا من قبله - قد أعطونا عطايا ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك صار إليَّ ، وليس عليَّ فيما دون اللَّه محاسب .

فقال له مزاحم : يا أمير المؤمنين هل تدري كم عيالك ، هم كذا وكذا؟!

فذرفت عيناه ، فجعل يستدمع ويقول : أَكِلُهُم إلىٰ اللَّه عز وجل ، ثم انطلق مزاحم من ساعته في وجهه ذلك ، حتىٰ استأذن علىٰ عبد الملك بن عمر ، فأذن له ، وقد اضطجع للقائلة .

فقال له عبد الملك : ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة؟ هل حَدَثَ مِنْ حَدَث ؟

قال : أشد الحدث عليك وعلىٰ بني أبيك .

قال : وما ذاك ؟ قال : دعاني أمير المؤمنين ، فذكر له ما قال عمر .

فقال عبد الملك : فما قُلْتَ له ؟

فقال : قلت : يا أمير المؤمنين ، هل تدري كم عيالك ، هم كذا وكذا؟!

قال : فما قال لك ؟

قال : جعل يستدمع ويقول أَكِلُهُم للَّه عز وجل .

فقال عبد الملك : بئس وزير الدين أنت يا مزاحم ، ثم وثب وانطلق عبد الملك إلىٰ باب عمر ، فاستأذن عليه ، فقال الآذن : إن أمير المؤمنين قد وضع رأسه للقائلة .

فقال : استأذنِ لي لا أُمَّ لك ، قال : فسمع عمر الكلام ، فقال : ما هذا ؟ قال : عبد الملك ، قال : ائذن له .

فدخل عليه وقد اضطجع للقايلة ؟ فقال : ما حاجتك يا بُني هذه الساعة ؟

قال : حديث حدثنيه مزاحم .

قال : فأين وقع رأيك من ذلك ؟

قال : وقع رأيي على إنفاذه .

قال : فرفع عمر يديه وقال : الحمد اللَّه الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ، نعم يا بني أصلي الظهر ، ثم اصعد على المنبر وأردها علانية على رءوس الناس .

فقال عبد الملك : ومَنْ لك بالظهر يا أمير المؤمنين ، ومَنْ لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر ؟

فقال عمر : قد تفرَّق الناس ورجعوا للقائلة .

فقال عبد الملك : تأمر مناديك ينادي : الصلاة جامعة ، فيجتمع الناس، ففعل مثلما قال عبد الملك ، فجعل يرددها فما زال كذلك حتى نودي لصلاة الظهر .

والمراد من هذه الحكاية : أن عبد الملك حثَّه على فعل ذلك وعلى المبادرة إليه ، حين عزم عليه ، خشية أن تنفسخ عزيمته عن ذلك إن أخره إلى صلاة الظهر أو يموت قبل فعله .

وروى أبو نعيم بإسناده أن عبد الملك دخل على أبيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقًا لم تُحْيِه وباطلاً لم تُمتْه؟! .

وفي رواية : ماذا أنت قائل لربك غداً إذا سألك فقال : رأيت بدعةً فلم

تُمِتْها وسنة لم تُحْيِها ؟

هوان نفسه عليه في ذات اللَّه :

قال ميمون بن مهران : قال عبد الملك بن عمر لأبيه يومًا : يا أبه ، ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فواللَّه ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك .

وقال الربيع بن سبْرة : قال عمر بن العزيز يومًا : واللَّه لوددت لو عدلت يومًا واحدًا ، وأن اللَّه توفَّىٰ نفسي .

فقال ابنه عبد الملك : وأنا واللَّه لوَدِدْتُ لو عَدَلْت فُواق ناقه ، وأن اللَّه توفَّىٰ نفسي .

فقال عمر : آللَّه الذي لا إله إلا هو ؟ فقال عبد الملك : اللَّه لا إله إلا هو ، ولو جاشت بي وبك القدور .

فقال عمر : جزاك اللَّه خيرًا .

قال ابن رجب : « العارفون باللَّه المحبون للَّه ، يرضون بما تقضيه مقاديره ، وإن كانت شاقة علىٰ النفوس مؤلمة لها ، ويتلذذون بذلك ، ولا سيما إن كان أذاهم في تنفيذ أوامر اللَّه والدعاء إلىٰ طاعة اللَّه ، وكان هذا مقام عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك ـ رضي اللَّه عنه ـ »[١] .

وقال عمر بن العزيز لعبد الملك : ما كنت أحبُّ أن أراه فيك إلا قد رأيته ، إلا شيئًا واحد .

قال : ما هو ؟ قال : مَوْتُك .

قال : أراكه اللَّه ، فأصابه الطاعون في خلافة أبيه فمات قبل أبيه ،

---

(١) « سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز » (ص٦٤) .

ووقف عمر على قبره وقال : رحمك اللَّه يا بني ، فلقد كنت برًّا بأبيك ، وما زلت منذ وهبك اللَّه لي مسروراً ، ولا واللَّه ما كنت أشد سروراً ولا أرجى لحظِّي من اللَّه فيك ، منذ وضعتُك في الموضع الذي صيَّرك اللَّه إليه ، فرحمك اللَّه ، وغفر ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئه ورحم كل شافع يشفع لك من شاهد وغائب ، رضينا بقضاء اللَّه ، وسلَّمنا لأمره ، والحمد للَّه رب العالمين » .

قال سيَّار بن الحكم خادم عمر : « قال ابن لعمر بن عبد العزيز يقال له : عبد الملك ـ وكان يفضل على أبيه عمر ـ يا أبَه ، أقم الحق ولو ساعة من نهار .

وروى الدوري بإسناده له : أن عمر قال لابنه عبد الملك ذات يوم : يا عبد الملك ، إني أخبرك خبراً : لا واللَّه إنْ رأيت فتىً ماشيًا قط أنسك منك نسكًا ولا أفقه فقهًا ولا أقرأ منك ، ولا أبعد من صبوة في صغير ولا كبير[1] .

فتى الفتيان وسيد العباد والرهبان ، السختياني أيوب بن كيسان :

قال عنه الحسن : أيوب سيد شباب أهل البصرة .

وقال عنه الحسن أيضًا : سيد الفتيان .

وهذا سفيان بن عيينة ، لَقِيَ ستة وثمانين من التابعين ، وكان يقول : ما رأيت مثل أيوب ، كان ـ رحمه اللَّه ـ آية في شبابه ، وامتد به العمر حتى حجَّ أربعين حجة ، وكل أفعاله عجب .

---

(١) « سيرة عبد الملك بن عمر » (ص٧٦) ، و« الصبوة » : جهلة الفتوة واللهو من الغزل ومنه التصابي .

مالك بن أنس يجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة :

قال عنه الذهبي : « طلب العلم وهو حدث ، وتأهَّل للفُتيا ، وجلس للإفادة وله إحدىٰ وعشرون سنة وحدَّث عنه جماعة وهو حي شاب طريّ»[١] .

للَّه دره من إمام . . . سيط العلم بلحمه ودمه منذ صغره . . . تقول له أمه منذ الصغر : اذهب فاكتب العلم . . . اذهب إلىٰ ربيعه فتعلَّم من أدبه قبل علمه .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ حريصًا منذ صباه علىٰ استحفاظ ما يكتب ، حتىٰ أنه بعد سماع الدرس وكتابته يتبع ظلال الأشجار ، يستعيد ما تلقَّىٰ ، ولقد رأته أخته كذلك ، فذكرته لأبيها ، فقال لها : يا بُنَيَّة ، إنه يحفظ أحاديث رسول اللَّه ﷺ .

وجاء في المدارك : كان لي أخ في سن أبي شهاب ، فألقىٰ أبي علينا مسألة ، فأصاب أخي ، وأخطأت ، فقال لي أبي : ألهتك الحمام عن طلب العلم ، فغضبت ، وانقطعت إلىٰ ابن هرمز سبع سنين (وفي رواية ثماني سنين) فلم أخلطه بغيره ، وكنت أجعل في كمي تمرًا، وأناوله صبيانه ، وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ ، فقولوا : مشغول .

وكان مالك قد اتَّخذ تُبَّانا[٢] محشوّا للجلوس علىٰ باب ابن هرمز ، يتقي به برد حجر هناك ، وقيل : بل من برد صخر المسجد ، وفيه

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٤٩ ـ ٥٥) .

(٢) « التُبَّان : السراويل الصغير .

كان مجلس ابن هرمز »[١] .

قال مالك : « كنت آتي نافعًا نصف النهار ، وما تظللني الشجرة من الشمس ، أتحيَّنُ خروجه . . .

وكنت آتي ابن هرمز بكرة ، فما أخرج من بيته حتى الليل »[٢] .

الشافعي ناصر السنة وهوشاب :

رحل يطلب العلم وهو صغير ، نشأ يتيمًا وما كان له هم إلا العلم .

قال ـ رحمه اللَّه ـ لم يكن لي مال ، فكنت أطلب الحديث في الحداثة ، فكنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها » .

قال الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ : أتيت مالك بن أنس وأنا ابن ثلاثة عشر سنة ، وكان ابن عم لي والي المدينة ، فكلم لي مالكًا ، فأتيت لأقرأ عليه ، فقال : اطلب من يقرأ لك ، فقلت أنا أقرأ . قال : فقرأت عليه ، وكان ربما قال لشيء قد مر : أعد حديث كذا ، فأعيده حفظًا ، فكأنه أعجبه ، ثم سألته عن مسألة فأجابني ، ثم أخرى ، ثم أخرى ، فقال : أنت يجب أن تكون قاضيًا » .

قال الشيخ أحمد شاكر في مقدمته لكتاب « الرسالة » للشافعي :

« نبغ الشافعي في الحجاز ، وكان إلى علمائه مرجع الرواية والسنة ، وكانوا أساطين العلم في فقه القرآن ، ولم يكن الكثير منهم أهل لسن وجدل ، وكادوا يعجزون عن مناظرة أهل الرأي ، فجاء هذا الشاب يناظر وينافح ، ويعرف كيف يقوم بحجته ، وكيف يُلزم أهل الرأي وجوب اتباع

---

(١) مالك لمحمد أبي زهرة (ص٢٤ـ ٢٥) ، طبع دار الفكر العربي ، « المدارك » (١/ ١١٦) .
(٢) « الديباج المذهب » (١/ ٩٩) .

السنة ، وكيف يفصِّل للناس طرق فهم الكتاب ، وكيف يدلُّهم على الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، وعلى الجمع بين ما ظاهره التعارض . . . حتى سمَّاه أهل مكة « ناصر الحديث » ، وتواترت أخباره إلى علماء الإسلام في عصره ، فكانوا يفدون إلى مكة للحج يناظرونه ، ويأخذون عنه حياة شيوخه ، حتى أن أحمد بن حنبل جلس معه مرة ، فجاء أحد إخوانه يعتب عليه أن ترك مجلس ابن عيينة ـ شيخ الشافعي ـ ويجلس إلى هذا الفتى .

فقال له أحمد : اسكت ، إنك إن فاتك حديث بعلوّ وجدته بنزول ، وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لا تجده ، ما رأيت أحدًا أفقه في كتاب اللَّه من هذا الفتى »[١] .

ولقد جلس للإفتاء وهو لم يتجاوز العشرين من عمره ، وملأ طباق الأرض علمًا .

الثوري آتاه اللَّه الحُكم صبيًا فما ظنك بشبابه ؟! :

قال الذهبي : كان يُنَوَّه بذكر الثوري في صغره ، من أجل فرط ذكائه وحفظه ، وحَدَّث وهو شاب »[٢] .

قال ابن مهدي : رأى أبوإسحاق السبيعي سفيان الثوري مُقبلاً ، فقال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾[٣] [٤] .

قال يحيى بن أيوب العابد : حدثنا أبو المثنى فقال : سمعتهم بمرو

---

(١) مقدمة كتاب « الرسالة للشافعي » بقلم الشيخ أحمد محمد شاكر .
(٢) « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٢٣٦) .
(٣) سورة مريم الآية (١٢) .
(٤) « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٢٣٦) .

يقولون : قد جاء الثوري ، قد جاء الثوري ، فخرجت أنظر إليه ، فإذا هو غلام قد بقل وجهه »[١] .

وسفيان بن عيينة شيخ علماء الحجاز :

قال الشافعي : لولا مالك وابن عيينة لضاع علم الحجاز . . .

قال ابن عيينة : أول من جالست : عبد الكريم أبو أمية ، وأنا ابن خمسة عشرة سنة .

قال : وقرأت القرآن وأنا ابن أربعة عشرة سنة .

للَّه در إمامنا ابن عيينة نشأ في طاعة اللَّه ـ كان يذهب وهو غلام معه ألواح طويلة إلىٰ عمر بن دينار ، وفي أُذنه قُرط ، أو شنف »[٢] .

إمام أهل السنة أحمد بن حنبل :

عن إبراهيم بن شماس قال : كنت أعرف أحمد بن حنبل وهوغلام ، وهو يحيي الليل[٣] .

قال الإمام أحمد : « كنت ربما أردت البكور في الحديث ، فتأخذ أمي بثيابي ، وتقول : حتىٰ يؤذِّن الناس ، أو حتىٰ يصبحوا ، وكنت ربما بكَّرت إلىٰ مجلس أبي بكر بن عيَّاش وغيره »[٤] .

والزعفراني شيخ الفقهاء والمحدثين :

لما قدم الشافعي ، قرأ عليه الزعفراني الكتب كلها إلا كتابين « كتاب

---

(١) بقل وجهه ، وأبقل : خرج شعره .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٤٦٢) ، والشّنف : ما يُعَلَّقُ من الحُلِي في أعلىٰ الأذن ، والقُرط ما يُعَلَّقُ في أسفلها .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١١/ ٢٢٨) .

(٤) « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي (ص٥٠) .

المناسك » و« كتاب الصلاة » وما كان بعد في وجه الزعفراني شعرة .

قال الزعفراني : لما قرأت «الرسالة على الشافعي » قال لي : من أي العرب أنت ؟

قلت : لست بعربيّ ، وما أنا إلا من قرية يُقال لها الزعفرانية .

قال : أنت سيد هذه القرية [١] .

وبندار محمد بن بشار :

قال بندار : كتب عني خمسة قرون ، وحدَّثت وأنا ابن ثماني عشرة سنة .

البخاري أستاذ الأستاذين ... الفذ في صباه فكيف شبابه ؟!

أُلهم البخاري حفظ الحديث وهو في الكُتَّاب ابن عشر سنين .

قال البخاري ـ رحمه اللَّه ـ : « لما طعنت في ست عشرة سنة ، كنت قد حفظت كُتب ابن المبارك ووكيع ، وعرفت كلام هؤلاء[٢] ، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة ، فلما حججت رجع أخي بها ، وتخلَّفت في طلب الحديث »[٣] .

وقال : « لما طعنت في ثماني عشرة ، جعلت أُصنِّف قضايا الصحابة والتابعين وأقوالهم »[٤] .

---

(١) « السير » (١٢/ ٢٦٤) .
(٢) يعني أصحاب الرأي .
(٣) « تاريخ بغداد » ، و« تهذيب الكمال » (١١٦٩) ، و« طبقات الشافعية » (٢/ ٢١٦) ، و«السير» (١٢/ ٣٩٣) .
(٤) « تاريخ بغداد » (٢/ ٧) .

وكان شيخه السُّرْماري يُجلسه وهو صغير علىٰ حجره ويقول : من أراد أن ينظر إلىٰ فقيه بحقِّه وصدْقه فلينظر إلىٰ محمد بن إسماعيل » .

كان ـ رحمه اللَّه ـ وهوشاب ـ فضله علىٰ العلماء كفضل الرجال علىٰ النساء .

قال حاشد : كنا يومًا عند إسحاق بن راهويه ، وعمرو بن زرارة وهو يستملي علىٰ أبي عبد اللَّه البخاري ، وأصحاب الحديث يكتبون عنه ، وإسحاق يقول : هو أبصر مني ، وكان عبد اللَّه إذ ذاك شابًا .

للَّه در البخاري الكبش النطاح أو البازل ـ الكامل ـ كما سمَّاه أبو بكر ابن أبي شيبة ـ يصنِّف « التاريخ الكبير » في « المدينة » عند قبر الرسول ﷺ ، وهو ابن ثماني عشرة سنة . . . كتاب « التاريخ الكبير » الذي قال عنه الحافظ ابن عقدة : لو أن رجلاً كتب ثلاثين ألف حديث ، لما استغنىٰ عن تاريخ محمد بن إسماعيل .

ولما قدم البصرة وهو شاب ، نُودي : يا أهل العلم لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري ، فاجتمع إليه من الغد المحدِّثون والحفاظ والفقهاء والنظارة ، حتىٰ اجتمع قريب من كذا ألف ألف نفس ، فجلس أبو عبد اللَّه للإملاء ، فقال قبل أن يأخذ في الإملاء : يا أهل البصرة ، أنا شاب وقد سألتموني أن أحدثكم وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها ـ يعني ليست عندكم ـ يقول في كل حديث : هذا الحديث عندكم كذا فأما من رواية فلان ـ يعني التي يسوقها ـ فليست عندكم ، فتعجَّب الناس .

***

الحافظ أحمد بن الفرات الرازي عُدَّ من الحُفَّاظ وهو شاب أمرد ، ويُذكرُ بالحفظ وله ثمان عشرة سنة :

قال عنه الذهبي في « السير » (١٢/ ٤٨١) : طلب العلم في الصغر ، وعُدَّ من الحفاظ وهو شاب أمرد » .

قال أحمد بن الفرات : كتبتُ الحديث وأنا ابن اثنتي عشرة سنة .

وقال - رحمه اللَّه - : « ذُكرت بالحفظ ، وليَ ثماني عشرة سنة ، وسُمِّيت : الرُّويزي الحافظ »[1] .

قال أبو مسعود الرازي أحمد بن الفرات : « كتبت الحديث وأنا ابن اثنتي عشرة سنة وذُكرت بالحفظ ولي ثمان عشرة سنة »[2] .

للَّه دره . . . قال عنه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل : « ما تحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول اللَّه ﷺ من أبي مسعود الرازي » .

وأبو زرعة الرازي أشهر في الدنيا من الدنيا وهو شاب :

طلب الحديث وهو حَدَث ، وارتحل في طلب الحديث من الري ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وأقام في الكوفة عشرة أشهر ، ثم رجع إلى الري ، ثم خرج في رحلته الثانية ، وغاب عن وطنه أربع عشرة سنة ، وجلس للتحديث وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة »[3] .

* * *

(١) « سير أعلام النبلاء » (١٢/ ٤٨٥) ، و« الوافي بالوفيات » (٤/ ٢٩٤) .
والرُّويزي : تصغير الرازي .

(٢) « تذكرة الحفاظ » (٢/ ٥٤٤ - ٥٤٥) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (١٣/ ٦٦ - ٧٨) .

وأبو زرعة الدمشقي شيخ الشباب :

أُعجب أبو مسهر بمجالسة أبي زرعة إياه صغيراً .

وقال عنه ريحانة الشام أحمد بن أبي الحواريّ : «هو شيخ الشباب»[١] .

الجنيد سيد الطائفة :

قال الجنيد ـ رحمه اللّه ـ : « كنت أفتي في حلقة أبي ثور الكلبي ولي عشرون سنة »[٢] .

والتستري :

« وسهل بن عبد اللّه التستري ساح في طلب العلم وهو ابن تسع سنين ، وكانت تُلقى مشكلات المسائل على العلماء ، ثم لا يوجد جوابها إلا عنده وهو ابن اثنتي عشرة سنة »[٣] .

الكندي العجب العجاب :

وشيخ العربية والحنفية ، وشيخ القراءات ، تاج الدين أبو اليمن زيد ابن الحسن .

قال عنه الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (٢٢/ ٣٤) : « حفظ القرآن وهو صغير مّميز وقرأ بالروايات العشرة وله عشرة أعوام ، وهذا شيء ما تهيَّأ لأحد قبله .

والنوويّ وما أدراك ما النوويّ ؟! :

خير مثال لشاب أفنى شبابه في طاعة اللّه . . . نشأ منذ نشأ في طاعة

---

(١) « تذكرة الحُفَّاظ » للذهبي (٢/ ٦٢٤) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٦٨) .

(٣) « أنباء نجباء الأبناء » (ص١١٩١) .

اللّه . وقال عنه الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي : رأيت الشيخ محيي الدين - وهو ابن عشرة سنين - بنوىٰ ، والصبيان يكرهونه علىٰ اللعب معهم، وهو يهرب منهم ، ويبكي لإكراههم ، ويقرأ القرآن في تلك الحال ، فوقع في قلبي محبته »[١] .

هذي حياته وهو غلام ، فكيف كان شبابه ؟! .

وابن تيمية نشأ حين نشأ في حجور العلماء :

أسلم علىٰ يديه يهودي وهوما بعد صبي يذهب إلىٰ الكُتَّاب كما قال الحافظ عمر البزَّار في كتابه « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية »[٢] .

قال الحافظ ابن عبد الهادي عن شيخه ابن تيمية : « سمع « مسند أحمد » مرات ، وسمع الكتب الستة والأجزاء و« معجم الطبراني الكبير » ، وعُني بالحديث ، وقرأ ونسخ ، وتعلَّم الخط ، والحساب في المكتب ، وحفظ القرآن ، وأقبل علىٰ الفقه ، وقرأ العربية علىٰ ابن عبد القوي ، ثم فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتىٰ فهم النحو ، وأقبل علىٰ التفسير إقبالاً كليًا حاز فيه قصب السبق ، وأحكم أصول الفقه وغير ذلك .

هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه ، وقوة حافظته ، وسرعة إدراكه »[٣] .

---

(١) « تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين » لعلاء الدين بن العطَّار ، حققه مشهور حسن سليمان ، (ص٤٣ - ٤٤) ، نشر دار الصميعي .

(٢) انظر : « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » للحافظ عمر البزَّار ، تحقيق زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي (ص١٦ - ١٧) .

(٣) « العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام بن تيمية » ، للحافظ ابن عبد الهادي ، دار الكتب العلمية (ص٣) .

السلطان محمد الفاتح الأنموذج لشباب هذه الأمة :

حين تخطَّى العاشرة من عمره عيَّنه والده واليًا على مقاطعة أماسيا ، ثم قائدًا عامًا لمنطقة مانيسيا ، وفي سنة (٨٤٨هـ) استدعى السلطان مراد ابنه الأمير محمدًا لتسليمه مقاليد السلطنة في « أدرنة » عاصمة الدولة العثمانية آنذاك ، ولم يكن الأمير محمد في ذلك قد أكمل الرابعة عشرة من عمره .

واستمر الأمير محمد في إدارة شئون السلطنة عامًا كاملاً ثم أرسل إلى والده السلطان مراد ليتولى من جديد مقاليد السلطنة ، ولكن السلطان مراد اعتذر بحاجته الماسة إلى الراحة .

فما كان من الأمير إلا أن أرسل رسالة إلى والده يقول فيها : « إن كنت تصرُّ على أن أبقى على رأس الدولة فإني أذكِّرك يا والدي بما أوجبه اللَّه على المسلمين من حق الطاعة لوليّ أمرهم ، ولهذا فإني آمرك أن تسرع بالقدوم إلى أدرنة ، لقيادة جيوش المسلمين » ، وذرفت عينا السلطان مراد فرحًا بابنه ، وتنحى له الأمير محمد عن مقاليد السلطنة حتى وفاته سنة (٨٥٥هـ)، وتولى السلطان محمد الفاتح أمور السلطنة سنة (٨٥٥ هـ) ، أي وسنُّه عشرون سنة .

ويحقق اللَّه على يديه وهو ابن الثانية والعشرين أملاً طالما راود قلوب المسلمين وهو فتح القسطنطينية ، يومها قال : « يا أبنائي ، هاأنا ذا مستعد للموت في سبيل اللَّه ، فمن رغب في الشهادة فليلحق بي » .

محمد فاتـــح الدنيـــا وما طمعت ... نفس له برخيص الفتح والسَّلبِ

كأن وثبتـــه للّه دفـــق هُـــدى ... يفجِّر النور في وادٍ وفي هضَبِ

كأنما أنبتـــت أسيافـــه وروَتْ ... وردًا وعضّتْ على الأشواك والغَرَبِ

وصــــارت الأرض روضًا من أزاهره ... طلائع الحق من صيد ومن نُجُبِ

وفي سن الرابعة والعشرين يهزم جيوش الحلف الصليبي المكونة من ملك المجر وملك الصرب .

ويحاصر بلغراد ويدخلها وهو في سن الخامسة والعشرين ، ويفتح أثينا وبلاد اليونان وهو في السابعة والعشرين من عمره ، ويُكمل السيطرة على جنوب شبه جزيرة المورة وهو في الثامنة والعشرين من عمره .

ويؤدِّب فرسان القديس يوحنا ، وجيوش ألبانيا ، وقوات نابولي ، ولَمَّا يُكمل الثلاثين من عمره .

وفي الثلاثين من عمره يُنهي آخر معقل صليبي في بلاد الأناضول وهو مملكة « طرابوزون » وكان سقوطها كوقع الصاعقة على نصارى أوربا .

وفي سن الحادية والثلاثين من عمره يضم رومانيا إلى الدولة العثمانية .

وفي سن الثانية والثلاثين يضم البوسنة إلى ملك الخلافة العثمانية .

وفي السادسة والثلاثين من عمره يضم قونية عاصمة سلطنة « قرمان » السلجوقية .

أيها الفاتح . . . سلام اللّه عليك . . . قدر ما حفظت مفاتيح المدائن وضيَّعناها نحن ، في ظلّك ظَلّ السيف مصباحًا مضيئًا . . . والآن يصدأ السيف في جرابه بعد أن شُلَّت الأيدي المخنَّثة .

رحم اللّه شبابًا صدق فيهم قول الشاعر :

وقفوا على هام الزمان رجالاً ... يتوثَّبون تطلُّعًا ونضالاً

وحي السماء يجيش في أعماقهم ... ونداؤه من فوقه يتعالى

باعوا النفوس لربهم واستمسكوا ... بكتابه ... واستقبلوا الأهوالا

فامتد في شرق البلاد وغربها ... نور تتيه به الحياة جمالاً

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم ... أُسدٌ تُخَلِّفُ بعدها أشبالاً

رجـــل قلبه معلـــق

فـــي

المســاجــد

« إذا سمعتم حيّ على الصلاة ولم تروني في الصف ، فاطلبوني في المقبرة »

« الشيرازي »

رجل قلبه معلق فى المساجد

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] .

« النور الطليق ، الشائع في السموات والأرض ، الفائض في السموات والأرض ، يتجلىٰ ويتبلور في بيوت اللَّه التي تتصل فيها القلوب باللَّه ، تتطلع إليه وتذكره وتخشاه ، وتتجرد له وتؤثره علىٰ كل مغريات الحياة .

تلك البيوت أذن اللَّه أن تُرفع ـ وإذن اللَّه هو أمر للنفاذ ـ فهي مرفوعة قائمة ، وهي مطهرة رفيعة ، يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق في السموات والأرض .

وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السنيّ الوضيء ، وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم اللَّه ، وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة ، المسبحة الواجفة ، المصلية الواهبة »[2] .

● **المسجد :**

نرشف من حسنه فيض الهدىٰ المترقرق المنساب ، هنا الألق السني ، هنا النور الخلاّب ، الطهر في لألائها ، والنور في أنحائها ، هنا تسجد الأرواح ، هنا عطر الأرواح ينشق لا الزهر ، هنا الطهر يفوح عبيره

(١) سورة النور الآيات (٣٦ـ٣٨) .
(٢) « الظلال » (٤/ ٢٥٢٠)

الوثاب . . . المسجد . . . المكان المجنحّ بالطهر حتى غداً أزكى من الزهر غذّته النطف ، هنا يفيض الإيمان وطهره حتى يترع منه كل الوجود . . . منبع الرحمة . . . يشتاق المصلين لبابه . . . يشتاق الراكعون لرحابه . . . يشتاق المتضرعون لقبابه .

• **المساجد :**

هذه البقاع الأرضية التي تنضّرها السماء وترف عليها الملائكة على تعاقب الجديدين واختلاف الملوَيْن[1] بأجنحة من نور . . . هذه الأماكن المقدسة التي تشهد تربتها كل يوم خمس مرات هذه الجباه الساجدة الضارعة لبارئها ، وهذه الأصلاب الراكعة المنحنية على التسبيح لخالقها عز وجل ، وهذه المساجد بمآذنها السامقة رمزاً لعلو هامة المسلم وشموخه على الزمان والمكان . . . هذه المهابط لرحمة اللَّه ورضوانه على ظهر هذا الكوكب الذي تئنت أجواؤه بخطايا البشرية ، هذه المساجد التي يُهرع إليها من مادية الزمان والمكان فيخلع الإنسان أرسانه على أبوابها ، ويجد السكينة والطمأنينة بين رحابها .

يقول الرافعي - رحمه اللَّه - :

« عرفت واللَّه من معنى المسجد ما لم أعرف ، حتى كأني لم أدخله من قبل ، انكشف لي المسجد في نوره الروحي عن معان أدخلتني من الدنيا في دنيا على حدة ، فما المسجد بناء ولا مكان كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيح للعالم الذي يموج من حوله ويضطرب فإن في الحياة أسباب الزيغ

---

(١) الملوين : الليل والنهار .

والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد ، إذ يجمع الناس مراراً في كل يوم على سلامة الصدر وبراءة القلب وروحانية النفس ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة . مسبغة على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعارالطهر الذي يسمى الوضوء كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد ، ثم يستوي الجميع في هذا المسجد استواءً واحداً ، ويقفون موقفًا واحدًا ، ويخشعون خشوعًا واحدًا ، ويكونون جميعًا في نفسية واحدة ، بل يخرون إلى الأرض جميعًا ساجدين للَّه ، فليس لرأس على رأس ارتفاع ، ولا لوجه على وجه تمييز ، ومن ثمّ فليس لذات على ذات سلطان ، وهل تحقق الإنسانية وحدتها في الناس بأبدع من هذا ؟ ولعمري أين يجد العالم صوابه إلا ههنا ؟ فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع ، هو فكر واحد لكل الرءوس ، ومن ثمّ فهو حل واحد لكل المشاكل ، وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدارنه لا تدخله »[١] .

● من هذه المساجد ينطلق نشيد السماء العلوي المقدس « اللَّه أكبر » هذا الدعاء الذي تتجاوب أصداؤه بين الجوارح المؤمنة فتهتز له حبات القلوب الخاشعة مع كل صلاة ، بل مع كل خفقة من خفقات الأفئدة .

« اللَّه أكبر » نداء المساجد من فوق هامات المآذن حين تصبح وحين تظهر وحين تمسي .

---

(١) « وحي القلم » للرافعي (١/ ٣٤٨) .

بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوّي كلمة الروح « اللّه أكبر » ويشعر المسلم في أجواء المسجد شعوراً نديًا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقه تسح بها على قلبه لينضر من يُبس ، ويرقّ من غلظة ، والجالس في المسجد يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويحس في المكان بقايا أحلام ، تنكشف له أعماقه منسكبًا فيها روح المسجد ، فتعتريه حالة روحانية تستكين فيها هادئة وادعة .

• يحس الإنسان وكأن سرج المسجد وقناديله ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون عليهم وقار أرواحهم ، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه ، وقد استبهمت الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ، ومعناه الذي ليس منه ، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق المتخيل ، هنا في المسجد تلمس الروح معاني كلام اللّه ، يفيض عليها بمثل الندى ، فإذا هي ترف رفيفًا ، وإذا هي كالزهرة التي مسّها الطل .

هنا في المسجد يتلقى القلب الآيات والعظات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه ، هنا يهتز المكان والزمان ، كأنما مُحيت الدنيا التي في الخارج من المسجد وبطل باطلها فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعًا على طبيعتة الأرضية .

هذا هو المسجد في خاطري وشعوري .

هنا السموات تبدو قرب طالبها هنا الرحاب فضـــاء حين يلتمس

هنا الطهارة تحيــا في أماكنها لا الطيب يبلى ولا الأصداء تندرس

قال رســول اللّه ﷺ : « **أحـب البـــلاد إلى اللّـــه مســاجدها ،**

وأبغض البلاد إلى اللَّه أسواقها »[١] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **خير البقاع المساجد ، وشر البقاع الأسواق** »[٢] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **المسجد بيت كل مؤمن** »[٣] .

قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٧٠) : « قوله (معلق في المساجد) هكذا في « الصحيحين » ، وظاهره أنه من التعليق كأنه شبهه بالشيء المعلق في المسجد كالقنديل مثلاً إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإنْ كان جسده خارجًا عنه ، ويدل عليه رواية الجوزقي (كأنما قلبه معلق في المسجد) ويحتمل أن يكون من العلاقة وهي شدة الحب ، ويدل عليه رواية أحمد «معلق بالمساجد» وكذا رواية سلمان « من حبها » . . . . ومناسبتها للركن الثاني من الترجمة وهو فضل المساجد ظاهرة ، وللأول[٤] من جهة ما دلّ عليه من الملازمة للمسجد واستمرار الكون فيه بالقلب وإنْ عرض للجسد عارض .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من بني للَّه مسجدًا ، بني اللَّه له بيتًا في الجنة** »[٥] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **سبع يجري للعبد أجرهن ، وهو في قبره بعد موته : من علمّ علمًا ، أو أجرى نهارًا ، أو حفر بئرًا ، أو غرس نخلاً ، أو بنى**

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ، وأحمد والحاكم في «المستدرك» عن جبير بن مطعم .

(٢) حسن : رواه الطبراني في « الكبير» ، والحاكم في «المستدرك» عن ابن عمرو ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٢٦٦) .

(٣) حسن : رواه أبو نعيم في « الحلية » والقضاعي عن سلمان ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٥٧٨) .

(٤) باب : من جلس في المسجد ينتظر الصلاة .

(٥) صحيح : رواه ابن ماجه عن علي ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦١٢٧) .

مسجداً ، أو ورّث مصحفاً ، أوْ ترك ولداً يستغفر له بعد موته »[١] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد ، لا يصلي فيه ركعتين ، وأن لا يسلم الرجل إلا على من يعرف** »[٢] .

• وعن ابن مسعود مرفوعًا : « **سيكون في آخر الزمان قوم يجلسون في المساجد حلقاً حلقاً ، إمامهم الدنيا فلا تجالسوهم ، فإنه ليس للَّه فيهم حاجة** »[٣] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : «**من غدا إلى المسجد وراح ، أعدّ اللَّه له نزلاً من الجنة كلما غدا وراح** »[٤] .

وانظر إلىٰ سيد البشر وتعلقه بالمسجد قال عنه جابر بن سمرة ـ رضي اللَّه عنه ـ : « **كان ﷺ إذا صلىّ الغــداة جلس في مصلاه حتى تطلع الشــمس**»[٥] .

وانظر إلىٰ حرصه الشديد ﷺ علىٰ حضور صلاة الجماعة في المسجد وهو في مرض الموت : روىٰ البخاري ، عن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة، قال : دخلت علىٰ عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ فقلت : ألا تحدثيني عن مرض رسول اللَّه ﷺ ؟ قالت : بلىٰ ، ثقل النبي ﷺ فقال : « **أصلى الناس ؟** » قلنا : لا ، هم ينتظرونك ، قال : « **ضعوا لي ماء في المِخْضب** »[٦] قالت : ففعلنا ، فاغتسل فذهب لينوء[٧] فأغمي عليه ، ثم أفاق ﷺ فقال : « **أصلى الناس ؟** »،

(١) حسن : رواه البزار ، وسمويه عن أنس ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٦٠٢) .
(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٨٩٦) .
(٣) صحيح : رواه الطبراني وأبوإسحاق المزكي في « الفوائد المنتخبة » وصححه الألباني في «السلسة الصحيحة» (٣/ ١٥١) حديث رقم (١١٦٣) .
(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة .
(٥) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي والنسائي .
(٦) المخضب : الإجانة .
(٧) أي ليقوم ، لفظًا ومعنىً .

قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول اللَّه ، قال : « **ضعوا لي ماء في المخضب** » قال : فقعد فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال : « **أصلى الناس ؟** » قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول اللَّه ، فقال ﷺ : فقعد فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال : « **أصلى الناس ؟** » فقلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول اللَّه ، والناس عكوف في المسجد ، ينتظرون النبي ﷺ لصلاة العشاء الآخرة ، فأرسل النبي ﷺ إلىٰ أبي بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ بأن يصلي بالناس ، فأتاه الرسول فقال : إن رسول اللَّه ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس ، فقال أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ وكان رجلاً رقيقًا ـ يا عمر ، صل بالناس ، فقال له عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ : أنت أحق بذلك . فصلىٰ أبو بكر تلك الأيام . . . » الحديث .

فانظر ـ رحمك اللَّه ـ إلىٰ أي مدىٰ كان رسول اللَّه ﷺ حريصًا علىٰ حضور الجماعة في المسجد ، وكيف أنه يغشىٰ عليه ثلاث مرات فإذا أفاق اغتسل ليتمكن من الذهاب إلىٰ المسجد ، فيجد نفسه غير قادر علىٰ الذهاب إلىٰ المسجد فيرسل إلىٰ الصديق كي يصلي بالناس . . .

ولما وجد في نفسه خفة يخرج إلىٰ المسجد . . . فكيف كانت الخفّة .

قالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ . . . « . . . فوجد النبي ﷺ من نفسه خفّة ، فخرج يُهادىٰ بين رجُلَيْن ، كأني أنظر رجليْه تخطان[1] من الوجع » .

لم يكن ﷺ يتمكن من المشي إلاّ اعتمادًا علىٰ رجُلَيْن ، وحتىٰ بعد ذلك ، لم يكن يقدر علىٰ تمكين رجليه علىٰ الأرض ؛ نظرًا لشدة ضعفه ، لكنه مع هذا كله خرج إلىٰ صلاة الجماعة في المسجد .

---

(١) أي لم يكن يقدر علىٰ رفعهما من الأرض .

• قال رسول اللَّه ﷺ : « ثلاثة في ضمان اللَّه عز وجل : رجل خرج إلى مسجد من مساجد اللَّه عز وجل ، ورجل خرج غازيًا في سبيل اللَّه تعالى ، ورجل خرج حاجًا »(١) .

• قال رسول اللَّه ﷺ : « ثلاثة كلهم ضامن على اللَّه : رجل خرج غازيًا في سبيل اللَّه فهو ضامن على اللَّه حتى يتوفاه فيدخله الجنة ، أوْ يردّه بما نال من أجر أو غنيمة ، ورجل راح إلى المسجد فهو ضامن على اللَّه حتى يتوفاه فيدخله الجنة أو يرده بما نال من أجر ، ورجل دخل بيته بسلام ، فهو ضامن على اللَّه »(٢) .

• قال رسول اللَّه ﷺ : « صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه خمسًا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدكم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة ؛ لم يخط خطوة إلا رفعه اللَّه بها درجة ، وحطّ عنه بها خطيئة ، حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في صلاة ما كانت الصلاة تحبسه ، وتُصلي الملائكة عليه ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه ، يقولون : اللّهم اغفر له ، اللّهم ارحمه ، اللّهم تب عليه ، ما لم يُوذ فيه أو يُحدث فيه »(٣) .

• قال رسول اللَّه ﷺ : «من خرج من بيته متطهرًا إلى صلاة مكتوبة ، فأجره كأجر الحاج المْحرِم ، ومن خرج إلى تسبيح الضحى ، لا ينْصبُه إلا إياه ، فأجره كأجر المعتمِر ، وصلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين »(٤) .

---

(١) صحيح : رواه أبو نعيم في « الحلية » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٦٠٠) وفي « صحيح الجامع » رقم (٣٠٤٦) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود ، وابن حبان في « صحيحه » ، والحاكم في « المستدرك » عن أبي أمامة ، وصححه الحاكم والألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٠٤٨) .

(٣) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٤) حسن : رواه أبو داود عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٢٨) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من سمع النداء فلم يأته ، فلا صلاة له إلا من عُذر** »[١] .

مَنْ قلبه معلق بالمساجد :

أحرص الناس على الصلاة جماعة في المساجد ، ونشيده وبساتين قلبه هذه الأحاديث النبوية التي يحرص على معانيها أشد من حرصه على حياته :

• « **من صلى العشاء في جماعة ، فكأنما قام نصف ليلة ، ومن صلى الصبح في جماعة ، فكأنما صلى الليل كله** »[٢] .

• « **من صلى الفجر في جماعة ، ثم قعد يذكر اللَّه حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين ، كانت له كأجر حجة ، وعمرة تامة ، تامة ، تامة** »[٣] .

• « **من صلى للَّه أربعين يوماً في جماعة ، يدرك التكبيرة الأولى ، كُتِب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق** »[٤] .

ولكم ضرب علماء السلف وعبّاده أروع وأنصع الأمثلة لحرصهم على صلاة الجماعة في المسجد .

• فهذا سيد التابعين سعيد بن المسيب ـ رحمه اللَّه ـ يقول : ما فاتتني الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة » .

وقال : ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين ، وما نظرت في قفا رجل

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجه وابن حبان ، الحاكم عن أنس ، وصححه الحاكم والألباني .
(٢) رواه أحمد ، ومسلم عن عثمان .
(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٣٤٦) .
(٤) حسن : رواه الترمذي عن أنس ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٣٦٥) .

في الصلاة منذ خمسين سنة[١] .

وعن عثمان بن حكيم : سمعت سعيد بن المسيب يقول : ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلاّ وأنا في المسجد[٢] ، قال الذهبي : إسناده ثابت .

وعن ابن شهاب : قلت لسعيد بن المسيب : لو تبديت ، وذكرت له البادية وعيشها والغنم ، فقال : فكيف بشهود العتمة[٣] .

وعن بشر بن عاصم قال : قلت لسعيد بن المسيب : يا عم ، ألا تخرج فتأكل اليوم مع قومك ؟ قال : معاذ اللَّه يا ابن أخي ، أدع خمساً وعشرين صلاة خمس صلوات ؟!

● وعن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيب أنه اشتكىٰ عينه ، فقالوا : لو خرجت إلىٰ العقيق فنظرت إلىٰ الخضرة ، لوجدت لذلك خفّة ، قال : فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح[٤] .

وعن برد مولىٰ ابن المسيب قال : ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد .

● وقال الأوزاعي : كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها كانت لأحد من التابعين ، لم تفته الصلاة في جماعة أربعين سنة ، عشرين منها لم ينظر في أقفية الناس .

قال سعيد : ما نظرت في أقفاء قوم سبقوني بالصلاة منذ عشرين سنة .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ من حافظ علىٰ الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة .

---

(١) « الحلية » (٢/ ١٦٢) .

(٢) « الحلية » (٢/ ١٦٣) .

(٣) « الطبقات الكبرىٰ » لابن سعد (٥/ ١٣١) .

(٤) « الطبقات » لابن سعد (٥/ ١٣٢) ، و« الحلية » (٢/ ١٧٣) .

العقيق : موضع ناحية المدينة فيه عيون ونخل .

ولله در سيد التابعين ابن المسيب القائل :

« ما دخل عليّ وقت صلاة إلاّ وقد أخذت أهُبتها ، ولا دخل عليّ قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق »[١] .

وإمامه وقدوته في ذلك رسول الله ﷺ الذي كانت قرة عينه في الصلاة وسلفه الصالح في ذلك الأمير الشريف عدي بن حاتم الطائي الصحابي الجليل .

قال عدي ـ رضي الله عنه ـ : ما دخل وقت صلاة حتىٰ أشتاق إليها .

وعنه : ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت ، إلا وأنا علىٰ وضوء[٢] .

● وروىٰ ابن سعد في « الطبقات » ، عن سليمان بن موسىٰ قال : «رأيت مؤذن عمر بن العزيز وهو خليفة بُخناصرة[٣] يسلم علىٰ بابه : السلام عليك أمير المؤمنين ، ورحمة الله ، فما يقضي حتىٰ يخرج إلىٰ الصلاة »[٤] .

● **حضور صلاة الفجر ليلة الزواج :**

انظر إلىٰ الصحابي الجليل الحارث بن حسّان ، تزوَّج في ليلة من الليالي ، فحضر صلاة الفجر مع الجماعة روىٰ الإمام الطبراني عن عنبسة ابن الأزهر قال: « تزوج الحارث بن حسان ـ وكان له صحبة ـ ، فقيل له : أتخرج وإنما بنيت بأهلك في هذه الليلة ؟ فقال : والله إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جمع لامرأة سوء »[٥] .

---

(١) « الحلية » (٢/ ٩٥ـ٩٦) .

(٢) « السير » (٣/ ١٦٤) .

(٣) خُناصرة : بليدة من أعمال حلب نحو البادية .

(٤) « الطبقات الكبرىٰ » (٥/ ٣٥٩) .

(٥) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٢/ ٤١) : رواه الطبراني في « الكبير » بإسناد حسن .

• ويحرصون على صلاة الجماعة في المسجد وهم مرضى :

للَّه درهم من مرضىٰ . . . لا ، بل واللَّه نحن المرضىٰ . . . مرضىٰ القلوب .

روىٰ مسلم عن عبد اللَّه بن مسعود : « ولقد رأيتنا وما يتخلفّ عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يُؤتىٰ به يتهادىٰ بين الرجلين حتىٰ يُقام في الصف » .

• عن سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، أنه كان يُحمل وهو مريض إلىٰ المسجد »[1] .

للَّه درك من إمام علم ، وليس هذا فحسب ، بل كان يأمر بحمله في اليوم المطير إلىٰ المسجد ، حيث كانت تجتمع له رخصتان للتخلف عن المسجد ، وهما : المطر والمرض .

فعن سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، أنه كان يأمرهم أن يحملوه في الطين والمطر إلىٰ المسجد وهو مريض[2] .

• ومعلق القلب في المساجد يحرص على الذهاب إليها في أصعب الظروف :

قيل لسعيد بن المسيب : إن طارقًا يريد قتلك ؛ فتغيّبْ ، فقال : أبحيث لا يقدر اللَّه عليّ ؟ فيقل له : اجلس في بيتك ، فقال : أسمع : حيّ علىٰ الفلاح ، ولا أجيب ؟ ![3] .

---

(١) « المصنف » لابن أبي شيبة (١/ ٣٥٠) .
(٢) « الزهد » لابن المبارك (ص١٤١) ، و« الطبقات الكبرىٰ » لابن سعد (٦/ ١٧٢) .
(٣) « تفسير القرطبي » (١٨/ ٢٥١) .

• الحرص على الموت في حالة انتظار الجماعة :

انظر ـ رحمك الله ـ إلىٰ حرص أبي عبد الرحمن السلمي ، أن يأتيه الموت وهو فىٰ انتظار الصلاة في المسجد ، ولذا رفض الانتقال من المسجد إلىٰ فراشه لّما حضرته المنيّة .

عن عطاء بن السائب قال : دخلنا علىٰ أبي عبد الرحمن السلمي وهو يُقضىٰ ـ أي ينزع ـ في المسجد ، فقلنا له : لو تحولت إلىٰ الفراش فإنه أوثر ، قال : حدثني فلان أن النبي ﷺ قال : « **لا يزال أحدكم في صلاة ما دام في مصلاه ينتظر الصلاة** »[(١)] .

وفي رواية ابن سعد : « **والملائكة تقول : اللّهم اغفر له ، اللّهم ارحمه** » .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : « فأريد أن أموت وأنا في مسجدي »[(٢)] .

• من قلبه معلق في المساجد يحرص على الصلاة في أول وقتها في المسجد :

لحديث رسول اللّه ﷺ : « **أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها** »[(٣)] .

وقول رسول اللّه ﷺ : « **أحب الأعمال إلى اللّه الصلاة لوقتها ، ثم برّ الوالدين ، ثم الجهاد في سبيل اللّه** »[(٤)] .

وقول رسول اللّه ﷺ : « **أفضل العمل الصلاة لوقتها ، والجهاد في سبيل اللّه** »[(٥)] .

---

(١) « الزهد » لابن المبارك (١٤١ ـ ١٤٢) .
(٢) « الطبقات الكبرىٰ » لابن سعد (٦/ ١٧٤ ـ ١٧٥) .
(٣) حسن : رواه أحمد في « مسنده » ، وأبو داود ، وحسنه الألباني في « صحيح سنن أبي داود » (١/ ١١١) .
(٤) رواه أحمد ، والبخاري ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي عن ابن مسعود .
(٥) صحيح : رواه البيهقي في « الشعب » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » رقم (١٤٨٩) ، و« صحيح الجامع » رقم (١١٣٤) .

وقول رسول اللَّه ﷺ : « **إذا سمعت النداء فأجب داعي اللّه** »(١) .

ويحرص على التكبيرة الأولى :

لحرصهم على حديث رسول اللَّه ﷺ : « **مَن صلى للّه أربعين يومًا في جماعة ، يدرك التكبيرة الأولى ، كُتب له براءتان : براءة من النار ، وبراءة من النفاق**» .

قال الشيخ محمد إسماعيل المقدم - حفظه اللَّه - : « وقد لوحظ تأثير عجيب ، وبركة عظيمة في دين الذين راموا تطبيق هذا الحديث ، وكان سببًا في تغيير مجرى حياة كثير من الشباب طبّقوه ، إلى الاستقامة على ما يرضي اللَّه عز وجل »(٢) .

وقد « كان السلف إذا فاتتهم تكبيرة الإحرام عزّوا أنفسهم ثلاثة أيام ، وإذا فاتتهم الجماعة عزوا أنفسهم سبعة أيام »(٣) .

قال القاري معلقًا : « وكأنهم ما فاتتهم الجمعة ، وإلا عزوا أنفسهم سبعين يومًا » .

• وكان منهم من يبكي عندما تفوته تكبيرة الإحرام مع الجماعة ، ومنهم الذي يمرض إذا فاتته الصلاة مع الجماعة ، ومنهم القائل - وقد قارب التسعين - : « لم أصل الفريضة منفردًا إلا مرتين ، وكأني لم أصلهما » .

قال وكيع بن الجراح عن الإمام العظيم سليمان بن مهران (الأعمش) : كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن كعب بن عجرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » .

(٢) « الصلاة لماذا » لشيخنا محمد إسماعيل المقدم (١٩٤) - دار العقيدة .

(٣) « تحفة الأحوذي » (٢/ ٤٥) .

وللَّه در إبراهيم التيمي حيث يقول : « إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولىٰ ، فاغسل يدك منه »[١] .

وللَّه در القائل : نعم من يسمع داعي الفلاح ولا يجيب !!!

لا يُصنَع الأبطال إلاّ في مساجدنا الفساحْ
في روضة القرآن في ظل الأحاديث الصحاحْ
شعب بغير عقيدة ورق يذريه الرياح
من خان « حي على الصلاة » يخون « حيّ على الكفاح »

يا ابن آدم إذا هانت عليك صلاتك فأي شيء يعزّ عليك من دينك ؟!

مَن قلبه معلق في المساجد أول من يغدو إليها :

عن ميثم - رضي اللَّه عنه - رجل من أصحاب النبي ﷺ - قال : بلغني «أن المَلَك يغدو برايته مع أوّل من يغدو إلىٰ المسجد ، فلا يزال بها معه ، حتىٰ يرجع فيدخل بها منزله ، وأن الشيطان يغدو برايته إلىٰ السوق مع أول من يغدو ، فلا يزال معه حتىٰ يرجع فيدخلها منزله »[٢] .

كيف لا يحرص علىٰ هذا العز والسؤدد . . . أن يرافقه ملك برايته ، وله مع هذا فضل آخر .

فعن أبي أمامة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من توضأ ثم أتى المسجد ، فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم جلس حتى يصلي الفجر ، كُتبت**

---

(١) «الحلية » (٤/ ٢١٥) .

(٢) صحيح : رواه ابن أبي عاصم ، وأبو نعيم ، والمنذري في « الترغيب والترهيب » ، وقال ابن حجر : وهذا موقوف « صحيح السند » « الإصابة في تمييز الصحابة » (٦/ ١٤٨) ، وصححه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (١/ ٢٤٢-٢٤٣) ، وله حكم الرفع .

صلاته يومئذ في صلاة الأبرار ، وكُتب في وفد الرحمن »[١] .

● وهو أشد الناس حرصًا على التبكير لصلاة الجمعة .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من غسّل يوم الجمعة واغتسل ، ثم بكّر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ، وأنصت ولم يلغ كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد ، عمل سنة ؛ أجر صيامها وقيامها** » .

وقال ﷺ : « **احضروا الجمعة وادنوا من الإمام ، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتي يؤخر في الجنة وإنْ دخلها** »[٢] .

ويحرص على أن يكون أول من تكتبه الملائكة يوم الجمعة :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **تقعد الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة ، فيكتبون الأول والثاني والثالث ، حتى إذا خرج الإمام رفعت الصحف** »[٣] .

● من قلبه معلق في المساجد في ذمة اللَّه ، وهو من أهل الجنة ، وله من الأجر خير من الدنيا وما فيها :

وقال ﷺ : « **بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة** »[٤] .

وقال ﷺ : « **من صلى الصبح في جماعة ، فهو في ذمة اللَّه ، فمن أخفر ذمة اللَّه ، كبّه اللَّه في النار لوجهه** »[٥] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان والحاكم عن أوس بن أوس ، وصححه الألباني .

(٢) صحيح : رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في « سننه » ، والحاكم عن سمرة ، وصححه الألباني .

(٣) حسن : رواه أحمد عن أبي أمامة ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٩٨٣) .

(٤) صحيح : رواه أبو داود ، والترمذي عن بريدة ، وابن ماجه والحاكم عن أنس وعن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٨٢٣) .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من صلىّ البَرْدَيْن دخل الجنة** »[١] أي : صلاة العصر والصبح .

وقاله ﷺ : « **ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها** »[٢] .

• مَنْ قلبه معلق في المساجد ليس له هم إلا انتظار الصلاة في المساجد :

يعلم أن الكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات ، يعلم قول اللَّه لنبيه ﷺ : « **من فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه** » .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أدلكم على ما يكفر اللَّه به من الخطايا ، ويزيد في الحسنات ؟ إسباغ الوضوء على المكروهات ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة** »[٣] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أدلكم على ما يمحو اللَّه به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط** »[٤] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة**»[٥] .

وقال سيد ولد آدم ﷺ : « **القاعد على الصلاة كالقانت ، ويُكتب من المُصلين ، من حين يخرج من بيته حتى يرجع إلى بيته** »[٦] .

---

(١) رواه مسلم عن أبي موسى .

(٢) صحيح : رواه الترمذي والنسائي عن عائشة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٥١١) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٦١٧) .

(٤) رواه أحمد ومالك ومسلم ، والترمذي ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) صحيح : رواه النسائي عن أنس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٣١٣) .

(٦) صحيح : رواه ابن حبان في « صحيحه » عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٤٣٧) .

● وقال ﷺ : « **من صلى وجلس ينتظر الصلاة ، لم يزل في صلاة حتى تأتيه الصلاة التي يلاقيها** »(١)

● وقال ﷺ : «**من كان في المسجد ينتظر الصلاة ، فهو في الصلاة ما لم يحدث** »(٢) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **المرء في صلاة ما انتظرها** »(٣) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه؛ لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة** » . رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

● وقال ﷺ : « **لا يزال العبد في الصلاة ما دام في المسجد ينتظر الصلاة ما لم يُحدث** »(٤) .

وأي خير وشرف أغلى من أن تصلي الملائكة على مَنْ قلبه معلق في المساجد :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ، ما لم يُحدث أو يقم : اللَّه اغفر له ، اللَّهم ارحمه** »(٥) .

من قلبه معلق بالمساجد يحرص على الصف الأول وميامن الصفوف:

● قال رسول اللَّه ﷺ : « **لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا (٦) عليه لاستهموا ، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه،**

---

(١) صحيح : رواه النسائي عن عبد اللَّه بن سلام ، وأبي هريرة ، وصححه الألباني .
(٢) صحيح : رواه أحمد ، والنسائي ، وابن حبان عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني .
(٣) صحيح : رواه عبد بن حميد عن جابر ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٦٨٨) .
(٤) رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي هريرة .
(٥) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني .
(٦) أي يقترعوا .

ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبْواً »[١] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه وملائكته يصلون على الصف الأول** »[٢] وفي رواية : الصفوف الأولى .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لو تعلمون ما في الصف الأول : ما كانت إلا قرعة** »[٣] .

● ويحرص على الذكر بعد الصلاة :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من سبّح للَّه في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد اللَّه ثلاثاً وثلاثين ، وكبرّ اللَّه ثلاثاً وثلاثين ، فتلك تسع وتسعون ، وقال تمام المائة : لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمدُ : وهو على كل شيء قدير ، غُفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر** » . رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

● ويخرج إلى المساجد لصلاة الضحى لينال أجر المعتمر :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المحرم ، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه**[٤] **إلا إياه ، فأجره كأجر المعتمر ، وصلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين** »[٥] .

فمن كان كتابه في عليين ، وهو من وفد الرحمن ، ومن يصلي عليه اللَّه والملائكة ، ومن يرافقه الملك فأي رجل فوقه .

---

(١) رواه مالك ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي عن أبي هريرة .
(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه والحاكم عن البراء ، وابن ماجه عن عبد الرحمن ابن عوف ، والطبراني عن النعمان بن بشير .
(٣) رواه مسلم ، وابن ماجه عن أبي هريرة .
(٤) أي يدفعه ويتعبه .
(٥) حسن : رواه أبو داود عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٢٨) .

• ومن تعلق قلوبهم بالمساجد كانت لهم الأحوال العجيبة :

• وأي شأن من شئون سلفنا الصالح لم يكن عجيباً .

• نقل البخاري عن الأسود ، أنه إذا فاتته الجماعة ذهب إلى مسجد آخر(١) .

• ويوصون أبناءهم بملازمة المسجد :

قال أبو الدرداء لابنه : يا بني ، ليكن المسجد بيتك ، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **إن المساجد بيوت المتقين ، فمن كانت المساجد بيوته ، ضمن اللَّه له بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى الجنة** »(٢) .

• مساءلة الابن عن حضور صلاة الجماعة :

عن مجاهد قال : « سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ - قال : لا أعلمه إلاّ ممن شهد بدراً - قال لابنه : أدركت الصلاة معنا ؟ قال : أدركت التكبيرة الأولى ؟ قال : لا ، قال : لما فاتك منها خير من مائة ناقة ، كلها سود العين »(٣) .

• تأديب الابن على التأخر عن صلاة الجماعة :

ذكر الذهبي في « السـير » (٥/ ١١٦) : « عن يعقوب عن أبيه ، أن عبد العزيز بن مروان بعث ابنه عمر إلى المدينة ، يتأدب بها ، وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهده ، وكان يلزمه الصلوات ، فأبطأ يومًا عن الصلاة ، فقال : ما حبسك ؟ قال : كانت مُرجِّلتي تُسكنُ شَعري ، فقال : بلغ من تسكين شعرك ، أن تؤثره على الصلاة ، وكتب بذلك إلى والده ، فبعث

---

(١) قال ابن حجر في « الفتح » (٢/ ١٣١) : إسناده صحيح .

(٢) إسناده صحيح : انظر : « الزهد » لهناد بن السري (٢/ ٣٦٢) .

(٣) « المصنف » لعبد الرزاق ، كتاب الصلاة ، باب : فضل الصلاة في جماعة (١/ ٥٢٨-٥٢٩) .

عبد العزيز رسولاً إليه ، فما كلّمه حتىٰ حلق شعره » .

وولاة أمر يحملون الناس على الجماعة في المساجد حملاً :

فهذا فاروق الإسلام عمر بن الخطاب كان يتفقد الناس في صلاة الجماعة ، فقد روىٰ مالك ، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة : أن عمر ابن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ فقد سليمان بن أبي حثمة في صلاة الصبح ، وأن عمر بن الخطاب غدًا إلىٰ السوق ، ومسكن سليمان بين السوق والمسجد النبوي ، فمرّ علىٰ الشفاء أم سليمان ، فقال لها : لم أر سليمان في الصبح ، فقالت : إنه بات يصلي ، فغلبته عيناه ، فقال عمر : لأن أشهد صلاة الصبح في الجماعة ، أحبّ إليّ من أن أقوم ليلة »(١) .

• وعن هشيم عن أبيه ، قال : « فقد عمر ـ رضي اللّه عنه ـ رجلاً في صلاة الصبح ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : أين كنت؟ فقال : كنتُ مريضًا ، ولولا أن رسولك أتاني لما خرجت .

فقال عمر : فإن كنت خارجًا إلىٰ أحد ، فاخرج للصلاة »(٢) .

وروىٰ ابن سعد ، عن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ، قال : «جاء عمر ـ رضي اللّه عنه ـ إلىٰ سعيد بن يربوع ؛ إلىٰ منزله ، فعزّاه بذهاب بصره ، وقال : لا تدع الجمعة ولا الصلاة في مسجد رسول اللّه ﷺ قال : ليس لي قائد ، قال : فنحن نبعث إليك بقائد ، فبعث إليه بغلام من السبي » .

• قال ثابت بن الحجاج : « خرج عمر بن الخطاب إلىٰ الصلاة ، فاستقبل الناس ، فأمر المؤذن فقام وقال : واللّه ، لا ننتظر لصلاتنا أحدًا ،

---

(١) «الموطأ» ، كتاب صلاة الجماعة ، باب : ما جاء في العتمة والصبح (١/ ١٣١) .
(٢) « المصنف » لابن أبي شيبة .

فلما قضىٰ صلاته ، أقبل علىٰ الناس ، ثم قال : ما بال أقوام يتخلفون ، يتخلف بتخلفهم آخرون ، واللَّه لقد هممت أن أُرسل إليهم ، فيجأ[١] في أعناقهم ، ثم يُقال : اشهدوا الصلاة »[٢] .

● وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي اللَّه عنه - يمر في الطريق مناديًا : « الصلاة ، الصلاة » يوقظ الناس لصلاة الفجر ، وكان - رضي اللَّه عنه - يفعل ذلك كل يوم » .

روىٰ ابن سعد « عن الحسن - رضي اللَّه عنه - ، يحدث عن خروج عليّ اليوم الذي طعن فيه من بيته ، حيث يقول : « فلما خرج من الباب نادىٰ : أيها الناس ، الصلاة الصلاة ، كذلك كان يفعل في كل يوم ، ومعه درَّته يوقظ الناس »[٣] .

من رياض السلف :

● عن نافع أن ابن عمر كان إذا فاتته العشاء في جماعة ، أحيا بقية ليلته[٤] .

● وعبد اللَّه بن الزبير بن العوام - رضي اللَّه عنه - كان يسمىٰ حمام المسجد .

● والربيع بن خُثيم كان يقول : إني لآنس بصوت عصفور المسجد عن أنسي بزوجتي .

● «وكان - رحمه اللَّه - بعدما سقط شقه يهادىٰ بين رجلين إلىٰ مسجد

---

(١) أي يضرب أعناقهم .
(٢) « كنز العمال » (٨/ ٢٥٢) .
(٣) « الطبقات الكبرىٰ » (٣/ ٣٦-٣٧) .
(٤) « الحلية » (١/ ٣٠٣) ، ورجاله ثقات .

قومه ، وكان أصحاب عبد اللَّه بن مسعود يقولون : يا أبا يزيد ، لقد رخّص اللَّه لك ، لو صليت في بيتك ، فيقول : إنه كما تقولون ، ولكني سمعته ينادي : حيّ على الفلاح ، فمن سمع منكم : حيّ على الفلاح ، فليجبه ولو زحفًا ، ولوْ حبواً .

• وعن أبي حيان التيمي عن أبيه ، قال : أصاب الربيع الفالج ، فكان يحمل إلى الصلاة ، فقيل له : إنه قد رخص لك .

قال : قد علمت ، ولكن أسمع النداء بالفلاح »[١] .

• وكان يحيى بن القطان إذا ذكر الأعمش قال : كان من النساك ، وكان محافظًا على الصلاة في الجماعة ، وعلى الصف الأول .

قال يحيى : وهو علامة الإسلام .

وكان يحيى يلتمس الحائط حتى يقوم في الصف الأول »[٢] .

• **ومفتي الحرم شيخ الإسلام أبو محمد عطاء بن أبي رباح**: قال عنه ابن جريج : « كان المسجد فراش عطاء عشرين سنة ، وكان من أحسن الناس صلاة »[٣] .

• **والإمام القدوة أبو الحارث عامر بن عبد اللَّه بن الزبير** : قال عنه مصعب : « سمع عامرٌ المؤذن ، وهو يجود بنفسه ، فقال : خذوا بيدي ، فقيل : إنك عليل ، قال : أسمع داعي اللَّه فلا أجيبه ! فأخذوا بيده فدخل مع الإمام في المغرب ، فركع ركعة ، ثم مات »[٤] .

• **وثابت البناني الإمام الرباني** :الذي قال عنه أستاذه وشيخه أنس بن

---

(١) « الحلية » (٢/ ١٣٣ ، ١١٤) .
(٢) « حلية الأولياء » (٥/ ٤٩ ـ ٥٠) .
(٣) « السير » (٥/ ٨٤) .
(٤) « السير » (٥/ ٢٢٠) .

مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ : إن للخير مفاتيح ، وإن ثابتًا مفتاح من مفاتيح الخير .

قال عنه ابن شوذب : ربما مشينا مع ثابت البناني ، فلا يمر بمسجد إلا دخل فصلى فيه .

وقال حميد : كنا نأتي أنس بن مالك ومعنا ثابت ، فكلما مرّ بمسجد صلى فيه ، فكنا نأتي أنسًا فيقول : أين ثابت ؟ أين ثابت ؟ إن ثابتًا دويبة أحبها .

وعن حرمى قال : استعان رجل بثابت البناني على القاضي في حاجة ، فجعل لا يمر بمسجد إلا نزل فصلى ، حتى انتهى إلى القاضي وقد ختمت القماطر ، فكلمه في حاجة الرجل فقضاها ، فأقبل ثابت على الرجل فقال : لعلّه شق عليك ما رأيت ، قال : نعم ، قال : ما صليت صلاة إلا طلبت إلى اللَّه تعالى في حاجتك[1] .

• والإمام القدوة ربيعة بن يزيد أبو شعيب الإيادي الدمشقي القصير :

قال أبو مسهر : حدثنا عبد الرحمن بن عامر : سمعت ربيعة بن يزيد يقول : ما أذّن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة ، إلا وأنا في المسجد ، إلا أن أكون مريضًا أو مسافراً[2] .

• والإمام الكبير مُقرئ العصر أبو بكر عاصم بن أبي النجود :

قال زياد بن أيوب : « حدثنا أبو بكر قال : كان عاصم إذا صلى ينتصب كأنه عود ، وكان يكون يوم الجمعة في المسجد إلى العصر ، وكان عابدًا خيّرا ، يصلي أبدًا ، ربما أتى حاجة ، فإذا رأى مسجداً قال : مِلْ بنا

---

(١) « حلية الأولياء » بتصرف (٢/٣١٨-٣٢٧) .

(٢) « السير » (٥/٢٣٩-٢٤٠) .

فإن حاجتنا لا تفوت ، ثم يدخل فيصلي »(١) .

• **والزاهد القدوة كُرْز بن وبرة** : كان لا ينزل منزلاً إلا ابتنى فيه مسجداً فيصلي فيه .

• **وشيخ الإسلام الرباني أبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمي** :

قال عنه معمر مؤذنه : صلى إلى جنبي سليمان التيمي بعد العشاء الآخرة ، وسمعته يقرأ : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾(٢) ، قال : فلما أتى على هذه الآية : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾(٣) ، جعل يرددها حتى خف أهل المسجد فانصرفوا ، قال : فخرجت وتركته ، قال : وعدوت لأذان الفجر ، فنظرت فإذا هو في مقامه ، قال: فسمعت ، فإذا هو فيها لم يجزها وهو يقول : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ .

قال ابن سعد :« كان سليمان التيمي من العباد المجتهدين كثير الحديث، ثقة ، يصلي الليل كله بوضوء عشاء الآخرة ، وكان هو وابنه يدوران بالليل في المساجد ، فيصليان في هذا المسجد مرّة ، وفي هذا المسجد مرة ، حتى يصبحا »(٤) .

• **وسفيان الثوري الإمام المرضي** :

قال عنه ابن وهب : رأيت سفيان في الحرم بعد المغرب صلى ، ثم سجد سجدة ، فلم يرفع حتى نودي بالعشاء .

وقال علي بن الفضيل : رأيت الثوري ساجداً ، فطفت سبعة أسابيع قبل أن يرفع رأسه .

---

(١) « السير » (٥/ ٢٥٩) .

(٢) سورة الملك الآية (١) .

(٣) سورة الملك الآية (٢٧) .

(٤) « السير» (٦/ ١٩٥-٢٠٢) .

• وشيخ الإسلام حمّاد بن سلمة :

قال عنه يونس بن محمد المؤدب : مات حمّاد بن سلمة في الصلاة في المسجد[١] .

رحم اللَّه من كانت خاتمته في الصلاة في المسجد ، ومن كان على حال لقى اللَّه عليها .

• والإمام الرباني بشر بن منصور الذي قال عنه تلميذه عبد الرحمن بن مهدي : لم أر مثله .

قال أسيد بن جعفر ابن أخيه : بشر بن منصور ما فاتته التكبيرة الأولى قط[٢] .

• والإمام الرضي ، والزّمام القوي عبد الرحمن بن مهدي :

قال عبد الرحمن رسته : سألت ابن مهدي عن الرجل يبني بأهله ، أيترك الجماعة أيامًا ؟

قال : لا ، ولا صلاة واحدة ، وحضرته صبيحة بني على ابنته ، فخرج فأذن ، ثم مشى إلى بابهما ، فقال للجارية : قولي لهما : يخرجان إلى الصلاة ، فخرج النساء والجواري ، فقلن : سبحان اللَّه ! أي شيء هذا ؟!

فقال : لا أبرح حتى يخرجا إلى الصلاة .

فخرجا بعد ما صلىّ ، فبعث بهما إلى مسجد خارج الدرب »[٣] .

قال الذهبي : هكذا كان السلف في الحرص على الخير[٤] .

---

(١) « السير » (٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦) .
(٢) « الحلية » (٦/ ٢٣٩ـ٢٤٠) .
(٣) « الحلية » (٩/ ١٣) .
(٤) « السير » (٩/ ٢٠٤) .

• **راهب الكوفة الرباني : هنّاد بن السرّي :**

قال عنه أحمد بن سلمة النيسابوري الحافظ : كان هناد ـ رحمه اللَّه ـ كثير البكاء ، فرغ يومًا من القراءة لنا ، فتوضأ وجاء إلىٰ المسجد ، فصلىٰ إلىٰ الزوال وأنا معه بالمسجد ، ثم رجع إلىٰ منزله فتوضأ ، وجاء فصلىٰ بنا الظهر ، وأخذ يقرأ في المصحف حتىٰ صلىٰ المغرب .

قال : فقلت لبعض جيرانه : ما أصبره علىٰ العبادة .

فقال : هذه عبادته بالنهار منذ سبعين سنة ، فكيف لو رأيت عبادته بالليل .

وكان يقال له : راهب الكوفة[١] .

• **ولقمان هذه الأمة** :الآخذ بالألزم والأقوم ، المؤثر للأدوم والأعمّ، أبو عبد الرحمن **حاتم الأصمّ** :

قال ـ رحمه اللَّه ـ : « فاتتني الصلاة في الجماعة ، فعزاني أبوإسحاق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزّاني أكثر من عشرة آلاف ، لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا »[٢] .

• **والإمام المزني شيخ الشافعية** :كان ـ رحمه اللَّه ـ إذا فاتته صلاة الجماعة ، صلىٰ تلك الصلاة خمسًا وعشرين مرة[٣] .

• **والإمام المحدث مسند عصره أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم .**

قال عنه الحاكم : « بلغني أنه أذّن سبعين سنة في مسجده »[٤] .

---

(١) « السير » (١١/ ٤٦٥ـ٤٦٦) .
(٢) « الإحياء » (١/ ١٧٧) .
(٣) « السير » (١٢/ ٤٩٢ـ٤٩٧) .
(٤) « الأنساب » للسمعاني (١/ ٢٩٥) ، و« السير » (١٥/ ٤٥٥) .

هذا والله المعلق قلبه في المساجد . . . يؤذن سبعين سنة !! وقد قال رسول الله ﷺ : « **من أذن اثنتي عشرة سنة ، وجبت له الجنة ، وكتب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنة ، وبإقامة ثلاثون حسنة** »[(١)] .

• **والإمام القدوة أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي :**

كان به وجع الخاصرة ، فكان إذا أصابه أقعده عن الحركة ، فكان إذا نودي للصلاة ، يحمل على ظهر رجل ، فقيل له : لو خففت على نفسك؟ قال : إذا سمعتم حيّ على الصلاة ولم تروني في الصف ، فاطلبوني في المقبرة[(٢)] .

• **والشيخ الصادق القدوة أبو العباس ابن الطّلاية :**

قال عنه السمعاني : « شيخ كبير أفنى عمره في العبادة والقيام والصيام، لعله ما صرف ساعة من عمره إلاّ في عبادة ، وانحنى حتى لا يتبين قيامه من ركوعه إلا بيسير »[(٣)] .

قال أبو المظفر ابن الجوزي : « سمعت مشايخ الحربية يحكون عن آبائهم وأجدادهم ، أن السلطان مسعوداً لما أتى بغداد كان يحب زيارة العلماء والصالحين ، فالتمس حضور ابن الطلاية فقال للرسول : أنا في هذا المسجد ، أنتظر داعي الله في النهار خمس مرات ، فذهب الرسول ، فقال السلطان : أنا أولى بالمشي إليه ، فزاره فرآه يصلي الضحى ، وكان يطوّلها يصليها بثمانية أجزاء ، فصلى معه بعضها ، فقال له الخادم : السلطان قائم

---

(١) صحيح : رواه بن ماجه والحاكم عن ابن عمر ، وصححه الحاكم والألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٨٧٨) .

(٢) « السير » (١٦/ ٣٤٦) .

(٣) « الأنساب » للسمعاني (٨/ ٣٧) .

علىٰ رأسك ، فقال : أين مسعود ؟ قال : ها أنا .

قال : يا مسعود ، اعدل ، وادعُ لي ، اللَّه أكبر ، ثم دخل في الصلاة فبكىٰ السلطان ، وكتب ورقة بخطه بإزالة المكوس والضرائب وتاب توبة صادقة »[١] .

وللَّه در من قال :

أحِنُّ اشتياقـاً للمسـاجد لا إلى ... قُصُورٍ وفُرْشٍ بالطِّـراز موشَّـحُ
وفيها اعتزال لذّ في جانب الهـوى ... مجاورةُ الأسفار للصدر تَشـرحُ
فإن شـئت تفسـيراً مُرادَ مُحَقِّقٍ ... وإن شئت توحيداً به المرء يُفلـحُ
وإن رُمْت كُتْبًا للحـديث وشـرحه ... وَجَدت ولم يَعْدوك أُنسٌ ومَرْبـحُ
وإنْ رُمْت آدابًا وتاريـخ من مضـي ... وجدتَ وطاب الوقت والفكْرُ يَسْرَحُ
وإنْ رُمت كُتْبَ الفقه أو كُتْبَ أصله ... تناولت أحكامًا بها القلبُ يَفـرحُ
وتسلَمُ من قيـلٍ وقـالَ ومِنْ أذى ... جليسٍ ومِنْ واشٍ يَنِمُّ ويَجْـرَحُ
أصلي اشتيـاقًا للعليّ لعلني ... أجد قرة للعين فيها وأفلـح
أعاشر فيها الصادقـين وركبـهم ... أجالسهم والهجر للغيـر أمنَـحُ
والمكـثُ فيهـا عـز قلبـي حيـاته ... حياة لأجل الغالي بالدون أسـمحُ

قال ربيعة بن عبد الرحمن : المروءة في الحضر : الإدمان إلىٰ المساجد ، وتلاوة القرآن ، وكثرة الإخوان في اللَّه عز وجل »[٢] .

وفي رواية عنه : « أما التي في الحضر : فتلاوة القرآن ، ولزوم

---

(١) « السير » (٢٠/ ٢٦٢) ، و« مرآه الزمان » (٨/ ١٣٢) .
(٢) « روضة العقلاء » لابن حبان (ص٢٣٢) ، و« التمهيد » (٢٣/ ١٧٨) .

المساجد ، وعفاف الفرج »[١] .

● كان أبو الليث الطرسوسي يُعزّىٰ ، فقيل له : ما شأنه ؟ قالوا : فاتته صلاة الجماعة[٢] .

● أغرب من الخيال أمر ضمام بن إسماعيل :

عن نعيم بن حماد قال : جاء ضمام بن إسماعيل إلىٰ المسجد وقد صلىٰ الناس وفاتته الصلاة ، فجعل علىٰ نفسه ألا يخرج من المسجد حتىٰ يلقىٰ اللَّه ، قال : فجعله بيته حتىٰ مات »[٣] .

الحفار الغرناطي يخرج إلى الجماعة يهادى بين رجلين نحواً من عامين:

هو محمد بن علي بن محمد الأنصاري الحَفّار الغرناطي .

قال عنه ابن الخطيب : قد بقي الحفار نحواً من عامين أو أزيد يخرج للصوات الخمس يُهادىٰ بين رجلين لشيء كان برجله حتىٰ كان بعض أصحابه يقول : الحفّار حجة اللَّه علىٰ مَنْ لم يحضر الجماعة[٤] .

الحملاني : صلى أربعين سنة إمامًا ، ما ترك صلاة واحدة في جماعة:

الفقيه حاتم الحملانيّ اليمني العلامة الزاهد ، كان إمامًا يقتدىٰ به ، وهو أستاذ أهل زمانه في الفقه والأصُولَيْن .

قال عنه تلميذه الزاهد الشهير إبراهيم الكينعيّ : صلىٰ حاتم زهاء

---

(١) « بهجة المجالس » لابن عبد البر (٢/ ٦٤٥) .
(٢) « تاريخ واسط » (١٧٤) لبحشل .
(٣) « العلل » لأحمد بن حنبل رقم (٥٠٣٣) .
(٤) « الدرر الكامنة » (٤/ ١٩٩) .

أربعين سنة إمامًا ، ما ترك صلاة واحدة في جماعة ، ولا سجد للسهو في جميع هذه المدة إلا ست مرات ، وكان لا يدع البكاء في الصلاة مطلقًا انتهىٰ وقال في « الطبقات » : روىٰ الثقة أنه قبضت روحه وهو يصلي صلاة التسبيح مستلقيًا من المرض[1] .

مدين بن أحمد بن محمد الحميري المغربي المالكي :

قال عنه السخاوي في « الضوء اللامع » (١٠/ ١٥٠ ـ ١٥٢) : « نعم الشيخ كان : جلالة وسمتًا ووقارًا وبهاء وعقلاً ومراقبة وملازمة للطاعة واتباعًا للسنة وجمعًا للناس علىٰ ذكر اللَّه وطاعته واقتدارًا علىٰ العبادة . . .

وقد مكث دهرًا إلىٰ حين وفاته لا تفوته التكبيرة الأولىٰ من صلاة الصبح ويمكث في مصلاه وهو علىٰ طهارة إلىٰ أن يركع الضحىٰ وربما جلس بعد ذلك » .

أبو السعود الكازوروني أول الناس دخولاً المسجد وآخرهم خروجًا :

« يحيىٰ بن أحمد الكازوروني المدني الزبيري إمام الشافعية بطيبة الطيّبة كان فاضلاً ذا همة عالية ونفس مطمئنة وخشية للَّه تعالىٰ ، والتورّع في كثير من أمور الدنيا والتقلل منها .

لزم صلاة الجماعة بالمسجد النبوي بحيث لا يفوته فرض إلا لعذر ، وكان لا يخرج من المسجد إلا آخر الناس خصوصًا بعد صلاة العشاء ويقول :

أحب أن أكون آخر الناس خروجًا وأولهم دخولاً »[1] .

* * *

(١) « ملحق البدر الطالع » (١/ ٦٧) .

(٢) « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » لفضل اللَّه المحبيّ (١/ ١١٨ ـ ١١٩) .

سيبويه : لا يتخلف عن صلاة الجماعة فى الصف الأول بالأزهر :

محمد بن أحمد بن سلامة الشافعي البصير ، الشهير بسيبويه ، اشتهر بالعربية .

كان عزبًا لا يخرج من الجامع الأزهر إلا إذا تعطلت فسقية[١] الجامع ، فيخرج لأقرب مكان لقضاء الحاجة .

لم يتخلف في سائر الأوقات عن صلاة الجماعة في الصفّ الأول بالأزهر ، ويقوم فيه من النصف الآخر ، ولا يزال يتهجد حتىٰ يصلي الصبح مع الجماعة ، وبعدها يقرأ الناس عليه في القراءات إلىٰ طلوع الشمس فيذهب حينئذ إلىٰ فسقية الجامع ويتوضأ ويجلس للتدريس إلىٰ قبيل الظهر هذا دأبه طول عمره إلىٰ أن نقله اللَّه إلىٰ دار كرامته [٢] .

القاضي حسين بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب يخرج للجماعة وله من العمر اثنتين وتسعين سنة :

هو خليفة شيخ الإسلام وابنه والقاضي في الدرعية ، أخذ عنه من القضاة عدد كثير .

كان قل ثقل آخر عمره ، فكان يخرج لصلاة الجماعة يتهادىٰ بين رجلين حتىٰ يقام في الصف وله من العمر نحو اثنتين وتسعين سنة[٣] .

* * *

---

(١) حوض الماء المعد للسقيا والوضوء .

(٢) « خلاصة الأثر » (٣/ ٣٧٥-٣٧٦) .

(٣) « المختار المصون من أعلام القرون » لمحمد بن حسن بن عقيل موسىٰ (٣/ ١٩١١) نقلاً عن «عنوان المجد في تاريخ نجد » لعثمان بن بشر النجدي .

حفصة بنت سيرين مكثت في مصلاها ثلاثين سنة لا تخرج إلا لحاجة أو قائلة :

أم الهذيل - رحمها اللّه - التي فاقت الرجال في شوقها إلى الصلاة ولزومها لمسجد بيتها .

مكثت في مصلاها ثلاثين سنة لا تخرج إلا لحاجة أو قائلة ، وكانت تدخل مسجدها فتصلي فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ، ولا تزال فيه حتى يرتفع النهار فتركع ، ثم تخرج فيكون عند ذلك وضوءها ونومها .

وكان الهذيل ابنها يجمع الحطب في الصيف فيكسره ويأخذ القصب فيفلقه ، فإذا وجدت حفصة أمه برداً في الشتاء جاء بالكانون فوضعه خلفها وهي في مصلاها ، ثم يقعد فيقد بذلك الحطب وقوداً لا يؤذيها دخانه ويدفئها »[1] .

لئن كـان النســـاء كما ذكرنا ۝ لفُضّلت النسـاء على الرجـال

***

(١) « مختصر قيام الليل » للمروزي (ص١٩) ، و« صفة الصفوة » (٤/ ٢٤-٢٥-٢٦) .

رجلان تحابا

في اللــــه

لا تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنا

رجلان تحابا في الله

التحاب في اللّٰه تعالىٰ والأخوة في دينه من أفضل القربات ، وألطف ما يستفاد من الطاعات ، وهي البقيّة مما يلتذ به في دار الدينا .

للّٰه ما أحلى محبة كانت قبل الوجود :

عن عائشة ـ رضي اللّٰه عنها ـ قالت : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **الأرواح جنود مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** »(١) .

قال أبو سليمان الخطابي ـ رحمه اللّٰه ـ : « ومعنىٰ هذا الحديث : الإخبار عن مبدأ كون الأرواح وتقدمها الأجساد . . . وأعلم النبي ﷺ أنها خلقت علىٰ ائتلاف واختلاف فتأتلف الأجساد في الدنيا وتختلف علىٰ حسب ما وقع في مبدأ الخِلقة » حب فياض رائق عذب جميل أعلىٰ من كل رابطة تمتُّ إلىٰ الأرض . . . رفرفة أرواح أحبت ربها فألقىٰ المحبة بينها .

ولقد امتن اللّٰه علىٰ نبيه ﷺ بالألفة والحب بين أصحابه قال تعالىٰ : ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾(٣) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) سورة الأنفال الآية (٦٣) .
(٣) سورة آل عمران الآية (١٠٣) .

للّه ما أحلاها من نعمة وأعظمها منّة :

وللَّه در أبي علي الكاتب المصري حيث يقول : « روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها ، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها ، وتبدو عليهم وإن ستروها »[1] .

« وليس الحب إلا ما نشأ عليه القلب ونما ، وربي في أرض المودة وسما » .

ومهما طاب المثمر طابت الثمرة . . . ولا أطيب من الحب في اللَّه فما ظنك بالثمرة : « قال اللَّه تعالى : **حُقّتْ محبتي للمتحابين فيّ ، وحُقّت محبتي للمتواصلين فيّ ، وحُقّت محبتي للمتناصحين فيّ ، وحُقّت محبتي للمتزاورين فيّ ، وحُقّت محبتي للمتباذلين فيّ .**

المتحابون فيّ على منابر من نور ، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء »[2] .

وقال اللَّه تعالى : « **وجبت محبتي للمتحابين فيّ ، والمتجالسين فيّ ، والمتباذلين فيّ ، والمتزاورين فيّ** »[3] .

وقال اللَّه تعالى : « **حُقّت محبتي على المتحابين ، أظلهم في ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظلي** »[4] .

---

(١) « البداية والنهاية » (١١/ ٢٢٨) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد ، والطبراني في « الكبير » ، والحاكم في « المستدرك » وصححه ، عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣٢١) .

(٣) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » ، والطبراني في « الكبير » ، والحاكم في « المستدرك » ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن معاذ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣٣١)، و«تخريج المشكاة» (٥٠١١) .

(٤) صحيح : رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب الإخوان » عن عبادة بن الصامت ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣٢٠) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللّه تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي ، يوم لا ظل إلا ظلي** »[١] .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن المتحابين باللّه في ظل العرش** »[٢] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في اللّه ، وتبغض في اللّه** »[٣] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أوثق عرى الإيمان الموالاة في اللّه ، والمعاداة في اللّه، والحب في اللّه ، والبغض في اللّه عز وجل** »[٤] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **قال اللّه تعالى : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء** »[٥] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من أحب للّه ، وأبغض للّه ، وأعطى للّه ، ومنع للّه، فقد استكمل الإيمان** »[٦] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : «**ما تحابّ اثنان في اللّه تعالى إلا كان أفضلهما أشدهما حبًا لصاحبه** »[٧] .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » ، وأحمد ، وابن حبان ، والحاكم عن معاذ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٩٣٧) .

(٣) حسن : روه أحمد ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن البراء ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٠٠٩) .

(٤) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن ابن عباس ، والطيالسي ، والحاكم ، والطبراني في «الكبير» و« الأوسط » عن ابن مسعود ، وأحمد وابن أبي شيبة ، وابن نصر عن البراء ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٥٣٩) .

(٥) صحيح : رواه الترمذي ، وابن حبان ، والحاكم في « المستدرك » عن معاذ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣١٢) .

(٦) صحيح : رواه أبو داود ، والضياء في « المختارة » عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٨٠) ، و« صحيح الجامع » رقم (٥٩٦٥) .

(٧) صحيح : رواه البخاري في « الأدب » ، وابن حبان ، والحاكم في « المستدرك » عن أنس ، =

وقال رسول اللّه ﷺ : « **ما أحب عبد عبداً للّه ، إلا أكرم ربه** »[١] .

وقال رسول اللّه ﷺ : «**من أحب أن يجد طعم الإيمان ، فليحب المرء ، لا يحبه إلا للّه** »[٢] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **من سرّه أن يجد حلاوة الإيمان ، فليحب المرء لا يحبه إلا للّه** »[٣] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للّه ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللّه منه ، كما يكره أن يقذف في النار** »[٤] .

هذا فيمن يحب رجلاً في اللّه وربما لم يخبره بذلك ، فكيف إذا تحاب رجلان وأعلم كلاً منهما الآخر بذلك :

قال رسول اللّه ﷺ : « **إذا أحب أحدكم أخاه في اللّه فليعلمه أنه يحبه**»[٥] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله ، فليخبره أنه يحبه للّه** »[٦] .

= وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (٤٥٠) ، و« صحيح الجامع » رقم (٥٥٩٤) .

(١) حسن : رواه أحمد في « مسنده » عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٢٥٦) ، و« تخريج المشكاة » (٥٠٢٢) ، و« صحيح الجامع » رقم (٥٥١٦) .

(٢) حسن : رواه البيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة ، ورواه أحمد والبزار ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩٥٨) .

(٣) حسن : رواه أحمد ، والحاكم عن أبي هريرة ، ورواه ابن نصر ، والبزار ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٣٠٠) ، و« صحيح الجامع » رقم (٦٢٨٨) .

(٤) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أنس .

(٥) صحيح : رواه أحمد ، والبخاري في « الأدب المفرد » ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن حبان والحاكم عن المقداد بن معدي كرب ، وابن حبان عن أنس ، والبخاري في « الأدب » عن رجل من الصحابة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٧٩) .

(٦) صحيح : رواه أحمد ، والضياء في « المختارة » عن أبي ذر ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » =

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **المرء مع من أحب** »(١) .

وأي شرف بعد هذا الشرف الذي يتحفنا به رسول اللَّه ﷺ حيث يقول : «**وددت أنى لقيت إخواني الذين آمنوا بى ، ولم يروني** »(٢) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل**»(٣) .

وللَّه در الشاعر حين يقول :

الناس شتى إذا ما أنت ذقتهم لا يستوون كما لا يستوي الشجرُ

هذا له ثمـــر حلــو مذاقتــه وذاك ليـــس له طعــمٌ ولا ثَمَـــرُ

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **إن من عباد اللَّه لعباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء** » قيل : من هم لعلنا نحبهم ؟ قال : « **هم قوم تحابوا بروح اللَّه على غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، وهم على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم تلى ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾**(٤) »(٥) .

= وابن وهب في « الجامع » وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٨١) .

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي عن أنس ، والبخاري ومسلم عن ابن مسعود .

(٢) رواه أحمد عن أنس ، ورواه مالك ، وأحمد ، ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٣) إسناده صحيح : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الإخوان » ، ورواه هنَّاد بن السري في «الزهد» ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأخرجه أبو داود والطبراني وأبو نعيم في « الحلية » ، وقال ابن كثير : إسناده جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ، وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه الطبري .

(٤) سورة يونس الآية (٦٢) .

(٥) إسناده حسن : لا بأس به في الشواهد ، رواه ابن أبي الدنيا في « الإخوان » ، وأحمد في «المسند» من طريق ابن أبي الدنيا ، وابن المبارك في « الزهد » وقال المنذري : رواه أحمد =

وعن أبي مالك الأشعري ، أن رسول اللّه ﷺ أقبل على الناس بوجهه فقال : « **يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن للّه عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء على مجالسهم وقربهم من اللّه** » ، فقال أعرابي : يا رسول اللّه انعتهم لنا ، جَلِّهم لنا ، فتبسّم رسول اللّه ﷺ لقول الأعرابي ، وقال : « **هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في اللّه عز وجل وتَصَافَوْا ، يضع اللّه عز وجل لهم منابر من نور ليجلسهم عليها ، فيجعل وجوههم نوراً وثيابهم نوراً ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء اللّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** »[1] .

قال كعب الأحبار : « في الجنة عمود من ياقوتة حمراء ، في أعلاه سبعون غرفة ، هي منازل المتحابين في اللّه ، مكتوب في جباههم (المتحابون في اللّه) إذا أشرف الرجل منهم على أهل الجنة ، أضاء لأهل الجنة ، كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، فيقولون : هذا الرجل من المتحابين في اللّه » .

وقال علي ـ رضي اللّه عنه ـ : « عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار : ﴿ **فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ** ﴿١٠٠﴾ **وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** ﴾؟[2] .

وقال ابن السماك عند موته : « اللّهم إنك تعلم أني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قربة لي إليك .

= وأبو يعلى بإسناد حسن ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وأورده الهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧) ، وقال : رواه كله أحمد والطبراني بنحوه وزاد « على منابر من لؤلؤ قدام الرحمن ، ورجاله وثقوا .

(١) إسناده حسن : أخرجه هنّاد في « الزهد» ، وأبو نعيم في « الحلية » .

(٢) سورة الشعراء الآيتان (١٠٠ ـ ١٠١) .

وقال الفضيل في بعض كلامه : هاه تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟ بأي عمل عملته ؟ بأي شهوة تركتها ؟ بأي غيظ كتمته ؟ بأي رحم قاطع وصلتها ؟ بأي زلة لأخيك غفرتها ؟ بأي قريب باعدته في اللَّه ؟ بأي بعيد قاربته في اللَّه ؟

وقال مجاهد : المتحابون في اللَّه إذا التقوا فكشر بعضهم إلىٰ بعض تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا يبس .

وقال الفضيل : « نظر الرجل إلىٰ وجه أخيه علىٰ المودة والرحمة عبادة »(١) .

الحب في اللَّه :

وحد الحب في اللَّه : هو كل حب لولا الإيمان باللَّه واليوم الآخر لم يُتصور وجوده فهو حب في اللَّه ، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان باللَّه لم تك تلك الزيادة فتلك الزيادة من الحب في اللَّه فذلك وإن دقّ فهو عزيز .

قال الحريري : « تعامل الناس في القرن الأول بالدين حتىٰ رقّ الدين ، وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتىٰ ذهب الوفاء ، وفي الثالث بالمروءة حتىٰ ذهبت المروءة ولم يبق إلا الرهبة والرغبة »(٢) .

وأعلىٰ الحب في اللَّه أن يحب المرء للَّه في اللَّه لا لينال منه علمًا أو عملاً أو يتوسل به إلىٰ أمر وراء ذاته وهذا أعلىٰ الدرجات وهو أرقها وأغمضها :

فمن أحب إنسانًا حبًا شديدًا أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبوبه وأحب من يخدمه وأحب من يثني عليه محبوبه وأحب من يتسارع إلىٰ رضا محبوبه ، حتىٰ قال بقية بن الوليد : إن المؤمن إذا أحب المؤمن أحب كلبه .

(١) « الإحياء » (٢/ ١٧٥) .
(٢) « الإحياء » (٢/ ١٧٩) .

حقوق الأخوة والصحبة :

للَّه در علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال : « يا بني ! إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدت بك مؤنة مانك ، واصحب من إذا مددت يدك بخير مدّها ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن رأى سيئة سدّها ، اصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكتَّ ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك ، اصحب من إن قلت صدّق قولك ، وإن حاولتما أمرًا أمّرك ، وإن تنازعتما آثرك .

قال ابن أكثم : قال المأمون : فأين هذا ؟ فقيل له : أتدري لم أوصاه بذلك ؟ قال : لا . قال : لأنه أراد أن لا يصحب أحدًا . اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين ، كعقد النكاح بين الزوجين .

ولأخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء والتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : في المال :

عن عبادة بن الصامت ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **قال اللَّه تعالى : حَقَّتْ محبتي للمتباذلين فيّ** »[1] .

وللَّه در هلال بن العلاء بن عمر الباهلي :

مَلأْتُ يدي مِنَ الدنيــا مــــراراً فما طمع العواذلُ في اقتصادي
ولا وجــبتْ عليّ زكــاة مــــال وهــل تجبُ الزكاةُ على الجَـوادِ[2]

---

(١) إسناده صحيح : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الإخوان » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٤/ ١١٦) رقم (٤١٩٦) .

(٢) « روضة العقلاء » لابن حبان (ص٢٣٨) .

والمواساة بالمال مع الإخوان على ثلاث مراتب :

أدناها : أن تقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداءً ولم تحوجه إلى السؤال ، فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة .

الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن : كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه .

رأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان ، فسأل عنهما فقيل : هما صديقان ، فقال : ما بال أحدهما فقير والآخر غني ؟؟

الثالثة : وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين .

قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[١] .

وقال اللَّه عز وجل : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾[٢] .

أي كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من قال : نعلي ، لأنه أضافه إلى نفسه .

الإسعاف بالجاه :

الإسعاف بالجاه هو ألطف الصنائع موقعًا ، وربما كان أعظم من المال نفعًا ، قال بعض البلغاء : من علامة الإقبال : اصطناع الرجال .

وبذل الجاه أحد الحباءين[٣] .

---

(١) سورة الحشر الآية (٩) .

(٢) سورة الشورى الآية (٣٨) .

(٣) الحباءين : العطاءين .

والجاه هو الظل الذي يلجأ إليه المضطرون ، فإن أوطأه[١] ، اتسع بكثرة الأنصار والشيع ، وإن قبضه ، انقطع بنفور الغاشية والتبع ، فهو بالبذل ينمو ويزيد ، وبالكف ينقص ويبيد .

وعلىٰ من أُسعد بجاهه ثلاثة حقوق :

الأول : أن يستسهل المعونة مسروراً ولا يستثقلها كارهًا .

الثاني : مجانبة الاستطالة ، وترك الامتنان ، فأضيق الناس طريقًا وأقلهم صديقًا ، من عاشر الناس بعبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه .

والثالث : ألا يقرن بمشكور سعيه تقريعًا بذنب، ولا توبيخًا علىٰ هفوة .

ولله در سعد بن الربيع ـ رضي اللَّه عنه ـ في إيثاره العجيب :

لما هاجر عبد الرحمن بن عوف إلىٰ المدينة فقيراً ، لا شيء له ، آخىٰ رسول اللَّه ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع ، فعرض عليه سعد أن يشاطره نعمته ، وأن يطلق له أحسن زوجتيْه .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : بارك اللَّه لك في أهلك ومالك ولكن دُلَّني علىٰ السوق .

قال عبد اللَّه بن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ : « أتىٰ علينا زمان وما يرىٰ أحد منا أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم ، وإنا في زمانٍ الدينار والدرهم أحب إلينا من أخينا المسلم »[٢] .

قال سفيان بن عيينة : « سمعت مساور الوراق يحلف باللَّه ـ عز وجل ـ ما كنتُ أقولُ لرجل إني أحبك في اللَّه ـ عز وجل ـ فأمنعه شيئًا من الدنيا»[٣] .

---

(١) مهَّده وسهَّله .

(٢) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » : رواه الطبراني بأسانيد بعضها حسن .

(٣) كتاب « الإخوان » لابن أبي الدنيا (ص٢٠٤ ـ ٢٠٥) ، تحقيق محمد عبد الرحمن طوالبة ، نشر دار الاعتصام .

وقال عمر بن عبد العزيز : « ما أعطيت أحداً مالاً إلا وأنا أستقله ، وإني أستحي من اللَّه ـ عز وجل ـ إن سألت اللَّه ـ عز وجل ـ لأخ من إخواني وأبخل عنه بالدنيا ، وإذا كان يوم القيامة قيل لي : لو كانت الدنيا بيدك كنتَ أبخل » .

وقيل لمحمد بن المنكدر : ما بقي مما يُسْتَلَذُّ ؟ قال : الإفضال على الإخوان .

وقال يزيد بن عبد الملك : « إني لأستحي من اللَّه ـ عز وجل ـ أن أسأل الجنة لأخ من إخواني وأبخل عليه بدينار أو درهم » .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقرأ القرآن في سجدة واحدة .

وقال أحد الصالحين : « وددت أن جميع إخواني أتوني فشاركوني في معيشتي حتى يكون عيشنا عيشًا واحداً ، ولوددت أن جميع إخوني أتوني في حوائجهم ، وإني لأستحي من اللَّه ـ عز وجل ـ أن ألقى الأخ من إخواني فأدعو له بالجنة وأبخل عليه بالدنيا ، والدنيا أصغر وأحقر من أن يقال لي يوم القيامة : كنتَ كذّابًا ، لو كانت الدنيا في يدك كنتَ بها أبخل »(١) .

وقال أبو جعفر محمد بن الحسين لعبد اللَّه بن الوليد : يدْخل أحدكم يده في كُمِّ صاحبه ويأخذ ما يريد ؟ قلنا : لا ، قال : فلستم بإخوان كما تزعمون .

ولما حضرت الوفاة سعيد بن العاص قال لبنيه : يا بني لا تفقدوا إخواني مني عندكم عين وجهي ، أجروا عليهم ما كنتُ أجري ، واصنعوا بهم ما كنت أصنع ، ولا تلجئوهم للطلب ، فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه ، وارتعدت فرائصه ، وكلَّ لسانه ، وبدا الكلام في وجهه .

اكفوهم مُؤنة الطلب بالعطية قبل المسألة ، فإني لا أجد لوجه الرجل يأتي يتقلقل على فراشه ذاكراً موضعًا لحاجته ، فعدا بها عليكم لا أرى قضى

---

(١) كتاب « الإخوان » (ص٢٢٣ ـ ٢٢٤) .

حاجته عوضًا عن بذل وجهه ، فبادروهم بقضاء حوائجهم قبل أن يسبقوكم إليها بالمسألة[١] .

ودخل قوم على الحسن ـ رضي اللَّه عنه ـ فقالوا : يا أبا سعيد أصلّيْت؟ قال : نعم ، قالوا : فإن أهل السوق لم يصلوا بعد ؟ قال : ومَنْ يأخذ دِينه من أهل السوق ؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم ! قاله كالمتعجب منه .

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم ـ رحمه اللَّه ـ وهو يريد بيت المقدس ، فقال : إني أريد أن أرافقك ، فقال له إبراهيم : على أن أكون أملك لشيئك منك ، قال : لا ، قال : أعجبني صدقك .

وأعطى مرة حمارًا كان لرفيقه ـ بغير إذنه ـ رجلاً رآه راجلاً ، فلما جاء رفيقه سكت ولم يكره ذلك .

ورُوي أن مسروق أدان دينًا ثقيلاً ، وكان على أخيه خيثمة دين ، قال : فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم ، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم[٢] .

كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء :

قال علي ـ رضي اللَّه عنه ـ : لعشرون درهما أعطيها أخي في اللَّه أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين .

من رياض السلف :

جاء فتح الموصلي إلى صديق له ـ يُقال له عيسى التَمَّار ـ فلم يجده في المنزل ، فقال للخادم : أخرجي إليَّ كيس أخي ، فأخْرَجته له فأخذ درهمين ، وجاء عيسى إلى بيته فأخبرته الخادم بمجيء فتح وأخذه الدرهمين ، فقال : إن كنت صادقة فأنت حرَّة فنظر فإذا هي صادقة فعُتِقَتْ .

---

(١) كتاب « الإخوان » (ص٢١٩) .
(٢) « الإحياء » (٢/ ١٨٩) .

وعن مطرِّف قال : أتيت عثمان بن أبي العاص فقال لي : يا مطرِّف وَيَدَاك ملأىٰ ؟ فلما ولَّيْت أتبعني رسولاً معه صرَّة فيها أربعمائة ، فلما تيسرت ، أتيته بها ، فقال : لم أُعْطكها لآخذها منك .

وقال طعمة الجعفري : كان عمران بن موسىٰ بن طلحة يأتيني بالألف دينار والألفيْ دينار ويقول : أقسمها علىٰ إخوانك ولا تُعلمهم أنها مِن قِبَلي .

وكان يقول : ما رأيتُك إلا رأيت لك عليَّ فضلاً بقضاء حوائجي ، قال طُعمة : وإنما قضاء حوائجه أن يُعطيني الدنانير والدراهم أقسهما علىٰ الفقهاء .

وقال منصور بن أبي الأسود : كان ليث بن أبي سُليم يأتيني بالنفقة فيقول : خذها ، فإن لم تحتج إليها فأعطها من يحتاج إليها من أهل البيت .

وكان عامر بن عبد اللَّه بن الزبير يتحيَّن العباد وهم سجود : أبا حازم ، وصفوان بن سُليم ، وسليمان بن سُحيم ، وأشباههم ـ فيأتيهم بالصرر فيها الدنانير والدراهم ، فيضعها عند نعالهم ، حيث يحسُّون بها ولا يشعرون بمكانه ، فيقال : ما يمنعك أن ترسل بها إليهم ، فيقول : أكره أن يتمعَّر وجهه إذا نظر إلىٰ رسولي أو إذا لقيني .

وعن زهير بن أبي خيثمة قال : استقرض أبي من الحسن بن الحرّ ألف درهم ، فلما جاء يردها عليه قال له الحسن بن الحر : اذهب فاشتر بها لزهير سُكرًا .

وعن الأعمش أن خيثمة بن عبد الرحمن وَرِث مائتي ألف فأنفقها علىٰ إخوانه[1] .

---

(١) انظر : كتاب « الإخوان » ، لابن أبي الدنيا .

وانظر إلى أريج وعطر أهل البيت :

كان أبو جعفر محمد بن علي يُجيزُ بالخمسمائة والستمائة إلى الألف، وكان لا يملُّ من مجالسة إخوانه .

وعن الحسن بن كثير قال : شكوت إلى محمد بن علي الحاجة وجفاء إخواني .

فقال : بئس الأخ أخ يرعاك غنيًا ويقطعك فقيرًا ، ثم أمر غلامه فأخرج كيسًا فيه سبعمائة درهم فقال : استنفق هذه فإذا نفدت فأعلمني .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يدخل عليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب ، ويكسوهم الثياب الحسنة ، ويهب لهم الدراهم : فتقول له مولاته سلمى : ما تصنع ؟ فيقول لها : يا سلمى ما يؤمَّل في الدنيا بعد المعارف والإخوان ؟

ولقي الحسن البصري بعض إخوانه ، فلما أراد أن يفارقه خلع عمامته وألبسها إياه ، وقال : إذا أتيت أهلك فبعها واستنفق ثمنها .

وكان مورِّق العجلي يأتي بالصرر فيها الأربعمائة والخمسمائة فيودعها إخوانه ، ثم يلقاهم بعد ، فيقول : انتفعوا بها فهي لكم .

ولقى حكيم بن حزام عبد اللَّه بن الزبير ـ بعدما قُتل الزبير ـ فقال : كم ترك أخي عليه من الدَّيْن ؟ قال : ألفيْ ألف ، قال : عليَّ منها ألف ألف .

وقال سفيان الثوري : ما بقي أحد يدفع به عن أهل الكوفة إلا ابن سوقة ، كانت عنده عشرون ومائة ألف فقدَّمها ، وكانت له صرر فيها مال ، فإذا دخل عليه إخوانه ، قال : إخواني من احتاج إلى شيء فليأخذ ، فأخذوا واللَّه حتى نفدت عن آخرها ، فرحم اللَّه محمد بن سوقة .

وعن مطر الورَّاق قال : أتيت محمد بن واسع يومًا ، فلما رآني قال

برأسه بين رجليه فخمَّر وجهه أن أنظر إليه ، فلم يرفع رأسه ، فقمتُ ، فذهبتُ ، فلما كان بعد أيام أتاني بكيس فيه سبعمائة درهم فدفعها إليَّ وأنا في حانوتي في قنطرة حرة ، فقلت : تبعث إليَّ في حوائجك ؟ قال وأي حاجة لي ، أتيتني فظننت بك الحاجة ، فما استطعت أن أنظر إليك ، قال مطر : فقلتُ له : أنا بخير ، فقال : أنت كيف شئت !! الدراهمُ لا ترجع إلي[1] .

قال الحسن : كنا نعد البخيل الذي يُقرِض أخاه !! وقال ـ رحمه اللَّه ـ : ليس من المروءة أن يربح الرجل علىٰ صديقه .

وجاء رجل من السلف الصالح إلىٰ بيت صديق له ، فخرج إليه فقال : ما جاء بك ؟ قال : عليَّ أربعمائة درهم ، فدخل الدار فوزنها ، ثم خرج فأعطاه ، ثم عاد إلىٰ الدار باكيًا ، فقالت زوجته : هلاَّ تعللت عليه ، إذا كان إعطاؤه يشق عليك ؟ فقال : إنما أبكي لأني لم اتفقَّد حاله ، فاحتاج أن يقول ذلك !![2] .

قال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ في اللَّه عز وجل ، فقلت له يومًا : أعطني دراهم ، فقال : كم تريد ؟ فسقط من عيني ، وخرجت أُخوّته من قلبي بقوله : كم تريد ؟[3] .

الحق الثاني : إطعام الإخوان وكسوتهم :

قال علي ـ رضي اللَّه عنه ـ : لأن أجمع نفرًا من أصحابي علىٰ صاعٍ أو صاعَيْن من طعام أحب إلىٰ من أخرج إلىٰ سوقكم فأعتق نسمة .

---

(١) انظر : كتاب « الإخوان » (ص٢١٦ ـ ٢١٧) .
(٢) « التبصرة » ، لابن الجوزي (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١) .
(٣) « التبصرة » ، لابن الجوزي (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) .

ولله در أبي سليمان الداراني حين يقول : « لو أن الدنيا كلها لي في لقمة ، ثم جاءني أخ لأحببت أن أضعها في فيه »[١] .

وما أحلىٰ أبا سليمان وأطيبه حين يقول : إني لألقم اللقمة أخًا من إخواني فأجد طعمها في حلقي[٢] .

ودخل مالك بن دينار ومحمد بن واسع منزل الحسن وكان غائبًا فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل ، فقال له مالك : كُفَّ يدك حتىٰ يجيء صاحب البيت ، فلم يلتفت محمد إلىٰ قوله ، وأقبل علىٰ الأكل ـ وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقًا ـ فدخل الحسن وقال : يا مويلك، هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضا حتىٰ ظهرت أنت وأصحابك ، أشار بهذا إلىٰ أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة ، كيف وقد قال تعالىٰ : ﴿ **أو صديقكم** ﴾ ، وقال : ﴿ **أو ما ملكتم مفاتحه** ﴾ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلىٰ أخيه ويفوِّض له التصرف كما يريد[٣] .

وكان أبو جعفر محمد بن علي يدعوا نفرًا من إخوانه كل جمعة فيطعمهم الطعام الطيب ، ويطيبهم ، ويَبخِّرهم ، ويروحون إلىٰ المسجد من منزله[٤] .

ولله در الإمام أحمد بن حنبل حين يقول : لو أن الدنيا جمعت حتىٰ تكون في مقدار لقمة ، ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها في فم أخيه

---

(١) كتاب « الإخوان » ، (ص٢٣٥) .
(٢) « الإحياء » (٢/ ١٩٠) .
(٣) « الإحياء » (٢/ ١٩٠) .
(٤) كتاب « الإخوان » (ص٢٣٠) .

المسلم لما كان مسرفًا[١] .

وتعال إلىٰ بستان الحسن البصري وأزاهيره :

قال رجل للحسن : يا أبا سعيد : الرجل يذبح الشاة فيصنعها ، ويدعو عليها نفرًا من إخوانه ، قال : وأين أولئك ؟ ذهب أولئك .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ إذا دخل عليه إخوانه أتاهم بما عنده ، وربما قال لبعضهم : أخرج السلة من تحت السرير ، فيخرجها فإذا فيها رطب ، فيقول : إنما ادخرته لكم .

وقال يونس بن عبيد : كنا عند الحسن البصري فأهديت إليه سلة من سكر ، ففتحها ، فلم أر سكرًا كان أحسن منه : فقال برجله : اهضموا ، أي كلوا .

وقال عن بن يونس : دخل رجل علىٰ الحسن فوجده نائمًا علىٰ سريره ، ووجد عند رأسه سلة فيها فاكهة ، ففتحها ، فجعل يأكل منها فانتبه فرأىٰ الرجل يأكل ، فقال : رحمك اللَّه ، هذا ـ واللَّه فعل الأخيار .

وكان للحسن بيت إذا فتح بابه فهو إذنه ، فجاء أعرابي فصادفه مفتوحًا ، فدخل والحسن في المذهب ، فجاء إلىٰ شيء تحت سرير الحسن فأخرجه وجعل يأكل ، فنظر إليه الحسن وجعل يبكي ، فقيل له : ما يبكيك يا أبا سعيد ؟ فقال : ذكرني هذا أخلاق قوم قد مضوا .

أما ابن سيرين فقد قال عنه أبو خلْدَة :

دخلنا علىٰ ابن سيرين أنا وعبد اللَّه بن عوف ، فرحَّب بنا وقال : لا أدري كيف أتحفكم ؟ كل رجل منكم في بيته خبز ولحم ولكن سأطعمكم شيئًا لا أراه في بيوتكم ، فجاء بشُهْدة[٢] ، وكان يقطع بالسكين ويطعمنا .

---

(١) « طبقات الحنابلة » (١/ ١٠٦) .

(٢) الشَّهْد والشُّهْد هو العسل ، والشهدة أخصُّ جمع شهاد .

وقال أبو إسحاق الأقرع : رأيت عبد اللَّه بن المبارك يخرج من عند سفيان بن عيينة مسروراً طيِّب النفس ، فقيل له في ذلك ، فقال : وما يمنعني مِنْ ذلك ؟ حدثني ابن عيينة بأربعين حديثًا وأطعمني خبيصًا[1] .

وكان ابن المبارك ـ رحمه اللَّه ـ يُطعم أصحابه في الأسفار أطايب الطعام وهو صائم[2] .

وعن شعيب بن حرب قال : كان حمزة الزيَّات يُقرئنا القرآن ، ويطعمنا الخبيص .

قال الأعمش : وكان خيثمة يصنع الخبيص والطعام الطيب ، فيدعوا إبراهيم النخعي ويدعونا معه ، ويقول كلوا ما أشتهيه ، ما أصنعه إلا لكم» .

وعن أبي الزناد أن زيداً قدم من سفر ، فأهدىٰ له طلحة سلال خبيص ، فجمع عليها إخوانه القراء ، فأكلوا وكساهم ثوبًا ثوبًا .

وكان سعيد بن العاص يدعوا جيرانه وجلساءه في كل يوم جمعة ، فيصنع لهم الطعام ، ويكسوهم الثياب ، فإذا أرادوا أن يتفرقوا أمر لهم بالجوائز ، وبعث إليهم[3] .

وقدم الأشعث بن قيس من مكة ، فلما صلىٰ الفجر أمرهم فأخذوا بأبواب المسجد ، فأمر لكل من في المسجد بحُلَّة ونعلين .

وكان خيثمه يحمل صرراً فيجلس في المسجد ، فإذا رأىٰ رجلاً من أصحابه في ثياب رثة اعترض فأعطاه صرة .

وعن الأعمش قال : ربما رأيت علىٰ إبراهيم الثوب ، فأقول من

---

(١) الخَبص : الخلْط ، والخبيص : المعمول من التمر والسمن .
(٢) « لطائف المعارف » (ص٢٦٠) ، طبع مؤسسة الريان ، ودار ابن حزم .
(٣) كتاب « الإخوان » (ص٢٣٣ـ٢٣٤) .

كساكم؟ فيقول : خيثمة ، وربما وُلِدَ له فيسترضع خيثمة الصرة لولده .

ورأىٰ مجمع التيمي علىٰ سفيان الثوري إزارًا متخرقًا فجاء بأربعة دراهم ، فقال : اشتر بها إزارًا(١) .

الحق الثالث : الإعانة بالنفس والبدن في قضاء الحاجات ، والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجات الخاصة :

وهذه أيضًا لها درجات كالمواساة بالمال ، **فأدناها** القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة .

قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي ، فإذا لم يقضها فكبِّر عليه واقرأ هذه الآية : ﴿ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾(٢) .

وقضىٰ ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاءه بهدية ، فقال : ما هذا ؟ قال : لما أسديته إليَّ ، فقال : خذ مالك عافاك اللَّه ، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبِّر عليه أربع تكبيرات وعده في الموتىٰ .

قال جعفر بن محمد : إني لأتسارع إلىٰ قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني ، هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء ؟

وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله ، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه ، بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته ، وكان الواحد منهم يتردد إلىٰ باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ؟ هل

---

(١) كتاب « الإخوان » (٢٤٠ ـ ٢٤٨) .

(٢) سورة الأنعام الآية (٣٦) .

لكم ملح ؟ هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها حيث لا يعرفه أخوه ، وبهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها[1] .

قال هُريم بن سفيان : كان عمرو بن قيس الملائي يمر بنا في كل جمعة ، ومعه هدية قد حملها ، يأتي بها منزل منصور بن المعتمر قال : وذلك بعد موت منصور بما شاء الله ، فلم يزل على ذلك حتى مات ، قال : فبلغني أن أهله كانت تعاهدهم بنحو من ذلك بعد ما مات عمرو .

وعن بسطام التيمي قال : رأيت طلحة بن مصرِّف يخرج من زقاق ضيِّق في التيم ، فقلتُ : من أين يجيء طلحة ؟ قالوا : يأتي أم عمارة بن عمير يبرها بالنفقة والكسوة والصلة ، قال : وذلك بعد موت عمارة ببضع عشرة سنة ، قال : وكانت أم عمارة أعجمية .

وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو أهم من حاجتك ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها ، ولا ترى لنفسك حقًا بسبب قيامك بها ، بل تتقلد مِنَّة بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره ، ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة ، بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد .

كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا ، وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

قال رسول الله ﷺ : « **أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس ، وأحب**

---

(١) « الإحياء » (٢/ ١٩٠-١٩١) .

الأعمال إلى اللّه عز وجل سرور يدخله على المسلم ، أو يكشف عنه كربة ، أو يقضي عنه دينا ، أو يطرد عنه جوعا ، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلى من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً ، ومن كفَّ غضبه ستر اللّه عورته ، ومن كظم غيظه ، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ اللّه قلبه رجاء يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تهيأ له أثبت اللّه قدمه يوم تزول الأقدام ، وإن سوء الخلق يفسد العمل ، كما يفسد الخل العسل »[١] .

قال عبد اللَّه بن عثمان شيخ البخاري : « ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي ، فإن تمَّ وإلا قمت له بمالي ، فإن تَّم وإلا استعنَّا له بالإخوان، فإن تَّم وإلا استعنا له بالسلطان »[٢] .

ودخل علي بن زين العابدين بن الحُسين على محمد بن أسامة بن زيد يعوده، فبكى ابن أسامة ، فقال له : ما يبكيك ؟ قال : عليَّ دين ، قال : وكم هو ؟ قال : خمسة عشر ألف دينار - وفي رواية سبعة عشر ألف دينار - فقال : هي عليّ »[٣] .

وقال الهيثم بن جميل : « جاء فضيل بن مرزوق إلى الحسن بن حي فأخبره أنه ليس عنده شيء ، فقام الحسن فأخرج ستة دراهم ، وأخبره أنه ليس عنده غيرها ، فقال : سبحان اللَّه ليس عندك غيرها وأنا آخذها ، فأخذ ثلاثة وترك ثلاثة »[٤] .

أرسل الحسن البصري جماعة من أصحابه في قضاء حاجة لأخ لهم ، وقال مروا بثابت البناني فخذوه معكم ، فمروا بثابت فقال : أنا معتكف ،

---

(١) صحيح : « السلسة الصحيحة » رقم (٩٠٦) .
(٢) « الآداب الشرعية » ، لابن مفلح (٢/ ١٨٩) .
(٣) « البداية والنهاية » (٩/ ١٠٥) .
(٤) « ميزان الاعتدال » للذهبي (٣/ ٣٦٢) .

فرجعوا إلىٰ الحسن فأخبروه ، فقال لهم : قولوا له : يا أعمش أماعلمت أن سعيك في حاجة أخيك خير لك من حجة بعد حجة ، فرجعوا إلىٰ ثابت فأخبروه ، فترك اعتكافه وخرج معهم »[١] .

● قال ابن رجب في « لطائف المعارف » :

« كان كثيرمن السلف يشترط علىٰ أصحابه في السفر أن يخدمهم ؛ اغتنامًا لأجر ذلك ؛ منهم : عامر بن عبد قيس ، وعمرو بن عتبة بن فرقد ، مع اجتهادهما في العبادة في أنفسهما ، وكذلك كان إبراهيم بن أدهم يشترط علىٰ أصحابه في السفر الخدمة والأذان .

وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره ، فيشترط عليهم أن يخدمهم ، فكان إذا رأىٰ رجلاً يريد أن يغسل ثوبه ، قال له : هذا من شرطي ، فيغسله ، وإذا رأىٰ من يريد أن يغسل رأسه ، قال : هذا من شرطي : فيغسله ، فلما مات نظروا في يده ، فإذا فيها مكتوب : «مِن أهل الجنة» ، فنظروا إليها فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم .

● وكان ابن المبارك إذا أراد الحج من بلده مرو جمع أصحابه وقال : من يريد منكم الحج ؟ فيأخذ منهم نفقاتهم ، فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه ، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ، ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف ، ثم يرجع بهم إلىٰ بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعامًا ، ثم جمعهم عليه ، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فرد إلىٰ كل واحد نفقته »[٢] .

إن من حقوق الإخوان عليك أن تقضي عنه دينه ، تفك حاجته ، ترفع

---

(١) « جامع العلوم والحكم » (ص٣٢١) طبعة الحلبي .
(٢) « لطائف المعارف » (ص٢٥٩ ـ ٢٦٠) .

فقره وعوزه وإن كان في المشرق وأنت في المغرب ، وبهذا تكون أخاه ويكون أخاك .

قال محمد بن خالد لأبي سليمان الداراني : « يكون الرجل بأفريقية والآخر بسمرقند وهما أخوان ؟ قال : نعم ، قلت : وكيف ذلك ؟ قال : تكون نيَّته متى لقيه واساه فإذا كانت نيته كذلك فهو أخوه »[1] .

• زيارتهم في اللّه :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أخبركم برجالكم من أهل الجنة ؟ النبى في الجنة، والشهيد في الجنة ، والصدِّيق في الجنة ، والمولود في الجنة ، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر في الجنة** »[2] .

وللّه در رجال يرسل اللّه إليهم ملائكة تخبرهم بحبه إياهم :

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **زار رجل أخًا له فى قرية ، فأرصد اللّه مالكا على مدرجته ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخا لي في هذه القرية ، فقال : هل له عليك من نعمة تربُّها ؟ قال : لا إلا أني أحبه في اللّه ، قال :فإني رسول اللّه إليك أن اللّه أحبك كما أحببته** »[3] .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **من عاد مريضـًا ، أو زار أخًا له فى اللّه ، ناداه منادٍ ، أن طِبْتَ وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلاً** »[4] .

---

(١) « حلية الأولياء » (٩/ ٢٧٤) .

(٢) حسن : رواه الدارقطني في « الأفراد » ، والطبراني في « الكبير » عن كعب بن عجرة ، وحسنَّه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٦٠٤) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، والبخاري في « الأدب » .

(٤) حسن : رواه الترمذي ،و ابن ماجه ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٦٣) .

وعن عبـادة بن الصامـت قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يروي عن ربه ـ تبارك وتعالي ـ قال : « **حَقَّت محبتي على المتزاورين فيَّ** »[١] .

وللّه در ليث بن أبي سُلَيم حين يقول : « ما من رجل يزور أخاه لا يزوره إلا ابتغاء مرضاة اللّه ـ عز وجل ـ وتنجيز الموعود ، والتماس ما عنده ، وحفظًا لحق أخيه إلا حيَّاه كل ملك بتحية لا يحيي بها صاحبه ، ثم صاح ورق الجنة وسبَّح ، ثم قيل : هذا فلان زار أخًا له » .

أبو مسلم الخولاني ومعاذ بن جبل وأخُوَّة في اللّه :

عن أبي مسلم الخولاني قال : أتيت مسجد أهل دمشق ، فإذا حلْقة فيها كهول من أصحاب محمد ﷺ ، وإذا شاب فيهم أكحل العين برَّاق الثنايا كلما اختلفوا في شيء ردُّوه إلى الفتى ، فقلت لجليس لي : من هذا؟ قال : هذا معاذ بن جبل فجئت من العشيّ فلم يحضر ، فغدوت من الغد فلم يجيء ، فخرجت فإذا أنا بالشاب يصلي إلى سارية فركعت ثم تحولت إليه ، قال : فسلم فدنوت منه ، فقلت : إني أحبك في اللّه تعالى ، قال : فمدّني إليه وقال : كيف قلت ؟ قلت : إني أحبك في اللّه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **المتحابون في اللّه على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله** »[٢] .

قال : فخرجت حتى لقيت عبادة بن الصامت فذكرت حديث معاذ بن جبل فقال : سمعت رسول اللّه ﷺ يحكي عن ربه ـ عز وجل ـ يقول : « **حقت محبتي للمتحابين فيّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ ، وحقت محبتي للمتزاورين في ، والمتحابون في اللّه علي منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله** »[٣] .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب الإخوان » ، وإسناده صحيح .
(٢) أخرجه أحمد في « مسنده » (٥/ ٢٣٧) .
(٣) مر تخريجه .

الفاروق يحب ألف أخ في اللَّه :

قال محارب بن دثار : سمعت عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ يقول : « لقد أحببت في اللَّه ـ عز وجل ـ ألف أخ كلهم أعرف اسمه ، واسم أبيه ، واسم قبيلته ، وأعرف مكان داره » .

وقال محارب : حيث قال : « أعرف مكان داره » علمت أنه كان يزورهم ويأتيهم[١] .

وقال عمر بن حَطَّان : أحببت ألف أخ كلهم أعرف اسمه واسم أبيه وقبيلته ومكان داره[٢] .

قال أبو سليمان الداراني : قد يعملون بطاعة اللَّه عز وجل ، ويتعاونون على أمره ، ولا يكونون إخوانًا حتى يتزاوروا ويتباذلوا[٣] .

وقال معروف الكرخي : امش ميلاً صل جماعة ، امش ميلين صل جمعة ، امش ثلاثة أميال عده مريضًا ، امش أربعة أميال شيع جنازة ، امش خمسة أميال شيِّع حاجًّا أو مُعتمرًا ، امش ستة أميال شيِّع غازيًا في سبيل اللَّه ، امش سبعة أميال بصدقة من رجل إلى رجل ، امش ثمانية أميال أصلح بين الناس ، امش تسعة أميال صِلْ رحمًا وقرابة ، امش عشرة أميال في حاجة عيالك ، امش أحد عشر ميلاً في معاونة أخيك ، امش بريدًا ـ والبريد اثنا عشر ميلاً ـ زر أخًا في اللَّه عز وجل !![٤] .

وكان الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه اللَّه تعالى ـ : (إذا بلغه عن شخص

---

(١) « كتاب الإخوان » لابن أبي الدنيا (ص١١٢) .
(٢) « التبصرة » لابن الجوزي (٢/ ٢٩٩) .
(٣) « كتاب الإخوان » (ص١٢٧) .
(٤) « التبصرة » لابن الجوزي (٢/ ٣٠٠) .

صلاح أو زهد ، أو قيام بحق ، أو اتباع للأمر ، سأل عنه ، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة ، وأحب أن يعرف أحواله)[١] .

وانظر أخي إلى اتفاق القلوب على المودة :

قال مجاهد : مرَّ على عبد اللَّه بن عباس رجل فقال : إن هذا يحبني ، فقيل : أَنَّى علِمْتَ ذلك ؟ قال : إني أحبه . . .

قال عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل : « لَمَّا أُطلق أبي من المحنة ، خشي أن يجيء إليه إسحاق بن راهويه ، فرحل أبي إليه ، فلما بلغ الريّ دخل إلى مسجد ، فجاء مطر كأفواه القرب ، فلما كانت العتمة قالوا له : اخرج من المسجد فإنا نريد أن نغلقه ، فقال لهم : هذا مسجد اللَّه وأنا عبد اللَّه ، فقيل له أيما أحب إليك أن تخرج أو نجرَّ برجلك ؟ قال أحمد : فقلت : سلاماً ، فخرجت من المسجد والمطر والرعد والبرق فلا أدري أين أضع رجلي ، ولا أين أتوجه ، فإذا رجل قد خرج من داره فقال لي : يا هذا أين تمرُّ في هذا الوقت ؟ فقلت : لا أدري أين أمرُّ : فقال لي : ادخل ! فأدخلني داراً ونزع ثيابي ، وأعطوني ثيابًا جافة وتطهرت للصلاة ، فدخلت إلى بيت فيه كانون فحم ولبود ومائدة منصوبة ، فقيل لي : كُلْ ، فأكلت معهم ، فقال لي : من أين أنت ؟ فقلت : أنا من بغداد فقال لي : تعرف رجلاً يُقال له أحمد ابن حنبل ؟ فقلت : أنا أحمد بن حنبل ، فقال لي : وأنا إسحق بن راهويه »[٢] .

وفي أحمد بن حنبل قال إسحاق : لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام .

---

(١) « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي (ص٢١٨) .

(٢) « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي (ص٣٨٠) .

وللَّه در القائل :

قد يقطع الرحـــم القريب وتُكفر النعمـــاء ولا كتقـــارب القلبين
يُدْني الهوى هذا ويُدْني ذا الهـدى فإذا همـــا نفسٌ تـــرى نفسيْن[1]

تحفة النفس للنفس :

زيارة الأخ في اللَّه هي تحفة النفس للنفس ، ليست مناخًا للبطَّالين الفارغين أو ملجأً للمتعطلين ، بل هي مجالس قدسية لا يطؤها المسرفون ، وأفضل الإخوان رجل مكنك من نفسه حتىٰ تزرع فيه خيراً ، فإنه نعم العون لك علىٰ كمالك .

قال أبو عبيد القاسم : « زرت أحمد بن حنبل في بيته ، فأجلسني في صدر داره وجلس دوني ، فقلت : يا أبا عبد اللَّه ، أليس يقال : صاحب البيت أحق بصدر بيته ؟

فقال : نعم ! يقعد ويُقعد من يريد ، قال : فقلت في نفسي : خذ إليك يا أبا عبيد فائدة ، قال : ثم قلت له : يا أبا عبد اللَّه ، لو كنت آتيك علىٰ نحو ما تستحق لأتيتك كل يوم ، فقال : لا تقل ، إن لي إخوانًا لا ألقاهم إلا في كل سنة مرة أنا أوثق بمودتهم ممن ألقىٰ كل يوم .

قال : قلت : هذه أخرىٰ يا أبا عبيد ، فلما أردت القيام ، قام معي ، فقلت : لا تفعل يا أبا عبد اللَّه ، فقال : قال الشعبي : من تمام زيارة الزائر أن تمشي معه إلىٰ باب الدار وتأخذ بركابه ، قال : فقلت : يا أبا عبيد هذه الثالثة ، قال : فمشىٰ معي إلىٰ باب الدار وأخذ بركابي »[2] .

* * *

---

(١) « العقد الفريد » لابن عبد ربه (٢/ ٣١٩) .
(٢) « مناقب الإمام أحمد » (ص١١٣) .

يغسل رجل أخيه :

روىٰ الخطيب البغدادي في « تاريخه » عن النقاش أنه قال : « بلغني أن بعض أصحاب محمد بن غالب أبي جعفر المقرئ جاء في يوم وحل وطين، فقال له : كيف أشكر هاتين الرجلين اللتين تعبتا إليَّ في مثل هذا اليوم لتكسباني الثواب ؟ ثم قام بنفسه فاستقىٰ له الماء وغسل رجليْه ![1] .

حق الأخ على اللسان بالسكوت مرة وبالنطق أخرى :

أما السكوت ، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته ، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه ، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله .

وليسكن عن أسراره التي بثها إليه ، ولا يبثها إلىٰ غيره ألبتة ولا إلىٰ أخص أصدقائه ، ولا يكشف منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن .

قالوا : صدور الأحرار قبور الأسرار .

وقيل لرجل : كيف حفظك للسر ؟ قال : أستره وأستر أني أستره .

قال ابن المعتز :

ومستودعي سِرّا تبوّأت كتمه ... فأودعته صدري فصار له قبرا

وقال آخر :

والسِرُّ في صدري كثاوٍ بقبره ... لأني أرى المقبور ينتظر النشرا

ولكنني أنساه حتى كأنني ... بما كان منه لم أُحِطْ ساعة خُبرا

ولو جاز كتم السرِّ بيني وبينه ... عن السر والأحشاء لم تعلم السرّا

(١) « تاريخ بغداد » (٣/ ١٤٣) .

وأفشى بعضهم سراً له إلى أخيه ثم قال له : حفظت ؟ فقال : بل نسيت .

قال أبو سعيد الثوري : إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه ، ثم دسَّ عليه من يسأله عنك وعن أسرارك ، فإن قال خيراً وكتم سرَّك فاصحبه .

ومن السكوت أن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذي سبك من بَلَّغَكَ ، وليعلم أن من طلب مُنَزَّهاً عن كل عيب اعتزل عن الخلق كافة ، ولن يجد من يصاحبه أصلاً ، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ ، فهو الغاية والمنتهى ، فالمؤمن الكريم أبداً يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، وأما المنافق اللئيم فإنه أبداً يلاحظ المساوئ والعيوب .

قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير ، والمنافق يطلب العثرات ، وقال الفضيل : الفتوة : العفو عن زلات الإخوان .

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ : « ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ، ولا أحد يعصي الله ولا يطيعه ، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل ، وإذا جعل مثل هذا عدلاً في حق الله ، فبأن تراه عدلاً في حق نفسك ومقتضى أُخُوَّتك أولى .

وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه : « **لا تحسَّسُوا ولا تجسَّسُوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً** » .

فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين ، ويكفيك تنبيهاً على كمال الرتبة في ستر القبيح ، وإظهار الجميل أن الله تعالى وُصف به في الدعاء قيل : يا مَنْ أظهر الجميل وستر القبيح ، والمرضيُّ عند الله من تخلَّق بأخلاقه فإنه ستَّار العيوب وغفَّار الذنوب ومتجاوز عن العبيد ،

فكيف لا تتجاوز أنت عمن هو مثلك أو فوقك وما هو بكل حال عبدك ولا مخلوقك .

كيف تصنع إذا رأيت أخاك نائمًا وقد كشف الريح ثوبه عنه ؟ أتستره وتغطيه ؟ أم تكشف عورته ؟ فما بالك تسمع الكلمة في أخيك فتزيد عليها وتسيغها بأعظم منها فالأخ من يعلم منك ما يعلم اللَّه ، ثم يستر عليك كما يستره اللَّه .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1] .

وأقل درجات الأُخُوَّة أن تعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، ولا شك أنك تنتظر منه ستر العورة والسكوت عن المساوئ والعيوب ، ولو ظهر لك منه نقيض ما تنتظره اشتد عليه غيظك وغضبك ، فما أبعدك إذا كنت تنتظر منه ما لا تضمره له ولا تعزم عليه لأجله ، وويل لك في نص كتاب اللَّه حيث قال : ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** ﴾[2] .

وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية ، واصحب من كل صدق الأخوة ثابتًا عنده على اختلاف الأحوال عند غضبه ورضاه ، وعند طمعه وهواه ، ولله در القائل :

وترى الكريم إذا تصرَّم وصلُه ... يخفي القبيح ويظهر الإحسانَ
وترى اللئيم إذا تقضّى وصلُه ... يخفي الجميل ويظهر البهتانا

---

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أنس .
(٢) سورة المطففين الآيات (١ : ٣) .

السكوت عن مماراته وجداله :

فالمماراة والمنافسة عين التدابر والتقاطع ، فإن التقاطع يقع أولاً بالآراء ، ثم بالأقوال ، ثم بالأبدان ، وقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد اللَّه إخوانًا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذله ، بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم** »(١) ، وأشد الاحتقار المماراة .

وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلت مروءته وذهبت كرامته .

وقال عبد اللَّه بن الحسن : إياك ومماراة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم .

وقال بعض السلف : أعجز الناس من قصَّر في طلب الإخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم .

وعلى الجملة ، فلا باعث على المماراة إلا إظهار التميز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه باظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحق والجهل ، ولا معنى للمعاداة إلا هذا ، فكيف تضامنه الإخوه والمصافاة ؟ »(٢) .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان مُحقًا ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه** »(٣) .

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، وأوله متفق عليه من حديثه وحديث أنس .

(٢) « الإحياء » (٢/ ١٩٥-١٩٦) .

(٣) حسن : رواه أبو داود ، والضياء في « المختارة » عن أبي أمامة ، وحسنَّه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٤٦٤) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما ضل قوم بعد هدىً كانوا عليه ، إلا أُوتوا الجدل**»[(١)] .

وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة والحض على المساعدة إلى حدٍّ لم يروا السؤال أصلاً ، وقالوا : إذا قلت لأخيك قم فقال إلى أين ؟ فلا تصحبه ، بل قالوا : ينبغي أن يقوم ولا يسأل .

وقال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النوائب فأقول : أعطني من مالك شيئًا ، فكان يلقي إليَّ كيسه فآخذ منه ما أريد ، فجئته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شيء ، فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبي .

وقال آخر : إذا طلبت من أخيك مالاً ، فقال : ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإخاء .

واعلم أن قوام الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل .

قال أبو عثمان الحيري : « موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم »[(٢)] .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق بالمحاب :

« **بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور** »[(٣)] .

فمن ذلك : « أن يتودد إليه بلسانه ، ويتفقده في أحواله التي يجب أن يُتفقد فيها ، وكذا جملة أحواله التي يكرهها بلسانه وأفعاله ينبغي أن يظهر كراهتها ، وجملة أحواله التي يُسرُّ بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها ، فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء .

---

(١) حسن : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٣٣) ، و« المشكاة » (١٨٠) ، و« صحيح الترغيب » رقم (١٣٧) .

(٢) « الإحياء » (٢/١٩٦) .

(٣) « الإحياء » (٢/١٩٦) .

• ومن ذلك أن يخبره بمحبته له :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا أحب أحدكم أخاه فليُعْلِمْه أنه يحبه** »[1] .

وقال ﷺ : « **إذا أحب أحدكم أخاه في اللَّه فليعلمه ، فإنه أبقى في الأُلفة ، وأثبت في المودة** »[2] .

وقال ﷺ : « **إذا أحب أحدكم صاحبه فليأته في منزله ، فليخبره أنه يحبه للَّه**»[3] ، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب ، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف .

• ومن ذلك أن يدعوه بأحب الأسماء إليه في غيبته وحضوره :

قال عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ : ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً ، وتوسِّع له في المجلس ، وتدعوه بأحب الأسماء إليه .

• ومن ذلك أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده :

فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح ، فإن إخفاء ذلك محض الحسد .

• ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك ، بل على نيّته وإن لم يتم ذلك :

قال علي ـ رضي اللَّه عنه ـ من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة .

---

(١) سبق تخريجه ، وهو صحيح .

(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب الإخوان » عن مجاهد مرسلاً ، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١١٩٩) ، و« صحيح الجامع » رقم (٢٨٠) .

(٣) سبق تخريجه .

• وأعظم من ذلك الذب عنه في غيبته مهما قُصد بسوء أو تُعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض :

فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة ، وتبكيت المتعنِّت وتغليظ القول عليه وقد قال رسول اللَّه ﷺ : «**المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، وعرضه وماله ودمه ، التقوى ها هنا ـ وأشار إلى القلب ـ بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[١] .

وهذا من الانثلام والخذلان ، فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله تمزيق لحمه .

فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحمك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفاع عنك ! وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبَّهه اللَّه تعالى بأكل لحوم الميتة فقال : ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا** ﴾[٢] ا . هـ . من « إحياء علوم الدين » .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من ذب عن عرض أخيه بالغيبة ، كان حقًا على اللَّه أن يعتقه من النار** »[٣] .

وقال ﷺ : « **من رد عن عرض أخيه ، كان له حجابًا من النار** »[٤] .

وقال ﷺ : «**من رد عن عرض أخيه،رد اللَّه عن وجهه النار يوم القيامة** »[٥] .

---

(١) رواه البخاري « صحيح الجامع » .

(٢) سورة الحجرات الآية (١٢) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في « الكبير » عن أسماء بنت يزيد ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٢٤٠) ، و« غاية المرام » (٤٣١) .

(٤) صحيح : رواه البيهقي في « سننه » عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في « غاية المرام » رقم (٤٣١) ، وصححه في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٦٣) .

(٥) صحيح : رواه أحمد والترمذي عن أبي الدرداء ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٢٦٢) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من نصر أخاه بالغيب ، نصره اللَّه في الدنيا والآخرة** »[١] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من امرئ يخذل امرءًا مسلمًا في موطن يُنتقص فيه من عرضه ، ويُنتهك فيه من حرمته ، إلاخذله اللَّه تعالى في موطن يحب فيه نصرته ، وما من أحد ينصر مسلمًا يُنتقص فيه من عرضه ويُنتهك فيه من حرمته ، إلا نصره اللَّه في موطن يحب فيه نصرته** »[٢] .

- **ومن حق الأخ ألا ترفع صوتك عليه ولا تخاطبه إلا بما يفقه :**
- **التعليم والنصيحة :**

فليس حاجة أخيك إلىٰ العلم بأقل من حاجته إلىٰ المال ، فإن كنت غنيًا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلىٰ كل ما ينفعه في الدين والدنيا وعليك بنصحه ، وإن استنصحك فاجتهد في ذلك .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن الدين النصيحة للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** »[٣] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنما الدين النصح** »[٤] ، وقال رسول اللَّه ﷺ :

---

(١) حسن : رواه البيهقي في « السنن » ، والضياء عن أنس ؛ وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٥٧٤) .

(٢) حسن : رواه أحمد وأبو داود ، والضياء في « المختارة » عن جابر وأبي طلحة بن سهل ، ورواه الطبراني في « الأوسط » عن جابر وأبي أيوب الأنصاري وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٦٩٠) .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري ، والترمذي والنسائي عن أبي هريرة ، وأحمد عن ابن عباس .

(٤) صحيح : رواه أبو الشيخ في « التوبيخ » عن ابن عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٣٢٤) .

« **الدين النصيحة** »[(١)] ، وقال رسول اللّه ﷺ : « « **المستشار مؤتمن** »[(٢)] ، وينبغي أن يكون ذلك في سر لا يطّلع عليه أحد ، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة ، إذ قال رسول اللّه ﷺ : « **المؤمن مرآة المؤمن** »[(٣)] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن ، يكُفُّ عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه** »[(٤)] .

وقال الشافعي ـ رحمه اللّه ـ : « من وعظ أخاه سراً فقط نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » .

قال ذو النون : « ألا تصحب مع اللّه إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة» .

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات :

وهفوة الصديق لا تخلوا إما :

ـ أن تكون في دينه بارتكاب معصية .

ـ أو في حقك بتقصيره في الأخوة .

---

(١) صحيح : رواه البخاري في « التاريخ » عن ثوبان ، والبزار عن ابن عمر ، وابن نصر عن أبي عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٤١٧) .

(٢) رواه أصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة ، والترمذي عن أم سلمة ، وابن ماجه عن ابن مسعود ، والبخاري في « الأدب » والطحاوي والبيهقي في « الشعب » عن أبي هريرة ، وأحمد والدارمي وابن حبان عن أبي مسعود الأنصاري وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٦٤١) .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » ، والضياء عن أنس ، وهو في « صحيح الجامع » رقم (٦٥٣١) .

(٤) حسن : رواه البخاري في « الأدب » ، وأبو داود في « سننه » عن أبي هريرة ، وابن وهب في «الجامع» ، هو في « صحيح الجامع » رقم (٦٥٣٢) .

أما ما يكون في الدين ـ :

من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ، ويعيد إلىٰ الصلاح والورع حاله ، فإن لم تقدر وبقي مصرّا فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته أو مقاطعته :

١ ـ فذهب أبو ذر ـ رضي اللَّه عنه ـ إلىٰ الانقطاع وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته ، ورأىٰ ذلك من مقتضىٰ الحب في اللَّه والبغض في اللَّه وهذا هو أحد المعنيين في قوله ﷺ : «**اجتمعا عليه وتفرقا عليه**» ، أي أنه إذا أحدث أحدهما ما لا يرضي اللَّه فارقه الآخر ، فإذا عاد إلىٰ اللَّه وإلىٰ ما يرضي اللَّه عاد إليه ، فيكون حب اللَّه هو العلة ، يدور معها ترابطهم وجودًا وعدمًا .

٢ ـ وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلىٰ خلافه ، فقال أبو الدرداء : إذا تغيَّر أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوَّج مرة ويستقيم أخرىٰ .

وقال إبراهيم النخعي : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً .

حكي عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة ، فقيل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره ؟ فقال : أحوج ما كان إليَّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلىٰ ما كان عليه .

وطريقة أبي ذر أحسن وأسلم وطريقة أبي الدرداء ألطف وأفقه :

أما كونها ألطف فلما فيها من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلىٰ

الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة ، ومهما قوطع وانقطع عن الصحبة أصر واستمر .

وأما كونها أفقه فمن حيث أن الأخوة عقد ينزل منزل القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد ، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره ، وفقر الدين أشدُّ من فقر المال ، فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان وهذا من أشد النوائب .

والقريب ينبغي أن لا يهجر من أجل معصيته ، حتى يُقام له بواجب النصيحة ، وذلك لأجل قرابته ، قال اللَّه تعالى لنبيه في عشيرته : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[1] ، ولم يقل إني برئ منكم ، مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب ، ولهذا أشار أبو الدرداء لما قيل : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال : إنما أبغض عمله وإلا فهو أخي ، وأخوة الدين أوكد من إخوة القرابة .

وكذلك التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان ، كما أن مقارفة العصيان من محابه ، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني ، « انتهى ملخصاً من إحياء علوم الدين » .

ـ أما هفواته وتقصيره في حقك ـ :

فالواجب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه ، والتعرض لذلك ليس من النصح في شيء ، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة ، فالعتاب في السر خير من القطيعة ، والتعريض به خير من التصريح ، والمكاتبة خير من المشافهة ، والاحتمال خير من الكل .

بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصوَّر تمهيد عذر فيه قريب

---

(١) سورة الشعراء الآية (٢١٦) .

أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذرًا ، فإن لم يقبله قلبك فرد اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك : ما أقساك ! يعتذر إليك أخوك سبعين عذر فلا تقبله ، فأنت المعيب لا أخوك .

قال الشافعي : « من استرضي فلم يرضي فهو شيطان » ، فاسترضي قلبك بنفسك نيابة عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطانًا إن لم تقبل .

قال الأحنف : حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثًا : ظلم الغضب ، وظلم الدالة ، وظلم الهفوة .

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقد قيل :

خذ من خليلك ما صفا ودع الذي فيه الكدر

فالعمر أقصر من معا تبة الخليل على الغِيَر

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبًا كان أو صادقًا فاقبل عذره .

نعم . . . إنه لا مُبرأ من سهو وزلل ، ولا سليم من نقص أو خلل ، ومَنَ رام سليمًا من هفوة ، والتمس بريئًا من نُبوة ، فقد تعدىٰ علىٰ الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه ، وكان من وجود بغيه بعيدًا ، وصار باقتراحه فردًا وحيدًا .

وقد قالت الحكماء : « لا صديق لمن أراد صديقًا لا عيب فيه » .

وقيل لأحدهم : هل من أحد لا عيب فيه ؟ قال : من لا موت له .

وقال بعض الأدباء : ثلاث خصال لا تجتمع إلا في كريم : حسن المحضر ، واحتمال الزلة ، وقلة الملال ، قال ابن الرومي :

فعذرك مبسوطٌ لذنب مقدّم وودك مقبولٌ بأهل ومرْحبِ

ولو بَلَّغَتْني عنك أذني أقمتُها لديّ مقام الكاشح [(١)] المتكذِّبِ
فلستُ بتقليب اللسان مصارمًا خليلاً إذا ما القلب لم يتقلَّبِ

وإذا كان الإغضاء حتمًا ، والصفح كرمًا ، ترتَّب بحسب الهفوة وتنزَّل بقدر الذنب ، والهفوات نوعان : صغائر وكبائر :

فالصغائر : مغفورة ، والنفوس بها معذورة ، فالعتب مستقبح .

وأما الكبائر فنوعان :

الأول : أن يهفو بها خاطئا ، ويزل بها ساهيًا ، فالحرج فيها مرفوع ، والعتب عليها موضوع ، لأن هفوة الخاطئ هدر ، ولومه هذر .

قال بعض الحكماء : لا تقطع أخاك إلا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه .

والثاني : أن يعتمد ما اجترم من كبائره ، ويقصد ما اجترح من سيئاته فهذا الأخ الذي استحدث نَبْوة وتغيُّرًا ، واستجدَّ جفوة وتذكرًا ، وأبدىٰ صفحة عقوقه ، واطَّرح لازم حقوقه ، وعدل عن بر الإخاء إلىٰ جفوة الأعداء لا تقابله علىٰ الجفوة ، ولا تعاقبه علىٰ الهفوة ، ولا تقابل العقوق بالعقوق ، لا بالفضل أخذت ولا إلىٰ العفو أخلدت ، وقد علمت أن نفسك قد تطغىٰ عليك فترديك ، وأن جسمك قد يسقم عليك فيؤلمك ويؤذيك وهما أخص بك وأحنىٰ عليك من غيرك من صديق قد تميز بذاته ، وانفصل بأدواته ، فتريد من غيرك لنفسك ما لا تجده من نفسك لنفسك ، وهذا عين المحال ومحض الجهل ، فلا تتخذ عدوًا واحدًا والواحد كثير ، واتخذ ألف صديق والألف قليل ، واعلم أن العفو والعقوبة بمنزلة الجود والبخل ، فتمسك بأيهما شئت .

فإذا كان الأمر علىٰ ما وصفت ، فمن حقوق الصفح : الكشف عن

---

(١) العدو البغيض .

سبب الهفوة ، ليعرف الداء فيعالجه ، ولا يخلوا حال السبب من أن يكون لملل أو زلل ، فإن كان لملل ، فمودات المَلول ظل الغمام ، وحلم النيام ، وإن كان لسبب لُوحظت أسبابه ، فإن كان لها مدخل في التأويل ، وشبهة تؤول إلىٰ جميل ، حمله علىٰ أجمل تأويل ، وصرفه إلىٰ أحسن جهة .

مر علىٰ خالد بن صفوان صديقان له ، فعرَّج عليه أحدهما ، وطواه الآخر ، فقيل له في ذلك ، فقال : نعم ، عرَّج علينا هذا بفضله ، وطوانا هذا بثقته بنا .

فإن لم يكن للزلل في التأويل مدخل ، نظر حاله بعد الزلل ، فإن ظهر ندمه ، وبان خجله، فالندم توبة ، والخجل إنابة ، ولا ذنب لتائب ، ولا لوم علىٰ منيب ، ولا يُكَلَّفُ عذراً عما سلف ، فيلجأ إلىٰ ذل التحريف ، أو خجل التعنيف ، وشفيع المذنب إقراره ، وتوبته اعتذاره ، ومن لم يتقبل التوبة عظمت خطيئته ، ومن لم يحسن إلىٰ التائب قبحت إساءته ، والكريم من أوسع بالمغفرة ، إذا ضاقت بالذنب المعذرة ، وإن عجَّل العذر قبل توبته، وقدم التنصل قبل إنابته ، فالعذر توبة ، والتنصل إنابة ، فلا يكشف عن باطن عذره ، ولا يُعَنَّفُ بظاهر عذره ، وشافع المذنب خضوعه إلىٰ عذره .

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا إن برَّ عندك فيما قال أو فَجرَا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره وقد أجلَّك من يعصيك مستترا

وإن ترك نفسه في الزلل ، ولم يتداركه بعذره وتنصله ، فلا ينفعك حاله عن أمور ثلاث :

أحدها : أن يكون قد كف عن سيئ عمله ، وأقلع عن سالف الزلل ، فالكف إحدىٰ التوبتين ، والإقلاع أحد العذرين ، فكن أنت المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك ، فقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ :

المحسن على المسيء أمير .

الثاني : أن يكون قد وقف على ما أسلف من الزلل ، غير تارك ولا متجاوز ، فوقوف المرض أحد البرأين ، وكفه عن الزيادة إحدى الحسنيين ، صلاح شطره الآخر ، وإياك وإرجاءه ، فإن الإرجاء يفسد شطره صلاحه ، والتلافي يصلح شطر فساده .

الثالث : أن يتجاوز مع الأوقات ، فيزيد فيه على مرور الأيام ، فهذا هو الداء العضال ، فإن أمكن استدراكه ، وتأنّي استصلاحه ، وذلك باستنزاله عنه إنْ علا ، وبإرغابه إنْ دنا ، وبعتابه إن ساوى فذاك ، وإلا فآخر الداء العياء الكيّ ومَنْ بلغَت به الأعذار إلى غايتها ، فلا لائمة عليه .

الحق السادس : الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته :

« الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، فتدعو له كما تدعوا لنفسك ، ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من استغفر للمؤمنين وللمؤمنات ، كتب اللَّه له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة** »[1] .

وقال ﷺ : « **دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب لا يُرَدّ** »[2] .

وقال ﷺ : « **دعاء المرء المسلم مستجاب لأخيه بظهر الغيب ، عند رأسه مَلَكٌ مُوَكَّلٌ به ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك : آمين ، ولك بمثل ذلك** »[3] .

---

(١) حسن : رواه الطبراني في « الكبير » عن عبادة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٠٢٦) وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢١٠) : وإسناده جيد .

(٢) صحيح : رواه البزار عن عمران بن حصين ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم(١٣٣٩) ، و« صحيح الجامع » رقم (٣٣٧٩) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم وابن ماجه عن أبي الدرداء .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **دعوة الرجل لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، وملك عند رأسه يقول : آمين ولك بمثل ذلك** »[١] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب ، إلا قال الملك : ولك بمثل** »[٢] .

وقال ﷺ : « **من دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثله** »[٣] .

وكان أبو الدرداء ـ رضي اللَّه عنه ـ يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم[٤] .

وكان الإمام يحيىٰ بن سعيد القطان يدعو لألف إنسان كل يوم .

وقال القاضي محمد بن محمد بن إدريس الشافعي : قال لي أحمد بن حنبل : أبوك أحد الستة الذين أدعو لهم سحراً[٥] .

وروىٰ الخطيب البغدادي في ترجمة الطيب إسماعيل أبي حمدون أحد القراء المشهورين قال : « كان لأبي حمدون صحيفة فيها مكتوب ثلاثمائة من أصدقائه ، وكان يدعو لهم كل ليلة ، فتركهم ليلة فنام ، فقيل له في نومه : يا أبا حمدون : لِمَ لْم تسرج مصابيحك الليلة ، قال : فقعد فأسرج ، وأخذ الصحيفة فدعا لواحد واحد حتىٰ فرغ »[٦] .

وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول : « وأين مثل الأخ الصالح ؟

---

(١) صحيح : رواه أبو بكر في « الغيلانيات » عن أم كرز ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٣٨٢) .

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٤٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة .

(٣) رواه مسلم ، وأبو داود عن أبي الدرداء .

(٤) « الإحياء » (٢/ ٢٠٢) .

(٥) « السير » (١١/ ٢٢٧) .

(٦) « تاريخ بغداد » (٩/ ٣٦١) .

أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون مما خلفت ، وهو منفرد بحزنك ، مهتم مما قدمت وما صرت إليه ، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرىٰ »[1] ، نعم يدعو لك وأنت بين أطباق الثرىٰ ويدخل من دعائه علىٰ قبرك من الأنوار مثل الجبال .

حقوق الأخوة في القلب :

من حق الأخ علىٰ أخيه في اللّٰه عز وجل الوفاء والإخلاص في محبته، وحسن الظن به ، والتواضع لإخوانه ، ويسيء الظن بنفسه .

الحق السابع : الوفاء والإخلاص :

ومعنىٰ الوفاء : الثبات علىٰ الحب وإدامته إلىٰ الموت معه ، وبعد الموت، ومع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ، وقال بعضهم ، قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة .

ومن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه ، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر ، إذ لا يدل علىٰ الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلىٰ كل من يتعلق به ، حتىٰ الكلب الذي علىٰ باب داره ينبغي أن يميز في القلب عن سائر الكلاب .

ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان ، فإنه لا يحسد متعاونين علىٰ بر كما يحسد متواخيين في اللّٰه ومتحابين فيه فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما »[2] .

---

(١) « الإحياء » (٢/ ٢٠٢ - ٢٠٣) .

(٢) « الإحياء » (٢/ ٢٠٣) .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما تواد اثنان فى اللَّه فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما** »(١) .

قال بشر الحافي : إذا قصر العبد في طاعة اللَّه سلبه اللَّه من يؤنسه .

وقال ابن المبارك : ألذ الأشياء مجالسة الإخوان .

ومن ثمرات المودة في اللَّه أن لا تكون مع حسد في دين ودنيا ، وكيف يحسده وكلٌ ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته .

ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه ، فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم ، قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم فى المنزل الخشنِ

ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء أنت تكون شديد الجزع من المفارقة ، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل :

وجدت مصيبات الزمان جميعها ... سِوى فرقة الأحباب هيِّنةَ الخَطْبِ

وأنشد ابن عيينة هذا البيت وقال : لقد عهدت أقوامًا فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يُخَيَّلُ إلي أن حسرتهم ذهبت من قلبي .

ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه .

ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه .

قال الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ : إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك .

---

(١) صحيح : رواه البخاري في « الأدب المفرد » عن أنس ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (٦٣٧) ، و« صحيح الجامع » رقم (٥٦٠٣) .

من تمام الوفاء النصح للَّه :

قال الغزالي : « اعلم أن ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين ، بل الوفاء له المخالفة ، فقد كان الشافعي ـ رضي اللَّه عنه ـ آخىٰ محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول : ما يقيمني بمصر غيره ، فاعتلَّ محمد فعاده الشافعي ـ رحمه اللَّه تعالىٰ ـ فقال :

مرض الحبيـــب فعدتـــه فمرضـــت من حذري عليه

وأتـى الحبـيب يعودنـــي فبـــرئت من نظـــري إليـه

فظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوِّض أمر حلقته إليه بعد وفاته ، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها ـ رضي اللَّه تعالىٰ عنه ـ : إلىٰ من نجلسُ بعدك يا أبا عبد اللَّه ؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم ـ وهوعند رأسه ـ ليومي إليه ، فقال الشافعي : سبحان اللَّه أيُشَكُّ في هذا ؟ أبو يعقوب البويطي ؟ فانكسر لها محمد ، ومال أصحابه إلىٰ البويطي مع أن محمداً كان قد حمل عنه مذهبه كله ، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلىٰ الزهد والورع ، فنصح الشافعي للَّه وللمسلمين ، وترك المداهنة ، ولم يُؤثر رضا الخلق علىٰ رضا اللَّه تعالىٰ ، فلم توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ، ورجع إلىٰ مذهب أبيه ودرس كتاب مالك ـ رحمه اللَّه ـ وهو من كبار أصحاب مالك ـ رحمه اللَّه ـ وآثر البويطي الزهد والخمول ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة ، واشتغل بالعبادة ، فصنف كتاب« الأم » الذي يُنسَبُ الآن إلىٰ الربيع بن سليمان ويعرف به ، وإنما صنَّفه البويطي ، ولكن لم يذكر نفسه فيه ، ولم ينسبه إلىٰ نفسه ، فزاد الربيع فيه وتصرَّف وأظهر ، والمقصود أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح للَّه »(١) .

---

(١) « الإحياء » (٢/ ٢٠٤) .

حسن الظن بأخيه :

قال اللَّه عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾(١) .

وقال النبي ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث** »(٢) .

كما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئ أخيك ، فكذاك يجب عليك السكوت بقلبك ، وذلك بترك إساءة الظن ، فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضًا ، وحَدُّهُ أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكنك أن تحمله على سهو ونسيان إن أمكن .

قال عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ : « ولاتظنَنَّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيراً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً » .

لقد نظر عبد اللَّه بن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ يومًا إلى الكعبة فقال : «ما أعظمك وأعظم حرمتك ! والمؤمن أعظم حرمة منك » ، نعم . . . والمؤمن أعظم حرمة منك وأن يظن به إلا خيراً . . .

قال أبو بكر الكتاني : صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلاً ، فوهبت له شيئًا بنية أن يزول ثقله من قلبي فلم يزل ، فخلوت به يومًا وقلت له : ضع رجلك على خدي فأبى ، فقلت له : لابد من ذلك ، ففعل ذلك فزال ما كنتُ أجد في باطني .

قال الرقي : قصدت من الشام إلى الحجاز حتى سألت الكتاني عن هذه الحكاية(٣) .

قال الربيع بن سليمان : « دخلت على الشافعي وهو

---

(١) سورة الحجرات الآية (١٢) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود .

(٣) « لطائف المعارف » للسهرودي (ص٢٨٣) .

مريـض ، فقلت له : قوّىٰ اللَّه ضعفـك ، فقال : لو قوّىٰ ضعفـي قتلني ، فقلت : واللَّه ما أردت إلا الخيـر ، قال : أعلـم أنك لو شتمتـني لم تُـرد إلا الخير »(١) .

التواضع لإخوانه ، وإساءة الظن بنفسه :

ومن حقوق الأخوة القلبية أن يتواضع لإخوانه ، ويسيء الظن بنفسه ، فإذا رآهم خيرًا من نفسه ، يكون هو خيرًا منهم .

قال أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم خيرًا مني ، قيل : وكيف ذلك؟ قال : كلهم يرىٰ لي الفضل عليه ، ومن فضّلني علىٰ نفسه فهو خيرًا مني ، ومهما رأي الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه ، وهذا في عموم المسلمين مذموم .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** »(٢) .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكليف :

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه ، ويرفهه عن أن يحّمله شيئًا من أعبائه وتمام التخفيف بطيّ بساط التكليف حتىٰ لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه .

قال الجنيد : ما تواخىٰ اثنان في اللَّه فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلاّ لعلّة في أحدهما .

قال علي ـ رضي اللَّه عنه ـ : شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلي مداراة وألجأك إلىٰ اعتذار .

---

(١) « مناقب الشافعي » للرازي (ص٢٧٤) .
(٢) جزء من حديث صحيح .

وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكلف ، يزور أحدهما أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه ، وقالوا : من سقطت كُلفته دامت أُلفته ومن خفَّت مُؤنته دامت مودته .

قال جعفر الصادق ـ رحمه اللَّه ـ : أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي وأتحفظ منه ، وأخفُّهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي .

وقال آخر : لا تصحب إلاَّ من يتوب عنك إذا أذنبت ، ويعتذر إليك إذا أسأت ويحمل مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه ، وهذا منتهى الكمال وهو نادر وقليل ، فعلى المرء أن يقوم بهذه الشروط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى تكثر إخوانه ، إذ به يكون مؤاخيًا في اللَّه وإلا كانت مؤاخاته لحظوظ نفسه فقط .

حقوق أخرى على الجوارح :

١ ـ البصر :

فحق الإخوان على البصر : أن تنظر إليهم نظر مودة يعرفونها منك ، وتنظر إلى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم ، ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك .

٢ ـ السمع :

وأما السمع فبأن تسمع كلامه متلذذًا بسماعه ومصدقًا به ومظهرًا للاستبشار به ، ولا تقطع حديثهم عليهم بمرارة ولا منازعة ومداخلة واعتراض ، فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون .

٣ ـ اليدان :

وأما اليدان : فأن لا يقبضهما عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد .

٤ ـ الرجلان :

وأما الرجلان : فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع لا مشي المتبوعين، ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدمونه ، ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه ، ويقوم لهم إذا أقبلوا ، ولا يقعد إلا بقعودهم ، ويقعد متواضعًا حيث يقعد.

ومهما تم الاتحاد خفَّ حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة ، وفي ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف ، فإذا تم الاتحاد انطوىٰ بساط التكلفة بالكلية فلا يسلك به إلا مسلك نفسه، لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب .

ومهما صفت القلوب استغنىٰ عن تكلف إظهار ما فيها ، ومن كان نظره إلىٰ صحبة الخلق فتارة يعوج وتارة يستقيم ، ومن كان نظره إلىٰ الخالق لزم الاستقامة ظاهراً وباطنًا ، وزين باطنه بالحب للَّه ولخلقه ، وزين ظاهره بالعبادة للَّه والخدمة لعباده فإنها أعلىٰ أنواع الخدمة للَّه ، إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق ، ويُدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة»[1] .

مواقف أغرب من الخيال :

قال أبو إياس : إذا اصطحب الرجلان فتقدم أحدهما ، فقد أساء الصحبة .

وقال عبد اللَّه بن قيس : من حق الصاحب على الصاحب ، إذا بالت دابته أن يقف له .

وقال محمد بن مناذر : كنت أمشي مع الخليل بن أحمد فانقطع شِسْعي ، فخلع نعله ، فقلت : ما تصنع ؟ قال : أواسيك في الحفاء .

---

(١) « إحياء علوم الدين » بتصرف (٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨) .

وقال بكر بن عبد اللَّه : إذا كنت مع صاحب لك فتخلف ببول فلم تقم عليه حتىٰ يقضي بوله ، فلست له بصاحب ، وإذا انقطع شسعه فقام يصلحه ، فلم تقم عليه ، فلست له بصاحب .

فداء الأخ بالنفس :

إذا صح الودُّ ، وقع فداء الأخ بالنفس :

« عن محمد بن داود قال : سمعت أبا بكر القرطبي ، وأبا عمرو الآدمي يقولان : ـ وكانا يتآخيان في اللَّه تعالىٰ ـ خرجنا من بغداد نريد الكوفة ، فلما سرنا في بعض الطريق ، إذا نحن بسبعْين رابضين علىٰ الطريق ، فقال أبو بكر لأبي عمرو أنا أكبر منك سنًا فدعني أتقدمك ، فإن كان حادثة اشتغلا بي عنك ، وجزت أنت ، فقال له أبو عمرو : نفسي ما تسامحني بهذا ، ولكن نكون جميعًا في مكان واحد ، فإن كانت حادثة كنا جميعًا ، فجازا جميعًا بين السبعين ، فلم يتحركا ومرًا سالمين »[1] .

أستاذ الأستاذين إبراهيم بن أدهم :

« خرج إبراهيم بن أدهم ـ رحمه اللَّه ـ في سفر ومعه ثلاثة نفر ، فدخلوا مسجدًا في بعض المفاوز ، والبرد شديد ، وليس للمسجد باب ، فلما ناموا قام إبراهيم ، فوقف علىٰ الباب إلىٰ الصباح ، فقيل له : لِمَ لمْ تنم ؟ فقال : خشيت أن يصيبكم البرد ، فقمت مقام الباب »[2] .

يا مَنْ تنهش في أحشائي
يا مَنْ منِّي .. يا مَن جزءًا من أجزائي
يا مَنْ تبدو للجُهَّال كأنك دائي

(١) « التبصرة » (٢/ ٣٠٢ـ٣٠٣) .
(٢) « التبصرة » لابن الجوزي (٢/ ٣٠١ـ٣٠٢) .

إني أعلم أنك حتماً فيك شفائي
إنك مني ... أنت كأني لست أرائي
إنك مسلم تشهد أن إلهك واحد
إنك فيها من شركائي
إنك مني ... أنت كأني حين شقائي
حين جهلت طريق إلهي
من عند الألف إلى الياءِ
حين تصوّرتَ الدنيا
حِسّي وغذائي وكسائي
لكنك دوماً تطعنني.. من خلفي ومن كعب حذائي
حين أراك تقوم بهذا
يُغرقني خجلي وحيائي
ووشاة القوم إذا بانوا
تسري الطعنة في أحشائي
ابغ العزة عند إلهك ... ليس العز دمي وبكائي
وغداً من قواك يميتك ... إن أنت أهملت ندائي
يا من تنهش في أحشائي ... يا أنا

للّه در إبراهيم التيمى :

للَّه در الإمام القدوة عابد الكوفة أبو أسماء إبراهيم التيمي وخبره :
قال ابن سعد : أخبرنا علي بن محمد قال : طلب الحجاج إبراهيم

النخعي ، فجاء الرسول فقال : أريد إبراهيم ، فقال إبراهيم التيمي : أنا إبراهيم ، ولم يستحلّ أن يدله على النخعي ، فأمر بحبسه في الديماس ، ولم يكن لهم ظل من الشمس ، ولا كِنّ من البرد ، وكان كل اثنين في سلسلة ، فتغير إبراهيم ، فعادته أمه ، فلم تعرفه ، حتى كلمها ، فمات ، فرأى الحجاج في نومه قائلاً يقول : مات في البلد الليلة رجل من أهل الجنة ، فسأل ، فقالوا : مات في السجن إبراهيم التيمي ، فقال : حُلْم نزغَة من نزغات الشيطان ، وأمر به فأُلقي على الكُناسة[1] .

حقوق عامة للمسلمين وهي أيضاً للأخ :

هناك حقوق عامة للمسلمين عامة ، وهي نائلة الأخ في اللَّه خاصة منها :

١ ـ من حقوق الأخوة السلام وردّه :

ورد السلام واجب ، والسلام من تحيات الملائكة والأنبياء وشعار أهل الجنة وباب للمحبة ، وقد سئل رسول اللَّه ﷺ أي العمل خير قال : « **تُطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف** »[2] ، قال رسول اللَّه ﷺ : «**إن أولى الناس باللَّه من بدأهم بالسلام**»[3] .

وقال عمار بن ياسر : « ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك والسلام على العالم ، والإنفاق من الإقتار » ، رواه البخاري .

● قال رسول اللَّه ﷺ : « **والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ،**

---

(١) « السير » (٥/ ٦٢) ، و« الطبقات الكبرى » لابن سعد (٦/ ٢٨٥) .

(٢) رواه البخاري .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ، وهو في « صحيح الجامع » رقم (٢٠١١) .

ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »(١) .

قال النووي : « والسلام أول أسباب التآلف ومفتاح لاستجلاب المحبة والمودة »(٢) .

ومن الحقوق العامة لكل مسلم :

قول نبينا ﷺ : « **حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلّم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد اللّه فشمته ، وإذا مرض فعُدْه ، وإذا مات فاتبعه »**(٣) .

● « وفي بيان حرمة المسلم ، وما لايجوز للمسلم أن يقع فيه مع سائر المسلمين يقول رسول اللّه ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظنّ أكذب الحديث ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، وولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، وكونوا عباد اللّه إخوانًا ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا... ويشير إلي صدره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله »**(٤) .

فهذه الحقوق العامة ، وهذه الحرمة المؤكدة للمال والعرض والدم ، ثابتة بعقد الإسلام وهي تزداد تأكدًا وتوثقًا في حق الإخوان »(٥) .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٢) « شرح مسلم » للنووي (١/ ٧٤) طبع الحلبي .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو داود بلفظ خمس ، وليس فيه « وإذا استنصحك فانصح له » .

(٤) رواه البخاري ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود .

(٥) « الحب في اللّه وحقوق الإخوة » للشيخ أحمد فريد (ص٢٦ ـ ٢٧) .

حب القلوب وتآلفها نعمة بيد اللَّه :

اعلم يا أخي أن : « الحب والبغض أمور لا قدرة للعبد في تحصيلها ولا دفعها لأنها أعمال القلوب ، والقلوب بيد اللَّه ، والتآلف بينها بنعمة من اللَّه .

قال تعالىٰ : ﴿ **فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾[١] .

ولكن اللَّه تعالىٰ جبل القلوب علىٰ محبة مَن يُحسن إليها والرسول ﷺ بيّن المقدمات والأسباب التي تُبنىٰ المحبة عليها وتنشأ عنها . . .

● فاثنان تحابا في اللَّه ، أي بذل كل منهما موجبات الحب للآخر ، لا لشيء إلا لوجه اللَّه .

ومن هذا أيضًا ، انطباع نفس المؤمن علىٰ محبة من يستقيم علىٰ أمر اللَّه ، وعليه ، فإن الحث في هذا الحديث علىٰ هذا الجانب الذي في مقدور الإنسان أن يفعله »[٢] .

تحابا في اللَّه :

يدل علىٰ المشاركة ، ومبادلة كل منهما صاحبه الحب في اللَّه تعالىٰ ، وهو أخص من قوله ﷺ : « **وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه** » ، لأن هذا حبّ من جانب واحد ، وقد لا يكون المحبوب عالمًا بمحبة الآخر له ، أمّا هنا فكل منهما محب ، ومحبوب ، وقد قال الحافظ في « الفتح » : « معناه أحب كل منهما الآخر حقيقة ، وقال كل منهما للآخر : إني أحبك في اللَّه ، فصدرًا علىٰ ذلك » .

---

(١) سورة الأنفال الآية (٦٣) .

(٢) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٢٥) .

• والمحبة في اللَّه ليست لها دوافع مادية ، وإنما دافعها العامل المشترك بينهما وهو محبة كل منهما للَّه أولاً ، ثم محبته صاحبه لحبه للَّه ثانيًا ، ومحبة اللَّه دائمة بدوام اللَّه مالم يطرأ عليها ما يغيرّها ، ولا يكون إلاّ في معصية اللَّه .

محبة اللَّه أولا : وإذا كان التحاب في اللَّه لا في شيء آخر ، فهذا لا يكون إلا بعد أن يحب كل منهما اللَّه تعالىٰ ، أي أن حب اللَّه أولاً ، ثم حب العبد لمحبته للَّه ، فمحبته اللَّه هي الأولىٰ ، ومنها محبة العبد لا يحبه إلا للَّه ، وهذا إنما هو لمحبته للَّه[1] .

رجلان تحابا في اللَّه ... خرج مخرج الغالب لا الحصر :

« قوله ﷺ : « ورجلان » ظاهره اختصاص الرجال ، وكذلك بالعدد المذكور ، ولكن لا مانع من إرادة النساء إذا صحّ منهن ذلك ، أو الرجل والمرأة من ذوي المحارم ، أو غير المحارم إذا وُجد بينهما هذا الحب في اللَّه ، لحسن دينه وفضله وصلاحه ، لا لغرض من الأغراض .

وكذلك بين الزوجين الصالحين ، وكذلك لا مفهوم للعدد لأن جماعة الرجال إذا تعاهدوا علىٰ ذلك والتزموا به وأحب كل واحد مجموعهم فيما بينهم .

ولكن حيث جاء النص علىٰ الرجال لابد أن يكون للرجل فضل اختصاص ، لأن تحاب المرأتين قد يكون ألجأهما ضعف كل منهما للأخرىٰ .

• كما أن تحاب الرجل مع المرأة ولوْ من ذوي الرحم فقد يكون لاستغلال الرجل ضعف المرأة وإحساس المرأة بحاجتها إلىٰ مَن تأوي إليه ،

---

(١) انظر : كتابنا في المحبة « موارد الظمآن في محبة الرحمن » .

وتكون تحت قوامته ، ونحو ذلك مما يشوب هذا الحب في اللَّه .

فبقي وصف الرجلين لأن الغالب بحسب تساويهما واكتفاء كل منهما يجعل لجنسهما مزيد اختصاص .

وقد يستشهد للعموم بقوله ﷺ : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه** » الحديث .

فلفظة (مَن) للعموم تشمل الرجل والمرأة ولا تقتصر على جنس دون جنس ، فعُلِم أن قوله ﷺ : « **ورجلان** » خرج مخرج الغالب »(١) .

من رياض المتحابين :

• محبة خليل الرحمن عليه السلام لهذه الأمة ووصيته الغالية لها:

عن ابن مسعود - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **لقيت إبراهيم ليلة أسرى بي ، فقال : يا محمد أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان اللَّه، والحمد للَّه ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر** »(٢) .

فهذه وصية غالية من أب غالٍ وحبيب إلى هذه الأمة ومحب لها غاية الحب ، فهل حفظناها أم ضيّعناها .

حب الكليم موسى عليه السلام لنبينا ﷺ وشفقته على هذه الأمة :

يظهر هذا جليًا في حديث الإسراء : « **... ثم فُرض عليّ خمسون صلاة**

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٢١) .

(٢) حسن : رواه الترمذي ، وقال حديث حسن غريب ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٠٥) و« صحيح الجامع » رقم (٥١٥٢) .

كل يوم ، فرجعت ، فمررت علي موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمسين صلاة كل يوم ، قال : إن أمتك لاتستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت فوضع عني عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عني عشراً ، فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجعت إلى موسى ، فقال : بم أمرت ؟ قلت : أمرت بخمس صلوات كل يوم ، قال : إن أمتك لاتستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإني قد جرّبت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، قلت : سألت حتى استحييت منه ، ولكن أرضى وأسلّم ، فلما جاوزت ناداني منادٍ ، أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي » .

وفي هذا الحديث يظهر جليًا حب نبي اللّه موسى عليه السلام لنبينا ﷺ وشفقته على هذه الأمة .

صورة من المحبة ما مثلها صورة : محبة الرسول ﷺ والصديق ـ رضي اللّه عنه ـ :

المحبة والأخوة التي نشأت بين رسول اللّه ﷺ وبين صدّيق هـذه الأمة ـ رضي اللّه عنه ـ وأكتفي بذكر موقف من هذه المواقف التي تدل على صدق المودة والمحبة ، واختصاص المحب لما يدور في قلب أخيه الذي أحبه في اللّه عز وجل :

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي اللّه عنه ـ قال : « خطب رسول اللّه ﷺ الناس وقال : « **إن اللّه خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند اللّه** » ، قال : فبكى أبو بكر ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول اللّه ﷺ عن

عبد خُيِّر ، فكان رسول اللَّه هوالمخيّر ، وكان أبو بكر أعلمنا ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنّ أمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدّ ، إلا باب أبي بكر** »(١) .

قال ابن رجب ـ رحمه اللَّه ـ :

« لما عرّض الرسول ﷺ على المنبر باختياره للقاء ربه على البقاء ولم يصرّح ، خفي المعنى على كثير ممن سمع ، ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به ، ثاني اثنين إذ هما في الغار ، وكان أعلم الأمة بمقاصد الرسول ﷺ ، فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى وقال : بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا ، فسكّن الرسول ﷺ جزعه وأخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر ، ليعلم الناس كلهم فضله ، ولا يقع عليه اختلاف في خلافته ، فقال : إن من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر »(٢) .

صورة الحب المثالية التي لا يجود بمثلها الزمان :

صورة الحب المثلى ، ما بين المهاجرين والأنصار . . . قال اللَّه تعالى : **﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾**(٣) .

صورة خروج الأنصار للقيا إخوانهم من المهاجرين وترحابهم الغالي بهم وإيثارهم على أنفسهم ، هذا الحب الذي لا يجود بمثله الزمان ،

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذي عن أبي سعيد واللفظ للبخاري .
(٢) « لطائف المعارف » (ص١٠٦) ـ دار الجيل بيرت .
(٣) سورة الحشر الآية (٩) .

ووقائعه التي هي أغرب من الخيال ، وأحلىٰ من سنة النوم لمن اكتحلت عيناه بالسهر الأيام والليالي الطوال ، فمنهم من يعرض زوجاته علىٰ أخيه أيتهن أحب ينزل له عنها . . . ما ذا بعد هذا ؟! هذا الحب لا لصنيعة سبقت من المهاجرين إليهم ، أو ليد كانت لهم عليهم إنما هو الحب في اللَّه .

يوم اليرموك وما أدراك بقصة الحب في يوم اليرموك ؟!

ومن هذه الصور المشرقة للمحبة الصادقة : ما رواه القرطبي عن حذيفة العدوي قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي - ومعي شيء من الماء - وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ، فإذا أنا به ، فقلت له : أسقيك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فإذا أنا برجل يقول : آه ! آه ! ، فأشار إليَّ ابن عمي أن انطلق إليه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار أن نعم، فسمع آخر يقول : آه ! آه ، فأشار هشام أن انطلق إليه ، فجئته فإذا هو قد مات ، فرجعت إلىٰ هشام فإذا هو قد مات ، فرجعت إلىٰ ابن عمي فإذا هو قد مات »(١) .

هذا نعت الصديق فكيف بالأخ في اللَّه :

للَّه در الرافعي حين يقول في وصف الصديق :

« لا أريد بالصديق ذلك القرين الذي يصحبك كما يصحبك الشيطان : لا خير لك إلا في معاداته ومخالفته . . . ولا ذلك الرفيق الذي يتصنّع لك ويماسحك متىٰ كان فيك طعم العسل لأن فيه روح ذبابة . . . ولا ذلك الحبيب الذي يكون لك في همّ الحب كأنه وطن جديد وقد نفيت إليه نفي المبعدين . . . ولا ذلك الصاحب الذي يكون كجلدة الوجه : تحمّر وتصفرّ

---

(١) « تفسير القرطبي » (٦٥٠٧) .

لأن الصحة والمرض يتعاقبان عليها ، فكل أولئك الأصدقاء لا تراهم أبدًا إلا على أطراف مصائبك ، كأنهم هناك حدود تعرف بها من أين تبتدئ المصيبة لا من أين تبتدئ الصداقة ، ولكن الصديق هو الذي إذا حضر رأيت كيف تظهر لك نفسك لتتأمّل فيها ، وإذا غاب أحسست أن جزءًا منك ليس فيك ، فسائرك يحنّ إليه ، فإذا أصبح من ماضيك بعد أن كان من حاضرك، وإذا تحوّل عنك ليصلك بغير المحدود كما وصلك بالمحدود ، وإذا مات يومئذ لا تقول إنه مات لك ميت ، بل مات فيك ميت . . . ذلك هو الصديق » .

نعم الصديق نضاحة عطر تمج رشاشها على حياتك روْحًا وعبيرًا وندى فما ظنك بالأخ في اللَّه .

لا تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنا وكلك لأخيك إلا ما حرّمه اللَّه ورسوله :

لقد عبّر القرآن أصدق التعبيرعن الأخ في اللَّه ونعته بالنفس وليس بعد القرآن وعلو بيانه وعلو رياضه علوّ .

• قال اللَّه تعالى : ﴿ **فاقتلوا أنفسكم** ﴾ أي إخوانكم . . . في توبة بني إسرائيل .

• وقال تعالى : ﴿ **فسلموا على أنفسكم** ﴾ أي إخوانكم .

• وقال تعالى : ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا** ﴾ أي : بإخوانهم خيرًا .

• وقال تعالى : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أي : إخوانكم .

لا تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنـــا .

---

(١) « السحاب الأحمر » لمصطفى صادق الرافعي (ص١٣٦ ـ ١٣٧) .

ورجل دعتـــه امرأة

ذات منصب وجمال

فقال : إني أخاف الله رب العالمين

ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين

قوله ﷺ : «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف اللّه**».

في رواية البخاري : « **ورجل طلبته امرأة** » ورواية دعته هي رواية مسلم وهي للبخاري أيضًا في الحدود .

قال الحافظ في « الفتح » : (٢/ ١٧٠ ـ ١٧١) : « دعته ذات حسب » وهو يطلق على الأصل وعلى المال أيضًا ، وقد وصفها بأكمل الأوصاف التي جرت العادة بمزيد الرغبة بمن تحصل فيه وهو المنصب الذي يستلزمه الجاه والمال مع الجمال ، وقلّ من يجتمع ذلك فيها من النساء ، زاد ابن المبارك « إلى نفسها » ، وللبيهقي في « الشعب » من طريق أبي صالح عن أبي هريرة : « فعرضت نفسها عليه » والظاهر أنها دعته إلى الفاحشة وبه جزم القرطبي ولم يحك غيره ، وقال بعضهم : يحتمل أن تكون دعته إلى التزوج بها فخاف أن يشتغل عن العبادة بالافتتان بها ، أو خاف أن لا يقوم بحقها لشغله بالعبادة عن التكسب بما يليق بها ، والأول أظهر ، ويؤيده وجود الكناية في قوله : « إلى نفسها» .

ولو كان المراد التزويج لصرّح به ، والصبر عن الموصوفة بما ذكر من أكمل المراتب لكثرة الرغبة في مثلها وعسر تحصيلها لا سيما وقد أغنت من مشاق التوصل إليها بمراودة ونحوها » .

قوله : « **فقال : إني أخاف اللّه** » : « الظاهر أن يقول ذلك بلسانه إما ليزجرها عن الفاحشة أو ليعتذر إليها ، ويحتمل أن يقوله بقلبه ،

قال عياض : قال القرطبي : إنما يصدر ذلك عن شدة خوف من اللّٰه تعالىٰ ومتين تقوىٰ وحياء » .

ذات المنصب والجمال :

ذات منصب أي رفيعة الشأن ليست من سطَة الناس .

وفي رواية ذات حسب وجمال : وهذه تفسّر رواية ذات منصب .

« وأصل الحسب مأخوذ من الحساب والعدد ، لأن الحسيب يُعدد ويحسب مفاخر يعتد بها من أمجاد آبائه ومفاخر أجداده ، سواء كانت مالية ، أو معنوية فتشمل كل ما يشرف به »[1] .

أما الجمال : فإن جمال كل شيء بحسبه ، والجمال في كل جنس له مقاييسه وسماته .

قال عمر بن الخطاب ـ رضي اللّٰه عنه ـ : « إذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تمّ حسنها » .

وقالت عائشة ـ رضي اللّٰه عنها ـ : « البياض شطر الحسن »[2] .

قال ابن القيم : ومما يستحسن في المرأة طول أربعة وهنّ : أطرافها ، وقامتها ، وشعرها ، وعنقها .

وقصر أربعة : يدها ، ورجلها ، ولسانها ، وعينها ، فلا تبذل ما في بيت زوجها ، ولا تخرج من بيتها ، ولا تسطيل بلسانها ، ولا تطمع بعينها .

وبياض أربعة : لونها ، وفرقها ، وثغرها ، وبياض عيناها ، ، وسواد أربعة : أهدابها ، وحاجبها ، وعينها ، وشعرها .

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » لعطية محمد سالم (ص١٣٤) ـ مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة .

(٢) « روضة المحبين » لابن قيم الجوزية (ص٢٤٦) ـ دار الكتاب العربي .

وحمرة أربعة : لسانها وخدّها ، وشفتها مع لعس[١] ، وإشراب بياضها بحمرة .

ودقة أربعة : أنفها ، وبنانها وخصرها وحاجبها ، وغلظ أربعة : ساقيها ، ومعصمها ، وعجيزتها ، وذاك منها .

وسعة أربعة : جبينها ، ووجها، وعينيها ، و صدرها ، وضيق أربعة : فمها ، ومنخرها ، وخرق أذنها ، وذاك منها فهذه أحق النساء بقول كُثيرّ .

لو أن عزّة خاصمت شمس الضحى　　في الحسن عند مُوفق لقضى لها[٢]

قال ثعلب :

خُزاعية الأطراف مرية الحشا　　فزارية العينين طائية الفم

ومكية في الطيب والعطر دائماً　　تبدت لنا بين الحطيم وزمزم

أو كما قال العطفاني : « ملساء القدمين ، ردماء الكعبين ، ناعمة الساقين ، ضخماء الركبتين ، لفّاء الفخذين ، ضخمة الزراعين ، رخست الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلاء العينين ، زجّاء الحاجبين ، لمياء الشفتين ، بلجاء الجبين ، شماء العرنين ، شنباء الثغر ، محلوكة الشعر ، غيداء العنق ، مكسرة البطن »[٣] .

« فإذا اجتمع لامرأة كل أو بعض هذه الصفات ، ثم هي تعرضت لرجل ودعته لنفسها ، وكفته مؤنة تذليلها وترغيبها ، وإغرائها به ، مما قد يتعذر عليه حتى الوصول إليها ورؤيتها أو التحدث معها لعلو منصبها ، ومفاخر حسبها ، واعتدادها بجمالها ، وصلفها في نفسها ، فإذا هو يراها

---

(١) اللعس : سواد مستحسن في باطن الشفة .

(٢) « روضة المحبين » (ص٢٤٧) .

(٣) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٣٥) .

بين يديه ، تقدم نفسها إليه وتطلبه هي وتدعوه إلىٰ نفسها ، ولم يكن عليه هو إلا أن يستجيب لطلبها .

علمًا بأن ذلك لن يكون منها إلا في خلوة تامة وبعد أكيد عن الرقباء من أهل وخدم وحشم لمثلها ، أي توافرت الدواعي في جمالها وحسبها ، وانتفت الموانع من رقباء وحراس ، فلم يبق إلا وازع الإيمان وخوف اللَّه تعالىٰ .

إنه العامل الوحيد الذي يقف أمام عوامل الإغراء هذه ، وهي عوامل تقف معها القوة الفطرية : النفس ، والهوىٰ ، والميل الطبيعي والرغبة الجنسية ، تنهار أمامها قوة الأبطال ، وتضل فيها كل وسائل الاحتيال ، ولا يصمد أمامها إلا نوادر الرجال .

أولئك الذين يربط اللَّه علىٰ قلوبهم ، ويبصرهم عواقب أمورهم ، ويعصمهم من ذلة الشيطان ، وما ذاك إلا بالعامل الوحيد الذي هو مخافة اللَّه تعالىٰ ، فيعلنها في ثبات وينطق بها من الأعماق : إني أخاف اللَّه رب العالمين .

هذا هو الخوف الذي يورث أمانًا فتهون أمامه كل المخاوف ، وتذوب في ظله كل الملذات ، ويكون السلطان للعقل والروح والإيمان ، وليس للعاطفة والجسد والغرائز ، هناك يتسامىٰ ويتخطىٰ حواجز الطبائع ، والمستوىٰ الأدنىٰ ، ويتعالىٰ إلىٰ منازل السؤدد ، حيث المرتقىٰ الأعلىٰ[1] .

تنبيه : قال ابن حجر في « فتح الباري » (٢/ ١٧٣) :

« ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له بل يشترك النساء معهم فيما ذكر ، . . . حتىٰ الرجل الذي دعته امرأة فإنه يتصور في امرأة دعاها ملك

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٣٦) .

جميل مثلاً فامتنعت خوفًا من اللّه مع حاجتها ، أو شاب جميل دعاه ملك إلى أن يزوجه ابنته مثلاً ، فخشي أن يرتكب منه الفاحشة فامتنع مع حاجته إليه » .

لماذا التنصيص على الرجل دون المرأة ؟ :

قال الشيخ عطية محمد سالم : « لماذا اقتصر الحديث على ذكر الرجل دون المرأة ؟ بينما جاء في القرآن الكريم المزواجة بينهما في مقام التعفف وحفظ الفرج وغض البصر كما قال تعالى : ﴿ **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ** ﴾[1] .

وفي التوجيه والإرشاد كذلك : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ﴾ ، ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** ﴾[2] .

لقد تطلبت في مواطن عديدة بغية الوقوف على سر ذلك وحكمته فلم أعثر على ما تطمئن النفس إليه إلا أخيراً ومن حديث النفر الثلاثة[3] اتضح لي وجه المغايرة في هذا المقام ، واختصاص الرجل بالذكر دون المرأة وذلك للآتي :

أولاً : من جانب الرجل :

فإنه لا يعف حقيقة عن المرأة إلا لوجه اللّه ، لأن دعوة المرأة إياه لا تكون إلا في خلوة من الناس ، وحالة تمكين قوية ومأمن تام ، فليس عنده من يحاذر أو يخشى ، ثم هو لا يخشى عواقب تترتب عليه هو أوعلى

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٥) .

(٢) سورة النور الآيتان (٣٠ ، ٣١) .

(٣) حديث الغار .

أهله لأن فعله ينتهي بفعلته بخلاف المرأة فإن فعلتها قد لا تنتهي عند نهاية الفعل ، فقد يمتد أثرها إلى ما بعد وقد تنجر على أهلها .

ثانيًا : من جهة المرأة :

قد تعف هي أيضًا لوجه اللَّه ولكن قد يوجد ما يشوب حقيقة كون الامتناع مخافة اللَّه لأن الفتاة في تلك القصة[1] قالت للرجل : اتق اللَّه ولا تفضنّ الخاتم إلا بحقه ، فهي قد أظهرت حقيقة تخصها وهي وجود الخاتم ، ألا وهو خاتم البكارة كالختم على الكتاب والطرد لحفظه من امتداد اليد إليه ، وهذا الخاتم هو أعز ما تحرز الفتاة ، ومن واجبها الحفاظ عليه ، ففيه الحفاظ على كيانها وذاتها ، ومريم عليها السلام عظم عليها أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر ولم تك بغياً وقد تكون غير بكر ويكون الخاتم قد فضّ بحقه .

ولكنها ليست ذات زوج فتخشى الحمل ، ولو لم تخش حملاً بأن كانت تحت زوج ولا يرتاب في حملها أو تكون حاملاً بالفعل فإن خوفها من انكشاف أمرها أشد من مخافة الرجل ، لما يترتب عليها هي من سقوطها في المجتمع ، ومفارقة زوجها ، أو ما هو أكبر من ذلك مما لا يلحق الرجل منه ما يلحقها هي .

ومن هذا المنطق كان لتخصيص الرجل بالذكر موجبه لأنه إن قال : إني أخاف اللَّه رب العالمين كانت مقالته تلك صادقة ، مع إمكان وجود مثل ذلك أيضًا من المرأة ، فمن وجد منها ذلك على هذا الوصف ، كانت بلا شك مشاركة للرجل في هذا الفعل ، وكانت رفيقة له في ظل الرحمن .

ذلك أخذاً مما قرره الأصوليون : من قاعدة الإلحاق بنفي الفارق ، كما قالوا في حديث : « **من أعتق شقصاً له في عبده عتق عليه** » إنه تلحق به

---

(١) حديث الغار .

الأمة، فمن أعتق شقصًا له في أمة عتقت عليه ، فألحقت بالعبد بنفي فارق الذكورة والأنوثة ، والإعتبار بالرفق فيهما معًا فكذلك الحال هنا تلحق المرأة بالرجل : وامرأة دعاها ذو حسب ومنصب . . . إلخ »[1] .

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » ما نصّه :

« ويلتحق بهذه الخصلة ، من وقع له نحوها ، كالذي دعا شابًا جميلاً لأن يزوجه ابنة له جميلة ، كثيرة الجهاز جدًا ، لينال منه الفاحشة ، فعفّ الشاب عن ذلك ، وترك المال والجمال ، وقد شاهدت ذلك .

وقال الحافظ أيضًا في « الفتح » (٢/ ١٧٣) : « ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له بل يشترك النساء معهم فيما ذكر . . . حتىٰ الرجل الذي دعته المرأة فإنه يتصور في امرأة دعاها ملك جميل مثلاً فامتنعت خوفًا من اللَّه تعالىٰ مع حاجتها ، أو شاب جميل دعاه ملك إلىٰ أن يزوجه ابنته مثلاً فخشي أن يرتكب منه الفاحشة فامتنع مع حاجته إليه » .

أخي : « إن للَّه عز وجل يومًا لا ينجو من شرّه منقاد لهواه ، وإنّ أبطأ الصرعىٰ نهضة يوم القيامة صريع شهوة ، وإنّ العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفر حظًا من يطالبها بقدر ما استصحبته من الصبر ، وإن العقل معدن والفكر معول »[2] .

قال مالك بن دينار : من غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله .

وقال بعض العباد : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا واستصعب قياده علىٰ الهوىٰ .

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٤٠ ـ ١٤٢) .

(٢) « ذم الهوىٰ » لابن الجوزي (ص٢٥) .

وقال يحيىٰ بن معاذ : من أرضىٰ الجوارح في اللذات فقد غرس لنفسه شجر الندامات .

وقيل للمرتعش : إن فلانًا يمشي علىٰ الماء فقال : إنّ من مكّنه اللَّه من مخالفة هواه لهو أعظم من المشي علىٰ الماء .

وقال أبو علي الدقّاق : من ملك شهوته في حال شبيبته صيرّه اللَّه ملكًا في حال كهولته ، كيوسف عليه السلام : ﴿ **إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (١) .

قال عبد الصمد الزاهد : من لم يعلم أن الشهوات فخوخ فهو لعاب .

رب مستور سبَتْهُ صبوة فتعرّى ستره فانتهكا
صاحب الشهوة عبد فإذا غلب الشهوة صار المَلِكا

قال حاتم الأصم : الموت الأحمر مخالفة النفس .

وقال السري السقطي : أقوىٰ الفتوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز .

وقال أبو محمد الجريري : من استولت عليه النفس صار أسيراً في حكم الشهوات ، محصوراً في سجن الهوىٰ ، وحرم اللَّه علىٰ قلبه الفوائد ، فلا يستلذ كلامه ولا يستحليه وإن كثر ترداده علىٰ لسانه .

وللّه در ابن سمعون حين يقول في مجلسه : « ما سمعت قوله ﷺ : « **إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة أو تمثال** » ؟ ؛ فإذا كان الملك لا يدخل بيتًا فيه صورة أو تمثال فكيف تدخل شواهد الحق قلبًا فيه أوصاف غيره من البشر ؟! (٢) .

---

(١) سورة يوسف الآية (٩٠) .
(٢) « ذم الهوىٰ » (ص٨٠) .

الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف عليه السلام :

قد حسن اللَّه خَلق يوسف عليه السلام وحسّن خُلقهُ :

قال ﷺ : « **أعطي يوسف شطر الحسن** »(١) .

وقال ﷺ : « **أعطي يوسف وأمّه شطر الحُسن** »(٢) .

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾(٣) .

للَّه در نبي اللَّه يوسف ﷺ في موقفه مع امرأة العزيز ، كان مثالاً للعفّة ؛ فكل الظروف من حوله كانت تدفعه دفعًا إلىٰ الفاحشة ، فقد كان شابًا عزبًا ، وقد كان غريبًا ، والغريب لا يستحي من الناس ، لأنهم لا يعرفونه ، وإنه كان عبداً لها ، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر ، وهي سيدته ، وهي الآمرة ، فدافع الشهوة أكبر حين تكون المرأة طالبة وهي حسناء جميلة وقد غاب الرقيب وغلّقت الأبواب وهي تهدده بالسجن إن لم يفعل وتكرر التهديد منها أكثر من مرة .

قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد همَت به وهمَ بها لولا أن رأى برهان ربه ..** ﴾ ظاهر الآية قد يفهم منه مرضىٰ القلوب أن يوسف عليه الصلاة والسلام همّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همّت هي به منه ، ولكن القرآن العظيم بيّن براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي حين بينّ شهادة كل من له

---

(١) صحيح : رواه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو يعلي في « مسنده» والحاكم في « المستدرك » عن أنس وكذا رواه ابن عدي في « الكامل » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٠٧٣) ، وفي « الصحيحة » رقم (١٤٨١) .

(٢) صحيح : رواه الحاكم عن أنس ، ورواه ابن عدي في « الكامل » وابن عساكر ، وزاد « يعني سارة » .

(٣) سورة يوسف الآية (٢٣) .

تعلق بالمسألة ببراءته ، وشهادة اللَّه له بذلك واعتراف إبليس بها .

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم : يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود أما جزم يوسف بأنه برئ من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله : ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ وقوله : ﴿ **قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه** ﴾ .

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة : ﴿ **ولقد روادته عن نفسه فاستعصم** ﴾ .

وأما اعتراف زوج المرأة بذلك ففي قوله : ﴿**يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ (١) .

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله : ﴿**وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ إلى قوله تعالى : ﴿**قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**﴾(٢) .

وأما شهادة اللَّه عز وجل ببراءته ففي قوله : ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾(٣) .

وقد شهد اللَّه على طهارته أربع مرات :

أولها : ﴿ **لنصرف عنه السوء** ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

ثانيًا : قوله : ﴿ **والفحشاء** ﴾ أي وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

والثالث : قوله : ﴿ **إنه من عبادنا** ﴾ وقد قال تعالى في صفة عباد الرحمن : ﴿ **ولا يزنون** ﴾ .

---

(١) سورة يوسف الآية (٢٩) .
(٢) سورة يوسف الآيات (٢٦ : ٢٨) .
(٣) سورة يوسف الآية (٢٤) .

والرابع : قوله : ﴿ المخلصين﴾ وفيه قراءتان : قراءة باسم الفاعل ، وأخرىٰ باسم المفعول ، فوروده باسم الفاعل يدل علىٰ كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص ، ووروده باسم المفعول يدل علىٰ أن اللَّه تعالىٰ استخلصه لنفسه ، واصطفاه لحضرته ، وعلىٰ كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ علىٰ كونه منزهًا عما أضافوه إليه . اهـ . من تفسير الرازي .

وأما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[1] ، فأقرّ بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ، ويوسف من سادات المخلصين ، بنص القرآن الكريم .

أما شهادة النسوة فقد قال تعالىٰ : ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾[2] .

قال الفخر الرازي :

« هؤلاء الذين نسبوا إلىٰ يوسف عليه السلام هذه الفضيحة ، إن كانوا من أتباع دين اللَّه فليقبلوا شهادة اللَّه علىٰ طهارته ، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس علىٰ طهارته ، ونعلّ منهم من يقول : كنا في أول الأمر تلامذة إبليس ، إلىٰ أن تخرجنا عليه فزدنا في السفاهة ، عليه كما قال الخوارزمي :

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى ... بي الدهر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده ... طرائق فسقٍ ليس يحسنها بعدي

ما تأويل قوله تعالى : ﴿ وهمَّ بها .... ﴾ ؟

الجواب من وجهين :

الأول : أن المراد بهمّ يوسف بها خاطر قلبي صرفه عنه وازع التقوىٰ .

(١) سورة ص الآيتان (٨٢ ، ٨٣) .
(٢) سورة يوسف الآية (٥١) .

وقال بعضهم : هو الميل الطبيعي ، والشهوة الغريزية المزمونة بالتقوىٰ ، وهذا لا معصية فيه لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف كما في الحديث عنه ﷺ : أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : « **اللّهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك** » يعني ميل القلب الطبيعي .

ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلىٰ الماء البارد مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم وقد قال ﷺ : « **من همّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة كاملة** » ، لأنه ترك ما تميل إليه نفسه بالطبع خوفًا من اللّه وامتثالاً لأمره كما قال تعالىٰ : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ** . . . ﴾ [1] وهم بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد ، كهم يوسف هذا ، بدليل قوله :﴿ **إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا** . . . ﴾[2] .

لأن قوله : « ﴿ **والله وليهما** ﴾ يدل علىٰ أن ذلك الهمّ ليس بمعصية ، لأن اتباع المعصية بولاية اللّه للعاصي ـ لو كان هذا الهمّ معصية ـ إغراء علىٰ المعصية .

بخلاف همّ امرأة العزيز فإنه همّ عزم وتصميم بدليل أنها شقت قميصه من دُبر ومثل هذا التصميم علىٰ المعصية معصية يؤاخذ بها صاحبها بدليل الحديث الثابت عن الرسول ﷺ : « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار** » قالوا : يا رسول اللّه قد عرفنا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « **إنه كان حريصاً علي قتل صاحبه** » ، فصرّح ﷺ أن تصميمه وعزمه علىٰ قتل صاحبه معصية أَدخله اللّه بسببها النار .

وأما تأويلهم همّ يوسف بأنه قارب الهمّ ولم يهمّ بالفعل ، وتأويل الهمّ بأنه همّ بضربها أو همّ بدفعها عن نفسه فكل ذلك غير ظاهر ، بل هو بعيد عن الظاهر ولا دليل عليه .

---

(١) سورة النازعات الآية (٤٠) .

(٢) سورة آل عمران الآية (١٢٢) .

الثاني : وهو اختيار الشيخ أبي حيّان : أن يوسف لم يقع منه همّ أصلاً .

قال الشنقيطي : « هذا الوجه الذي اختاره أبو حيّان وغيره هو أحرىٰ الأقوال علىٰ قواعد اللغة العربية ، لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه كقوله :

﴿ **فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴾[1] .

أي : إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه فالأول : دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب ، لأن جواب الشرط وجواب « لولا » لا يتقدم ، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كالآية المذكورة وكقوله : ﴿ **هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ أي : إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم وعلىٰ هذا القول فمعنىٰ الآية : ﴿ **وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربِّه** ﴾ أي : لولا أن رآه همّ بها فما قبل لولا هو دليل الجواب المحذوف كما هو الغالب في القرآن الكريم واللغة .

ونظير ذلك قوله تعالىٰ :﴿ **إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا** ﴾[2] .

أي : لولا أن ربطنا علىٰ قلبها لكادت تبدي به .

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب لولا في قوله : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ هو ما قبله من قوله : ﴿ **وهم بها** ﴾ وإلىٰ جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون ومن أعلام البصريين المبرد ، وأبو زيد الأنصاري .

قال الشيخ أبو حيان في « البحرالمحيط » ما نصه : والذي أختاره أن

---

(١) سورة يونس الآية (٨٤) .

(٢) سورة القصص الآية (١٠) .

يوسف عليه السلام لم يقع هم بها ألبتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان، كما تقول : لقد قارفت لولا أن عصمك اللَّه .

يقول الشيخ الشنقيطي : وأما أقوال السلف : فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ، لأنها أقوال متكاذبة ، يناقض بعضها بعضاً مع كونها قادحة في بعض فسّاق المسلمين، فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة .

ويقول الشنقيطي مرة أخري :

هذه الأقوال منقسمة إلى قسمين :

قسم لم يثبت نقله عمن نُقل عنه بسند صحيح ، وهذا لا إشكال في سقوطه .

وقسم ثبت عن بعض من ذكر، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك فالظاهر الغالب على الظن ، المزاحم لليقين أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات لأنه لا مجال للرأي فيه ولم يرُفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ[1] .

الإحسان صفة يوسف عليه السلام ... يعبد اللَّه كأنه يراه :

إن الذي يستلفت النظر كثرة تكرار صفة الإحسان ، فكان محسنًا مع ربه وأيضًا مع الناس ، فقد سمَّى اللَّه قصته (أحسن القصص) ، ورتَّب على الإحسان إيتاءه الحكم والعلم في الشباب ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾[2] ، ووصفه السجناء بذلك ﴿ **نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [3] وبه مكَّنه اللَّه تعالى في الأرض ﴿ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[4] ، وقال له إخوته وهم لا يعرفونه : ﴿ **فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ**

---

(١) « أضواء البيان » (٣/ ٤٩ ـ ٦٠) .

(٢) سورة يوسف الآية (٢٢) .

(٣) سورة يوسف الآية (٣٦) .

(٤) سورة يوسف الآية (٥٦) .

مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[١] ، وقال عن نفسه وأخيه : ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢] .

ثم أثنىٰ علىٰ ربه بإحسانه إليه وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ... ﴾[٣]، والإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه... ولهذا ما همّ يوسف المحسن بالمعصية - بل بلغ المثل الأعلىٰ في العفة .

« لولا أن رأى برهان ربه » :

عجبًا للهوىٰ ! « هذه ملكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس؛ ولكن أين مُلكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة ؟ لم تزد الآية علىٰ أن قالت : ﴿ **وراودته التي** ﴾ و« التي » هذه كلمة تدلّ علىٰ كل امرأة كائنة من كانت ؛ فلم يبق علىٰ الحب ملك ولا منزلة ؛ وزالت الملِكة من الأنثىٰ !

وأعجب من هذه كلمة « وراودته » وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلىٰ أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لون بعد لون ؛ ذاهبة إلىٰ فن ، راجعة من فن ؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدان الإبل في مشيتها ؛ تذهب وتجئ في رفق ، وهذا يصوّر حيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها ؛ ومحاولتها أن تنفذ إلىٰ غايتها ؛ كما يصور كبرياء الأنثىٰ إذ تختال وتترفّق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها ، فمهما تتهالك علىٰ من تحبّ وجب أن يكون لهذا « الشيء الآخر » مظهر امتناع أو مظهر تحيّر أومظهر اضطراب ، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة .

(١) سورة يوسف الآية (٧٨) .
(٢) سورة يوسف الآية (٩٠) .
(٣) سورة يوسف الآية (١٠٠) .

ثم قال : « عن نفسه » ليدلّ على أنها لا تطمع فيه ، ولكن في طبيعته البشرية ، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها ، وكأن الآية مصرّحة في أدب سام كل السموّ ، منزه غايه التنزيه بما معناه : « إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغرائه وتصبيه ، مقبلة عليه ومتدللة ومبتذلة ومُنْصبَّة من كلّ جهة ، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية ، وعارضة كل ذلك عَرض امرأة خلعت ـ أول ما خلعتْ ـ أمام عينيه ثوب الملك » .

ثم قال : ﴿ **وغلقت الأبواب** ﴾ ولم يقل « أغلقت » وهذا يُشعر أنها لما يئست ، ورأت منه محاولة الانصراف ، أسرعت في ثورة نفسها مهتاجة تتخيّل القفل الواحد أقفالاً عدّة ، وتجري من باب إلى باب ، وتضطرب يدها في الإغلاق ، كأنما تحاول سدّ الأبواب لا إغلاقها فقط .

﴿ **وقالت هيت لك** ﴾ ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده ، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية ، ولم تعد لا ملكة ولا امرأة ، بل أنوثة حيوانية صرفة ، متكشّفة مصرّحة ، كما تكون أنثى الحيوان في أشد اهتياجها وغليانها .

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض ، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة عن أعلاها إلى أسفلها ، فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يَبْق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثَمّ عظمة الرجولة المتمكنة في معانيها ، فقال يوسف عليه السلام ﴿ **معاذ اللّه** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **إنه ربي أحسن مثواى** ﴾ ، ثم قال : ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة ، إذ كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين باللّه ، ومعرفة الجميل ، وكراهة الظلم ، ولكنّ هذا التنبيه المترادف ثلاث مرّات لم يكسر من نزوتها ، ولم يَفْثَأْ تلك الحدّة ، فإن حبها كان قد انحصر في فكرة

واحدة اجتمعت بكلّ أسبابها في زمن في مكان في رجل ، فهي فكرة محتَبَسة كأن الأبواب مغلّقة عليها أيضًا ، ولذا بقيت المرأة ثائرة ثورة نفسها، وهنا يعود الأدب الإلهي السامي إلىٰ تعبيره المعجز فيقول : ﴿ ولقد همَت به ﴾ كأنما يومئ بهذه العبارة إلىٰ أنها ترامت عليه ، وتعلّقت به ، والتجأت إلىٰ وسيلتها الأخيرة ، وهي لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة في الهشيم . . . !

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطان يقذف به في آخر محاولته، وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربّه كما وقع لها هي برهان الشيطان ، فلولا برهان ربّه لكان رجلاً من البشر في ضعفه الطبيعي .

وههنا المعجزة الكبرىٰ ، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفي عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة ، حتىٰ لا يُظنّ به ، ثم هي تريد من ذلك أن يتعلم الرجال ، وخاصة الشبّان منهم ـ كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات ، حتىٰ في الحالة التي هي نهاية قدرة الطبيعة ؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مُخْيَلية متعرِّضة متكشِّفه متهالكة ، هنا لا ينبغي أن ييأس الرجل، فإن الوسيلة التي تجعله لا يرىٰ شيئًا من هذا ـ هي أن يرىٰ برهان ربّه .

وهذا البرهان يُؤوِّله كل إنسان بما شاء ، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيفضها كلها ؛ فإذا مثّل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام اللّه يراهما ، وأن أماني القلب التي تهجس فيه ويظنها خافية إنما هي صوت عال يسمعه اللّه ؛ وإذا تذكر أنه سيموت ويُقبَر، وفكّر فيما يصنع الثرىٰ في جسمه هذا ، أو فكّر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل ، أو فكّر في أن هذا الإثم الذي يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه في أخته أو بنته .

إذا فكّر في هذا ونحوه رأىٰ برهان ربه يطالعه فجأة ، كما يكون السائر في الطريق غافلاً مندفعًا إلىٰ هاوية ، ثم ينظر فجأة فيرىٰ برهان عينيه ؛ أترونه يتردىٰ في الهاوية حينئذ ، أم يقف دونها وينجو ؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام ، وأكثر الموعظة ، وأكثر التربية ، والتي هي كالدرع في المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان ، كلمة ﴿ رأى برهان ربه ﴾[1] .

للّه در عطاء بن يسار ... ما أجمل وأكمل عفته !! :ـ

خرج ـ رحمه اللّه ـ وأخوه سليمان بن يسار حاجين من المدينة ومعهم أصحاب لهم ، حتىٰ إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم وبقي عطاء بن يسار قائمًا في المنزل يصلي ، فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة ، فلما رآها ظن أن لها حاجة فأوجز في صلاته ، ثم قال : ألك حاجة ؟ قالت : نعم .

قال : ما هي ؟ قالت : قم فأَصِبْ مني فإني قد ودقْتُ[2] ولا بعل لي ، فقال : إليك عني ، لا تحرقيني ونفسك بالنار ونظر إلىٰ امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسه وتأبىٰ إلا ما تريد فجعل عطاء يبكي ويقول : ويحك إليك عني إليك عني ، واشتد بكاؤه فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه فجعل يبكي والمرأة بين يديه تبكي .

فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان من حاجته فلما نظر إلىٰ عطاء والمرأة بين يديه تبكي ، جلس يبكي في ناحية البيت لبكائهما ولا يدري ما أبكاهما ! وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلما أتىٰ رجل فرآهم

---

(١) « وحي القلم » لمصطفىٰ صادق الرافعي (١/ ١٠٤ ـ ١٠٦) دار الكتاب العربي .

(٢) ودقت : أرادت الفحل .

يبكون جلس يبكي لبكائهم لا يسألونهم عن أمرهم حتى كثر البكاءوعلا الصوت فلما رأت الأعرابية ذلك ، قامت فخرجت وقام القوم فدخلوا فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبته ، وكان أسنّ منه ، ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما فلبثا بها ما شاء اللَّه فبينا عطاء ذات ليلة نائم ، إذ استيقظ وهو يبكي !

فقال له سليمان : ما يبكيك يا أخي ؟! فاشتد بكاؤه قال : ما يبكيك يا أخي ؟!

قال : رؤيا رأيتها الليلة قال : ما هي ؟ قال : لا تخبر بها أحدًا ما دُمت حيًا ، قال : وما ذاك ؟

قال : رأيت يوسف النبي ﷺ فجئت أنظر إليه فيمن ينظر فلما رأيت حسنه بكيت ! فنظر إليّ في الناس فقال : ما يبكيك أيها الرجل ؟ قلت : بأبي أنت وأمي ذكرتك وامرأة العزيز وما ابتُليت به من أمرها ، وما لقيت من السجن وفرقة الشيخ يعقوب ﷺ فبكيت من ذلك ، وجعلت أتعجّب منه فقال ﷺ : فهلاّ تعجّبت من صاحب المرأة بالأبواء ؟ فعرفت الذي أراد فبكيت ، واستيقظت باكيًا .

قال سليمان : يا أخي ! وما كان حال تلك المرأة ؟

قال : فقصّ عليه عطاء القصة فما أخبر سليمان بها أحدًا ، حتى مات عطاء وحدّث بها بعده امرأة من أهله ، وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار[١] .

* * *

---

(١) « الرقة والبكاء » (ص١٩٨ ـ ٢٠٠) ، و« صفة الصفوة » (٢/ ٨٢ ـ ٨٤) .

تغيّر الرجال وذهب العفاف :

قال بعض المدنيين : كان الرجل يحب الفتاة فيطيف بدارها حَوْلاً يفرح إنْ رأىٰ من رآها فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدُها وتعِده فإذا التقيا لم يشْكُ حبّا ولم يُنشد شعراً ، وقام إليها كأنه قد أشهد علىٰ نكاحها أبا هريرة !! فهذا جميل بثينة ـ ولا نرضىٰ واللَّه عن طريقته ـ دخل عليه عياش بن سهل الساعدي وهو يجود بنفسه وسأله عن تشبيبه ببثينة منذ عشرين سنة !؟

فقال : هذا آخر وقت من أوقات الدنيا ، وأول وقت من أوقات الآخرة فلا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت وضعت يدي عليها لريبة قط ، وإن كان أكثر ما نلتُ منها إلا أني كنت آخذ يدها[١] فأضعها علىٰ قلبي فأستريح إليها[٢] .

وعمر بن أبي ربيعة ، كبير شعراء الغزل ، لمّا مرض مرض الموت ، أسف عليه أخوه الحارث ، فقال له عمر : يا أخي ، إن كان أسفك لما سمعت من قولي : قلت لها وقالت لي ، فكل مملوك له حرّ إنْ كان كشف فرجًا حرامًا قط ، فقال الحارث : الحمد للَّه طيَّبت نفسي .

وليلىٰ الأخيلية ، قالت لعبد الملك بن مروان عن توبة : والذي ذهب بنفسه ، ما كلَّمني بسوء قط ، حتىٰ فرَّق بيني وبينه الموت .

إن كان هذا عفاف أهل الجاهلية فكيف بالإسلام ؟ :ـ

عن عبيدة السلماني قال : كان في الجاهلية أخوان من حي يُدعون بني

---

(١) وهذا لا يجوز له .

(٢) « ذم الهوىٰ » (٢٢٢ ـ ٢٢٣) .

كُنَّة ، أحدهما متزوج والآخر أعزب ، فقضي أن المتزوج خرج في بعض ما يخرج الناس فيه ، وبقي الآخر مع امرأة أخيه .

فخرجت ذات يوم حاسرة ، فإذا أحسن الناس وجها وأحسن الناس شعراً ، فلمَّا علمت أنَّه قد رآها ولولت وصاحت ، وقالت بمعصمها فغطَّت وجهها ، فزاده ذلك فتنة ، فحمل الشوق على بدنه حتى لم يبق إلا رأسه وعيناه يدوران في رأسه ، وقدم الأخ فقال : يا أخي ما الذي أرى بك ؟ فاعتلَّ عليه ، فقال : الشوصة ، قال الشوصة تسميها العرب اللّوى وذات الجنب ، فقال له ابن عم له : لا تكذبَّنه ابعث إلي الحارث ابن كِلدة ، فإنه من أطَّب العرب ، فجئ به فلمس عروقه فإذا ساكنها ساكن وضاربها ضارب ، فقال : ما بأخيك إلا العشق ، فقال : سبحان اللَّه تقول هذا لرجل ميت ! قال : هوذا ، هل عندكم شيء من الشراب ؟ فجئ به ودعا بمُسْعُط فصبَّ فيه ، وحلّ صرّة من صرارة فذرَّ فيه ثم سقاه ، ثم سقاه الثانية ، ثم سقاه الثالثة ، فانتشى يغنِّي سكراً فقال :

أَلِمَّـا بي علـى الأبيـا ... تِ من خيـفِ أُزُرْهُنَّـهْ
غـزالاً مـا رأيت اليـو ... مَ فـي دور بنـي كُنَّـهْ
غـزالاً أحـور العين ... وفي منطقـه غُنَّـهْ

فقال الرجل : دور قومنا فليت شعري من ؟

فقال الحارث : ليس فيه مستمع غير هذا اليوم ، ولكن أغدوا عليكم من الغد ، ففعل كفعله بالأمس ، فانتشى يغنِّي سكرًا ، وكانت امرأة أخيه اسمها ريَّا فقال :

أيُّهـا الحـي اسلمـوا ... كي تُحيّوا وتسلَمُوا
خرجت مُزْنـة من البحـ ... ـر ريَّـا تُحَمْـحِمُ

هـي مـا كَنَّتـي[1] وتزعـم أني لهـا حمـو

فقال الرجل لمن حضر : فأشهدكم أنها طالق ثلاثًا ليرجع إلى أخي فؤاده ، فإن المرأة توجد والأخ لا يوجد ، فجاء الناس يَسْعَوْنَ : هنيئًا لك أبا فلان ، فإن فلانًا قد نزل لكم عن فلانة .

فقال من حضر : أشهدكم أنَّها عليَّ مثل أمي إن تزوجتُها .

قال عُبيدة : ما أدري أي الرجلين أكرم ؟ الأول أم الآخر ؟ !

أهل العفاف أهل الحياء فاقرأ طيب أخبارهم :

ما لي ولعُبيد بن عُمير ، أفسد عليَّ امرأتي ، كانت في كل ليلة عروسًا فصيَّرها راهبة :

قال عبد اللَّه بن مسلم العِجْلي : كانت امرأة جميلة بمكة ، وكان لها زوج ، فنظرت يومًا إلى وجهها في المرآة ، فقالت لزوجها : أترى أحدًا يرى هذا الوجه لا يُفتن به ؟ قال : نعم .

قالت : من ؟ قال : عُبيد بن عُمير[2] .

قالت : فائذن لي فيه فلأفتننَّه ، قال : أذنتُ لك .

قال : فأتته كالمستفتية فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام ، قال : فأسفرت عن مثل فلقة القمر ، فقال لها : يا أمة اللَّه ! قالت : إني قد فُتنت بك فانظر في أمري .

قال : إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتيني نظرت في أمرك .

قالت : لاتسألني عن شيء إلا صدقتك .

قال : أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك ، أكان يسرُّك

(١) الكنَّة : بفتح الكاف امرأة الابن أو الأخ .

(٢) هذا لا يجوز شرعًا ولقد ذكرته لذكر ابن الجوزي وابن القيم لهذه القصة فلعلّ لهما تأولاً واللَّه أعلم .

أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا . قال : صدقتِ .

قال : فلو أُدخلتِ في قبرك وجلست للمساءلة ، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا . قال : صدقتِ .

قال : فلو أن الناس أُعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك ، أكان يسرُّك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا . قال : صدقتِ .

قال : فلو جيء بالموازين وجيء بك لا تدرين تخفين أم تثقُلين أكان يسرُّك أني قضيت لكِ هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا .

قال : فلو وقفت بين يدي اللَّه للمساءلة أكان يسرُّك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللَّهم لا . قال : صدقت .

قال : اتقي اللَّه يا أمة اللَّه ، فقد أنعم اللَّه عليك وأحسن إليك .

قال : فرجعت إلى زوجها فقال : ما صنَعتِ ؟ قالت : أنت بطَّال ونحن بطَّالون .

السري بن دينار وعظيم عفته :

قال محمد بن إسحاق : نزل السري بن دينار في دار بمصر كانت فيه امرأة جميلة تفتن الناس بجمالها ، فعلمت المرأة فقالت لأفتنَنَّه ، فلما دخلت من باب الدرب كشفت وأظهرت نفسها فقال السري : مالك ؟ قالت : هل لك في فراش وطيّ وعيش رخيّ ؟!

فأقبل عليها وهو يقول :

وكم ذي معاص نال منهن لذّةً ... ومات فخلاّها وذاق الدواهيا
تصرّمُ لذّاتُ المعاصي وتنقضي ... وتبقى تِباعات المعاصي كما هيا
فواسوأتا واللّهُ راءٍ وسامعٌ ... لعبد بعين اللّه يغشى المعاصيا(١)

لا حاجة لي فيمن دعاني إلى المعصية وأنا أدعوه إلى الطاعة :

قال الأصمعي : عشق رجل من النسّاك جارية من البصرة ، فبعث يخطبها فأبت وقالت : إنْ أردتَ غير ذلك فعلت ، فأرسل إليها :

سبحان اللّه أيتها المرأة !! أدعوك إلى الأمر الصحيح والحلال الذي لا عيب فيه ولا وزر وتدعينني إلى ما لا يصلح لا لي ولا لك؟ قال : فأرسلت إليه : قد أخبرتك بالذي عندي فإن أردت فتقدّم وإن كرهت فتأخّر ، فأنشأ الفتى يقول :

أسائلُها الحلال وتدْعُ قلبي ... إلى ما تشتهيه من الحرامِ
كداعي آل فرعون إليه ... وهم يدعونه نحو الغرامِ
فظلّ منعماً فى الخلد يسعى ... وظلّوا في الجحيم وفي السقامِ

فلما علمت أنه قد امتنع عليهامن الفاحشة أرسلت إليه : أنا بين يديك على الذي تحب فكتب : إليها « هيهات ، لا حاجة لي فيمن دعاني إلى المعصية وأنا أدعوه إلي الطاعة ، وقال :

لا خير فيمن لا يراقبُ ربّهُ ... عند الهوى ويخافه أحيانا
إن الذي يبغي الهوى ويريده ... كمؤاجر شيطانه شيطانا
حجب التقى بابَ الهوى فاخو التقى ... عفّ الخليفة زائدٌ إيمانا(٢)

---

(١) « ذم الهوىٰ » (ص٢٣٤ـ٢٣٥) .
(٢) « ذم الهوىٰ » (ص٢٣٦) .

ولله در من قال في وصف العفيف :

يقظاتُه ومنامُــه شِرَعٌ[١] كل بكل فهــو مشتبــه

إن همّ في حلـم بفاحشــة زجرته عفّتُــه فينزجــر

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [٢] .

قال مجاهد : هو الرجل يذكر الله عند المعاصي فينحجز عنها[٣] .

قال مالك بن دينار : جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن فيها جَوارٍ خُلقن من ورد الجنة ، قيل : ومن يسكنها ؟ قال : الذين همُّوا بالمعاصي فلمَّا ذكروا عظمة الله راقبوه والذين انثنت أصلابهم من خشيته .

وقال ميمون : الذكر ذكران : فذكر الله عز وجل باللسان حسن ، وأفضل منه أن يُذكر عندما يُشرف عليه من معاصيه .

وقال عُبيد بن عُمير : من صدق الإيمان وبرِّه أن يخلو الرجل بالمرأة الحسناء فيدعُها ، لا يدعُها إلا لله عز وجل[٤] .

عن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « **بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل ، فانحطَّت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرّجها .**

فقال أحدهم : اللّهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ولي صبية صغار

(١) مفردها شِرْع ، وهو المثل والشبيه .
(٢) سورة الرحمن الآية (٤٦) .
(٣) « ذم الهوىٰ » (ص٢٤٠ ـ ٢٤١) .
(٤) « ذم الهوىٰ » (ص٢٤٤ ـ ٢٤٥) .

كنت أرعى عليهم فإذا رُحت عليهم فحلبت بدأت بوالديّ أسقيهما قبل ولدي وإنه نأي بي الشجر ، فما أتيتُ حتى أمسيتُ فوجدتهما قد ناما فحلبتُ كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما ، أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصِّبْية قبلهما والصبية يتضاغوْن عند قدمي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرَّج اللَّه لهم فرجة حتى رأوا منها السماء .

فقال الثاني : اللَّهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشدّ ما يحب الرجال النساء، فطلبتُ إليها نفسها ، فأبتْ حتى آتيها بمائة دينار فسعيتُ حتى جمعتُ مائة دينار فلقيتها بها ، فلما قعدت بين رجليها قالت : يا عبد اللَّه اتق اللَّه ولا تفتح الخاتم إلا بحقه فقمت عنها اللَّهم فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا منها ففرَّج لهم فرجه ... »[1] الحديث .

القسّ عبد الرحمن بن أبي عمار يعفّ عن سلامة :

كان عبد الرحمن بن أبي عمار بن جُشم معاوية ينزل بمكة ، وكان من عُبَّاد أهلها فسُمي القس لعبادته ، شُغفت به سلاّمة وقالت له : أنا واللَّه أحبك قال : وأنا واللَّه أحبك ، قالت : وأحب أن أضع فمي على فمك ، قال : وأنا واللَّه ، قالت : وأحب أن ألصق صدري بصدرك وبطني ببطنك، قال : وأنا واللَّه ، قالت : فما يمنعك ؟ فواللَّه إن الموضع لخال قال : إني سمعت اللَّه يقول : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تئول بنا إلى عداوة يوم القيامة .

قالت : يا هذا أتحسب أن ربي وربك لا يقبلنا إن نحن تبنا إليه ؟ قال : بلى ولكن لا آمن أن أفاجأ .

---

(١) « ذم الهوى » (ص٢٤٤ ـ ٢٤٥) .

عفاف شاب من الأنصار :

وانظر إلىٰ هذه الميتة العجيبة : أحبت امرأة من المدينة رجلاً من الأنصار فأرسلت تشكو إليه حبها وتسأله الزيارة وتدعوه إلىٰ الفاحشة وكانت ذات بعل فأرسل إليها :

إن الحرام سبيل لست أسلكه ... ولا أمرٌ به ما عشتُ في الناس

فابغي العفاف فإني غير متَّبِع ... ما تشتهين فكوني منه في يأس

إني سأحفظ فيكم من يصونكم ... فلا تكوني أخا جهلٍ ووسواس

فلما قرأت الكتاب كتبت إليه :

دعْ عنك هذا الذي أصبحت تذكره ... وصرْ إلى حاجتى يا أيها القاسي

دع التنسُّك إني غيـــر ناسكــــة ... وليس يدخل ما أبديت في راسي

فأفشىٰ ذلك إلىٰ صديق له فقال له : لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك ، فقال : واللَّه لا فعلت ، ولا صرت في الدنيا حديثًا وللعار في الدنيا خير من النار في الآخرة وقال :

العار في مدة الدنيا وقلتها ... يفنى ويبقى الذي في العار يؤذيني

والنار لا تنقضي ما دام بي رمق ... ولست ذا ميتة منها فتفنيني

لكن سأصبر صبر الحرِّ محتسبًا ... لعل ربي من الفردوس يدنيني

وأمسك عنها فأرسلت : إما أن تزورني وإما أن أزورك فأرسل إليها : اربْعَي أيتها المرأة علىٰ نفسك ودعي عنك التسرع إلىٰ هذا الأمر فلما يئست منه ذهبت إلىٰ امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب في تهييجه فعملت لها فيه فبينما هو ذات ليلة جالسًا مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمر لم يكن يعرفه ، واختلط ، فقام من بين يدي أبيه مسرعًا

وصلَّىٰ واستعاذ وجعل يبكي والأمر يزيد ، فقال له أبوه : يا بني ما قصّتك؟

قال : يا أبت أدركني بقيْد ، فما أرىٰ إلا قد غُلبت علىٰ عقلي ، فجعل أبوه يبكي ويقول : يا بني حدِّثني بالقصة ، فحدَّثه قصته ، فقام إليه فقيّده وأدخله بيتًا ، فجعل يتضرب ويخور كما يخور الثور ، ثم هدأ ساعة فإذا هو ميت وإذا الدم يسيل من منخريه .

قال عمر بن عبد العزيز : « أفضل الجهاد جهاد الهوىٰ » .

وقال سفيان الثوري : « أشجع الناس أشدهم من الهوىٰ امتناعًا »

وكان الثوري ـ رحمه اللَّه ـ كثيراً ما يتمثّل بهذين البيْتين :

تفنى اللذاذةُ ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الوزْرُ والعارُ

تبقى عواقب سوءٍ في مغبّتها ... لاخير في لذةٍ من بعدها النارُ

وقال الحسين بن مُطَير :

ونفسك أَكْرِمْ عن أمور كثيرةٍ ... فما لك نفس بعدها تستعيرُها

ولا تقرب المرعى الحرام فإنما ... حلاوته تفنى ويبقى مريرُها

وقال الإمام أحمد بن حنبل : الفتوة ترك ما تهوىٰ لما تخشىٰ .

رجل لا يبيع جنة عرضها السموات والأرض :

قال العُتْبي : عَلِقَ أعرابي امرأة ، فطال به وبها الأمر فلما التقيا وتمكَّن منها وصار بين شعبتيها ذكر الدار الآخرة وجاءته العصمة ، فقال : واللَّه إن إمرءا باع جنة عرضها السموات والأرض بفتر بين رجليك لقليل البصر بالمساحة !

أخاف ناراً لا يخبو سعيرها :

عن رجاء بن عمرو النخعي قال : كان بالكوفة فتىً جميل الوجه ، شديد التعبد والاجتهاد وكان أحد الزهاد ، فنزل في جوار قوم من النخع

فنظر إلىٰ جارية منهن جميلة فهويها ، وهام بها عقله ونزل بها مثل الذي نزل به فأرسل يخطبها من أبيها فأخبره أبوها أنها مسمّاة لابن عم لها ، فلما اشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوىٰ أرسلت إليه الجارية : قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتد بلائي بك ، فإن شئت زرتك وإنْ شئت سهّلت لك تأتيني .

فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين الخلّتين إني أخاف إنْ عصيت ربي عذاب يوم عظيم، أخاف ناراً لا يخبو سعيرها ولا يخمد لهيبها فلما انصرف الرسول إليها فأبلغها ما قال قالت : وأراه مع هذا زاهداً يخاف اللَّه! واللَّه ما أحد أحقّ بهذا من أحد وإن العباد فيه لمشتركون .

ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها خلف ظهرها ، ولبست المسوح وجعلت تتعبد ، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبًا للفتىٰ وأسفا عليه حتىٰ ماتت شوقًا إليه ، فدفنت فكان الفتىٰ يأتي قبرها ويبكي عندها ويدعو لها فغلبته عينيه ذات يوم علىٰ قبرها ، فرآها في منامه وكأنها في أحسن منظرها فقال : كيف أنت ؟ وما لقيت بعدي ؟ فقالت :

نعم المحبـــة يا سُؤلي محبتـــكم ... حب يقــود إلى خير وإحســـان

فقال : علىٰ ذلك إلىٰ ما صرت ؟

فقالت :

إلى نعيـــــم وعيـــش لا زوال له ... في جنـة الخلد ملك ليس بالفـاني

فقال لها : اذكريني هناك ، فإني لستُ أنساك ، فقالت : ولا أنا واللَّه أنساك ولقد سألت قربك مولاي ومولاك فأعنّي علىٰ ذلك بالاجتهاد ، ثم ولتْ مدبرة . فقال لها : متىٰ أراك ؟ قالت : ستأتينا عن قريب فترانا ، فلم يعش الفتىٰ بعد الرؤيا إلا سبع ليال[1] .

---

(١) « ذم الهوىٰ » (ص٢٦٣ ـ ٢٦٤) .

اللَّهم سوِّدها :

قال أبو الكُرير معمر : سمعتُ أبا زرعة الخَبْني يقول : فكرت بي امرأة فقالت : يا أبا زرعة ! ألا ترغب في عيادة مبتلىٰ تتعظ برؤيته ؟ فقلت : بلىٰ فقالت : ادخل إلىٰ الدار فلما دخلتُ الدار أغلقت الباب ولم أر أحدًا فعرفت قصدها فقلت : اللَّهم سوِّدها فاسودَّت فحارت وفتحت الباب فخرجت وقلت : اللَّهم رُدَّها إلىٰ حالتها فَردَّها إلىٰ ما كانت .

هِبْتَ مُهابًا :

عن يحيىٰ بن عامر التيمي أن رجلاً من الحيّ خرج حاجًّا فإذا هو بامرأة في بعض الليل ناشرة شعرها في بعض المياه فأعرض عنها فقالت : هلم إليَّ لِمَ تُعرضُ عنِّي ؟ قال : إني أخاف اللَّه رب العالمين ، فتجلببت ، ثم قالت : هِبْتَ مُهَابًا إن أولىٰ من شرِكَك في الهيبة لمن أراد أن يشركك في المعصية قال : ثم ولّت فتبعتها فدخلت بعض خيام الأعراب : فلما أصبحتُ أتيت رجل من القوم فوصفتها فقلت : فتاةٌ كذا وكذا من حسنها من منطقها ، فقال شيخ منهم : ابنتي واللَّه ، قلت : هل أنت مزوِّجي ؟ قال : علىٰ الأكفاء ، قلت : رجل من تيم اللَّه قال : كفؤ كريم فما رُمت حتىٰ تزوجتها ودخلتُ بها ، ثم قلت : جهزوها إلىٰ قدومي من الحج فلما قدمتُ حملتها إلىٰ الكوفة فها هي عندي لي منها بنين وبنات[1] .

عفة بها ملك الدنيا والآخرة :

قال الحسن بن زيد : وَلِينا بديار مصر رجل فوجد علىٰ بعض عُمَّاله فحبسه وقيّده فأشرفت عليه ابنة الوالي فهويته ، فكتبت إليه وكان قد نظر إليها :

أيها الرامي بعينيه … وفي الطرف الحتوفُ
إنْ تُرِدْ وصلاً فقد … أمكنك الظبي الألُوفُ

---

(١) « ذم الهوىٰ » (ص٢٦٤ ـ ٢٦٥) .

فأجابها الفتى :

إن تَرِيْني زاني العينيـــ ـــن فالفـــرج عفيـــفُ

ليـــس إلا النظـــر الفـــا تر والشعـــر الظريـــفُ

فكتبت إليه :

قد أردنـــاك على عشـــ ـــقك إنسانًا عفيفـــا

فتـــأبّيت فـــلا زلـــ ـــت لقيـــديك حليفـــا

فأجابها :

مـــا تأبّيْـــت لأنـــي كُنْـــتُ للظبـــي عيُـــوفا

غيـــرُ أنّي خِفـــتُ ربـــا كـــان بي بـــرًّا لطيـــفا

فذاع الشعر وبلغ الخبر الوالي فدعا بها فزوّجه إياها ودفعها إليه[1] .

في حديث الغار قالت المرأة لابن عمها : « يا عبد اللّه اتق اللّه ولا تفتح الخاتم إلا بحقه » فللّه درها .

حديث الكفل وصاحبته :

عن ابن عمر ـ رضي اللّه عنهما ـ قال : سمعت النبي ﷺ يُحدِّث حديثًا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ولكن سمعته أكثر من ذلك سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورّع عن ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أُرعدت وبكت ، فقال ما يبكيك ؟ أأكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط ، وما حملني عليه إلا الحاجة فقال : تفعلين أنت هذا وما فَعَلْته؟ اذهبي فهي لك ، وقال : لا واللّه لا أعصي اللّه بعدها أبدًا ، فمات من ليلته ،**

(١) « ذم الهوى » (ص٢٦٧ ـ ٢٦٨) .

فأصبح مكتوبًا على بابه : إن الله قد غفر للكِفْل »[1] .

نساء عفيفات :

وإن كان يحمد الصبر من الرجال عن الفاحشة فهو من النساء أعجب :

دع ذلك ليوم التغابن :

قال خارجه بن زياد - رجل من بني سليمة - هويت امرأة من الحي فكنت أتبعها إذا خرجت من المسجد فعرفت ذلك مني ، فقالت لي ذات ليلة : ألك حاجة : قلت : نعم ، قالت : وما هي ؟ قلت : مودتك ، قالت : دع ذلك ليوم التغابن ، قال : فأبكتني والله فما عُدت إلى ذلك .

فأين مكوكبها ؟ :

قال أعرابي : خرجت في بعض ليالي الظلمة فإذا أنا بجارية كأنها علم ، فأردتها على نفسها فقالت : ويلك ! أما لك زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين ! فقلت : إيها ! والله ما يرانا إلا الكواكب ، قالت : فأين مكوكبها ؟ !

هكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات :

قال محمد بن عبد الله بن زيد : حدثتني أمي عن أبيها قال : أحببت جارية من العرب وكانت ذات عقل وأدب فما زلت أحتار في أمرها حتى

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي ، وأحمد ، وأبويعلي في « المسند » ، وابن قدامة في «التوّابين» ، وابن حبان ، وأخرجه رزين في « جامع الأصول » ، وحسنّه الترمذي ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي ، وضعَّفه الألباني في « ضعيف سنن الترمذي » رقم (٤٤٨) .
والكِفل هذا ليس النبي المذكور في كتاب الله تعالى ، فقصته لا تليق بنبي ، انظر : كتاب « من قصص الماضين في حديث سيد المرسلين » ، بقلم مشهور حسن سليمان (ص٢٢٧ـ٢٢٩) ، دار الهجرة .

اجتمعت معها في ليلة مظلمة شديدة السواد في موضع خال ، فحادثتها ساعة ، ثم دعتني نفسي إليها فقلت : يا هذه ، قد طال شوقي إليك قالت : وأنا كذلك . قلت : قد عسر اللقاء . قالت : نحن كذلك !

قلت : هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب .

قالت : هكذا تفنى الشهوات وتنقطع اللذات .

قلت : لو أدنيتني منك ؟

قالت : هيهات هيهات ! إني أخاف العقوبة من اللَّه ، قلت لها فما الذي دعاك إلى الحضور معي في هذا المكان .

قالت : شقوتي وبلائي ! .

قلت : فمتى أراك ؟

قالت : ما أراني أنساك ، فأما الاجتماع معك فلا أراه يكون .

ثم تولت من بين يدي ، فأستحييت مما سمعتُ منها ، فرجعت وقد خرج من قلبي ما كنتُ أجد من حبها ، ثم أنشأت أقول :

توقت عذابا لا يطاق انتقامه ... ولم تأت ما تخشى به أن تعذّبا

وقالت مقالا كدْت من شدة الحيا ... أهيم على وجهي حيا وتعجبا

ألا أف للحب الذي يورث العمى ... ويورد نارًا لا تمل التوثبا

فأقبل عودي فوق بدء مفكرا ... وقد زال عن قلبي العمى فتسربا

قال : فلم أر امرأة كانت أصون منها لدينها ولا أعقل [1] .

بقى الباب الذي بيننا وبين اللَّه لم يغلق :ـ

قال : أبو محمد الشيباني : كان بالبصرة رجل له أكَّار [2] وكانت له

---

(١) « ذم الهوى » (ص٢٧٢ ـ ٢٧٣) .

(٢) الأكَّار : الحرَّاث .

امرأة جميلة حسناء كثيرة الشحم فوقعت في نفسه فركب زبيبته إلىٰ قصره، وقال للأكّار : القط لنا من الرطب وصيّره في الدواخل ثم قال له : إيت به فلانًا وفلانًا فذهب به فلما مضىٰ قال لامرأته : أغلقي باب القصر فأغلقته ثم قال لها : أغلقي كل باب ففعلت فقال لها : هل بقي باب لم تغلقيه ؟ قالت : نعم باب واحد لم أغلقه ، قال : وأي باب هو ؟ قالت : الباب الذي بيننا وبين اللَّه عزوجلّ .

فبكا ثم قام يتصبّب عرقًا وانصرف و لم يواقع الخطيئة [١] .

استحِ من هذه الهمة :ـ

عن محبوب بن صالح أن رجلا من العرب رأىٰ امرأة فوقعت في قلبه فكلم بذلك دهرا ثم إن الأمر تفاقم وتمكنت منه الصبابة واستخفه الغرام فبعث إليها يسألها نفسها ويخبرها بما هو عليه من حبها فكتبت إليه : اتق اللَّه أيها الرجل وارْعَ علىٰ نفسك ، واستح من هذه الهمة التي قد تعلقت بها فإن ذلك أولىٰ بذوي العقول .

أنامَ رب العالمين ؟

قال ابن الجوزي ـ رحمه اللَّه ـ : بلغنا أن بعض المتعبدات البصرْيات وقعت في نفس رجل مهلبي وكانت جميلة وكانت تُخطَب فتأبىٰ ، فبلغ المهلبي أنها تريد الحج فاشترىٰ ثلاثمائة بعير ونادىٰ : منْ أراد الحج فليكترِ من فلان المهلبي فاكترتْ منه فلما كان في بعض الطريق جاءها ليلاً فقال : إما أن تزوجيني نفسك وإما غير ذلك فقالت : ويحك اتق اللَّه ، فقال : ما هو إلا ما تسمعين واللَّه ما أنا بحمّال ولا خرجت في هذا إلا من أجلك فلما خافت علىٰ نفسها قالت : ويحك انظر أبقي في الرجال أحد لم ينم ؟

---

(١) « ذم الهوىٰ » (ص٢٧٣ ـ ٢٧٤) .

قال : لا ، قالت : عُدْ فانظر فمضىٰ وجاء ، فقال : ما بقي أحد إلا وقد نام .

فقالت : ويحك أنامَ رب العالمين ؟ ثم شهقت شهقة وخرّت ميتة .

وخرّ المهلبي مغشيًا عليه ثم قال : ويحي قتلتُ نفسا ولم أبلغ شهوتي فخرج هاربا [(١)] .

« وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها وأكملها إجلال الجبار ، ثم الرغبة في الحور الحسان في دار القرار ، فإن من صرف استمتاعه في هذا الدار إلىٰ ما حرم اللَّه عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك . . . فليتخيَّر العبد لنفسه إحدىٰ اللذتين وليطب نفسًا عن إحداهما بالأخرىٰ ، فلن يجعل اللَّه من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذا لقىٰ اللَّه ، ودون ذلك مرتبة أن يتركها خوف النار فقط ، فإن تركها رغبة ومحبة أفضل من تركها لمجرد خوف العقوبة[(٢)] .

ترك المحبين أدنى المحبوبيْن رغبة في أعلاهما :

قال العلاَّمة ابن القيم : « هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الأبية التي لا تقنع بالدون ، ولا تقنع بالأدنىٰ بيع العاجز المغبون ، ولا يملكها لطخ جمال مُغَشّ علىٰ أنواع من القبائح .

فالنفس الأبية لا ترضىٰ بالدُّون ، وقد عاب اللَّه سبحانه أقوامًا استبدلوا طعامًا بطعام أدنىٰ فنعىٰ ذلك عليهم وقال : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بَالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾[(٣)] ، وذلك دليل علىٰ وضاعة النفس وقلة قيمتها

(١) « ذم الهوىٰ » (٢٧٦ـ٢٧٧) .
(٢) « روضة المحبين » (ص٣٤٨ـ٣٤٩) .
(٣) سورة البقرة الآية (٦١) .

ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص يتمثل بهما :

إذا المرءُ لم يترك طعامًا أحبّه ولم ينْه قلبًا غاويًا ثم يممًا

قضى وطرًا منه وغادر سُبَّةً إذا ذُكرت أمثالها تملأ الفما(١)

عفة امرأة :

قال سعيد بن جبير : كان عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ إذا أمسى أخذ درته ، ثم طاف بالمدينة فإذا رأى شيئًا ينكره أنكره ، فبينما هو ذات ليلة يَعُسّ إذْ مر بامرأة على سطح وهي تقول :

تطاول هذا الليل وأخْضَلَ (٢) جانبه وأرّقني أن لا خليــل ألاعِبُهْ

فــواللَّه لولا اللَّه لا ربّ غيــره لحُرّك من هذا الســرير جوانبــهْ

مخافة ربي والحيــاء يصــونني وأُكــرم بعْلي أن تُنــال مراكبــهْ

ثم تنفست الصعداء وقالت : لهان على عمر بن الخطاب ما لقيتُ الليلة فضرب باب الدار فقالت : من هذا الذي يأتي إلى امرأةٍ مُغيبة(٣) هذه الساعة؟ فقال : افتحي ، فأبت فلما أكثر عليها قالت : أما واللَّه لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك فلما رأى عفافها قال : افتحي فأنا أمير المؤمنين ، قالت : كذبت ما أنت أمير المؤمنين فرفع بها صوته وجهر لها فعرفت أنه هو ، ففتحت له فقال : هيه كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قالت : فقال : أين زوجك ؟ قالت : في بعث كذا وكذا ، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرِّحْ فلان بن فلان ، فلما قدم عليه قال : اذهب إلى أهلك ، ثم دخل على حفصة ابنته فقال : أي بنية كم تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : شهر أو

---

(١) « روضة المحبين » (ص٣٩٩ـ ٤٠٠) .

(٢) أظلم .

(٣) امرأة مغيبة : غاب عنها زوجها .

اثنين أو ثلاثة وفي الرابع ينفد الصبر ، فجعل ذلك أجلا للبعث[1] .

إياك والعشق :

قال النبي ﷺ : « **لا ينبغي للمسلم أن يُذّل نفسه** ..... » قال الإمام أحمد : تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق .

قال ابن القيم في « روضة المحبين » (١٩٥) : « وهذا مطابق لحال العاشق ، فإنه أذل الناس لمعشوقه » .

ومن اقتحم بحر العشق ولعبت به أمواجه فهو إلىٰ الهلاك أدنىٰ منه إلىٰ السلامة .

الحب أوله شيء يهيم به قلب المحب فيلقى الموت كاللعبِ
يكون مبدؤه من نظرة عَرَضتْ ومَزْحَةِ أُشعلت في القلبَ كاللهبِ
كالنار مبدؤها من قدحة[2] فإذا تضرَّمت[3] أحرقتْ مستجمع الحطب

الإسلام وتوفير العفة والحفاظ عليها :

« اتفق الأصوليون علىٰ أن الأديان كلها عملت علىٰ توفير العفة والحفاظ عليها ضمن الضروريات الستة التي لابد لكل مجتمع منها والتي هي : الأديان ، والأنفس ، والعقول ، والأعراض ، والأنساب ، والأموال ، فقد حُرِّم الزنا في جميع الأمم وقد تقدمت الإشارة إلىٰ قصة يوسف ومريم والنفر الثلاثة من بني إسرائيل وفي خصوص الإسلام وهو خاتمة الأديان فقد كانت عنايته بذلك تفوق كل الحدود حيث أحاط العرْض بسياج منيع من جميع جوانبه وحرّم كل نافذة تطل عليه ابتداءً من نظرة

---

(١) « روضة المحبين » (ص٢٢٢) .
(٢) القِدْح : بالكسر اسم لاقتداح النار .
(٣) تضرّمت النار : اشتعلت والتهبت .

بالعين وخطرة بالقلب وهمسة بالأذن ورنّة بالحليّ ، وألزم الحجاب صونًا له وحفاظًا عليه .

وتكاد سورة النور وجزء كبير من سورة الأحزاب يختص بذلك .

سورة النور :

وبتأمل سورة النور نجد عند افتتاحها وفي آخر السورة التي قبلها وهي سورة المؤمنون يأتي في ختامها الحديث عن قضية التوحيد والشرك .

ونستطيع أن نقول : إن الاقتران الموضعي بين قضية التوحيد وقضية الزنا يُشعر بالربط بين القضيتين في عظم خطرهما وعظيم الجرم فيها .

أ ـ فالأولىٰ : في حق اللَّه تعالىٰ وهو أعظم حق للَّه علىٰ عباده .

ب ـ والثاني : في حق المجتمع كله بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ **وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ لأن الاعتداء علىٰ أي فرد من أفراد المجتمع يعتبر اعتداءً علىٰ حق المجتمع كله ولو كانت لهذا الاعتداء ثمرة خاطئة فسيتحملها المجتمع كذلك ، سواء كانت رزيلة تظهر ، أو حملاً يولد ، وبالنظر إلىٰ هذا الاستهلال في بداية هذه السورة الكريمة بتقديم ذكر المرأة مما يُشعر بقوة تأثير المرأة في هذه القضية ، لبداءة الإغراء من جانبها هي[١] .

المنهج المتكامل في توفير العفة :

١ ـ تقبيح الزناة لقبح فعلهم : ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[٢] .

أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلىٰ إقامة بيت ، وبناء عش ، وإنشاء حياة مشتركة ، لا تنتهي بانتهاء

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٤٥ ـ ١٤٧) .

(٢) سورة النور الآية (٣) .

اللحظة الجسدية الغليظة وأن تقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التي تجعل من التقاء جسدين التقاء نفسين وقلبين وروحين، وبتعبير شامل التقاء إنسانين تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، ويلتقي في الذرية المرتقبة ، ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان .

من هنا شدَّد الإسلام في عقوبة الزنا بوصفه نكسة حيوانية ، تذهب بكل هذه المعاني وتطيح بكل هذه الأهداف ، وتردُّ الكائن الإنساني مسخًا حيوانيًا ، لا يفرِّق بين أنثي وأنثي ، ولا بين ذكر وذكر ، مسخًا كلُّ همِّه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة .

المعاقبة على قذف المحصنات :

ويمضي الإسلام في الطريق خطوة أخرى في استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة فيشدد عقوبة قاذف المحصنات ، قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1] .

إن ترك الألسنة تُلقي التُّهم على المحصنات بدون دليل قاطع يترك المجال فسيحًا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئًا بتلك التهمة النكراء ، ثم يمضي آمنا ! فتصبح الجماعة وتمشي ، وإذا أعراضها مُجرَّحة ، وسمعتها مُلوَّثة ، وإذا كل زوج فيها شاك في زوجه ، وكل رجل شاك في أصله ، وهي حالة من الشك والقلق والريبة لا تُطاق .

ذلك أن اطِّراد سماع التهم يوحي إلى النفوس المتحرجة من ارتكاب

---

(١) سورة النور الآية (٤) .

الفعلة أن جو الجماعة كله ملوّث ، وأن الفعلة فيها شائعة ، فيقدم عليها من كان يتحرج منها ، وتهون في حسِّه بشاعتها بكثرة ترددها وشعوره بأن كثيرين غيره يأتونها .

ومن ثم لا تجدي عقوبة الزنا في منع وقوعه ، والجماعة تمسي وتصبح وهي تتنفس في ذلك الجو الملوث الموحي بارتكاب الفحشاء .

والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التحرج من الإذاعة به ، وتحريض الكثيرين من المتحرجين على ارتكاب الفعلة التي كانوا يستقذرونها ويظنونها ممنوعة في الجماعة أو نادرة ، وذلك فوق الآلام الفظيعة التي تصيب الحرائر الشريفات والأحرار الشرفاء .

ثم يأتي أدب دخول البيوت بعد الاستيناس والاستئذان :

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾(١) .

إن الإسلام لا يعتمد على العقوبة في إنشاء مجتمعه النظيف ، إنما يعتمد قبل كل شيء على الوقاية .

والفكرة السائدة في منهج التربية الإسلامية في هذه الناحية هي تضييق فرص الغواية ، وإبعاد عوامل الفتنة ، وأخذ الطريق على أسباب التهييج والإثارة .

والبيوت لا تكون سكنًا إلا حين تكون حرمًا آمنًا ولا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم ، وفي الوقت الذي يريدون ، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا الناس عليها .

---

(١) سورة النور الآية (٢٧) .

ذلك أن استباحة حُرمة البيت من الداخلين دون استئذان ، يجعل أعينهم تقع على عورات وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات ، وتهيئ الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة تنشأ عنها علاقات ولقاءات يدبرها الشيطان ، ويوجهها في غفلة عن العيون الراعية والقلوب الناصحة هنا أو هناك .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من اطلع في بيت قوم بغير إذن ، ففقئوا عينه فلا دية له ولا قصاص** »(١) .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ، فقد حلّ لهم أن يفقئوا عينه** »(٢) .

وعنه - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **من اطلع في دار قوم بغير إذنهم ، ففقئوا عينه فقد هُدرت** »(٣) .

غض البصر قضية عامة في حق المؤمنين والمؤمنات :

قال تعالى : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ**

---

(١) رواه أحمد ، والنسائي ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩٢٢) .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم .

(٣) صحيح : أخرجه أبو داود في « سننه » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩٢٤).

عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١] .

كم من نظرة تحلو في العاجلة مرارتها لا تطاق في الآجلة[٢] .

والمرء ما دام ذا عين يقلِّبها في أعين الغيد موقوف على الخطرِ
يسُرّ مقلته ما ضرّ مهجته لامرحبا بسرور جاء بالضررِ

غض البصر من الرجال أدب نفسي ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في الوجوه والأجسام ، كما أن فيه إغلاقًا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية والاستثارة فهو أطهر للمشاعر وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط .

﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن .. ﴾

« فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة ، أو الهاتفة المثيرة ، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال .

لقد شاع في وقت من الأوقات أن النظرة المباحة والحديث الطليق والاختلاط الميسور والدعابة المرحة بين الجنسين ، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة . . . شاع أن كل هذا تنفيس وترويح ، وإطلاق للرغبات الحبيسة ، ووقاية من الكبت .

شاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التي تفرقه من الحيوان ، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة في الطين وبخاصة نظرية فرويد ـ رأيت بعيني في أشد

---

(١) سورة النور الآيتان (٣٠ ـ ٣١) .
(٢) « التبصرة » لابن الجوزي (١/ ١٦٠ ـ ١٦٣) .

البلاد إباحية ما يكذبها وينقضها من الأساس .

نعم ، شاهدت البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الكشف الجسدي ، والاختلاط الجنسي بكل صوره وأشكاله ، أن هذا كله لم ينته بتهذيب الدوافع الجنسية وترويضها ، إنما انتهى إلى سعار مجنون لا يرتوي ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع ! وشاهدت الأمراض النفسية والعقد التي كان مفهومًا أنها لا تنشأ إلا من الحرمان ، وإلا من التلهف على الجنس الآخر المحجوب ، وشاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بكل أنواعه . . . ثمرة مباشرة للاختلاط الكامل الذي لا يقيده قيد ولا يقف عند حد ، وللصداقات بين الجنسين تلك التي يباح معها كل شيء وللأجسام العارية في الطريق ، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة واللفتات الموقظة هبوط بالذوق العام ، وغلبة الطابع الحيواني عليه ، والجنوح به إلى التكشف والتعري ، والتنزي كما تتنزي البهيمة في مجتمع يتكشف ويتبرج وتهتف الأنثى فيه للذكور حيثما كانت هتاف الحيوان للحيوان »[1] .

ولا يضربن بأرجلهن :

إنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها فإن الخيال ليكون أحيانًا أقوى في إثارة الشهوات من العيان ، وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها ، أوحليّها ، أكثر مما يثيرها رؤية جسد المرأة ذاته ، كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر في خيالهم ، أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم . . . وهي حالات معروفة عند علماء الأمراض النفسية اليوم وسماع وسوسة الحلى أو شمام شذى العطر من بعيد ، قد يثير حواس رجال كثيرين ويهيج أعصابهم ويفتنهم

---

(١) « الظلال » (٤/ ٢٥١١-٢٥١٢) .

فتنـــة جارفة لا يملكون لها رداً .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **أيما امرأة استعطرت ثم خرجت ، فمرّت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية وكل عين زانية** »[1] .

والقرآن يأخذ الطريق على هذا كله ، لأن مُنَزِّله هو الذي خلق ، وهو الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض :

إن اللَّه الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن صوت المرأة حين تخضع بالقول ، وتترقق في اللفظ ، ما يثير الطمع في قلوب ، ويهيج الفتنة في قلوب ، وأن القلوب المريضة التي تثار وتطمع موجودة في كل عهد ، وفي كل بيئة وتجاه كل امرأة ، ولو كانت هي زوج النبي الكريم ﷺ ، وأم المؤمنين، وإنه لا طهارة من الدنس ، ولا تخلُّص من الرجس حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس .

فكيف بهذا المجتمع الذي نعيش فيه ، في عصرنا المريض الدنس الهابط ، الذي تهيج فيه الفتن وتثور فيه الشهوات ، وترف فيه الأطماع ؟ كيف بنا في هذا المجتمع ، في هذا العصر ، في هذا الجو ، ونساء يتخنَّثن في نبراتهن ، ويتميَّعن في أصواتهن ويجمعن كل فتنة الأنثى ، وكل هتاف الجنس ، وكل سعار الشهوة ، ثم يطلقنه في نبرات ونغمات ؟! وأين هن من الطهارة ؟ وكيف يمكن أن يرف الطهر في هذا الجو الملوث ، وهن بذواتهن وحركاتهن وأصواتهن ذلك الرجس الذي يريد اللَّه أن يذهبه عن عباده المختارين .

---

(١) حسن : رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم عن أبي موسى ، وكذا رواه الطحاوي وابن خزيمة وابن حبان ، والبيهقي في « سننه » ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٧٠١) .

وقلن قول معروفًا :

نهاهن من قبل عن النبرة الليِّنة واللهجة الخاضعة ، وأمرهن في هذه أن يكون حديثهن في أمور معروفة غير منكَرة ، فإن موضوع الحديث قد يُطمع مثل لهجة الحديث ، فلا ينبغي أن يكون بين المرأة والرجل الغريب لحن ولا إيماء ولا هذر ولا هزل ، ولا دعابة ولا مزاح ، كي لا يكون مدخلاً إلىٰ شيء آخر وراءه من قريب أو من بعيد .

وقرن في بيوتكن :

البيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها علىٰ حقيقتها كما أرادها اللَّه غير مشوَّهة ولا منحرفة ولا ملوثة ، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيَّأها اللَّه لها بالفطرة ، ولا يمكن للأم المكدودة بالعمل خارج البيت أن تَهَبَ للبيت جوه وعطره ، وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد علىٰ جو الفنادق والخانات .

إن خروج المرأة لتعمل كارثة علىٰ البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون علىٰ اجتنابها ، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، في عصور الانتكاس والشرور والضلال .

فأما خروج المرأة لغير العمل ، خروجها للاختلاط ومزاولة الملاهي ، والتسكع في النوادي والمجتمعات لذلك هو الارتكاس في الحمأة الذي يرد البشر إلىٰ مراتع الحيوان .

ولقد كان النساء علىٰ عهد رسول اللَّه ﷺ يخرجن للصلاة غير ممنوعات شرعًا من هذا ولكن كان زمان فيه عفة وفيه تقوىٰ ، وكانت المرأة تخرج إلىٰ الصلاة متلفعة لا يعرفها أحد ، ولا يبرز من مفاتنها شيء ومع هذا فقد كرهت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ لهن أن يخرجن بعد وفاة

رسول اللَّه ﷺ .

في « الصحيحين » عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ أنها قالت : « كان نساء المؤمنين يشهدون الفجر مع رسول اللَّه ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يُعرفن من الغلس » .

وفي « الصحيحين » أنها قالت : « لو أدرك رسول اللَّه ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل !

فماذا أحدث النساء في حياة عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ ؟ وماذا يمكن أن يُحدثن حتىٰ ترىٰ أن رسول اللَّه ﷺ كان مانعهن من الصلاة ؟ ماذا بالقياس إلىٰ ما نراه في هذه الأيام ؟!

ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى :

لقد كانت المرأة في الجاهلية تتبرج ولكن جميع الصور التي تُروىٰ عن تبرج الجاهلية الأولىٰ تبدو سازجة أو محتشمة حين تقاس إلىٰ تبرج إيامنا هذه في جاهليتنا الحاضرة .

قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية الأولىٰ .

وقال قتادة : وكانت لهن مشية تكسر وتغنج فنهىٰ اللَّه عن ذلك .

وقال ابن كثير : كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها .

الذوق الإنساني الذي يُعجَب بمفاتن الجسد العاري ذوق بدائي غليظ وهو من غير شك أحطّ من الذوق الذي يعجب بجمال الحشمة الهادئ ، وما يشبه من جمال الروح وجمال العفة وجمال المشاعر الحشمة جميلة جمالاً حقيقيًا رفيعًا، ولكن هذا الجمال الراقي لا يدركه أصحاب الذوق

الجاهلي الغليظ ، الذي لا يرىٰ إلا جمال اللحم العاري ولا يسمع إلا هتاف اللحم الجاهر ! .

جاهلية عمياء ، غليظة الحس ، حيوانية التصور ، هابطة في درك البشرية إلىٰ حضيض مهين .

طول السهاد وقرب الوساد :

قالوا لإحدىٰ الشريفات وقد فعلت الفاحشة : ما حملك علىٰ هذا ؟ قالت : طول السهاد وقرب الوساد . . . وبغل الشهوة والجوار والاختلاط يقود المرأة إلىٰ أي شيء . . . وفي امرأة العزيز عظة وعبرة .

حرَّم الإسلام الخلوة بالأجنبية إلا مع ذي محرم ، وحرم الإسلام علىٰ المرأة السفر مسيرة يوم وليلة إلا مع محرم، وحذّر من دخول الحَمُ علىٰ زوجة الأخ .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يَحِلُّ لامرأة أن تسافر إلا ومعها ذو محرم منها** » ، رواه مسلم .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يحل لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذى محرم** »(١) .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يحل لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذى محرم** »(٢) .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إيَّاكم والدخول على النساء** » . رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي .

---

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي .
(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه .

ومع هذا المنهج المتكامل للعفة يرفع الجميع أبصارهم إلىٰ الأفق الوضيء الذي يستمدون منه النور ، والعون علىٰ التدرج في مراقي ذلك الأفق الوضيء .

وفي الزواج حصن الفرج :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»(١) .

وروىٰ مسلم في « صحيحه » عن أبي الزبير عن جابر ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ﷺ رأىٰ امرأة فأتىٰ زينب فقضىٰ حاجته منها وقال : « **إن المرأة تُقبِل في صورة شيطان وتُدْبر فى صورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن ذلك يَرُدُّ ما في نفسه** »(٢) .

وهذا هو الدواء الشافي وعلىٰ وليِّ أمر الفتاة أن ييسره ، وعلىٰ ولاة الأمور أن يساعدوا المحتاجين للزواج ، ولذا يأمر اللَّه الجماعة المسلمة أن تُعين من يقف المال في طريقهم إلىٰ النكاح ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم** ﴾ .

والصوم وجاء :

وعند العجز عن الزواج نقلهم إلىٰ الصوم كبدل ، فإنه يكسر شهوة النفس ويضيق عليها مجاريٰ الشهوة .

* * *

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن ابن مسعود .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود عن جابر .

لا وألـف لا للبغاء :ـ

إن وجود البغاء أمر يغري الكثيرين لسهولته ، ولو لم يجدوه لانصرفوا إلى طلب هذه المتعة في محلها الحلال الكريم النظيف .

ولا عبرة بما يقال أن البغاء صمام أمن يحمي البيوت الشريفة لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج أو تهجم الذئاب المسعورة على الأعراض المصونة إن لم تجد هذا الكلأ .

ونسي الناس وصية الرسول ﷺ بالصوم عند تعذر الزواج وبذلك لا تحتاج إلى البغاء ، وإلى إقامة مقاذر إنسانية ، يمر بها كل من يريد أن يتخفف من أعباء الجنس ، فيلقي فيها بالفضلات ـ وكأنها كنيف ـ تحت سمع المجتمع وبصره .

ارتباط هذا القسم بما قبله :ـ

«تقدم ربط كل قسم بالذي قبله وبيان تأثر النتيجة بالسبب وكان ظاهراً في كل ما تقدم» .

وكذلك الحال هنا ، لأن ماقبل ذلك من أصناف تؤدي كلها إلى تحقيق هذا الصنف : ـ

- فعدالة الإمام لن تترك عوامل الإغراء تغزو الشباب ، ولن يسمح بعادات إعاقة الزواج تتحكم في المجتمع .
- ثم نشأة الشباب في عبادة اللّٰه تورث تقوى اللّٰه ومخافته .
- ثم التعلق بالمساجد لأداد الصلاة ، فكما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾[1] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٥) .

● ثم المتحابان في اللَّه سيتناصحان على الخير ويتعاونان علي البرّ فيكون منهجهما في الحياة منهج عفة وطهارة(١) .

كيف يتخلص المرء من أسر الهوى وذل العشق :

أما الدواء فعند طبيب القلوب ابن قيم الجوزية ، يقول ـ رحمه اللَّه ـ :

« يمكنه التخلص بعون اللَّه وتوفيقه له بأمور :

أحدهما : عزيمة حر يغار لنفسه وعليها .

الثاني : جرعة صبر يصبّر نفسه على مرارتها تلك الساعة .

الثالث : قوة نفس تشجِّعه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعة كلها صبر ساعة .

الرابع : ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه .

الخامس : إبقاؤه على منزلته عند اللَّه وفي قلوب عباده ، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى .

السادس : إيثار لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية .

السابع : فرحه بغلبة عدوِّه وقهره له وردّه خاسئًا بغيظه وهمَّه حيث لم ينل منه أمنية ، واللَّه تعالى يحب من عبده أن يراغم عدوه ويغيظه كما قال تعالى : ﴿ **ولا يطئون موطئًا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح** ﴾ وقال : ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيراً وسعة** ﴾ أي مكانًا يراغم فيه أعداء اللَّه ، وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم .

الثامن : التفكر في أنه لم يُلق للهوى وإنما هُيئ لأمر عظيم لا يناله إلا

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٤٩) .

بمعصية للهوىٰ كما قيل :

قــــد هيئوك لأمــر لو فَطِنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

التاسع : أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالاً منه ، فإن الحيوان يميِّز بطبعه بين مواقع ما يضرّه وما ينفعه ، فيؤثر النافع علىٰ الضار ، والإنسان أُعطي العقل لهذا المعنىٰ ، فإذا لم يميز بين ما يضرّه وما ينفعه وآثر ما يضرُّه كان حال الحيوان البهيم أحسن منه .

ولو كان نيلُ المُشتهىٰ فضيلة لما بُخِس منه حق الآدمي الذي هو خلاصة العالم ، ووُفرّ منه حظ البهائم ، وفي توفير حظ الآدمي من العقل والعلم والمعرفة عِوَضٌ عن ذلك .

العاشر : أن يسير بقلبه في عواقب الهوىٰ فيتأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة ، وكم أقعت في رذيلة ، وكم أكلة منعت أكلات ، وكم من لذة فوّتت لذّات ، وكم من شهوة كسرت جاهًا، ونكَّست رأسًا ، وقبَّحت ذكرًا، وأورثت ذمًا ، وأعقبت ذلاً ، وألزمت عارًا لا يغسله الماء ، غير أن عين صاحب الهوىٰ عمياء .

الحادي عشر : أن يتصوَّر العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصوّر حاله بعد قضاء الوطر[1] وما فاته وما حصل له

فأفضل الناس من لم يرتكب سبباً حتى يميِّــــز مـــا تجني عواقبــــه

الثاني عشر : أن يتصوّر ذلك في حق غيره حق التصوّر ، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة ، فحكم الشيء حكم نظيره .

الثالث عشر : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه

---

(١) الوطر : الحاجة وجمعها أوطار .

عقله ودينه يُخبِرانِه بأنه ليس بشيء ، قال عبد اللَّه بن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ : إذا أعجب أحدكم امرأة فليذكر مناتنها وهذا أحسن من قول أحمد ابن الحسين :

لو فكرّ العاشــــق في منتــــهى حسنِ الذي يسبيــــه (١)لم يَسْــبِهِ

لأن ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ ذكر الحال الحاضرة الملازمة ، والشاعر حال على أمر متأخر .

الرابع عشر : أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلاً ، ولا يغترّ بصولة أتباع الهوى وكِبرهم فهم أذلّ الناس بواطن ، قد جمعوا بين فصيلتي الكبر والذلّ .

الخامس عشر : أن يوازن بين سلامة الدين والعِرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة ، فإنه لا يجد بينهما نسبة ألبتَّة ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا .

السادس عشر : أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه ، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلاً إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد ، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه إلا اختلاسًا وسرقة .

السابع عشر : أن الهوى حظار (٢) جهنم المحيط بها حولها ، فمن وقع فيه وقع فيها كما في « الصحيحين » عن النبي ﷺ أنه قال : « **حُفّت الجنة**

---

(١) يسبيه : يأسره ، من السبي وهو الأسر .

(٢) الحظار : هو كل شيء حُصر بين شيئين مثل جدار البستان .

بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات » .

الثامن عشر : أنه يُخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : « **أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغيّ في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى** »(١) .

التاسع عشر : أن اتباع الهوى من المهلكات ، قال ﷺ : « **ثلاث منجيات: خشية اللّه تعالى في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وثلاث مهلكات : هوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه** »(١) .

العشرون : أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه ، قال رجل للحسن البصري ـ رحمه اللّه تعالى ـ : يا أبا سعيد ، أيّ الجهاد أفضل ؟ قال : جهادك هواك .

وسمعت شيخنا يقول : جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم .

الحادي والعشرون : أن اتباع الهوى يُغلق عن العبد أبواب التوفيق ، ويفتح عليه أبواب الخذلان .

قال الفضيل : من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق .

الثاني والعشرون : أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه ، لأنه قد خان اللّه في عقله فأفسده عليه ، وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من

---

(١) حسن : رواه أبو الشيخ في « التوبيخ » ، والطبراني في « الأسط » عن أنس ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٠٣٩) .

خانه في أمرٍ من الأمور فإنه يفسده عليه .

الثالث والعشرون : أن من فسَّح لنفسه في اتباع الهوىٰ ضيّق عليها في قبره ومعاده ومن ضيّق عليها بمخالفة الهوىٰ وسّع عليها في قبره ومعاده وقد أشار اللَّه تعالىٰ إلىٰ هذا في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾(١) فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوىٰ خشونة وتضييق ، جازاهم علىٰ ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة .

الرابع والعشرون : أن اتباع الهوىٰ يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين كما صرع قلبه في الدنيا عن مرافقتهم .

قال محمد بن أبي الورد : إن للَّه عز وجل يومًا لا ينجو من شره منقاد لهواه ، وإن أبطأ الصرعىٰ نهضة يوم القيامة صريع شهوته ، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرها حظًا من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر .

الخامس والعشرون : إن مخالفة الهوىٰ طردة للداء عن القلب والبدن ، ومتابعته لبه لداء القلب والبدن ، فأمراض القلوب كلها من متابعة الهوىٰ ، ولو فتشت علىٰ أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوىٰ علىٰ ما ينبغي تركه .

السادس والعشرون : أن الهوىٰ رِقٌّ في القلب وغلٌّ في العنق ، وقيد في الرِّجل ، ومتابعه أسير لكل سيئ الملكة ، فمن خالفه عُتق من رقّه وصار حرًا ، وخلع الغُل من عنقه والقيد من رجله .

رب مستور سبته شهوة فتعرى ستره فانهتكا
صاحب الشهوة عبدٌ فإذا غلب الشهوة أضحى ملكا

(١) سورة الإنسان الآية (١٢) .

السابع والعشرون : أن لكل عبد بداية ونهاية ، فمن كانت بدايته اتباع الهوىٰ كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه ، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يُعَذَّبُ به في قلبه كما قال القائل :

مآرب كانت في الشباب لأهلها عِذابا فصارت في المشيب عَذابا

قال أبو عليٰ الدقّاق : من ملك شهوته في حال شبيبته أعزّه اللَّه في حال كهولته .

الثامن والعشرون : أن مخالفة الهوىٰ تقيم العبد في مقام من لو أقسم علىٰ اللَّه لأبره ، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه ، فهو كمن رغب عن بَعْرةٍ فأُعطي عِوضها درة ، ومتبع الهوىٰ يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة .

والعيش الهنيء ما لا نسبة لما ظفر به من هواه ألبتَّة ، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من السجن لّما قبض نفسه عن الحرام .

التاسع والعشرون : أن مخالفة الهوىٰ توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعز الظاهر وعز الباطن ، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في الظاهر وفي الباطن .

وإذا جمع اللَّه الناس في صعيد واحد نادىٰ منادٍ : ليعلمن أهل الجمع مَن أهل الكرم اليوم ، ألا ليقم المتقون ، فيقومون إلىٰ محل الكرامة وأتباع الهوىٰ ناكسو رءوسهم في الموقف في حرّ الهوىٰ وعَرقه وألمه، وأولئك في ظل العرش[١] .

---

(١) « روضة المحبين » (٢٨٢) باختصار .

من يظلهم اللَّه في ظله ومخالفة هواهم :

قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ : « إنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم اللَّه عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوىٰ .

• فإن الإمام المسلّط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه .

• والشاب المؤثر لعبادة اللَّه علىٰ داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر علىٰ ذلك .

• والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله علىٰ ذلك مخالفة الهوىٰ الداعي له إلىٰ أماكن اللذات .

• والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر علىٰ ذلك .

• والذي دعته المرأة الجميلة الشريفة فخاف اللَّه عزَّ وجلَّ وخالف هواه .

• والذي ذكر اللَّه عز وجل خاليًا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلىٰ ذلك مخالفة هواه ، فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدَّته سبيل عليهم يوم القيامة ، وأصحاب الهوىٰ قد بلغ منهم الحرُّ والعرق كل مبلغ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهاوية[1] .

الربيع بن خثيم للَّه دره سيد من سادات أهل العفاف :

يروي أصحاب السير والتراجم أن قومًا أمروا امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خثيم لعلها تفتنه ، جعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم .

---

(١) « روضة المحبين » (ص٢٨٢) .

فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب ، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه ، ثم تعرّضت له حين خرج من مسجده ، فنظر إليها فراعه أمرها ، فأقبلت عليه وهي سافرة .

فقال لها الربيع : كيف بك لو قد نزلت الحمىٰ بجسمك فغيرّت ما أرىٰ من لونك وبهجتك ؟!

أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين[١] ؟! .

أم كيف بك لو سألك منكر ونكير ؟!

فصرحت صرخة فسقطت مغشيًّا عليها .

فواللَّه لقد أفاقت وبلغت من عبادة ربها أن كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق من خشية اللَّه عز وجل[٢] .

• قال ابن أبي عمامة ـ رحمه اللَّه ـ : إن رجلاً أحب امرأة فأحبته ، فاجتمعا ، فراودته المرأة عن نفسه ، فقال : إن أجلي ليس بيدي ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجل قد دنا فنلقىٰ اللَّه عاصيين ، فقالت : صدقت، فتابا ، وحسنت حالتهما[٣] .

• أوصيك بحفظ نفسك من نفسك :

قال سعيد أبو أحمد العابد ـ رحمه اللَّه ـ :

كان عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم لمسجد جامع لا يفارقه ، وكان حسن السمت ، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به ، وطال عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له علىٰ الطريق ، وهو يريد المسجد ،

---

(١) الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه .
(٢) « التوابين » لابن قدامة (ص٢٧٣) ، و« صفة الصفوة » لابن الجوزي (٣/ ١٦١) .
(٣) « ذم الهوىٰ » لابن الجوزي (٢١٣) .

فقالت له : يا فتىٰ ، اسمع مني كلمات أكلمك بها ، ثم اعمل ما شئت ،
فمضىٰ ولم يكلمها .

ثم وقفت له بعد ذلك علىٰ طريقه ، وهو يريد منزله ، فقالت له : يا فتىٰ ، اسمع مني كلمات أكلّمك بها ، فأطرق مليًا ، وقال : هذا موقف تهمة ، وأنا أكره للتهمة موضعًا .

فقالت له : واللَّه ما وقفت موقفي هذا جهالة بأمرك ، ولكن معاذ اللَّه أن يتشوف العباد إلىٰ مثل هذا مني ، والذي حملني علىٰ أن لقيتك في مثل هذا الأمر بنفسي لمعرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العبّاد علىٰ مثال القوارير أدنىٰ شيء يعيبها .

وجملة ما أقول لك إن جوارحي كلها مشغولة بك ، فاللَّه في أمري وأمرك .

قال : فمضىٰ الشاب إلىٰ منزله ، وأراد أن يصلي ، فلم يعقل كيف يصلي ، فأخذ قرطاسًا وكتب كتابًا ، ثم خرج من منزلة ، وإذا بالمرأة واقفة في موضعها ، فألقىٰ الكتاب إليها ، ورجع إلىٰ منزله ، وكان فيه :

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

اعلمي أيتها المرأة أن اللَّه عز وجل إذا عصاه العبد حَلَم ، فإذا عاد إلىٰ المعصية مرة أخرىٰ ستر ، فإذا لبس لها ملابسها غضب اللَّه تعالىٰ لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض ، والجبال ، والشجر ، والدواب ، فمن ذا يطيق غضبه ؟!

فإن كان ما ذكرت باطلاً ، فإني أذكرك يومًا تكون السماء فيه كالمهل ، وتصير الجبال كالعهن وتجثو الأمم لصولة الجبار العظيم .

وإني واللَّه قد ضعفت عن إصلاح نفسي ، فكيف بإصلاح غيري .

وإن كان ما ذكرت حقًا ، فإني أدلك على طبيب هدى يدوام الكلوم[١] المريضة والأوجاع المرمضة[٢] ، ذلك اللَّه رب العالمين ، فاقصديه بصدق المسألة ، فإني مشغول عنك بقول اللَّه تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[٣] .

فأين المهرب من هذه الآية ؟!

ثم جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق ، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع لمنزله كيلا يراها ، فقالت : يا فتى ، لا ترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدًا إلا غدًا بين يدي اللَّه عز وجلّ ، ثم بكت بكاءً شديدًا ، وقالت : امنن عليّ بموعظة أحملها عنك ، وأوصني بوصية أعمل عليها ، فقال لها : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، وأذكرك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾[٤] .

فبكت بكاءً شديدًا ، ثم لزمت بيتها ، وأخذت في العبادة ، فلم تزل كذلك حتى ماتت[٥] .

عفيف يفوح المسك منه :

« قيل لأبي بكر المسكي : إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام فما سببه؟ فقال : واللَّه لي سنين عديدة لم أستعمل المسك ، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليّ حتى أدخلتني دارها وأغلقت دوني الأبواب ،

---

(١) الكلوم : الجراحات .
(٢) المرمضة : المحرقة .
(٣) سورة غافر الآيتان (١٨ ـ ١٩) .
(٤) سورة الأنعام الآية (٦٠) .
(٥) « إتحاف السادة المتقين » للزبيدي (٩/ ١٢٠ ـ ١٢١) .

وراودتني عن نفسي فتحيرت في أمري فضاقت بي الحيل ، فقلت لها : إن لي حاجة إلي الطهارة ، فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلىٰ بيت الراحة ففعلت ، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها علىٰ جميع جسدي ، ثم رجعت إليها وأنا علىٰ تلك الحالة ، فلما رأتني دهشت ، ثم أمرت بإخراجي ، فمضيت واغتسلت ، فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام يقول لي : فعلت ما لم يفعله أحد غيرك ، لأطيبنّ ريحك في الدنيا والآخرة ، فأصبحت والمسك يفوح مني ، واستمر ذلك إلىٰ الآن »[1] .

فعليك أخي بالعفة ، فعدمها يعفي علىٰ جميع المحاسن ويعري من لبوس المحامد ، ومن اتسم بسمة العفّة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل ، وسهّلت له سبيل الوصول إلىٰ المحاسن .

* * *

(١) « المواعظ والمجالس » لابن الجوزي (ص٢٢٤) ، طبع دار الصحابة .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

* * *

ترطيب الأفواه

بذكر من يظلهم الله

المجلد الثاني

تأليف

دكتور سيد بن حسين العفاني

قدم له

الشيخ أبو بكر الجزائري — الشيخ محمد صفوت نور الدين

الشيخ أبو إسحاق الحويني — الشيخ أحمد فريد

الشيخ محمد حسان — الشيخ محمد القاضي

مكتبة معاذ بن جبل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى

* شيخي الذي ربّانا على حب السلف وآثارهم ووعظهم... بقية السلف شيخ المربّين والوعّاظ .. حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، وهبنا أغلى الملك فلا ننساه أبدًا لكرامة الدّلاّل الشيخ الدكتور **أحمد فريد** .

* الشيخ التقيّ النقيّ الربانيّ ـ نحسبه كذلك ـ شقيق الروح .. بقية السلف الذي جعل الله له في قلوب المؤمنين وُدّا الشيخ **أبي أحمد محمد حسان** .

* شقيق الروح ... طيِّب القلب ... سمح الوجه ... الفياض الكريم كتيّار النيل

كريم الخُلُق ... الذي إذا رُئِيَ ذُكر اللَّه برؤيته

بقية السلف ... الشيخ **محمد عطية** ـ حفظه اللَّه ـ

المؤلف

ورجل تصدق بصدقة فأخفاها

حتى لا تعلم شماله

ما أنفقت يمينه

ورجل تصـدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقـت يمينه

« **رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتي لا تعلم شماله ما تنفق يمينه** » .

أي : يخفيها حتى على بعض جوارحه ، فعلى إخوانه وأولاده من باب أولى ، ثم على بقيّة الناس أولى وأحرى »[1] .

- قال الحافظ : « المقصود منه المبالغة في إخفاء الصدقة ، بحيث أن شماله مع قربها من يمينه وتلازمهما لو تصور أنها تعلم لما علمت ما فعلت اليمنى لشدة إخفائها»[2] .

- قال الإمام النووي : « وفي هذا الحديث فضل صدقة السر ، قال العلماء : وهذا في صدقة التطوع ، فالسر فيها أفضل لأنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء ، وأما الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل » .

- « والصدقة لغة تلتقي مع مادة الصدق في أصل المادة ، وفقه اللغة يؤكد ارتباط المادة بجميع ما تفرّع عنها » .

وفي الحديث « **والصدقة برهان** » :

والبرهان هو الدليل على صدق المدّعي ، فالصدقة برهان على صدق إيمان المتصدق باللّه ، وتصديقه بوعد اللّه على ما وعد من جزاء وعوض ، فما يدفع النفس الشحيحة بطبعها ، المحبة للمال بفطرتها ، ما يدفعها إلى الإنفاق فى كل حال ، إلا دافع أقوى من شهوة المال ، وربقة الحرص ، وثقلة الشح ، . . والصدق والتصديق ذلك الشعور اللطيف العميق ، الذي

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٧٦) .

(٢) «فتح الباري » (حـ٢ / ١٧٢)

تشفّ به الروح وتخلص ، وتنطلق من القيود والأغلال [١] .

قال محمد بن عباد بن حبيب : منع الموجود سوء ظن بالمعبود .

فالمتصدق يتعامل مع اللَّه الذي يعلم السر وأخفى ، والذي يخلف عليه ما أنفق أضعافاً مضاعفة ؛ ولهذا كان إطلاق الصدقة صالحاً لكل من الفريضة والنافلة .

● ومن إطلاق الصدقة على الزكاة المفروضة قوله تعالى : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم** ﴾ [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا** ... ﴾ [٣] .

وفي حديث النبي ﷺ لمعاذ : « **وأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم** » .

فضل الصدقة :ـ

قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [٤] .

وقال تعالى ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ**

---

(١) « شرح صحيح مسلم » .
(٢) سورة التوبة الآية (١٠٣) .
(٣) سورة التوبة الآية (٦٠) .
(٤) سورة آل عمران الآية (١٣٣ ، ١٣٤) .

عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢) .

إن هذا شأن المؤمن لا سواه ، إنه لا ينفق إلا ابتغاء وجه اللَّه ، لا ينفق عن هوى ولا عن غرض ، لا ينفق إلا خالصًا متجردًا للَّه ، ومِنْ ثم يطمئن لقبول اللَّه لصدقته ، ويطمئن لبركة اللَّه في ماله ؛ ويطمئن لثواب اللَّه وعطائه ؛ ويرتفع ويتطهر ويزكو بما أعطى وهو بعد في هذه الأرض ، وعطاء الآخرة بعد ذلك كله فضل !

وقال اللَّه تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

وقال جل علا : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾(٤) .

وقال عزَّ من قائل : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٥) .

هتاف موحٍ مؤثر آسر ، وهو يقول للعباد الفقراء المحاويج : ﴿ من ذا

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٦٢) .

(٢)سورة البقرة الآية (٢٧٢) .

(٣) سورة التوبةالآية (١٠٣) .

(٤) سورة سبأ الآية (٣٩) .

(٥) سورة الحديد الآية (١١ ، ١٢)

الذي يقرض الله قرضًا حسنًا ﴾ ؟

ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيرانًا ! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثري المليء منهم ـ وهم كلهم فقراء ـ لأن السداد مضمون ، ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثري المليء ! فكيف إذا كانوا يقرضون الغني الحميد ؟!

ولا يكلهم ـ سبحانه ـ إلى هذا الشعور وحده ، ولكن يعدهم على القرض الحسن ، الخالص له ، المجرد من كل تلفت إلى سواه ، يعدهم عليه الضعف في المقدار ، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله .

ثم يعرض لهم صفحة وضيئة من ذلك الأجر الكريم ، في مشهد طريف لطيف من مشاهد اليوم الذي يكون فيه ذلك الأجر الكريم .

هؤلاء المؤمنون والمؤمنات نرى نورهم ـ يوم القيامة ـ يشع منهم ويفيض بين أيديهم ، فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعّت نورًا يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها ، نورًا أشرق في أرواحها فغلب على طينتها ، وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ** ﴾ (١) .

أي حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطي بأنه يقرض الغني الحميد ، وأنه يتعامل مع مالك الوجود ؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه مضاعفًا ، وأنّ له بعد ذلك كله أجرًا كريمًا ؟

● كان يحيي بن معاذ الرازي يقول : عجبت ممّن يبقى معه مال وهو يسمع قوله تعالى : ﴿ **إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الحديد الآية (١٨) .

(٢) سورة التغابن الآية (١٧) .

• وقال تعالىٰ : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

• وقال تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (٢) .

ومن يّسره اللَّه لليسرىٰ فقد وصل . . وصل في رفق وفي هوادة . . وصل وهو بعد في هذه الأرض . . وعاش في يسر . . يفيض اليسر من نفسه علىٰ كل ما حوله وعلىٰ كل من حوله . . اليسر في خطوه واليسر في طريقه . . واليسر في تناوله للأمور كلها ، والتوفيق الهاديء المطمئن في كلياتها وجزئياتها ، وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها ، حيث تسلك صاحبها مع رسول اللَّه ﷺ في وعد ربه له : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ .

• وقال تعالىٰ : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (٣) .

ماذا ينتظر هذا الأتقىٰ ، الذي يؤتي ماله تطهراً ، وابتغاء وجه ربه الأعلىٰ ؟

إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب ومفاجيء ، وعلىٰ غير المألوف ﴿ ولسوف يرضى ﴾ .

إنه الرضىٰ ينسكب في قلب هذا الأتقىٰ ، إنه الرضىٰ يغمر روحه ، إنه الرضىٰ يفيض علىٰ جوارحه ، إنه الرضىٰ يشيع في كيانه ، إنه الرضىٰ يندي حياته .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٥) .
(٢) سورة الليل الآيات (٥ ـ ٧) .
(٣) سورة الليل الآيات (١٧ ـ ٢١) .

وياله من جزاء ! ويالها من نعمه كبرىٰ !

﴿ **ولسوف يرضي** ﴾ . . يرضىٰ بدينه . . ويرضىٰ بربه ، ويرضىٰ بقدره، يرضىٰ فلا يقلق ولا يضيق ولا يستعجل ولا يستثقل العبء ولا يستبعد الغاية . . إن هذا الرضىٰ جزاء ـ جزاء أكبر من كل جزاء ـ جزاء يستحقه من يبذل له نفسه وماله ـ من يعطي ليتزكىٰ ، ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلىٰ .

● إنه جزاء لا يمنحه إلا اللَّه ، وهو يسكبه في القلوب التي تخلص له ، فلا ترىٰ سواه أحداً .

● إنها مفاجأة في موضعها هذا ، ولكنها المفاجأة المرتقبة لمن يبلغ ما بلغه الأتقىٰ الذي يؤتي ماله يتزكىٰ ، وما لأحد عنده من نعمة تجزىٰ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلىٰ ولسوف يرضىٰ .

● وقال تعالىٰ : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [١] .

قال ابن كثير : « يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب » .

في رياض السنة :

روىٰ أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **قال اللَّه عز وجل : أنفقْ أُنفق عليك** » .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أنفق يا بلالُ ، ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالاً** »[٢] .

---

(١) سورة سبأ الآية (٣٩) .

(٢) صحيح : رواه البزار عن بلال وعن أبي هريرة ، والطبراني في « الكبير » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٥٠٨) ، و« تخريج المشكاة » رقم (١٨٨٥) ، وحسّن إسناده ابن حجر في « زوائد البزار » كما قال المناوي ، وحسنه الهيثمي .

وفي رواية « **أنفقْ بلالاً** » .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا ملكان ينـــزلان ، فيقول أحداهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا** »(١) .

• وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ، ولا يقبل اللَّه إلا الطيب ، فإن اللَّه يتقبلها بيمينه ، ثم يُربيها لصاحبه ، كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّه** (٢) **، حتى تكون مـــثـل الجـبـل** »(٣) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة** »(٤) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أيُّما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عُرْي ، كساه اللَّه تعالى من خُضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلمًا على جوع ، أطعمه اللَّه تعالى يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلمًا على ظمأ ، سقاه اللَّه تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم** »(٥) .

• وعن أبي هريـرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أعتـــق رقبـــة مسـلـمـــة ، أعتـــق اللَّه له بكـل عضـــو منهـا عضـــوًا**

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة ، وأحمد وابن حبان في « صحيحه » والحاكم في « المستدرك » عن أبي الدرداء .
(٢) الفَلُوّ : المُهر ؛ لأنه يُفْلَى ؛ أي يُفطم ، والجمع أفلاء .
(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وأحمد .
(٤) صحيح : رواه الحاكم عن أنس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦٨٩) و«الصحيحة» رقم (١٩٠٨) .
(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري ، وقال المنذري : رواه أبو داود والترمذي من رواية أبي خالد بن يزيد الدالاني ، وحديثه حسن . اهـ . ضعفه الألباني ضعيف أبي داود رقم ١٦٨٢

من النار ، حتى فرجُه بفرجه »[١] .

• وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « بينا رجل بفلاة من الأرض ، فسمع صوتاً في سحابة يقول : اسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب ، فأفرغ ماءه في حرَّةٍ ، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبّع الماء ، فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته ، فقال له : يا عبد اللّه ، ما اسمك؟ قال: فلان ، للاسم الذى سمع في السحابة ، فقال له: يا عبد اللّه ، لم تسألني عن اسمي ؟ قال : إني سمعت صوتًا في السحاب الذى هذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان ، لاسمك فما تصنع فيها ؟ قال : أمّا إذْ قلت هذا ، فإني أنظر إلي ما يخرج منها فأتصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالي ثلثًا ، وأردّ فيها ثلثًا »[٢] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « أحب الناس إلى اللّه أنفعهم ، وأحب الأعمال إلى اللّه عز وجل سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه دينًا ، أو تطرد عنه جوعًا ، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبّ إليّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا ، ومنْ كفّ غضبه ستر اللّه عورته ، ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يُمضيه أمضاه ، ملأ اللّه قلبه رضًا يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له ، أثبت اللّه قدمه يوم تزل الأقدام ، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يُفسد الخلّ العسل»[٣] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « أفضل الأعمال أن تُدخِل على أخيك المؤمن سرورًا ، أو تقضي عنه دينًا ، أو تطعمه خبزًا »[٤] .

---

(١) رواه الشيخان والترمذي .

(٢) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة ، ورواه الطيالسي وابن منده .

(٣) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » والطبراني في « الكبير » عن ابن عمر ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٧٦) .

(٤) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » والبيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة، وابن عدي في « الكامل » عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٠٩٦) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **خير الناس أنفعهم للناس** »[١] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل اللَّه ، أو القائم الليل الصائم النهار** »[٢] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لا خير فيمن لا يُضيِّفُ** »[٣] .

• وفي الصحيح عند ابن حبان ، عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن ملكًا بباب من أبواب الجنة يقول : مَنْ يُقرض اليوم يُجزَ غداً ، وملَك آخر يقول : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، وأعط ممسكًا تلفًا** » .

• وعن ابن مسعود - رضي اللَّه عنه - عن النبي ﷺ قال : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه اللَّه مالاً ، فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه اللَّه حكمة ، فهو يقضي بها ويُعلمها** » .

وفي رواية : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه اللَّه القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه اللَّه مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار** »[٤] .

• وعن ابن مسعود - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **أيُّكم مال وارثه أحب إليه من مالِه ؟** قالوا : يا رسول اللَّه ، ما منّا أحد إلاّ ماله أحبّ اليه من مال وارثه ، قال : « **فإن ماله ما قدّم ، ومال وارثه ما أخّـر** »[٥] .

• وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص - رضي اللَّه عنهما - : أن رجل سأل رسول اللَّه ﷺ قال : أيّ الإسلام خير ؟ **قال** : « **تُطعم الطعام ، وتقرأ**

---

(١) حسن : رواه القضاعي عن جابر، والطبراني في « الكبير » ، والدارقطني ، والبيهقي في «شعب الإيمان» وابن عساكر ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٢٨٩) .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي ، والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٣) صحيح : رواه أحمد والبيهقي في « شعب الإيمان » والروياني عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٤٩٢) .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه البخاري والنسائي .

السلام على من عرفتَ ومَنْ لم تعرف »[1] .

وعنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام** »[2] .

• وعن أبي مالك الأشعري - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدّها اللَّه لمن أطعم الطعام ، وأفشى السلام ، وصلى بالليل والناس نيام** »[3] .

• وعن حمزة بن صهيب ، عن أبيه - رضي اللَّه عنه - قال : قال عمر لصُهيب : فيك سَرَف في الطعام ! فقال : إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **خياركم من أطعم الطعام** »[4] .

• وعن أبي أمامة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **يا بن آدم إنك إن تبذل الفضل خيرٌ لك ، وإن تُمسكه شر لك ، ولا تُلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى** »[5] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أفضل الصدقة : الصدقة على ذي الرحم الكاشح** »[6] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(٢) حسن : رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وحسّنه الألباني في « صحيح الترغيب » (١/ ٣٩٥) .

(٣) حسن : رواه ابن حبان في « صحيحه » ، وحسنه الألباني في « صحيح الترغيب » (١/ ٣٩٦).

(٤) حسن : رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب « الثواب » وحسّنه الألباني في « صحيح الترغيب » (١/ ٣٩٦) .

(٥) رواه مسلم والترمذي .

(٦) صحيح : رواه أحمد والطبراني في « الكبير » عن أبي أيوب وعن حكيم بن حزام ، ورواه البخاري في « الأدب » وأبو داود عن أبي سعيد ، والطبراني في « الكبير » والحاكم عن أم كلثوم بنت عقبة ، وصحّحه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١١١٠) .

• وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**مثل البخيل والمُنفق كمثل رجُلَين عليهما جُنتان من حديد ، من ثُديهما إلي تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبَغَتْ أوْ وفرتْ على جلده ، حتى تُخفي بنانه ، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزمت كل حلقة مكانها ، فهو يوسعها فلا تتسع**»[1] .

فالمنفق كلما أنفق ، اتسعت عليه النعم وسبغت ووَفَرَتْ ، والبخيل كلما أراد أن ينفق ، منعه الشح والحرص وخوف النقص ، فهو يمنعه ، ولا تتسع عليه النعم .

• وعن أبي الدرداء ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من يوم طلعت شمسه إلا وكان بجنْبتّيها ملَكان يناديان نداءً يسمعه خلق اللَّه كلهم غير الثقلين : يا أيها الناس ، هلموا إلى ربكم : فإنَّ ما قَلّ وكفى ، خيرٌ مما كثر وألهى، ولا آبت الشمس ، إلا وكان بجنبتيها ملكان يناديان نداءً يسمعه خلق اللَّه كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً** » .

وأنزل اللَّه في ذلك قرآناً ؛ في قول الملكين : يا أيها الناس هلموا إلىٰ ربكم في «سورة يونس » : ﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [2] ، وأنزل في قولهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، وأعط ممسكًا تلفًا﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ** ۝١ **وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ** ۝٢ **وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **لِلْعُسْرَىٰ** ﴾[4] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) سورة يونس الآية (٢٥) .
(٣) سورة الليل الآيات (١ ـ ١٠) .
(٤) صحيح : رواه البيهقي ، وصححه الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (١/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥) .

• وعن أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لما خلق اللَّه الأرض جعلت تميد** [١] **وتكفأ** [٢] ، **فأرساها بالجبال ، فاستقرّتْ فتعجبت الملائكة من شدة الجبال ، فقالت : ياربنا ، هل خلقت خلقًا أشد من الجبال ؟ قال:** [نعم] ، **الحديد ، قالوا :** [يا رب] ، **فهل خلقت خلقًا أشد من الحديد ؟ قال :** [نعم] ، **النار ، قالوا :** [يا رب] ، **فهل خلقت خلقًا أشد من النار ؟ قال :** [نعم] ، **الماء ، قالوا :** [يا رب] ، **فهل خلقت خلقًا أشد من الماء ؟ قال :** [نعم]، **الريح ، قالوا :** [يا رب] ، **فهل خلقت خلقًا أشد من الريح ؟ قال :** [نعم] ، **ابن آدم ، إذا تصدّق بصدقة بيمينه فأخفاها عن شماله** »[٣] .

• وعن مالك بن نضلة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**الأيدي ثلاثة : فيد اللَّه العليا ، ويد المعطي التي تليها ، ويد السائل السفلى ، فأعطِ الفضل، ولا تَعجزْ عن نفسك** »[٤] .

• وعن ابن خزيمة « كان أول أهل مصر يروح إلى المسجد ، وما رأيته داخلاً المسجد قط إلا وفي كمه صدقة ، إما فلوس ، وإما خبز ، وإما قمح ، حتى ربما رأيت البصل يحمله ، قال : فأقول : يا أبا الخير إن هذا ينتن ثيابك، قال ، فيقول : يا ابن حبيب ! أما إني إن لم أجد في البيت شيئًا أتصدق به غيره ، إنه حدثني رجل من أصحاب رسول اللَّه ﷺ ، إن رسول اللَّه ﷺ قال : . . . . .

---

(١) تميد : مادت الأرض تميد : إذا تحرّكت واضطربت .

(٢) تكفّأ : تكفأت المرأة في مشيتها : إذا تمايلت كما تتمايل النخلة : والأصل : تتكفّأ ، فحذفت إحدى التاءين .

(٣) حسن : رواه أحمد ، والترمذي واللفظ له ، وفي سنده سليمان بن أبي سليمان الهاشمي ، لم يوثقه غير ابن حبان ، وباقي رجاله ثقات ، وقال ابن حجر في « الفتح » (١٧٢/٢) : « في مسند أحمد من حديث أنس بإسناد حسن مرفوعًا » .

(٤) إسناده حسن : رواه أبو داود في « سننه » ، كتاب الزكاة ، باب في الاستعفاف ، وقال الشيخ عبد القادر الأرناءوط : إسناده حسن .

عن يزيد بن أبي حبيب أن أبا الخير حدّثه أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **كل امريء في ظل صدقته حتى يُقضى بين النـاس** » أو قال : « **حتي يحكم بين الناس** » .

قال يزيد : فكان أبو الخير لا يُخطئه يوم لا يتصدّق فيه بشيء ولو كعـكة ولو بصلة »(١) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟** »(٢) .

• وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **يقول العبد : مالي مالي ، وإن له من ماله ثلاثاً ، ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأقنى ، وما سوى ذلك ، فهو ذاهب وتاركه للناس** »(٣) .

• وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **سبق درهم مئة ألف** » ، فقال رجل : وكيف ذاك يا رسول اللَّه ؟ قال : « **رجل له مال كثير أخذ من عُرضه مئة ألف ، فتصدّق بها ، ورجل ليس له إلا درهمان ، فأخذ أحدهما ، فتصدّق به** »(٤) .

• وعن ميمونـة بنت الحـارث أنها أعتقت وليـدة في زمـان رسول اللَّه ﷺ فذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال : « **لو أعطيتهـا**

---

(١) إسناده صحيح على شرط مسلم : رواه ابن حبان في « صحيحه » واللفظ له ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » ، ومن طريقه أخرجه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن خزيمة ، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وأخرجه الطبراني في « الكبير » .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي عن عبد اللَّه بن الشخير .

(٣) رواه أحمد ومسلم .

(٤) إسناده حسن : رواه النسائي وابن خزيمة والحاكم والبيهقي وابن حبان واللفظ له ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وأخرجه أحمد والنسائي عن أبي هريرة بلفظ سبق درهم درهمين ، وحسن إسناده الألباني في « التعليق على صحيح ابن خزيمة » رقم (٢٤٤٣) .

أخـــوالك كان أعظم لأجـــرك »(١) .

قال ابن خزيمة في « صحيحه » « إن الصدقة بالمملوك أفضل من عتق المتصدق إياه » .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد اللَّه عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد للَّه إلا رفعه اللَّه » (٢) .

● وعن أبي ذر ، عن النبي ﷺ قال : « **ثلاثة يحبهم اللَّه ، وثلاثة يبغضهم اللَّه ، أما الذين يحبهم اللَّه : فرجل أتى قوماً فسألهم باللَّه ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه ، فتخلّف رجل بأعقابهم ، فأعطاه سرّا لا يعلم بعطيته إلا اللَّه والذي أعطاه ، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحبّ إليهم مما يعدل به ، نزلوا فوضعوا رءوسهم وقام يتملَّقني ويتلو آياتي ، ورجل كان في سرية ، فلقي العدو فهزموا ، وأقبل بصدره حتى يُقتل أو يُفتح له ، وثلاثة يبغضهم اللَّه : الشيخ الزاني ، والفقير المختال ، والغني الظلوم** »(٣) .

وعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي اللَّه عنهما ـ قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : «**لا توعي فيوعي اللَّه عليك ، ارضخي ما استطعت** » (٤) .

---

(١) إسناده صحيح على شرط مسلم : أخرجه ابن حبان واللفظ له ، وابن خزيمة ، وكذا أخرجه مسلم ، والنسائي ، والبيهقي ، وأحمد والبخاري ، والطبراني في « الكبير » .

(٢) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن خزيمة .

(٣) حديث صحيح : رواه ابن حبان في « صحيحه » واللفظ له ، والترمذي ، وابن خزيمة ، وأحمد والنسائي ، والحاكم ، وقال الترمذي : حديث صحيح ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، قال الألباني في « التعليق على صحيح ابن خزيمة » رقم (٢٤٥٦) : « إسناده ضعيف : زيد بن ظبيان ما روى عنه سوى ربعي بن حراش كما قال الذهبي ، يشير إلى أنه « مجهول » ، وذكره ابن حبان في « الثقات » .

(٤) رواه البخاري ، والنسائي ، والبيهقي ، وأحمد ، وعبد الرزاق ، وابن حبان في «صحيحه» ، والرضخ : هوالعطاء اليسير .

وعنها ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا توكيء فيوكأ عليك** »(١) .

● وعن عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها قالت : جاءها سائل ، فأمرت له عائشة بشيء ، فلما خرجت الخادم دعتها ، فنظرت إليه ، فقال رسول اللَّه ﷺ « **ما تخرجين شيئاً إلا بعلمك** » ، قالت : إني لأعلم ، فقال لها « **لا تُحصي فيحصي اللّه عليك** »(٢) .

● وعن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا أنفقت المرأة من بيت زوجها غير مفسدة كان لها أجرها وله مثله بما اكتسب ، ولها بما أنفقت وللخازن مثل ذلك من غير أن ينتقص من أجورهم شيئاً** »(٣) .

● قال النووي في « شرح مسلم » (٣/ ٦٢) : « المراد المشاركة في أصل الثواب فيكون لهذا ثواب ولهذا ثواب ، وإن كان أحدهما أكثر ، لا يلزم أن يكون مقدار ثوابهما سواء ، بل قد يكون ثواب هذا أكثر وقد يكون عكسه ، فإذا أعطى المالك لخازنه ، أو امرأته أو غيرهما مائة درهم أو نحوها ليوصلها إلى مستحق الصدقة على باب داره أو نحوه فأجر المالك أكثر ، وإن أعطاه رمّانة أو رغيفاً ونحوهما مما ليس له كثير قيمة ليذهب به إلى محتاج في مسافة بعيدة بحيث يقابل مشي الذاهب إليه بأجرة تزيد على الرمانة والرغيف فأجر الوكيل أكثر ، وقد يكون عمله قدر الرغيف مثلاً فيكون مقدار الأجر سواء .

---

(١) رواه البخاري ، والترمذي .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن حبان واللفظ له .
قوله : « لا تحصي » أي : لا تعدي ما تعطي ، من الإحصاء : وهو العدّ .

(٣) أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي في «الكبرى» والبيهقي والبغوي وابن حبان .

وقال النووي ـ رحمه اللَّه ـ (٣/ ٦٣) : « ومعلوم أنها إذا أنفقت من غير إذن صريح ولا معروف من العرف فلا أجر لها ، بل عليها وزر ، فتعين تأويله » .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « **قال رجل : لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقة فوضعها في يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تُصدق الليلة على زانية ، قال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقتة فوضعها في يد غنيّ ، فأصبحوا يتحدثون : تُصدق على غني ، قال: اللهم لك الحمد على غنيّ ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، وعلى غنيّ ، وعلى سارق ، فأُتي ، فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت . أما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها ، ولعل الغنيّ يعتبر فينفق مما أعطاه اللَّه ، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته** » [١] .

● وعن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ أن سعد بن عبادة ـ أخا بني ساعدة ـ قال : يا رسول اللَّه إن أمي توفيت وأنا غائب ، فهل ينفعها إن تصدقت عنها بشيء ؟ قال : « **نعم** » . قال : فإني أشهدك أن حائطي الذي بالمخراف صدقة عنها » [٢] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة** » [٣]

---

(١) أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم واللفظ له ، والنسائي ، والبيهقي ، وابن حبان في «صحيحه» ، والطبراني في « مسند الشاميين » ، والدارقطني في « غرائب مالك » ، وأبو نعيم في « المستخرج » .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه ابن خزيمة في « صحيحه » (٤/ ١٢٤) ، وقال الألباني في تعليقه : «إسناده صحيح ، ورجاله كلهم ثقات ، وهو في « المسند » (١/ ٣٣٣) .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن عدي بن حاتم .

• وعن أبي كبشة الأنماري ـ رضي اللّه عنه ـ قال قال رسول اللّه ﷺ : **«ثلاث أقسم عليهن : ما نقص من مال عبد من صدقة ، ولا ظُلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده اللّه عز وجل عزًا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح اللّه عليه باب فقر»**(١) .

• وعن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : **« ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد اللّه عبدًا بعفو إلا عزًا ، وما تواضع أحد للّه إلا رفعه اللّه »**(٢) .

• وعن أنس ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : **« صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة »**(٣) .

• وعن أبي أمامة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : **« صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر »**(٤) .

• وقال ﷺ : **« صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، والصدقة خفيًا تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم زيادة في العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر**

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٠٢١)، و« تخريج المشكاة » (٥٢٨٧) .

(٢) رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذي .

(٣) صحيح : رواه الحاكم ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦٨٩) ، و«الصحيحة» رقم (١٩٠٨) .

(٤) حسن : رواه الطبراني في « الكبير » ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦٩١) .

في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »[١] .

قال علي - رضي اللَّه عنه - : لا يزهدك في المعروف كفر من كفر ، فقد يشكره الشاكر أضعاف جحود الكافر .

وعن الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن اللَّه سبحانه وتعالى أمر يحيى بن زكريا ـ رضي اللَّه عنه ـ بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يبطيء بها ، فقال له عيسى عليه السلام : « إن اللَّه تعالى يأمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي وأعذب ، فجمع يحيى عليه السلام الناس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف ، فقال : إن اللَّه تبارك وتعالى أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل من أشرك باللَّه كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ، فقال له : هذه داري وهذا عملي ، فاعمل وأدّ إليّ ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن اللَّه أمركم بالصلاة ؟ فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن اللَّه ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت ، وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند اللَّه من ريح المسك . وأمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلي عنقه وقدّموه ليضربوا عنقه فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم ، وأمركم أن تذكروا اللَّه تعالى ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر اللَّه**

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الأوسط » عن أم سلمة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع» رقم (٣٦٩٠) .

تعالى، قال رسول اللَّه ﷺ : «**وأنا آمركم بخمس أمرني اللَّه بهن : السمع ، والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة ، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنـــم** » فقال رجل : يا رسول اللَّه و إن صلىٰ وصام ؟ قال : « **وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا بدعـوى اللَّه الذي ســـماكم المســلمين المؤمنين عباد اللَّه** »(١) .

قال ابن القيم : « إن للصدقة تأثيراً عجيبًا في دفع أنواع البلاء ، ولو كانت من فاجر أو ظالم أو كافر ، فإن اللَّه تعالىٰ يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء ، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم ، وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جرّبوه » .

وعن أبي أمامة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **داوُوا مرضاكم بالصدقة** »(٢) .

تنوّع أجناس الصدقة المندوبة :ـ

الصدقة المندوبة لا تقتصر علىٰ المال وما يقوم بالمال ، بل تشمل كل عمل صالح : من طيب الكلمة ، وبشاشة الوجه ، وإعانة الرجل علىٰ دابته ، ومعاونته علىٰ حمل متاعه عليها .

والصدقة والإحسان ينقسمان إلىٰ : خفيّ وجليّ ، وقليل وكثير وجليـــل .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي ، والبخاري في « التاريخ » والنسائي ، وابن حبان والحاكم ، والطيالسي وابن خزيمة عن الحارث بن أبي الحارث الأشعري ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٧٢٠) ، و« تخريج الترغيب » (١/ ١٨٩ ـ ١٩٠) ، و« تخريج المشكاة» (٣٦٩٤) ، و« صحيح سنن الترمذي » (٢٢٩٨) .

(٢) حسن : رواه أبو الشيخ في « الثواب » وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٥٣) .

وخطير ، ونبيل ، « **وكل معروف صدقة** »[١] ، و : « **في كل كبدٍ رَطبة أجر** »[٢] وقال ﷺ : « **في كل ذات كبدٍ حرّى أجر** »[٣] .

وقال ﷺ : « **لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق** »[٤] .

وقال ﷺ : « **كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ، وأن تصب من دلوك في إناء جارك** »[٥] .

وقال ﷺ : « **كل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة** »[٦] .

● ولما كان كل معروف تهديه إلى غيرك صدقة ، فهناك صدقات للقلوب بإرادة كل نفع للعباد ، فإن الإرادة سبب لذلك .

وإحسان الأبدان أقسام :-

أحدها : نقل المِلْك ، بالهبات والصدقات .

والثاني : إباحة المنافع والأعيان ؛ كالعواري ، والضيافات .

والثالث : الإسقاط ؛ كالعتق ، والإبراء من الديون ، والقصاص ، والحدود ، وسائر العقوبات .

والرابع : الإعانة على الطاعات ؛ بتعليمها ، وتفهيمها ، والمساعدة

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري عن جابر ، وأحمد ومسلم وأبو داود عن حذيفة .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد والحاكم عن سراقة بن مالك ، وأحمد عن ابن عمرو .

(٤) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي ذر .

(٥) حسن : رواه أحمد ، والترمذي والحاكم والبخاري في « الأدب المفرد » عن جابر ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٤٣٣) .

(٦) حسن : أخرجه الخطيب في « الجامع » عن جابر ، والطبراني في « الكبير » وأبونعيم في «الحلية» وابن عدي ، والخرائطي عن ابن مسعود ، وابن عساكر عن جابر ، وحسنه الألباني في «الأحاديث الصحيحة » رقم (٢٠٤٠) ، و« صحيح الجامع » رقم (٤٤٣٤) .

علىٰ فعلها ، والنيابة فيها ، كالنيابة في الحج وتفريق الصدقات .

والخامس : الإعانة بكل نفع : عاجل أو آجل ، فِعْلِي أو قولي : كالإعانة بالبناء ، والخياطة ، وتحميل الدابة ، وأن تعين صانعًا ، أو تصنع لأخرق [١] ، وبأن تدُلّ علىٰ الطريق ، وتخدم الصديق ، وتُعين الرفيق ، وتأمر بكل معروف ، وتنهىٰ عن كل منكر ، وتفك الأُسارىٰ ، وترشد الحيارىٰ .

السادس : حسن الأخلاق ؛ كإظهار البِشْر ، وطلاقة الوجه ، والتبسم في وجوه الإخوان .

عن أبي ذر ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **يصبح على كل سلامى من ابن آدم صدقة ؛ تسليمه على من لقي صدقة ، وأمره بالمعروف صدقة ، ونهيه عن المنكر صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وبُضعة أهله صدقة ، ويُجزئ من ذلك كله : ركعتان من الضحى** » قالوا : يا رسول اللّه ، أحدنا يقضي شهوته ، أتكون له صدقة ؟ **قال** : « **أرأيت لو وضعها في غير حلّها ألم يكن يأثم ؟** » [٢] .

• وروىٰ مسلم والنسائي عن أبي ذر ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **يُصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة ؛ فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، و يُجزئ من ذلك : ركعتان تركعهما من الضحى** » .

• وعن عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « **إنه خُلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل ، فمن كبّر اللّه ،**

---

(١) الأخرق : الذي لا يعرف أن يعمل الشيء بيده .

(٢) رواه مسلم وأحمد وأبو داود .

وحمد اللّه، وهلل اللّه ، وسبحّ اللّه ، أو استغفر اللّه ، وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً من طريق الناس ، أو أمر بالمعروف ، أو نهى عن منكر ، عدد الستين والثلاثمائة ؛ فإنه يمسي أو يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»(١) .

● عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **نعم المنيحة اللّقحةُ الصّفيُّ منحة ، والشاة الصّفيّ تغدو بإناء ، وتروح بإناء** »(٢) .

وعند مالك قال : « **نعم الصدقة ...**» .

وعند مسلم : « **ألا رجل يمنح أهل بيت ناقة ، تغدو بإناء وتروح بإناء ، إن أجرها لعظيم** » .

● وعن عبد اللَّه بن عمرو ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **أربعون خصلة ، أعلاهن منيحة العنْز ؛ ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها ، وتصديق موعودها ؛ إلا أدخله اللّه الجنة** » .

قال حسان بن عطية : « فعددنا ما دون منيحة العنْز ـ من رد السلام وتشميت العاطس ، وإماطة الأذىٰ عن الطريق ، ونحوه ـ فما استطعنا أن نبلغ خمس عشرة خصلة » (٣) .

قال ابن بطال : « وقد بلغني أن بعضهم تطلّبها فوجدها تزيد علىٰ الأربعين ، فمما زاده : إعانة الصانع ، والصنعة للأخرق ، ، وإعطاء شِسع النعل ، والستر علىٰ المسلم ، والذب عن عرضه ، وإدخال السرور عليه ، والتفسح في المجلس ، والدلالة علىٰ الخير ، والكلم الطيب ، والغرس ،

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخاري ، واللقحة : ذات اللبن القريبة العهد بالولادة ، والصَّفيّ : الكريمة الغزيرة اللبن .
(٣) رواه البخاري .

والزرع ، والشفاعة ، وعيادة المريض ، والمصافحة ، والمحبة في اللَّه والبغض لأجله ، والمجالسة للَّه ، والتزاور والنصح والرحمة ، وكلها في الأحاديث الصحيحة ، وفيها ما قد يُنازع في كونه دون منيحة العنز » .

قال ابن حجر : « بإمكان تتبع أربعين خصلة من خصال الخير أدناها منيحة العنز »(١) .

● قال ابن حبان تحت عنوان « ذكر الخصال التي تقوم لُمعدَم المال مقام الصدقة لباذلها » : -

عن أبي ذر - رضي اللَّه عنه - ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **ليس من نفْس ابن آدم ، إلا عليها صدقة ، في كل يوم طلعت فيه الشمس** » قيل : يا رسول اللَّه، ومن أين لنا صدقة نتصدّق بها ؟ فقال : « **إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح والتحميد ، والتكبير والتهليل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتميط الأذى عن الطريق ، وتُسمع الأصم ، وتهدي الأعمى ، وتَدل المُستَدل على حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك** »(٢) .

إسماع الأصم ، هداية الأعمى ، دلالة المستدل على حاجته ، إعانة الضعيف . . . . صدقات والتعبير عن الأرثم « الأرثم : هو الأرَتّ » .

عن أنس - رضي اللَّه عنه - قال : حدَّث نبي اللَّه ﷺ بحديث ، فما فرحنا بشيء منذ عرفنا الإسلام أشدّ من فرحنا به ، قال : « **إن المؤمن ليؤجر في إماطة الأذى عن الطريق ، وفي هداية السبيل ، وفي تعبيره عن الأرتم ، وفي مَنحة اللبن ، حتى إنه ليؤجر في السلعة تكون مصرورة فيلمسها ،**

---

(١) « فتح الباري » (٥/ ٢٩٠) .
(٢) إسناده صحيح على شرط مسلم : رواه ابن حبان في « صحيحه » (٨/ ١٧١) .

فـــتـــخــــطــــها يده »[1] .

• ومن الصدقة أيضا : التبسم في وجه المسلم ، إرشاد الضال ، البصر لرديء البصر ، إفراغك مِن دَلْوِك في دَلْوِ أخيك .

عن أبي ذر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلْوك في دلو أخيك لك صدقة** »[2] .

وصدقات أُخر : مِنحة الورق ، من هدىٰ زُقاقًا .

عن البراء بن عازب ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **من منح مَنيحةِ لبن أو وَرِق ، أو هـدَى زُقاقـًا ؛ كـان لـه مـثـل رقـبـة** »[3] .

وفي رواية له « **من منح مِنحة وَرِق ، أو منحة لبن ، أو أهدى زُقاقًا ؛ فهو كعتق نسمة** »[4] .

---

(١) حديث حسن لغيره : رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » ، والبزار ، والطبراني في « الأوسط » ، وفي إسناده المنهال بن خليفة ؛ وثقه أبو حاتم وأبو داود والبزار ، وفيه كلام ، وسكت عنه = البوصيري، وقال المنذري في « الترغيب والترهيب » (٣/ ٦١٨ ـ ٦١٩) : وفي إسناده المنهال ابن خليفة ، وقد وثقه غير واحد وتقدّم ما يشهد لهذا الحديث .
والأرتم (الأرثم) : الأرَتّ : هو الذي لا يفصح الكلام ولا يبيّنه ، فتعبيرك عن مراده ، وإفصاحك بمقصوده ، تُثاب عليه بالجنة ، ومثله الترجمة عمّن لا يحسن العربية أو لا يفهمها .

(٢) صحيح : رواه الترمذي واللفظ له وحسّنه ، وابن حبان ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » (١٥٩٤) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي واللفظ له ، وابن حبان ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » .

(٤) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن حبان ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٢٥٩) .

قال أبو عيسى الترمذي : « ومعنى قوله : « **من منح منيحة وَرِق** » إنما يعني به : قرض الدراهم .

وقوله : « **أو أهدى زقاقًا** » قال : إنما يعني به هداية الطريق ، وهو إرشاد السبيل » .

● وعن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من منح منحة ؛ غدت بصدقة ، وراحت بصدقة ، صَبُوحها وغَبُوقها** »(١) .

● وإعانة الرجل في دابته ، والعدل بين اثنين صدقة :

روى الشيخان عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **كل سُلامى**(٢) **من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس ؛ يعدل بين اثنين صدقة ، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه : صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة يمشيها إلى الصلاة : صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة** » .

● ونفقة الرجل على أهله يحتسبها صدقة .

عن ابن مسعود - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها ، كانت له صدقة** »(٣) .

● ووهب صلة الحبل ، ووهب الشِّسع ، وإيناس الوحشان صدقة!!! :-

عن أبي جري الهجيمي - رضي اللَّه عنه - قال : أتيت رسول اللَّه ﷺ ، فقلت : يا رسول اللَّه ، إنا قوم من أهل البادية ، فعلّمنا شيئًا ينفعنا اللَّه به ، قال : « **لا تحقرن من المعروف شيئًا أن تأتيه ؛ ولو أن تهب صِلَة الحبل ،**

(١) رواه مسلم .
(٢) سلامى : مفصل ، وعدد مفاصل الإنسان ستون وثلاثمائة .
(٣) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي .

ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي ، ولو أن تلقى أخاك المسلم ووجهك بسط إليه ، ولو أن تُونس الوحشان بنفسك ، ولو أن تهب الشّسع »[1] .

ومعنى « **أن تهب صلة الحبل** » : أن يكون لأخيك المسلم حبل يستقي به ، أو يربط به شيئًا من متاعه ، ويحتاج إلى وصلة لقصره ، فوهبته قطعة حبل وصله بها ، قاصداً مساعدته بها ، راجيًا ثواب اللَّه .

ومعنى « **ولو أن تونس الوحشان بنفسك** » : إذا وجدت أخاك المسلم وحشان ، أي مختليًا مهمومًا من شيء يخافه ، فآنست وحشته بنفسك ، وأذهبت عنه همه و فزعه حتى أمن واستأنس واطمأن .

وفي مدينه « فاس » أعيان موقوفة ، يُصرف منها مرتّب شهري لشخص يسمى « مونس الغريب » .

ومعنى « **لو تهب الشسع** » : الشسع : ما يشد إلى زمام النعل وهو رباط الحذاء .

• بل وتتعدى الصدقات إلى الحيوان والطير :ـ

عن جابر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يغرس مسلم غرسًا ، ولا يزرع زرعًا ، فيأكل منه إنسان ولا دابّة ولا شيء ، إلا كانت له صدقة** »[2] .

وفي الصحيحين عن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان ؛ إلا كان له به صدقة** » .

* * *

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد والنسائي ، ورواه أبو داود مختصراً ، ورواه أبو داود مطوّلا ، ورواه النسائي ، والترمذي مختصراً ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) رواه مسلم .

بل قد تكون العبادة صدقة :ـ

نعم وهذا من كرم ورحمة وجود اللَّه عزوجل أن يجعل العبادة له تعالىٰ صدقة يتصدق بها العبد علىٰ أخيه المسلم ، كالذي جاء والناس قد صلّوا العصر ، فقالﷺ : « **من يتصدق على هذا فيصلي معه ؟** »أ ي مَن يعيد الصلاة معه جماعة ؟ فتصدق عليه أبو بكر الصديق ـ رضي اللَّه عنه ـ .

• ومن الصدقات :ـ

عن عبادة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من رجل يجرح في جسده جراحة ، فيتصدّق بها ، إلا كفّر اللّه مثل ما تصدّق** »[1] .

قال المناوي : «إذا جنىٰ إنسان علىٰ آخر جناية ، فعفا عنه لوجه اللَّه تعالىٰ نال هذا الثواب .

عن عبادة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من تصدّق بشيء من جسده ؛ أعطي بقدر ما تصدّق** »[2] .

قال المناوي : « يعني من جنىٰ عليه إنسان ، كأن قطع منه عضواً أو أزال منفعته ، فعفا عنه لوجه اللَّه ، أثابه اللَّه تعالىٰ عليه بقدر الجناية .

ويحتمل أن المراد بالتصدق بذلك أن يباشر بعض الطاعة ببعض بدنه ، كأن يزيل الأذىٰ عن الطريق بيده ، فيثاب بقدر ذلك »[3] .

• ومن الصدقات المؤازرة بالجاه :ـ

ونفع المسلمين وإسعافهم والتصدق عليهم قد يكون بالجاه :

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والضياء عن عبادة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٥٨٨) ، و« السلسلة الصحيحة » رقم (٢٢٧٣) ، وقال المنذري والهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن عبادة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٠٢٧) .

(٣) « فيض القدير » (٦/ ١٠٦) .

«فالإسعاف بالجاه من ألطف الصنائع موقعًا ، ربما كان أعظم من المال نفعًا ؛ قال بعض البلغاء : بذل الجاه أحد الحباءين »(١) .

• ومن الصدقات : المسامحة في الحقوق ، والتصدق بالعِرْض :ـ

روي ابن منده بإسناده : « كان علبة بن زيد بن حارثة رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ، فلما حضّ على الصدقة ، جاء كل رجل منهم بطاقته وما عنده ، فقال عُلبة بن زيد : اللهم إنه ليس عندي ما أتصدّق به ؛ اللهم إني أتصدّق بعرضي على من ناله من خلقك ، فأمر رسول اللّه ﷺ مناديًا فنادى : أين المتصدّق بعرضه البارحة ، فقام عُلبة ، فقال : « **قد قُبلت صدقتك** » .

وفي « زاد المعاد » : فقال النبي ﷺ : « **أبشرْ ؛ فوالذي نفس محمد بيده ، لقد كُتِبَتْ في الزكاة المتقبلة** » .

عن معاذ بن جبل ـ رضي اللّه عنه ـ قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير ، فقلت : يا رسول اللّه أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار ، قال : « **لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسّره اللّه عليه : تعبد اللّه ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت** » ثم قال : « **ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنّة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل** » قال : ثم تلا : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم** ﴾ حتى بلغ ـ ﴿ **يعملون** ﴾ ثم قال : « **ألا أخبرك برأس الأمر كله ، وعموده ، وذروة سنامه ؟** » قلت : بلى يا رسول اللّه ، **قال** : « **رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد** » ثم قال : **ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟** » قلت :

---

(١) الحباءين : العطاءين .

بلى يا رسول اللَّه ، قال : « فأخذ بلسانه قال : « **كف عليك هذا** » فقلت : يا نبي اللَّه وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « **ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم** »[(١)] .

حكم هذا النوع :ـ

قال الشيخ عطية سالم : « أما من جهة التكليف فهو الندب والإحسان ما لم يتعيّن ، وذلك في نوادر الحالات وعند الحاجة ، كما في حديث « **من كان معه فضل طعام فليفض على من لا طعام له ، ومَن كان معه فضل ظهر فليفض على من لا ظهر له** » وكذلك في حالات الأسفار وقلة الطعام وانعدامه عند بعض الرفقاء في الطريق ، أو الغزاة في الجهاد ، كما فعل قائد السرية إلى سيْف البحر حتى أغاثهم اللَّه بحوت العنبر ، إذ جمع أزواد القوم كلهم وكان زادهم التمر ثم أخذ يقسم عليهم كل واحد تمرة في كل يوم . . . .

وقد جاء عن عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه لو مات إنسان جوعًا لألزم أهل محله ديته ، وكذلك لو منع إنسان فضل مائه أو طعامه عن إنسان في فلاة ، فمات ، لزمته ديته .

وهذا وأمثاله يجعل الصدقة المندوبة واجبة ، ويصدق عليها الحديث «**في المال حق سوى الزكاة** »[(٢)] .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن الأشعريين إذا أرملوا**[(٣)] **في الغزو أو قلّ طعام عيالهم**

---

(١) رواه الترمذي في « سننه » ، وابن ماجه ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » رقم (٢١١٠) ، و« صحيح سنن ابن ماجه » (٣٩٧٣) .

(٢) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٦٥) .

(٣) أي نفد زادهم .

بالمدينة ، جعلوا ما كان عندهم في ثوب واحد ، ثم أقسموه بينهم في إناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا منهم » [(١)] .

قال الغزالي ـ رحمه اللَّه ـ : « وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أنّ في المال حقوقًا سوى الزكاة ، كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد ، قال الشعبي بعد أن قيل له : هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم ، أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ **وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[(٢)] ، واستدلوا بقوله عزوجل : ﴿ **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [(٣)] وبقوله تعالى : ﴿ **وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم** ﴾ [(٤)] وزعموا أنّ ذلك غير منسوخ بآية الزكاة ، بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجًا أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة ، ولكن يحتمل أن يقال : ليس على الموسر إلا تسليم ما يزيل الحاجة قَرْضًا ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال : يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض ،أي لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه»[(٥)] .

آداب الصدقة :ـ

- مدار هذه الآداب على الإحسان الذي هو أخصّ أبواب الدين كله :
- **أولاً : فهم معناها ، ووجه الامتحان فيها :**

فاعلم يا أخي أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى .
(٢) سورة البقرة الآية (١٧٧) .
(٣) سورة الأنفال آية (٣) .
(٤) سورة المنافقون آية (١٠) .
(٥) « إحياء العلوم الدين » (١/ ٢٥٣) .

الفرد ، فإن المحبة لا تقبل الشركة ، وإنما يمتحن المحب بمفارقة المحبوب، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم ، وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب ، واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم، و لذلك قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ (١) .

ولهذا تصدق أبو بكر ـ رضي اللّٰه عنه ـ بجميع ماله ، ووفّىٰ ـ رضي اللّٰه عنه ـ بتمام الصدق فلم يمسك سوىٰ المحبوب عنده وهو اللّٰه ورسوله .

ولما كانت الصدقة عن ظهر غنىٰ ، وكان الغنىٰ نوعان : مادي ومعنوي وهو أعلاهما وهو لخواص الناس ، فاز بقصب السبق من كان غنىٰ النفس ولو كان طاويًا .

وهذا لخواص الناس ، بل لخواص خواصهم ، وهُم من كان عياله علىٰ شاكلته ، يؤثرون كما يؤثر ، ويصبرون كما يصبر ، ولقد كان للأنصار في هذا شأن عجيب امتدحهم اللّٰه من أجله ، قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(٢) .

عن أبي هريرة ـ رضي اللّٰه عنه ـ قال : جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال : إني مجهود ، فأرسل إلىٰ بعض نسائه ، فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء ، ثم أرسل إلىٰ أخرىٰ ، فقالت مثل ذلك ، حتىٰ قُلن كلهن مثل ذلك : لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء فقال النبي ﷺ : « **من يُضيف هذا الليلة ؟** » ، فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول اللّٰه ، فانطلق به

---

(١) سورة التوبة الآية (١١١) .
(٢) سورة الحشر الآية (٩) .
(٣) أي أصابني الجهد ، وهو المشقة والحاجة وسوء العيش والجوع .

إلىٰ رحله، فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول اللَّه ﷺ . وفي رواية قال لامرأته : هل عندك شيء ؟ قالت : لا ، إلا قوت صبياني ، قال : فعلّليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوّميهم ، وإذا جاء ضيفنا فأطفئي السراج ، وأريه أنا نأكل ، فقعدوا وأكل الضيفُ وباتا طاويَيْن ، فلما أصبح غدا[1] علىٰ النبي ﷺ فقال : « **لقد عجب اللَّه من صنيعكما بضيفكما الليلة** »[2] .

● ودون هذا القسم درجة : الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار والإنفاق علىٰ قدر الحاجة دون التنعيم ، وصرف الفاضل عن الحاجة إلىٰ وجوه البر مهما ظهر وجوهها .

● ومن فهم معناها أنها طهرة من البخل والشح :

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[3] .

و قال رسول اللَّه ﷺ : « **ثلاث منجيات : خشية اللَّه تعالى في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنى ، وثلاث مهلكات : هوى متّبع ، وشح مطاع ، واعجاب المرء بنفسه** »[4] .

و قال ﷺ : « **وأي دواء أدوى من البخل** »[5] .

---

(١) أي جاء صباحًا .

(٢) متفق عليه .

(٣) سورة الحشر الآية (٩) .

(٤) حسن : رواه أبو الشيخ في « التوبيخ » ، والطبراني في « الأوسط » وحسنّه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٣٥) ، و« الأحاديث الصحيحة » رقم (١٨٠٢) .

(٥) صحيح : رواه أحمد والبخاري من رواية جابر عن أبي بكر موقوفًا عليه ، ورواه الحاكم عن أبي هريرة ، وزواه البخاري في « الأدب » ، والطبراني في « الأوسط » ، والخطيب عن جابر ، والطبراني في « الأوسط » ، والخرائطي عن كعب بن مالك ، والطبراني في « الكبير » ، و«الأوسط» عن ابن عباس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٩٨١) .

وإنما تزول صفة البخل بأن تتعوّد بذل المال ، فحبّ الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتياداً ، فالصدقة بهذا المعنى طهرة ، أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المُهلك ، وإنما طهارته بقدر بذله، وبقدر فرحه بإخراجه ، واستبشاره بصرفه إلى اللَّه تعالى ، ففي الصدقة طهر عن رذيلة البخل وأدران الشح ، ووصمة القسوة ، وإكتساب للين والعطف على المحتاجين ومن فهم معناها شكر النعمة ، وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضُيّق عليه الرزق وأحوج إليه ، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر اللَّه تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بإخراج شيء من ماله .

● **ثانياً : أن تكون الصدقة من كسب طيب :**

فإن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيّباً ، وأن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه .

وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب ، إذ قد يُمسك الجيّد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على اللَّه عزوجلّ غيره ، هذا إن كان نظره إلى اللَّه عزوجلّ ، وإنْ كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة ، فليس بعاقل من يُؤثر غيره على نفسه ، وليس له من مال إلا ما تصدّق به فأبقى أو أكل فأفنى ، والذي يأكله قضاء وطر في الحال ، فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار ، وقد قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ [1] ، وقد ذم اللَّه تعالى قوماً جعلوا للَّه ما يكرهون ، فقال تعالى : ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا**

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٦٧) .

يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾ [١] وقد جاء عن عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه أهدىٰ جملاً في أنفه حلقه فضة من أكرم أنواع الإبل قد أعطي فيه ثمانين بعيراً ، ولما سئل عن ذلك ، وقيل له : كان يكفيك غيره ، قال : أردت إغاظة المشركين .

ورویٰ مالك في « الموطأ » عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يقول لبنيه : « يا بني لا يهدينّ أحدكم من البُدن شيئًا يَستحي أن يهديه لكريمه ، فإن اللَّه أكرم الكرماء ، وأحق من اختير له» .

● ومما يراعي في الصدقة الكيف لا الكمّ ، والصورة التي تقع بها من سماحة النفس ، ورغبة الإحسان ، لا بالكثرة و المظهر والتكاثر ، ولذا فقد يسبق الدرهم الواحد مائة ألف درهم من حيث الفضل والأجر .

● ثالثا : أن لا يُفسد صدقته بالمنّ والأذى :ـ

قال تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ** ﴾ [٢] .

واختلفوا في حقيقة المنّ والأذىٰ ، فقيل : المنّ أن يذكرها ، والأذىٰ أن يظهرها ، وقال سفيان : مَن منّ فسدت صدقته ، فقيل له : كيف المَنّ ؟ فقال : أن يذكره ويتحدث به .

وقيل : المنّ أن يستخدمه بالعطاء ، والأذىٰ أن يعيرّه بالفقر .

قال الغزالي ـ رحمه اللَّه ـ : « وعندي أن المنّ له أصل ومغرس ، وهو من أحوال القلب وصفاته ، ثم يتفرّع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح ، فأصله أن يرىٰ نفسه محسنًا إليه ومنعمًا عليه ، وحقه أن يرىٰ الفقير محسنًا إليه بقبول حق اللَّه عزوجلّ منه الذي هو طهرته ونجاته من النار ، وأنه لو لم يقبله لبقي مرتهنًا به ، فحقه أن يتقلّد منّة الفقير إذ جعل

---

(١) سورة النحل الآية (٦٢) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٦٤) .

كفّه نائبًا عن اللَّه عز وجلّ في قبض حق اللَّه عز وجلّ .

ومهما عرف المعاني الثلاثة في فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنًا إلا إلىٰ نفسه ؛ إما ببذل ماله إظهاراً لحب اللَّه تعالىٰ ، أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل ، أوشكرًا علىٰ نعمة المال طلبًا للمزيد ، وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتىٰ يرَ نفسه محسنًا إليه ، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأىٰ نفسه محسنًا إليه تفرّع منه علىٰ ظاهره ما ذُكر في معنىٰ المنّ وهو : التحدثّ به ، وإظهاره ، وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور ؛ فهذه كلها ثمرات المنة ، ومعنىٰ المنّة في الباطن ما ذكرناه .

وأما الأذىٰ : فظاهره التوبيخ والتعيير ، وتخشين الكلام ، وتقطيب الوجه ، وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه ـ وهو منبعه ـ أمران :

أحدهما : كراهيته لرفع اليد عن المال وشدّة علىٰ نفسه ، فإن ذلك يضيّق الخلق لا محالة .

والثاني : رؤيته أنه خير من الفقير ، وأن الفقير لسبب حاجته أخسّ منه وكلاهما منشؤه الجهل .

أما كراهية تسليم المال فهو حمق لأنّ من كره بذل درهم في مقابل ما يساوي ألفًا فهو شديد الحمق ، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا اللَّه عز وجلّ والثواب في الدار الآخرة ، وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرًا لطلب المزيد ، وكيفما فرض فالكراهة لا وجه لها .

وأما الثاني : فهو أيضا جهل لأنه لو عرف فضل الفقر علىٰ الغنىٰ

وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير . . .

• فإنْ قلتَ : فرؤيته نفسه في درجة المحسن أمر غامض ، فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنًا ؟ فاعلم أنّ له علامة دقيقة واضحة ، وهو أن يقدّر أن الفقير لو جنىٰ عليه جناية أو مالأ عدوا له عليه مثلاً ، هل كان يزيد استنكاره واستبعاده له علىٰ استنكاره قبل التصدّق ؟ فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنّة لأنه توقّع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك .

• فإنْ قلت : فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فما دواؤه ؟ فاعلم أن له دواءً باطنًا ودواءً ظاهرًا .

• أما الباطن : فالمعرفة بالحقائق التي ذكرناها في فهم الوجوب ، وأن الفقير هو المحسن إليه في تطهيره بالقبول .

• وأما الظاهر : فالأعمال التي يتعاطاها متقلّد المنّة ، فإن الأفعال التي تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق ، ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير ويتمثل قائمًا بين يديه يسأله قبولها حتىٰ يكون في صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لوْ ردّه .

وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفّه وتكون يد الفقير هي العليا . .

وكانت عائشة وأم سلمة ـ رضي اللَّه عنهما ـ إذا أرسلتا معروفًا إلىٰ فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعو به ثم كانتا تردّان عليه مثل قوله ، وتقولان : هذا بذاك حتىٰ تخلص لنا صدقتنا ، فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة ، وكانوا يقابلون الدعاء بمثله ، وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد اللَّه بن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ، وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم .

ولا دواء من حيث الظاهر إلاّ هذه الأعمال الدّالة على التذلل والتواضع وقبول المنّة ، ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها ؛ هذا من حيث العمل ، وذلك من حيث العلم .

«ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل ، وهذه الشريطة - من الصدقات - تجري مجرى الخشوع من الصلوات »[1] .

وللَّه در القائل :

تـراه إذا مـا جئـته متـذلـلاً كـأنـك تَعطيه الذي أنت سـائـلهُ

• قال الفضيل بن عياض : « مَن المعروف أن ترى المنّة لأخيك عليكَ إذا أخذ منكَ شيئًا ؛ لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب ، وأيضًا فإنه خصّك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك » .

• وكان الليث بن سعد يقول : مَن أخذ مني صدقة أو هدية فحقّه عليّ أعظم من حقي عليه ؛ لأنه قبل مني قرباني إلى اللَّه عز وجلّ .

• وقال معاذ النسفي - رحمه اللَّه - : مَنْ لم ير نفسه أحوج إلى ثواب صدقته ، فهو ممن أبطل صدقته بالمنّ ؛ لأنه رأى نفسه على الفقير .

أخي : لا تنهر سائلاً ، فلو عرفت ما يحمله لك من الخير لحملته في فؤادك ، لا على رأسك .

فقد كان سفيان الثوري - رحمه اللَّه - : ينشرح إذا رأى سائلاً على بابه ويقول : مرحبًا بمن جاء يغسل ذنوبي .

• وكان الفضيل بن عياض يقول : يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة ، حتى يضعوها في الميزان بين يدي اللَّه تعالى .

---

(١) « الإحياء » (١/ ٢٥٦-٢٥٧) .

• وكان بكر بن عبد اللَّه المزني يطعم الضيف ثم يكسوه إذا أراد الانصراف ، و يقول : إنّ فضل إجابته إلىٰ طعامي أعظم مما صنعت أنا معه .

قالت أسماء بنت خارجة : ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط ، ولا صنعتُ طعامًا قطّ فدعوت عليه قومًا ، إلاّ كانوا أمنّ عليّ مني عليهم ، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئًا فاستكثرت شيئًا أعطيته إياه .

• وكان سعيد بن العاص : يسمرمع سمّاره إلىٰ أن ينقضي حينٌ من الليل ، فانصرف عنه القوم ليلة ورجل قاعد لم يقم ، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال : حاجَتك يا فتىٰ ؟ فذكر أن عليه ديْنًا أربعة آلاف درهم ، فأمر له بها ، وكان إطفاؤه الشمعة أكثر من عطائه [1] .

• قال سعيد بن العاص : قبّح اللَّه المعروف إنْ لم يكن ابتديء من غير مسألة ، فالمعروف عِوضٌ عن مسألة الرجل إذا بذل وجهه ، فقلبه خائف ،وفرائصه ترتعد ، وجبينه يرشح ، لا يدري أيرجع بنُجح الطلب،أم بسوء المنقلب ، قد إنتُقع لونه ، وذهب دم وجهه ، اللهم إن كانت الدنيا لها عندي حظًا فلا تجعل لي حظًا في الآخرة .

• قال عمرو بن العاص ـ رضي اللَّه عنه ـ: واللَّه لرجل ذكرني ، ينام علىٰ شقة مرة وعلىٰ شقة أخرىٰ ، يراني موضعًا لحاجته ، لأوجبَ عليّ حقًا إذا سألنيها مني إذا قضيتها له .

• وقال عبد العزيز بن مروان : إذا أمكنني الرجل من نفسهِ حتىٰ أضع معروفي عنده ، فيده عندي أعظم من يدي عنده ، وأنشد لابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ :

---

(١) « العقد الفريد » (١/ ٢٩٩ـ ٢٠٠) .

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجعتِ الفتى وأعملَ فكرَ الليلِ والليل عاكرُ
وباكرني في حاجةٍ لم يكن لها سوايَ ولا من نكبة الدهر ناصرُ
فَرَجْتُ بمالي همَّهُ عن خناقه وزايله الهمُّ الطَروقُ المساورُ
وكان له فضلٌ عليّ بظنّه بِي الخيرَ إنيّ للذي ظنّ شاكرُ

رابعـًا : استصغار العطيـّة :-

فإنه إن استعظمها أُعجب بها ، والعُجب من المهلكات وهو محبط للأعمال ، ويقال : إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند اللَّه عز وجلّ ، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند اللَّه عز وجلّ ، وقيل : لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره وتعجيله وستره .

وليس الاستعظام هو المَنّ والأذىٰ ، فإنه لو صرف ماله إلىٰ عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المَنّ والأذىٰ ، بل العُجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ، ودواؤه علم وعمل .

● أما العلم : فهو أن يعلم أن الصدقة قليل من كثير فهو جدير أن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقىٰ إلىٰ الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلىٰ ماذا يصرفه ؟ فالمال للَّه عز وجلّ ، وله المِنّة عليه إذْ أعطاه ووفّقه لبذله فلم يستعظم في حق اللَّه تعالىٰ ما هو عين حق اللَّه سبحانه ؟ وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلىٰ الآخرة وأنه يبذله للثواب فلمَ يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟ .

● وأما العمل : فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن اللَّه عز وجلّ ، فتكون هيئته الانكسار والحياء ، كهيئة من يطالب بردّ وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله للَّه عز وجلّ ، وبذلك جميعه هو الأحب عند اللَّه سبحانه وإنما يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب

بخله ، كما قال اللَّه عز وجلّ : ﴿ فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا ﴾ [١][٢] .

قالوا : أَحْيِ معروفَك بإماتة ذِكْره ، وعظِّمْهُ بالتصغير له .

• قال الربيع : ناول الشافعي إنسان رقعة يقول فيها : إنني بقّال ، رأس مالي درهم ، وقد تزوجت فأعنّي . فقال : يا ربيع ، أعطه ثلاثين ديناراً واعذرني عنه ، فقلت : أصلحك اللَّه ، إن هذا يكفيه عشرة دراهم ، فقال : ويحك ! وما يصنع بثلاثين ؟ أفي كذا ، أم في كذا - يعد ما يصنع في جهازه - أعطه .

خامساً : الإخلاص .. والنيـة الصالحة :-

قد يدرك العبد بالنيّة الصالحة ، ما يحصل للمتصدق بالمال الكثير ، كما جاء في حديث أبي كبشة الأنماري - رضي اللَّه عنه - أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول : « **ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظُلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده اللَّه عز وجلّ عزّا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح اللَّه عليه باب فقر ، وأحدّثكم حديثاً فاحفظوه : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه اللَّه مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربّه ، ويصل فيه رحمه ، ويعمل للَّه فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه اللَّه تعالى علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النّية ، يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء ، وعبد رزقه اللَّه مالا ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعمل للَّه فيه حقاً فهذا بأبخث المنازل ، وعبد لم يرزقه اللَّه مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيّته فوزرهما سواء** »[٣] .

---

(١) « الإحياء » بتصرف (١/ ٢٥٧-٢٥٨) .

(٢) سورة محمد الآية (٣٧) .

(٣) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » ، والترمذي ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٠٢١) ، و« تخريج المشكاة » (٥٢٨٧) .

فقد أدرك صاحب النية الحسنة من الفضل والمنزلة مثل ما أدركه صاحب المال الذي يعرف حق اللَّه فيه ويصل به رحمه .

عن مغيرة قال : إن كان أويس القرني ليتصدق بثيابه حتىٰ يجلس عُريانًا لا يجد ما يروح فيه إلىٰ الجمعة .

وعن أصبغ بن زيد : كان أويس إذا أمسىٰ تصدّق بما في بيته من الفضل من الطعام والشراب ، ثم قال : « اللهم من مات جوعًا فلا تؤاخذني به ، ومَن مات عريًا فلا تؤاخذني به »(1) .

وكان يقول في دعائه : « اللهم إني أعتذر إليك اليوم من كل كبد جائعة وبدن عار ، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلاّ ما في بطني ، وليس لي شيء من الدنيا إلا ما علىٰ ظهري » ، ولم يكن علىٰ ظهره حينذاك إلا خرقة .

سادسًا : أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة :-

- فيُعطيها للأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا تصاحب إلا مؤمنًا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي** »(2) .

وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الزهاد دون غيرهم فقيل له : لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل ، فقال : لا ، هؤلاء قوم هممهم للَّه سبحانه فإذا طرقتهما فاقة تشتت هم أحدهم ، فلأن أرد همة

---

(1) « السير » (٤/ ٣٠) ، و «الحلية » (٢/ ٨٤) ، (٢/ ٨٧) .

(2) حسن : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن حبان ، والحاكم عن أبي سعيد ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٢١٨) .

واحد إلى اللَّه عز وجلّ أحبّ إليّ من أن أعطي ألفًا ممن همته الدنيا ، فذُكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه ، وقال : هذا وليّ من أولياء اللَّه تعالى ، وقال : ما سمعتُ منذ زمان كلامًا أحسن مِنْ هذا ، ثم حُكي أن الرجل اختلّ حاله وهمّ بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالاً ، وقال : اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضرّ مثلك ؛ وكان هذا الرجل بقّالاً لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه .

أعطى الليث بن سعد لمنصور بن عمار شيخ الوعاظ والزهاد ـ لما استمع لوعظه وبكى ـ كيساً فيه ألف دينار ، وقال له : « يا أبا السري خذ هذا إليك، وصن هذا الكلام أن تقف به على أبواب السلاطين ، ولا تمدحنّ أحدًا من المخلوقين بعد مدحتك لرب العالمين ، ولك في كل سنة مثلها ، فقال له منصور : رحمك اللَّه قد أنعم إليّ وأحسن ، قال : لا تردّ عليّ شيئًا أصلِك به ، فقبضتها وخرجت ، قال : لا تبطئ عليّ ، فلما كان في الجمعة الثانيه أتيته فقال لي : اذكر شيئًا ، فأخذت في مجلس لي فتكلمت، فبكى الشيخ وكثر بكاؤه ، فلما أردت أن أقوم قال : انظر ما في ثني الوسادة، فإذا خمسمائة دينار ، فقلت : رحمك اللَّه عهدي بصلتك بالأمس ، قال : لا تردّ عليّ شيئًا أصلِك به ، متى أراك ؟ قلت : الجمعة الداخلة ، قال : كأنك فتّت عضواً من أعضائي ، فلما كانت الجمعة الداخلة أتيته مودّعًا ، فقال لي : خذ في شيء أذكرك به ، فتكلمت فبكى الشيخ وكثر بكاؤه ، ثم قال : يا منصور انظر ما في ثني الوسادة فإذا ثلثمائة دينار قال : أعدها للحج، ثم قال : يا جارية هاتي ثياب إحرام ، إحرام منصور ، فجاءت بإزار فيه أربعون ثوبًا ، فقلت : رحمك اللَّه ! أكتفي بثوبين ، فقال لي : أنت رجل كريم فيصحبك قوم فأعطهم ، وقال للجارية التي تحمل الثياب معه ، وهذه الجارية لك .

وقال منصور بن عمار أيضًا : «دخلت على الليث بن سعد يومًا وعلى رأسه خادم يغمزه ، فخرج ، ثم ضرب الليث بيده إلى مصلاه فاستخرج من تحته كيسًا فيه ألف دينار ثم رمى بها إليّ ، ثم قال : يا أبا السري لا تُعلم بها ابني فتهون عليه »[1] .

وقال عبد اللَّه بن المبارك للفضيل بن عياض : « لولاك وأصحابك ما اتّجرت ، وكان ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم »[2] .

• ويعطيها لأهل العلم وطلبته خاصة ، فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحّت فيه النيّة .

عن حبّان بن موسى قال : عُوتب ابن المبارك فيما يفرّق من المال في البلدان دون بلده ، فقال : إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق طلبوا الحديث ، فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم ، احتاجوا ، فإنْ تركناهم ضاع علمهم ، وإن أعنّاهم بثّوا العلم لأمة محمد ﷺ ، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بثّ العلم . وأعطى الليث بن سعد أسدد بن موسى دنانير ليدفعها إلى بعض أصحاب الحديث ممن يراه مستحقًا لها ، وأعطى مالك ابن أنس وابن لهيعة وكان يصلهم على الدوام .

• ويُعطي الصدقة لمن كان مستترًا مخفيًا حاجته لا يكثر البث والشكوى أو يكون من أهل المروءة ممّن ذهبت نعمته وبقيت عادته ، فهو يعيش في جلباب التجمّل ، قال اللَّه تعالى : ﴿ **يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾[3] أي لا يلحّون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم ، أعزة بصبرهم ، وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل

---

(١) « حلية الأولياء » (٧/ ٣٢٠-٣٢١) .

(٢) « تاريخ بغداد » (١٠/ ١٥٨) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٧٣) .

الدين في كل محلّة ويستكشف عن بواطن أهل الخير والتجمّل ، فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلىٰ المجاهرين بالسؤال .

قال القاضي التنوخي : خرج رجلان من المدينة ، يريدان عبد اللَّه بن عامر بن كُرَيز للوفادة عليه : أحدهما من ولد جابر بن عبد اللَّه الأنصاري ، والآخر من ثقيف ، وكان عبد اللَّه عَاملا بالعراق لعثمان بن عفان ـ رضي اللَّه عنه ـ ، فأقبلا يسيران ، حتىٰ إذا كانا بناحية البصرة قال الأنصاري للثقفي : هل لك في رأي رأيته ؟ قال : اعرضه ، قال : نُنخ رواحلنا ونتوضأ ونصلي ركعتين ، نحمد اللَّه عز وجلّ فيهما علىٰ ما قضىٰ من سفرنا ، قال له : نعم ، هذا الرأي الذي لا يرد ، قال : ففعلا ، ثم التفت الأنصاري إلىٰ الثقفي فقال له : يا أخا ثقيف ، ما رأيك ؟ قال : وأي موضع رأي هذا ؟ قضيت سفري ، وأضنيت بدني ، وأتعبت راحلتي ، ولا مؤمل دون ابن عامر ، فهل لك في رأي غير هذا ؟ قال : نعم ، إنني لمّا صليت فكّرت فاستحييت من ربي أن يراني طالب رزق من عند غيره ، ثم قال : اللهم رازق ابن عامر ارزقني من فضلك ، ثم ولىّ راجعًا إلىٰ المدينة ، ودخل الثقفي إلىٰ البصرة ، فمكث علىٰ باب ابن عامر أيامًا ، فلما أذن له دخل عليه ، وكان قد كُتب إليه من المدينة بخبرهما ، فلما رآه رحّب به وقال : ألم أخبر أن ابن جابر خرج معك ؟ فأخبره ما كان منهما ، فبكىٰ ابن عامر وقال : واللَّه ما قالها أشرًا ولا بطرًا ولكن رأىٰ مجرىٰ الرزق ومخرج النعمة ، فعلم أن اللَّه عز وجلّ هو الذي فعل ذلك فسأله من فضله، ثم أمر للثقفي بأربعة آلاف وكسوة ، وأضعف ذلك للأنصاري ،

فخرج الثقفي وهو يقول :

أُمامةُ ما سَعْيُ الحريصِ بزائدٍ ... فَتيلاً ولا عَجزُ الضعيف بضائرِ
خرجنا جميعاً من مساقطِ روسنا ... على ثقة منا بجُودِ ابن عامرِ
فلمّا أنخنا الناعجات ببابــه ... تأخرّ عني اليثربي ابن جابر
وقال ستكفيني عطيةُ قادرٍ ... على ما يشاء اليوم للخلق قاهرِ
فإن الذي أعطى العراقَ ابن عامر ... لَرَبِّي الذي أرجو لِسَدِّ مفَاقِري
فلما رآني قال أين ابن جابر ... وحنّ كما حنّتْ عرابُ الأباعرِ
فأضعفَ عبدُ اللّه إذْ غابَ حظّه ... على حَظٍّ لهفَان من الحرصِ فاغرِ

ســابعاً : آداب الصدقة تدور حول محور واحد : مصلحة المسكيِن :ـ

يقول الشيخ عطية محمد سالم : « إن لكل عبادة آدابها الخاصة بها والتي تتلاءم مع مشروعيتها وتأديتها الغرض منها ، ولو تأملتها لوجدتها في كل عبادة كالجزء المتمم لها .

وآداب الصدقة تدور حول محور واحد : مصلحة المسكين . أي كما أن الصدقة إرفاق بالمساكين ، فكذلك آدابها متممة لهذا الإرفاق ، ومكملة ومجملة له ، فمنها الآتي :

• ما ينص على أن ما ينافي الإرفاق بالمسكين يتنافى مع مشروعية الصدقة تماماً بل يبطلها ، كما في قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ (١) .

• ومنها امتداح الذين يحاذرون إيذاء الفقراء بشيء من ذلك في قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٦٤) .
(٢) سورة البقرة الآية (٢٦٢) .

• ومنها جعل كلمة معروف بدون بذل المال خير من صدقة يتبعها أذىٰ كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى** ﴾ [١] .

إن أهم ما يحرص عليه الإسلام مع الفقير والمسكين لَهُوَ حِفْظُ كرامته وعزة نفسه ، ألا ترىٰ في الزكاة المفروضة والتي هي حق له في مال الغني أعفاه من كلفة المطالبة بها ، وجعل ذلك علىٰ رسول اللَّه ﷺ : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً** ﴾ [٢] ، ومعلوم أنه لن يأخذها لنفسه ولا لأهل بيته ، وإنما هي كما قال تعالىٰ : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ..... ﴾ الآية فإذا كان في الفرض الواجب له ، فما بالك بالمندوبة والتطوع ؟ ولهذا كان في الحديث « **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما أنفقت شماله** » . أي يخفيها حتىٰ علىٰ بعض جوارحه ، فعلىٰ إخوانه وأولاده من باب أولىٰ ، ثم علىٰ بقيّة الناس أولىٰ وأحرىٰ [٣] .

ثامناً : بيان إخفاء الصدقة وإظهارها :ـ

قال الشيخ عطية سالم :

قال تعالىٰ : ﴿ **إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ [٤] .

فالنص في عمومه يعطيك الخير بين إبدائها وإخفائها ، ولكن مع الإخفاء قيد إتيانها الفقراء .

قال بعض العلماء : إبداؤها راجع للفريضة لإظهار شعائر الإسلام وليتأسىٰ به الآخرون وإخفاؤها راجع لصدقة التطوع ، ولأن الفرض

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٦٣) .
(٢) سورة التوبة الآية (١٠٣) .
(٣) « في ظلال عرش الرحمن » (١٧٤ ـ ١٧٦) .
(٤) سورة البقرة الآية (٢٧١) .

واجب فلا منة له فيه .

والذي يظهر لي والعلم عند اللّه : أن إبداءها جاء مطلقًا عن قيد الجهة ، وإخفاؤها جاء مقيداً بصنف وهم الفقراء .

وعليه نقول : سواء كانت الصدقة فرضًا أو تطوعًا نظرنا إلىٰ مصرفها فإن كان عامًا لا يختص بإنسان بعينه كالجهاد ،و لبيت المال لغارم أو منقطع ، فلا مانع من إبدائها .

• وإذا كانت لإنسان بعينه ، وشخص بذاته ، فإن إخفائها وإيتاءها إليه خفية حتىٰ ولو علىٰ نفسه هو ، كأن يضعها في جيبه وهو لا يشعر بمن وضعها ولا متىٰ وضعها حفاظًا علىٰ شعوره ونفسه .

فهو الذي يتم معه قوله تعالىٰ : ﴿ **فهو خير لكم** ﴾ ، سواء المعطي لبعده عن الرياء أو الغرور أو محبة وانتظار الثناء من الآخذ ، بل يقطع علىٰ نفسه كل طرق التعلق بغير إرادة وجه اللّه تعالىٰ ، وهو الذي أحق بالوصف بعد ﴿ **ويكفر عنكم من سيئاتكم** ﴾ ، ويأتي التذييل ليوقظ ضميره إيقاظًا تامًا ﴿ **واللّه بما تعملون خبير** ﴾ ، بأعمالكم وبما أردتم وكيف عملتم .

• قال الغزالي ـ رحمه اللّه ـ : « قد اختلف طريق طلاب الإخلاص في ذلك ، فمال قوم إلىٰ أن الإخفاء أفضل ، ومال قوم إلىٰ أن الإظهار أفضل ، ونحن نشير إلىٰ ما في كل واحد من المعاني والآفات ، ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

• أما الإخفاء ففيه معان :

الأول : أنه أبقىٰ للستر علىٰ الآخذ ، فإن أخذه ظاهراً هتك لستر المروءة، وكشف عن الحاجة ، وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف .

الثانـي : أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم ، فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء ، أو ينسبونه إلىٰ أخذ زيادة ، والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر ، وصيانتهم عن هذه الجرائم أولىٰ ، قال أيوب السختياني : إني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسداً ، وعن إبراهيم التيمي : أنه رؤي عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه : مِنْ أين لك هذا ؟ فقال : كسانيه أخي خيثمة ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته .

الثالـث : إعانة المعطي علىٰ إسرار العمل ، فإن فضل السر علىٰ الجهر في الإعطاء أكثر والإعانة علىٰ إتمام المعروف معروف ، والكتمان لا يتم إلا باثنين ، فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطي . ودفع رجل إلىٰ بعض العلماء شيئًا ظاهراً فردّه إليه ، ودفع إليه آخر شيئًا في السرّ فقبله ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن هذا عمل الأدب في إخفاء معروفه فقبلته ، وذاك أساء أدبه في عمله فرددته عليه ، وقال الثوري : لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدّث بها لقبلت صدقته .

الرابـع : إن في إظهار الأخذ ذلاً وامتهانًا وليس للمؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ في السر ولا يأخذ في العلانية ويقول : إنّ في إظهاره إذلالاً للعلم وامتهانًا لأهله فما كنتُ بالذي أرفع شيئًا من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله .

• **أما الإظهار والتحدث بـه** [1] ففيه معان :

الأول : الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبيس الحال والمراءاة .

والثاني : إسقاط الجاه والمنزلة ، وإظهار العبودية والمسكنة ، والتبري

---

(١) بالنسبة لقابض الصدقة .

عن الكبرياء ، ودعوى الاستغناء ، وإسقاط النفس من أعين الخلق .

والثالث : هو أن العارف لا نظر له إلا إلى اللَّه عزوجلّ ، والسر والعلانية في حقه واحد ، والالتفات إلى الخلق حضروا أم غابوا نقصان في الحال ، بل ينبغي أن يكون النظر مقصوراً على الواحد الفرد .

الرابع : أن الإظهار إقامة لسنة الشكر ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [1] ، وأعطى رجل بعض الصالحين شيئًا في السر فرفع به يده وقال : هذا من الدنيا والعلانية فيها أفضل والسر في أمور الآخرة أفضل . .

فالآن إذا عرفت هذه المعاني فاعلم أن ما نُقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافًا في المسألة بل هو اختلاف حال ، فكشف الغطاء في هذا أنا لا نحكم حُكْمًا بتّا بأن الإخفاء أفضل في كل حال أو الإظهار أفضل بل يختلف ذلك باختلاف النّيات ، وتختلف النّيات باختلاف الأحوال والأشخاص ، فينبغي أن يكون المخلص مراقبًا لنفسه حتى لا يتدلى بحبل الغرور ولا ينخدع بتلبيس الطمع ومكر الشيطان .

قال يوسف بن أسباط : إذا أوليتك معروفًا كنت أسرّ به منك ، ورأيت ذلك نعمة من اللَّه عز وجلّ عليّ فاشكر وإلا فلا تشكر .

قال الغزالي : « قد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطي ، فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى ، وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطي ، وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم ، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطي ، وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه ، كل ذلك توصلاً إلى إطفاء غضب الرب واحترازاً من الرياء والسمعة ، ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين ، والمسكين لا يعرف أولى ؛ إذ في معرفة المسكين الرياء

---

(١) سورة الضحى الآية (١١) .

والمنّة جميعًا ، وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء » .

وقال الغزالي عن إبـداء الصدقـة : « أن يظهـر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيبًا للناس في الاقتداء ويحرس سرّه من داعية الرياء ، وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار ، بل ينبغي أن يتصدق ويحفظ سرّه عن الرياء بقدر الإمكان ، وهذا لأن في الإظهار محذوراً ثالثًا سوىٰ المنّ والرياء وهو هتك ستر الفقير » .

ورقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعي قلبه ، فإن أعمال الجوارح مع إهمال هذه الرقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع ، ومثل هذا العلم هو الذي يُقال فيه : إن تعلّم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة ، إذ بهذا العلم تحيا عبادة العمل ، وبالجهل به تموت عبادة العمل كله وتتعطل ، فلا ينبغي أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة بحيث يستوي السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يُتحدث به ولا يرىٰ .

قال عبد العزيز بن أبي روّاد : كان يُقال ثلاثة من كنوز الجنة : « كتمان المرض ، وكتمان الصدقة ، وكتمان المصائب » .

وقال ابن أبي الجعد : إن الصدقة لتدفع سبعين بابًا من السوء ، وفضل سرها علىٰ علانيتها بسبعين ضعفًا .

وقال عمر بن عبد العزيز : الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه .

وقال يحيىٰ بن معاذ : ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبّة من الصدقة .

● وقال عُبيد بن عمير : يحشر الناس يوم القيامة أجـوع ما كانوا قـط ،

وأعطش ما كانوا قط ، وأعرىٰ ما كانوا قط ، فمن أطعم للّه عز وجلّ أشبعه اللّه ، ومن سقىٰ للّه عز وجلّ سقاه اللّه ، ومن كسا للّه عز وجلّ كساه اللّه .

وقال الشعبي : « من لم يَر نفسه إلىٰ ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلىٰ صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه »(١) .

جبال النور والبـــر :ـ

عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّهﷺ : « **ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر** » فبكىٰ أبو بكر وقال : هل أنا ومالي إلا لك يا رسول اللّه ؟ (٢) .

● وقال عمر بن الخطاب : أمرنا رسول اللّه ﷺ يومًا أن نتصدّق فوافق ذلك مالاً عندي فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقتُه يومًا ، فجئت بنصف مالي ، فقال رسول اللّه ﷺ : «**ما أبقيت لأهلك ؟** » فقلت : مثله ، قال : وأتىٰ أبو بكر بكل ما عنده ، فقال له رسول اللّه ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك ؟** » قال : أبقيت لهم اللّه ورسوله ، قلت : لا أسابقك إلىٰ شيء أبدًا »(٣) .

زين العابدين بـــن الحســين ـ رضى اللّه عنهما ـ :

قال عنه أبو حمزة الثمالي : كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز علىٰ ظهره بالليل ، فيتصدّق به ،ويقول : إن صدقة السرّ تطفئ غضب الرب عز وجلّ .

---

(١) « إحياء علوم الدين » بتصرف (١/ ٢٦٨ـ ٢٧١ ، ٢٦٧) .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجه وأحمد ، وابن أبي عاصم في « السنة » ، وابن حبان ، وابن أبي شيبة في «المصنف» ، والنسائي في « فضائل الصحابة » .

(٣) حسن : أخرجه الترمذي والدارمي وابن أبي عاصم وعبد بن حُميد فى « المنتخب » .

وعن شيبة بن نعامة : كان علي بن الحسين يُبَخّل ، فلما مات وجدوه يقوّت مائة أهل بيت بالمدينة .

قال جرير : إنه حين مات وجدوا بظهره آثاراً مما كان يحمل بالليل الجرب إلى المساكين .

وقال عمرو بن ثابت : لما مات علي بن الحسين فغسّلوه ؛ جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره ، فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جرب الدقيق ليلاً على ظهره ، يعطيه فقراء أهل المدينة .

وعن محمد بن إسحاق : كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يُؤتون به في الليل .

وعن ابن عائشة قال : قال أبي : سمعت أهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السرّ حتى مات علي بن الحسين [١] .

شيخ الإسلام ابن المبارك من الكرماء الأخفياء :-

قال عنه محمد بن عيسى : كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس ، وكان ينزل الرقّة في خان ، فكان شاب يختلف إليه ، ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث ، فقدم عبد اللّه مرّة فلم يره ، فخرج في النفير مستعجلاً ، فلما رجع سأل عن الشاب ، فقال : محبوس على عشرة آلاف درهم ، فاستدل على الغريم ، ووزن له عشرة آلاف ، وحلّفه ألا يخبر أحداً ما عاش ، فأُخرج الرجل ، وسرى ابن المبارك ، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرّقة ، فقال له : يا فتى ، أين كنت ، لم أرك ؟ قال : يا أبا عبد الرحمن ، كنت محبوساً بديْن ، قال : وكيف خلصت ؟ قال :

---

(١) « حلية الأولياء » (٣/ ١٣٥-١٣٦) .

جـاء رجل فقضـى دَيْنـي ولم أدر ، قال : فاحمـد اللَّه ، ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد اللَّه (١) .

عبد الرحمن بن الحارث فقيه الآخرة :-

ورث عبد الرحمن بن الحارث خمسين ألفًا ، فبعث بها سرًّا إلى إخوانه وقال : قد كنتُ أسأل لهم الجنة في صلاتي ، فأبخل عليهم بالدنيا ! !

وللَّه در الإمام الرباني شيخ خراسان أبي حفص النيسابوري حيث يقـول : « ما استحق اسم السخاء مَن ذكر العطاء أو لمحه بقلبه » .

جـابـر عثرات الكرام : عكرمة الفيّاض الرّبعي :-

قال أبو القاسم التنوخي :

كان في أيام سليمان بن عبد الملك رجل يُقال له : خزيمة بن بشر ، من بني أسد بالرّقة ، وكان له مروءة ونعمة حسنة ، وفضل وبّر بالإخوان ، فلم يزل على تلك الحال حتى احتاج إلى إخوانه الذين كان يتفضّل عليهم ، فواسَوْه حينًا ثم ملّوه ، فلما لاح تغيرهم أتى امرأته - وكانت ابنة عمه - فقال لها : يا ابنة عمي ، قد رأيت من إخواني تغيراً ، وقد عزمت على لزوم بيتي إلى أن يأتيني الموت ، ثم إنه أغلق بابه ، وأقام يتقوّت حتى نفد ، وبقي حائرًا في حاله ، وكان عكرمة الفياض الربعي واليًا على الجزيرة ، فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أهل البلد ، إذْ جرى ذكر خزيمة بن بشر في مجلسه ، فقال عكرمة : ما حاله ؟ فقالوا : صار من سوء الحال إلى أمر لا يوصف ، فأغلق بابه ولزم بيته ، فقال الفيّاض : فما وجد خزيمة بن بشر مواسيًا ولا مكافئًا؟ ! قالوا : لا ، فأمسك ، ثم لما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار ، فجعلها في كيس واحد ، ثم أمر بإسراج دابته ، وخرج سراً

(١) « تاريخ بغداد » (١٠/ ١٥٩) .

من أهله ، فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال ، ثم سار حتىٰ وقف بباب خزيمة ، ثم أخذ الكيس من الغلام ، ثم أبعده عنه ، وتقدّم فدفعه بنفسه ، فخرج إليه خزيمة ، فناوله الكيس ، وقال : أصلح بهذا شأنك ، فتناوله ، فرآه ثقيلاً ، فوضعه ، ثم أمسك بلجام الدابة ، وقال له : مَن أنت جُعلت فداك ؟ فقال : يا هذا ؛ ما جئتك في هذه الساعة وأنا أريد أن تعرفني ، قال خزيمة : فما أقبله أوْ تعرّفني مَن أنت ، قال : أنا جابر عثرات الكرام ، قال زدني ، قال : لا مزيد . ثم مضىٰ ، ودخل خزيمة بالكيس إلىٰ امرأته فقال لها : أبشري فقد أتىٰ اللَّه بالفرج والخير ، ولو كان هذا فلوسًا فهو كثير ، قومي فأسرجي ، قالت : لا سبيل إلىٰ السراج ، فبات يلمسها فيجد خشونة الدنانير ولا يصدّق ، فرجع عكرمة إلىٰ منزله فوجد امرأته قد افتقدته وسألت عنه ، فأُخبرت بركوبه منفردًا ، فارتابت فشقت جيبها ولطمت خدّها ، فلما رآها علىٰ تلك الحال قال لها : ما دهاك ؟ قالت : يا ابن عمي ، غدرت ؟ قال : وما ذاك ؟ قالت : أمير الجزيرة يخرج بعد هدوء من الليل منفردًا عن غلمانه ، في سرّ من أهله إلاّ إلىٰ زوجة أو سرِّية ؟ قال : لقد علم اللَّه ما خرجت إلىٰ واحدة منهما ، قالت : فخبرّني فيم خرجت ؟ قال : يا هذه ، لم أخرج في هذا الوقت ، وأنا أريد أن يعلم بي أحد ، قالت : لا بدّ أن تخبرني بالقصة ، قال : فاكتميه إذاً ، قالت : أفعل ، فأخبرها بالقصة علىٰ وجهها ، وما كان من قوله له ورده عليه ، ثم قال لها : أتحبين أن أحلف لك ؟ قالت : لا ، فإن قلبي قد سكن إلىٰ ما ذكرت ، فلما أصبح خزيمة صالح الغرماء ، وأصلح حاله ، ثم تجهّز يريد سليمان بن عبد الملك بفلسطين ، فلما وقف ببابه دخل الحاجب فأخبره بمكانه ـ وكان مشهور المروءة ، وكان سليمان به عارفًا فأذن له ، فلما دخل عليه وسلّم بالخلافة ، قال : يا خزيمة ، ما أبطأك عنّا ؟ قال : سوء الحال ،

قال : فما منعك من النهضة إلينا ؟ قال : ضعفي ، قال : فبم نهضت؟ قال : لم أعلم بعد هدوء من الليل إلا ورجل طرق بابي ، فكان منه كيْت وكيْت ، وأخبره بقصته من أولها إلىٰ آخرها ، فقال له : هل تعرفه ؟ قال : ما عرفته يا أمير المؤمنين ، وذلك أنه كان متنكّرًا ، وما سمعت منه إلا : «جابر عثرات الكرام » فتلهف سليمان علىٰ معرفته ، وقال : لو عرفناه لأعنّاه علىٰ مروءته ، ثم قال : علي بقناة ، فعقد لخزيمة الولاية علىٰ الجزيرة التي علىٰ عمل عكرمة الفياض ، فخرج خزيمة طالبًا الجزيرة ، فلما وصل إليها خرج عكرمة وأهل بلده للقائه فسلّم عليه ، ثم صارًا جميعًا إلىٰ أن دخلا جميعًا ، فنزل خزيمة دار الإمارة ، وأمر أن يُؤخذ عكرمة بكفيل وأن يُحاسب ، فحوسب فوجد عليه فضول كثيرة ، فطالبه بأدائها ، قال : مالي إلىٰ شيء منها سبيل ، فنزل خزيمة دار الإمارة . قال : لا بد منها . قال : ماهي عندي ، فاصنع ما أنت صانع ، فأمر به إلىٰ الحبس ، ثم بعث إليه يطالبه ، فأرسل إليه : لست ممن يصون ماله بعرضه ، فاصنع ما شئت ، فأمر به فكبِّل بالحديد وضُيِّق عليه وأقام كذلك شهرًا أو أكثر ، فأضناه ذلك وأضرّ به ، وبلغ ابنة عمه ضرّه ، فجزعت واغتمت لذلك ، ثم دعتْ مولاةً لها ذات عقل ، فقالت : امضي الساعة إلىٰ باب هذا الأمير خزيمة بن بشر ، فإذا دخلتِ عليه ، فسليه أن يخليك ، فإذا فعل فقولي له : ما كان هذا جزاء « جابر عثرات الكرام » منك أن كافأته بالحبس والضيق والحديد ، ففعلت ذلك ، فلما سمع خزيمة قولها قال : واسوءتاه وإنه لهو ؟ قالت : نعم ، فأمر من وقته بدابته فأسرجت ، وبعث إلىٰ وجوه أهل البلد فجمعهم وأتىٰ بهم إلىٰ الحبس ففتح ، ودخل خزيمة ومَنْ معه ، فلقي عكرمة في قاعة الحبس متغيّرًا قد أضناه الضرّ ، فلما نظر إليه عكرمة وإلىٰ الناس أحشمه ذلك فنكّس رأسه إليه وقال : ما أعقب هذا منك ؟ قال : كريم

فعالك وسوء مكافأتي ، قال : يغفر اللَّه لنا ولك ، ثم أمر بالحديد ففكّ القيد عنه ، وأمر خزيمة بوضعه في رجله نفسه ، فقال عكرمة : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن ينالني من الضرّ مثل ما نالك ، فقال : أقسم عليك باللَّه ألاّ تفعل ، فخرجا جميعًا إلىٰ أن وصلا دار خزيمة ، فودّعه عكرمة وأراد الانصراف ، فقال له : ما أنت ببارح ، قال : فماذا تريد ؟ قال : أغيّر من حالك ما رث ، وحيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك ، ثم أمر بالحمام فأخلي فدخلا جميعًا ، ثم قام خزيمة فتولىٰ خدمته بنفسه ، ثم خرجا فخلع عليه فجمّله ، فحمل إليه مالاً كثيرًا ، ثم سار معه إلىٰ داره فاستأذن في الاعتذار من ابنة عمه فأذن له ، فاعتذر إليها ، وتذمم من ذلك ، ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلىٰ أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ مقيم بالرملة فدخل الحاجب فأعلمه بقدوم خزيمة بن بشر ، فراعه ذلك ، وقال : والي الجزيرة يقدم بغير أمرنا ؟ ما هذا إلا لحادث عظيم ، فلما دخل عليه قال له قبل أن يسلّم عليه : ما وراءك يا خزيمة ؟ قال : خير يا أمير المؤمنين . قال : فما الذي أقدمك ؟ قال : ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسَرّك لما رأيت من تلهّفك عليه وتشوّقك إلىٰ رؤيته ، قال : ومَنْ هو ؟ قال : عكرمة الفيّاض ، فأذن له بالدخول ، فدخل وسلمّ عليه بالخلافة ، فرحبّ به ، وأدناه من مجلسه ، فقال له : يا عكرمة ما كان خيرك لخزيمة إلا وبالاً عليك ، ثم قال له : اكتب حوائجك كلها وما تختاره في رقعة ، قال: أو تعفيني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا بد من ذلك ، ثم دعا بدواة وقرطاس وقال: اعتزل واكتب جميع حوائجك ، ففعل ذلك ، فأمر بقضائها جميعًا من ساعته ، وأمر له بعشرة آلاف دينار ، وبسفطيْن ثيابًا ، ثم دعا بقناة ، وعقد له علىٰ الجزيرة وأرمينية وأذريجَان ، وقال له : أمر خزيمة إليك ، إن شئت أبقيته ، وإن شئت عزلته . قال : بل أرده إلىٰ عمله ، ثم انصرفا

جميعًا ، ولم يزالا عاملَيْن لسليمان بن عبد الملك مدة خلافته [١] .

شمس الدين بن المنيِّر وإخفاؤه للصدقة :ـ

هو الإمام العالم العامل الزاهد شمس الدين بن المنير البعلي الشافعي .

قال عنه نجم الدين الغزي : « كان يجلس في حانوته ببعلبك ، وفي كل يوم يضع من كسبه من الدنانير والدراهم والفلوس في أوراق ملفوفة ، ويضع الأوراق في مكان عنده ، وإذا وقف عليه الفقراء أعطاهم من تلك الأوراق ما يخرج من يده لا ينظر في الورقة المدفوعة ولا في الفقير المدفوع إليه » [٢] .

شيخ الإسلام زكريا الأنصاري واعتقاد الناس قلة صدقته لخفائها :ـ

قال عنه صاحب « الكواكب السائرة » : « كان ـ رضي اللَّه عنه ـ كثير الصدقة مع إخفائها ، وكان له جماعة يرتب لهم من صدقته ما يكفيهم إلىٰ يوم ، وإلىٰ جمعة ، وإلىٰ شهر ، وكان يبالغ في إخفاء ذلك ، حتىٰ كان غالب الناس يعتقدون في الشيخ قلة الصدقة ، وكان إذا جاءه سائل بعد أن كفّ بصره يقول لمن عنده من جماعته : هل هنا أحد ؟ فإن قال له : لا ، أعطاه ، وإن قال له : نعم ، قال له : قل له يأتينا في غير هذا الوقت »[٣] .

تعرّف إلى اللَّه في الرخاء يعرفك في الشدة :ـ

قال الشيخ عطية سالم : « أخبرني الشيخ عبد الحميد عباس ـ وهو رجل فاضل لا يتهم علىٰ خبر قال : وقع لامرأة من جماعة النخاولة كانت تسير في طريق بضواحي قباء فانخسف تحتها « دبل » وهو مجرىٰ الماء في

---

(١) « المستجاد من فعلات الأجواد » لأبي القاسم التنوخي (ص١٨ ـ ٢٢) .
(٢) « الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزيّ (٢/ ٣٩ ـ ٤٠) .
(٣) « الكواكب السائرة » (١/ ١٩٦ ـ ٢٠٧) .

قناة تحت الأرض ، فسقطت ، وسحبها الماء إلىٰ جانبه ، وأمسكت بحجر وجلست عليه ، ومكثت أربعة أيام ، ومرّ شخص في ذلك المكان ، فسمع صوتًا فنزل وأخرجها ، ثم سألها أهلها كيف كنت تعيشين ؟ فقالت : إن « طاسة » الحليب التي كنتُ أعطيها للعجائزة كانت تأتيني كل يوم ، وكانت هذه المرأة عندها غنم ، ولها جيران نسوة عجائز ، فكانت تعطيهم « طاسة حليب » من غنمها »[١] .

قصة أغـرب من الخيال في جزاء الإنفاق والصدقة :ـ

قال الإمام الشوكاني في كتابه « البدر الطالع » : ـ

« قال صاحب « مطلع البدور » وهو الذي حكىٰ صفة الكتاب الواصل إلىٰ الإمام المطهر من الفقيه محمد بن الأصم : أنه اتفقت في زمن الإمام المذكور قصة عجيبة ونكتة غريبة في بلد تُسمىٰ « الحمرة » وذلك أنه كان فيها رجل من « الزرعة » وكان ذا دين وصدقة ، واتفق أنه بنىٰ مسجداً يصلي فيه ، وجعل يأتي ذلك المسجد كل ليلة بالسراج ، وبعشائه ، فإن وجد في المسجد من يتصدق عليه أعطاه ذلك العشاء وإلا أكله وصلىٰ صلاته ، واستمر علىٰ ذلك الحال ، ثم إنها اتفقت شدة ونضب ماء الآبار ، وكانت له بئر ، فلما قلّ ماؤها أخذ يحتفرها هو وأولاده ، فخربت تلك البئر والرجل فىٰ أسفلها خرابًا عظيمًا حتىٰ أنه سقط ما حولها من الأرض إليها ، فأيس منه أولاده ولم يحفروا له وقالوا : قد صار هذا قبره ، وكان ذلك الرجل عند خراب البئر في كهف فيها ، فوقعت إلىٰ بابه خشبة منعت الحجارة من أن تصيبه ، فأقام في ظلمة عظيمة ، ثم إنه بعد ذلك جاءه السراج الذي كان يحمله إلىٰ المسجد ، وذلك الطعام الذي كان يحمله كل ليلة وكان به يفرّق

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٨٩) .

ما بين الليل والنهار ، واستمرّ له ذلك مدة ست سنين والرجل مقيم في ذلك المكان على تلك الحال ، ثم إنه بدا لأولاده أن يحفروا البئر لإعادة عمارتها ، فحفروها حتى انتهوا إلى أسفلها ، فوجدوا أباهم حيًّا فسألوه عن حاله ، فقال لهم : السراج والطعام الذي كنت أحمل إلى المسجد يأتيني على ما كنت أحمله تلك المدة !!

فعجبوا من ذلك ، فصارت قضية موعظة يتعظ بها الناس في أسواق تلك البلدة »[(١)] .

ملوحظة : في الحديث قوله : « **حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه** » قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ١٧١) : « هكذا وقع في معظم الروايات في البخاري وغيره ، ووقع في « صحيح مسلم » مقلوبًا : « **حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله** » . قال عياض : هكذا في جميع النسخ التي وصلت إلينا من «صحيح مسلم» وهو مقلوب أو الصواب الأول وهو وجه الكلام لأن السنة المعهودة في الصدقة إعطاؤها باليمين ، وقد ترجم عليه البخاري في الزكاة «باب الصدقة باليمين» . قال : ويشبه أن يكون الوهم فيه ممن دون مسلم . . . انتهى . . وليس الوهم فيه ممن دون مسلم ولا منه بل هو من شيخه أو شيخ شيخه يحيي القطان .

* * *

(١) « البدر الطالع » للشوكاني (١/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣) .

رجل ذكر الله خاليًا

ففاضت عيناه

رجل ذكر الله خاليًا

ففاضت عيناه

• الذكر منشور الولاية ، الذي من أُعطيه اتّصل ،ومَن منعه عُزل ، وهو قوت قلوب القوم،الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً ، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً .

• وهو منزل القوم الذي منه يتزوّدون ، وفيه يتّجرون،وإليه دائمًا يترددون ، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطّاع الطريق ، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق،ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب،والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علاّم الغيوب .

إذا مرضنا تداوينا بذكركـــمُ ونتــــركُ الذكرَ أحيانًا فننتــكسُ

• به يستدفعون الآفات ،ويستكشفون الكربات ،وتهون عليهم به المصيبات .

إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم ،وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلّبون ،ورءوس أموال سعادتهم التي بها يتّجرون ،يدع القلب الحزين ضاحكًا مسروراً ، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً .

• وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة ، و« الذكر » عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة ، بل هم يُؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال؛ قيامًا وقعوداً وعلى جنوبهم ، فكما أن الجنة قيعان ، وهو غراسها ، فكذلك القلوب بور خراب ، وهوعمارتها وأساسها .

• وهو جلاء القلوب وصقالها ، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها ، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ، ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقًا .

وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه ، نسي في جنب ذكره كل شيء ، وحفظ اللَّه عليه كل شيء ، وكان له عوضًا من كل شيء .

• به يزول الوقر عن الأسماع ، والبكم عن الألسن ، وتنقشع الظلمة عن الأبصار ، زيَّن اللَّه به ألسنة الذاكرين ، كما زيّن بالنور أبصار الناظرين .

• وهو باب اللَّه الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ، مالم يغلقه العبد بغفلته .

قال الحسن البصري ـ رحمه اللَّه ـ : تفقّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، وفي الذكر ، وقراءة القرآن ، فإن وجدتم . . . وإلا فاعلموا أن الباب مغلق .

• ما عرف قدر جلاله من فتر لحظة عن ذكره .

قال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذكره ، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته

إليك وإلاَّ لا تُشَدُّ الركائبُ ومنك وإلا فالمؤمَّل خائبُ

وفيك وإلا فالغرام مُضيَّعٌ وعنك وإلا فالمحدِّث كاذب

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [(١)] .

قال ابن عباس : « إن اللَّه لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان (٤١ ـ ٤٢) .

حداً معلوماً ، ثم عذر أهلها في حال عذر ، غير الذكر ، فإن اللّه لم يجعل له حداً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله ، فقال : ﴿ **فاذكروا اللّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم** ﴾ ، وبالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، و السرّ والعلانية ، وعلى كل حال ، وقال : ﴿ **وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته »[١] .

• وقال تعالى : ﴿ **واذكروا اللّه كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾[٢] .

• قال رسول اللّه ﷺ : « **أحب الأعمال إلى اللّه أن تموت ولسانك رطب من ذكر اللّه** »[٣] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **سبق المفرِّدون** »[٤] قالوا : وما المفردون يارسول اللّه ؟ قال : الذاكرون اللّه كثيراً والذاكرات »[٥] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **إن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر اللّه وما والاه وعالماً أو متعلماً** »[٦] .

---

(١) « تفسير الطبري » (٢٢/ ١٣) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٣٥) .

(٣) حسن : رواه ابن حبان وابن السني في « عمل اليوم والليلة » والطبراني في «الكبير » والبيهقي في « شعب الإيمان » عن معاذ ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (١٦٥) .

(٤) المفردون : الذين ذهب القرن الذي كانوا فيه ، وبقوا هم يذكرون اللّه . قال ابن الأعرابي : فرّد الرجل إذا تفقّه ، واعتزل الناس وخلا بمراعاة الأمر والنهي .

(٥) رواه مسلم والترمذي .

(٦) حسن : رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ،وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٦٠٩) .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **إذا استيقظ الرجل من الليل ، وأيقظ أهله وصليا ركعتين كُتبا من الذاكرين اللّه كثيراً والذاكرات** »(١) .

• وقال ﷺ : « **أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر ؛ فإن استطعت أن تكون ممن يذكر اللّه في تلك الساعة فكن** »(٢) .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **أوصيك بتقوى اللّه تعالى ، فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر اللّه تعالى ، وتلاوة القرآن ، فإنه روحك في السماء ، وذكرك في الأرض** »(٣) .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق اللّه إلا سبّح اللّه بحمده ، إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم** »(٤) .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **مثل البيت الذى يُذكر اللّه فيه ، والبيت الذي لا يذكر اللّه فيه مثل الحي والميت** »(٥) .

• وفي حديث يحيىٰ بن زكريا « ... **وأمركم بذكر اللّه كثيراً ، ومَثَل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره ، فأتى حصنًا حصينًا فأحرز نفسه فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر اللّه تعالى** » .

• وعن عطاء بن يسار قال : سمعت أبا هريرة - رضي اللّه عنه - عن

---

(١) صحيح : رواه أبو داود والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة وأبي سعيد معًا ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٣٣) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن عمرو بن عبسة ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١١٧٣) .

(٣) حسن : رواه أحمد عن أبي سعيد ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٥٤٣) روحك أي راحتك .

(٤) حسن : رواه ابن السني ، وأبو نعيم في الحلية عن عمرو بن عبسة ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٥٩٩) .

(٥) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى .

النبي ﷺ قال : « **ثلاثة لا يردّ دعاؤهم : الذاكر الله كثيراً ، ودعوة المظلوم ، والإمام المقسط** »[١] .

● وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا « **ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأرفعها في درجاتكم ، وأزكاها عند مليككم ، وخير لكم من إعطاء الوَرِق والذهب ، وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم** ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : **ذكر الله** »[٢] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله عز وجل : أنا مع عبدي ما ذكرني ، وتحرّكت بي شفتاه** »[٣] .

● وعن عبد الله بن شداد أن نفرًا من بني عُذْرة ثلاثة ، أتوا النبي ﷺ فأسلموا ، قال : فقال النبي ﷺ : « **مَن يكفينيهم ؟** » قال طلحة : « أنا » فكانوا عند طلحة ، فبعث النبي ﷺ بعثًا ، فخرج فيه أحدهم فاستشهد ، قال: ثم بعث بعثًا ، فخرج فيهم آخر ، فاستشهد ، قال : ثم مات الثالث علىٰ فراشه ، قال طلحة : « فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميت علىٰ فراشه أمامهم ، ورأيت الذي استشهد أخيراً يليه، ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم » قال : « فدخلني من ذلك ، قال: فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له » قال : فقال رسول الله ﷺ : « **وما أنكرت من ذلك ؟ ليس أحد أفضل عند الله من المؤمن يُعمَّر في**

---

(١) حسن : رواه البيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وحسنه الألباني في «صحيح الجامع » رقم (٣٠٦٤) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم ،وصححه ووافقه الذهبي ،ورواه أحمد والبيهقي، وحسّنه المنذري والبغوي ، وصححه الألباني .

(٣) صحيح : رواه البخاري تعليقًا ،ومسندًا في أفعال العباد ، ورواه أحمد والطبراني وابن ماجه والحاكم وابن حبان والبيهقي في « الدلائل » ،والبغوي في « شرح السنة » وقال محققه : حديث حسن صحيح .

الإسلام لتسبيحه ، وتكبيره وتهليله »[١] .

● وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « خرج معاوية على حلْقة في المسجد ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر اللَّه ، قال : آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آللهِ ما أجلسنا غيره ، قال : أمَا إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتي من رسول اللَّه ﷺ أقلّ عنه حديثًا مني ، وإن رسول اللَّه ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : «**ما أجلسكم ؟** » ، قالوا : جلسنا نذكر اللَّه ، ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومَنّ به علينا ، قال : « **آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟** » ، قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال : « **أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتاني جبريل ، فأخبرني أن اللَّه عز وجل يباهي بكم الملائكة** »[٢] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه ، يتلون كتاب اللَّه ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ،وحفّتهم الملائكة ،وذكرهم اللَّه فيمن عنده**»[٣] .

● وعن سهل بن الحنظلية ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**ما اجتمع قوم على ذكرٍ فتفرقوا عنه إلا قيل لهم : قوموا مغفوراً لكم** »[٤] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **يقول اللَّه تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ،وإن تقرّب إليّ**

---

(١) صحيح : رواه أحمد والضياء في « المختارة » ،وقال الألباني : إسناده حسن وهو صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه مسلم والترمذي والنسائي .

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن أبي هريرة ،وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٥٠٩) .

(٤) صحيح : رواه الحسن بن سفيان عن سهل بن الحنظلية ،وصححه الألباني في « صحيح الجامع» رقم (٥٥٠٧) .

شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » [(١)] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **قال اللّه تعالى :لا يذكرني عبد في نفسه إلا ذكرته في ملأ من ملائكتي ،ولا يذكرني في ملأ، إلاّ ذكرته في الرفيق الأعلى»** [(٢)] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما عمل آدمي عملاً ، أنجي له من عذاب اللّه من ذكر اللّه »**[(٣)] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لأن أقعد مع قوم يذكرون اللّه تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس ، أحب إليّ من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل ، ولأن أقعد مع قوم يذكرون اللّه من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحبّ إلي من أن أعتق أربعة»**[(٤)] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ: «**أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟ يسبح اللّه مائة تسبيحة، فيكتب اللّه له بها ألف حسنة،ويحط عنه بها ألف خطيئة»**[(٥)] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **الطهور شطر الإيمان ، والحمد للّه تملأ الميزان ، وسبحان اللّه ، والحمد للّه تملآن ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها »**[(٦)] .

---

(١) رواه أحمد ، والبخاري ومسلم ،والترمذي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٢) حسن : رواه الطبراني في « الكبير » عن معاذ بن أنس ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣٣٥) .

(٣) صحيح : رواه أحمد عن معاذ ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٦٤٤) .

(٤) حسن : رواه أبو داود عن أنس ،وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٠٣٦) .

(٥) رواه أحمد ومسلم والنسائي عن سعد .

(٦) رواه أحمد ومسلم ،والترمذي عن أبي مالك الأشعري .

• وقال رسول الله ﷺ : « **عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ، واعقدن بالأنامل ؛ فإنهن مسئولات مستنطقات ،ولا تغفُلن فتنسين الرحمة** » (١) .

• وقال رسول الله ﷺ : « **إن أفضل عباد الله يوم القيامة الحمّادون** » (٢) .

• وقال رسول الله ﷺ : «**من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرِست له بها نخلة في الجنة** »(٣) .

• وقال رسول الله ﷺ : «**من قال : سبحان الله وبحمده ، في يوم مائة مرّة ، حُطّتْ خطاياه ،وإن كانت مثل زبد البحر** »(٤) .

• وقال رسول الله ﷺ : «**مَن ضنّ بالمال أن ينفقه ، وبالليل أن يكابده ، فعليه بسبحان الله وبحمده** »(٥) .

• وقال رسول الله ﷺ : «**ما على الأرض أحد يقول ،لا إله إلا الله ،والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ،إلا كُفّرتْ عنه خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر**»(٦) .

• وقال رسول الله ﷺ : «**كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم** » (٧) .

---

(١) حسن : رواه الترمذي ،والحاكم عن يسيرة ،وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٠٨٧) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن عمران بن حصين ،وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٥٧١) .

(٣) صحيح : رواه الترمذي ، وابن حبان ، والحاكم عن جابر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٤٢٩) .

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم ، والترمذي ،وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٥) صحيح : رواه أبو نعيم في « المعرفة » عن عبد الله بن خبيب ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٣٧٧) .

(٦) حسن : رواه أحمد ،والترمذي عن ابن عمرو ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٦٣٦) .

(٧) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ،والترمذي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أحب الكلام إلى اللّه تعالى أربع : سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، ولا يضرّك بأيهن بدأت** » [١] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أكثر من لا حول ولا قوة إلا باللّه ؛ فإنها من كنز الجنة** » [٢] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أفضل الذكر لا إله إلا اللّه ، وأفضل الدعاء الحمد للّه** »[٣] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أكثروا من غرس الجنة ، فإنه عذب ماؤها ، طيب ترابها، فأكثروا من غراسها ، لا حول ولا قوة إلا باللّه** »[٤] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أدلك علي غراس هو خير من هذا ؟ تقول سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، يُغرس لك بكل كلمة منها شجرة في الجنة** »[٥] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : «**ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة؟ تقول : لا حول ولا قوة إلا باللّه ، فيقول اللّه : أسلم عبدي واستسلم** » [٦] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أدلك على ما هو أكثر من ذكرك اللّه الليل**

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم عن سمرة بن جندب .

(٢) صحيح : رواه أبويعلي في « مسنده » ، والطبراني في « الكبير » ، وابن حبان في « صحيحه » عن أبي أيوب ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٢٠٥) .

(٣) حسن : رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم في « المستدرك » عن جابر ، وصححه الحاكم ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١١٠٤) .

(٤) حسن : رواه الطبراني في « الكبير » عن ابن عمر ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٢١٣) .

(٥) صحيح : رواه ابن ماجه ، والحاكم في « المستدرك » ، عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع » رقم (٢٦١٣) .

(٦) صحيح : رواه الحاكم في « المستدرك » عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٦٠٤) .

مع النهار ؟ تقول : الحمد للّه عدد ما خلق ، والحمد للّه ملء ما خلق ، الحمد للّه عدد ما فى السموات وما في الأرض ، الحمد للّه عدد ما أحصى كتابه ، والحمد للّه علي ما أحصى كتابه ، والحمد للّه عدد كل شيء ، والحمد للّه ملء كل شيء ، وتسبح اللّه مثلهن ؛ تعلمْهُنّ وعلّمْهن عقبك من بعدك » [١] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « لأن أقول سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر ، أحبُّ إليّ مما طلعت عليه الشمس »[٢] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرّات ، لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان اللّه وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »[٣] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ، فقال : يا محمد أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان اللّه ، والحمد اللّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر »[٤] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « أتاني جبريل ، فقال : يا محمد : أما يُرضيك أن ربك عز وجل يقول : إنه لا يصلي عليك من أمتك أحد صلاة ، إلا صليتُ عليه بها عشرًا، ولا يُسلمّ عليك أحد من أمتك تسلِيمة ، إلا سّلمتُ عليه عشرًا ؟ فقلت : بلى أيْ رب ! » [٥] .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٦١٥) .
(٢) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .
(٣) رواه مسلم ، وأبو داود عن جويرية .
(٤) حسن : رواه الترمذي عن ابن مسعود ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥١٥٢).
(٥) صحيح : رواه أحمد ،والنسائي ،وابن حبان ،والحاكم في « المستدرك » والضياء في «المختارة» عن أبي طلحة ،وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧١) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أتاني آت من عند ربي عز وجل ، فقال : مَن صلى عليك من أمتك صلاة ، كتب اللّه له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وردّ عليه مثلها** » [١] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من رجل يصلي عليّ مائة إلا غُفِر له** »[٢] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **البخيل مِن ذكرتُ عنده فلم يصلّ عليّ** »[٣] .

﴿ ولذكر اللّه أكبر ﴾ :

اعلم أن جميع الأعمال إنما شُرعت لإقامة ذكر اللَّه تعالىٰ ، والمقصود بها تحصيل ذكر اللَّه تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾[٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ **اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ﴾[٥] .

قال ابن تيمية : « الصحيح أن معنىٰ الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ، وأحدهما أعظم من الآخر ، فإنها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ، وهي مشتملة علىٰ ذكر اللَّه تعالىٰ ، ولما فيها من ذكر اللَّه أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر » .

---

(١) صحيح : رواه أحمد عن أبي طلحة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٧) .
(٢) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » ، وأبو نعيم في « الحلية » عن ابن عمر ، وصححه الألباني رقم (٥٧١٦) .
(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن حبان في « صحيحه » ، والحاكم في «المستدرك» عن الحسين ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٨٧٨) ، و« تخريج المشكاة » رقم (٩٣٣) ، وفضل الصلاة رقم (٢٩ ، ٣١) .
(٤) سورة طه الآية (١٤) .
(٥) سورة العنكبوت الآية (٤٥) .

• وذكر اللّه تعالىٰ هو العمل الذي له تعلق بالعبادات والمعاملات وبالسر والعلن ، وهوالغاية من خلق الخلائق ـ الإنس والجن ـ في قوله تعالىٰ : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾[1] ، وجاء في آية أخرىٰ عن الدعاء ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي...** ﴾[2] فعادل العبادة بالدعاء ، ومعلوم أن الدعاء جزء من ذكر اللّه ، فهو أعم وأشمل ، ويلازم العبادات والعادات والمعاملات .

الذكر في العبادات :

يعتبرعموم الذكر في العبادات من جهة أنه لم يقيّد ، لا بعدد ، ولا بزمن ولا بحالة إلا الحالات التي لا تليق بمكانة ذكر اللّه ، وهي قلائل .

وجاءت النصوص بالحث علىٰ الإكثار منه ، بينما العبادات محدودة .

قال تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾[3] ، وقوله ممتدحًا عباده سبحانه : ﴿ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ** ﴾[4] .

والذكر وحده : عبادة السر والجهر ، وعبادة النفس والفكر والقلب .

قال تعالىٰ : ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** ﴾[5] .

• كما أن الذكر لم يقيد بزمن كما تقيّدت العبادات الأخرىٰ ، أما

---

(١) سورة الذاريات الآية (٥٦) .
(٢) سورة غافر الآية (٦٠) .
(٣) سورة الأحزاب الآيتان (٤١ـ٤٢) .
(٤) سورة الأحزاب الآية (٣٥) .
(٥) سورة الأعراف الآية (٢٠٥) .

الذكر فكما قال تعالىٰ : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾(١) .

• كما أنه لم يقتصر علىٰ حالة معينة في صفة خاصة كما جاء في وصف أخصّ عباد اللَّه إلىٰ اللَّه تعالىٰ :﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... ﴾(٢) .

وعموم قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾(٣) .

• والذكر أعم أيضًا من عموم العبادات لأنه لاتخلو منه عبادة ، من طهارة وصلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد . . . إلخ فهو داخل ضمن أركان الإسلام ؛ إما جزء فيها أو شرط لها :

أولاً : الشهادتان : قوامهما النطق بأفضل الذكر « لا للَّه إله إلا اللَّه » .

ثانيًا : الصلاة بمقدماتها وتوابعها :

مقدماتها : **أ ـ الطهارة** : قال ﷺ : « **لا وضوء لمن لم يذكر اسم اللَّه عليه**»(٤) .

وقال ﷺ : « **من توضأ فأسبغ الوضوء فقال** : **أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فتحت له أبواب الجنة ، يدخل من أيها شاء**»(٥) .

---

(١) سورة آل عمران الآية (٤١) .

(٢) سورة ال عمران الآية (١٩١) .

(٣) سورة النساء الآية (١٠٣) .

(٤) صحيح : رواه الترمذي عن سعيد بن زيد ، والترمذي في « العلل » عن أبي هريرة ، وأحمد والترمذي في « العلل » ، وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع » رقم (٧٥٧٣) ، و« تخريج المشكاة» رقم (٤٠٤) .

(٥) صحيح : رواه النسائي وابن ماجه ،والحاكم عن عمر،وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦١٦٤) .

وقال رسول اللَّه : « **من توضأ فأسبغ الوضوء ثم قال : أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، اللَّهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، فُتحت له ثمانيةُ أبواب الجنة ، يدخل من أيها شاء** »(١) .

ب ـ **الأذان والإقامة** : كلمات الأذان والإقامة كلها ذكر وتهليل وتكبير . . . إلخ نشيد سماوي بالتوحيد وإجلال المولىٰ ، يرفع به المؤذن صوته ، ويردده من سمعه من قاص ودان ، بل يسمعه الشجر والحجر والمدر ويشهد للناطق به .

جـ ـ **والصلاة كلها ذكر** : وبعد الفراغ من الصلاة أذكار . . . ويوم الجمعة خصوصًا قال تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ** ... ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾(٢) .

ثالثًا الزكاة : فقد جاء ما يشعر بارتباطها بالذكر والدعاء في قوله تعالىٰ : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ... ﴾(٣) مع ما فيها من إخلاص النيّة للَّه عز وجل ولوازم ذكر اللَّه عمليًا في اختيار نوعية الزكاة باختيار الطيب الحلال .

رابعًا الصيام : وكله ذكر ومراقبة للَّه عز وجل ،ومن جهة أخرىٰ فشهر الصوم هوشهر الذكر بل أعظم ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ**

---

(١) صحيح : رواه الترمذي عن عمر ،وصححه الألباني في « الإرواء » (٩٦) ، و«صحيح الجامع» (٦١٦٧).

(٢) سورة الجمعة الآيتان (٩ ـ ١٠) .

(٣) سورة التوبة الآية (١٠٣) .

وبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾[1] ، وكان جبريل عليه السلام يشارك في هذا الذكر إذ كان يأتي رسول اللَّه ﷺ في رمضان يدارسه القرآن .

كما خصّ ليله بقيام خاص .-**«من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه ..»** الحديث ، ثم يأتي مسك الختام بعيد الفطر : **﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾**[2] .

خامسًا الحج : وقد قال فيه ﷺ : « **أفضل الحج : العج والثج** »[3] .

ومن بداية الحج ذكر وتوحيد في هذا الشعار الروحي العظيم : « لبيك اللَّهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبّيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

ومناسك الحج من طواف وسعي والوقوف بعرفة وعند المشعرالحرام وفي منىٰ مع رمي الجمار ونحر الهدي وأيام منىٰ كلها أيام ذكر للَّه تعالىٰ ، وبعد المناسك كذلك ومسك الختام في ذلك قوله تعالىٰ : **﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾**[4] .

فكل خطوة من خطوات الحج كلها ذكر للَّه عز وجل .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٥) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٨٥) .

(٣) حسن : رواه الترمذي عن ابن عمر ،وابن ماجه ،والحاكم والبيهقي في « سننه » عن أبي بكر ، والعقيلي عن ابن مسعود ، وحسنه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٥٠٠) ، و «صحيح الجامع» رقم (١١٠١) .

والعج : رفع الصوت بالإهلال والتكبير ، والثجّ : نحر الهدي .

(٤) سورة البقرة الآيات (١٩٨ ـ ٢٠٠).

ارتباط الذكر بالعادات من مأكل ومشرب وملبس :

والذكر ملازم لمواطن الحلال والحرام ، بل والعادات من مأكل ومشرب وملبس ، ففي المأكل : « **يا غلام سمّ الله** » ، وفي حلّيّة بهيمة الأنعام : ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾[1] والآية الأخرىٰ : ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾[2] فأحلها ذكر اللَّه وحرّمها عدم ذكر اللَّه .

سرٌّ لطيف :

الأصل في تحريم بهيمة الأنعام أن تكون ميتة ، ،وفيها علة ظاهرة وهي : مضرّة الأكل ولكن إذا ذكّيت ارتفعت المضرّة ، ولكن إذا لم يذكر اسم اللَّه عليها فلا تُحلّ ، فهل من علة معلومة أم لا ؟

والواقع أن العلة هنا أهمّ من العلة في الميتة وذلك أن المطلوب من ذكر اللَّه علىٰ بهيمة الأنعام وكل كائن حي حل أكله من الطيور والصيد هو أن الأصل في تلك الكائنات أنها ملك للَّه تعالىٰ ، هو خالقها ورازقها ، أنزل لها الماء من السماء ، وأنبت لها المرعىٰ من الأرض ، وربّاها حتىٰ صارت صالحة لمنفعة الإنسان ، فكان حق اللَّه تعالىٰ في هذه البهيمة أن لا يعتدىٰ عليها بذبح وإزهاق روح والانتفاع بها إلا بإذن من خالقها سبحانه ، وهو قول : « بسم اللَّه واللَّه أكبر » أي باسم اللَّه أذبحها ، واللَّه أكبر مني عليها ، وهو الذي سخرها لي فهو بمثابة الاستئذان ، وبمثابة العرفان للَّه بالجميل والإنعام .

ولهذا يعتبرالشرع كل إزهاق للروح بدون ذكر اسم اللَّه ميتة ، كما يعتبر الشرع أيضًا كل ذكر لغيراسم اللَّه شركًا مع اللَّه ، وبهذا يظهر عظمة

---

(١) سورة الأنعام الآية (١١٨) .

(٢) سورة الأنعام الآية (١٢١) .

السرّ في ذكر اسم اللَّه عند الذبح، سواء كان المذبوح بعيراً أو طيراً صغيراً.

لأن العلة هي إزهاق تلك النفس التي لا يملكها إلا خالقها »[١] وكذلك يُذكر اللَّه في حالة الحرب كما يذكر في حالة السلم .

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٢] .

وعند النسيان ليتذكر ما نسيه ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ ، بل وفي كل الحالات .

رسول اللَّه سيد الذاكرين ... يذكر اللَّه على كل أحيانه :

عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : « كان رسول اللَّه ﷺ يذكر اللَّه تعالىٰ علىٰ كل أحيانه »[٣] .

قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ : « لم تستثن حالة من حالة ، وهذا يدل علىٰ أنه كان يذكر ربه تعالىٰ في حال طهارته وجنابته .

وأما حال التخليّ ؛ فلم يكن يشاهده أحد يحكي عنه ، ولكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلي وبعده ما يدلّ علىٰ مزيد الاعتناء بالذكر ، وأنه لا يخلّ به عند قضاء الحاجة وبعدها ، وكذلك شرع للأمة الذكر عند الجماع .

وأما عند نفس قضاء الحاجة وجماع الأهل ، فلا ريب أنه لا يُكْرَه بالقلب، لأنه لابد لقلبه من ذكر ،ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر مَن هو أحبّ شيء إليه ، فلوكلف القلب نسيانه ؛ لكان تكليفه بالمحال ، كما قال

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص١٩٨) .

(٢) سورة الأنفال الآية (٤٥) .

(٣) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

القائل :

يُـــــراد من القلب نسيانكــــمْ وتأبى الطِّبـــــاعُ على الناقـــــل

فأما الذكر باللسان على هذه الحالة ؛ فليس مما شُرع لنا ، ولا ندبنا إليه رسول اللَّه ﷺ ، ولا نُقل عن أحد من الصحابة - رضي اللَّه عنهم - ، ويكفي في هذه الحال استشعار الحياء ، والمراقبة ، والنعمة عليه في هذه الحالة ، وهي من أجلّ الذكر ، فذكر كل حال بحسب ما يليق بها ، واللائق بهذه الحال التقنُّع بثوب الحياء من اللَّه تعالى ، وإجلاله ، وذكر نعمته عليه ، وإحسانه إليه في إخراج هذا العدو المؤذي له ، الذي لو بقي فيه لقتله ، فالنعمة في تيسير خروجه ؛ كالنعمة في التغذي به .

وكذلك ذكره حال الجماع ذكر هذه النعمة التي مَنّ بها عليه ، وهي أجلّ نعم الدنيا ، فإذا ذكر نعمة اللَّه - تعالى - عليه بها ؛ هاج من قلبه هائج الشكر ، فالذكر رأس الشكر »[(١)] .

● وحتى في نومه ، فهو ذاكر للَّه عز وجل .

عن أنس - رضي اللَّه عنه - أن رسول اللَّه ﷺ : « كان تنام عيناه ، ولا ينام قلبه »[(٢)] .

وعن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « **يا عائشة ، إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي** »[(٣)] .

الذكر عبادة الكائنات :

---

(١) صحيح : « الوابل الصيب » لابن القيم لسليم الهلالي (ص١٢٨ - ١٢٩) ، دار ابن الجوزي .

(٢) صحيح : رواه الحاكم في « المستدرك » عن ابن عباس وصححه هو ، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٨٠٦) .

(٣) رواه البخاري ، والنسائي ، ومالك وأحمد ، وأبو داود ، والطحاوي .

لم يقتصر الذكر بكونه عبادة الإنسان والملائكة والجن فقط بل هو - وحده - عبادة جميع الكائنات من أرض وسماء وشجر ومدر وجماد ونبات قال اللَّه تعالى : ﴿ **كل له قانتون** ﴾ .

• وقال تعالى : ﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ [(١)] .

وقال ﷺ : « **ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق اللَّه إلا سبّح اللَّه بحمده إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم** » :

أولاً : الملائكة : قال تعالى : ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ [(٢)] .

ثانياً : السموات والأرض : قال تعالى : ﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ...** ﴾ [(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ...** ﴾ .

• قال القرطبي : « أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها من فعل العاقل وهو التسبيح »[(٤)] .

ثالثاً : الجبال : ﴿ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾[(٥)] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ** ﴾ [(٦)] ، وقال تعالى : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق** ﴾ [(١)] .

---

(١) سورة الإسراء الآية (٤٤) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٠) .

(٣) سورة الجمعة الآية (١) .

(٤) « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٠/ ٢٦٦) .

(٥) سورة الأنبياء الآية (٧٩) .

(٦) سورة سبأ الآية (١٠) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من ملب يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أوشجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا** »[٢] .

رابعًا الرعد : قال تعالىٰ : ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** ﴾[٣] .

خامسًا : الطعام :

عن عبد اللَّه بن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « . . . ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل »[٤] .

قال ابن حجر ـ رحمه اللَّه ـ : « إن ذلك كان علىٰ عهد رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وآله وسلم وقد اشتهر تسبيح الطعام وتسبيح الحصىٰ ، وحنين الجذع ، ولم يكذب رواتها »[٥] .

سادسًا : الجن :

عن جابر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : خرج رسول اللَّه ﷺ علىٰ أصحابه فقرأ سورة الرحمن من أولها إلىٰ آخرها فسكتوا ، فقال : « **لقد قرأتها علي الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودًا منكم ، كنت كلما أتيت علي قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد** »[١] .

---

(١) سورة ص الآية (١٨) .
(٢) صحيح : رواه ابن ماجه ، والحاكم في « المستدرك » وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (٢٣٦٣) .
(٣) سورة الرعد الآية (١٣) .
(٤) رواه البخاري في كتاب المناقب ، باب : علامات النبوة في الإسلام .
(٥) « فتح الباري » (٦/ ٥٩٢) .

سابعًا : تلبية الشجر : « ما من ملب يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا » .

ثامنًا : الحيتان : قال رسول اللّه ﷺ : « **إنه ليستغفر للعالِم من في السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان في البحر** »[٢] .

تاسعًا : النمل :

قال رسول اللّه ﷺ : « **إن اللّه وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير** »[٣] .

عاشرًا : الخيل :

عن أبي ذر الغفاري ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ « **إنه ليس من فرس عربي إلا يُؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين : اللّهم إنك خوّلتني من خوّلتني من بني آدم ، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه** »[٤] .

الحادي عشر : الهدهد : يقص اللّه علينا من إنكاره على قوم بلقيس ودعوته للتوحيد وذكره قال تعالى : ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ**

---

(١) صحيح : رواه الترمذي في « تفسير القرآن » باب سورة الرحمن ، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٦٢٤) .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجه في مقدمه « سننه » باب : ثواب معلم الناس الخير ، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩٥) .

(٣) صحيح : رواه الترمذي في « سننه » ـ كتاب العلم ـ باب في فضل الفقه على العبادة ، وصححه الترمذي في « الصحيحة » رقم (٢١٦١) .

(٤) رواه أحمد في « مسنده » ، والنسائي ،والحاكم في المستدرك » ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع » رقم (٢٤١٤) .

الْعَظِيمِ ﴾[١] .

الثاني عشر : عموم الطير :

قال تعالى : ﴿ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ...** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** ﴾[٣] .

الثالث عشر : الجماد : كما قال ابن كثير : « يخبرتعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض ؛أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[٥] قال ابن كثير : « أي نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه للَّه رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد »[٦] .

أنواع الذكر :

الذكر والتذكّر ضد النسيان والغفلة ،وذكر اللَّه يصدق على كل ما يذكر العبده بربه ، فيكون به ذاكرًا غير غافل ، سواءً كان باللفظ وباللسان أو كان بالفكر والتدبر .

قال النووي : « اعلم أن فضيلة الذكرغير منحصرة في التسبيح

---

(١) سورة النمل الآية (٢٦) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٧٩) .

(٣) سورة النور الآية (٤١) .

(٤) « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٢٩٧) .

(٥) سورة الزمر الآية (٧٥) .

(٦) « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٤/ ٦٩) .

والتهليل، والتحميد والتكبير ونحوه، بل كل عامل للَّه تعالىٰ بطاعته فهو ذاكر للَّه تعالىٰ، كما قال سعيد بن جبير وغيره من العلماء.

وقال عطاء ـ رحمه اللَّه ـ: مجالس الذكر في الحلال والحرام: كيف تشتري، وتبيع، وتصلي، وتصوم، وتنكح وتطلّق، وتحج وأشباه ذلك.

قال الشيخ عطية محمد سالم: «إن مقالة سعيد هذه كانت إجابة لقائل له: هلا اجتهدت في العبادة كما يجتهد بنو فلان، يهجرون إلىٰ المسجد ويكثرون الصلاة والذكر؟ فقال سعيد ـ رحمه اللَّه ـ مقالته مثل ما قال عطـــاء ـ رحمه اللَّه ـ».

وللذكر أنواع متعددة مختلفة المراتب متفاوتة التأثير:

الأول: أعلى الذكر القرآن الكريم

قال تعالىٰ: ﴿ **صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ** ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿ **وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ** ﴾[(١)].

والقرآن هو أحسن الحديث وهو الطيب من القول مزامير الأنس من حضرة القدس بألحان التوحيد في رياض التمجيد.

قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن للَّه تعالى أهلين من الناس**» قالوا: من هم يا رسول اللَّه؟ قال: «**أهل القرآن هم أهل اللَّه وخاصته**»[(٢)].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**اقرءوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول: «الم» حرف ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر، فتلك ثلاثون**»[(٣)].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[(١)].

---

(١) سورة القلم الآية (٥١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع».

(٣) صحيح: رواه أبو جعفر النحاس في «الوقف والابتداء»، والسجزي في «الإبانة» والخطيب عن ابن مسعود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٦٤).

وقال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى يرفـــع بهذا الكلام أقواماً ويضع به آخرين**»(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « **الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه ويتتعتع فيه، وهوعليه شاق ، له أجران** »(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ﴿ آلم ﴾ حرف،ولكن ألف حرف، ولام حرف ، وميم حرف**»(٤) .

وقال رسول الله ﷺ : «**من سره أن يحب الله ورسوله فليقرأ في المصحف**»(٥) .

وقال رسول الله ﷺ : «**من علم آية من كتاب الله عز وجل كان له ثوابها ما تليت** »(٦) .

وقال ذو النورين عثمان بن عفان : « لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم » .

● قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ**﴾(٧) ،قال مطرف بن عبد الله : هذه آية القرّاء .

---

(١) رواه أحمد ، والبخاري ، والترمذي ،وابن ماجه عن عثمان ، والترمذي عن علي .

(٢) رواه مسلم وابن ماجه عن عمر .

(٣) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه عن عائشة .

(٤) صحيح : رواه البخاري في « التاريخ » ، والترمذي ، والحاكم عن ابن مسعود ، وصححه الألباني .

(٥) حسن : رواه أبو نعيم في « الحلية » ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » .

(٦) صحيح : رواه أبو سهل القطّان في « حديثه عن شيوخه » وقال الألباني في « السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٣٥) : هذا إسناد جيد عزيز .

(٧) سورة فاطر الآية (٢٩) .

الثاني والثالث : ذكر أسماء الرب وصفاته والثناء عليه بهما وتنزيهه عما لا يليق به وهما نوعان :

قال ابن القيم : « الذكر نوعان » :

أحدهما : ذكر أسماء الرب ـ تبارك وتعالىٰ ـ وصفاته ، والثناء عليه بهما ، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به ـ تبارك وتعالىٰ ـ وهذا أيضًا نوعان :

(**الثاني**) **أحدهما : إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر** :

وهذا النوع هوالمذكور في الأحاديث نحو : « سبحان اللَّه ، والحمد للَّه، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر » ، وسبحان اللَّه وبحمده » و« لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ، وهو علىٰ كل شيء قدير » ونحو ذلك .

فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه[1] ، نحو « سبحان اللَّه عدد خلقه» ، فهذا أفضل من مجرد « سبحان اللَّه » ، وقولك « الحمد للَّه عدد ما خلق في السماء ، وعدد ما خلق ما في الأرض ، وعدد ما بينهما ، وعدد ما هو خالق » أفضل من مجرد قولك « الحمد للَّه » وهذا في حديث جويرية أن النبي ﷺ قال لها : « **لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهنّ : سبحان اللَّه عدد خلقه ، سبحان اللَّه رضى نفسه ، سبحان اللَّه زنة عرشه ، سبحان اللَّه مداد كلماته** » رواه مسلم .

الثالث : الخبر عن الرب ـ تعالى ـ بأحكام أسمائه وصفاته « حمد ، وثناء ، ومجد » :

نحو قولك : اللَّه ـ عز وجل ـ يسمع أصوات عباده ، ويرىٰ حركاتهم ،

(١) أفضله علىٰ الإطلاق بنص الحديث « لا إله إلا اللَّه » .

ولا تخفىٰ عليه خافية من أعمالهم ،وهوأرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وهو علىٰ كل شيء قدير ،وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته، ونحو ذلك .

وأفضل هذا النوع : الثناء عليه بما أثنىٰ به علىٰ نفسه، وبما أثنىٰ به عليه رسول اللَّه ﷺ ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل .

وهذا النوع أيضًا ثلاثة أنواع : حمد ، وثناء ، ومجد .

فالحمد للَّه : الإخبارعنه بصفات كماله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ مع محبته والرضىٰ به فلا يكون المحب الساكت حامدًا، ولا المثني بلامحبة حامدًا حتىٰ تجتمع له المحبة والثناء ، فإن كرّر المحامد شيئًا بعد شيء ؛ كانت ثناء ، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك ؛ كان مجدًا .

وقد جمع تعالىٰ ـ لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة ، فإذا قال العبد ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ ؛ قال اللَّه : حمدني عبدي ، وإذا قال : ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ ؛ قال : أثنىٰ عليّ عبدي ، وإذا قال : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ ؛ قال : مجدّني عبدي .

الرابع : ذكر أمره ونهيه وأحكامه إخبارًا عنه .

قال ابن القيم عن النوع الثاني من الذكر: « من الذكر : ذكر أمره ونهيه وأحكامه .

وهو أيضًا نوعان :

أحدهما ذكره بذلك إخبارًا عنه بأنه أمر بكذا ،ونهىٰ عن كذا ،وأحب كذا، وسخط كذا ، ورضىٰ كذا .

الخامس : ذكره عند أمره ، فيبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه :

وهو النوع الثاني من الذكر الثاني الذي تكلم عنه ابن القيم فذكر أمره

ونهيه شيء ، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر .

فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر ، فذكره أفضل الذكر ، وأجلّه ، وأعظمه . قال ابن القيم في « الوابل الصيب » (ص١٥٦) :

فائدة - فهذا الذكر - من الفقه الأكبر وما دونه - أفضل الذكر ؛ إذا صحّتْ فيه النّيّة .

السادس : ذكر آلائه ، وإنعامه ، و إحسانه ، وأياديه ومواقع فضله على عبيده :

قال ابن القيم : وهذا أيضًا من أجل أنواع الذكر .

قال ابن القيم عن أنواع الذكر - غيرالنوع الأول وهو القرآن - : فهذه خمسة أنواع .

السابع : ذكرالدعاء والاستغفار :

نحوقوله تعالى : ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ و« **يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث** » .

والتعرض للدعاء والسؤال ،والتصريح به تضمنته الأذكار النبوية وجمعته مع غيره من أنواع الذكر .

وفي الحديث : « **أفضل الذكر : لا إله إلا اللّه ، وأفضل الدعاء : الحمد للّه**»[(١)] .

قيل لسفيان بن عُيينة : كيف جعلها دعاء ؟ قال : أما سمعت قول أمية ابن أبي الصلت لعبد اللّه بن جُدعان يرجو نائله :

أأذكر حاجتي ، أم قد كفـاني حيـاؤك ؟ إن شيمتك الحيـاء

---

(١) حسن : رواه الترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ،والحاكم في « المستدرك » وصححه ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١١٠٤) .

إذا أثنى عليك المرء يومـــًا كفـــاه من تعرضـــه الثنــــاء

فهذا مخلوق ، واكتفى من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله ، فكيف برب العالمين ؟

قال ابن القيم عن الأنواع السابقة لذكر الدعاء في « الوابل الصيب » (ص١٥٧) :

« الذكر ثناء على اللَّه عز وجل بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه ، والدعاء سؤال العبد حاجته ، فأين هذا من هذا ؟

ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد اللَّه تعالى ، والثناء عليه بين يدي حاجته .

فالدعاء الذي يقدمه الذكر والثناء ، أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرّد ، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه ؛ كان أبلغ في الإجابة وأفضل ، فإنه يكون قد توسل المدعوّ بصفات كماله وإحسانه وفضله ، وعرّض - بل صرّح - بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته ، فهذا المقتضي منه ، وأوصاف المسئول مقتضى من اللَّه ، فاجتمع المقتضي من السائل ، والمقتضى من المسئول في الدعاء ، وكان أبلغ وألطف موقعًا ، وأتم معرفة وعبودية .

وفي « الصحيحين » : أن أبا بكر الصديق - رضي اللَّه عنه - قال : يا رسول اللَّه علّمني دعاء أدعو به في صلاتي ، فقال : « **قل : اللّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم** » .

فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بيْن الاعتراف بحاله ، والتوسل إلى ربه - عز وجل - بفضله وجوده ، وأنه المنفرد بغفران الذنوب ، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معًا ، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية »[1] .

---

(١) «صحيح الوابل الصيب» (ص١٥٧ - ١٦١) بتصرف .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **أفضل العبادة الدعاء** »[(١)] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ليس شيء أكرم على اللَّه تعالى من الدعاء** »[(٢)] .

قال الشيخ عطية محمد سالم في كتابه : « في ظلال عرش الرحمن » (ص٢٠١) بعد ذكره للقرآن ، والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير :

« يلي ذلك الاستغفار والدعاء ، وكان هذا القسم في تلك المرتبة لأنه فيه حظ العبد ، ففي الدعاء طلب حاجته ، وفي الاستغفار خوف ما اقترف ، فهو ذو جانبين : جانب مصلحة العبد ، وجانب توحيد المولىٰ في توجه العبد إليه وحده .

قال تعالىٰ : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[(٣)] .

أما التسبيح ، والتهليل ، والتكبير ، والتحميد فكلها إعظام وإجلال للمولىٰ سبحانه » .

الثامن : ذكر الرعاية :

قال ابن القيم : « مثل قول الذاكر : اللَّه معي ، واللَّه ناظر إليّ ، اللَّه شاهدي ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع اللَّه ، وفيه رعاية لمصلحة القلب ، ولحفظ الأدب مع اللَّه ، والتحرز من الغفلة ، والاعتصام من الشيطان والنفس »[(٤)] .

وقال أيضًا : « والأذكار النبوية متضمنة أيضًا لكمال الرعية ، ومصلحة القلب ، والتحرز من الغفلات ، والاعتصام من الوساوس والشيطان ، واللَّه أعلم »[(٥)] .

---

(١) صحيح : رواه الحاكم في « المستدرك » عن ابن عباس ، وابن عدي عن أبي هريرة ، وابن سعد عن النعمان بن بشير ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٥٧٩) و« صحيح الجامع » رقم (١١٢٢) .

(٢) حسن : رواه أحمد ، والبخاري في الأدب المفرد ، والترمذي والحاكم في « المستدرك » وصححه عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٣٩٢) .

(٣) سورة الفاتحة الآية (٥) .

(٤ ، ٥) « مدارج السالكين » (٢/ ٤٣٤-٤٣٥) .

وهذه الأنواع الثمانية قد تكون بالقلب واللسان تارة ، وذلك أفضل الذكر .

وبالقلب وحده تارة ، وهي الدرجة الثانية .

وبالسان وحده تارة ، وهي الدرجة الثالثة .

فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده ؛ لأن ذكرالقلب يثمر المعرفة ، ويهيّج المحبة ، ويثير الحياء ، ويبعث على المخافة ، ويدعو إلى المراقبة ، ويزع[1] عن التقصير في الطاعات ، والتهاون في المعاصي والسيئات ، وذكراللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار ، وإن أثمر شيئًا منها ؛ فثمرة ضعيفة»[2] .

فقه مراتب الأعمال في الذكر :

قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ :

« قراءة القرآن أفضل من الذِّكر ، والذكر أفضل من الدعاء ، هذا من حيث النظر لكل منهما مجرداً .

وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل ، بل يُعَيِّنه ، فلا يجوز أن يُعدل عنه إلى الفاضل ، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود ، فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما ، بل القراءة فيهما منهي عنها نهي تحريم أو كراهة ، وكذلك التسميع والتحميد في محلهما أفضل من القراءة ، وكذلك التشهد ، وكذلك الذكر عُقيب السلام من الصلاة ـ ذكر التهليل والتسبيح ، والتكبير ، والتحميد ، أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة ،

---

(١) يمنع ويحبس .

(٢) « صحيح الوابل الصيب » (ص٢٥٦) .

وكذلك إجابة المؤذن ، والقول كما يقول أفضل من القراءة ، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل اللَّه ـ تعالى ـ على خلقه ، لكن لكل مقام مقال ، متى فات مقاله فيه ، وعُدل عنه إلى غيره ؛ اختلّت الحكمة ، وفُقدت المصلحة المطلوبة منه .

وهكذا الأذكار المقيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة ، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة ، اللّهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن .

مثاله : أن يتفكر في ذنوبه ، فيحدث ذلك له توبة من استغفار ، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن ، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التي تحصّنه وتحوطه .

وكذلك أيضًا قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر ؛ لم يحضر قلبه فيهما ، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء إليها ؛ اجتمع قلبه كله على اللَّه تعالى ، وأحدث له تضرعًا وخشوعًا وابتهالاً ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع ، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجرًا .

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفسه ، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة ، فيعطي كل ذي حق حقه ، ويوضع كل شيء في موضعه .

فللعين موضع ، وللرِّجْل موضع ، وللماء موضع ، وللحم موضع ، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي واللَّه ـ تعالى ـ الموفق وهكذا الصابون والأشنان أنفع للثوب في وقت ، والتجمير وماء الورد وكيّه أنفع له في وقت .

وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه اللَّه تعالى - يومًا : سُئل بعض أهل العلم : أيما أنفع للعبد ؛ التسبيح أو الاستغفار ؟

فقال : إذا كان الثوب نقيًا ؛ فالبخور وماء الورد أنفع له ، وإن كان دنسًا ، فالصابون والماء الحار أنفع له .

فقال لي - رحمه اللَّه تعالى - : فكيف والثياب لا تزال دنسة .

ومن هذا الباب أن سورة ﴿ **قل هو اللَّه أحد** ﴾ تعدل ثلث القرآن ، ومع هذا؛ فلا تقوم مقام آيات المواريث ، والطلاق ، والخُلُع ، والعِدَد ، ونحوها .

بل هذه الآيات في وقتها وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص .

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء ، وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه ؛ كانت أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده ؛ لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء .

فهذا أصل نافع جدًا ، يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها ؛ لئلاً يشتغل بمفضولها عن فاضلها ، فيربح إبليس الفضل الذي بينهما ، أو ينظر إلى فاضلها ، فيشتغل به عن مفضولها ، وإن كان ذلك وقته ، فتفوته مصلحته بالكلية ؛ لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثوابًا وأعظم أجرًا .

وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال وتفاوتها ومقاصدها ، وفقه في إعطاء كل عمل منها حقّه ، وتنزيله في مرتبته ، وتفويته لما هو أهم منه ، أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل ؛ لإمكان تداركه والعود إليه ، وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه ، فالاشتغال به أولى - وهذا كترْكِ القراءة

لردّ السلام، وتشميت العاطس - وإن كان القرآن أفضل ؛ لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلىٰ الفاضل ، بخلاف ما إذا اشتغل بالقراءة فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس ، وهكذا سائر الأعمال إن تزاحمت ، واللَّه تعالىٰ الموفق»[1] .

لكل مقام مقال :

قال الشيخ عطية سالم في كتابه « في ظلال عرش الرحمن » (ص٢٠٨ - ٢١٠) : « هناك نصوص من الأذكار مرتبطة بحالات أو بأوقات مخصوصة : كالأذكار اليومية في الصباح والمساء ، وعقب الصلوات ، وعند أخذ المضاجع للنوم ، وعند النهوض من نومه ، وعند سماع الرعد أو هبوب الريح ، إلىٰ غير ذلك مما يمكن أن يُقال فيه : لكل مقام مقال .

ومما يوضح ذلك ما جاء في غزوة بدر وهو أشد ما كان علىٰ المسلمين إذ فوجئوا بعدو لم يحسبوا له حسابًا ، متفوقًا عددًا وعدة ، فاجتهد النبي ﷺ في الدعاء حتىٰ كان يرفع يديه مبتهلاً إلىٰ اللَّه، إلىٰ حدّ أن يسقط عنه رداؤه، ويقول له الصديق - رضي اللَّه عنه - : حنانيْك يا رسول اللَّه ، فإن اللَّه منجز لك ما وعد » .

وهنا نجده ﷺ لم يتضرع إلي اللَّه بتلاوة ولا تسبيح أو تحميد ، وإنما اجتهد في دعائه وضراعته إلىٰ اللَّه ، وهكذا كما يقال : لكل مقام مقال .

وكذلك مما يؤيد هذه النظرية هو أن السجود وهويجعل العبد أقرب ما يكون إلىٰ اللَّه لا يشرع فيه تلاوة القرآن حيث نهىٰ عنها في السجود وفيه التسبيح ، والاجتهاد في الدعاء للحديث « أقرب ما يكون العبد إلىٰ اللَّه وهو ساجد فاجتهدوا في الدعاء » .

---

(١) « صحيح الوابل الصيب » لابن القيم وسليم الهلالي (ص١٦١ - ١٦٤).

• وفي ذلك جاء عن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ أنه سئل عن نوع إحياء رمضان : هل الأفضل فيه طول القيام بالقراءة أو قصر القيام لكثرة السجود وعدد الركعات ؟ فقال : إنما أنت مرتاد لنفسك فانظر أيهما أحب إليك .

• وعلي هذا فإذا كان يميل الي التلاوة وتدبر معاني كتاب اللَّه والاستئناس بأسلوب القرآن الكريم علي حد قوله تعالي ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾[1] فليمض في التلاوة ، فقد كان بعض السلف يقرأ القرآن كله في ليلة ، وسمعنا بأمثال هؤلاء في المسجد النبوي في ليالي رمضان، ولكن بقراءة لا يكاد يتابعها معه إلا الحفاظ .

وجاء عن أمير المؤمنين عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه كان يقرأ القرآن كله في ليلة ، ثم أخذ يتمهل في القراءة ويتأمل حتي بلغ به في النهاية إلي أن كان ربما قام ليلة كاملة بسورة « قل هو اللَّه أحد » أو سورة الفاتحة .

• وإذا ما رغب في إطالة السجود ، وشدة الضراعة والخشوع ، والتذلل بين يديْ رب العزة والجلال ، فليمض في سبيل ذلك .

• وإذا ما تذكر الموت وما بعده من ضيق اللحد وشدة العرض ، ودقة الحساب فاستغفر وأناب ، فلا مانع فإنما هو مرتاد لنفسه فليمض بها إلىٰ ما تميل إليه فإنه أشد عونًا له عليها وأطوع هي إليه .

ولا يكرهها علىٰ شيء معين، ولا في حالة انصرافه بمثل نعاس ونحوه» .

---

(١) سورة الزمر الآية (٢٣) .

قال النووي في مقدمه كتابه « الأذكار » (ص٨) :

« في أحوال تعرض للذاكر يستحب له قطع الذكر من أجلها ، ثم يعود إليه بعد زوالها عنه منها :

- إذا سلّم أحد عليه فيردّ السلام ، ثم يعود لما كان فيه من الذكر .
- إذا عطس عنده أحد فحمد اللَّه ، فإنه يشمته ، ثم يعود لما كان عليه .
- إذا سمع الخطيب يوم الجمعة ، حتىٰ يفرغ من الصلاة .
- إذا سمع المؤذن ، فليجبه حتىٰ يفرغ من الأذان .
- إذا رأىٰ منكرًا أمر بتغييره ، أو معروفًا أرشد إليه .

ولعلّ السبب في ذلك أن الذكر المطلق مندوب إليه ، أما هذه الأمور فتدخل في نطاق الوجوب ، أو المؤكدات .

وفيها نصوص خاصة ،والقاعدة الأصولية : أن الخاص مقدم علىٰ العام .

وكذلك فإن هذه الأمور إذا تركت تفوت ، والذكر لا يفوت لعدم تقيّده بزمن واللَّه تعالىٰ أعلم .

ذكر العبد محفوف بذكرين من ربّه له :

- قال الإمام ابن قيم الجوزية :

« ذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له : ذكر قبله به صار العبد ذاكرًا له .

وذكر بعده به صار العبد مذكورًا كما قال تعالىٰ : ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [1] .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٥٢) .

وقال فيما يروىٰ عن نبيه ﷺ : « **من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملأٍ خير منهم** » .

والذكر الذي ذكره اللّٰه به ، بعد ذكره له : نوع غير الذكر الذي ذكره به قبل ذكره له ، ومن كثُف فهمه عن هذا فليجاوزه إلىٰ غيره ، فقد قيل :

إذا لم تستطـــع شيئًا فدعـــه وجـــاوزه إلى ما تستطيع »[1]

ليس العجب من قول اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **فاذكروني** ﴾ إنما العجب من قوله ﴿أذكركم﴾ إن ألسنتنا لتحتاج إلىٰ ملايين المرات من التوبة قبل أن تنطق باسم اللّٰه عز وجل ، فما ظنك بذكر اللّٰه لنا إن ذكرناه . . . ما تكون الأرض ومن عليها حتىٰ يذكرنا اللّٰه عز وجل ؟!

قال يحيىٰ بن معاذ الرازي : يا غفول يا جهول لو سمعت صرير الأقلام وهي تكتب اسمك عند ذكرك لمولاك لمتّ شوقًا إلي مولاك » .

آداب الذكر :

الأول : وهوأهمها : إخلاص النّية للّٰه تعالي وابتغاء وجه اللّٰه تعالي ، وحبًا في اللّٰه وتلذذًا بذكره ، وحضور القلب معه واستئناسًا بحلاوة مناجاته قال اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤهـا ولكن يناله التقوى منكم** ﴾ أي النّيات .

وفي « الصحيح » عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللّٰه عنه ـ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيّات ، وانما لكل امرئ ما نوى** » .

قال الفضيل بن عياض ـ رحمه اللّٰه ـ : « ترك العمل لأجل الناس رياء ،

---

(١) « مدارج السالكين » (٢/ ٤٣٣) .

والعمل لأجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك اللَّه منهما » ، ولو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس ، والاحتراز من تطرّق ظنونهم لانسدّ عليه أكثر أبواب الخير ، وضيّع على نفسه شيئًا عظيمًا من مهمّات الدين ، وليس هذا طريقة الصالحين ، فإذا أراد الإنسان أن يذكر اللَّه تعالى باللسان مع القلب فليس له أن يمتنع من ذلك خوف الرياء بل يذكر اللَّه بهما جميعًا ، ويقصد به وجه اللَّه تعالى » .

الثاني : أن يكون المكان الذي يذكر اللَّه فيه نظيفًا خاليًا :

وذلك لأن التنزه عن ملابسة النجاسة مطلقًا مندوب إليه ، فتدخل حالة الذكر تحت ذلك دخولاً أوليًا ، وإن لم يرد ما يدل على هذا على الخصوص .

والذكرعبادة ، ونظافة المكان أعظم في احترام الذكر ، وأدعى لاستحضار القلب ، ولهذا مدح الذكر في المساجد لرفعتها ، قال تعالى : ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** ﴿٣٦﴾ **رِجَالٌ** ﴾[1] [2] .

وفي إيراد هذه الآية عقب المثل المضروب لذكر اللَّه ونور الإيمان في قلب المؤمن فإن له دلالة مزدوجة :

منها : أنه أعظم ما يورث آثار النور والإيمان ويزكي نور القلب ، إنما هو ما يتعلق بالمساجد بيوت اللَّه ، من صلاة وتسبيح وتحميد وتلاوة واعتكاف .

ومنها : أنه ينبغي أن يعني بمكان الذكر ما يماثل العناية بالمساجد من

---

(١) سورة النور الآية (٣٦) .

(٢) « النصيحة في الأذكار والأدعية الصحيحة » لمحمد أحمد إسماعيل (ص١١) ـ مكتبة الإيمان .

نظافة وتكريم ، وهذا ينبهنا إلىٰ أفضلية المكان ، كأفضلية الزمان .

• « وينبغي أن يكون المكان خاليًا عن كل ما يشغل البال ويحصل من وجوده الوسواس والاشتغال ، فإن ذلك أقرب إلىٰ حضور القلب ، وأبعد من الرياء والمباهاة ، وأعون علىٰ تدبر معنىٰ ما يذكر به ولا شك أن هذه الحال أكمل مما يخالفها »(١) .

الثالث : ينبغي أن يكون الذاكر علىٰ أكمل الصفات ، ويكون فمه نظيفًا ، فإن الملائكة تستمع للقارئ عن قرب ، فإذا كانت رائحة فمه غير طيبة تأذت منه ، والملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه ابن آدم ، ولأن الذكر عبادة لسانية ، فتنظيف الفم بالسواك عند ذلك أدب حسن .

عن أبي الجهيم ـ رضي اللَّه عنه ـ : أقبل النبي ﷺ من نحو بئر جَمَل ، فلقيه رجل فسلّم عليه ، فلم يردّ عليه النبي ﷺ حتىٰ أقبل علىٰ الجدار فمسح بوجهه ويديه ، ثم ردّ عليه السلام »(٢) .

فإذا كان هذا في مجرد ردّ السلام ، فكيف بذكر اللَّه سبحانه؟ فإنه أولىٰ بذلك ، وفي رواية عن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ أنه ﷺ قال : **« كرهت أن أذكراللَّه إلا على طهر »** .

رابعًا : أن يستقبل القبلة ، فإنها الجهة التي يتوجه إليها العابدون للَّه سبحانه والداعون له والمتقربون إليه ، وأن يجلس متذللاً متخشعًا بسكينة ووقار مطرقًا رأسه .

• قال النووي في « الأذكار » (٨ ـ ٩) :

---

(١) « النصيحة » (ص٩) .
(٢) رواه البخاري مسندًا ومسلم تعليقًا ، انظر : « المجموع » للنووي (٢/ ٢١٤) .

« لو ذكر اللَّه على غير هذه الأحوال جاز ، ولا كراهة في حقه ، لكن إن كان بغير عذر كان تاركًا للأفضل ، والدليل على عدم الكراهة قول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[1] .

وعن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : « كان رسول اللَّه ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن » ، وفي رواية : « ورأسه في حجري ، وأنا حائض »[2] .

وعنها ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : « كان ﷺ يذكر اللَّه تعالى على كل أحيانه» .

خامساً : خفض الصوت :

كما في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾[3] .

تنبيه :

وردت أحاديث تقتضي الجهر بالذكر ، وأحاديث تقتضي الإسرار به[4] ، والجمع بينهما : أن ذلك مختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، وهذا في الموضع الذي لم يرد فيه دليل على الجهر أو الإسرار ، أما فيما أطلق ولم يقيد : فقد يكون الإسرار أبعد عن الرياء والتصنّع ، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك علي نفسه ، فإن لم يخف ، ولم يكن في الجهر

---

(١) سورة آل عمران الآيتان (١٩٠ ، ١٩١) .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) سورة الأعراف الآية (٢٠٥) .

(٤) نقل النووي عن صاحب الحاوي قوله : « حد الجهر أن يُسمع من يليه ، وحد الإسرار أن يُسمع نفسه » = اهـ . من « المجموع » (٣/ ٣٢٦) .

مايشوّش الوقت علي مصل آخر ، فالجهرأفضل لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته أيضًا تتعلق بغيره ، والخير المتعدي أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارئ ، ويجمع همه إلى الفكر فيه ، ويصرف إليه سمعه ، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ، ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله ، ولأنه يرجو بجهره تيقظ نائم فيكون هو سبب إحيائه ، ولأنه قد يراه بطّالاً غافلاً فينشط بسبب نشاطه ، ويشتاق إلى الخدمة ، فمتى حضره شيء من هذه النيّات فالجهر أفضل ، وإن اجتمعت هذه النيّات تضاعف الأجر ، وبكثرة النيّات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم .

• قال النووي في « الأذكار » (١٠) : « اعلم أن الأذكار المشروعة في الصلاة ، واجبة كانت أو مستحبة ، لا يحسب شيء منها ، ولا يعتدّ به حتى يتلفظ به بحيث يُسمع نفسه ، إذا كان صحيح السمع لا عارض له » .

• وقال الجزري في « العدة » : « ولا يعتد له بشيء مما رتبه الشارع على قوله حتى يتلفظ به ، ويسمع نفسه » .

وقال الشوكاني تعليقًا على كلام الجزري ـ رحمه اللَّه ـ : « أما اعتبار التلفظ فهو معلوم من أقواله ﷺ المصرّحة بأن من قال كذا كان له من الأجر كذا ، فلا يحصل له ذلك الأجر إلا بما يصدق عليه معنى القول ، وهو لا يكون إلا بالتلفظ باللسان ، وأما اشتراط أن يُسمع نفسه فلم يرد ما يدّل عليه لأنه يصدق القول بمجرد التلفظ وهوتحريك اللسان وإن لم يُسمع نفسه، فينظر ما وجه الاشتراط مع أنه تقدم الحديث الذي في «الصحيحين» . . . بلفظ « **فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي** » ، فإذا كان مجرد الذكرالنفسي مقتضيًا للثواب ، فكيف لا يكون الذكر اللساني الذي قد صدق عليه أنه قول مقتضيًا للثواب ؟

والحاصل أنه لا وجه لهذا الاشتراط لا باعتبار أصل الثواب ، ولا باعتبار كماله ، بل قد يكون التدبر والتفهم بما لا يسمع النفس من الأذكار أتمّ وأكمل»[(١) (٢)] .

سادساً : تدبّر ما يقول ، وتعقّل معناه :

فإن جهل شيئًا تبيّنه ، فإن حضور القلب هوالمقصود بالذكر ولا سبيل إليه إلا بذلك ، روي عن علي ـ رضي اللّه عنه ـ قال : « لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا قراءة لا تدبّر فيها » ، قال الشوكاني ـ رحمه اللّه ـ : « لا ريب أن تدبر الذاكر لمعاني ما يذكر به أكمل ، لأنه بذلك يكون في حكم المخاطب والمناجي ، ولكن وإن كان أجرهذا أتمّ وأوفى فإنه لا ينافي ثبوت ما ورد الوعد به من ثواب الأذكار لمن جاء بها ، فإنه أعمّ ما أن يأتي بها متدبراً لمعانيها ، متعقلاً لما يراد منها أولاً ، ولم يرد تقييد ما وعد به من ثوابها بالتدبر والتفهم »[(٣)] .

قال في « نزل الأبرار » : « وهذا تقرير حسن فيه توسيع دائرة الرحمة التي وسعت كل شيء »[(٤) (٥)] .

مراتب الذكر :

الدرجة الأولى : الذكر الظاهر .

« يريد بالظاهر : الجاري عن اللسان ، المطابق للقلب ، لا مجرد الذكراللساني ، فإن القوم لا يعتدون به » .

---

(١) « تحفة الذاكرين » للشوكاني (ص٤٢) .
(٢) « النصيحة (١١ـ١٢) .
(٣) « تحفة الذاكرين » (ص٤٢) .
(٤) «نزل الأبرار » (ص١٠) .
(٥) « النصيحة » (١٠ـ١١) .

الدرجة الثانية : الذكر الخفي ، وهو الخلاص من القيود ، والبقاء مع الشهود ، ولزوم المسامرة .

قال ابن القيم : « يريد بالخفي ههنا : الذكر بمجرّد القلب بما يعرض له من الواردات ، وهذا ثمرة الذكر الأول .

• ويريد بالخلاص من القيود : التخلّص من الغفلة والنسيان ، والحجب الحائلة بين القلب وبين الرب سبحانه .

والبقاء مع الشهود : ملازمة الحضور مع المذكور ومشاهدة القلب له حتى كأنه يراه .

• ولزوم المسامرة : هي لزوم مناجاة القلب لربه : تملقًا تارة ، وتضرعًا تارة ، وثناء تارة ، واستعظامًا تارة ، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب » .

الدرجة الثالثة : الذكر الحقيقى : وهوشهود ذكر الحق إياك والتخلص من شهود ذكرك .

قال ابن القيم : « إنما سمي هذا « الذكر » في هذه الدرجة حقيقيًا لأنه منسوب إلى الرب تعالى ، وأما نسبة الذكر للعبد : فليست حقيقية ، فذكر اللَّه لعبده هوالذكر الحقيقي ، وهو شهود ذكر الحق عبده ، وأنه ذكره فيمن اختصّه وأهّله للقرب منه ولذكره فجعله ذاكرًا له » .

• قوله : « والتخلص من شهود ذكرك » .

قال ابن القيم : « يعني بفناء شهود ذكره لك عن شهود ذكرك له ، وهذا الشهود يريح العبد من رؤية النفس وملاحظة العمل ، ويميته ويحييه ، يميته عن نفسه ، ويحييه بربه ، ويفنيه ويقتطعه من نفسه ويوصله بربه .

وهذا هوعين الظفر بالنفس .

قال بعض العارفين : انتهىٰ سفر الطالبين إلىٰ الظفر بنفوسهم »[١] .

موانع الذكر :

قال الشيخ عطية سالم : « موانع الذكر قسمان : قسم يتعلق بالمكان، وقسم يتعلق بحال الذاكر نفسه :

أ ـ فمما يتعلق بالمكان : فقد جاء النهي بخصوص الصلاة ، وهي أخص من عموم الذكر ـ جاء النهي ـ عنها في سبعة مواطن ، : المجزرة ، والمقبرة والمزبلة ، والحمام ، وقارعة الطريق ، وفوق ظهر بيت اللّٰه الحرام ، ومعاطن الإبل أما عموم الذكرغير الصلاة : فقدجاء النهي عنه في بيت الخلاء ، وفيه الذكر الوارد قبل وبعد الدخول .

ب ـ ما يتعلق بحال الذاكر : فهو من حيث الطهارة والحدث :

• فإن كان حدثه أكبر حُرّم عليه تلاوة القرآن ، ولو حرفًا واحدًا وأما غيره من الأذكار مما هواستعاذة أو استغفار أو دعاء فلا يمنع عنه .

• وأما الحدث الأصغر فلا يمنع حتىٰ ولا تلاوة القرآن ، ومعلوم أن الأكمل والأفضل أن يكون علىٰ طهارة كاملة وهيئة حسنة »[٢] .

فوائد الذكر :

جمع منها شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية في « حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح » ـ ثمانية وسبعين فائدة .

« قال ابن القيم : « وفي الذكر أكثر من مئة فائدة :

---

(١) « مدارج السالكين » (٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٦) .

(٢) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٢١١) .

إحداها : أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانية : أنه يرضي الرحمن عز وجل .

الثالثة : أنه يزيل الهم والغمّ عن القلب .

الرابعة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور .

الخامسة : أنه يقوي القلب والبدن .

السادسة : أنه ينوّر الوجه والقلب .

السابعة : أنه يجلب الرزق .

الثامنة : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .

التاسعة : أنه يورثه المحبة التي هي قطب رحى الإسلام .

العاشرة : أنه يورثه المراقبة ، حتى يدخله في باب الإحسان .

الحادية عشرة : أنه يورثه الإنابة ، وهي الرجوع إلى اللَّه عز وجل .

الثانية عشرة : أنه يورثه القرب منه ، فعلى قدر ذكره للَّه يكون قربه منه .

الثالثة عشرة : أنه يفتح له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة .

الرابعة عشرة : أنه يورثه الهيبة لربه - عز وجل - وإجلاله .

الخامسة عشرة : أنه يورثه ذكر اللَّه - تعالى - له ، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفًا .

السادسة عشرة : أنه يورث حياة القلب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟

السابعة عشرة : أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقده العبد ؛ صار بمنزلة الجسم إذ حيل بينه وبين قوته .

كان شيخ الإسلام ابن تيمية يصلي الفجر ، ثم يجلس يذكر اللَّه تعالى

إلىٰ قريب من انتصاف النهار يلتفت إلىٰ إلىٰ شيخ الإسلام ابن القيم قائلاً : « هذه غدوتي ، لو لم أتغدّ الغداء ؛ سقطت قوتي » .

الثامنة عشرة : أنه يورث جلاء القلب من صداه .

التاسعة عشرة : أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات .

العشرون : أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه .

الحادية والعشرون : أن ما يذكر به العبد ربه من جلاله وتسبيحه ، وتحميده يذكر بصاحبه عند الشدة .

الثانية والعشرون : أن العبد إذا تعرّف إلىٰ اللَّه تعالىٰ بذكره في الرخاء، عرفه في الشدة .

الثالثة والعشرون : أنه ينجي من عذاب اللَّه تعالىٰ .

الرابعة والعشرون : أنه سبب تنزيل السكنية ، وغشيان الرحمة ، وحفوف الملائكة .

الخامسة والعشرون : أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة ، والكذب ، والفحش ، والباطل .

السادسة والعشرون : أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس الغفلة مجالس الشياطين ، فليتخيّر العبد أعجبهما إليه ، وأولاهما به فهو مع أهله في الدنيا والآخرة .

السابعة والعشرون : أنه يسعد الذاكر بذكره، ويسعد به جليسه، وهذا هو المبارك أينما كان .

الثامنة والعشرون : أنه يُؤمّن العبد من الحسرة يوم القيامة .

التاسعة والعشرون : أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال اللَّه تعالىٰ العبد يوم الحرّ الأكبر في ظل عرشه .

الثلاثون : أن الاشتغال به سبب لعطاء اللَّه للذاكر أفضل ما يُعطي السائلين .

الحادية والثلاثون : أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها .

الثانية والثلاثون : أنه غراس الجنة .

الثالثة والثلاثون : أن العطاء والفضل الذي رُتِّب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال ففي « صحيح مسلم » عن أبي هريرة قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر، أحبّ إلي مما طلعت عليه الشمس** » .

وعن ثوبان أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من قال حين يمسي وإذا أصبح : رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً كان حقاً على الله أن يُرضيه**»[١] .

● وقال ﷺ : « **من دخل السوق ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير ،وهو على كل شيء قدير؛ كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة**»[٢] .

الرابعة والثلاثون : أن دوام ذكر اللَّه ـ تبارك وتعالى ـ يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد .

الخامسة والثلاثون : أن الذكر يسيّر العبد وهو في فراشه ،وفي سوقه ،

---

(١) حسن بمجموع الطرق : أخرجه الترمذي ،وأبو داود ،وابن ماجه ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » ، ومن طريقه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » ، وأحمد ، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي ، وصححه البوصيري ،وحسّنه الحافظ .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » ، والطبراني في « الدعاء » والبيهقي في « السنن » عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ . وفي الحديث عمرو بن دينار وهوضعيف لكن تابعه جماعة ، وتعدد الطرق عن سالم ، عن أبيه ، عن جده تدل على أن الحديث محفوظ عن سالم ، فإذا انضم إليه حديث ابن عمر الحسن لذاته عند الحاكم (١/ ٥٣٩) ازداد قوة وثبوتًا ،وبذلك ثبت حديث السوق .

وفي حال صحته وسقمه ، وليس شيء يعم الأوقات والأحوال مثله ، حتىٰ إنه يسيّر العبد وهو نائم علىٰ فراشه ، فيسبق القائم مع الغفلة .

السادسة والثلاثون : أن الذكر نور للذاكر في الدنيا ، ونور له في قبره ، ونور له في معاده ، يسير بين يديه علىٰ الصراط ، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر اللَّه تعالىٰ .

ولهذا كان النبي ﷺ يسأل ربه أن يجعله في لحمه ، وعظامه ، وعصبه ، وشعره ، وبشره ، وسمعه ، وبصره ، ومن فوقه ، ومن تحته ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وخلفه ، وأمامه حتىٰ يقول « **واجعلني نوراً** »[1] .

السابعة والثلاثون : أن الذكر رأس الأصول ، ومنشور الولاية ، فمن فُتح له فيه ؛ فقد فُتح له باب الدخول إلي اللَّه عز وجل - فليتطهر ، وليدخل علىٰ ربه - عز وجل - يجد عنده كل ما يريد .

الثامنة والثلاثون : في القلب خلة وفاقة لا يسدها شيء ألبته إلا الذكر .

التاسعة والثلاثون : أن الذكر يجمّع المتفرق ، ويفرّق المجتمع ، ويقرّب البعيد ، ويبعّد القريب .

يجمع ما تفرق علىٰ العبد من قلبه وإرادته ، وهمومه ، وعزومه ، ويفرّق ما اجتمع عليه من الهموم ، والغموم ، والأحزان ، وذنوبه ، وخطاياه وأوزاره ، وما اجتمع عليه من جند الشيطان ، ويقرّب إليه الآخرة ، ويبعد إليه الدنيا .

الأربعون : الذكر ينبه القلب من نومه ، ويوقظه من سِنته فالغفلة نوم ثقيل .

الحادية والأربعون : أن الذكر شجَرة تثمر المعارف والأحوال التي شمّر

---

(١) أخرجه مسلم (٦/ ٤٤ - ٤٥ نووي) .

إليها السالكون .

فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلىٰ التوحيد ، وهوأصل كل مقام، وقاعدته .

الثانية والأربعون : أن الذاكر قريب من مذكوره ، ومذكوره معه ، وهذه المعية معية خاصة ، فهي معية بالقرب ، والولاية ، والمحبة ، والنصرة، والتوفيق .

الثالثة والأربعون : أن الذكر يعدل عتق الرقاب ، ونفقة الأموال ، والحمل علىٰ الخيل في سبيل اللَّه ، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل اللَّه عز وجل .

الرابعة والأربعون : أن الذكر رأس الشكر ، فما شكر اللَّه تعالي من لم يذكرة .

الخامسة والأربعون : أن أكرم الخلق علي اللَّه تعالىٰ من المتقين من لا يزال لسانه رطبًا بذكره .

السادسة والأربعون : أن في القلب قسوة لا يذيبها إلا الذكر .

السابعة والأربعون : أن الذكر شفاء القلب ودواؤه .

قال مكحول : ذكر اللَّه تعالىٰ شفاء ، وذكر الناس داء .

إذا مرضنا تداوَينـا بذكركـمُ فنترك الذكر أحيانًـا فننتكسُ

الثامنة والأربعون : أن الذكر أصل موالاة اللَّه عز وجل ورأسها .

قال حسّان بن عطية : ما عادىٰ عبد ربه بشر أشد عليه من أن يكره ذكره أوْ من يذكره .

التاسعة والأربعون : الذكر جلاّب للنعم ، رافع للنقم .

الخمسون : أن الذكر يوجب صلاة اللَّه - عز وجل - وملائكته على الذاكر، ومن صلى اللَّه - تعالي - عليه وملائكته ، فقد أفلح كل الفلاح .

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾[1] .

الحادية والخمسون : أن من شاء أن يسكن رياض الجنة في الدنيا فليستوطن مجالس الذكر فإنها رياض الجنة .

وقد ذكر ابن أبي الدنيا وغيره من حديث جابر بن عبد اللَّه قال : خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فقال : « **يا أيها الناس ! ارتعوا في رياض الجنة** » . قلنا : يا رسول اللَّه ! وما رياض الجنة ؟ قال : « **مجالس الذكر** » ، ثم قال : « **اغدوا وروحوا واذكروا ، فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند اللَّه ، فلينظر كيف منزلة اللَّه تعالى عنده ، فإن اللَّه تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه** »[2] .

الثانية والخمسون : أن اللَّه عز وجل يباهي بالذاكرين ملائكته .

الثالثة والخمسون : أن مدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك .

الرابعة والخمسون : أن جميع الأعمال إنما شرعت لإقامة ذكر اللَّه .

الخامسة والخمسون : أن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكرًا للَّه عز وجل، فأفضل الصوام أكثرهم ذكرًا للَّه في صومهم .

السادسة والخمسون : أن إدامته تنوب عن التطوعات وتقوم مقامها سواء كانت بدنية ،أو مالية؛ كحج التطوع ، كما في حديث«**ذهب أهل الدثور بالأجور...**» .

---

(١) سورة الأحزاب الآيات (٤١ - ٤٣) .

(٢) حسن بشواهده .

السابعة والخمسون : أن ذكر اللَّه من أكبر العون على طاعته ، فإنه يحببها للعبد ، ويسهلها عليه ، ويلذذها له .

الثامنة والخمسون : أن ذكر اللَّه - عز وجل - يُسهِّل الصعب ، ويُيَسِّرالعسير ، ويخفف المشاق ، ويفرّج الغم والهم .

التاسعة والخمسون : أن ذكر اللَّه عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها ، وله تأثير عجيب في حصول الأمن .

الستون : أن الذكر يعطي الذاكر قوة ، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه .

وقد علّم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعليًا - رضي اللَّه تعالى عنهما - أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين ، ويحمدا ثلاثًا وثلاثين ، ويكبر أربعًاوثلاثين ، لما سألته الخادم ، وَشَكَتْ إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة فعلّمها ذلك وقال : « **إنه خير لكما من خادم** »[1] .

الحادية والستون : أن عمّال الآخرة كلهم في مضمار السباق ، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المضمار .

الثانية والستون : أن الذكر سبب لتصديق الرب عبده ، فإنه أخبر عن اللَّه تعالى بأوصاف كماله ، ونعوت جلاله ، فإذا أخبر بها العبد صدّقه ربه ، ومن صدّقه اللَّه تعالى لم يحشر مع الكاذبين ، ورُجي له أن يحشر مع الصادقين .

روى أبو إسحاق عن الأغرّ أبي مسلم أنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري - رضي اللَّه عنهما - أنهما شهدا على رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **إذا قال العبد : لا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر » قال : « يقول اللَّه تبارك وتعالى : صدق**

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٧١ - فتح) ، ومسلم (١٧/ ٤٥ نووي) .

عبدي لا إله إلا أنا ، وأنا أكبر .

وإذا قال : لا إله إلا اللَّه وحده .

قال : صدق عبدي ، لاإله إلا أنا وحدي .

وإذا قال : لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له .

قال : صدق عبدي ، لا إله إلا أنا ولا شريك لي .

وإذا قال : لا إله إلا اللَّه ، له الملك ، وله الحمد .

قال : صدق عبدي ، لا إله إلا إنا ، لي الملك، ولي الحمد .

وإذا قال : لا إله إلا اللَّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه .

قال : صدق عبدي ، لا إله إلا أنا ، ولاحول ولا قوة إلا بي » .

قال أبو إسحاق : ثم قال الأغرّ شيئًا لم أفهمه ، قلت : لأبي جعفر : ما قال ؟ قال : « من رزقهن عند موته ؛ لم تمسَّه النار »(١) .

الثالثة والستون : أن دور الجنة تُبنى بالذكر ، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر أمسكت الملائكة عن البناء .

الرابعة والستون : أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم .

الخامسة والستون : أن الملائكة تستغفر للذاكر .

السادسة والستون : أن الجبال والقفار تتباهى وتستبشر بمن يذكر اللَّه عليها .

السابعة والستون : أن كثرة ذكر اللَّه أمان من النفاق ، فإن المنافقين قليلو الذكر للَّه عز وجل قال تعالى في شأنهم : ﴿ **وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ**

---

(١) أخرجه الترمذي ، وابن ماجه ، وابن حبان . وهو صحيح .

(٢) سورة النساء الآية (١٤٢) .

قَلِيلاً ﴾[٢] .

الثامنة والستون : أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء .

قال مالك بن دينار : ما تلذّذ المتلذذون بمثل ذكر اللَّه عز وجل .

التاسعة والستون : أنه يكسو العبد نضرة في الدنيا ، ونورًا في الآخرة .

السبعون : أن في دوام الذكرفي الطريق ، والبيت ، والحضر ، والسفر ، والبقاع ، تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة ، فإن البقعة ، والدار والجبل ، والأرض ، تشهد للذاكر يوم القيامة .

والذاكر للَّه عز وجل في سائر البقاع مكثر شهوده ، ولعلهم أو أكثرهم أن يقبلوه يوم القيامة ، يوم قيام الأشهاد ، وأداء الشهادات فيفرح ويغتبط بشهادتهم »[١] .

ونختم بحديثين :

عن النعمان بن بشير مرفوعًا : « في التسبيحة والتحميدة والتهليلة يتعاطفن حول العرش ، لهن دويّ كدويّ النحل ، يذكرن بصاحبهن ، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الرحمن ما يذكر به »[٢] .

● وأخرج أبوأحمد العسال بإسناد صحيح عن ابن مسعود أنه قال :

« من قال : سبحان اللَّه والحمد للَّه واللَّه أكبر ، تلقّاهن مَلَك فعرج بهن إلىٰ اللَّه عز وجل ، فلا يمرّ بملأ من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتىٰ يحيي بهن وجه الرحمن عز وجل »[٣] .

---

(١) ملخصاً من « الوابل الصيب » لشيخ الإسلام ابن قيم الجوزية .

(٢) صحيح : أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال : صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي وصححه الألباني في «مختصر العلو » (ص٩٦) .

(٣) « مختصر العلو » (ص١٠٤) .

سادات الذاكرين

سيد القرّاء أبيّ بن كعب :

صَحّ من طرق عن أنس بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **أرحم أمتي أبو بكر ... وأقرؤهم أبيّ** »[١] .

قال الذهبي في « معرفة القرّاء الكبار » أبيّ أقرأ من أبي بكر ومن عمر .

وعن أبي المهلب قال : كان أبيّ يختم القرآن في ثمان ، قال الذهبي : إسناده صحيح . و لما مات أبيّ قال عمر : مات اليوم سيد المسلمين .

ذو النورين : عثمان بن عفان ـ رضى اللّه عنه ـ :

قال عبد الرحمن بن عثمان التيمي ـ رحمه اللّه ـ : قلت : لأغلبن الليلة علي المقام ، فسبقت إليه ، فبينا أنا قائم أصلي إذْ وضع رجل يده علي ظهري ، فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان ـ رحمة اللّه عليه ـ وهو خليفة ، فتنحيت عنه ، فقام فما برح قائمًا حتىٰ فرغ من القرآن في ركعة لم يزد عليها .

فلما انصرفت قلت : يا أمير المؤمنين ، إنما صليت ركعة ؟

قال : أجل هي وتري »[٢] .

- وقال سليمان بن يسار ـ رحمه اللّه ـ :

قام عثمان بن عفان ـ رضي اللّه عنه ـ بعد العشاء فقرأ القرآن كله في

---

(١) صحيح : رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد والبغوي ، وصححه ابن حبان والحاكم ، والطحاوي في « المشكل » ، وأبونعيم وابن سعد.

(٢) صحيح : أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (١٢٧٦) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٣/ ٢٤) ، وابن سعد في « طبقاته » (٣/ ٧٥) ، والبيهقي في « سننه الكبرىٰ » ، وابن عساكر، وأبو نعيم في « الحلية » .

ركعة لم يصل قبلها ولا بعدها[١] .

ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ :

عن أبي بكر وعمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ قالا : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل ، فليقرأ على قراءة ابن أم عبد** »[٢] .

قال النووي في « التبيان » : « وأما الذين ختموا في الأسبوع فكثيرون : نُقل عن عثمان بن عفان ، وعبد اللَّه بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبيّ بن كعب ـ رضي اللَّه عنهم ـ » .

قال ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ « ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس مفطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون » وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا ، حليمًا حكيمًا ، سكينًا ، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ، ولا غافلاً ، ولا صخّابًا ، ولا صيّاحًا ، ولا حديدًا »[٣] .

معاذ بن جبل : مقدام العلماء :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود ، وأبيّ ، ومعاذ ابن جبل ، وسالم مولى أبي حذيفة** »[٤] .

في مرض موتـه قال ـ رضي اللَّه عنه ـ « اخنق خنقك ، فوعزتك إني أحبك . . . اللَّهم إني كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك . . . اللَّهم إنك

---

(١) صحيح : أخرجه ابن المبارك ، وابن سعد ، و ابن عساكر .

(٢) صحيح : رواه أحمد وابن ماجه والحاكم في « المستدرك » ، ووافقه الذهبي وتابعه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٩٦١) .

(٣) « الفوائد » (ص١٩٥) لابن القيم .

(٤) رواه البخاري والترمذي وأبونعيم في « الحلية » .

تعلم أني ما كنت أحب البقاء في الدنيا لكرْي الأنهار ، ولا لغرس الأشجار، وإنما لمكابدة الساعات ، وظمأ الهواجر ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

قال ـ رضي اللَّه عنه ـ : ما عمل آدمي عملاً أنجىٰ له من عذاب اللَّه من ذكر اللَّــه ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، ولا الجهــاد في سبـيل اللَّه ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل اللَّه ، إلاّ أن يضـرب بسـيفــه حتي ينقطع ؛ لأن اللَّه تعالي يقول في كتابه : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [(١)] .

أبو الدرداء يسبح كل يوم مائة ألف :

عن أبي حَلْبس : قيل لأبي الدرداء ، وكان لا يفتر من الذكر : كم تسبّح في كل يوم ؟ قال : مائة ألف ، إلا أن تخطئ الأصابع [(٢)] .

تميم الداري يقرأ القرآن في ركعة :

عن ابن سيرين ، أن تميمًا الداري كان يقرأ القرآن في ركعة [(٣)] .

وعن أبي المهلب : كان تميم الداري يختم القرآن في سبع [(٤)] .

وعن مسروق : قال لي رجل من أهل مكة : هذا مقام أخيك تميم الداري، صلّىٰ ليلة حتىٰ أصبح ، أو كاد ، يقرأ آية ، يرددها ويبكي ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [(٥)] » [(٦)] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٥) .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد في « الطبقات» (٣/ ٥٠٠) .

(٣) « السير » (٢/ ٤٤٥) ، و« تهذيب ابن عساكر » (٣/ ٣٥٩) .

(٤) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد (٣/ ٥٠٠) .

(٥) سورة الجاثية الآية (٢١) .

(٦) رجاله ثقات : أخرجه الطبراني ، والذهبي في « السير » (٢/ ٤٤٥) .

أبو هريرة يسبح كل يوم اثنتى عشر ألف تسبيحة :

عن عكرمة أن أبا هريرة كان يسبح كل يوم اثنتي عشر ألف تسبيحة[(١)] .

أبو مسلم الخولاني يكثر من ذكر الله حتى يقال أنه مجنون :

كان أبو مسلم الخولاني يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان ، ويقول : « اذكر اللَّه حتى يرى الجاهل أنك مجنون »[(٢)] .

الإمام سليم بن عتر وخبره العجيب في ختم القرآن :

قاضي مصر وواعظها وقاصّها وعابدها ، وكان يدعى الناسك لشدة تألهه .

عن الحارث بن يزيد : أن سُلَيم بن عتر كان يقرأ القرآن كل ليلة ثلاث مرات[(٣)] .

أبو العالية :

قال أبو خلدة خالد بن دينار : سمعت أبا العالية يقول : كنا عبيداً مملوكين، منا من يؤدي الضرائب ، ومنا من يخدم أهله ، فكنا نختم كل ليلة ، فشقّ علينا حتى شكا بعضنا إلى بعض ، فلقينا أصحاب رسول اللَّه ﷺ فعلّمونا أن نختم كل جمعة ، فصلينا ونمنا ولم يشق علينا »[(٤)] .

بل أنتم السادة وملوك الآخرة ، ونحن عبيد شهواتنا وبطوننا .

قال أبوبكر بن أبي داود : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية .

---

(١) « السير » (٢/ ٦١٠) ، و« تاريخ دمشق » .
(٢) « تاريخ دمشق » لابن عساكر (٩/ ١٧ب) .
(٣) « السير » (٤/ ١٣٢) .
(٤) « طبقات ابن سعد » (٧/ ١١٣) ، و« السير » (٤/ ٢٠٩) .

سعيد بن جبير :

عن عبد الملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير أنه كان يختم في كل ليلتين[١] .

عروة بن الزبير :

قال ابن شوذب : كان عروة يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف نظرًا، ويقوم به الليل »[٢] .

منصور بن زاذان يختم في اليوم مرتين :

قال يزيد بن هارون : كان منصور يختم في اليوم مرتين ويصلي الليل كله .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يبلّ عمامته من دموع عينيه .

رحم اللَّه ابن زاذان ، المتيسر له قراءة القرآن[٣] .

• قال الأوزاعي : كان حسّان بن عطية إذا صلى العصر يذكراللَّه تعالى في المسجد حتى تغيب الشمس[٤] .

• الإمام حمزة بن حبيب الزّيات ، القيّم بكتاب اللَّه ، العابد الخاشع القانت للَّه يقول : نظرت في المصحف حتى خشيت أن يذهب بصري .

• والإمام السيد الذي خالط القرآن لحمه ودمه أبوجعفر القارئ ، يزيد ابن القعقاع أحد القرّاء العشرة .

---

(١) « حلية الأولياء » (٤/ ٢٧٣) و« طبقات ابن سعد » (٦/ ٢٥٩) ، و« الزهد » لأحمد (٢٣٧٠) و«السير» (٤/ ٣٢٥) .

(٢) ابن عساكر (١١/ ٢٨٦) ب ، و« الحلية » (٢/ ١٧٨ ـ ١٨٠) ، و« السير » (٤/ ٤٢٦) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٥/ ٤٤١) .

(٤) « السير » (٥/ ٤٦٧) .

عن نافع قال : لما غُسِّل أبوجعفر القارئ ، نظروا ما بين نحره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف ، فما شك مَنْ حضره أنه نور القرآن - رحمه الله -[١] .

شيخ الإسلام أبوبكر بن عيّاش يختم القرآن ثمانية عشر ألف ختمة :

قال الذهبي : قد روي من وجوه متعددة أن أبا بكر بن عياش مكث نحواً من أربعين سنة يختم القرآن في كل يوم وليلة مرة .

قال يحيى اليماني : لما حضرت أبا بكرالوفاة بكت أخته ، فقال لها : ما يبكيك ؟ انظري إلى تلك الزاوية ، فقد ختم أخوك فيها ثمانية عشر ألف ختمة .

أحاديثُ لو صِيغتْ لألهتْ بُحسنها عن الوَشْي أَوْ شُمَّتْ لأغنت عن المسكِ

قال النووي في « شرح مسلم » (١/ ٧٩) :

« روينا عنه أنه قال لابنته عند موته ، وقد بكت : يا بنيّة ، لا تبكي ، أتخافين أن يعذبني الله تعالى ، وقد ختمت في هذه الزاوية أربعة وعشرين ألف ختمة ؟! » .

● وسأل كرز بن وبرة ربه أن يقوى حتى يختم القرآن في اليوم والليلة ثلاث مرات[٢] .

● وثابت البناني قال عنه شعبة : كان ثابت يقرأ القرآن في يوم وليلة ، ويصوم الدهر[٣] .

وممن ختم القرآن في يوم وليلة : واصل بن عبد الرحمن البصري ،

---

(١) « معرفة القراء الكبار » للحافظ الذهبي (١/ ٧٥-٧٦) .
(٢) « السير » (٦/ ٨٥) .
(٣) « حلية الأولياء » (٢/ ٢١٩) .

ووكيع بن الجراح ، والحسن بن صالح .

وأمير المؤمنين في الحديث يحيىٰ بن سعيد القطان قال عنه يحيىٰ بن معين : « أقام يحيىٰ بن سعيد عشرين سنة يختم القرآن كل ليلة »[١] .

• والإمام عبد اللَّه بن إدريس الأودي قال عنه الإمام أحمد : كان ابن إدريس نسيج وحده .

قال الإمام النووي عنه : « روينا عنه أنه قال لبنته حين بكت علىٰ حضور موته : لا تبكي ؛ فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة» .

• والإمام عبد الرحمن بن القاسم إمام مصر وصاحب الإمام مالك :

قال عنه أسد بن الفرات : كان ابن القاسم يختم كل يوم وليلة ختمتين ، قال : فنزل بي حين جئت إليه عن ختمة ؛ رغبة في إحياء العلم »[٢] .

ناصرالسنة الإمام الشافعي يختم كل يوم ختمة ، وفي رمضان ستين ختمة :

قال الذهبي : « قال الربيع بن سليمان ـ من طريقين عنه ، بل أكثر ـ كان الشافعي يختم القرآن في شهر رمضان ستين ختمة »[٣] .

وقال الحميدي : « كان الشافعي يختم القرآن كل يوم ختمة »[٤] .

هُمُ الرجالُ وعيبٌ أَنْ يُقالَ لِمنْ لم يتصفْ بمعاني وَصْفِهِمْ رَجُلُ

* * *

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (٩/ ١٧٩) .

(٢) « السير » (٩/ ١٢١) .

(٣) « السير » (١٠/ ٣٥) ، و« مناقب الرازي » (ص١٢٧) ، و« توالي التأسيس » (ص٦٨) .

(٤) « تهذيب الأسماء واللغات » للنووي (١/ ٥٤) .

• أما إمام أهل السنة ابن حنبل ، فقد قال عنه جعفر بن أبي هاشم : سمعت أحمد بن حنبل يقول : ختمت القرآن في يوم ، فعددت موضع الصبر ، فإذا هو نيف وتسعون[(١)] .

حديث ابن المديني شيخ البخاري عن بشر الحافي وعبد الرحمن بن مهدي :

قال الإمام علي بن المديني شيخ البخاري : حفر بشر قبره ، وختم فيه القرآن وكان ورده ثلث القرآن[(٢)] .

وقال علي : كان ورد عبد الرحمن كل ليلة نصف القرآن[(٣)] .

الجنيد سيد الطائفة ودرره عن الذكر :

قال ـ رحمه اللَّه ـ بعد أن ذكر أهل المعرفة باللَّه ، وما يراعونه من الأوراد ، والعبادات بعدما ألطفهم اللَّه به من الكرامات : العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رءوس الملوك .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ : إن اللَّه عز وجل يخلص إلى القلوب من بِرِّه حسبما خلصت القلوب به إليه من ذكره ، فانظر ماذا خالط قلبك ؟!

وقال ـ رحمه اللَّه ـ لو أقبل صادق على اللَّه ألف ألف سنة ، ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ : من استخلصه الحق بمفرد ذكره وصافاه ، يكون له وليّا منتخبًا مكرمًا مواصلاً ، يورثه غرائب الأنباء ، ويزيده في التقريب زلفى ، ويثبته في محاضر النجوى ، ويصطنعه للاصطفاء ، ويرفعه إلى الغاية القصوى ، ويبلّغه في الرفعة إلى المنتهى ، ويُشرف به من ذِروة الذرا

---

(١) « مناقب الإمام أحمد » (ص٣٥٨ـ٣٥٩) .
(٢) « السير » (٨/ ٣٦٠) .
(٣) « السير » (٩/ ٢٠٣) .

على مواطن الرشد والهدى » .

قال أبو بكر العطوي : كنت عند الجنيد حين مات ، فختم القرآن ، ثم ابتدأ من البقرة فقرأ سبعين آية ، ثم مات ـ رحمه اللَّه ـ [١] .

• وعطاء بن السائب قال عنه الإمام أحمد : « ثقة ثقة ، رجل صالح ، ومن سمع منه قديمًا كان صحيحًا ، وكان يختم كل ليلة » .

• وممن اشتهر بختم القرآن في أقصر مدة : بكر بن سهل بن إسماعيل الإمام المفسّر المقرئ ، وأبو قبيصة الضبي الإمام الخيّر .

• والكتاني أبو بكرمحمد بن علي بن جعفر قال عنه الذهبي : « يُقال : ختم الكتاني في الطواف اثنتي عشرة ألف ختمة ، وكان من الأولياء » [٢] .

الإمام القدوة شيخ نيسابور أحمد بن حرب بن فيروز :

قال زكريا بن دَلَّوَيْه : كان أحمد بن حرب إذا جلس بين يدي الحجام ليُحفي شاربه ، يُسَبِّح ، فيقول له الحجّام : اسكت ساعة ، فيقول : اعمل أنت عملك ، وربما قطع من شفته وهو لا يعلم .

جعفر بن الحسن الدّرزيجاني المقرئ :

قال عنه الحافظ ابن رجب : «كان مداومًا على الصيام والتهجد والقيام، له ختمات كثيرة جداً ، كل ختمة منها في ركعة ، توفي في الصلاة ساجدًا» [٣] .

أبو الحسن الباهلي من شدة اشتغاله باللَّه مثل مجنون أو واله :

قال عنه أبو إسحاق الإسفراييني : أنا في جانب شيخنا أبي الحسن

---

(١) « الحلية » (١٠/ ٢٦٤) .

(٢) « السير » (١٤/ ٥٣٥) .

(٣) « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب (١/ ١١٠) .

الباهلي كقطرة في بحر .

وقال ابن الباقلاني : كان الباهلي من شدة اشتغاله بالله مثل مجنون أو واله[١] .

أحمد بن رضوان بن محمد صاحب « الواضح في القراءات العشر » :

قال عنه الخطيب البغدادي : كان أحمد بن رضوان أحد القرّاء المذكورين بإتقان الروايات ، ، له في ذلك تصانيف ، توفي وهو شاب ، وقد كان الناس يقرءون عليه في حياة الحمامي لعلمه ، حضرته ليلة في الجامع ، فقرأ فيها ختمتين قبل أن يطلع الفجر »[٢] .

شيخ الإسلام ابن تيمية وخبره العجب :

يقول عنه تلميذه ابن القيم : « قال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بنيّة إحمام نفسي وإراحتها ، لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر »[٣] .

وقال ـ رحمه الله ـ : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، إن رُحْت فهي معي لا تفارقني ، إن حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة .

ولما سجن بالقلعة وصار داخل سورها ؛ نظر إليه وقال : ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ [٤] الآية .

وكان يقول : لو بذَلْتُ ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة . وما هذا إلا لتفرغه لتلاوة القرآن فقد « ختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ـ ثمانين أو إحدىٰ وثمانين ختمة انتهىٰ في آخر ختمة إلىٰ آخر

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (١٦/ / ٣٠٤) .

(٢) « تاريخ بغداد » للخطيب (٤/ ١٦١) .

(٣) « الوابل الصيب » (ص٨٤) .

(٤) سورة الحديد الآية (١٣) .

اقتربت الساعة ﴿**إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾ ، ثم كملت عليه بعد وفاته وهو مسجىً »[١] .

إن للَّه عبادًا تُعْلىٰ قلوبهم بالأذكار ، كما تُعلىٰ الأطيار في الأوكار لو فتشت منهم القلوب ، لما وجدت فيها غير حبّ المحبوب .

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكرُ ... ولكنْ نسيمُ القرب يبدو فيظهَرُ

فأحيا به عنــي وأحيـــا به له ... إذ الحق عنـــه مُعْبِرٌ ومُعَبـــرٌ

ابن المؤذن يختم في رمضان مائة ختمة :

محمد بن محمد بن عبد الرحمن التميمي أبو عبد اللَّه الحَلْفاوي التونسي نزيل غرناطة يعرف بابن المؤذن .

كان صاحب مقامات وكرامات ، حسن الصلاة جدًا ، وكان يختم في رمضان مائة ختمة[٢] .

ابن عياش الزاهد يختم كل يوم نصف ختمة :

أحمد بن محمد بن الشهاب أبو العباس الجوخي الدمشقي المقرئ . . . عني بالقراءات وانتفع به جمع من أهل الحجاز واليمن .

قال عنه السخاوي في « الضوء اللامع » (٢/ ٢٠٣) : « كان بصيرًا بالقراءات دينًا خيّرًا غاية في الزهد في الدنيا . . . تلاوته كل يوم نصف ختمة .

الأرمنازي لا يفتر عن تلاوة القرآن :

إبراهيم بن أبي الوفاء بن أبي بكر الأرمنازيّ ثم الحلبي الشافعي .

---

(١) « العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية » لابن عبد الهادي (ص٣٦٨) .
(٢) « الدرر الكامنة » لابن حجر (٤/ ٣٠٢ـ٣٠٣) .

قال ابن الحنبلي : واتفق له أنه قرأ في طريق الحاج ذهابًا وإيابًا وفي إقامته بمصر قدر شهرين ما يزيد على ثلثمائة وخمسين ختمة .

قيل : كان راتبه في الإقامة مع قضاء مصالحه في اليوم والليلة ختمة وبدونه ختمة ونصفًا ، وكان يمشي في الأسواق فلا يفتر عن التلاوة[1] .

جلال الدين البصرويّ القاضي ليله ونهاره مع القرآن :

محمد بن علي بن يوسف خطيب الجامع الأموي .

كان مواظبًا على تلاوة كتاب اللَّه راكبًا وماشيًا .

قال عنه الشيخ الصالح عبد القادر بن سوار : كان لا يفتر من قراءة القرآن ليلاً ولا نهاراً ، وكان كثيراً ما تتفق له التلاوة وهو في الخلاء ، فقيل له في ذلك فقال : إن القرآن يجري على لساني اتفاقًا من غير قصد[2] .

شيخ الإسلام تقي الدين البلاطنسي يختم في رمضان في كل ليلة ختمتين :

شيخ الإسلام الحافظ الناقد أبو بكر بن محمد بن محمد تقي الدين البلاطنسي : « كان يختم في رمضان في كل ليلة ختمتين ، وأكبّ في آخر عمره على التلاوة فكان لا يأتيه الطلبة لقراءة الدرس إلا وجدوه يقرأ القرآن»[3] .

الشيخ الفاضل : شمس الدين البابلي :

محمد بن علاء شمس الدين البابلي القاهري الشافعي ، كان كثير

---

(١) « الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزي (ص١/ ١٠٦) .

(٢) « الكواكب السائرة » (٢/ ٤٧ ـ ٤٨) .

(٣) « الكواكب السائرة » (٢/ ٨٧ ـ ٨٩) .

العبادة يواظب على قراءة القرآن سرًا وجهرًا ، وكان راتبه في كل يوم وليلة نصف القرآن ويختم يوم الجمعة ختمة كاملة ، وكان كثير البكاء عند قراءة القرآن »[١] .

أخي : الديك يحن إلى سماع القرآن فأين قلبك ؟! :

كان للشيخ الفقية شرف الدين العتياوي ديك ، فكان إذا قعد يقرأ القرآن يأتي ديك عندهم فيقف بين يدي الشيخ يرفع رجلاً ويضع أخرى فلا يبرح حتى يفرغ الشيخ من قراءته[١] .

قم فقـد صاحـت الديـوك وحنّت لا تكـون الديـوك أطـرب منـا

عليك بذكر اللّه فهـو دواء الجنـون

ومن حديثي بكم قالـوا به مرض فقلت : لا أذهب اللّه عني ذلك المرض

وأحلى ما نختم به ومسك القول حديث أبي سعيد الخدري ، وبصحّته طابت أيامنا ، وأقسم باللّه أني فرحت بصحة هذا الحديث أشد من فرحي بملك الأرض بأسرها :

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **أكثروا ذكر اللّه حتى يقولوا مجنون** »[٢] .

ورجل ذكر الله خاليًا ، ففاضت عيناه

قال الحافظ ابن حجر : (**ذكر اللّه**) : أي بقلبه من التذكر ، أو بلسانه من الذكر .

---

(١) « خلاصة الأثر » (٤/ ٣٩-٤٢) .

(٢) « الكواكب السائرة » (٣/ ٢٢٢-٢٢٣) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي ، وصححه الحاكم والسيوطي، وقد اقتصر ابن حجر في أماليه على كونه حسنًا وصححه الألباني في «الصحيحة» المجلد السادس .

(**خاليًا**) : أي من الخلو ، لأنه يكون حينئذ أبعد من الرياء ، والمراد خاليًا من الالتفات إلى غير اللَّه ولو كان في ملأ ، ويؤيده رواية البيهقي « ذكر اللَّه بين يديه » ، ويؤيد الأول رواية ابن المبارك وحماد بن زيد : « ذكر اللَّه في الخلاء » ، أي في موضع خال ، وهي أصح .

قوله : (**ففاضت عيناه**) : أي فاضت الدموع من عينيه ،و أسند الفيض إلى العين كأنها هي التي فاضت .

قال القرطبي : وفيض العين بحسب حال الذاكر وبحسب ما يكشف له : ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية اللَّه ، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه ، قلت : قد خص في بعض الروايات بالأول[1] .

أخي : إن الخائفين قوم ذلت ـ واللَّه ـ منهم الأسماع والأبصار والأبدان حتى حسبهم الجاهل مرضى ، وهم ـ واللَّه ـ أصحاب القلوب ، قد كاتبوا اللَّه بدموعهم وهم ينتظرون رد الجواب .

صحائفنا إشارتنا وأكثر رسلنا الحرقُ
لأن الكتب قد تُقرا بغير الدمع ما نثقُ

واللَّه لقد كابدوا في الدنيا حزنًا شديدًا ، وجرى عليهم ما جرى على من كان قبلهم ، واللَّه ما أحزنهم ما أحزن الناس ، ولكن أبكاهم وأحزنهم الخوف من النار .

« كلما أذهب الأعمار طلوعهم وغربوهم ، سالت من الأجفان جزعًا غروبهم ، وكلما لاحت في مرآة الفكر ذنوبهم تجافت عن المضاجع خوفًا

(١) « فتح الباري » (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣) .

جنوبهم ، وكلما نظروا فساءهم مكتوبهم وجلت قلوبهم » .

أموات عن الدنيا ما دُفنوا ، وأغمضوا عنها عيونهم وحزنوا ، باعوها بما يبقىٰ فلا واللَّه ما غُبنوا ، تاللَّه لقد حصل مطلوبهم ، ﴿ **إذا ذكر اللَّه وجلت قلوبهم** ﴾ .

حبسوا النفوس في سجن المحاسبة ،وبسطوا عليها ألسن المعاتبة ، ومدوا نحوها أكف المعاقبة ، فارتفعت بالمعاتبة عيوبهم ، ﴿ **إذا ذكر اللَّه وجلت قلوبهم** ﴾[1] .

إذا جنهم الليل فقيام علىٰ أطرافهم يفترشون وجوههم ، تجري دموعهم علىٰ خدودهم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم ، قد باتوا للَّه سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا اللَّه عز وجل، فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتىٰ تبل ثيابهم .

لسان حالهم قول القائل : « يا كم يا ليل يا نهار تحطان من أجلي وأنا غافل عما يراد بي .

إذا ما الليل أظلم كابــدوه ... فيســفرُ عنهمُ وهم ركــوعُ

أطار الخوف نومهمُ فقامــوا ... وأهل الأمن فى الدنيا هجــوعُ

هم واللَّه كما قال الحسن : « إن للَّه عباداً كمن رأىٰ أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، ينظر الناظر إليهم فيحسبهم مرضىٰ » .

قال فيهم شميط : « أتاهم من اللَّه وعيد وقذهم[2] ، فناموا علىٰ

---

(١) « التبصرة » (١/ ٣٩٤-٣٩٥) .

(٢) وقذهم : أي أمرضهم مرضاً شديداً .

خوف ، وأكلوا على تنغيض » .

قال السري : أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى .

لما خفيت العواقب عليهم ، فزعوا إلى القلق ، واستراحوا إلى البكاء .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ** ﴾(٣) .

عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال أبو القاسم ﷺ : « **والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً** »(٤) .

وعن أبي ذر ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحُق لها أن تئط(٥) ، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربعة أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد للّه ، واللّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصعدات(٦) تجأرون إلى اللّه** »(٧) .

---

(١) سورة الأنفال الآية (٢) .

(٢) سورة الإسراء الآية (١٠٧ ـ ١٠٩) .

(٣) سورة النجم الآية (٥٩ ـ ٦٠) .

(٤) رواه البخاري .

(٥) تئط : أي تصوت ، من الأطيط ، و هوصوت الأقتاب .

(٦) الصحاري .

(٧) صحيح : رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

قال أبو ذر : يا ليتني كنت شجرة تعضد .

وعن ابن عباس - رضي اللّه عنهما - قال : قال أبو بكر : يا رسول اللّه ! قد شبت ؟ قال : « **شيبتني ، هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون** »، **وإذا الشمس كورت** »[(١)] .

وعن أم العلاء الأنصارية قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « **واللّه لا أدري وأنا رسول اللّه ما يفعل بي ولا بكم** » . وقال : « **لن ينجى أحدا منكم عمله ، ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمته** »[(٢)] .

وعن عبد اللّه بن الشخير - رضي اللّه عنه - قال : « أتيت رسول اللّه ﷺ وهي يصلي ، وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء »[(٣)] .

وعن عطاء قال : دخلت أناوعبيد بن عمير على عائشة - رضي اللّه عنها - فقال عبيد بن عمير : حدثينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول اللّه ﷺ ، فبكت وقالت : قام ليلة من الليالي فقال : «**يا عائشة ذريني أتعبدُ لربي** » ، قالت : قلت : واللّه إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك ، قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي ، فلم يزل يبكي حتى بل حجره ، ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض ، وجاء بلال يؤذن بالصلاة ، فلما رآه يبكي ، قال: يا رسول اللّه تبكي وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « **أفلا أكون عبداً شكوراً ، لقد نزلت الليلة آيات ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها** :﴿ **إن في خلق السموات والأرض** ... ﴾ الآية »[(٤)] .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي والحاكم عن ابن عباس ، وابن مردويه عن سعد ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦١٧) .

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٣) صحيح : راه أبو داود ، والترمذي في « الشمائل » ، وقال النووي : إسناده صحيح ، وقال الألباني : إسناده صحيح .

(٤) صحيح : رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبي ﷺ » وابن حبان ، وصححه الألباني .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **عينان لا تريان النار : عين بكت وجلاً من خشية اللّه، وعين باتت تكلأ في سبيل اللّه** »[١] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **عينان لا تمسهما النار أبداً : عين بكت من خشية اللّه ، وعين باتت تحرس في سبيل اللّه** »[٢] .

وقال ﷺ : « **حُرم على عينين أن تنالهما النار : عين بكت من خشية اللّه ، وعين باتت تحرس الإسلام وأهله من أهل الكفر** »[٣] .

وقال رسول اللّه ﷺ لجبريل عليه السلام :

« **ما لي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ قال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار** »[٤] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل** »[٥] .

وقال ﷺ : « **لا يلج النار رجل بكى من خشية اللّه حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل اللّه ودخان جهنم في منخري مسلم أبداً** »[٦] .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الأوسط » عن أنس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع» رقم (٣٩٩٠) .

(٢) صحيح : رواه أبي يعلى في «مسنده » والضياء عن أنس ،و صححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٩٩٢).

(٣) حسن : رواه الحاكم والبيهقي في « شعب الإيمان » ، و حسنه الألباني في « صحيح الجامع» رقم (٣١٣١) .

(٤) حسن : أخرجه أحمد ، وابن أبي الدنيا في « صفه النار » ، و « الرقة والبكاء » له أيضاً ، وحسنه الألباني في « السلسة الصحيحة » رقم (٢٥١١) .

(٥) صحيح : أخرجه الضياء عن الزبير ، وصححه الألباني في « الصحيح الجامع » رقم (٥٨٩٤) ، و«الصحيحة» رقم (٢٣١٣) .

(٦) صحيح : رواه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع » رقم (٧٦٥٥) .

ورضي اللَّه عن الصديقة بنت الصديق تقول لرسول اللَّه في مرض موته : « إن أبا بكر رجل أسيف ، إن يقم مقامك يبكي فلا يقدر على القراءة »[١] .

وفي رواية : « إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء»[٢] .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولو تعلمون حق العلم ، لصرخ أحدكم حتى ينقطع صوته ، ولسجد حتى ينقطع صلبه »[٣] .

وعن ابن أبي مليكة قال : مر رجل على عبد اللَّه بن عمرو وهوساجد في الحجر وهي يبكي ، فقال : أتعجب أن أبكي من خشية اللَّه، وهذا القمر يبكي من خشية اللَّه ؟ قال : ونظر إلى القمر حين شرف أن يغيب» .

وعن ثوبان مرفوعًا : « **طوبى لمن ملك لسانه ، ووسعه بيته ، وبكى على خطيئته** »[٤] .

وعن مجاهد : أن نبي اللَّه داود عليه السلام بكى من خطيئته حتى هاج ما حوله .

وقال مجاهد : كان داود عليه السلام يؤتى بالإناء ليشرب ، فما يشرب إلا ثلثه أو نصفه ، ثم يذكر خطيئته ، فينتحب النحبة تكاد مفاصله يزول بعضها من بعض ، ثم ما يتمه حتى يملأه من دموعه »[٥] .

---

(١) رواه البخاري ـ كتاب الأذان باب من أسمع الناس تكبير الإمام .
(٢) البخاري كتاب الأذان باب إذا بكى الإمام في الصلاة .
(٣) إسناده صحيح : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ، وهناد والمروزي في « زيادات زهد ابن المبارك » ووكيع في « الزهد » وصححه الحاكم ووافقة الذهبي .
(٤) حسن : رواه الطبراني في « الصغير » ، وأبو نعيم في « الحلية » ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٩٢٩) .
(٥) « الرقة والبكاء » (ص٢٤٧) .

وعن إسماعيل بن عبيد قال : كان داود إذا عوتب في كثرة البكاء قال : دعوني أبكي قبل يوم البكاء ، قبل احتراق العظام ، واشتعال اللحىٰ ، قبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»[١] .

وقال وهيب بن الورد : لما عاتب اللَّه نوحًا في ابنه ، فأنزل عليه : ﴿ **إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ بكىٰ ثلثمائة عام ، حتىٰ صار تحت عينه أمثال الجداول من البكاء »[٢] .

قال مالك بن دينار : كان داود إذا ذكر الخطيئة في الليل ، خرج حتىٰ ينظر إلىٰ السماء ، ثم يبكي ويقول : إليك رفعت رأسي يا ساكن السماء نظر العبيد إلىٰ أربابها يا عامر السماء ، ثم لا يزال يبكي حتىٰ يصبح .

قال يزيد الرقاشي : « إنما سمي نوحًا ﷺ لأنه كان نوّاحًا »[٣] .

وعن مجاهد قال : كان يحيىٰ بن زكريا يأكل العشب ، وإن كان ليبكي من خشية اللَّه ما لو كان القار علىٰ عينه لخرقه ، وكانت الدموع قد اتخذت مجرىٰ في وجهه .

وعن وهيب بن الورد قال : كان يحيىٰ بن زكريا له خطان في وجهه من البكاء .

فقال له أبوه زكريا : إني إنما سألت اللَّه ولدًا تقر به عيني ، فقال : يا أبه ! إن جبريل أخبرني إن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكّاء .

كان يحيىٰ عليه السلام يبكي حتىٰ رق جلد خده ، هذا وقد كان علىٰ الجادة فكيف بمن ضل ؟!

---

(١) « الزهد » للإمام أحمد (١/ ١٣٥) ، و« الرقة والبكاء » (ص٢٤٧) .
(٢) « الرقة والبكاء » (ص٢٣١) .
(٣) « حلية الأولياء » (٣/ ٥١) ، و« الرقة والبكاء » (ص٢٣١) .

وعجبًا من بكائه ، وما ثم مآثم فكيف بمن أغرقته الذنوب .

أخي : نُـح نَـوح نـوح تحيا حياة يحيىٰ .

لا تحبسـن ماء العيـون فإنه لك يا لديـغ هـواهم تريـاق

قال خالد بن معدان : « إن الدمعة لتطفئ البحور من النيران ، فإن سالت علىٰ خد باكيها لم ير ذلك الوجه النار ، وما بكىٰ عبد من خشية اللَّه إلا خشعت لذلك جوارحه ، وكان مكتوبًا في الملأ الأعلىٰ باسمه واسم أبيه، منوراً قلبه بذكر اللَّه » .

وقال رجل للحسن أوصني : قال : رطب لسانك بذكر اللَّه ، ونّد جفونك بالدموع من خشية اللَّه ، فقل من طلبت لديه خيراً فلم تدركه .

ووعظ مالك بن دينار ، فتكلم ، وبكىٰ حوشب بن مسلم، فضرب مالك بيديه علىٰ منكبه فقال : إبك يا أبا بشر ، فإنه بلغني أن العبد لا يزال يبكي حتىٰ يرحمه سيده فيعتقه من النار .

وقال عمر بن ذر : ما رأيت باكيًا قط إلا خُيل إليّ أن الرحمة قد تنزلت عليه .

وكان عبد الواحد بن زيد يقول : يا إخوتاه ! ألا تبكون خوفًا من النار؟ ألا إنه من بكىٰ خوفًا من النار أعاذه اللَّه منها ، يا إخوتاه ! ألا تبكون شوقًا إلىٰ اللَّه؟ ألا إنه من بكىٰ شوقًا إلىٰ سيده لم يحرمه النظر إليه ، يا إخوتاه! ألا تبكون خوفًا من النار ؟ ألا إنه من بكىٰ خوفًا من العطش يوم القيامة ، ألا إنه من بكـىٰ خـوفًا من ذلك سقي علىٰ رءوس الخلائق يوم القيامـة ، يا إخوتاه ! ألا تبكون ؟ بلىٰ ، فابكوا علىٰ الماء البارد أيام الدنيا لعله أن يسقيكموه في حضائر القدس مع خير الندماء والأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

ثم جعل يبكي حتىٰ غشي عليه[١] .

وقال عمر بن عبد العزيز لأبي الجودىٰ الحارث بن عمير : يا أبا الجودىٰ اغتنم الدمعة تسيلها علىٰ خدك للَّه[٢] .

وقال سفيان بن عيينة : البكاء من مفاتيح التوبة ألا ترىٰ أنه يرق فيندم .

وقال حمــزة الأعمىٰ : ذهبت أمي إلىٰ الحسن البصري فقالت : يا أبا سعيد ! ابني هذا قد أحببت أن يلزمك ، فلعل اللَّه أن ينفعه بك ، قال : فكنت أختلف إليه ، فقال لي يومًا : يا بني الزم الحزن علىٰ خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه ، وابك في ساعات الخلوة لعل مولاك يتطلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين .

قال : وكنت أدخل عليه منزله وهو يبكي ، وأتيته مع الناس وهو يبكي ، وربما جئت وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه .

فقلت له يومـًا : يا أبا سعيد إنك لتكثر من البكاء ! فبكىٰ ، ثم قال : يا بني فما يصنع المؤمن إذا لم يبك .

يا بني إن البكاء داع إلىٰ الرحمة ، فإن استطعت أن لا تكون إلا باكيًا فافعل لعله يراك علىٰ حالة فيرحمك بها ، فإذا أنت قد نجوت من النار .

قال المفضل بن مهلهل : بلغني أن العبد إذا بكىٰ من خشية اللَّه ملئت جوارحه نوراً ، فاستبشرت ببكائه ، وتداعت بعضها بعضًا : ما هذا النور ؟ ويقال لها : هذا غشيكم من نور البكاء[٣] .

يا كثيف الطبع ، بيض الحمام يفرق من صوت الرعد ولا حس لهم فميت أنت ؟!

---

(١) « صفة الصفوة » (٣/ ٣٢٢) .

(٢) « سيرة عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي (ص١٧٠) .

(٣) «الرقة والبكاء » (٥٤) .

وهذه الصواعق حولك ، أعمالك أعمىٰ لك ، أفعالك أفعىٰ لك .

يا غاديًا في غفلة ورائحـــًا إلى متى تستحسن القبائحا

وكم إلى كم لا تخاف موقفا يستنطق اللّه به الجوارحـــا

للّه در أصحاب السرائر :

قال زين القراء محمد بن واسع : لقد أدركت رجالاً ، كان الرجل يكون رأسه ورأس امرأته علىٰ وسادة واحدة ، قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ، ولقد أدركت رجالاً كان أحدهم يقوم في الصف فتسيل دموعه علىٰ خديه ، لا يشعر به الذي جنبه[(١)] .

وقال ـ رحمه اللّه ـ : «إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة ، ومعه امرأته ما تعلم به »[(٢)] .

وكان حسان بن أبي سنان يحضر مسجد مالك بن دينار ، فإذا تكلم مالك بكىٰ حسان حتىٰ يبل ما بين يديه ، لايسمع له صوت[(٣)] .

وجاء ثابت البناني إلىٰ محمد بن واسع يعوده فسلم يحيىٰ البكاء علىٰ ثابت ، فقال : من أنت ؟ فقال له رجل : هذا أبومسلم ، هذا يحيىٰ فقال : من أبو مسلم ؟ قالوا : يحيىٰ البكاء ، قال : إن شر أيامكم يوم عرفتم بالبكاء ونسبتم إليه[(٤)] .

وحدث الحسن يومًا ، أووعظ ، فنحب رجل في مجلسه ، فقال الحسن : إن كان للّه فقد شهرت نفسك ، وإن كان لغير اللّه هلكت .

---

(١) « حلية الأولياء » (٢/ ص٣٤٧) ، و« الرقة والبكاء » (ص١٣٥) .

(٢) « حلية الأولياء » (٢/ ٣٤٧) .

(٣) « صفة الصفوة » (٣/ ٣٣٩) .

(٤) « الرقة والبكاء » (ص١٣٤) .

وبكى أيوب السختياني مرة فأخذ بأنفه وقال : إن هذه الزكمة ربما عرضت ، وبكى مرة أخرى فاستكنى[١] بكاءه ، فقال : إن الشيخ إذا كبر مج .

وكان - رحمه الله - يرق ، فيستدمع ، فيحب أن يخفي ذلك على أصحابه فيمسك على أنفه كأنه رجل مزكوم ، فإذا خشي أن تظبه عبرته قام[٢] .

قال هشام بن حسان الأزدي : ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين في الليل وهو في الصلاة[٣] .

كان ابن سيرين يتحدث بالنهار ويضحك ، فإذا جاء الليل فكأنه قتل أهل القرية .

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا الليل هزتني إليك المضاجع

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم بالليل جامع

كان خوفهم من الرياء يوجب مدافعة النهار ، فإذا خلوا بالحبيب لم يصبر الشوق .

أحن بأطراف النهار صبابة وفي الليل يدعوني الهوى فأجيب

وأيامنا تفنى وشوقي زائد كأن زمان الشوق ليس يغيب

قال الحسن البصري : إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها ، فإذا خشي أن تسبقه قام[٤] .

---

(١) أي كنى عنه يقصد إخفائه .
(٢) « الرقة والبكاء » (ص١٣٤).
(٣) « التبيان في آداب حملة القرآن » (ص٨٧) ، تحقيق بشير محمد عيون / مكتبة المؤيد .
(٤) « الزهد » لأحمد بن حنبل (ص٢٦٢) .

وكان أبو وائل إذا صلىٰ في بيته ينشج نشيجًا ، ولو جعلت له الدنيا علىٰ أن يفعله وأحد يراه ما فعله(١) .

وانظر إلىٰ نور مرْو وحافظ الدنيا شيخ الإسلام عبد اللّٰه بن المبارك .

عن القاسم بن محمد قال : كنا نسافر مع ابن المبارك ، فكثيراً ما كان يخطر ببالي ، فأقول في نفسي : بأي شيء فضل هذا الرجل علينا ، حتىٰ اشتهر في الناس هذه الشهرة ؟ إن كان يصلي إنا نصلي ، وإن كان يصوم إنا لنصوم ، وإن كان يغزو فإنا لنغزوا ، وإن كان يحج إنا لنحج !

قال : فكنا في بعض سيرنا في طريق الشام ليلة نتعشىٰ في بيت ، إذ طفئ السراج ، ثم جاء بالسراج ، فنظرت إلىٰ وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع فقلت في نفسي : بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا ، ولعله حين فقد السراج فصار إلىٰ ظلمة ذكر القيامة(٢) .

يا عـــاذل الأوّاب دعــه فإنـــه ... يطوي على الزفرات غير حشاكا

لوكان قلبك قلـــبه مـا لمتـــه ... حاشـــاك مما عـــنده حاشـــكا

نعم إذا رأيتم باكيًا فارحموه ، وإذا شاهدتم قلقًا فاعذروه ، لا تعجبوا من واجد ما لم تجدوه .

أيها السكران بالآمال . . . أغفلة شاملة ودموع جامدة ، أينفعك حين الموت جري الدموع ؟!

قد قيّد الطرد قدميك ، وغلّ الإبعاد يديك ، أفما لك عين تبكي عليك؟!

وفي نظر الصادي إلى الماء حسرة ... إذا كان ممنـــوعًا سبيل الموارد

---

(١) « الزهد » لأحمد (ص٣٥٨) .

(٢) « صفة الصفوة » (٤/ ١٢١) .

أخي : فوران قدر القلب ، من قدر شدة الإيقاد كان يسمع لصدر الخليل أزيز من بعيد خوفًا من اللَّه تعالىٰ . . . وكذلك نبينا ﷺ فكيف حالك يا من تضحك عند المعاصي ؟

رقدت ولم تــــرث للســـاهر وليــــل المحــب بلا آخــر
ولم تـــــدر بعد ذهاب الرقـــاد مافعــل الدمـــع بالنـاظـر

قال أحمد بن أبي الحواري : رأيت شابًا قد انحدر عن مقبرة فقلت : من أين ؟ قال : من هذه القافلة النازلة ، قلت : وإلىٰ أين ؟ قال : أتزود لألحقها . قلت : فأي شيء قالوا ، أي شيء قلت لهم ؟ قلت : متىٰ ترحلون ؟

فقالوا : حتىٰ تقدمون .

وكم من عبــرة أصبحــت فيــها يلين لها الحديد وأنت قـــاس
إلى كـــم والمعــــاد إلى قـريــب تذكّر بالمعـــاد وأنت نـاس[1]

مع البكائين :

كان في وجه عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء .

قال علقمة بن وقاص : صليت خلف عمر بن الخطاب ، فقرأ سورة يوسف ، فكان إذا أتىٰ علىٰ ذكر يوسف ، سمعت نشيجه من وراء الصفوف[2] .

• وكان مجرىٰ الدموع من ابن عباس مثل الشراك البالي من الدموع[3] .

---

(١) « المدهش » لابن الجوزي (ص٣٥٧) .
(٢) « المصنف » لابن أبي شيبة (١٤/ ٨) .
(٣) « المصنف » لابن أبي شيبة (١٤/ ٥) ، « حلية الأولياء » (٢/ ٣٠٧) ، و« الرقة والبكاء » (١٥٩) .

ألا من لعين بكاهـا على الحمـى تجف ضروع المزن وهي حلوب
بكت وغدير الحي طام وأصبحـت عليه العطاش الحائمـات تلوب
وما كنت أدري أن عينـا ركيتـي ولا أن مـاء الماقين شـروب

أم المؤمنين عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ :

قال القاسم بن محمد : وكنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ . فأسلم عليها ، فغدوت يوما فإذا هي قائمة تسبح[١] ، وتقرأ ﴿ **فمن اللّه علينا ووقانا عذاب السموم** ﴾ وتدعو وتبكي وترددها ، فقمت حتى مللت القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي ، ثم رجعت فإذا هي قائمة تصلي وتبكي[٢] .

وكان الربيع بن خثيم يبكي حتي تبل لحيته من دموعه ثم يقول : أدركنا أقواماً كنا في جنوبهم لصوصاً[٣] .

تهيم إذا ريـح الصبا نسمت لها وتبكي إذا الورقاء في الغصن غنّت
إذا جـذبـت الصبح اللثام تأوهت وإن نشر الليل الجنـاح أرنت

وثابت البناني الرباني :ـ

اشتكى ـ رحمه اللّه ـ عينه ، فقال الطبيب : اضمن لي خصلة تبرأ عينـك . فقال : وما هي ؟ قال : لا تبك. قال : وما خير في عين لا تبكي[٤] .

---

(١) أي تصلي .
(٢) « السمط الثمين » (ص٩٠) .
(٣) « صفة الصفوة » (٣/ ٦٨) .
(٤) « الرقة والبكاء » (ص١٥٦) .

قال حماد بن زيد :

رأيت ثابتًا البناني يبكي حتىٰ تختلف أضلاعه .

نزق البكاء دموع عينك فاستعر عينا لغيرك دمعها مدرار

من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرأيت عينا للدموع تعارُ

وأشج بني أمية ونجيبها ، صاحب النحيب والأزيز عمر بن عبد العزيز:

قال عنه عبد الأعلىٰ بن أبي عبد اللَّه العنزي : «رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة ، ووراءه حبشي يمشي . فلما انتهىٰ إلىٰ الناس رجع الحبشي فكان عمر إذا انتهىٰ إلىٰ الرجلين قال : هكذا رحمكما اللَّه، حتىٰ صعد المنبر فخطب فقرأ : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ فقال : وما شأن الشمس ؟ ﴿ **وإذا النجوم انكدرت** ﴾ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ﴿ **وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت** ﴾ فبكىٰ ، وبكىٰ أهل المسجد ، وارتج المسجد بالبكاء حتىٰ رأيت أن حيطان المسجد تبكي معه»[(١)] .

وقال زيد بن أسلم : كان عمر بن عبد العزيز قد بكىٰ حتىٰ أثّرت الدموع بوجهه.

وقال زياد مولىٰ ابن عياش : لو رأيتني ودخلت علىٰ عمر بن عبد العزيز في ليلة شاتية ، وفي بيته كانون ، وعمر علىٰ كتابه ، فجلست أصطلي علىٰ الكانون ، فلما فرغ من كتابه ، مشىٰ إليّ عمر حتىٰ جلس معي علىٰ الكانون، وهو خليفة فقال : زياد بن أبي زياد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : قُصّ عليّ .

---

(١) « الرقة والبكاء » (ص٩٠-٩١) .

قلت : ما أنا بقاصّ .

قال : فتكلم .

قال : قلت : زياد ؟ وماله ؟ لا ينفعه من دخل الجنة إذا أدخل النار ، ولا يضره غدا من دخل النار إذا دخل الجنة .

قال : صدقت والله ، ما نفعك من دخل الجنة إذا دخلت النار ، ولا يضرك من دخل النار إذا دخلت الجنة .

قال : فلقد رأيت عمر يبكي حتىٰ أطفأ الجمر الذي في الكانون .

وقالت زوجته فاطمة بنت عبد الملك للمغيرة بن حكيم : يا مغيرة إني أعلم أنه قد يكون الناس من هو أكثر صلاة وصوما من عمر فأما أن أكون رأيت رجلا أشد فرقاً من - ربه عزوجل - من عمر فإني لم أره ، كان إذا صلىٰ العشاء الآخرة ألقىٰ نفسه في مسجده فيدعو ويبكي حتىٰ تغلبه عينه ثم ينتبه فيدعو ويبكي حتىٰ تغلبه عينه فهو كذلك حتىٰ يصبح[(١)] .

وكانت له - رحمه الله - درّاعة من شعر ، وغل ، وكان له بيت في جوف بيت يصل فيه لا يدخل فيه أحد ، فإذا كان في آخر الليل فتح ذلك السفط ، ولبس تلك الدراعة ، ووضع الغل في عنقه فلا يزال يناجي ربه ويبكي حتىٰ يطلع الفجر[(٢)] .

سيد البكائين : الحسن البصري :

للّه در أم ضيغم حين تقول عن الحسن وأصحابه : ذهب الحسن وأصحابه بالحزن ، كان الحسن إذا جاء فكأنما قدم من دفن حميم له ، وإذا جلس فكأنما هو أسير يستعد لضرب عنقه ، وإذا بكىٰ

---

(١) « الزهد » لابن حنبل (ص٢٩٩) ، و« الحلية » (٥/ ٢٦٠) .

(٢) « حلية الأولياء » (٥/ ٢٩١) .

فكأنما النار لم تُخلق إلا له .

قال الربيع بن صبيح : ما دخلت على الحسن إلا أصبته مستلقيًا يبكي .

وقال يونس بن عبيد : كنا ندخل على الحسن ، فيبكي حتى نرحمه .

وقال منصور بن زاذان : كان الحسن ربما بكى حتى نرق له .

وقال عبيد اللَّه بن العَيراز : « ما رأيت الحسن إلا صارًا بين عينيه ، عليه كآبة كأنه رجل أصيب بمصيبة ، فإن ذكر الآخرة ، أو ذُكرت بين يديه جاءت عيناه بأربع[١] »[٢] .

وقال يحيى بن دينار : كان الحسن إذا تكلم شفى النفوس من إسبال الدموع[٣] .

وقال عبد الواحد بن زيد : لو رأيت الحسن إذا أقبل لبكيت لرؤيته من قبل أن يتكلم .

ومن ذا الذي كان يرى الحسن فلا يبكي ؟ ومن كان يقدر يملك نفسه عن البكاء عند رؤيته ؟ ثم بكى عبد الواحد بكاءً شديدًا[٤] .

. . . ورحم اللَّه الحسن ، تنفس مرة تنفسًا شديدًا ، ثم بكى حتى رعدت منكباه ، ثم قال : لو أن بالقلوب حياة ، لو أن بالقلوب صلاحًا ، لبكيتم من ليلة صبيحتها يوم القيامة ، إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما أسمع الخلائق بيوم قط أكثر فيه عورة بادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة »[٥] .

---

(١) كناية عن كثرة الدموع .

(٢) « الرقة والبكاء » (ص١٦٨) .

(٣) « الرقة والبكاء » (ص١٧٠) .

(٤) « الرقة والبكاء » (ص١٧١) .

(٥) « الرقة والبكاء » (ص٢١٢) .

للَّه در الحسن . . . واللَّه لهو وأصحابه أولىٰ الناس بقول عبد اللَّه بن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهمُ ركوعُ
أطار الخوف نومهمُ فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوعُ
لهم تحت الظلام وهم سجود ... أنين منه تنفرج الضلوعُ
وخرس بالنهار لطول صمت ... عليهم من سكينتهم خشوعُ[(١)]

يزيد بن مرثد :

عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر : قلت ليزيد بن مرثد : ما لي لا أرىٰ عينك تجف ؟

قال : وما مسألتك عنه ؟

قلت : عسىٰ اللَّه أن ينفعني به .

قال : يا أخي ، إن اللَّه قد توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار . واللَّه لو لم يتوعدني أن يسجنني في النار إلا في الحّمام لكنت حريًّا أن لا تجف لي عين ، واللَّه إن ذلك ليعرض لي حين أسكن إلىٰ أهلي فيحول بيني وبين ما أريد ، وإنه ليوضع الطعام بين يدي فيعرض لي فيحول بيني وبين أكله ، حتىٰ تبكي امرأتي ، ويبكي صبياننا ، لا يدرون ما أبكاني[(٢)] .

والخائف الجآر مالك بن دينار :

يقول عنه جعفر بن سليمان الضبعي : « سمعت مالك بن دينار يقول : «يا إخواتاه ! واللَّه لو ملكت البكاء لبكيت أيام الدنيا » .

---

(١) « التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي » (ص٤٩٣) .
(٢) « حلية الأولياء » (٥/ ١٦٤) ، و« تهذيب الكمال » (٣٢/ ٢٤١) .

قال : وكان قد بكى حتى اسودّ طريق الدموع في خده »[١] .

وقال صدقة الدقيقي : قال مالك بن دينار : « لو ملكت البكاء لبكيت أيام الدنيا ولولا أن يقول الناس : مجنون لوضعت التراب على رأسي ، ثم نُحْتُ على نفسي في الطرق والأحياء حتى تأتيني منيتي ، ثم بكى »[٢] .

وعن الحارث بن سعيد قال : « كنا عن مالك بن دينار ، وعنده قارئ يقرأ ، فقرأ : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ فجعل مالك ينتفض ، وأهل المجلس يبكون ويصرخون ، حتى انتهى إلى هذه الآية ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره** ﴾ فجعل مالك والله يبكي ويشهق حتى غُشي عليه فحُمِل من بين القوم صريعًا »[٣] .

وزين القرّاء محمد بن واسع :

قال عنه سعيد بن الفضيل مولى بني زهرة : « كان محمد بن واسع نازلاً في العُلو وكان قوم يسكنون في داره في السُّفل ، قال : فحدثني بعضهم قال : كان يبكي عامة الليل لا يكاد يفتر ، قال : ثم يصبح ، فإنما يكشر[٤] وجوه أصحابه[٥] .

وقال عنبسة الخواص : بلغني أن محمد بن واسع كان يجعل : ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ وردًا ، يرددها ويبكي[٦] .

***

(١) « الرقة والبكاء » (ص١٦٠) .
(٢) « الرقة والبكاء » (ص١٨٤٩) .
(٣) « الرقة والبكاء » (ص٨٨) ، و« صفة الصفوة » (٣/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠) .
(٤) أي يبتسم .
(٥) « الرقة والبكاء » (ص١٦٦) .
(٦) « الرقاة والبكاء » (ص٢٨٠) .

أما حسان بن أبي سنان :

فكان يحضر مسجد مالك بن دينار فإذا تكلم مالك بكى حسان حتى يبُل ما بين يديه ، لا يُسمع له صوت[(١)] .

والفضيل بن عياض :

قال عنه ابنه : كان الفضيل قد ألف البكاء ، حتى ربما بكى في نومه حتى يسمعه أهل الدار[(٢)] .

وقال الصلت بن حكيم : قرأ لنا قارئ بمكة : ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ** ﴾[(٣)] ، ونحن على باب فضيل ، فجعلنا نسمع نشيجه من العلو[(٤)] .

قال إسحاق بن إبراهيم : ما رأيت أحدًا أخوف على نفسه ولا أرجى للناس من الفضيل .

وقال عنه عبد اللَّه بن المبارك : إذا مات الفضيل ارتفع الحزن .

وأمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري :

كان يبكي حتى يبول الدم خوفًا من ربه ، قال عنه عبد الرحمن بن مهدي : ما عاشرت رجلاً أرق من سفيان الثوري وكنت أرمقه الليلة ، فما كان ينام إلا أول الليل ، ثم ينتفض فزعًا مرعوبًا ينادي : النار النار ، شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات ، ثم يتوضأ ويقول على أثر وضوئه : « اللَّهم إنك عالم بحاجتي غير معلم ، ما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار ، لو كان لي عذر في التخلي ما أقمت مع الناس طرفة عين » ثم

---

(١) « صفة الصفوة » (٣/ ٣٣٩) .
(٢) « الرقة والبكاء » (ص١٦٧) .
(٣) سورة ق الآية (١٩) .
(٤) « الرقة والبكاء » (ص٨٦) .

يقبــل علىٰ صلاتــه ، وكان البكــاء يمنعه من القراءة حتىٰ إن كنتُ لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكاءه .

قال خالد بن الصقر السدوسي : كان أبي خاصًا لسفيان الثوري ، قال أبي : فأستأذنت علىٰ سفيان في نحر الظهر[١] فأذنت لي امرأة ، فدخلت عليه وهو يقول : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم** ﴾ ، ثم يقول : بلىٰ يا رب ، بلىٰ يا رب ! ويتعجب ، وينظر إلىٰ سقف البيت ودموعه تسيل ، فمكث جالسًا كم شاء اللَّه ، ثم أقبل إليّ ، فجلس معي ، فقال : مذ كم أنت ههنا ؟ ما شعرت بمكانك[٢] .

أما الحسن بن صالح :

كان ـ رحمه اللَّه ـ إذا نظر إلىٰ جنازة أرسل عينيه بأربع ، قال الفضل بن دُكين : دخلنا مع الحسن بن صالح مرة نعود مريضًا فنظرت إليه يبكي حتىٰ جرت دموعه علىٰ لحيته وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول بعد طلوع الفجر : واهوالاه ! فلو كان هولاً واحد لكفىٰ ، ولكنها أهوال شتىٰ[٣] .

ومنصور بن المعتمر:

قال أبو بكر بن عياش : بكىٰ منصور حتىٰ جردت[٤] عيناه ، وكان يقوم الليل ويصوم النهار فكانت أمه ترىٰ بكاءه وما يصنع بنفسه ، فتقول له : يا بني ! لو كنت قتلت قتيلاً لما زدت علىٰ هذا »[٥] .

---

(١) نحر الظهر : حين تبلغ الشمس منتهاها من الإيقاع .
(٢) « الرقة والبكاء » (ص٢٠٧) .
(٣) « الرقة والبكاء » (ص٢٠٦ ، ٢٠٧) .
(٤) أي خلت من الشعر ـ يعني أهدابهما .
(٥) « صفة الصفوة » (٣/ ١١٤) ، و« الرقة والبكاء » (ص١٠٥) .

وعطاء السلمي :

قيل له ما تشتهي ؟ قال : أشتهي أن أبكي حتىٰ لا أقدر علىٰ أن أبكي ! فكان يبكي الليل والنهار ، وكانت دموعه الدهر سائلة علىٰ وجهه(١) .

قال صالح المري : قلت لعطاء السليمي : ما تشتهي ؟ فبكىٰ ، ثم قال : أشتهي والله يا أبا بشر أن أكون رماداً لا تجتمع منه سُفة(٢) أبداً لا في الدنيا ولا في الآخرة(٣) .

قال صالح : فأبكاني والله ، وعلمت أنه إنما أراد النجاة من عسر يوم الحساب .

وقال سرار العنزي : ما رأيت عطاء السليمي قط إلا وعيناه تفيضان ! ، وما كنت أشبه عطاء إذا رأيته إلا بالمرأة الثكلىٰ ، وكأن عطاء لم يكن من أهل الدنيا(٤) .

قال سرار : قالت لي امرأة عطاء السليمي : عاتِب عطاءً في كثرة البكاء ، فعاتبته فقال لي : يا سرار ! كيف تعاتبني في شيء ليس هو إلي ، إني إذا ذكرت أهل النار وما ينزل بهم من عذاب الله وعقابه تمثلت لي نفسي بهم ، فكيف تغل يدها إلىٰ عنقها وتسحب إلىٰ النار ، ألا تصيح وتبكي ؟! وكيف لنفس تعذب ألا تبكي ؟ ويحك يا سرار ، ما أقل غناء البكاء عن أهله إن لم يرحمهم الله ، قال : فسكت عنه(٥) .

---

(١) « صفة الصفوة » (٣/ ٣٢٩) .

(٢) هي القبضة من كل ما يسف .

(٣) « صفة الصفوة » (٣/ ٣٣٠) .

(٤) « حلية الأولياء » (٦/ ٢٢٠) ، « صفة الصفوة » (٣/ ٣٣٠) .

(٥) « الرقة والبكاء » (ص١٨٣) .

وعتبة الغلام :

قال سرار العنزي : بكىٰ عتبة الغلام في مجلس عبد الواحد بن زيد تسع سنين لا يفتر ، بكاءً من حين يبدأ عبد الواحد في الموعظة إلىٰ أن يقوم ، لايكاد يسكت ، فقيل لعبد الواحد إنا لا نفهم كلامك من بكاء عتبة ، قال فأصنع ماذا ؟ يبكي عتبة علىٰ نفسه وأنهاه أنا ؟ لبئس واعظ قوم أنا ؟ .

وقال سالم النحيف : رمقت عتبة ذات يوم بساحل البحر ، فما زاد ليلته تلك حتىٰ أصبح علىٰ هذه الكلمات وهوقائم يقول : « إن تعذبني فإني لك محب وإن ترحمني فإني لك محب » ، فلم يزل يرددها ويبكي حتىٰ طلع الفجر »[(١)] .

رحمك اللَّه يا عتبة يا شبيه الحسن في الحزن .

كان ـ رحمه اللَّه ـ يبكي حتىٰ تمتلئ راحته بدموع عينيه ، ثم يمسح بها وجهه ورقبته ويقول : إلهي وسيدي ، لا تخزني يوم يقوم الحساب ، وكان إذا سمع النداء بكىٰ .

وكان سعيد بن السائب الطائفي:

لا تكاد تجف له دمعة ! إنما دموعه جارية دهره ! إن صلىٰ فهو يبكي ، وإن طاف فهو يبكي وإن جلس يقرأ في المصحف فهو يبكي ، وإن لقيته في طريق فهو يبكي !

فعاتبه رجل علىٰ ذاك ، فبكىٰ ثم قال : إنما ينبغي أن تعذلني وتعاتبني علىٰ التقصير والتفريط ، فإنهما قد استوليا عليّ[(٢)] .

ومسعر بن كدام :

كان إذا دخل بكىٰ ، وإن خرج بكىٰ ، وإن صلىٰ بكىٰ ، وإن جلس بكىٰ .

بكىٰ مسعر ، فبكت أمه ، فقال لها مسعر : ما يبكيك يا أمه ؟

---

(١) « حلية الأولياء » (٦/ ٢٥٣) ، « صفة الصفوة » (٣/ ٣٧١) ، « الرقة والبكاء » (ص١٦٧) .
(٢) « تهذيب الكمال » (١٠/ ٤٥٩) ، « الرقة والبكاء » (ص١٧١ ـ ١٧٢) .

قالت : يا بني رأيتك تبكي فبكيت .

قال : يا أمه لمثل ما نهجم عليه غداً فليطل البكاء .

قالت : وما ذاك يا بني ؟ قال : القيامة وما فيها ! ثم غلبه البكاء ، فقام وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول : لولا أمي ما فارقت المسجد إلا لما لابد منه [١] .

وكان ميسرة القيسي يبكي حتىٰ يغمىٰ عليه ، فيقال له : لو رفقت بنفسك؟ فيقول : إنما أتيت من الرفق بها . واللَّه لا أرفق بها أبداً والقيامة أمامها ، حتىٰ أعلم ما لها عند ربها من خير وشر ، وكان قد عمش من طول البكاء [٢] .

وتكلم عمر بن ذر فذكر رواجف القيامة وزلازلها وأهوالها ، وشدة الأمر يومئذ هناك ، واستبكىٰ ابن ذر ، وبكىٰ الناس يومئذ بكاءاً شديداً . فوثب وراد العجلي ، فجعل يبكي ويصرخ ويضطرب ، حتىٰ هدأ . ثم حمل من بين القوم صريعًا . فجعل ابن ذر يبكي ويقول : يا أيها الناس ما أخو بني عجل بأولىٰ بالخوف من اللَّه منا ومنكم ، وما منا أحد إلا علىٰ مثل حاله بين خوف ورجاء . وإنا فيما ندبنا اللَّه إليه من طاعته لمشتركون جميعًا ، فما الذي قصر بنا وأسرع به وكلم قلبه حتىٰ أبكاه فأخرجه إلىٰ ما رأيتم من مخافة اللَّه ، وكلنا قد سمع الموعظة وفهم التذكرة ، فلم يكن من أحد سواه لذلك حركة ولم تنبض من أحد منا في ذلك خالجة . واللَّه إن هذا يا أخا بني عجل إلا من صفاء قلبك ، وتراكم الذنوب علىٰ قلوبنا ، وما أرانا نؤتىٰ إلا من أنفسنا ، ثم بكىٰ ابن ذر وقرأ هذه الآية ﴿ **إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ [٣] .

---

(١) « الرقة والبكاء » (ص١٨١) ، « صفة الصفوة » (٣/ ١٣٠) .

(٢) « الرقة والبكاء » (ص١٨٤) .

(٣) سورة إبراهيم الآية (١١) .

قال عمر بن ذر : قال أبي : كنت أرىٰ ورّادًا العجلي يأتي المسجد مقنع الرأس فيعتزل ناحية ، فلا يزال مصليًا وداعيًا وباكيًا ما شاء اللَّه من النهار ، ثم يخرج ، ثم يعود فيصلي الظهر فهو كذلك بين صلاة ودعاء وبكاء حتىٰ يصلي العشاء ، ثم يخرج لا يكلم أحدًا ولا يجلس إلىٰ أحد .

فسألت عنه رجلاً من حيّه ووصفته له ، فقلت : شاب من صفته من هيئته، قال : بخ يا أبا عمر ! أتدري عمن تسأل ؟ ذاك ورّاد العجلي الذي عاهد اللَّه أن لا يضحك حتىٰ ينظر إلىٰ وجه رب العالمين !

قال أبي : فكنتُ إذا رأيته بعد هبته .

كان وراد إذا كان قريب من طلوع الفجر سجد ، ثم بكي ، ثم قال : مولاي! عبدك يحب الاتصال بطاعتك ، فأعنه عليها بتوفيقك أيها المنّان .

مولاي ! عبدك يحب اجتناب سخطك فأعنه علىٰ ذلك بمنك عليه أيها المنان .

مولاي! عبدك عظيم الرجاء لخيرك ، فلا تقطع رجاءه يوم يفرح بخيرك الفائزون ، فلا يزال علىٰ هذا ونحوه حتىٰ يصبح[1] .

فماذا كان من أمر هذا الرباني : لما مات ـ رحمه اللَّه ـ ، حملوه إلىٰ حفرته، نزلوا ليدُلْوه في حفرته فإذا القبر مفروش بالريحان ، فأخذ بعض القوم الذين نزلوا القبر من ذلك الريحان شيئًا ، فمكث سبعين يومًا طريًا لا يتغير ، يغدو الناس ويروحون ينظرون إليه وكثر في ذلك حتىٰ خاف الأمير أن يفتن الناس ، فأرسل إلىٰ الرجل فأخذ ذلك الريحان وفرّق الناس ففقده الأمير من منزله لا يدري كيف ذهب[2] .

أما العبد الصالح أبو محمد المغيرة الخزاز فكان إذا تكلم بكىٰ وأبكىٰ ،

(١) « الرقة والبكاء » (ص١٩٢) ، و« صفة الصفوة » (٣/ ١٦١ ـ ١٦٢) .
(٢) « صفة الصفوة » (٣/ ١٦٢) .

فقال : يا إخوتاه : ابكواوبكّوا هذه الأعين والقلوب فإن الحزين غداً مسرور والباكي ضاحك والخائف آمن ، وطويل السغب في الدنيا طويل الشبع في الآخرة وطويل الظمأ طويل الري عند اللَّه ألا فتخيّروا واختاروا ، واتقوا أن تغبنوا فتهلكوا ، ثم يبكي ـ رحمه اللَّه ـ ويبكي الناس[1] .

وبهيم العجلي ـ رحمه اللَّه ـ : كان يقول : « وعزتك إلهي ما بكىٰ الباكون إليك فخيّبتهم من فضلك ، بل ظن أوليائك بك أحسن الظنون ورجاؤهم لك أحسن الرجاء ، ثم يبكي حتىٰ يبل لحيته بالدموع[2] .

قال ابن السماك عن عمر بن ذر المرهبى : رأيت ابن ذر يبكي من أول الليل إلىٰ آخره ، متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول : إليك أنضيت المُطى ، وإليك تجشمت قطع المفاوز ، حتىٰ أنخت بفنائك ، رجاء كرامتك وجزيل ثوابك ، ويبكي حتىٰ يصبح .

والبكّاء التقي يزيد الرقاشي :

يقول عنه هشام بن حسان : بكىٰ يزيد الرقاشي أربعين عاماً حتىٰ تساقطت أشفاره وأظلمت عيناه وتغيّرت مجاري دموعه[3] .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يبكي حتىٰ يسقط ، ثم يفيق ، فيبكي حتىٰ يسقط ، ثم يفيق ، فيبكي حتىٰ يسقط ، فيُحمل مغشياً عليه إلىٰ أهله .

وكان يقول في كلامه : إخوتاه ! ابكوا قبل يوم البكاء ، ونوحوا قبل يوم النياحة وتوبوا قبل انقطاع التوبة ، إنما سُمي نوحاً ﷺ لأنه كان نوّاحاً فنوحوا معاشر الكهول والشباب علىٰ أنفسكم .

---

(١) « الرقة والبكاء » (ص٢٠٠) .

(٢) « الرقة والبكاء » (ص٢٠١) .

(٣) « تهذيب الكمال » للمذي (٣٢/ ٧١ـ٧٢) ، والأشفار : جمع شفر وهو شعر الجفن .

وكان يتكلم والدموع جارية على لحيته وخديه[(١)] .

قالوا : ليزيد ـ رحمه اللَّه ـ ما تسأم من كثرة البكاء ؟

فبكى ثم قال : وهل يشبع المرضع من الغذاء ؟ واللَّه لوددت أني أبكي بعد الدموع الدماء ، وبعد الدماء الصديد أيام الدنيا فإنه بلغنا أن أهل النار يبكون الدماء إذا نفذت الدموع ، حتى لو أرسلت فيها السفن لجرت فما حق امرئ لا يبكي على نفسه في الدنيا وينوح عليها .

وكان يقول : ابك يا يزيد على نفسك قبل حين البكاء . . . يا يزيد من يصلي لك بعدك ؟ ومن يصوم يا يزيد ؟ ومن يضرع لك إلى ربك بعدك ؟ ومن يدعو فكان يعدّد على هذا ونحوه ويبكي ويقول : يا إخوتاه ! ابكوا وبكّوا أنفسكم ، فإن لم تجدوا بكاء فارحموا كل بكّاء[(٢)] .

قال إسماعيل بن ذكوان : كان يزيد الرقاشي إن دخل بيته بكى ، وإن شهد جنازة بكى وإن جلس إليه إخوانه بكى وأبكاهم .

فقال له ابنه يومًا : يا أبه ! كم تبكي ؟ فو اللَّه لو كانت النار خلقت لك ما زدت على هذا البكاء ؟ فقال : ثكلتك أمك يا بني ! وهل خُلقت النار إلا لي، ولأصحابي ولإخواننا من الجن أما تقرأ يا بني : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ ﴾[(٣)] .

أما تقرأ يا بني ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ﴾ فجعل يقرأ عليه حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾[(٤)] قال : فجعل يجول في الدار ويصرخ ويبكي حتى غُشي عليه .

---

(١) « الرقة والبكاء » (ص١٦٨ـ١٦٩) .

(٢) صفة الصفوة » (٣/ ٢٩٠) ، « حلية الأولياء » (٣/ ٥١) ، و« الرقة والبكاء » لابن قدامة المقدسي ، و« الرقة والبكاء » لابن أبي الدنيا (ص١٧٨) .

(٣) سورة الرحمن الآية (٣١) .

(٤) سورة الرحمن الآيات (٣٥ : ٤٤) .

فقالت للفتى أمه : يا بني ! ما أردت إلى هذا من أبيك ؟

فقال : واللَّه إنما أردت أن أهون عليه لم أرد أن أزيده حتى يقتل نفسه .

وكان يزيد ـ رحمه اللَّه ـ يبكي ويقول لأصحابه : ابكوا اليوم قبل الداهية الكبرى ! ابكوا اليوم قبل أن تبكوا غداً ! ابكوا اليوم قبل يوم لا يغني فيه البكاء! ابكوا على التفريط أيام الدنيا ، ثم يبكي حتى يرفع صريعًا من مجلسه[1] .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول : إذا أنت لم تبكي على ذنبك ، فمن يبكي لك عليه بعدك ؟! .

وأبو سليمان دويد اللبان :

كان يبكي عامة دهره وكان كثيراً ما يردد هذا الكلام : بكّوا الذنوب قبل محل بكائها ، وفرغوا القلوب إلا من شغل حسابها ، فحريّ إن كنتم كذلك أن تتركوا فوات ما قد فات لشؤم التفريط ، بالإنابة والمراجعة والإخلاص للرب الكريم .

• وكان يبكي ويقول : وجدناه أكرم مولى لشر عبيد ، ثم يبكي ويبكي[2] .

قال عمر بن ذر : قلت لأسيد الضبي : قد أفسد البكاء عينيك ، قال : فمه ؟ قلت : لو قصرت قليلاً ، قال : ولمَ ؟ أأتاني أمان من اللَّه من دخول النار ؟ ثم غشي عليه[3] .

وقال عبد الرحمن بن مالك بن مغول : بكى أسيد الضبي حتى عمى ، وكان إذا عوتب على البكاء ، بكى وقال : الآن حين لأهدأن وكيف أهدأ

---

(١) « تهذيب الكمال » (٣٢/ ٧٢) .

(٢) « الرقة والبكاء » (ص١٤٤) .

(٣) « الرقة والبكاء » (ص١٤٩) .

وأنا أموت غدًا ؟ والله لأبكين ، ثم لأبكين ، ثم لأبكين ، فإن أدركت بالبكاء خيرًا فبمنّ الله عليّ وفضله ، وإن تكن الأخرىٰ ، فما بكائي في جنب ما ألقىٰ؟[١] .

• **وكان أبو عمران الجوني** يبكي ويقول : هَبْكَ تنجو، بعد كَمْ تنجو؟[٢] .

وقال رجل في ساحل بلاد الشام : لو بكىٰ العابدون علىٰ الشفقة حتىٰ لم يبق في أجسادهم جارحة إلا أدت ما فيها من الدم والورك[٣] دموعًا جارية وبقيت الأبدان يُبسًا خالية ، تردد فيها الأرواح إشفاقًا ووجلاً من يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، لكانوا محقوقين بذلك ، ثم غشي عليه[٤] .

وعبيدة بنت أبي كلاب لله درها :

قالت سلامة العابدة : بكت عبيدة بنت أبي كلاب أربعين سنة حتىٰ ذهب بصرها[٥] .

* * *

(١) « الرقة والبكاء » (ص١٥٣) .
(٢) « صفة الصفوة » (٣/ ٢٦٥) .
(٣) الدسم أو دسم اللحم ودهنه .
(٤) « صفة الصفوة » (٤/ ٣٧٢) .
(٥) « الرقة والبكاء » (ص١٥٤) .

وشاب يبكي رجاء الفرح والسرور :

بكىٰ شاب ببيت المقدس حتىٰ عمش من طول البكاء فقال له كلاب بن جُري : يا فتىٰ ! كم تكون العين سليمة علىٰ هذا ؟ فبكىٰ ، ثم قال : كما شاء ربي فلتكن ، وإن شاء سيدي فلتذهب ، فليست بأكرم عليَّ من بدني ! إنما أبكي رجاء الفرح والسرور في الآخرة ، وإن تكن الأخرىٰ فهو واللَّه شقاء الآخرة وحزن الأبد ، والأمر الذي كنت أخافه وأحذره علىٰ نفسي ، وإني أحتسب علىٰ اللَّه غفلتي عن نفسي ، وتقصيري في حظي ، ثم غشي عليه[١] .

لا أقصر عن الاجتهاد في نجائها :

وشاب آخر في بني عبد القيس يبكي الليل والنهار ، لا يكاد يفتر ، فقيل له : لو قصرت قليلاً ! قال : ولم أقصر وقد نُدبت إلىٰ الجد والاجتهاد؟ واللَّه لا أقصر عن الاجتهاد في نجائها أبدًا[٢] .

وأبو عبيدة الخواص يقول : قد كبرت فأعتقني :

كان ـ رحمه اللَّه ـ لا يستطيع أن يقرأ سورة القارعة ولا أن تقرأ عليه .

قال عنه عقيبة بن فضالة : سمعت أبا عبيدة الخواص بعدما كبر وهوآخذ بلحيته يقول : قد كبرت فأعتقني يا مولاي[٣] .

قال معلَّىٰ الوراق : كنا عند مالك بن دينار وهو يتكلم ، فجاء أبو عبيدة الخواص ، فأخرج من كمه حبل ليف جديد ، في طرفه عروتان ، فجعل عروة في عنقه ، وعروة في عنق مالك ، ثم قال : يا مالك ! عدّ أنَّا

---

(١) « صفة الصفوة » (٤/ ٢٤٧) .

(٢) « الرقة والبكاء » (ص١٦٣) .

(٣) « الرقة والبكاء » (ص٢٠٢) .

بين يدي اللَّه ، ما عسىٰ أن تقول ؟! فبكىٰ القوم جميعًا[١] .

أي رجل بكّاء كان ضيغم بن مالك ؟! :

بكىٰ ضيغم بن مالك ليلة من أول الليل إلىٰ آخره ، لم يسجد فيها سجدة، ولم يركع فيها ركعة ، فلما أصبح قال له الحكم بن نوح : يا أبا مالك قد طالت ليلتك لا مصليًا ولا داعيًا ؟! فبكىٰ ، ثم قال : لو يعلم الخلائق ماذا يستقبلون غدًا ما لذّوا بعيش أبدًا ، إني واللَّه لما رأيت الليل وهوله وشدة سواده، ذكرت به الموقف وشدة الأمر هناك، وكل امرئ يومئذ تهمه نفسه ، لايغني والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا، ثم شهق، فلم يزل يضطرب ماشاء اللَّه ، ثم هدأ[٢] .

صفوان بن محرز البكاء :

كان ـ رحمه اللَّه ـ قد اتخذ لنفسه سربًا يبكي فيه [٣] .

قال عبد اللَّه بن رباح :كان صفوان بن محرز إذا قرأ هذه الآية ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ بكىٰ حتىٰ أقول اندق قضيض زوره[٤] .

قال ثابت البناني : قال صفوان بن محرز : كان لداود يوم يتأوه فيه فيقول: أوه من عذاب اللَّه : أوه من عذاب اللَّه قبل ألا تنفع أوه قال : فذكرها صفوان في مجلسه ذات يوم ، فغلبه البكاء فقام[٥] .

---

(١) « الرقة والبكاء » (ص٢٠٢) .
(٢) « الرقة والبكاء »(ص٢٠٣ـ٢٠٤) .
(٣) « صفة الصفوة » (٣/ ٢٢٧ ، ٢٢٩) ، « تهذيب الكمال » (١٣/ ٢١٢ـ٢١٣) .
(٤) القضيض : الكبار ، وعند ابن كثير قضيب بدل قضيض ، وهو أوفق للمعنى . والزور : ملتقىٰ أطراف عظام الصدر حيث اجتمعت ، أو ما ارتفع من الصدر إلىٰ الكتفين ، انظر : «الرقة والبكاء» (ص٨٣) ، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٥٥)، « المصنف » لابن أبي شيبة (١٤/ ١٠) .
(٥) « حلية الأولياء » (٢/ ٢١٥) .

وقيل لصفوان عند طول بكائه وتذكر أحزانه : إن ذلك يورث العمى فقال : ذلك لها شهادة فبكى حتى عمي [١] .

بشر بن منصور :

قال عنه عبد الرحمن بن مهدي : ما رأيت أحدًا أقدّمه في الرقة والورع على بشر بن منصور .

قال الحكم بن نوح : كنت مع ضيغم بعبّادان ، فزاره بشر بن منصور ، فقال ضيغم : ويحك يا حكم ! انظر لنا بعض أصحابنا مِمَّنْ يقرأ فإن بشرًا يعجبه حسن الصوت .

فانطلقت ، فأتيتهم بإنسان فارسي حسن الصوت ، فقالوا لي : لاتقل له يقرأ حتى يهدأ أهل الدير .

فلما سكنت الرّجل ، وهدأ الناس ، قالوا له : خذ الآن .

فجعل واللَّه الفارسي يقرأ والقوم يبكون وينتحبون . . . ويصرخون كما تصرخ الثكلى فأما بشر فغُشي عليه تلك الليلة مرارًا .

وأما أبو مالك فجعل يقوم ويقعد ، ، حتى ظننت أن عقله قد ذهب !

قال : فبتنا واللَّه بأطيب ليلة وألذّ عيش .

فكان بشر يقول لي بعد : ويحك يا حكيم ! ما فعل الفارسي ؟! ويحك يا حكيم يقتل الناس ذلك الفارسي هكذا عيانا بصوته ! [٢] .

مسلم أبوعبد اللَّه :

قال نصر : اجتمعنا ليلة على الساحل ومعنا مسلم أبوعبد اللَّه فقال رجل من الأزد :

---

(١) « صفة الصفوة » (٤/ ٩١) .

(٢) « الرقة والبكاء » (ص٩١ ـ ٩٢) .

ما للمحب سوى إرادة حبه　　إن المحب بكل برٍّ يضرع

قال : فبكى مسلم حتى خشيت والله أن يموت[١] .

للّه در من قال :

هنيئًا لمن أضحى وأنت حبيبه　　ولو أن لوعات الغرام تذيبهُ

وطوبى لصب أنت ساكن سره　　ولو بان عنه إلفه وقريبه

وما ضرّ صبًا أن يبيت وماله　　نصيب من الدنيا أنت طبيبه

فيا علة في الصدر أنت شفاؤها　　ويا مرضًا في القلب أنت طبيبه

عُبيدك في باب الرجا متضرع　　إذا لم تُجبه أنت من ذا يجيبه

بعيد عن الأوطان يبكي بذلة　　وهل ذاق طعم الذل إلا غريبه

تصدق على من ضاع منه زمانه　　ولم يدر حتى لاح منه مشيبه

غدًا خاسرًا فالعار يكفيه والبكا　　وقد آن من ضوء النهار مغيبه

ومن قال :

ألوذ بباب من أدعوه فردًا　　وآمل أن أقرّب من حبيبي

إذا نامت عيون الناس طرّا　　قرعت الباب بالقلب الكئيب

وللّه در العابد البكاء حين يقول في مناجته ليلاً :

أترى بكائي نافعي عندك، ومنقذ رقبتي من حكمك أتراك آخذًا من نفسي بحقك ، وموبخها على رءوس الأشهاد بما ضيعت من أمرك أوه لكشف سترك عني ، أوه لوقوفي بين يديك[٢] .

---

(١) « استنشاق نسيم الأنس » (ص٣٩) .

(٢) صفة الصفوة » (٤/ ٣٦٥) .

عابد من بني سعد :

قال أبو عاصم العبّاداني عن عابد من بني سعد : كان يصلي الليل والنهار لا يكاد يفتر ، فإذا كان السحر احتبىٰ ، واستقبل البحر فجعل يبكي وينوح علىٰ نفسه ، قال : فإذا أحس بإنسان أمسك ، قال : فخرجت ذات ليلة إلىٰ الساحل ، فإذا بصوته وإذا هو يبكي ويقول في بكائه .

ألا يا عين ويحك أسعديني بطوع الدمع في ظلم الليالي

لعلك في القيامة أن تفوزي بخير الدهر في تلك العلالي(١)

وبكّاء يقول : ما الذي أسقطني من عينك يا مانح العصم :

بكىٰ أحد العباد من أهل البحرين في جوف الليل وهو علىٰ ساحل البحر وقال : قرة عيني وسرور قلبي ، ما الذي أسقطني من عينك يا مانح العصم ، ثم يبكي ويقول : « طوبىٰ لقلوب ملأتها خشيتك ، واستولت عليها محبتك ، فمحبتك مانعة لها من كل لذة غير مناجاتك ، والاجتهاد في خدمتك ، وخشيتك قاطعة لها عن كل معصية خوفًا لحلول سخطك ، ثم بكىٰ وقال : يا إخوتاه ! ابكوا علىٰ خوف فوات الآخرة حيث لا رجعة ولا حيلة »(٢) .

* قال أبو جعفر الضرير قال لي صالح بن عبد الكريم :

بكى الباكون للرحمن ليلاً وباتوا دمعهم لا يسأمونا

بقاع الأرض من شوق إليهم تحن متى عليها يسجدونا

قال : فجعلت أرددها عليه ، فبكىٰ ، حتىٰ قلت الآن تخرج نفسه(٣) .

---

(١) صفة الصفوة » (٤/ ٥٩) .

(٢) « صفة الصفوة » (٤/ ٧٣) .

(٣) « الرقة والبكاء » (ص١١٢) .

ومنهم من بكى عند سماع الأذان :

كان أبو عمران الجوني إذا سمع الأذان تغير لونه وفاضت عيناه [١] .

وكان منصور بن صفية الحجبي يبكي في وقت كل صلاة ، فكانوا يرون أنه يذكر الموت والقيامة عند الصلوات [٢] .

وعن الحسن : إذا أذن المؤذن لم تبعد دابة بر ولا بحر إلا أصغت واستمعت .

وعن سفيان : قال كان أبو خالد المؤذن يزيد إذا أذن بكى وربما صرخ الصرخة في إثر الأذان .

فقال له بعض أولياء الأمر : ما الذي يغشاك عند النداء ؟ فبكى ، ثم قال : إنني لأشبهه بالقيامة ، ثم غشي عليه .

قال سفيان : وسمعته يقول : لولا ما أؤمل من الفرج والراحة بعد الأذان لظننت أن نفسي ستخرج فرقًا من الموت ! .

قال سفيان : وذكروا عنه أنه كان يقول إذا فرغ من أذانه : انقطعت الرغائب دونك ، وكلّت الألسن إلا عن ذكرك ، وذهلت عقول أوليائك عن غيرك شوقًا واشتياقًا فأعط القوم إلهي أمنيتهم ، وأجب دعوتهم ، وتفضّل عليهم وعلينا بجودك يا كريم [٣] .

وقال قادم الديلمي : كنا عند فضيل بن عياض وهو في المسجد ، فأذن المؤذن ، فبكى حتي بلّ الحصى ، ثم قال : أشبهه بالنداء ، ثم بكى [٤] .

---

(١) « الرقة والبكاء » (ص١٢٣) .
(٢) تهذيب الكمال » (٢٨/ ٥٣٩) .
(٣) « الرقة والبكاء » (ص١٢٤) .
(٤) « الرقة والبكاء » (ص١٢٤) .

ومنهم من بكى عند قراءة القرآن :

عن نافع ، عن ابن عمر أنه كان إذا أتى على هذه الآية ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾[١] ، بكى حتى يبل لحيته البكاء ويقول : بلى يا رب[٢] .

* **وكان طلق بن حبيب العنزي** : إذا قرأ بكى وأبكى ، وكان إذا قرأ لم يسمعه أحد إلا بكى من رقته وحسن صوته ، قال : وقالت له أمه : ما أحسن صوتك يا بني بالقرآن ، فليته لا يكون وبالاً عليك غداً في القيامة فبكى حتى غشي عليه[٣] .

قال عبد الله بن المبارك في ذكر الخائفين الذاكرين :

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهمُ وهمْ ركوعُ

أطار الخوف نومهمُ فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوعُ

لهم تحت الظلام وهم سجود ... أنين منه تنفرج الضلوعُ

وخرس بالنهار لطول صمت ... عليهم من سكينتهم خشوعُ

بكى أحد العباد بالليل وقال : « إن أقل ما ينبغي أن يكون لنفسي عندي أن أبكيها وأبكي عليها أيام الدنيا لعلمي بما يمر عليها غداً[٤] » .

وكانت عابدة من أحسن الناس عيناً فأخذت في البكاء فقيل لها : تذهب عيناك ؟

---

(١) سورة الحديد الآية (١٦) .

(٢) « مختصر قيام الليل » للمقريزي (ص١٤٣) .

(٣) « صفة الصفوة » (٤/٢٧) ، « تهذيب الكمال » (١٣/٤٥٢ - ٤٥٣) ، « الرقة والبكاء » (ص٨٧) .

(٤) « صفة الصفوة » (٤/٣٨١) .

فقالت : إن يكن لي عند اللّه خير فسيبدلني خيرًا منهما وإن تكن الأخرىٰ فواللّه لا أحزن عليهما .

قد كنت أشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

قال ابن المبارك عن البكائين الذاكرين :

وما فرشهم إلا أيامن أزرهم وما وسدهم إلا ملاء وأذرع

وما ليلهم فيهن إلا تخوف وما نومهم إلا عشاش مروعُ

وألوانهم صفر كأن وجوههم عليها جساد وهي بالورس[1] مشبعُ

نواحل قد أذرى بها الجهد والسرى إلى اللّه في الظلماء والناس هجعُ

ويبكون أحيانًا كأن عجيجهم إذا نوّم الناس الحنين المرجّعُ

ومجلس ذكر فيهم قد شهدته وأعينهم من رهبة اللّه تدمعُ[2]

بأبي هم وأمي لقد اتخذوا القرآن من الدنيا بدلا يقطعون به أيام الحياة ، فكأنهم قطعوا الدنيا إلىٰ الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه وحققت القيامة عليهم عداتها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، فلوْ مثلتهم لعقلك في مواقفهم المحمودة ومجالسهم المشهودة وقد نشروا دواوين أعمالهم ، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم في كل صغيرة وكبيرة وحملوا ثقل أوزارهم علىٰ ظهورهم فنشجوا نشيجًا وتجاوبوا نحيبًا ، يعجون إلىٰ ربهم من مقام خوف وندم واعتراف، رهائن فاقة إلىٰ فضله ، وأُسارىٰ ذلّة لعظمته ، جرح طول الأسىٰ قلوبهم ، وطول البكاء عيونهم ، لكل باب رغبة إلىٰ اللّه منهم يد قارعة يسألون من لاتضيق لديه المنادح ولايخيب عليه الراغبون .

---

(١) الورس : نبت أصفر يصبغ به .

(٢) « التخويف من النار » لابن رجب (ص٢٦ ، ٢٧) مكتبة الإيمان عابدين .

وأما البكاء شوقًا :

فقد كان عليّ بن سهل المدائني - رحمه اللَّه - يقوم إذا هدأت العيون فينادي بصوت له محزون : « يا من اشتغلت قلوب خلقه عنه بما يعقبهم عند لقاءه ندمًا ، ويا من سهت قلوب عباده عن الاشتياق إليه إذْ كانت أياديه إليهم قبل معرفتهم به » ، ثم يبكي حتىٰ تبكي لبكائــه جيرته ، ثم ينادي : « ليت شعري سيدي ، إلىٰ متىٰ تحبسني ؟ ابعثني سيدي إلىٰ حسن وعدك ، وأنت العليم أن الشوق قد برّح بي ، وطال عليّ الانتظار » ، ثم يخر مغشيًا عليه فلا يزال كذلك حتىٰ يحرك للصلاة[(١)] .

فتح الموصلي : المشتاق البكاء :

قال - رحمه اللَّه - في يوم عيد أضحىٰ : قد تقرب المتقربون إليك بقربانهم، وأنا أتقرب إليك بطول حزني ، يا محبوب ! إلىٰ كم تتركني في أزقة الدنيا محزونًا ؟! ، ثم غشي عليه ، وحمل فدفن بعد ثلاث - رحمه اللَّه تعالىٰ - .

• وقال الضحاك بن مخلد : رأيت هشام بن حسان إذا ذكر الجنة أو النبي ﷺ بكىٰ حتىٰ تسيل دموعه[(٢)] .

• كان رجل من الموالي يقال له صهيب يسهر الليل ويبكي ، فعُوتب علىٰ ذلك ، وقالت له مولاته : أفسدت علىٰ نفسك ، فقال : إن صهيبًا إذا ذكر الجنة طال شوقه ، وإذا ذكر النار طار نومه .

ونختم بما قال الشاعر أحمد محمد الصديق :

---

(١) « الطريق إلىٰ اللَّه الصدق » ، لأبي سعيد الخراز ، تحقيق دكتور عبد الحليم محمود (ص١٨) ، نشر دار الإنسان .

(٢) « تهذيب الكمال » للمزي (٣٠/ ١٩٢) .

عينان كلتاهما في الليـل ساهـرة وتحت ثوب الدجى والصمت تلتحفُ
في كل رعشة جفن منهما أَلَقٌ إلى السماء ونحو الخلــد منعطفُ
إحداهما في سبيـل الله قائمــة على الثغـور فـي جفـن الردى تقـفُ
وأختها في سكون الليل خاشعـة مقروحة الجفـن في المحـراب تعتكفُ
من خشية الله أو من فيض رحمته باتت ومدمعهــا في لوعـة يكـفُ
كأنها في بحار الشـوق سابحــة أو من رحيـق الهدى والطهرُ تغترفُ
بين الرجاء وبين الخـوف منــزلـة ينبيك عن ســرها المكنون من عرفوا
عينان هذا مع الرحمن شأنهمــا يأويهمــا منه في جنــاته كنـفُ[1]

* * *

(١) من قصيدة « عينان » ، من ديوان نداء الحق للشاعر أحمد محمد الصديق (ص١١١ , ١١٢)، دار الضياء الأردن .

من أنظر معسرًا
أو وضع عنه

من أنظر معسرًا أو وضع عنه

للَّه درّ من نفّس عن مكروب كربته ، لهوأولى الناس بأن ينفس اللَّه كربته في الدنيا قبل الآخرة .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر ، يسّر اللّه عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ، ستره اللّه في الدنيا والآخرة ، واللّه في عون العبد ، ما كان العبد في عون أخيه...**»[(١)] .

عن أبي اليسر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله اللّه في ظله** »[(٢)] .

بل هو أول من يستظل في ظل اللَّه يوم القيامة :

فلقد أخرجه الطبراني بلفظ : « **إن أول الناس ، يستظل في ظل اللّه يوم القيامة، لرجل أنظر معسرًا ، أو تصدّق عليه** » .

قال المناوي : « (**من أنظر معسرًا**) أي أمهل مديونًا فقيرًا قال الحرالي : وهي التأخير المرتقب نجازه ، (**أو وضع عنه**) أي حطّ عنه من دينه وفي رواية أبي نعيم أو وهب له أو وضع عنه (**أظله اللّه في ظله**) أي وقاه اللَّه من حر يوم القيامة على سبيل الكناية ، أو أظله في ظل عرشه حقيقة أو أدخله

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم في « الصحيح » كتاب الزهد والرقائق : باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ، وابن ماجه ، وأحمد والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » ، والبخاري في « الأدب المفرد » ، والطبراني في «المعجم الكبير » ، والحاكم في « المستدرك » ، وأبو نعيم في « الحلية » والقضاعي في « مسند الشهاب » ، والخطيب في « تلخيص المتشابه »، وعبد بن حميد ، والبغوي في « شرح السنة»، والدارمي في « السنن » ، وابن أبي الدنيا في « قضاء الحوائج » .

الجنة . . . وإنما استحق المنظر ذلك لأنه آثر المديون على نفسه وأراحه فأراحه اللَّه والجزاء من جنس العمل »[١] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من أنظر معسراً ، أو وضع له ، أظله اللَّه يوم القيامة تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله** »[٢] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من أنظر معسراً ، فله بكل يوم مثله صدقة ، قبل أن يحلّ الدين ، فإذا حلّ الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة** »[٣] .

• قال المناوي في « فيض القدير » : « قال السبكي : وزّع أجره على الأيام يكثر بكثرتها ويقلّ بقلتها ، وسِرُّه ما يقاسيه المنظر من ألم الصبر مع تشوق القلب لماله فلذلك كان ينال كل يوم عوضًا جديداً ، وقد تعلّق بهذا مَن ذهب إلى أن إنظاره أفضل من إبرائه ، فإن أجره وإن كان أوفر لكنه ينتهي بنهايته .

• وعن أبي قتادة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : «**مَن نفّس عن غريمه أو محى عنه ، كان في ظل العرش يوم القيامة** »[١] .

قال اللَّه تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[٥] [٦] .

---

(١) « فيض القدير » (٦/ ٨٩) .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩٨٣) .

(٣) صحيح : رواه أحمد والحاكم عن بريدة ، وصححه الألباني في « الإرواء» رقم (١٤٢٨) ، و«صحيح الجامع» رقم (٥٩٨٤) ، قال المناوي في « فيض القدير » (٦/ ٩٠) : « قال الحافظ العراقي : سنده ضعيف » ، وقال الذهبي في « المهذب » : إسناه صالح ، وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح .

(٤) رواه أحمد ، ومسلم .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٨٠) .

(٦) « تفسير ابن كثير » (١/ ٣١٣) ـ المكتبة القيمة .

للَّه شأن هذا الدين العظيم . . كان الحر يباع في الدْين . . . فإذا أعسر المدين كانوا يبيعونه . . فأتىٰ الإسلام . . فكان من أمره ما أوجب اللَّه في هذه الآية ، بل ويستحثه علىٰ التصدق عليه ليكون أول من يظله اللَّه بظله .

قال ابن كثير : « يأمر اللَّه تعالىٰ بالصبر علىٰ المعسر الذي لا يجد وفاء فقال : ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حلّ عليه الدْين : إما أن تقضي وإما أن تربي ، ثم يندب إلىٰ الوضع عنه ، ويعد علىٰ ذلك الخير والثواب الجزيل فقال : ﴿ **وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ أي : وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين »[(١)] .

قال الفخر الرازي في تفسيره « مفاتيح الغيب » :

« النظرة : الاسم من الإنظار ، وهو الإمهال .

اختلفوا في حكم الإنظار مختَص بالربا أوعام في الكل ، فقال ابن عباس وشريح والضحاك والسدي وإبراهيم : الآية في الربا .

والقول الثاني : وهو قول مجاهد وجماعة من المفسرين أنها عامة في كل دْين . . . ولما ثبت وجوب الإنظار في هذه بحكم النص ـ الربا ـ ، ثبت وجوبه في سائر الصور ضرورة الاشتراك في المعنىٰ ، وهو أن العاجز عن أداء المال لا يجوز تكليفه به ، وهذا قول أكثر الفقهاء كأبي حنيفة ومالك والشافعي ـ رضي ا اللَّه عنه ـ » .

قال ابن جرير الطبري : « إن الحكم الذي حكم اللَّه به : من إنظاره المعسر برأس مال المربي بعد بُطول الربا عنه ، حكم واجب لكل من كان عليه ديْن لرجل قد حلّ عنه ، وهو بقضائه معسر في أنه مُنظر إلىٰ ميسرته»[(٢)] .

---

(١) « مفاتيح الغيب » للرازي (٣/ ٦٦٦ ـ ٦٦٧) .

(٢) « تفسير الطبري » (٦/ ٣٤) طبع دار المعارف .

قال ابن جرير : «وأن تصدقوا على المعسر برءوس أموالكم خير لكم» .

قال الشيخ محمد رشيد رضا : « هو ندب إلى الصدقة والسماح للمدين المعسر لما فيه من التعاطف والتراحم بين الناس وبر بعضهم ببعض وذلك من أعظم أسباب هناء المعيشة وحسن حال الأمة ولذلك نبه إلى العلم بذلك » .

وقد استدل بعضهم بالآية على وجوب إنظار المعسر مطلقاً ، وبعضهم على وجوب ذلك في دين الربا خاصة . وقالوا : إن هذا الواجب يفضله شيء مندوب وهو الإبراء والتصدق على المعسر فإنه ليس بواجب اتفاقاً »(١) .

قال الألوسي : «وتصدقكم على معسري غرمائكم برءوس أموالكم كُلاً أو بعضًا ﴿ **خيرلكم** ﴾ أي أكثر ثوابًا من الإنظار ، أو خير مما تأخذونه لنفاد ذلك وبقاء هذا » . ثم قال : «وجوب الإنظار ثبت بالآية الأولى فلا بد من حمل هذه الآية على فائدة زائدة ، وبأن قوله - سبحانه ﴿ **خيرلكم** ﴾ لا يليق بالواجب بل بالمندوب ، واستدل بإطلاق الآية من قال بوجوب إنظار المعسر مطلقًا سواءً كان الدين دين ربا أم لا ، وهو الذي ذهب إليه ابن عباس - رضي اللَّه عنه - والحسن والضحاك ، وذهب شريح وإبراهيم النخعي وابن عباس - رضي اللَّه عنهما - في رواية عنه إلى أنه لا يجب إلا في دين الربا خاصة »(٢) .

قال القاسمي : عند قوله تعالى ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾(٣) .

قال المهايمي : فإن استوفى الدائن حقه بالتضييق على المديون استوفى

---

(١) « تفسير المنار » (٣/ ١٠٤) .

(٢) « روح المعاني » للألوسي (٣/ ٥٤) ، دار إحياء التراث الإسلامي .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨١) .

اللَّه منه حقوقه بالتضييق . وإن سامحه فاللَّه أولىٰ بالمسامحة ، والمديون إن لم يوف حق الدائن مع قدرته علىٰ الأداء استوفىٰ اللَّه منه حقه ، وأما من لا يقدر ، فيرجىٰ أن يعفو اللَّه عنه ، ويرضي خصمه بعوض من عنده ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد علىٰ سيئاتهم »[1] .

١ قال الفخر الرازي في « مفاتيح الغيب » :

« الإعسار هو أن لا يجد في ملكه ما يؤديه بعينه ، ولا ما يكون له ما لوْ باعه لأمكنه أداء الديْن من ثمنه ، فلهذا قلنا : من وجد داراً وثياباً لا يُعدّ في ذوي العسرة ، إذا ما أمكنه بيعها وأداء ثمنها ، ولا يجوز أن يحبس إلا قوت يوم لنفسه وعياله ، وما لا بد لهم من كسوة لصلاتهم ودفع البرد والحر عنهم»[2] .

قال القرطبي : « من كثرت ديونه وطلب غرماؤه مالهم فللحاكم أن يخلعه عن كل ماله ويترك له ما كان من ضرورته . روىٰ ابن نافع عن مالك أنه لا يترك له إلا ما يواريه . والمشهور أنه يترك له كسوته المعتادة ما لم يكن فيها فضل ، ولا ينزع منه رداؤه إن كان ذلك مزرياً به . وفي ترك كسوة زوجته ، وفي بيع كتبه إن كان عالمًا خلاف ، ولا يترك له مسكن ولا خادم ولا ثوب جمعة ما لم تقل قيمتها ؛ وعند هذا يحرم حبسه »[3] .

قال الفخرا لرازي : إذا علم الإنسان أن غريمه معسر حرم عليه حبسه ، وأن يطالبه بماله عليه ، فوجب الإنظار إلىٰ وقت اليسار ، فأما إن كانت له ريبة في إعساره فيجوز له حبسه إلىٰ وقت ظهور الإعسار » .

قال الحافظ ابن حجر « روىٰ مسلم من حديث أبي اليسر رفعه « **من أنظر**

(١) « محاسن التأويل » للقاسمي (٣/ ٧١٦) .
(٢) « مفاتيح الغيب » (٣/ ٦٦٧) .
(٣) « تفسير القرطبي » (٢/ ١١٨٠) دار الشعب .

معسرا ...» وله من حديث أبي قتادة مرفوعاً « **من سرّه أن ينجيه اللّه من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه ...**

واختلف السلف في تفسير قوله تعالىٰ ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾ فروىٰ الطبري وغيره من طريق إبراهيم النخعي ومجاهد وغيرهما أن الآية نزلت في دين الربا خاصة ، وعن عطاء أنها عامة في دين الربا وغيره، واختار الطبري أنها نزلت نصًا في دين الربا ويلتحق به سائر الديون لحصول المعنىٰ الجامع بينهما ، فإذا أعسر المديون وجب إنظاره ولا سبيل إلىٰ ضربه أو إلىٰ حبسه »[1] .

قال الحافظ ابن حجر عن إنظار المغسر : « لا يلزم من كونه واجبًا أن لا يؤجر صاحبه عليه أو يكفر عنه بذلك من سيئاته » .

هذا فيمن أنظر معسراً فكيف بمن أنظر موسراً ؟! وقد ترجم البخاري «باب من أنظر مُوسِرًا» .

عن حذيفة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال النبي ﷺ : « **تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : أعملت من الخير شيئًا ؟ قال : كنت آمر فتياني أن ينظروا ويتجاوزوا عن الموسر ، قال : فتجاوزوا عنه** »[2] .

وعن ربعي : « كنت أُيَسِّر علىٰ الموسر ، وأُنظر المعسر » ، وعن ربعي ، «أُنظِر الموسر ، وأتجاوز عن المعسِر » .

وعند مسلم « ... **فقالوا : أعملت من الخير شيئا ؟ قال : لا ، قالوا: تذكّر ، قال: كنت أُداين الناس فآمر فتياني أن يُنظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر ، قال : قال اللّه ـ عزوجل ـ: تجوّزوا عنه** » وفي رواية «**ما عملت من الخير إلا أني كنت**

---

(١) « فتح الباري » (٤/ ٣٦١ـ٣٦٢) .
(٢) رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري .

رجلا ذا مال فكنت أطالب به الناس فكنت أقبل الميسور وأتجاوز عن المعسور » .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « **كان رجل يداين الناس ، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه : تجاوزوا عنه لعلّ اللّه أن يتجاوز عنا ، فتجاوز اللّه عنه**» ، رواه البخاري ومسلم .

وعند النسائي « **إن رجلا لم يعمل خيراً قط** » ، وزاد النسائي « **فيقول لرسوله : خذ ما تيسّر وأترك ما عسر وتجاوز** » .

قال ابن حجر « ويدخل في لفظ التجاوز الإنظار والوضع وحسن التقاضي »[١] .

قال القرطبي : إنظار المعسر تأخيره إلىٰ أن يوسِر ، والوضع عنه إسقاط الدْين عن ذمته ، وقد جمع المعنييْن أبو اليسر لغريمه حيث محا عنه الصحيفة وقال له : إن وجدت قضاء فأقضِ وإلا فأنت في حِل »[٢]

وروىٰ مسلم عن حذيفة عن النبي ﷺ : **أن رجلا مات فدخل الجنة فقيل له : ما كنت تعمل ؟ قال : فإمّا ذكر وإما ذُكّر فقال : إني كنت أبايع الناس فكنت أنظر المعسر وأتجوّز في السكة أو في النقد** »

فقال له أبو مسعود وأنا سمعته من رسول اللَّه ﷺ .

وروىٰ مسلم عن حذيفة قال « **أُتي اللّه بعبد من عباده آتاه اللّه مالا فقال له: ماذا عملت في الدنيا ؟ « قال : ولا يكتمون اللّه حديثا » قال : يارب آتيتني مالك فكنت أبايع الناس وكان من خلقي الجواز ، فكنت أتيسر على الموسر ، وأُنظِر المعسر، فقال اللّه : أنا أحق بذا منك تجاوزوا عن عبدي** » فقال عقبة بن عمر وأبو مسعود الأنصاري هكذا سمعناه من فيّ رسول اللَّه ﷺ .

يا للّه . . . القرض صدقة ، والتجاوز عنه شرف أي شرف إذ يؤدي

(١) « الفتح » (٤/ ٣٦٢) .
(٢) « تفسير القرطبي » (ص١١٨٣) .

بصاحبه إلى أن يكون في ظل اللّه يوم القيامة .

قال ﷺ : « **كل قرض صدقة** »[١] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **ما من مسلم يقرض مسلما قرضا مرتين ، إلا كان كصدقتها مرة** »[٢] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **من أقرض ورِقــا**[٣] **مرتين ، كان كعدل صدقـــة مرة** »[٤] .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **إن السَّلَفَ**[٥] **، يجري مجرى شطر الصدقة** »[٦] .

أي يكتب للمقرض ثواب التصدق بنصفه .

وقال رسول اللّه ﷺ : « **إن رجلاً لم يعمل خيراً قط ، وكان يداين الناس ، فيقول لرسوله : خذ ما تيسّرْ وأترك ما عسر ، وتجاوز ، لعل اللّه أن يتجاوز عنا ، فلما هلك قال اللّه: هل عملت خيراً قط ؟ قال : لا ، إلا أنه كان لي غلام ، وكنت أدْاين الناس، فإذا بعثته يتقاضى قلت له : خذ ما تيسّر ، وأترك ما عسر ، وتجاوز ، لعلّ اللّه أن يتجاوز عنا ، قال اللّه : قد تجاوزت عنك** »[٧] .

---

(١) حسن : رواه الطبراني في « الأوسط » ، وأبو نعيم في « الحلية » عن ابن مسعود ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٥٤٢) .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجه ، وابن حبان ، والطبراني في « الكبير » ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٦٩) .

(٣) أي فضة .

(٤) صحيح : رواه البيهقي في « السنن » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٠٨٠) .

(٥) أي القرض .

(٦) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة» رقم (١٥٥٣) .

(٧) صحيح : رواه النسائي ، وابن حبان ، والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع » رقم (٢٠٧٨) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من يسّر على مُعسِر ، يسّر اللّه عليه فى الدنيا والآخرة**»[١] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أدخل اللّه الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً وبائعاً، وقاضياً ومقتضياً** »[٢] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللّه يحب سمح البيع ، سمح الشراء ، سـمح القضاء** »[٣] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **اسْمح يسمحْ لك** »[٤] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **اسمحوا يسمحْ لكم** »[٥] .

وقال ﷺ : « **رحم اللّه عبداً سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى** »[٦] .

وقال ﷺ : « **غفر اللّه لرجل ممن كان قبلكم ، كان سهلاً إذا باع ، سهلاً إذا اشترى ، سهلاً إذا اقتضى** »[٧] .

* * *

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٦١٤).

(٢) حسن : رواه أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، والبيهقي في « الشعب » عن عثمان ، وحسنه الألباني .

(٣) صحيح : رواه الترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٨٨).

(٤) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في « الكبير » ، والبيهقي في « الشعب » عن ابن عباس ، صححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٩٨٢) .

(٥) صحيح : رواه عبد الرزاق في « مصنفه » عن عطاء مرسلاً ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٩٨١) .

(٦) رواه البخاري وابن ماجه عن جابر .

(٧) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، والبيهقي في « السنن » عن جابر ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤١٦٢) .

الصحابي الجليل : قيس بن سعد بن عبادة سيد الخزرج وابن سيدهم:

قال الذهبي في السير : وجُود قيْس يضرب به المثل .

عن هشام بن عروة عن أبيه قال : باع قيس بن سعد مالاً من معاوية بتسعين ألفًا فأمر منْ نادىٰ في المدينة : مَنْ أراد القرض فليأتِ ، فأقرض أربعين ألفا ، وأجاز بالباقي ، وكتب علىٰ مَنْ أقرضه صكًا فمرض مرضًا قلّ عوّاده ، فقال لزوجته ، قريبة أخت الصديق : لِمَ قلّ عوّادي ؟ قالت : للدْين ، فأرسل إلىٰ كل رجل بصكّه ، وقال : اللهم ارزقني مالاً وفعالا ، فإنه لا تصلح الفعال إلا بالمال [١] .

وفي « لباب الآداب » : « مرض قيس بن سعد بن عبادة ـ رضي اللَّه عنه ـ فاستبطأ إخوانه من عيادته ، فسأل عنهم ، فقيل : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّيْن ، فقال : أخزىٰ اللَّه مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديًا فنادىٰ : مَنْ كان لقيس عليه دْين فهو في حِل منه ، فكُسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده » [٢] .

* * *

(١) « السير » (٣/ ١٠٦ـ١٠٧) .
(٢) « لباب الآداب » لأسامة بن منقذ (ص١٠٩) دار الكتب السلفية بالقاهرة .

من أظل رأس غاز

من أظل رأس غاز

اعلم أن النفس البشرية ضعيفة شحيحة ، إلا من عصم اللَّه ؛ ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان ، وترتفع على ضرورات الأرض ، وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب لأنها تؤمل رضوانًا من اللَّه أكبر .

وللَّه در أنفس انبعثوا إلى بذل أمولهم في سبيل اللَّه عن طواعية نفس ، وإخبات قلب ،واطمئنان ضمير ، ويالها من مشاعر رفرافة تلبي داعي الإيمان . . .

وعلى الطرف الآخر آخرون أدركتهم ثقلة الأرض ، والشح بالنفقة ، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ،وخواء القلب من الإيمان ، تركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال! فكان لهم حظ من قول اللَّه تعالى : ﴿ **وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللَّه وقالوا لا تنفروا في الحر** ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح الرجال .

يؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز .

وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة إلى ميدان الجهاد، وطريق الجهاد المملوء بالعقبات والأشواك ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال .

فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال، فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حرًا ، وأطول أمدًا .

فما ظنك بأناس أرذل من هؤلاء فاتهم شرف الجهاد وتخلّوا عنه

راضين ، وشرف إعانة المجاهدين بالمال .

وعلى الطرف آخر صور مشرقة مضيئة هي أهل لظل اللَّه يوم لا ظل إلا ظله .

عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أظل رأس غاز ، أظله الله يوم القيامة** »(١) .

إن كان هذا جزاء من أظلّ رأس غاز فكيف بمن أطعمه وسقاه ، ومن كساه من عري ومن حمله ؟ فهؤلاء من باب أولى لهم مثل الأجر وفضل اللَّه عظيم ونعمته سابغة ورحمته واسعة .

تبوك ومقادير الرجال :

جاءت غزوة تبوك ، والناس في عسرة شديدة ، وحين طابت الثمار وأحبّت الظلال ، والناس يحبون المقام ويكرهون الخروج .

قال ابن عساكر (ج١/ ١١٠) وحضّ رسول اللَّه ﷺ المسلمين على الجهاد ورغّبهم فيه وأمرهم بالصدقة ، فحملوا صدقات كثيرة ؛ وكان أول من حمل أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ بماله كله أربعة آلاف درهم .

فقال له رسول اللَّه ﷺ : « **هل أبقيت لأهلك شيئا ؟** » فقال : اللَّه ورسوله ، ثم جاء عمر بنصف ماله ، وحمل العباس بن عبد المطلب وطلحة ابن عبيد اللَّه ـ رضي اللَّه عنهما ـ إلي النبي ﷺ مالاً ، وحمل عبد الرحمن

---

(١) حديث صحيح : أخرجه ابن ماجه (١/ ٢٤٣) رقم (٧٣٥) ، (٢٧٥٨) ، وابن حبان في «صحيحه»، وأبو يعلى في « المسند » ، والحاكم في « المستدرك » ، وصححه ووافقه الذهبي ، وأخرجه البيهقي في « سننه الكبرى » ، والمزي في « تهذيب الكمال » ، الطبري في «تهذيب الآثار»، وأخرج نحوه عبد بن حميد ، وعزاه الزرقاني في « شرحه على موطأ مالك » نقلاً عن السخاوي إلى ابن عدي : وقال : « وصححه الضياء عن عمر موقوفًا » .

ابن عوف إليه مائتي أوقية ، وحمل سعد بن عبادة ـ رضي اللَّه عنه ـ إليه مالاً ، وكذلك محمد بن مسلمة ـ رضي اللَّه عنه ـ ، وتصدّق عاصم بن عديّ ـ رضي اللَّه عنه ـ بتسعين وسقًا تمرًا . . . والنساء يعنّ بكل ما قدرن عليه .

قالت أم سنان الأسدية ـ رضي اللَّه عنها ـ : لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدي النبي ﷺ في بيت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ فيه : مَسَك[1] ، ومعاضد[2] ، وخلاخل[3] ، وأقرطة[4] وخواتيم ، وقد ملئ مما بعث به النساء يعنّ به المسلمين في جهازهم » .

وللَّه در أبي عقيل يأتي بصاع من تمر ويستحي . . . قال : « بتّ ليلتي أجر بالجرير[5] على صاعين ، واللَّه ! ما كان عندي من شيء غيره ، فأتيت بأحدهما ، وتركت الآخر لأهلي » .

وأخرج ابن جرير من طريق يحيى بن أبي كثير ، ومن طريق سعيد عن قتادة ، وابن أبي حاتم من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة قال : حث رسول اللَّه ﷺ على الصدقة[6] فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال يا رسول اللَّه مالي ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها ، فقال : **"بارك اللَّه فيما أمسكت وفيما أعطيت"** .

العسرة وعثمانها المعطاء :

روى عبد لرحمن بن سمرة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن عثمان بن عفان جاء

---

(١) مَسَك : الأسورة والخلاخيل من القرون والعاج .
(٢) جمع معضِد أي دملج .
(٣) جمع خلخال : حلية تلبس في الرجل كالسوار في اليد .
(٤) جمع قرط : ما يعلق في شحمة الأذن .
(٥) حبل يجعل للبعير ، والمعنى بت ليلتي كلها استقى الماء بالحبل .
(٦) يعني في غزوة تبوك .

إلىٰ النبي ﷺ بألف دينار في كمّه حين جهز جيش العسرة ، فنثرها في حجره ، فرأيت النبي ﷺ يقلبها في حجره ، ويقول : ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم ، ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم »(١) .

● ولما حُصر في داره قام فأشرف عليهم فوق داره . . . قال : « أذكركم باللَّه ، هل تعلمون أن رسول اللَّه ﷺ قال في جيش العسرة : « **من ينفق نفقة متقبلة** » والناس مجهدون ، معسرون ، فجهزت ذلك الجيش ؟ قالوا : نعم . . . »(٢) .

وما جاء في رواية الأحنف بن قيس من قول عثمان : « أنشدكم باللَّه الذي لا إله إلا هو ، أتعلمون أن رسول اللَّه نظر في وجوه القوم فقال : «**من يجهّز هؤلاء غفر اللَّه له** » يعني جيش العسرة ، فجهزتهم حتىٰ لم يفقدوا عقالاً ولا خطامًا ؟ قالوا : اللَّهم نعم ، قال : اللَّهم اشهد »(٣) .

ما كاد عثمان يسمع نداء رسول اللَّه ﷺ : « **من يجهز هؤلاء ، ويغفر اللَّه له** ؟ » حتىٰ سارع إلىٰ مغفرة من اللَّه ورضوان .

وهكذا وجدت العُسرة الضاغطة «عثمانها » المعطاء !!

وقام ـ رضي اللَّه عنه ـ بتجهيز الجيش كله ، حتىٰ لم يتركه بحاجة إلىٰ خِطام أو عقال . . . !!

يقول ابن شهاب الزهري :

« قدّم عثمان لجيش العُسْرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً ، وستين فرسًا ، أتمَّ بها الألف » !! .

---

(١) حديث حسن : أخرجه الترمذي ، وأحمد ، وابن أبي عاصم في « السنة » والحاكم وصححه واقرّه الذهبي ، والبيهقي في « الدلائل » ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » .

(٢) جزء من حديث صحيح لغيره : أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » ، وابن عساكر في تاريخه .

(٣) جزء من خبر حسن لغيره : أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٧/٤٨٦) ، وابن حبان (٦٨٨١) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (١٣٠٣) .

ويقول حذيفة : « جاء عثمان إلىٰ رسول اللَّه في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبَّها بين يديه ، فجعل الرسول ﷺ يُقلبها بيده ويقول : «**غفر اللَّه لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت ، وما هو كائن إلي يوم القيامة** » .

ويقول عبد الرحمن بن عوف : « شهدت رسول اللَّه ﷺ وقد جاءه عثمان بن عفان في جيش العسرة بسبعمائة أوقية من الذهب » .

ألم أقل لكم : إنه يبدو وكأنه المموّل الوحيد للأمة الجديدة ، والدين الجديد . . . ؟؟ [1] .

ولما كفىٰ اللَّه المؤمنين القتال برجوع الروم ورجع الجيش بكل عتاده الذي أمدّه به عثمان ما استرجع عثمان من ذلك شيئًا ، وما استردّ منها بعيراً ولا خطامًا .

رضي اللَّه عن عثمان المهاجر إلىٰ ربه الذي يخرج من ماله ومن دنياه العريضة كلها ويسافر إلىٰ اللَّه في حياء رجل تستحي منه الملائكة . . . نعم المال الصالح للرجل الصالح . . . ترىٰ كم أظل عثمان من رءوس رجال . . . وكم له عند اللَّه من ظل بل ظلال ظليلة .

قال رسول اللَّه ﷺ :

« **أفضل الصدقات ظل فسطاط في سبيل اللَّه عز وجل ، أو منحة خادم في سبيل اللَّه ، أوْ طروقة فحل في سبيل اللَّه** »[2] .

---

(١) « خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد (ص٢٤١) ـ دار الجيل .

(٢) أخرجه أحمد ، والترمذي عن أبي أمامة ، والترمذي عن عدي بن حاتم ، كذا أخرجه الحاكم وابن عساكر . قال المناوي في « فيض القدير » (٢/ ٤٠) : « صححه الترمذي وتبعه عبد الحق واعترضه ابن القطان بأن فيه القاسم بن أبي عبد الرحمن مختلف فيه قال : فحق الحديث أن يقال فيه حسن لا صحيح ، وأقول فيه أيضًا الوليد بن جميل ، قال الذهبي : قال أبو حاتم : روىٰ عن الحسن أحاديث منكرة » وأشار السيوطي له بالصحة ، وحسنّه الألباني في « صحيح الجامع » رقم(١١٢٠) .

قال المناوي في « فيض القدير » (٢/ ٤٠) :

(أفضل الصدقات ظل فسطاط) بضم الفاء وتكسر : أي خيمة يستظل بها المجاهد في (سبيل اللَّه عز وجل) أي أن ينصب خباء للغزاة يستظلون فيه .

من أظل رأس غاز أظله اللَّه يوم القيامة . . . يا لعظم الجزاء .

فكيف عميت عنه أبصار المترفين من أثرياء المسلمين ، وأبصرت مآسي حيوانات أوربا وحدائق حيوانها . . . أفلا أنزلتم المجاهدين والنازحين من المسلمين الراحلين عن ديارهم منزلة حيوانات أوربا .

أين دنانيركم تشد عضد إخوانكم من مسلمي كوسوفوا والبوسنة . . .

إن أراد أطفال المجاهدين ونساؤهم والشيوخ من آبائهم الفرار من الذبح الجماعي في كوسوفوا وأرادوا المسير إلى ألبانيا لغّموا لهم الطرق حتى الجبال ، وإن أرادوا الفرار إلى الغابات أحرقوا الغابات . . . فأين أنتم ؟

آه وألف آه من قوافل الضياع المشردة :

قوافلُ تمضي بين أفواج رُضّعٍ ... وأحزانِ ثكلى أو تباريح أيِّمِ

وبين صبايا يا لَذلِّ دموعِها ... وأفواجِ أطفال وأمواجِ يُتَّمِ

قوافل تمضي وهي تسحبُ خطْوها ... ذليلاً على شوكٍ مُدَمٍّ ومُوضِمِ

تكاد عيونُ الطفل تسألُ من أنا ... إلى أين أمضي يا فيافي تكلمي

أتحملني دورُ النصارى وبيعةٌ ... وساحاتُ شركٍ أو منازل سُوَّمِ

لتُنْزع مني فطرةٌ وطهارةٌ ... ويُغرس بي شرك وفتنة مأثم

من أظلّ رأس غاز أظله اللَّه . . . جبنتم يا مترفين عن النزال . . . فهلا ساعدتم إخوانكم . . . لا تجمعوا عليهم حر السيف ، وحرّ الجوع . . . وحر

الشمس وهجيرها . . .

يا من يؤذيكم هجير الشمس في وسط الظهيرة . . . يا من لا تطيقون العيش إلا في ظل المكيّفات حتىٰ امتد ترفكم إلىٰ الشوارع تريدون أن تلطّفوا جوها بالمكيفات انظروا كيف يعيش الفرسان في أدغال كشمير وغابات الفلبين ووسط جليد كوسوفوا . . . لعلّ الحياء يعود إلىٰ وجوهكم يومًا . . . وما أظنه عائد .

لكأنكم تقولون بملء أشداقكم للمجاهد الذي لا يريد سواعدكم إلىٰ جنب ساعده إنما يريد عونكم له بما يسدّ رمقه وبما يستر بدنه ويظل رأسه . . . تقولون له : لا تنتظر أحدًا فلن يأتي أحد :

لا تنتظر أحداً

فلن يأتي أحدْ ...

لم يَبْقَ شيءٌ غيرُ صوتِ الريحِ

والسيفِ الكسيحِ

ووجه حلم يرتعدْ ...

الفارسُ المخدوعُ ألقى تاجه

وسط الرياح وعاد يجري خائفاً

واليأس بالقلب الكسير قد استبَدّْ

صور على الجدران ترصدها العيون

وكلما اقتربت ... تُطِلُّ وتبتعِدْ

قد عاد يذكر وجهه

والعزمُ في عينيه

والأمجادُ بين يديه

والتاريخ في صمتٍ سَجَدْ

* * *

الفارس المخدوع في ليل الشتاء

يدور مذعوراً يُفتّشُ عن سندْ

يسري الصقيع على وجوه الناس

تنبُتُ وحشةٌ في القلب

يفزع كل شيء في الجَسَدْ

في ليلة شِتْويةُ الأشباحِ

عاد الفارس المخدوعُ منكَسِراً

يجر جوادَهُ

جثت الليالي حولَه

غير الندامة ما حصدْ

ترك الخيولَ تفرُّ من فرسانها

كانت خيولُكَ ذاتَ يوم

كالنجوم بلا عَدَدْ

أسرفت في البيعِ الرخيص

وجئت ترجو من أعاديك المَدَدْ

باعوك في هذا المزاد

فكي تسمع زيف جَلاَّدٍ وَعَدْ

الفارسُ المخدوعُ ألقى رأسَهُ

فوقَ الجدارِ

وكلٌ شيء في جوانحه هَمَدْ

هربت خيولك من صقيعِ اليأسِ

فالشطآنُ حاصرها الزَّبَدْ

لا شيء للفرسان يبقى

حين تنكسرُ الخيول

سوى البريق المرتَعدْ

وعلى امتداد الأفق تنتحبُ المآذنُ

والمنابرُ ... والقبابُ

وصوتُ مسجونٍ سجدْ

هذي الخيول ترَهَّلَتْ

ومواكبُ الفرسانِ ينقصُها

مع الطهر الجَلَدْ

هذا الزمان تَعَفَّنَتْ فيه الرءوسُ

وكلُ شيءٍ في ضمائرها فسَدْ
إن كان هذا العصرُ
قد قطع الأيادي والرقابَ
فكيف تأمنُ وسطَ بركانٍ خَمَدْ

* * *

هذي الخيولُ العاجزةْ
لن تستطيع الركضَ
في قمم الجبال
وكلٌ ما في الأفقِ أمطارٌ ورَعْدْ
ماذا سيبقى للجواد إذا تهاوى
غير أن يرتاحَ في كفن .. ولَحْدْ
الفارس المكسورُ ينظرُ
والسماءُ تطلٌ في غضبِ
وبين دموعِها
تخبو مواثيقٌ وعهدْ
خدعوك في هذا المزاد
ظننت أن السمَّ شَهْدْ
قتلوك في الأمس القريبِ

فكيف تسأل قاتليكَ
بأن تموت بحبل ودْ
قد كنت يوماً
لا ترى للحلم حداً أي حدْ
والآن حاصركَ المُرابي
في المزاد بألفِ وَغدْ
هذا المرابي
سوف يخلفُ كلَّ يومٍ ألفُ وعدْ
لا تحزني أمِ المدائن لا تخافي
سوف يُولدُ من رَمَادِ اليوم غدْ
فغداً ستنبت بين أطلال الحُطامِ
ظلالُ بستانٍ .. وورْدْ
وغداً سيخرج من لظى هذا الزكامِ
صهيلُ فرسانٍ ... ومْجد

* * *

الفارسُ المكسورُ
ينتظرُ النهايةَ في جلدْ
عينانِ زائغتانِ
وجهٌ شاحبٌ
وبريقُ حلم في مآقيه جَمَدْ

لا تنتظرْ أحداً

فلنْ يأتي أحدْ

فالآن حاصَرك الجليدُ ...

إلى الأبَدْ ...

* * *

(١) قصيدة : « لا تنتظر أحداً . . . فلن يأتي أحد » لفاروق جويدة - الأهرام .

من أعان مجاهدًا
أو غارمًا
أو مكاتبًا

من أعان مجاهدًا أوغارمًا أو مكاتبًا

عن عبد اللَّه بن سهل بن حُنيف ، عن أبيه : أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**مَنْ أعان مجاهداً في سبيل اللَّه ، أو غارماً في عُسْرَته ، أوْ مُكاتباً في رقبته، أظله اللّه في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله** »(١) .

***

من أعان مجاهدًا في سبيل الله

قال المناوي : « **من أعان مجاهدً في سبيل اللَّه** » على مؤن غزوه ، أو إخلافه في أهله بخير ونحو ذلك (٢) . اهـ .

أفلا عاقل يعلم أن الجنة تحت ظلال السيوف ، وأن الريّ الأعظم في شرب كئوس الحتوف ، وأن من اغبرّت قدماه في سبيل اللَّه، حرّمه اللَّه على النار .

ألا من أيام تعود ويعود معها الجهاد في سبيل اللَّه بعدما أمات الناس الجهاد كأنهم ليسوا به مخاطبين ، أيهوىٰ نجمه بعد أن كان مشرقًا سنيّا ،

---

(١) سنده جيد : أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٧) والحاكم (٢/ ٨٩) وعَبْد بن حميد في « المنتخب » (١/ ٤٢٤) والطبراني في « الكبير » (٦/ ١٠٤ ـ ١٠٥) وقال الحاكم : صحيح الإسناد وتعقبه الذهبي في «التلخيص» فقال : بل عمرو بن ثابت رافضي متروك » .
وقال الهيثمي في « المجمع » (٥/ ٢٨٣) : « عبد اللَّه بن سهل بن حنيف لم أعرفه » وكذا في «ذيل الكاشف» لأبي زرعة العراقي .
قال الشيخ مشهور حسن سليمان : ومدار طرق الحديث عليه فأنّى للحديث الصحة .
وجوّد إسناده الحافظ في « الفتح » (٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩) وصححه السيوطي في « تمهيد الفرش » (ص٥٨) ، وحسّنه المناوي في « فيض القدير » (٦/ ٧٢) ، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥٤٥٦) و«الضعيفة» (٤٥٥٥) .

(٢) « فيض القدير » (٦/ ٧٢) .

وينمحي رسمه واسمه كأن لم يكن له من قبل سميًا ؟! .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

إن النفرة للجهاد في سبيل اللَّه انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع من ثقلة اللحم والدم وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان ،وتغليب لعنصر الشوق المجنّح في كيانه على عنصر القيد والضرورة .

بالجهاد الذي فيه المشقة والعناء ، يذهب الهمّ والغمّ ، ولكنها الشقّة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة ، والعزائم الضعيفة ، ولكنه الجهاد الخطير الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة المنخوبة ،ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنْية المهزولة .

كثير هم أولئك الذي يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة ، إنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خُيِّل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالي ، فالثمن القليل لايشتري سوى التافه الرخيص .

قال رسول اللَّه ﷺ : **« انتدب اللَّه لمن خرج في سبيله، لا يخُرجه إلا إيمان بي، وتصديق برسلي ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة ، أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتي ، ما قعدتُ خلف سريّة ، ولوددتُ أن أُقتل في سبيل اللَّه ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل »**[2] .

---

(١) سورة التوبة الآيتان (٣٨-٣٩) .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة .

يوسف بن تاشفين يعين أهل الأندلس وينحر الكافرين في معركة الزلاقة:

لسوف يذكر التاريخ المثال الناصع لمن أعان المجاهدين في سيرة يوسف المغرب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين . . الصوّام القوّام الزاهد الذي لم يكن يأكل سوىٰ خبز الشعير ، ولحم الإبل ، وشرابه لبن النوق ، وتحت يديه ملك المغرب كله : لما توحّدت كلمة ملوك النصارىٰ علىٰ سحق دولة الإسلام بعد سقوط طليطلة وتحالف ألفونسو السادس ملك « قشتالة » وسانشو الأول ملك أراجون ونافارا ، والكونت برنجار ريموند حاكم برشلونة وأورجل ، لإخراج المسلمين من الأندلس ، ودفع بعض أمراء الأندلس الجزية لألفونسو .

أرسل أمراء الطوائف رسالة إلىٰ يوسف بن تاشفين موقعة من ثلاثة عشر أميرًا مستقلاً ، يناشدونه الإسراع إليهم قبل وقع الطامة الكبرىٰ ، وأرسل المعتمد بن عباد إلىٰ يوسف بن تاشفين : « إن كنت مؤثرًا للجهاد فهذا أوانه ، فقد خرج الأذفونش إلىٰ البلاد ، فأسرع في العبور إليه »[1] .

وأمَّت مدينة مراكش وفود كبيرة من الفقهاء ، ووفود شعبية تسأل يوسف إنقاذ مايمكن إنقاذه من أرض المسلمين بالأندلس .

وكتب وزير ابن عباد - أبو بكر - كتابًا إلىٰ ابن تاشفين : « لقد غُصت المساجد المتروكة بالقساوسة من أعداء الدين ، ونُشرت الصلبان فوق المنائر التي كان يُتلىٰ فيها الأذان من قبل ، وأُخذت النواقيس تُقرع من فوقها للقداس ، بعد أن كان يُدعىٰ للصلاة » وختم الوزير كتابه بقوله : « إن يوسف بن تاشفين قد غدا معقد الآمال ، وإنه يُعتقد أن

---

(١) « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٧/ ١١٦) .

اللَّه قد اصطفاه لانقاذ الإسلام » .

وعبر يوسف بجيشه إلى الأندلس ، وصعد إلى مقدمة سفينته ودعا : «اللَّهم إن كنت تعلم أنّ في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهِّل علي جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لا أجوزه » ، فسهل اللَّه المركب ، وقرّب الطلب ، وسجد ابن تاشفين شكرًا للَّه لَمّا نزل بأرض الأندلس .

وجاءت الإمدادات لألفونسو من كل صوب ، وعمل الباباوات دورًا عظيمًا في الحث على ذلك وبلغت عدة جيش ألفونسو مائة ألف من المشاة ، وثمانين ألفًا من الفرسان ، وكان عدد الجيش المسلم ثمانية وأربعين ألفًا ، نصفهم من جيش ابن تاشفين ، ونصفهم من الأندلسيين تحت إمرة ابن عباد .

وكانت معركة الزلاقة ، وثبت المعتمد بن عباد ثباتًا رائعًا ، وآزره ابن تاشفين وهو يهدر من فوق فرسه : « يا معشر المسلمين ، اصبروا لجهاد أعداء اللَّه الكافرين ، ومن رُزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومَنْ سَلِم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة ، وقاتل ابن تاشفين في مقدمة صفوفه قتالاً شديدًا .

وكتب اللَّه النصر للمسلمين ، ولم ينج من جيش الكافرين سوى أربعمائة أو خمسمائة فارس .

وأمر ابن تاشفين برءوس القتلى فصفّت في سهل الزّلاقة على شكل هرم ، ثم أمر فأُذن للصلاة من فوق أحدها ، وانجلت الزلاقة عن يوم مشهود من أيام الإسلام .

وعفّ يوسف بن تاشفين عن غنائم هذه المعركة ، وآثر بها ملوك الطوائف ، وعرّفهم أن مقصوده إنما كان الغزو والجهاد ، لا الغنائم ، ثم

عاد ابن تاشفين إلىٰ المغرب .

وجاز ابن تاشفين إلىٰ الأندلس مرة ثانية ؛ لصدّ غارات النصارىٰ علىٰ مرسية .

استنجاد أهل الأندلس بالسلطان أبي الحسن المريني صاحب فاس وأولاده: لما كتب إليه أمراء الأندلس علىٰ لسان الأديب ابن الخطيب : « إذا تداعت أمم الكفر نصرة لدينها المكذوب ، وحميّة لصليبها المنصوب ، فمن يُستدعىٰ لنصر دين اللّه وحفظ أمانة نبيه إلا أهل ذلك الوطن . . إنما الإسلام غريق قد تشبث بأهدابكم يناشدكم اللّه في بقية الرمق وهذا أوان الاعتناء واختيار الحماه وإعداد الأقوات ، قبل أن يضيق المجال وتمنع الموانع » .

وقد استجاب السلطان أبو الحسن المريني وأهله وشعبه استجابة طيبة ، يدل علىٰ هذا ما قاله صاحب « نفح الطيب » إذ قال عن أبي الحسن المريني : « كان مجتهداً في الجهاد بنفسه وحرمه ، وجاز للأندلس يرسم ذلك[1] بنفسه ، وأظهر آثاره الجميلة ، ومنها ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد أن أنفق عليه الأموال ، وصرف إليه الجنود والحشود . . . ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلىٰ أن استرجعوه ليد المسلمين .

أبو يوسف المنصور يعين أهل الأندلس ويحقق أعظم انتصار في معركة الأرك :

لما أخذ مطران طليطلة « مارتن دي بسيرجا » يعمل بروح صليبية لاعداد حملة كبيرة في الأندلس . . . دمّر هو وألفونسوا السادس ملك قتشتاله كل شيء ، فانتسفت الغلات والكروم ، وقطعت أشجار الزيتون ،

---

(١) أي لخوض الجهاد .

(٢) « نفح الطيب » (٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨) .

وخرّبت الضياع والقرىٰ ، وسيقت الماشية ،وسُبي المسلمون العزّل رجالاً ونساءً ، وقتل قسم كبير منهم ، وزحفت قوىٰ من فرسان النصارىٰ إلىٰ أقصىٰ جنوب الأندلس وكتب ألفونسو السادس إلىٰ المنصور يعقوب بن يوسف «باسمك اللّهم فاطر السموات والأرض . . . . وصلىٰ اللّه علىٰ السيد المسيح روح اللّه وكلمته ، الرسول الفصيح . أما بعد . . . فإنه لا يخفىٰ علىٰ ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب[1] ، أنك أمير الملّة الحنيفية ، كما أني أمير الملّة النصرانية ،وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية وإخلادهم إلىٰ الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار ، وأسبي الذراري ،وأمثل بالرجال،ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم تزعمون أن اللّه تعالىٰ فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفّف اللّه عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا ،ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعًا ولا تملكون امتناعًا ، وقد حكىٰ لي عنك أنك آخذ في الاحتفال ، وأشرفت علىٰ ربوة القتال ، وتماطل نفسك عامًا بعد عامًا ، تقدّم رجلاً وتؤخر أخرىٰ ، فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ؟ ثم قيل لي : إنك لا تجد إلىٰ جواز البحر سبيلاً لعلّة لا يسوغ لك التقحّم معها ، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، علىٰ أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان ، وترسل إليّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات ، وأجوز بحملتي إليك، وأقاتلك في أعزّ الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك ، وهدية عظيمةمثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا

(١) أي ثابت .

عليك ، واستحقيت إمارة الملّتين والحكم على البرّين ، واللَّه تعالىٰ يوفّق للسعادة ، ويسهل الإرادة، لا ربّ غيره ولا خير إلاّ خيره إن شاء اللَّه تعالىٰ»[1] .

فلما وصل كتابه إلىٰ أبي يوسف المنصور مزّقه وكتب علىٰ ظهر قطعة منه : ﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ الجواب ما ترىٰ لا ما تسمع .

ولا كُتْبَ إلا المشرفية عنده ولا رُسُلٌ إلا الخميس العرمرمُ

وسار المنصور بجيشه تحت إمرة وزيره القائد العام أبي يحيىٰ بن أبي حفظ ، وتولىٰ قيادة الأندلسيين زعماؤهم وكبيرهم أبوعبد اللَّه بن صناديد ، وحشد ألفونسو ما ينوف علىٰ خمسة وعشرين ألف فارس ،ومائتي ألف راجل، وجماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرىٰ المسلمين وأسلابهم .

وفي ٩ شعبان سنة ٥٩١ هـ والتقىٰ الجيشان ،وأميرالمؤمنين يقول لجنده: جدّدوا نيّاتكم وأحضروا قلوبكم . . .

ورد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين ، وفي المرة الثالثة اقتحم القشتاليون صفوف المسلمين وفرّقوها ، وقتلوا قسماً منها ، وسقط القائد العام وهو يقاتل بمنتهىٰ الشجاعة ، واعتقد النصارىٰ أن النصر لاح ، فما فوجئوا إلا بهجوم الجناح الأيمن بقيادة أبي عبد اللَّه بن صناديد ، وهجم من بعده أمير الموحدين لكي يجهز علىٰ جيش القشتاليين ، وتساقط معظم فرسان النصارىٰ ، ونجا ألفونسو بأعجوبة بعد أن قتل من جنده ثلاثون ألف قتيل .

---

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٧/ ٦) .

ولم يسمع في بلاد الأندلس بكسرة مثلها ، وكانت تضاهي وقعة الزّلاقة أو تزيد ، نجا ألفونسو إلى طليطلة في أسوأ حال ، فحلق رأسه ولحيته، ونكّس صليبه ، وآلى أن لا ينام على فراش ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرسًا ولا دابة حتى يأخذ بالثأر[1] ، ولكن مِمَّنْ هيهات هيهات فما استطاع ابن الكافرة أن يفعل شيئًا .

معركة « مسرغين » بالجزائر (١٥٠٧م) ومافعله أهل وهران ومن حولهم لنجدة المجاهدين .. والنصر الساحق للمسلمين فيها :

جهز فرديناند ملك أسبانيا جيشه وأسطوله لغزو المغرب الإسلامي ، وموّل الأسطول الكاردينال الوزير الراهب ـ خمينيس ـ بأمواله الخاصة وبما قدمته له الكنيسة من الأموال وبمباركة البابا اسكندرالسادس بورجيا لنشر الصليبية الأسبانية بأفريقية تحت قيادة « دون رايموند دي قرطبة » ووصل الأسطول إلى « المرسى الكبير » .

وأحكم الحصار على المدينة لمدة خمسين يومًا ، وبعد مقاومة عنيفة من المسلمين سلّمت المدينة للأسبان وحوّلوا مسجد المدينة إلى كنيسة للنصارى .

ولما وصل الخبر إلى أسبانيا أعلن فيها العيد لمدة أسبوع .

وأخذت القيادة الأسبانية في الإعداد للمرحلة الثانية من التوسع ، ونظّم قائد حامية « المرسى الكبير » (فرناند يزدي قرطبة) حملة بهدف الهجوم المباغت على مسرغين ووصلت الحملة إلى هدفها مع الفجر ، وأحاطت بدوار العرب المسلمين وباغتته بالهجوم من كل جهاته .

وذهل العرب لأول وهلة ، غير أنهم استعادوا بسرعة ثباتهم ، وقابلوا

---

(١) انظر : « الأرك » بقيادة أميرالموحّدين المنصور يعقوب بن يوسف لشوقي أبو خليل دار الفكر (ص٤٩ ـ ٦١) .

الهجوم بمقاومة عنيفة ، وقاتلوا بشراسة ، غير أن القوات الأسبانية أفادت من عاملي المباغتة والمبادأة فدمّرت المقاومة بسرعة ، فاستشهد المجاهدون وهم يحملون سلاحهم ، وسيق بقية الرجال والنساء والأطفال إلى الأسر ، واستخدم الأسبان كل ما وجدوه من الخيول وعربات الجر لحمل الغنائم ، ونظموا سيرهم ، وأخذوا يعبرون المسالك الجبلية على طريق العودة .

وأثناء ذلك كان بعض الرجال قد أفلتوا من المعركة وذهبوا لاستنفار القرى المجاورة .

وأسرع المجاهدون من (الدواوير القريبة) لنجدة إخوانهم - الغرابة - وهم لا يبغون من الدنيا إلا إنقاذهم من الأسر والهوان ، وليصونوا شرف النساء المسلمات أن يلحق بهن العار ، ولم تمض إلا ساعة من نهار ، حتى أحدق المجاهدون بالأسبان الذين كانوا يدفعون أمامهم غنائمهم وأسلابهم وأسراهم .

ودارت معركة قاسية عنيفة ، وكان الضباب يغطي ميدان المعركة ، فلم يتمكن الأسبان من استعمال أسلحتهم ، ولم يتمكنوا من رؤية أعدائهم ، وأدخل التكبير الفزع إلى قلوبهم فاختل نظامهم وفقدوا الأمل في النجاة .

وأثناء ذلك ، كانت أنباء الغارة الوحشية قد وصلت إلى مدينة «وهران» فبادر حاكمها إلى دفع قواته لنجدة المجاهدين ، ووصل الجيش إلى ميدان المعركة ، وارتفعت أصوات التهليل والتكبير من كل جانب ، واستبشر المجاهدون بهذه النجدة القوية ، فتزايدت حماستهم ، وانقضوا على المقدمة التي كانت تضم الغنائم والأسرى فقضوا عليها قضاء مبرمًا ، وفكّوا قيود الأسرى من رجال ونساء ، واسترجعوا كل الغنائم ، وأعملوا السيف في رقاب الأسبان فقتلوا منهم ثلاثة آلاف قتيل ولم ينج من الأسبان إلا القليل .

عروج وخير الدين باربروس سيفان من سيوف الإسلام ومثلان مضيئان للبحرية الإسلامية ونجدتها للمسلمين الأسبان :

« باربروس » أي ذوي اللحى الشقراء وما أدراك من هم ؟

في وقت تألب فيه الصليبيون ضد المسلمين في الأندلس ، وأخرجوهم من ديارهم ، وشددوا عليهم الخناق ، وعملوا فيهم تقتيلاً وتشريدًا وسبيًا ونهبًا حتى ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت ، يظهر الأبطال المنقذون كما يبزغ الشهاب في السماء المظلمة ، فمدوا أيدي العون لمن امتنع عليهم كل عون ، وقدموا المساعدة عندما عزّت المساعدة على أحوج الناس إليها .

عروج بن يعقوب بن يوسف التركي وخسرف [خير الدين] بن يعقوب ، ومحمد إلياس بن يعقوب بن يوسف ، أوالإخوة باربروسا أي ذوي اللحى الشقراء كما سماهم الإفرنج من جزيرة « مدلى » من بحر الأرخبيل ووالدهم يعقوب بن يوسف كان تركيًا تزوج من سيدة أندلسية .

أسر الأعداء عروج باربروس في بحار الشرق ، فعمل في المجاديف والقيد في رجله مدة سنتين وتمكن من الفرار من الأسر ، وانضم إليه أخوه خير الدين وانضم إليهما المجاهدون الأشداء وركبا البحر على سفن لهم واتخذوا من جزيرة جربة قاعدة لنشاطهم ، وانطلقا من هناك إلى ناحية الأندلس ينصران الإسلام ، وينقذان اللاجئين الأندلسيين إلى العدوة المغربية ، ويمعنان في أساطيل النصارى تدميرًا وأسرًا .

هنالك أطلق النصارى لقب بريروس على كل من الأخوين (عروج وخسرف) ، وهنالك أيضًا اقترح بعض الأندلسيين والمغاربة على «خسرف» أن يغيّر اسمه ، وأطلقوا عليه اسم ـ خير الدين ـ

سنة (٩١٨ هـ ـ ١٥١٢م) عروج وخيرالدين يهاجمان الأسبانيين في بجاية (الجزائر) انتقاماً لما ارتكبوه من جرائم ضد المسلمين :

خرج الأخوان من قاعدتهما في مرفأ (حلق الوادي) ومعهما قوة من ثلاث سفن صغيرة واصطدما بسفينة حربية كبيرة كانت تنقل ثلاثمائة جندي أسباني من نابولي إلىٰ برشلونة ، وكانت السفينة أقوىٰ بحجمها وبنيران مدفعيتهامن مجموع السفن الثلاث .

واندفعت السفن في محاولة لأسر السفينة وأحبطت محاولات السفن الإسلامية سبع مرات متتالية وفي الهجوم الثامن وبعد أن أصيب عروج بجرح بليغ ، نجح خير الدين بالوصول إلىٰ السفينة المعادية وقذف بنفسه فوقها ، ولحق به المجاهدون بسرعة ، وأمكن لهم الاستيلاء علىٰ السفينة بعد معركة عنيفة ، وأسروا كل من فيها واقتادوها إلىٰ مرسىٰ (حلق الوادي) تلك كانت بداية البطلين . . . فما ظنك بالخاتمة .

وفي سنة (٩٢٠ هـ) يهاجم الأخوة (بربروس) بجاية للمرة الثانية دعمًا للمجاهدين ونجح عروج في الاستيلاء علىٰ سفينة من سفن الأسطول الأسباني وأغرق أخرىٰ في معركة رهيبة أصيب فيها بكسر في ذراعه ولم يجد الأطباء يومئذ لها من علاج إلا البتر .

● ولما سقطت (جيجل) في قبضة المغامر (أندريا ـ دوريا) وأسطوله بعدمعركة وحشية وطُرد المسلمون منها ، استنجد أهل جيجل المشردون بعروج، وقاد عروج قوته البحرية ومعه إخوته واتصل بمجموعات المجاهدين من أهل جيجل وبعد معركة عنيفة استطاع عروج اقتحام المدينة وإبادة حاميتها إبادة تامة ، ووفقه اللّٰه لطرد الصليبيين من بلدة إسلامية، وكانت أول بلدة ينقذها علىٰ ساحل البلاد .

• ولما ارتفعت الاستغاثات من أهل الأندلس طالبة الإنقاذ ، توجه عروج وخير الدين على رأس قوة بحرية ملبيًا أصوات الاستغاثة من المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال الذين نكث الأسبان بوعودهم تجاههم وأصبحوا يرغمونهم على اعتناق المسيحية تحت تهديد الإبادة .

وأنقذ خير الدين ما أمكن إنقاذه ، وانقض على جزائر الباليئار التي أصبحت تحت سيطرة الأسبان ، واحتل (مينورقة) وأخذ أسرى من أهلها ، ثم رجع إلى قاعدته في مدينة (جيجل) .

وبعدها سقط عروج مؤسس دولة الجزائر شهيداً واحتزوا رأسه وساروا بها إلى أسبانيا ، حيث طيف بها على أكبر مدنهم ، وذهبوا بها بعد ذلك إلى أغلب المدن الأوربية التي كانت فرائصها ترتعد من مجرد ذكر بربروس .

• وينتقم خير الدين لأخيه ويدمر الأسطول الأسباني أمام الجزائر هذا الأسطول الذي أرسله ملك أسبانيا شارلكان سنة (٩٢٥ هـ - ١٥١٩م) وكان مكونًا من أربعين سفينة تحمل على متنها خمسة آلاف من المقاتلين الأسبانيين والأوربيين وانضمت إليها قوة ضخمة في بجاية وفي ٢٠ أغسطس (٩٢٥هـ-١٥١٩م) ينتصر المسلمون انتصاراً كاملاً .

وتغرق مياه البحر أربعة آلاف من المقاتلين الأسبانيين ، ويقع في قبضة الأسر ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد حاول هؤلاء تنظيم صفوفهم والانقضاض على المسلمين فتمت إبادتهم إبادة كاملة وبذلك دمرت الحملة تدميراً كاملاً .

• وفي سنة (٩٣٦ هـ-١٥٣٠م) ينتصر خير الدين على الحملة الصليبية الأسبانية ويدمر ١١ سفينة حربية تدميراً كاملاً ولم ينج من الأسطول الأسباني إلا سفينة واحدة فقط استطاعت الفرار لتعلم الأسبان بالمجزرة الرهيبة التي قضت على الأسطول في جزر الباليئار .

● وفي سنة (٩٣٧ هـ) يصل الأميرال اندريا دوريا على رأس أسطول يضم عشرين سفينة تحمل ألفا وخمسمائة من المقاتلين الأشداء لتدمير الأسطول الإسلامي ودارت معركة شرشال ولم تغرب شمس يومها إلا وقد انتشرت جثث ألف وأربعمائة من الأسبانيين ، بالإضافة إلى ستمائة أسير وقعوا في قبضة المجاهدين .

أهل الأندلس يستغيثون بخير الدين بربروس فينقذ سبعين ألفا منهم ، ولو لم يكن له فى التاريخ إلاهذا لكفاه :

بعد هزيمة شرشال تعرّض المسلمون في الأندلس لمزيد من القهر والاضطهاد ، وارتفعت أصوات الاستغاثة من أهل الأندلس بخيرالدين ، فمضى ومعه ٣٦ سفينة حتى بلغ السواحل الأسبانية التي التجأ إليها المسلمون، ولم يجرؤ الأسطول الأسباني للتعرض لأسطول خيرالدين فأخذ هذا على سفنه أكبرعدد من الراغبين في الحفاظ على دينهم ، وكان يترك أكبرعدد من بحارته الجزائريين فوق أرض الأندلس حتى يحمل مقابلهم عدداً من النازحين ، حتى إذا ما أوصلهم إلى الجزائر ، عاد إلى أسبانيا ليأتي بغيرهم .

وكرّر غدوه ورواحه بين الساحلين سبع مرات متوالية حتى تمكن من إنقاذ سبعين ألفًا من رجال الأندلس ونسائهم وأطفالهم .

للّه دره من مجاهد عظيم استجاب لنداء إخوانه وكان شجى في حلوق الكافرين ، وعرف السلطان العثماني سليمان القانوني فضل هذا المجاهد الفذ فيعينه أميرًا للبحر سنة (٩٣٩هـ) مع بقائه على رأس دولة الجزائر(١) .

---

(١) يراجع كتاب «خيرالدين بربروس» لبسام العسلي ـ دار النفائس .

جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلىٰ السلطان سليمان القانوني سنة (١٥٤١م) : « قد كان بجوارنا الوزير المكرّم المجاهد في سبيل اللَّه خير الدين وناصر الدين وسيف اللَّه علىٰ الكافرين ، علم بأحوالنا وما نجده من عظيم أهوالنا لمّا كان بالجزائر . . . فاستغثنا به فأغاثنا ، وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ، نقلهم إلىٰ أرض الإسلام وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان »(١) .

* * *

أو غارمًا في عسرته

الغُرْم : الدَّيْن . ورجل غارم : أي عليه دَيْن .

وفي الحديث : « **أعوذ بك من المأثم والمغرم** » :

قال ابن منظور : « يريد به مغرم الذنوب والمعاصي ، وقيل : المَغْرَم كالغُرْم ، وهو الدَّيْن ، ويريد به ما استدين فيما يكرهه اللَّه ، أو فيما يجوز ، ثم عجز عن أدائه ، فأما دَيْن احتاج إليه ، وهو قادر علىٰ أدائه ، فلا يستعاذ منه »(٢) .

ضرار بن القعقاع ـ رضي الله عنه ـ :

عن قتيبة بن مسلم قال : كان في مكز(٣) دماء ، فاجتمعوا لها في المسجد الجامع ، فأرسلني أبي إلىٰ ضرار بن القعقاع ، فقال لي : قل له : إن قومك قد اجتمعوا في الدماء ، فاحضرهم ، فانتهينا إلىٰ المسجد الجامع

---

(١) كتاب « استجابات إسلامية لصرخات أندلسية » لمحمد حسن عقيل (ص١٠٤) ـ مكتبة دار الأندلس الخضراء للنشر .

(٢) « لسان العرب » (٤/ ٣٢٤٧) .

(٣) مكز : بلد بالمشرق من بلاد مكرّان .

وهم حِلَق ، قال : فنظر إلىٰ عين الشمس فجعلها في ظهره ، ثم جلس ، قال : فجعلوا يتحوّلون إليه رجلاً ورجلين ، حتىٰ صاروا حوله ، ثم جعلوا يتهاترون ، وهو ينكت في الأرض ، فلما انتصف النهار ، قال له رجل : يا أبا القعقاع ، ألا تتكلم ؟! أما ترىٰ ما فيه قومك ؟! فقال : أوقد احتجتم إلىٰ ذلك ؟! قالوا : نعم ، فقال للمطلوبين : أمّا أنتم فبرآء ، وقال للطالبين : حقّكم إلي ، قال : فكأنما كانت نار طُفيت ، فقاموا فتفرّقوا ، وأرسل إلىٰ آبل مأبله بالبادية ، فودَىٰ تلك الدِّيات »[١] .

سعيد بن العاص : أدبه في سداد دين الناس أكثر من عطائه :

قال الأصمعي : كان سعيد بن العاص يسمر مع سمّاره إلىٰ أن ينقضي حين من الليل ، فأنصرف عنه القوم ليلة ورجل قاعد لم يقم، فأمرسعيد بإطفاء الشمعة وقال : حاجتك يا فتىٰ ؟ فذكر أن عليه ديْنًا أربعة آلاف درهم، فأمرله بها ، وكان إطفاؤه للشمعة أكثر من عطائه[٢] .

معاوية بن أبي سفيان :

لما حج معاوية بن أبي سفيان سلّم عليه الحسن بن علي وأخبره بديْنه ، فمرّوا ببُخْتِيٍّ عليه ثمانون ألف دينار ، وهو يضلع وهم يزجونه ، فقال معاوية: ما هذا ؟ قالوا :أعيا وعليه المال ، ونحن نزجّه ليلحق ، فقال : اصرفوه إلىٰ أبي محمد ، فدفعه إليه وعليه ثمانون ألف دينار[٣] .

زين العابدين لله درّه :

عن عمرو بن دينار قال : دخل عليّ بن الحسين علىٰ محمد بن أسامة

---

(١) « المستجاد من فعلات الأجواد » للدارقطني (ص٨٢ ، ٨٣) .
(٢) « العقد الفريد » (١/ ٢٩٩-٣٠٠) .
(٣) « لباب الآداب » (ص٨٧) .

ابن زيد في مرضه فجعل يبكي ، فقال : ما شأنك ؟ قال : عليّ دَيْن ، قال : كم هو ؟ قال : خمسة عشر أو بضعة عشر ألف دينار ، قال : فهي علي .

الإمام المبارك عبد اللَّه بن المبارك :

عن سلمة بن سليمان : جاء رجل إلىٰ ابن المبارك ، فسأله أن يقضي دَيْنًا عليه ، فكتب له إلىٰ وكيل له ، فلما ورد عليه الكتاب قال له الوكيل : كمْ الدّيْن الذي سألته قضاءه ؟ ، قال : سبعمائة درهم . وإذا عبد اللَّه قد كتب له أن يُعطيه سبعة آلاف درهم ، فراجعه الوكيل، وقال : إنّ الغلاّت فنيت . فكتب إليه عبد اللَّه : إن كانت الغلاّت قد فنيت، فإن العمر قد فني ، فأجز له ما سبق به قلمي .

سعيد بن خالد وسليمان بن عبد الملك :

دخل سعيد بن خالد علىٰ سليمان بن عبد الملك ، وكان سعيد رجلاً جوادًا، فإذا لم يجدْ شيئًا كتب لمن سأله صكا علىٰ نفسه حتىٰ يخرج عطاؤه، فلمّا نظر إليه تمثّل بهذا البيت فقال :

إني سمعتُ مع الصباحِ مناديًا يا مَن يُعين على الفتى المعوانِ

ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : دَيْن عليّ ، قال : وكم هو ؟ قال : ثلاثون ألف دينار ، قال : لك دَيْنك ومثله .

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا تحل الصدقة لغني ، إلا لخمسة : لغاز في سبيل اللَّه ، أو لعامل عليها ، أو لغارم ، أو لرجل اشتراها بماله ، أو لرجل كان له جار مسكين فتصدّق على المسكين ، فأهداها المسكين للغني** »[1] .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم في « المستدرك » وصححه . وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم(٧٢٥٠) .

أو مكاتبًا في رقبته

« أعان مكاتبًا في رقبته » :

قال المناوي في « فيض القدير » (٦/ ٧٢) : « أي في فكّها بنحو أداء بعض النجوم عنه أو الشفاعة له » .

قال تعالىٰ : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا** ﴾ .

إن اللَّه تعالىٰ أمر المؤمنين كافة أن يكاتب منهم كل من له مملوك وطلب المملوك الكتابة وعلم سيّده منه خيراً .

ومعنىٰ المكاتبة في الشرع : هو أن يكاتب الرجل عبده علىٰ مال يؤديه منجّمًا عليه ؛ فإذا أدّاه فهو حرّ .

ولها حالتان : الأولىٰ : أن يطلبها العبد ويجيبه السيد ؛ فهذا مطلق الآية وظاهرها .

الثانية : أن يطلبها العبد ويأباها السيد ، وفيها قولان : الأول لعكرمة وعطاء ومسروق وعمرو بن دينار والضحاك بن مزاحم وجماعة من أهل الظاهر : أن ذلك واجب علىٰ السيد ، وقال جمهور أهل العلم : لا يجب ذلك .

﴿ **إن علمتم فيهم خيراً** ﴾ :

قال ابن عباس وعطاء : المال .

وقال مجاهد : المال والأداء ، وقال الحسن : الدِّين ، والأمانة .

وقال مالك : سمعت بعض أهل العلم يقولون : هوالقوّة علىٰ الاكتساب والأداء .

وعن الليث نحوه ، وهو قول الشافعي ، وقال عبيدة السلماني : إقامة الصلاة والخير .

قال القرطبي : والمعنى عندنا : أن علمتم فيهم الدِّين والصدق ، وعلمتم أنهم يعاملونكم على أنهم متعبّدون بالوفاء لكم بما عليهم من الكتابة والصدق في المعاملة فكاتبوهم ، وحديث بريرة يرد قول من قال : إن الخير المال .

• ورخّص مالك والشافعي وأبو حنيفة في كتابة من لا حرفة له ، وحديث بريرة دليل على أن للسيد أن يكاتب عبده وهو لا شيء معه .

• والمكاتبة تكون بقليل المال وكثيره ، وتكون على أنْجُم ، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء . فلو كاتبه على ألف درهم ولم يذكر أجلاً نجّمت عليه بقدر سعايته وإن كره السيّد .

واختلفوا إذا وقعت على نجم واحد، فأكثر أهل العلم يجيزونها على نجم واحد . واختلف العلماء في الكتابة إذا كانت حالّة .

• والمكاتب عبد ما بقي في مكاتبته درهم . وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد والثوري .

• والمكاتب إذا أدّى كتابته عتق ولا يحتاج إلى ابتداء عتق من السيد ، وكذلك ولده الذين وُلدوا في كتابته من أمته ، يعتقون بعتقه ويرقون برقّه ، فإن كان لهما ولد قبل المكاتبة لم يدخل في الكتابة إلا بشرط .

• وندب اللَّه السادة بإعانة مكاتبهم في مال المكاتبة فإما أن يعطوهم شيئًا مما في أيديهم أو يحطوا عنهم شيئًا من مال المكاتبة قال تعالى : ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ وقد وضع ابن عمر خمسة آلاف من خمسة وثلاثين ألفًا، واستحسن علي بن أبي طالب أن يكون ذلك ربع الكتابة .

عتـــق النسمـــة

وفـك الرقبـــة

عتق النسمة وفك الرقبة

من أعان مكاتبًا في رقبته أظله اللَّه في ظله ، فمن باب أولىٰ عتق النسمة وفك الرّقبة . . . وما أدراك ما عتق الرقاب ؟

قال تعالىٰ : ﴿ فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة ﴾ .

وفي تفسير العقبة بفك الرقبة - وهو الإسهام في عتق الرقيق ، وأما الاستقلال في عتقها وهو عتق النسمة - التعبير يضفي علىٰ هذا العمل بالغ الأهمية ، حيث قدّم في سلم الاقتحام لتلك العقبة .

ولقد تشوّف الشارع تشوّفًا شديدًا للحرية والإخراج من الرقّ ؛ فأكثر أسباب ذلك ، كما أوجبه في الكفارات من قتل خطأ ،وظهار ، ويمين ، وأمر بالكتابة ورغّب في الإعتاق ترغيبًا شديدًا ، وجعل عتق الرقيق يعادل عتق المعتق من النار كل عضو بعضو ، وهذا يدل علىٰ موقف الإسلام من الرقّ ومدىٰ حرصه وتطلّعه إلىٰ تحرير الرقاب .

كل ذلك نوافذ لإطلاق الأسارىٰ ، وفك الرقاب ولم يفتح للاسترقاق إلا بابًا واحدًا ، وهوالأسر في القتال مع المشركين لا غير .

الرد على جهالات من قالوا أن الإسلام متعطش لاسترقاق الأحرار :

قال الشيخ الشنقيطي - رحمه اللَّه - :

« سبب الملك بالرقّ : هوالكفر ، ومحاربة اللَّه ورسوله ، فإذا أقدر اللَّه المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم ، وجميع قواهم ،وما أعطاهم اللَّه لتكون كلمة اللَّه هي العليا علىٰ الكفار جعلهم ملكًا لهم بالسبي ، إلا إذا اختار الإمام المنّ أو الفداء لما في ذلك من المصلحة علىٰ المسلمين .

وهذا الحكم من أعدل الأحكام وأوضحها وأظهرها حكمة ، وذلك أن اللَّه جل وعلا خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ، ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه : كما قال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** ﴾[1] .

وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة كما قال : ﴿ **وإن تعدوا نعمة اللَّه لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ وفي الآية الأخرىٰ في « سورة النحل » : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾ وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ فتمرّد الكفار علىٰ ربهم وطغوا وعتوا ، وأعلنوا الحرب علىٰ رسله لئلا تكون كلمته هي العليا ، واستعملوا جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته ، وارتكاب ما يسخطه ، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره ، وهذا أكبر جريمة يتصورها الإنسان .

فعاقبهم الحكم العدل اللطيف جل وعلا عقوبة شديدة تناسب جريمتهم ، فسلبهم التصرف ، ووضعهم من مقام الإنسانية إلىٰ مقام أسفل منه كمقام الحيونات ، فأجاز بيعهم وشراءهم وغير ذلك من التصرفات المالية ، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلبًا كليًا ، فأوجب علىٰ مالكيهم الرفق والإحسان إليهم ، وأن يطعموهم مما يطعمون ، ويكسوهم مما يلبسون ، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، وإن كلّفوهم أعانوهم ، كما هو معروف في السنة الواردة عنه ﷺ ، مع الإيصاء بهم في القرآن ؛ كما في قوله تعالىٰ : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذي القربي واليتامى** ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ **وما ملكت أيمانكم** ﴾ .

---

(١) سورة الذاريات الآيتان (٥٦ ، ٥٧) .

ولو فرضنا ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أن حكومة من هذه الحكومات التي تنكر الملك بالرّق ، وتشنع في ذلك على دين الإسلام ، قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم ، وتسدي إليه جميع أنواع الإحسان ، ودبّرعليها ثورة شديدة يريد بها إسقاط حكمها ، وعدم نفوذ كلمتها ، والحيلولة بينها وبين ما تريده من تنفيذ أنظمتها التي يظهر لها أن بها صلاح المجتمع ، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة فإنها تقتله شر قتله .

ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه ؛ فهو أشد سلبًا لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل .

والكافر قام ببذل كل ما في وسعه ليحول دون إقامة نظام الله الذي شرعه؛ ليسير عليه خلقه فينشر بسببه في الأرض الأمن والطمأنينة والرخاء والعدالة والمساواة في الحقوق الشرعية ، وتنتظم به الحياة على أكمل الوجوه وأعدلها وأسماها ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ فعاقبه الله بهذه المعاقبة بمنعه التصرف ، ووضع درجته وجريمته تجعله يستحق العقوبة بذلك .

فإن قيل : إذا كان الرقيق مسلمًا فما وجه ملكه بالرّق ؟ مع أن سبب الرق الذي هو الكفر ومحاربة الله ورسله قد زال ؟

فالجواب : أن القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء : أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق، والأحقية بالأسبقية ظاهرة لا خفاء بها ، فالمسلمون عندما غنموا الكفّار بالسبي : ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع ، وهوالحكيم الخبير .

فإذا استقرّ هذا الحق وثبت ، ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبوقًا بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام ، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه ،

كما هو معلوم عند العقلاء .

نعم ، يحسن بالمالك ويجمل به أن يعتقه إذا أسلم ، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه ، وفتح له الأبواب الكثيرة ـ كما قدمنا ـ فسبحان الحكيم الخبير ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهوالسميع العليم** ﴾ فقوله ﴿ **صدقًا** ﴾ أي : في الأخبار وقوله : ﴿ **عدلاً** ﴾ أي : في الأحكام .

ولا شك أن من ذلك العدل : الملك بالرّق وغيره من أحكام القرآن .

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم[1]

● عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« **من أعتق رقبة مسلمة، أعتق اللّه له بكل عضو منها عضواً من النار حتى فرجه بفرجه** »[2] .

● وعن أبي نُجيح السلمي قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« **أيما رجل مسلم أعتق رجلاً مسلماً ، فإن اللّه تعالى جاعل وقاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرره من النار ، وأيما امرأة أعتقت امرأة مسلمة فإن اللّه تعالى جاعل وقاء كل عظم من عظامها عظماً من عظام محررتها من النار يوم القيامة** »[3] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « **من أعتق رقبة مؤمنة أعتق اللّه بكل إرب منها إرباً منه من النار** »[4] .

● وقال رسول اللّه ﷺ : « **إيما امرئ مسلم أعتق امراءاً مسلماً فهو فكاكه**

---

(١) « أضواء البيان » للشنقيطي (٣/ ٣٨٧ـ٣٨٩) .

(٢) رواه الشيخان، والترمذي .

(٣) صحيح : رواه أبو داود ،وابن حبان في « صحيحه » وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٧٢٣) ،وكذا أخرجه أحمد ، والطحاوي .

(٤) رواه مسلم .

من النار، يُجزي بكل عظم منه عظماً منه ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فهي فكاكها من النار يجزي بكل عظم منها عظماً منها ، وأيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين فهما فكاكه من النار ، يُجزي بكل عظمتين منهما عظماً منه»[١] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداؤه من النار** »[٢] .

وقال ﷺ : «**عتق النسمة أن تنفرد بعتقها،وفكّ الرقبة أن تُعين في عتقها**»[٣] .

الصديق وعتقه لكرام الرجال :

قالت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ : « أعتق أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ سبعة مِمّن كان يُعذّب في اللَّه عزّ وجل ، منهم بلال وعامر بن فهيرة »[٤] .

● وقال قيس بن أبي حازم : اشترىٰ أبو بكر بلالاً ـ رضي اللَّه عنه ـ بخمسة أواق وهومدفون بالحجارة ، قالوا :لو أبيْت إلا أوقية لبعناه ، فقال: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته»[٥] .

● ورضىٰ اللَّه عن عمر بن الخطاب حين يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالاً ـ رضي اللَّه عنه ـ »[٦] .

---

(١) صحيح : أخرجه الطبراني في « الكبير » عن عبد الرحمن بن عوف ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والطبراني في « الكبير » عن مُرّه بن كعب ،والترمذي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٦٩٧) .
وقال ابن حجر في « الفتح » (٥/ ١٧٥) : « إسناده صحيح » .

(٢) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ،والنسائي عن عمرو بن عبسة ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٩٢٦) .

(٣) صحيح :رواه الطيالسي عن البراء ، ورواه أحمد وابن حبان في « صحيحه » ، والطحاوي، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٨٧١) .

(٤) إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٧٣) في «مصنفه» والحاكم وصححه وأقرّه الذهبي .

(٥) إسناده صحيح : أخرجه ابن سعد في « طبقاته » ، وأبو نعيم في« الحلية » .

(٦) إسناده صحيح : أخرجه ابن أبي شيبة والحاكم وصححه وأقره الذهبي ، وأبو نعيم في «الحلية» .

• وعن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ أن أبا بكر دخل على رسول اللَّه ﷺ فقال: « **أنت عتيق اللَّه من النار** » قاله لأبي بكر[(١)] .

حكيم بن حزام يعتق مائة رقبة وهو واقف بعرفة :

كان حكيم بن حزام ـ رضي اللَّه عنه ـ يقف بعرفة ومعه مئة بدنة مقلّدة، ومائة رقبة فيعتق رقيقه فيضج الناس بالبكاء والدعاء يقولون : ربنا هذا عبدك قد أعتق عبيده ونحن عبيدك فأعتقنا»[(٢)]، وروي مثل هذا عن الرشيد.

ابن عمر ـ رضى اللَّه عنهما ـ يعتق ألف إنسان :

عن سالم بن عبد اللَّه بن عمر : ما لعن ابن عمر خادمًا له إلا مرة فأعتقه.

وقال عبد اللَّه بن دينار : خرجت مع ابن عمر إلى مكة ، فعرسنا فانحدر علينا راع من الجبل فقال له ابن عمر : أراع ؟ قال : نعم ، قال : بعني شاة من الغنم، قال : إني مملوك ، قال : قل لسيدك أكلها الذئب ؟ قال : فأين اللَّه عز وجل؟ قال ابن عمر : فأين اللَّه !! ثم بكى ، ثم اشتراه بعد فأعتقه ، وفي رواية ابن أبي رواد عن نافع : أعتقه واشتري له الغنم .

• وعن محمد بن زيد أن ابن عمر كاتب غلامًا له بأربعين ألفًا، فخرج إلى الكوفة فكان يعمل على حُمر له حتى أدّى خمسة عشر ألفًا ، فقال : أمجنون أنت؟ أنت ههنا تعذب نفسك وابن عمر يشتري الرقيق يمينًا وشمالاً ثم يعتقهم، ارجع إليه فقل عجزتُ ، فجاء إليه بصحيفة ، فقال :

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي والطبراني في « الكبير » والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والحديث جيد الإسناد ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (١٥٧٤) .

(٢) « لطائف المعارف » لابن رجب .

يا أبا عبد الرحمن قد عجزت وهذه صحيفتي فامحها ، فقال : لا ، ولكن امحها أنت إن شئت ، فمحاها ، ففاضت عينا عبد اللَّه ، وقال : اذهب فأنت حر .

قال : أصلحك اللَّه ، أحسن إلىٰ ابنيّ ، قال : هما حرّان ، قال : أصلحك اللَّه أحسن إلىٰ أميّ ولديّ قال : هما حرتان .

• وعن محمد العمري قال : أعطىٰ عبد اللَّه بن جعفر ابن عمر بنافع عشرة آلاف ، فدخل علىٰ صفية امرأته فحدّثها ، قالت : فما تنتظر ؟ قال : فهلاّ ما هوخير من ذلك هو حرّ لوجه اللَّه ، فكان يخيّل إليّ أنه كان ينوي قول اللَّه : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[1] .

• وعن نافع قال : مامات ابن عمر حتىٰ أعتق ألف إنسان أو زاد[2] .

زين العابدين على بن الحسين :

لما حدثّ سعيد بن مرجانة صاحب علي بن الحسين ـ رضي اللَّه عنهما ـ الحديث عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ : « **أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً استنقذ اللَّه بكل عضو منه عضواً من النار** » .

قال سعيد : فانطلقت به إلىٰ عليّ بن الحسين ، فعمد علي بن الحسين إلىٰ عبد له قد أعطاه به عبد اللَّه بن جعفر عشرة آلاف درهم ـ أو ألف دينار ـ فأعتقه . رواه البخاري .

ونختم بختام المسك : عثمان بن عفان ـ رضي اللَّه عنه ـ :

يُمضي ـ رضي اللَّه عنه ـ مع نفسه موثقًا لا يُخلفه طوال حياته : هوأن يُعتق كل جمعة عبدًا ، ويحرِّر رقبة . . . يشتري العبد من سيده بأيّ ثمن ، ثم يهبه حرّيته مبتغيًا وجه ربه الأعلىٰ[3] .

---

(١) سورة آل عمران الآية (٩٢) .

(٢) انظر ترجمة ابن عمر في « السير » .

(٣) « خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد (ص٢٤٥) .

رجل يحمي انسحاب جيش المسلمين حتى نجوا

رجل يحمي انسحاب جيش المسلمين حتى نجوا

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **سبعة في ظل العرش ، يوم لا ظل إلا ظله ، رجل ذكر اللّه ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، من شدّة حبه إياها ، ورجل يحب عبداً لا يحبه إلا للّه ،وإمام مقسط فى رعيته ، ورجل يعطي الصدقة بيمينه ، يكادُ يُخفيها عن شماله ، ورجل عرضت عليه امرأة نفسها، ذات منصب وجمال ، فتركها لجلال اللّه ، ورجل كان في سريّة مع قوم، فلقوا العدو ، فانكشفوا ، فحمى آثارهم ، حتى نَجُوا ، ونَجَى أو استُشهِد**»[1] .

خالد سيف اللّه يحمي انسحاب المسلمين من مؤتة وهذا فتح ونصر عظيم :ـ

عن أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ : أن النبي ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم ، فقال : « **أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب** ـ وعيناه تذرفان ـ **حتى أخذ الراية سيف من سيوف اللّه حتى فتح عليهم** »[2] .

وفي هذه المعركة العظيمة يخلع رسول اللَّه ﷺ أرفع وسام على صدر

---

(١) حديث حسن : روته أم الفضل بيبَي الهَرْثمية في جزئها ، وأبو نعيم من هذا الطريق في فضل العادلين.

قال شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني :هذا حديث حسن ، غريب جداً في غالب ألفاظه ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع ».

(٢) رواه البخاري والنسائي وأحمد ،وأبويعلي ، والبيهقي .

خالد وهوينسحب بجيش المسلمين ، فكيف يسمي رسول اللَّه ﷺ خالد بن الوليد سيف اللَّه وهوينسحب ـ لهذا ـ سبب أرق من نسيم الفجر وأحلى من الشهد :

فقد كانت معركة « مؤتة » أول معركة يشترك فيها خالد بعد إسلامه ، وبعد قتل قادة الجيش الثلاثة وانكشاف صف المسلمين كما قال أبو عامر : انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتها قط ، حتى لم أر اثنين جميعًا .

ودفع ثابت بن أقرم اللواء إلى أبي سليمان خالد بن الوليد قائلاً : « خذ اللواء يا أبا سليمان ، فأنت أدرى بالقتال مني ، واللَّه ما أخذته إلا لك » .

وتلقى خالد اللواء ،وأصبح قائدًا عامًا لقوات المسلمين في أصعب ظروف . . . جيش أنهكه القتال الشديد الضاري طيلة الأيام الستة . . . ثلاثة آلاف مسلم يواجهون جيشًا قوامه مائتا ألف مقاتل ، جيش قد انفرط عقده وفقد تنظيمه ، موقف جعل هذا الجيش مُهيّأ لأن يُدمَّر تدميراً كاملاً ، أو يقع بكامله أسيراً في قبضة الرومان وأحلافهم من العرب .

واعتلى العبقري جواده ، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام ، كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقة آن لها أن تُفتح ، على طريق طويل لاحب سيقطعه البطل وثبًا وثبًا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته ، حتى تبلغ المقادير به أمرًا كان مقدوراً .

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة . . . فقد قام بتبديل كليٍّ في الميمنة والميسرة والقلب من جيشه ، فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة ، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة ، كما استبدل رجال القلب برجال آخرين ، كل هذا في ظلام الليل ، وجعل مقدمة الجيش ساقة ،وساقته مقدمة ، أي أنه سحب جيشه من ساحة المعركة ، وأبقى ساقة تحمي الانسحاب ، نشر هذه الساقة ليحتل فرسانها مساحة شاسعة من الأرض ، وأمرهم أن يحدثوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق

وطبول حربية ،و إثارة الغُبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيقة ، كل هذا ليدخل في نفوس قادة الروم ويوهمهم أن جيشًا جديدًا ومددًا كبيرًا قد جاء لجيش المسلمين .

هذه هي الخطة التي وضعها القائد المحنّك الفذّ ، فأنقذ بها جيش الإسلام من فناء محقق .

فقد وجد الرومان أنفسهم ـ أثناء تقابل الصفوف في اليوم السابع ـ أمام قادة وجنود وهيئات ورايات غير التي كانوا يواجهونها في الصفوف الأولى أثناء القتال في الأيام الستة الماضية .

ووجد الرومان غبارًا يسدّ الأفق من بعيد ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامي ، ودوّت أصوات التهليل والتكبير ، منبعثة من بين ثنايا ذلك الغبار الذي حجب الأفق ، ثم انشقّ هذا الغبار عن كتائب من الفرسان، تتبع إحداهما الأخرى في تنسيق وإحكام راكضة نحو المسلمين في مؤتة ، قد رجفت الأرض رجفًا لوْقع حوافرخيلها المنطلقة ، وأصوات فرسانها تصمّ آذان الرومان بالتهليل والتكبير ،واهتز معسكر المسلمين المواجه للرومان بالتهليل والتكبير ، ودبّ الفزع في نفوس الروم وسادهم الهرج والمرج ، ولسان حالهم يقول : إذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالرومان هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة ، فما عساهم فاعلين بعد مجيء هذا المدد؟! .

وأدرك خالد بحسّ القائد المحنّك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوف ورعب نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة ، فاغتنمها فرصة فأمر في الحال بالهجوم على خطوط الرومان ، وبأسلوب عام صاعق كاسح فتمّ له ما أراد .

وتضعضعت خطوط الروم الأمامية ،وركبهم المسلمون ، وأحدثوا

فيهم مقتلة عظيمة ، كانت بكل معاني الكلمة « مذبحة » وصفها الواقدي في كتابه « المغازي » بقوله : « فرُعبوا فانكشفوا منهزمين ، فقتلوا مقتلة لم يُقتلها قوم قط »[١] .

وقال ابن سعد في « طبقاته » : ثم أخذ خالد اللواء ، ثم حمل على القوم، فهزمهم اللّه أسوأ هزيمة رأيتها[٢] قط ، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا »[٣] .

كان القتال ضاريًا ، خاضه المسلمون بحنق وغيظ ، وكان الرومان في تراجعهم أمام هجوم خالد يقاتلون بشراسة ، وليس أدلّ على عنف المعركة من قول خالد نفسه : « لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية »[٤] .

ولّما كان هدف القائد خالد من كل الأعمال والخدع الحربية التي لجأ إليها هوأن يؤمن لجيش الإسلام انسحابًا منظمًا من مؤتة اغتنم فرصة ارتباك الرومان واضطرابهم واعتقادهم أن المسلمين قد تلقوا نجدة من المدينة ، فأصدر أوامره إلى قادة الفرق والكتائب في جيش الإسلام بالارتداد بالجيش نحو الجنوب على تعبئة وانتظام كما هو متفق عليه بينه وبين هيئة أركان حربه عند وضع الخطة لهذا الانسحاب في الليل .

فأخذ الجيش الإسلامي يغادر ميدان المعركة في مؤتة منسحبًا بكل هدوء وضبط وانتظام ويقظة .

---

(١) « مغازي الواقدي » (٢/ ٧٦٤) .

(٢) الراوي هنا أبوعامر الصحابي .

(٣) « الطبقات الكبرى » (٢/ ١٣٠) ،و«مؤتة» لمحمد أحمد بشاميل (ص٢٠٧) من كتاب « سلسلة معارك الإسلام الفاصلة » .

(٤) رواه البخاري وأحمد في « فضائل الصحابة » ،وابن سعد ، والطبراني في « الكبير » ، والحاكم في « المستدرك» .

وأشرف خالد نفسه على عملية الانسحاب ، فكان يجول بفرسه بين الكتائب والفرق المنسحبة ليظل النظام سائداً أثناء الانسحاب ولتظل روح الجند والقادة ومعنوياتهم عالية ، فلا يدركهم الخوف فيسودهم الاضطراب والفوضى .

وتمت عملية الانسحاب من مؤتة كما قدّر وأراد القائد البطل خالد ، تمّت على أدقّ نظام ودونما أية خسارة - وذهل الروم أمام هذه المفاجأة والخدعة الحربية البارعة - ، وما استطاعوا أن يتعقبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ستمائة ميل ، وخافوا أن يكون الانسحاب مكيدة حربية جديدة يديرها القائد خالد لإيقاع الجيش الروماني - إذا ما تتبع المنسحبين المسلمين - في كمائن قد أعدّها مقدمًا ، فأحجمت القيادة الرومانية لذلك عن تعقب المسلمين .

ووصل الجيش سالمًا إلى ضواحي المدينة « الجرف » .

وجعل أهل المدينة يصيحون بالجيش « يا فُرّار . . . فررتم » ويحثون في وجوه الجند والقادة التراب ، وأتت كلمة الوحي ناصعة تردّ الأمر إلى موضعه، فقد قال الرسول ﷺ : « **ليسوا بفرّار ،ولكنهم الكرّار في سبيل الله**» وتكفي شهادة الرسول ﷺ شهادة .

ولقد برهن الرسول الأعظم ﷺ على أنه قمّة في المعرفة بأقدار الرجال حين منح القائد خالد بن الوليد لقب « سيف اللّه » في الوقت الذي تلّقى فيه جمهور المدينة خالدًا وجيشه بالحجارة يقذفونهم بالحجارة ويحثون التراب في وجوههم ساعة عودتهم من المعركة .

وما فعله خالد في انسحابه يمثل أعلى درجات النصر ، هذه حقيقة تؤكد صحتها كل الأعراف والمقاييس العسكرية في كل زمان ومكان .

وعلم المسلمون بَعْدُ قدر تضحية خالد وبذله ، وأن انسحابا كهذا كان

من الاستحالة بمكان ، ولكن لا مستحيل على القلب الشجاع ، ومن أشجع من أبي سليمان قلبًا ، وأروع عبقرية وأنفذ بصيرة ؟!

إيه يا بطل كل نصر ، ويا فجر كل ليل ، إيه يا خالد .

إنّ روح أبي سليمان وريحانه ليُوجدان دائما وأبدًا حيث تصهل الخيل ، وتلتمع الأسنّة ، وتخفق رايات التوحيد فوق الجيوش المسلمة .

لقد كان يعلو بروح جيشه على أهوال الزحف بقوله لجنده : « عند الصباح يحمد القوم السرى » حتى ذهبت عنه مثلاً ، وها هو ذا قد أتمّ مسراه فلصباحه الحمد ، ولذكراه المجد والعطر ، والخلد وظلال العرش .

المثنى بن حارثة الشيباني ينقذ ستة آلاف من المسلمين في معركة الجسر من هلاك محقق ويحمي إنسحابهم :ـ

للَّه در ذلك البطل الذي جرّأ العرب والمسلمين على مهاجمة الإمبراطورية الساسانية « إمبراطورية الفرس » ومهّد لفتح العراق ، البطل الذي صدق فيه قول قيس بن عاصم المنقري : « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد » هذا البطل الذي أرسل إلى كسرى ، وقال له : « الحمد للَّه الذي ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير »[(١)] .

يذكر التاريخ بكل الفخر موقف المثنى في موقعة « الجسر » ١٣ شعبان ١٣ هـ بعد استشهاد قائد المسلمين أبي عُبيد الثقفي وخلفائه الثقفيين السبعة ، وبدأ تراجع المسلمين وتحوّل التراجع إلى هزيمة كاملة ، حيث أخذ المسلمون يفرّون عبر الجسر العتيق المعتل نحو الضفة الغربية ، وبينما المثنى ابن حارثة ينظم الثابتين بعد توليه قيادة جيش المسلمين ـ ويدعوا الفارين إلى

(١) « تاريخ الطبري » (٢/٦٠٦) ، وابن الأثير (٢/ ١٦٠) : وذلك لما أرسل إليه كسرى رسالة قال له فيها : « إني قد بعثت إليكم جنداً من وحش أهل فارس ، وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم » .

الثبات ، إذا سارع رجل من ثقيف إلىٰ الجسر فينتسفه ويقطعه ، واغتبط الفُرْس لهذا العمل السيء الذي قام به عبد اللَّه بن مرثد الثقفي وجماعته ، وأيقنوا أن هزيمة المسلمين قد تحققت ، وأنها لم تعد هزيمة بل ستكون كارثة يباد فيها جميع رجال الجيش الإسلامي الذي عمّته الهزيمة والذي أصبح لا مفرّ لرجاله من الموت بعد أن انتسفوا الجسر ، ووقف المتهوّرون من ثقيف يمنعون الناس من الانسحاب بسلام .

وكان بهمن جاذويه قائدًا ماكرًا ومحاربًا ممتازًا وخبيرًا بالحرب النفسية ، فأمر مجموعة كبيرة من قواته بتوجيه الضغط ناحية الجسر المخرّب لئلا يحاول أحدٌ إصلاحه ، وأن يقتلوا كل من يقترب من الجسر من المسلمين للهرب والذين لم يعد يهمهم إلا النجاة بأنفسهم بعد أن أصبحت هزيمة المسلمين يوم الجسر هزيمة كاملة .

ولما رأىٰ المسلمون أن لا سبيل إلىٰ العبور والانسحاب عبر الجسر بعد تخريبه من قبل الرجل الثقفي وأن الفرس محتشدون حول الجسر ، صاروا يقذفون بأنفسهم في النهر محاولين الوصول إلىٰ الشاطيء الغربي من النهر ، ولكن أكثرهم لا يجيد السباحة ، فغرق منهم في النهر حوالي ألفين استشهدوا غرقًا .

وهكذا بهذه الورطة التي أحكمها علىٰ المسلمين تخريب الرجل الثقفي الجسر ، كانت هزيمة المسلمين التي ستكون نهايتها إبادتهم جميعًا إذا لم يحدث ما يشبه المعجزة ويُعاد إقامة الجسر من جديد .

وقد حدث فعلاً ما يشبه المعجزة إذْ سارع البطل المغوار الذي لا تعرف نفسه الجزع المثنىٰ بن حارثة تسانده نخبة من خيرة الصحابة وزعماء القبائل من أهل النجدة والصبر والبأس لإصلاح الجسر ومقاتلة الفرس الذين احتشدوا بقصد منع إصلاحه وكان منهم : عروة بن مسعود الثقفي ،

وعاصم بن عمرو التميمي ، ومذعور بن عدي العجلي ، والفارس الشهير الكلج الضبي ، وعروة بن زيد الخيل الطائي ، وسليط بن قيس الأنصاري والواحد منهم يقوم مقام مائة فارس ، وطلب المثنىٰ من هؤلاء الأبطال أن يكونوا إلىٰ جانبه لمقاتلة الفرس الذين أوكل إليهم بهمن جاذويه منع المسلمين من العبور إن هم تمكنوا من إصلاح الجسر ولو جزئيًا .

ولما كان لا بد من إقامة الجسر لينسحب الباقون أحياء من المسلمين نادىٰ المثنىٰ الذين تمكنوا من العبور إلىٰ الشاطيء الغربي أن يأتوا في الحال بخبراء من الفرس ممن هم في ذمتهم وصلحهم لإصلاح الجسر ، فأُحضروا في الحال وقام هؤلاء العجم في الحال بإقامة الجسر .

وفي الوقت نفسه كان المثنىٰ والأبطال الذين اختارهم حماة له ومعهم جمهرة من المسلمين يقاتلون الفرس الذين كلفهم القائد بهمن جاذويه بمنع المسلمين من العبور إذا تمكنوا من إعادة الجسر .

فقد قاتلهم المثنىٰ ورجاله في شجاعة تفوق الخيال فأعملوا فيهم السيوف باستماتة حتىٰ دحروهم وأفسحوا المجال للمنسحبين أن يعبروا إلىٰ الشاطيء الغربي ، وسقط الكثير شهداء ، وجُرح المثنىٰ نفسه جرحًا مميتًا عند الجسر ولكنه ربط جرحه وبدأ الأحياء من المسلمين العبور وهم في حالة قلق من الفرس ، هنا برز البطل الأسد الهصور القائد العام الجريح « المثنىٰ» وسط المعمعة علىٰ صهوة جواده عند الجسر كالطود الشامخ في درعه الذي هتكته الرِماح ودمه يسيل ، وقف يصيح في المسلمين يطلب منهم الانسحاب عبر الجسر « أيها الناس ! أنا دونكم ، فاعبروا علىٰ هيّنتكم[1] ، ولا تدهشوا فإنّا لن نزايل[2] ، حتىٰ نراكم في ذلك الجانب ، ولا تُغرقوا أنفسكم»[3] .

---

(١) أي مُتَمَهِّلون .

(٢) أي لن نتحرك من مكاننا يعني نفسه ورجال حماية العبور .

(٣) « تاريخ الطبري » (٣/ ٥١) .

وهكذا بفضل اللَّه ثم بشجاعة وثبات وتدبر المثنىٰ تمّتْ عملية عبور بقية الجيش المنهزم ، ونجا ستة آلاف من موت كان محققًا لولم يوفق اللَّه المثنىٰ لإصلاح الجسر الذي دفع حياته الغالية ثمنًا لإصلاحه لأنه ـ رضي اللَّه عنه ـ مات بعد أكثر من شهرين متأثرًا بالجرح الخطير الذي أصابه عند الجسر ، وبعد أن كمل الانسحاب ولم يبق مسلم في مكان المعركة كان آخر من انسحب الأسد الهصور المثنىٰ ، كان ينسحب ووجهه نحو الفرس يقتلهم وظهره إلىٰ الشاطيء الغربي ، ولم يستطع أحد من الفرس الاقتراب منه ، ومن جرؤ علىٰ الاقتراب منه صرعه بسيفه حتىٰ وصل الجانب الغربي من النهر .

وفي اليوم الثاني للمعركة ٢٤ شعبان يعلم المثنىٰ بخروج قائدين كبيرين من قادة الفرس وهما جابان ومراد نشاه قد خرجا لنزهة علىٰ الخيل مع مجموعة من حرسهم الخاص في منطقة ألّيس فقرر برغم جرحه الغائر أن يتولىٰ بنفسه أمر هذين القائدين ، واصطادهما الأسد وضرب أعناقهم في الحال .

وما مات المثنىٰ حتىٰ ثأر لقتلىٰ المسلمين في معركة الجسر في معركة البويب ١٣ رمضان وقتل من الفرس مائة ألف ، ولقىٰ ربه شهيدًا متأثرًا بجرحه في معركة الجسر .

● وحق للمسلمين اليوم أن يقولوا كما قالت زوجة المثنىٰ سلمىٰ : «وامثناه ! ولا مثني اليوم للخيل »[١] ، « وامثناه ولا مثنىٰ للمسلمين اليوم »[٢][٣] .

---

(١) « تاريخ الطبري » (٣/ ٥١) .
(٢) « أسد الغابة » (٤/ ٢٩٩) .
(٣) انظر « قادة فتح العراق والجزيرة » للواء محمود شيت خطّاب ، و« القادسية ومعارك العراق» لمحمد أحمد بشاميل (٣٥٦ـ ٣٧٧) .

معروف الحضرى بطل الإخوان فى حرب فلسطين ١٩٤٨ يحمي هو ورجاله الجيش المصري ويؤمن انسحابه :ـ

رحم اللَّه الإمام حسن البنا ورجاله ، طيف من النور ألمّ بهذه الدنيا إلمام الغريب الطاريء أو الضيف العابر ثم تركها ومضى ، ماذا يأخذ الطيف من الدنيا حين يلمّ بها قدسيًا من عالم الفدس ، نورانيًا من عالم النور ؟ أو ماذا يجمع لنفسه منها ؟ لا شيء وماذا يترك الطيف من هذه الدنيا حين يلمّ بها ؟

إنه يترك كل شيء حين يترك للضمائر نورها ، وللنفوس قدسها وطهرها ، وهذا كان حسن البنا :

طب أرواح ، فلا تخفى عليه خافيـة
بابسط الصدر بعيد الغور شهم داعية

وللَّه در الأميري حين يصفه فيقول :

وإذا الــداعي دعـــا ... لجهـــاد همّتــــه
وعلى البـــاغي عـلى ... أيّ حـــق غضبتـــه
قلـت هــذا قَســوْرَ ... هاج يزجـي ضربتـــه
وهـو في الواقـع شهم ... ثــار يحمــي أمّتـــه
صـيحـة الأجــداد في ... الأحفاد حاكت صيحتـه
وأنين المجــد في الأصفاد ... أورى ثـــورتـــه
أنت لو أبصــرتــه ... لقـــدرت قدرتـــه
بشـــرٌ مــن مَـــلَكٍ ... قـد تلـقى فطرتـــه[1]

---

(١) لعمر بهاء الدين الأميري ـ مجلة المسلمون ـ العدد الثاني نقلاً عن « موسوعة الشهداء » لعبد الحليم الكناني (ص١٧٠) .

سيذكر التاريخ بكل الفخر والإعزاز الموقف المشرف للإخوان ولبطلهم معروف الحضري موقفهم البطولي في حماية الجيش المصري أثناء حصاره آلاف من أبنائه في الفالوجا كان من بينهم جمال عبد الناصر وسيسجل الزمان بمداد من نور الدور البارز لهم في تأمين الجيش المصري أثناء انسحابه وشهادة قيادة القوات المصرية في فلسطين اللواء أحمد المواوي واللواء فؤاد صادق .

أثناء حصار الفالوجا :

حاصر اليهود ٥٠٠٠ جندي في الفالوجا في (١٦/ ١٠/ ١٩٤٨) وظلّت محاصرة حتى نهاية الحرب .

وفي (١٣/ ١١/ ١٩٤٨) وعندما ساءت أحوال القوة المحاصرة . . . استنجدت قيادة الجيش بقوات الإخوان التي غامرت باختراق الحصار اليهودي في رحلتين على الجمال ، تحت قيادة المجاهد معروف الحضري ، ونجحوا في إيصال أكثر من مائة صندوق من المؤن إليهم واستقبلهم الضباط والجنود بفرحة لا توصف على حد تعبير اللواء سيد طه قائد القوات ، وقال جمال عبد الناصر : « إن الجيش كله لن ينسى ما قام به الإخوان » .

• الهدنة الثانية أو ثالثة الأثافي واحتلال اليهود للعسلوج واسترداد الإخوان لها :

في أثناء الهدنة اغتنم اليهود الأمر ، وهاجموا قرية العسلوج حيث كانت ترابط قوة صغيرة من جنود الإخوان يقودها المجاهد عبد المنعم عبد الرءوف ، ولم تصمد القوة الصغيرة طويلاً أمام هذا الهجوم المباغت ،

ومما يذكر أن ثلاثة من المجاهدين وهم رشاد زكي ، ومحمد ماهر ، وعبد اللَّه البتانوني كان القائد قد وكلّ إليهم مهمة حراسة مخازن الذخيرة وكانت المخازن مليئة بالأسلحة والذخائر ، إذ كانت هذه القرية هي مستودع الذخيرة الذين يُموّن المنطقة ، وأفاق المجاهدون فوجدوا العدو داخل الموقع وسمعوه يحاول احتلال المخازن ،وقرروا نسف المخازن حين يدخلها العدو ، واختبأوا خلف كومة من الصناديق حتىٰ امتلأ المخزن بالجنود اليهود ، ثم أشعلوا النار في صناديق المفرقعات ، وفي لحظة استحال البناء الضخم إلىٰ كومة من الأنقاض ، ومات الأبطال الثلاثة بعد أن جرّوا العدو الغادر إلىٰ كارثة مدمرة .

ولما احتل اليهود العسلوج ولها أهمية كبرىٰ بالنسبة لخطوط المواصلات ، وكانت رياسة الجيش تهتم كل الاهتمام باسترجاع هذه البلدة ، حتىٰ أن رئيس هيئة أركان الحرب أرسل إلىٰ اللواء أحمد المواوي القائد العام إشارة هامة يقول فيها : « لابد من استرداد العسلوج بأي ثمن » .

يقول اللواء المواوي : وكانت الخطة التي رسمتها لاسترجاع هذه البلدة هي الهجوم عليها من كلا الطرفين من الجانبين ، فكلّفت المرحوم أحمد عبد العزيز بك بإرسال قوة من الشرق من المتطوعين (الإخوان) وكانت صغيرة بقيادة ملازم ،وأرسلت قوة كبيرة من الغرب تعاونها جميع الأسلحة ولكن القوة الصغيرة (أي متطوعي الإخوان » هي التي تمكنت من دخول القرية والاستيلاء عليها .

ولما سئل اللواء المواوي عن السبب في تغلّب القوة الصغيرة ونجاحها وإخفاق الأخرىٰ قال : « القوة الغربية كانت من الرديف وضعفت روحهم

المعنوية بالرغم من وجود مدير العمليات الحربية فيها إلا أن المسألة ليست مسألة ضباط ، المسألة مسألة روح .

وهكذا تحررت « العسلوج » على يد قوة من الإخوان بقيادة الملازم الأخ يحيى عبد الحليم .

معركة التبة ٨٦ :

كان هدف اليهود منها كما جاء في الأمر اليومي الذي أصدره إيجال ألون إلى جنود الجبهة الجنوبية يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ هو من أجل القضاء النهائي على جيش مصر وأراد اليهود قطع طرق المواصلات الرئيسية للقوات المصرية باحتلال التبة ٨٦ إذ باحتلالها تُطوق القوات المصرية تمامًا ويقضي عليها .

وانتهز اليهود الهدنة وفاجأوا القوات المصرية بهجوم غادر على التبة مساء ٢٢ ديسمبر حيث قاموا بضربها ضربًا محكمًا مركزًا بالمدفعيات والهاونات ، ثم قام العدو بعد ذلك باقتحامها واحتلال المواقع الدفاعية الهامة في سفحها ولم يأت فجر ٢٣ ديسمبر إلا وكان قد أتم احتلالها تقريبًا .

وأحيط بالجيش المصري من كل جانب ، المدفعية تصليه بنيرانها ، والقناصة تتصيد الضباط والمصفحات تطوقه .

وتحدث الأمير محمود رأفت إلى كامل الشريف المسئول عن الإخوان في ساعة متأخرة من ليل ٢٣ وطلب منه أن يستعد الإخوان ليكونوا آخر ورقة يقذف بها وجه العدو .

وانطلق المجاهدون وهم ينشدون نشيدهم المعروف .

هو الحق يحشد أجناده ويعتدّ للموقف الفاصل

فصفّوا الكتائب آســــاده ودكّــوا به دولة البــاطـــل

وتمكنت قوة المجاهدين من احتلال أطراف خنادق العدوّ وأخذت تطهرها جزءًا جزءًا ثم أكمل الجيش مهمته وانتهت المعركة بنصر حاسم . ووجد ضمن القتلى عدد من كبار الضباط الإسرائيلين وبينهم قائد المعركة وهو « كولونيل » روسي يحتل مركزًا هامًا في الجيش الإسرائيلي ووجدت في جيبه تفاصيل الخطط المقبلة التي كان يراد منها إلقاء الجيش المصري في أعماق البحر .

وطالب اللواء فؤاد صادق قائد القوات المصرية في فلسطين الحكومة بالإنعام بأوسمة عسكرية رفيعة على الإخوان إشادة بفضلهم واعترافًا بجهادهم.

يا سبحان اللّه !

في ٨ / ١٢ / ١٩٤٨ صدر قرار سحب مجاهدي الإخوان من الميدان واعتقالهم في معسكراتهم وسُلمّت الأسلحة إلى قيادة الجيش .

وفي ٢٣ / ١٢ / ١٩٤٨ والإخوان يومئذ معتقلون في معسكراتهم بأوامر القيادة السياسية في القاهرة ، وفشل الجيش في استرداد التبة وهرعوا إلى الإخوان لانقاذ ما تبقى واستطاع مجاهدو الإخوان تحت قيادة المجاهد حسن دوح وإخوانه استرداد الموقع وتسليمه للجيش المصري ، وبعد إتمام المهمة عاد الإخوان مرة ثانية إلى المعتقلات .

وكما قلنا تقدم القائد العام اللواء فؤاد صادق إلى الحكومة طالبًا منح

نياشين رفعية المستوىٰ للإخوان ، ولكن الحكومة ماطلت ، غيرأن القائد الشجاع أصرّ فصدرت النشرة العسكرية في مايو ١٩٤٩ تحمل أسماء (١٥) جنديًا من الإخوان تحت اسم جماعة المتطوعين المصريين(١) .

وفي ٢٦/ ١٢/ ١٩٤٨ بعد احتلال اليهود للفالوجة وبداية انسحاب الجيش المصري من النقب كان للإخوان دور كبير في حماية الانسحاب والتصدي لليهود الذين كانوا يهدفون إلىٰ إبادة القوات المنسحبة .

وفي ١٣/ ٢/ ٤٩ تلقىٰ الإخوان نبأ اغتيال الإمام حسن البنا ، وفي ١٤/ ٢/ ٤٩ جاءت التعليمات بتسليم المعسكر الذي يقيمون فيه، وبعد انتهاء عملية التسليم ، حملتهم السيارات إلىٰ رفح للمبيت لاستئناف السير في الصباح .

وفي الصباح فوجئ الإخوان بالعنبر محاطًا بالأسلاك الشائكة ومحاصراً بقوات معها المدافع الرشاشة ، وصدور أمر باعتقال الإخوان .

وفي ٢٤/ ٢/ ٤٩ وقعت الهدنة الدائمة بين العرب اليهود في رودس .

أيكون الجزاء هكذا عند الناس في الدنيا(١) .

انظروا إلىٰ مذكرات اللواء فؤاد صادق واللواء المواوي والبطل أحمد عبـد العزيز واكتبوا للتاريخ أن كل رجل وكل امرأة في مصر تفخر بأن يكون معروف الحضري ابنًا أو أخًا له . . . اللواء معروف الحضري الذي حمىٰ انسحاب الجيش المصري برجولة وبسالة منقطعة النظير ، والذي حاول

---

(١) نقلاً عن كتاب « الإخوان في حرب فلسطين » لـ كامل الشريف .

مرات عديدة كسرحصار الفالوجا لإنقاذ الجيش المصري وفيه جمال عبد الناصر ، وأصيب معروف الحضري وتعرض للأسر ووضع في أسر اليهود فما بكى ، ورد له عبد الناصر الدَّين بوضعه في المعتقل[1] وتعرض للتعذيب والإهانة . . . والحرّ من رعى وداد لحظة . . . وبكى الأسد في سجون مصر . . . ويا لبكاء الأسْد . . . يا لبكاء الرجال . . . والموعد اللَّه .

* * *

(١) انظر : « الطريق إلى بيت المقدس « القضية الفلسطينية » د. جمال عبد الهادي .
و«موسوعة الشهداء » (شهداء الحركة الإسلامية في العصر الحديث » لعبد الحليم الكناني ، و«الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ » لمحمود عبد الحليم الجزء الأول .

التاجر الصدوق

التاجر الصدوق

والتاجر الصدوق ممن يظلهم اللَّه في ظله . . . وقدْ جود حديثه الحافظ ابن حجر .

فقد قال في « الفتح » (٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩) :

« ثم تتبعت بعد ذلك الأحاديث الواردة في مثل ذلك فزادت على عشر خصال ، وقد انتقيت منها سبعة وردت بأسانيد جياد ونظمتها في بيتين تذييلاً على بيتَيْ أبي شامة وهما :

وزد سبعةً : إظلال غاز وعونــه وانظار ذي عسر وتخفيف حمله

وإرفاد ذى عزم وعون مكاتب وتاجر صدق فى المقال وفعلــــه

. . . وأما التاجر الصدوق فرواه البغوي في « شرح السنة » من حديث سلمان ، وأبو القاسم التيمي من حديث أنس واللَّه أعلم .

لما كان الدينار والدرهم أزمّة أهل الدنيا ، بها يقادون إلى السوءات ، والتجار هم أبناء دُنيا يرضعونها ، لا ينفطمون عن رضاعها إلا من رحم ربي . . . والتاجر الصادق هو الذي يتصل قلبه بالملأ الأعلى وهو في شواغل التجارة والأسواق ولا ينخلع من غبش الحياة والأسواق إلا الصفوة ، ألم يقل اللَّه عزوجل ﴿ **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾[1] انفضوا إليها وأعاد الضمير على التجارة كما قال الشيخ الشنقيطي ، فهي السبب الأهم في انفضاض الناس عن رسولهم .

عن جابر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « بينا نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ

---

(١) سورة الجمعة الآية (١١) .

أقبلت عير تحمل طعامًا ، فالتفتوا إليها حتىٰ ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلا ، منهم أبو بكر وعمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ فنزلت ﴿ **وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا** ﴾[(١)] .

انظر إلىٰ الجو الذي يعيش فيه التاجر الصدوق ويشع صدقه في الغبش الذي حوله قال ﷺ : « **أحب البلاد إلى اللَّه مساجدها ، وأبغض البلاد إلى اللَّه أسواقها**»[(٢)] .

وقال ﷺ : « **يا معشر التجّار إن الشيطان والإثم يحضران البيع فشوبوا**[(٣)] **بيعكم بالصدقة** »[(٤)] .

وقال ﷺ : « **يا معشر التجار إن هذا البيع يحضره اللغو والحلف فشوبوه بالصدقة**»[(٥)] .

وقال ﷺ : « **البيعان بالخيار مالم يتفرقا ، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما** »[(٦)] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البرّ ، وإن البرّ يهدي إلى الجنة ، وما يزالُ الرجل يصدق ، ويتحرّى الصدق حتي يكتب عند اللَّه صدِّيقًا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتي يكتب عند اللَّه كذّابا** »[(٧)] .

---

(١) رواه الشيخان والترمذي .
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ، وورواه أحمد ، والحاكم عن جبير بن مطعم .
(٣) اخلطوا .
(٤) صحيح : رواه الترمذي ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٧٣) .
(٥) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، والحاكم ، وصححه الألباني .
(٦) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي عن حكيم بن حزام .
(٧) رواه أحمد ، والبخاري في « الأدب المفرد » ، ومسلم ، والترمذي عن ابن مسعود .

ومقام الصدّيقين مقام رفيع ، ومع علّو هذا المقام فهو بفضل اللَّه ميسور لمن أراده ، بدايته الصدق وتحري الصدق .

عثمان بن عفان نعم الرجل الصالح .. ونعم ماله الصالح :ـ

عن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : « قحط الناس في زمان أبي بكر ، فقال الخليفة لهم : إن شاء اللَّه لا تُمسون غداً حتىٰ يأتيكم فرج اللَّه . . . فلما كان صباح الغد ، قدمت قافلة لعثمان ، فغدا عليه التجار ، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالف بين طرفيها علىٰ عاتقه ، وسألوه أن يبيعهم قافلته .

فسألهم : كم تربحونني ؟ قالوا : العشرة اثنىٰ عشر ، قال : قد زادني ، قالوا : فالعشرة خمسة عشر ، قال : قد زادني ، قالوا : من الذي زادك ، ونحن تجّار المدينة ؟ قال : إنه اللَّه ، زادني بكل درهم عشراً ، فهل لديكم أنتم مزيد ؟ فانصرف التجار عنه ، وهو ينادي : اللهم إني وهبتها فقراء المدينة بلا ثمن ، وبلا حساب»[1] .

هوالمهاجر إلىٰ ربه ، المهاجر من ماله . . الصادق أبداً .

عبد الرحمن بن عوف ـ رضى اللَّه عنه ـ

هذا الإمام الصالح الصادق الذي صلّىٰ النبي خلفه وشهد له بالجنة ، هذا الذي أدرك صفوها ، وسبق رَنْقها[2] كما قال فيه علي بن أبي طالب .

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **خيركم خيركم لأهلي من بعدي** »[3] ، فأوصىٰ لهن عبد الرحمن بن عوف

(١) « خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد (ص٢٤٦) .
(٢) أي كدرها .
(٣) حسن : أخرجه البزار ، وأبو نعيم في « أخبار أصبهان » ، والحاكم . وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة » رقم (١٨٤٥) .

بحديقـة ، قُوّمت بأربعمئة ألف .

ومن أفضل أعماله عزله نفسه من الأمر وقت الشورىٰ ، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد ، فنهض في ذلك أتم نهوض علىٰ جمع الأمة علىٰ عثمان ، ولو كان محابيًا فيها ، لأخذها لنفسه ، أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقّاص إن كان هذا في أمر الآخرة فما ظنك بأمر الدنيا التافهة والتجارة أفلا يكون الصدق شعاره ودثاره ؟!

لما هاجر إلىٰ المدينة فقيراً لا شيء له ، آخىٰ رسول اللَّه ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع أحد النقباء ، فعرض عليه أن يشاطره نعمته ، وأن يطلّق له أحسن زوجتيه ، فقال له : بارك اللَّه لك في أهلك ومالك ، ولكن دلّني علىٰ السوق . فذهب وباع واشترىٰ وربح . . . . ثم آل أمره في التجارة إلىٰ ما آل ، كان ـ رضي اللَّه عنه ـ مجدوداً في التجارة ، خلّف ألف بعير ، وثلاثة آلاف شاة ، ومئة فرس . قال الذهبي : هذا هوالغني الشاكر .

عن قتادة قال : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾[1] قال : تصدّق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله أربعة آلاف دينار . فقال أناس من المنافقين : إن عبد الرحمن لعظيم الرياء .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمـد وينكر الفم طعم المـاء من ســقم

• ومحمد بن سيرين سيد من سادات التابعين :

قال عنه الذهبي : « قد وقع علىٰ ابن سيرين دْين كثير من أجل زيت كثير أراقه ؛ لكونه وجد في بعض الظروف فأرة »[2] فهذا ورع زائد علىٰ الصدق .

---

(١) سورة التوبة الآية (٧٩) .
(٢) « السير » (٤/ ٦٠٩) .

• ويونس بن عبيد :

قال النضر بن شميل : غلا الخزّ في موضع كان إذا غلا هناك غلا بالبصرة ، وكان يونس بن عبيد خزّازًا ، فعلم بذلك ، فاشترىٰ من رجل متاعًا بثلاثين ألفًا ، فلما كان بعد ذلك ، قال لصاحبه : هل كنت علمت أن المتاع غلا بأرض كذا وكذا ؟ قال : لا ، ولو علمت لم أبع . قال : هلمّ إليّ مالي ، وخذ مالك . فردّ عليه الثلاثين الألف[1] .

• وحمزة بن حبيب الزيات شيخ القرّاء :

قال عنه الذهبي في السير (٧ / ٩٠) : « كان يجلب الزيت من الكوفة إلىٰ حلوان ، ثم يجلب منها الجبن والجَوْز . . . ثخين الورع رفيع الذكر »

قال عنه ابن فضيل : ما أحسب أن اللّٰه يدفع البلاء عن أهل الكوفة إلا بحمزة .

قال حسين الجعفي : « ربما عطش حمزة ، فلا يستسقي ؛ كراهية أنْ يصادف من قرأ عليه » فما ظنك بورعه في تجارته ؟!

• زاذان :ــ

أبو عُمر الكِندىّ : أحد العلماء الكبار ... وكان بزّازًا .

قال عنه سالم بن أبي حفصة : « كان زاذان إذا عرض الثوب ناول ثمن الطرفين » يعني أردأ الطرفين[2] .

• حسّان بن أبى سنان وورعه الطيب فما ظنك بصدقه ؟! :ــ

قال عبد الله : « كتب غلام لحسّان بن أبي سنان إليه من الأهواز ، أن قصب السّكر أصابته آفة ، فاشتر السكر فيما قبلك ، قال : فاشتراه من

(١) « السير » (٦/ ٢٩٣) .

(٢) « الورع » لابن أبي الدنيا (ص١٠٤) .

رجل ، فلم يأت عليه إلا قليل ؛ فإذا فيما اشترى ربح ثلاثين ألفًا ، فأتى صاحب السكر ، فقال : يا هذا ، إن غلامي كان كتب إليّ ولم أعلمك ، فأقلني مما اشتريت منك . فقال الآخر : فقد أعلمتني الآن وطيّبته لك . قال : فرجع فلم يحتمل قلبه . قال : فأتاه ، فقال : يا هذا ، إني لم آت هذا الأمر من قبل وجهه ، فأحب أن يُستردَّ هذا البيع . قال : فما زال به حتى ردّ عليه » [(١)] .

• شيخ الإسلام ، وأمير الأتقياء في وقته عبد اللّه بن المبارك :

قال عنه إسماعيل بن عياش : ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك ، ولا أعلم أن اللّه خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها في عبد اللّه بن المبارك .

وقال عنه عبد الرحمن بن مهدي : ما رأت عيناي مثل أربعة : ما رأيت أحفظ للحديث من الثوري ، ولا أشد تقشفًا من شعبة ، ولا أعقل من مالك ، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك [(٢)] .

إن كان ابن المبارك أنصح الناس للأمة ، وفيه كل خصال الخير فما ظنك بصدقه في تجارته . قال ابن المبارك للفضيل : لولاك وأصحابك ما اتّجرت ، وكان ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم [(٣)] .

• البخاري من بيتهم خرج الورع :

قال أُحيد بن حفص : دخلت على إسماعيل والد أبي عبد اللّه[(٤)] عند موته فقال : لا أعلم من مالي درهمًا من حرام ولا درهمًا من شبهة .

---

(١) « الورع » لابن أبي الدنيا (ص١٠٥) .
(٢) « تاريخ بغداد » (١٠/ ١٦٠ ـ ١٦١) ، و« السير » (٨/ ٣٨٨) .
(٣) « السير » (٨/ ٣٨٦) .
(٤) يعني والد الإمام البخاري .

قال أبو سعيد بكر بن منير : كان حمل إلى محمد بن إسماعيل بضاعة أنفذها إليه أبو حفص فاجتمع بعض التجار إليه بالعشيّة وطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم ، فقال لهم : انصرفوا الليلة ، فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردّهم ، وقال : إني نويت البارحة أن أدفعها إلى الأوّلين فدفعها إليهم ، وقال : لا أحب أن أنقض نيّتي [1] .

إن التجار في حاجة إلى أن يقرؤا سير الصادقين من التجار من سادات هذه الأمة ممن يستسقى بهم المطر من أمثال : داود بن أبي هند ، ويونس بن عبيد ، وأبي حنيفة .

* * *

(١) « هدي الساري مقدمة فتح الباري » (ص٥٠٣ ، ٥٠٤) .

النبيون
و
الصديقون

النبيون والصديقون

أخرج الشافعي في « مسنده » عن أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ قال :

« أتى جبريل بمرآة بيضاء فيها وكْت إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « **ما هذا؟ قال : الجمعة فُضِّلت بها أنت وأمتك ، فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى، ولكم فيها خير ساعة ، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو اللَّه بخير إلا استُجيب له ، وهو عندنا يوم المزيد ، قال النبي ﷺ : يا جبريل وما يوم المزيد ؟ قال : إن ربك اتخذ من الفردوس وادياً أفيح فيه كثب المسك ، فإذا كان يوم القيامة أنزل اللَّه تبارك وتعالى ما شاء من ملائكته وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين ، وحفّ تلك المنابر بمنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد ، عليها الشهداء والصديقون، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب فيقول اللَّه : أنا ربكم قد صدقتم وعدي فسلوني أعطيكم ، فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : قد رضيت عنكم ولكم ما تمنيتم ، ولديّ مزيد ، فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير ، وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش ، وفيه خلق آدم عليه الصلاة والسلام ، وفيه تقوم الساعة** » وفي طريق آخر « **... ثم حف الكرسي بمنابر من نور ، ثم جاء النبيون حتى يجلسوا عليها ، ثم حفّ المنابر بكراسي الذهب ، ثم جاء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا عليها ...** »(١) .

وهذا الحديث يشمل سادات من يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله :

• **وساداتهم الأنبياء** : وكل خير واصل إلي من يظلهم اللَّه وكان سبباً

---

(١) قال ابن القيم في « حادي الأرواح » (ص٢٦٧ ، ٣١٣ ـ ٣١٤) : « هذا حديث كبير عظيم الشأن رواه أئمة السنة وتلقّوه بالقبول ، وجمّل به الشافعي « مسنده » » .

لمرتبتهم هذه وبلوغهم إياه فعن طريق النبيين والدال على الخير كفاعله ، فلهم مثل أجور كل من يظلهم اللَّه في ظله ، فلهم قبل أي فرد من أممهم الظلال الظليلة .

• **والصدّيقون** : بعد الأنبياء مرتبة ، وثبت لهم هذا الفضل بهذا الحديث وسيدهم صديق هذه الأمة الأكبر أبو بكر الصديق - رضي اللَّه عنه - الذي سمّاه اللَّه في السماء صديقًا ﴿ **والذي جاء بالصدق وصدق به** ﴾ وهو سيد كهول أهل الجنة خلا النبيين والمرسلين كما جاء في « الصحيح » .

وصدِّيق الأنصار سعد بن معاذ ومنزلته في الأنصار كمنزلة أبي بكر في المهاجرين هذا الذي صدق رسول اللَّه ﷺ في المواطن التي يهتز فيها يقين الرجال هذا الذي حكم في اليهود بحكم اللَّه من فوق سبع سماوات ، هذا الذي تعدّىٰ صدقه إلىٰ كل من حوله حتىٰ قال النبي ﷺ : « **كل نائحة تكذب إلا أم سعد** » .

هذا الذي نزل إلىٰ الأرض يوم موته سبعون ألف ملك ما نزلوا قبل يومهم هذا ، هذا الذي اهتز له عرش الرحمن

هذا الصدِّيق الذي يقول : « ثلاثة أنا فيهن قوي ، وفيما سواهن ضعيف : ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتىٰ أفرغ منها .

ولا شيّعت جنازة فحدّثت نفسي بغير ما هي قائلة ، وما هو مقول لها ، حتىٰ يُفرغَ من دفنها .

وما سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول إلا علمت أنه حق » .

فقال ابن المسيب : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلاّ في النبي ﷺ ، والصديقية أعلىٰ مراتب الصدق ؛ وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للمرسل .

والصدّيق من سلّم قلبه كله وسرّه وظاهره وباطنه للرسول ، فاستغنىٰ به عما منه .

ومرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث .

وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : (حدثني قلبي عن ربي) فصحيح أن قلبه حدّثه ، ولكن عمّن ؟ عن شيطانه ، أو عن ربه؟ فإذا قال : (حدثني قلبي عن ربي) ؛ كان مسنداً للحديث إلىٰ من يعلم أنه حدّثه به، وذلك كذب .

والفهم عن اللّٰه ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تتفاوت مراتب العلماء ، حتىٰ عدّ ألف بواحد .

أما الشهداء : فيشهد لهم أنهم في ظل عرش الرحمن حديث صحيح سنفرده فيما بعد وهو وإن كان خاصّا بنوع خاص منهم إلاّ أنه يعضد هذا الحديث وفضل اللّٰه واسع لمن بذلوا أرواحهم فداءً لدينهم .

* * *

الشهيد المجاهد
بنفسه وماله

الشهيد المجاهد بنفسه وماله

عن عتبة بن عَبْدٍ السلمي ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

«القتلى ثلاثة :

• رجل مؤمن قاتل بنفسه وماله في سبيل اللَّه حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد المفتخر في خيمة اللَّه تحت عرشه لا يفضله إلا النبيون بدرجة النبوة .

• ورجل مؤمن قرف[1] [على نفسه][2] من الذنوب والخطايا جاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل [فتلك مصمصة[3] محت][4] محيت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محاء الخطايا ، وأدخل من أيّ أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب وبعضها أفضل من بعض .

• ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل اللَّه حتى يقتل فإن ذلك في النار ، السيف لا يمحو النفاق »[5] [6] .

---

(١) قرف الذنب إذا عمله، وقارف الذنب إذا داناه ولاصقه، وقرفه بكذا: أي أضافه إليه واتهمه به .

(٢ ، ٤) [ ] ما بين القوسين زيادة عند ابن حبان في « صحيحه » .

(٣) مصمصة : أي مطهرة من دنس الخطايا ، يقال : مصمص إناءه إذا جعل الماء فيه وحرّكه لينظف .

(٥) لفظ الطبراني « المفتخر » وكذا لفظ أحمد ، ولفظ « الممتحن » لابن حبّان .
قال الساعاتي في « الفتح الرّباني » (١٤/ ٣٢) : « والظاهر أن لفظ المفتخر هنا وقع فيه تصحيف من الناسخ ، فإن كان صحيحاً فمعناه المفتخر يوم القيامة بما أعطاه اللَّه من الكرامة وعلو الدرجة والأول أقرب واللَّه أعلم .

(٦) حديث صحيح : رواه أحمد في « مسنده » ، وابن حبان في « صحيحه » ، والطبراني في «المعجم الكبير » ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » و« البعث النشور » ، والطيالسي في « مسنده » ، والدارمي في «سننه» ، وابن المبارك في « الجهاد » والفسوي في « المعرفة والتاريخ » .
وجوّد إسناده المنذري في « الترغيب » (٢/ ٣١٧) .
وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٥/ ٢٩١) : رجال أحمد رجال « الصحيح » خلا أبو المثنى الأملوكي وهوثقة » ، وقال الساعاتي : إسناده جيد (١٤/ ٣٢ « الفتح الرباني ») وقال الشيخ حسين أسد : إسناده حسن ، والحديث صحيح والحمد اللَّه .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[(١)] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[(٢)] .

إن الذي وارثه الحي الذي لم يزل ، فليس بميت وإنْ قُتِل .

وإن كانت العبدان للموت أُنشِئت فقتل امرئ في اللّه لا شك أفضل

الشهداء الذين يضحون بأرواحهم للَّه ، هم عادة أكرم القلوب ، وأزكىٰ الأرواح ، وأطهر النفوس ، إنهم أحياء بشهادة اللَّه سبحانه وبشهادة رسوله ﷺ .

حقيقة ضخمة في ذاتها ، وضخمة في آثارها ، فهم يُرزقون عند ربهم، وهم فرحون بما آتاهم اللَّه من فضله ، وهم يتبشرون بمصائر من ورائهم من المؤمنين والفرح كل الفرح فرحهم .

● عن ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة تحت العرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ، فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، فيفعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يُسألوا قالوا : يا رب نريد أن تُردّ أرواحنا في أجسادنا ، حتى نرجع إلي الدنيا فنُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أنه ليس لهم حاجة تُركوا** »[(٣)] .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٥٤) .
(٢) سورة ال عمران الآية (١٦٩) .
(٣) رواه مسلم والترمذي .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن أرواح الشــهداء في طير خضر تعلق من ثمار الجنة** »[١] .

قال المناوي : « تعلُق » بضم اللام ؛ أي تأكل تلك الطير بأفواهها من ثمرة الجنة ، فتجد بواسطة ريح الجنة ولذتها وبهجتها وسؤددها ما لم تُحط به العقول » .

• وعن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل اللَّه أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، فتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : مَنْ يبلغ إخواننا عنّا أنّا أحياء في الجنة نُرزق لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب ؟ فقال اللَّه تعالي : أنا أبلغهم عنكم** »[٢] .

يا ليت شعري وما ارتفعت بنا هِمم إلى الجنان وتــالي القــوم أوّابُ
إلى كواعب للأطـراف قاصـــرة وظلّ طَوبى وعطـر الشدو ينســابُ
إلى قناديل ذهب عُلِّقتْ شـــرفًا بعرش ربي لمــنْ قتلــوا وما غابــوا

• وقال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾[٣] .

فالمـوت في سـبيل اللَّه بهـذا القيـد وبهذا الاعتبار خير من الحياة ، وخيـر مما يجمعـه النـاس في الحيـاة من أغراضهـا الصغـار ، من مـال وجـاه ومن سـلطان ومن متـاع ، خيـر بما يعقبـه من مغفرة اللَّه

---

(١) صحيح : رواه الترمذي عن كعب بن مالك ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٥٥٥)، و« الصحيحة » رقم(٩٩٥) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد وأبوداود والحاكم وصححه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٠٨١) ، و« تخريج الطحاوية » (٣٩٣) ، و« تخريج المشكاة » (٣٨٥٣) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٥٧) .

ورحمته، وهي في ميزان الحقيقة خير ممايجمعون .

● عن المقدام بن معدي كرب ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ « **للشهيد عند اللَّه سبع خصال : يُغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين ،ويُجار من عذاب القبر ،ويأمن من الفزع الأكبر ، ويُوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته** »[(١)] .

● وعن كعب بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «**أرواح الشهداء في صور طير خضر ، معلقة في قناديل الجنة ، حتى يرجعها اللَّه يوم القيامة**»[(٢)] .

● وعن أبي قتادة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **الشهيد لا يجد ألم القتل ، إلا كما يجد أحدكم مس القرصة** »[(٣)] .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **الشهيد لا يجد مسّ القتل ، إلا كما يجد أحدكم القرصة يقرصها** »[(٤)] .

وعنه ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ما يجد الشهيد من مس القتل، إلا كما يجد أحدكم من مسّ القرصة** »[(٥)] .

● والشهيد لا يفتن في قبره ، كفى ببارقة السيوف على رأسه ، إن كان المرابط يؤمن من فتنة القبر فمن باب أولى الشهيد .

---

(١) أخرجه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٠٥٨)، و«أحكام الجنائز» (٣٥ـ٣٦) .

(٢) رواه عبد الرزاق بسند صحيح .

(٣) أخرجه الطبراني ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦٣٩) .

(٤) صحيح : أخرجه النسائي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦٤٠) ، و« تخريج المشكاة » (٣٨٣٦) .

(٥) حسن : أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن حبان ، وحسنّه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٦٨٩) .

عن فضالة بن عبيد ـ رضي اللَّه عنه ـ : أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل اللَّه ، فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر** »[(١)] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه** ﴾ الآية[(٢)] من الذين لم يشأ اللَّه أن يصعقهم ؟ قال : « هم شهداء اللَّه »[(٣)] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ عن رسول اللَّه ﷺ : « **سألت جبريل عن هذه الآية ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه ﴾ من الذين لم يشأ اللَّه أن يصعقهم ؟ قال : هم الشهداء، ثنية اللَّه تعالى، متقلدون أسيافهم حول عرشه** »[(٤)] .

● في حديث جابر في البخاري : جئ بأبي إلى النبي ﷺ وقد مُثل به ووضع بين يديه ، فذهبت أكشف عن وجهه ، فنهاني القوم ، فسمع صوت نائحة ، فقيل : ابنة عمرو ، أو أخت عمرو ، فقال : « **لم تبكي ؟ ـ أوْ : لا تبكي ـ ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها** » .

● وقال ﷺ : « **واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف** »[(٥)] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **زملوهم بدمائهم ، فإنه ليس كلم يُكلم في**

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي وأبو داود وابن حبان والحاكم ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) سورة الزمر الآية (٦٨) .

(٣) صحيح : أخرجه الحاكم في « المستدرك » في « التفسير » ، وقال : هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٤) صحيح : أورده السيوطي في « الجامع » ، وقال : رواه أبو يعلى والدارقطني في « الأفراد » والحاكم وابن مردويه في « التفسير » ، والبيهقي في « البعث » عن أبي هريرة . وزاد على رواية الحاكم : « هم الشهداء ، ثنية اللَّه تعالى . . . حول العرش » وصححه السيوطي والحاكم . انظر : « فيض القدير » (٤/ ٧٨ـ٧٩) .

(٥) رواه الطبراني بسند صحيح ، انظر « فتح الباري » (٦/ ٥٦) .

سبيل اللّه إلا وهو يأتي يوم القيامة يدمي ، لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك »[(١)] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **عجب ربنا من رجل غزا في سبيل اللّه فانهزم أصحابه ، فعلم ما عليه فرجع حتى أهريق دمه ، فيقول اللّه عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ، وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه** »[(٢)] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **والذي نفسي بيده ، لولا أن رجال من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سَرِيّة تغزو في سبيل اللّه ، والذي نفسي بيده ، لوددت أنيّ أقتل في سبيل اللّه ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل** »[(٣)] .

ويالها من منزلة يتمناها رسول اللّه ﷺ .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول فلا يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا ، أولئك يتلبطون**[(٤)] **في الغرف العُلى من الجنة يضحك إليهم ربك ، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه** »[(٥)] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : «**أفضل الشهداء مَن سُفِك دمه وعُقِر جواده**»[(٦)] .

---

(١) صحيح : رواه النسائي عن عبد اللّه بن ثعلبة ، وصححه الألباني انظر : «صحيح الجامع » (٣٥٦٧) ، و« الإرواء » (٧٠٥) ، و« تخريج المشكاة » (٢٩٢٤) .
والكَلْم : الجرح .

(٢) حسن: أخرجه أبو داود عن ابن مسعود ، وحسنّه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٩٨١) .

(٣) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي عن أبي هريرة .

(٤) أي يتمرّغون .

(٥) صحيح : رواه أحمد ، والطبراني في « الكبير » عن نعيم بن حماد ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع » رقم (١١٠٧) .

(٦) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١١٠٨) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **حمزة سيد الشهداء يوم القيامة** »(١) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام إلي إمام جائر**(٢) **فأمره ونهاه ، فقتله** »(٣) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لولا أن تجد صفية في نفسها ، لتركته حتى تأكله العافية**(٤) **حتى يحشر من بطونها** »(٥) (يعني حمزة) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **دخلت الجنة البارحة فنظرت فيها ، فإذا جعفر يطير مع الملائكة ، وإذا حمزة متكئ على سرير** »(٦) .

● وعن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ : أن رجلاً أسود أتى النبي ﷺ فقال له : يا رسول اللَّه : إني رجل أسود منتن الريح ، قبيح الوجه لا مال لي ، فإنْ أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل فأين أنا ؟ قال : « **في الجنة** » فقاتل حتى قُتل فأتاه النبي ﷺ فقال : « **قد بيّض اللَّه وجهك ، وطيّب ريحك ، وأكثر مالك** » وقال لهذا أو لغيره : « **لقد رأيت زوجته من الحور العين ، نازعته جبة له من صوف تدخل بينه وبين جبته** »(٧) .

---

(١) صحيح : رواه الشيرازي في « الألقاب » عن جابر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣١٥٨) .

(٢) ظالم .

(٣) حسن : رواه الحاكم في « المستدرك » وصححه ، والضياء في « المختارة » عن جابر ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٦٧٥) .

(٤) هي السباع والطير التي تقع على الجيف . وقد قاله عليه السلام في معركة أحد عند موت حمزة وقد مثل به .

(٥) حسن : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي عن أنس ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٣٢٤) .

(٦) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » ، وابن عدي ، والحاكم في « المستدرك » عن ابن عباس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٣٦٣) .

(٧) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، والبيهقي في « الشعب » ، وقال في آخره فأتى عليه رسول اللَّه ﷺ وهو مقتول فقال : « لقد رأيت زوجتيه من الحور العين تتنازعان تدخلان فيما بين جلده وجبته » .

وعن مجاهد قال : قام يزيد بن شجرة في أصحابه فقال : إنها قد أصبحت عليكم ما بين أخضر ، وأحمر ، وأصفر ، وفي البيوت ما فيها ، فإذا لقيتم العدوّ غداً فقُدماً قُدماً ، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **ما تقدم رجل خطوة إلا تقدّم إليه الحور العين ، فإن تأخر استترت منه ، وإن استشهد كانت أول نفحة كفارة خطاياه ، وتنزل إليه ثنتان من الحور العين فتنفضان عنه التراب ، وتقولان له : مرحباً قد آن لك ، ويقول : مرحبا قد آن لكما** »(١) .

وللَّه در القائل عن الشهداء :

ماذا أغني ؟ والسماءُ بقدسها وبنورها غنّتْ لهمْ ؟!!
والأرضُ لَمْلَمَتِ العبيرَ وضمّختْهُ بعاطرٍ من ذكرهمْ
واللّه قرّبهَمْ ومدّ العرشَ أظلالاً لرفرف خُلدِهم
وكتائب الأحرارِ شدّتْ فى النضالِ ضياءَها من دربهم
وخُطا الشعوبِ تضلُّ إنْ لم تستمدَّ حياتَها من خطوِهم
عرفوا طريقَ الخُلدِ فاتّجهوا إليه وعانقوه بعمرهم
وبروحهم ، وبسرّهِمْ
وبكلِّ ما حملتْ منابتُ كَرْمهم
وبكلِّ ما وهبتهُ أقداحُ الحياةِ لدمعهم وخمرهم
بالنور ... والأغلالُ ترفض ضوءَه ـ من عزّةٍ ـ عن ليلهم
بالحبّ ... والأغلال تنسَخُهُ لظيّ متأجّجاً مِن سُخْطِهم

---

(١) موقوف وإسناده صحيح : رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » ، وابن الأثير في « أسد الغابة » ، ورواه ابن أبي شيبة موقوفًا مختصراً بإسناد صحيح ، وعبد الرزّاق موقوفًا بإسناد صحيح ، والطبراني ، قال الهيثمي : رواه الطبراني من طريقين ، رجال أحدهما رجال الصحيح .

بالدَّم ... وهو النارُ عاطشةٌ مُدَمدمةٌ لساعة ثأرهم
بالحُلمْ وهو تميمة الجبناء تعجزُ أن تطوفَ بليلهم
بالروح وهي الطائرُ المجروحُ مِنْ غيظِ التراب بأرضهمْ
بوجودهم ووجودُهم هذا الترابُ الحرُّ يصرخُ تحتهم
إنْ لم أكنْ حرًا فلا داستْ على وجهي عروبةُ وجههم
رَدُّوا عليه بأنْ سقوْهُ بكل آخرِ قطرةٍ في كأسهم
بدمائهم ، بفدائهمْ ، بمَضائهم ، قطفوا الحياةَ بموتهم
واللّه ما ماتوا ... ولا عرفَ البِلَى عِرْقًا يجفُّ بجسمهم
عرفوا طريق الخلد فاتجهوا إليه وبايعوه بعمرِهم !!
مَنْ هؤلاء ؟؟ هُمُ الذين مشاعلُ الإنسان تحملُ ضوءهَم
صنعوا من الأجيال مصباحًا عَرَفَتْ به أشعةَ شمسهم
فعرفْتُهم لمّا رأيتُ العارَ تغسلُه الدماءُ بجرحهم
وعرفتهُم لمّا رأيتُ الذلّ يحصدهُ الإباءُ بكِبْرِهِمْ
وعرفُتهم لمّا رأيتُ اليأسَ بدّده اليقين بعزمهم
وعرفُتهم لمّا رأيت الأرضَ ترفعُ رأسَها مِن بأسِهم
وبكل يومٍ تشتهيهم حاصدًا لعدوّها من تُربهم
وعرفتهم لمّا رأيتُ كرامة « الإسلام » تهزِجُ باسمهم
وعرفُتهم لما استعدتُ وجودَ وجهي في الوجودِ بيومهم
قد كانَ ضاعَ وضاعَ ... حتى عاد يَمْتَشِقُ الإباءَ بكفِّهِم !!
شهداءُ تخشعُ كلُّ ذرات الفضاء لهالةٍ من طهرهم

وتَميسُ رايات المعارك كلما نشقَتْ معارجَ عطرهم
كلُّ البطولةِ قطرةٌ شَربَتْ رَحيق مِضاءِها من بحرِهم
كلُّ الثرى عبدٌ إذا لم يرشُقُوهُ بوقدةٍ مِنْ جمرِهم
شهداءُ ... صوتُ الحقِّ جلْجلَ كالأذان مُحلِّقًا من صوتهم
شهداءُ ... ريحُ النصر هبَّتْ من لظَى قَبَسَ اللظى من صدرِهم
ذبحوا أساطيرَ الطغاةِ ولقَّنوها آيةً من دَرْسِهِم
ومَضَوْا ويمضي كلَّ يوم للفرادِسِ زائرٌ مِن رَكبْهِم
حتى تُغَرِّدَ في التراب حقيقةٌ تُشْجي سرائرَ طيرهم!!
حيَّيْتهم في كلِّ شبرٍ أهلكوا فيه سلاسِلَ قيدهِم
وطرقتُ بابَ الخلدِ أسألُ أيَّ روضٍ في الأرائك ضمَّهم ؟
وبأيِّ رَفْرَف جنّةٍ أمْلاكُها وطيورُها حَظيَتْ بهم ؟؟
فَعلمْتُ أنّ اللّه كرَّمَهُم ونَعَّمَ بالشهادةِ قُرْبَهُم
ماذا أغنِّي ؟؟
والسماءُ بقدسها وبنورها غنَّتْ لهم !!
أنا إنْ شَدَوْتُ فلنْ أكون سوى صدى لقصيدةٍ
مِنْ شعرهم ؟؟[(١)]

* * *

---

(١) قصيدة : « موسيقى الشهداء » لمحمود حسن إسماعيل « الأعمال الكاملة » المجلد الرابع (١٩٦٧ـ١٩٧٠).

ذراري المسلمين

الذين

لم يبلغوا الحلم

ذراري المسلمين الذين لم يبلغوا الحلم

عن ابن عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رجلاً من الأنصار ـ كان له ابن ـ يروح معه فسأله رسول اللَّه ﷺ : **أتحبُه** ؟ فقال : يا نبي اللَّه ، نعم ، فأحبك اللَّه كما أُحبّه .

فقال : **إن اللَّه أشد لي حباً منك له** .

فلم يلبث أن مات . فقال له النبي ﷺ : « **أما ترضى أن يكون مع ابني إبراهيم ، يلاعبه تحت ظل العرش** » .

قال : بلىٰ[(١)] .

هذا من ـ رحمة اللَّه عز وجلّ ـ . أين رحمة الخالق من رحمة المخلوق؟

إن اللَّه عز وجلّ كتب كتاب الرحمة بيده ، فهو عنده فوق العرش .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة ، كل رحمة طباق[(٢)] ما بين السماء والأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة ، فبها تعطف الوالدةُ على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض ، وأخرّ**

---

(١) صحيح : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » والرجل المبهم هو قرة بن إياس كما وقع التصريح به عند النسائي في « المجتبىٰ » .
وأخرجه ابن أبي شيبة » في « المصنف » ، وعلي بن الجعد في « مسنده » ، والحاكم في «المستدرك»، والدولابي في « الكنىٰ والأسماء » ، والطيالسي ، كما أخرجه أحمد والبيهقي وابن حبان .
وهذا الحديث صحيح ، صحّحه ابن حبان والحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وقال ابن عبد البر في « التمهيد » (٦/ ٣٤٩) : هذا حديث ثابت صحيح ، وصححه السيوطي في « تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش » .

(٢) ملء .

تسعاً وتسعين ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة »[(١)] .

وقال رسول اللَّه ﷺ : «**إن للَّه ـ مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن و الإنس والبهائم والهوام ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحوش على ولدها و وأخرّ تسعاً وتسعين رحمة ، يرحم بها عباده يوم القيامة**»[(٢)] .

إن الرجل لا يرضى هجير الدنيا لطفله وما أعطي من رحمة واحدة إلا النزر اليسير منها فما ظنك بتسع وتسعين رحمة ، لأطفال ولدوا في الإسلام على الحنيفية السمحة ما اقترفوا ذنباً ، إن اللَّه برحمته ولكرامة هؤلاء عنده يوكلّ بهم إبراهيم خليله في الجنة إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة أظلهم في ظله .

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **أطفال المؤمنين في جبل في الجنة ، يكفلهم إبراهيم وسارة؛ حتى يردّهم إلى آبائهم يوم القيامة »**[(٣)] .

* * *

(١) أخرجه أحمد ، ومسلم عن سلمان ، وأحمد وابن ماجه عن أبي سعيد .

(٢) أخرجه مسلم ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٣) صحيح : أخرجه أحمد في « مسنده » ، والحاكم في « المستدرك » وصححه البيهقي في «البعث» ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » رقم (١٤٦٧) وفي « صحيح الجامع » (١٠٢٣) .

المتقـــون

كاملو الإيمـــان

المتقون كاملو الإيمان

عن سلمان ـ رضي اللَّه عنه ـ قال :

« تدنوا الشمس من الناس يوم القيامة ، حتىٰ تكون من رءوسهم ، قاب قوس أو قوسين ، وليس علىٰ أحد يومئذ طِحْرِيّة[1] ، ولا يُرىٰ فيها عورة مؤمن ولا مؤمنة ، ولا يضرُّ حرُّها يومئذ مؤمنًا ولا مؤمنة ، وأما الآخرون ـ أو قال الكافرون ـ فتطحنهم ، فإنما تقول أجوافهم غِقْ غِقْ[2] »[3] .

قال السيوطي في « تمهيد الفرش » : « وظاهر هذه الآثار : أن المؤمنين كلهم في الظل ، وينبغي تخصيصه بالمتقين » .

قال القرطبي في « التذكرة » في قول سلمان : « ولا يجد حرّها مؤمن ولا مؤمنة » : « ظاهره العموم في المؤمنين ، وليس كذلك ، وإنما المراد ـ واللَّه أعلم ـ مؤمن كامل الإيمان ، أو من استظل بظل العرش ، كما في الحديث : « **سبعة في ظل العرش** » وكذا ما جاء « **إن المرء في ظل**

---

(١) الطحرية : الخِرقة كما قاله أبو نعيم .

(٢) غق غق : حكاية صوت الغليان كما قال ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » .

(٣) إسناده صحيح : أخرجه نعيم بن حماد في « زوائد الزهد والرقائق » لابن المبارك ، والثعالبي في «الجواهر الحسان» من هذا الطريق ، وأخرجه هنّاد بن السَّرِيّ في الزهد من طريق قبيصة عن سفيان عن سليمان التيمي به ، وأخرجه معمر في « الجامع » ، وابن أبي شيبة في « المصنف » ، وابن أبي عاصم في «السنة» مطولاً جداً ، وأورده ابن حجر في « الفتح » (١١/ ٣٩٤) وقال : « سنده جيد » وقال الثعالبي : حديث صحيح .

وأخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، كما قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٣٧١ ـ ٣٧٢) وقال الشيخ الألباني في « ظلال الجنة » (٢/ ٣٨٤) : « إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين . ولكنه موقوف علىٰ سلمان ، إلا أنه في حكم المرفوع ، لا يمكن أن يقال بالرأي ، ولا هو من الإسرائيليات » .

صدقتــه » وكذلك الأعمال الصالحة ، أصحابها في ظلها ، وكل ذلك في ظل العرش» انتهىٰ .

وقد جاء في موعظة أبي الدرداء وهو في الموت لرجل : « . . . ثم قمت على الأرض ، ليس لك إلا موضع قدميك ، ليس ثم ظل إلا العرش ، فإن ظُلِّلت ، فنعم ما أنت فيه وإن أضحيت[١] فقد هلكت » .

وهذا يوافق ما ذهب إليه المصنف فلا ظل إلا ظل العرش .

وقول سلمان كما قال القرطبي يقع علىٰ المؤمن كامل الإيمان الذي بلغ مرتبة الإحسان ، الذي حقق التقوىٰ للَّه عز وجل .

ويشهد لهذا ما رواه خيثمة قال : قيل لعبد اللَّه بن عمرو إنّ ابن مسعود يقول : إن الرجل ليسبح في عرقه حتىٰ يبلغ أنفه .

فقال عبد اللَّه بن عمرو : « إن للمؤمنين كراسي من لؤلؤ يجلسون عليها ، ويُظلّل عليهم بالغمام ويكون يوم القيامة عليهم ، كساعة من نهار ، أو كأخذ طرفة عين »[٢] .

وعن عبد اللَّه بن عمرو ـ رضي اللَّه عنهما ـ عن النبي ﷺ قال : **«يجتمعون يوم القيامة ، فيُقال : أين فقراء هذه الأمة ومساكينها ؟ فيقومون ، فيقال لهم : ماذا عملتم ؟ فيقولون : ربنا ابتليتنا فصبرنا ، ووليت الأمور ، والسلطان غيرنا.**

فيقول اللَّه تعالى : صدقتم ، أو نحو هذا .

فيدخلون الجنة ، قبل الناس بزمان ، ويبقى شدة الحساب على ذوي الأمور والسلطان .

---

(١) أي : برزت للشمس .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » : وقال السيوطي في « تمهيد الفرش » (ص١٢٨) : هذا حديث صحيح ، ومثله لا يُقال من قبل الرأي ، فله حكم الرفع .

قالوا : فأين المؤمنون يومئذ ؟ قال : « **يوضع لهم منابر من نور ، مظلل عليهم بالغمام** »[1] .

فحديث النبي ﷺ وقول عبد اللّه بن عمرو وقول سلمان المعني به خيار المؤمنين وخواصهم من المتقين أهل الإحسان .

* * *

(١) إسناده صحيح : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » كما قال الهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٣٣٧)، قال : « ورجاله رجال الصحيح ، إلا أبا كثير الزبيدي وهو ثقة » ، وصحح إسناده السخاوي والزرقاني في « تلخيصه » للسخاوي .

المقتـــول ظلمـــاً

المقتول ظلمًا

والمقتول ظلمًا ممن يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظله إلا ظله . .

جاء رجل إلىٰ ابن عباس فقال يا بن عباس أرأيت رجلاً قتل مؤمناً ؟ قال : جزاؤه جهنم خالدًا فيها . . . إلخ الآية قال : فقال يا ابن عباس أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحًا ؟ قال : ثكلته أمه ، وأنىٰ له التوبة وقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن المقتول يجيء يوم القيامة متعلقًا رأسه بيمينه أو قال بشماله آخذًا صاحبه بيده الأخرى تشخب[1] أوداجه[2] دمًا في قُبل عرش الرحمن فيقول: رب سل هذا فيما قتلني** »[3] .

قال الساعاتي في الفتح الرباني (١٦/ ٤) : « قبل العرش » أي مقابلاً له ومعاينًا وهو كناية عن قربه من اللَّه عزّ وجل » .

ولفظ آخر قال رسول اللَّه ﷺ : « **أقرب الخلائق من عرش الرحمن ، يوم القيامة المؤمن الذي قتل مظلومًا ، رأسه عن يمينه ، وقاتله عن شماله ، وأوداجه تشخب دمًا ، فيقول : رب سل هذا فيما قتلني** »[4] .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **من قُتِل دون مالِه مظلومًا فله الجنة** »[5] .

---

(١) تشخب أي تسيل .

(٢) أوداجه جمع وَدَج بالتحريك وهي ما أحاط العنق من العروق التي يقطعها الذابح .

(٣) إسناده صحيح : رواه أحمد واللفظ له ، والنسائي ، وابن ماجه ، والطبراني في « الكبير» ، والأصبهاني في « الترغيب » قال الساعاتي في « الفتح الرباني » (١٦/ ٤) سنده صحيح . وصححه الألباني في « السلسة الصحيحه » (٦/ ٤٤٥) ، انظر الحديث (٢٦٩٧) ، والشيخ أحمد شاكر ، قال الألباني : « قول ابن عباس : « وأنىٰ له التوبة » مشهور عنه من طرق ، والجمهور علىٰ خلافه ، وقد صحّ عن ابن عباس ما يدل علىٰ تراجعه عن قوله إلىٰ قول الجمهور» .

(٤) أخرجه ابن ماجه في « السنن » وابن أبي عاصم في الديات (ص٣١ ، ٣٣) ، وأحمد ، والنسائي في «المجتبىٰ» (٧/ ٨٥ ، ٨٧) والترمذي : وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٥) صحيح :أخرجه النسائي عن ابن عمرو ،وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم(٦٤٤٦) .

وقال ﷺ : « **من قُتل دون مظلمته فهو شهيد** »[(١)] .

وقال ﷺ : « **من قُتِل دون ماله فهو شهيد ، ومن قُتِل دون دمه فهو شهيد ، ومن قُتِل دون دينه فهو شهيد ، ومن قُتِل دون أهله فهو شهيد** »[(٢)] .

وقال ﷺ : « **قتل الصبر لا يمرّ بذنب إلا محاه** »[(٣)] .

وقتل الصبر هو أن يمسك الرجل فيُقتل في غير معركة بغير حق ، فالمقتول ظلمًا شهيد ، ويشهد لكون المقتول ظلماً في ظل العرش ، ما مرّ في الشهيد الذي يجاهد بنفسه وماله حتى يقتل الذي مرّ .

قال تعالى في عباد الرحمن: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾[(٤)] .

وقال اللَّه تعالى ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾[(٥)] .

وعن ابن عباس قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « **يأتي المقتول متعلقًا رأسه بإحدى يديه ، متلببًا قاتله بيديه الأخرى ، تشخب أوداجه دمًا ،حتى يأتي به العرش، فيقول المقتول لرب العالمين : هذا قتلني ، فيقول اللّه للقاتل : تعِستَ ، ويذهب به إلى النار**»[(٦)] .

---

(١) صحيح : أخرجه النسائي والضياء في « المختارة » عن سويد بن مقرن ، وأحمد عن ابن عباس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٤٤٧) .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن حبان عن سعيد بن زيد ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » قرم (٦٤٤٥) .

(٣) حسن : رواه البزار عن عائشة ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٣٦٠) .

(٤) سورة الفرقان الآية (٦٨) .

(٥) سورة المائدة الآية (٣٢) .

(٦) صحيح : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » ، والحديث صحيح لغيره ، صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٦٩٧) .

وقال ﷺ : « **يخرج عنق من النار يتكلم فيقول : وُكِّلتُ اليوم بثلاثة : بكل جبّار عنيد ، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر ، وبمن قتل نفساً بغير نفس ، فينطوي عليهم ، فيقذفهم في غمرات جهنم** »(١) .

قال ابن العربي : ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق ، والوعيد في ذلك ، فكيف بقتل الآدمي ، فكيف بالمسلم ، فكيف بالتقي الصالح »(٢) .

قال رسول الله ﷺ : « **أبغض الناس إلى الله ملحد في الحرم**(٣) **، ومبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومطّلِبٌ دم امرىء بغير حق ليهريق دمه** »(٤) .

وقال ﷺ : « **أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء** »(٥) .

وقال رسول اللهﷺ : «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**»(٦) .

وقال ﷺ : « **لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبّهم الله عــز وجل في النار** »(٧) .

وقال رسول الله ﷺ : « **لا يزال العبد في فسحة من دينه مالم يُصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بلّح**»(٨) .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٤٠) ، وعبد بن حميد في « المنتخب من المسند » ، وأبو يعلى في «مسنده» ، والطبراني في « الأوسط » عن أبي سعيد الخدري وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » رقم (٢٦٩٩) .

(٢) « فتح الباري » (١٢/ ١٩٦) .

(٣) الذي يرتكب فيه ما حرّم الله .

(٤) أخرجه البخاري عن ابن عباس .

(٥) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود .

(٦) صحيح : رواه ابن ماجه عن البراء ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٩٥٤) .

(٧) صحيح : رواه الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة معًا ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع» رقم (٤٩٥٤) . . . وكبهم أي ألقاهم على وجوههم .

(٨) صحيح : رواه أبو داود عن أبي الدرداء ،وعن عبادة بن الصامت،وأبو نعيم في «الحلية»، وصحّحه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٥٧٠) ، ومعنى بلّح : أي أعيا وانقطع .

الإمام المفسّر الشهيد السعيد سعيد بن جبير قتله الحجاج وما في الأرض رجل إلا وهو محتاج إلى علمه :-

قتله الحجاج الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها ، وجئنا بالحجاج ، لغلبناهم »[١].

قال سالم بن أبي حفصة : لما أُتي الحجاج بسعيد بن جبير قال : أنا سعيد بن جُبير ، قال : أنت شقيّ بن كُسير ، لأقتلنك قال : فإذًا أنا كما سمّتني أمي ، ثم قال : دعوني أُصلّ ركعتين ، قال : وجِّهوه إلىٰ قبلة النصارىٰ ، قال : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه اللَّه ﴾ ، قال : إني أستعيذ منك بما عاذت به مريم ، قال : وما عاذت به مريم؟ قال : قالت : ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا ﴾ .

قال ابن عيينة : لم يقتل بعد سعيد إلا رجلاً واحدًا[٢] .

قال ابن كثير : لم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا ، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ، ويقول : يا عدوّ اللَّه ، فيم قتلتني ؟ فيقول الحجاج : ما لي ولسعيد بن جبير ، ما لي ولسعيد بن جبير[٣] ؟!

قال سليمان التيمي : قال الحجاج لسعيد : أكفرت ؟ قال : لا ، قال : اختر أيّ قتلة أقتلك ، قال : اختر أنت فإن القصاص أمامك[٤] .

• قال داود بن أبي هند : لّما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال سعيد : ما أراني إلا مقتولاً وسأخبركم أني كنت أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء ، ثم سألنا اللَّه الشهادة ، فكِلاَ صاحبيّ رُزِقها ، وأنا أنتظرها .

---

(١) « البداية والنهاية » (٩/ ١٤٣) .
(٢) « السير » (٤/ ٣٢٨) ، و« الحلية » (٤/ ٢٩٠) .
(٣) « البداية والنهاية » لابن كثير (٩/ ١٠٣) .
(٤) « السير » (٤/ ٣٣٨) .

قال : فكأنه رأىٰ أن الإجابة عند حلاوة الدعاء[١] .

قال الذهبي : « ولما علم من فضل الشهادة ثبت للقتل ولم يكترث ، ولا عامل عدوه بالتقية المباحة له » .

وعن الحسن قال : « لما أُتي الحجّاج بسعيد بن جبير قال : أنت الشقيّ ابن كسير ؟ قال : كانت أمي أعرف باسمي منك . . .

وقال له : فما تقول فيّ ؟

قال : أنت أعلم ونفسك ، قال : بث علمك .

قال : إذًا يسؤك ولا يسرّك ، قال : بثّ بعلمك .

قال : اعفني ، قال : لا عفا اللَّه عني إن أعفيك .

قال : إني لأعلم أنك مخالف لكتاب اللَّه ، ترىٰ من نفسك أموراً تريد بها الهيبة وهي تقحمك الهُلْك ، وسترد غدًا فتعلم .

قال : أما واللَّه لأقتلنك قِتلة ، لم أقتلها أحدًا قبلك ، ولا أقتلها أحدًا بعدك ، قال : إذًا تفسد عليّ دنياي وأُفسِد عليك آخرتك .

قال : يا غلام ، السيف والنطع ، فلما ولّىٰ ضحك .

قال : أليس قد بلغني أنك لم تضحك ؟ قال : قد كان ذلك .

قال : فما أضحكك عند القتل ؟ قال : مِن جرأتك علىٰ اللَّه ، ومِن حلم اللَّه عنك .

قال : ياغلام ، اقتله .

فاستقبل القبلة فقال : ﴿ **وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين** ﴾ فصُرف وجهه عن القبلة فقال : ﴿ **أينما تولوا فثم**

---

(١) « تهذيب الكمال » للمزي (١٠/ ٣٦٤) ، « السير » (٤/ ٣٤٠) .

وجه الله ﴾ قال : اضرب به الأرض .

قال : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ .

قال : اذبح عدو اللَّه فما أنزعه لآيات القرآن منذ اليوم[1] .

فرحم اللَّه جهبذ العلماء سعيد بن جبير ، واللَّه الموعد بينه وبين الحجاج السفاك الغشوم الظالم . . .

* * *

(١) « تهذيب الكمال » للمزي (١٠/ ٣٧٤-٣٧٥) .

الطاهرة قلوبهم

الطاهرة قلوبهم

عن عطاء بن يسار : أن موسىٰ عليه السلام ، سأل ربه تعالىٰ ، فقال :

« **يارب أخبرنى بأهلك ، الذين هم أهلك ، الذين تُؤْويهم في ظل عرشك ، يوم لا ظل إلا ظلك .**

قال : « **هم الطاهرة قلوبهم ، البريئة أيديهم ، الذين يتحابون لجلالي ، الذين إذا ذُكرتُ ذُكِروا بي ، وإذا ذُكِروا ذُكِرت بهم ، الذين يسبغون الوضوء في المكاره ، وينيبون إلى ذكري ، كما تنيب النسور إلى وَكْرِها ، ويغضبون لمحارمي إذا استحلت، كما يغضب النَّمْرُ إذا حَرِب**[1] **ويكلفون بحبي ، كما يكْلَف الصبي بحب الناس** »[2] .

وزاد ابن عساكر في « تاريخه » :

«**الذين يعمرون مساجدي ، ويستغفرون بالأسحار** » .

قال السيوطي في « تمهيد الفرش » (١١٤) :

« وخصلة الإسباغ والمحبة وبراءة الأيدي وإعمارالمساجد ، ورد فيها أحاديث كما سبق .

---

(١) أي إذا اشتد غضبه .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب « الأولياء » حديث رقم (٣٧) ، وابن أبي شيبة ، وأبو نعيم في « الحلية » ، وابن المبارك في « الزهد » (ص٧١ ـ ٧٢) رقم (٢١٦) ، وأحمد في « الزهد » (ص٧٤)، وابن عساكر في « تاريخه » من طريق ابن المبارك في « الزهد » .
وأخرج نحوه بسند رجاله ثقات : هناد بن السري في « الزهد » (١/ ٢٧٦) رقم (٤٨٨) وأخرج أيضًا نحوه (٢/ ٦٠٨) رقم (١٣٠١) ، وابن السني في « القناعة » رقم (١٣ , ١٤) وأبو عبيد في « الخطب والمواعظ » . وكلام أهل العلم في الإسرائيليات معروف وخير الهدي هدي محمد ﷺ يراجع ما كتبه الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه « الإسرائيليات » . ولقد سبقنا إلىٰ ذكر هذا الأثر الإمام ابن القيم في كتابه « روضة المحبين » .

وفي ذلك دلالة على أن خصلة من المذكورات مستقلة بالإظلال ، لأن المجموع مقتض لذلك وقد تقدم نظيره » .

• وعند ابن المبارك : « **قال موسى : يا رب أخبرني عن أهلك الذين هم أهلك ؟ قال : هم المتحابون فيّ ، الذين يعمرون مساجدي ، ويستغفروني بالأسحار، الذين إذا ذُكرت ذكروا بي ، وإذا ذُكروا ، ذُكِرت بهم ، هم الذين ينيبون إلى طاعتي كما تنيب النسور إلى وكورها ، الذين إذا استحلت محارمي غضبوا كما يغضب النمر إذا حرب** » .

وفي «الزهد» لهنّاد بن السري عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : «**سأل موسى ربه عز وجل : أي عبادك أحبّ إليك ؟ قال : الذي يسرعُ إلى هواي ، كما يسرع النسر إلى هواه ، والذي يكلف بعبادي الصالحين ، كما يكلف الصبي بالناس، والذي يغضب إذا أُتيت محارمي ، كما يغضب النمر لنفسه ، فإن النمر إذا غضب لنفسه لم يبال أكثَرَ الناس أمْ قلوا** »[(١)] .

للَّه هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر وما أُودعته من الكنوز والذخائر ، وللَّه طيب أسرارها لا سيما يوم تُبلى السرائر .

سيبدو لها طيب ونور وبهجة   وحسن ثناء يوم تُبلى السرائرُ

لقد رُفع لها علم عظيم فشمرت إليه ، واستبان لها طريق مستقيم فاستقامت عليه ، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى فلم تستجب إليه ، واختارت ما سواه وآثرت ما لديه »[(٢)] .

انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بقلوبهم ، فمن ظفر بقلبه أفلح وأنجح .

---

(١) أخرجه هناد بن السري في « الزهد » رقم (٤٤٨) (١/ ٢٧٦ - ٢٧٧) ، ورجاله ثقات ، والأثر من الإسرائيليات .

(٢) « إغاثة اللهفان » (١/ ٧٣ - ٧٤) .

قال أبو هريرة : « القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده » .

فليعرف الإنسان قلبه ويراعيه ، ويترصد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ، ومن عرف قلبه عرف نفسه ومن عرف نفسه عرف ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل .

قال اللَّه تبارك وتعالىٰ : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [(١)] .

قال أبيّ بن كعب : مثل نوره في قلب المسلم .

وهذا هو النور الذي أودعه اللَّه في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره ، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس وأصله في قلوبهم ، ثم تقوىٰ مادته فتتزايد حتىٰ تظهر علىٰ وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو في جنسهم وسائر الخلق له منكر فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بأيمانهم يسعىٰ بين أيديهم في ظلمة الجسر حتىٰ يقطعوه وهم فيه علىٰ حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا : منهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وضرب اللَّه مثلاً لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلاً بالمشكاة وهي الكوّة في الحائط فهي مثل الصدر ، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفىٰ الزجاج حتىٰ شُبِّهت بالكوكب الدري في بياضه وصفائه ، وهي مثل القلب وشُبِّه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافًا هي

---

(١) سورة النور الآية (٣٥) .

في قلب المؤمن ، وهي الصفاء والرِّقة والصلابة فيرىٰ الحق والهدىٰ بصفائه وتحصل منه الرأفة والراحة والشفقة برِقَّته ، ويجاهد أعداء اللَّه تعالىٰ ويغلظ عليهم ويشتد في الحق ويصلب فيه بصلابته ولا تبطل صفة منه صفة أخرىٰ ولا تعارضها ، بل تساعدها وتعاضدها »[١] .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن للَّه تعالى : آنيةً من أهل الأرض ، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبها ألْينها وأرّقها** »[٢] .

طهارة القلوب أمر اللَّه بها وذمَّ مَنْ لم يبلُغها :ـ

قال اللَّه تعالىٰ ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[٣] .

قال ابن القيم : « وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم علىٰ أن المراد بالثياب هاهنا القلب ، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق » .

رُوي عن سعيد بن جبير : « قلبك ونيتك فطهر »[٤] .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **عليك بحسن الخلق ، وطول الصمت فوالذي نفسي بيده ما تجمَّل الخلائق بمثلهما** »[٥] .

قال ابن القيم في « إغاثة اللهفان » (١/ ٥٥) :ـ

« وطهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها ، فإذا كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها ، فالمقصود

---

(١) « الوابل الصيب » (ص٦٥)ـ دار البيان .

(٢) حسن : رواه الطبراني في « الكبير » عن أبي عتبة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢١٦٣) ، وقال العراقي : إسناده جيد وحسنه الهيثمي والمناوي .

(٣) سورة المدثر الآية (٤) .

(٤) « إغاثة اللهفان » (١/ ٥٢ـ ٥٣) .

(٥) حسن : رواه ابن أبي الدنيا ، والبزار ، والطبراني في « الأوسط » ، والبيهقي في « شعب الإيمان» عن أنس ، ورواه أبو الشيخ عن أبي ذر وأبي الدرداء ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٠٤٨) .

لنفسه أولىٰ أن يكون مأموراً به ، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس ، فلا يتم إلا بذلك فتبين دلالة القرآن علىٰ هذا وهذا » .

القلب الطاهر لا يشبع من الذكر والنجس يحرّفه :ـ

قال عثمان بن عفان ـ رضي اللَّه عنه ـ « لو طَهُرت قلوبنا لما شبعت من كلام اللَّه » ، أما المنحرفين فقد قال اللَّه تعالىٰ فيهم : ﴿ **سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ** ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (١) .

لم تطهر قلوبهم فتعوّضوا بالسماع الشيطانيّ عن السماع القرآني والإيماني والقلب الطاهر ـ لكمال حياته ونوره ، وتخلصه من الأدران والخبائث ـ لا يشبع من القرآن ولا يتغذىٰ إلا بحقائقه ، ولا يتداوىٰ إلا بأدويته .

وطهارة القلب موقوفة علىٰ إرادة اللَّه تعالىٰ ، واللَّه سبحانه وتعالىٰ لمّا لم يُرد أن يُطَهِّرَ قلوب القائلين بالباطل المحرّفين للحق ، لم يحصل لها الطهارة .

الجنة لا يدخلها إلا طاهر القلب :ـ

« ولقد حرّم اللَّه الجنة علىٰ من في قلبه نجاسة وخبث ، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره فإنها دار الطيبين ، ولهذا يُقال لهم : ﴿ **طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ ، وكما قال تعالىٰ : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ ، فالجنة لا يدخلها خبيث ، ولا من فيه شيء من الخبث ، فمن تطهر في الدنيا ، ولقي اللَّه طاهراً من نجاسته دخلها بغير معوق »(٢) .

---

(١) سور المائدة الآيتان (٤١ ـ ٤٢) .

(٢) « إغاثة اللهفان » (١ / ٥٦) .

طهارة القلب لازمة للدخول على الله في الدنيا والآخرة :ـ

« والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفًا على الطهارة ، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر ، وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوف على الطيب والطهارة فلا يدخلها إلا طيب طاهر ، فهما طهارتان : طهارة البدن وطهارة القلب ولهذا شرع للمتوضيء أن يقول عقيب وضوئه : «**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين** »[١] ، فطهارة القلب بالتوبة وطهارة البدن بالماء فلما اجتمع له الطهران صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته»[٢] .

لطيفة في معنى التطهّر من الخطايا بالماء والثلج والبرد :ـ

قال ابن القيم : « سألت شيخ الإسلام عن معنى دعاء النبي ﷺ « **اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد** » كيف يطهر الخطايا بذلك ؟ وما فائدة التخصيص بذلك ؟ وقوله في لفظ آخر : « **والماء البارد** » والحار أبلغ في الإنقاء ؟

فقال : الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفًا فيرتخي القلب وتضرم فيه نار الشهوه وتنجسه ، فإن الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذي يمد النار ويوقدها ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه، والماء يغسل الخبث ويطفيء النار فإن كان بارداً أورث الجسم صلابة وقوة ، فإن كان معه ثلج وبرد كان أقوى في التبريد وصلابة الجسم وشدته ، فكان أذهب لأثر الخطايا هذا معنى كلامه وهو محتاج إلى مزيد

---

(١) جزء من حديث عمر بن الخطاب الذي رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي .
(٢) « إغاثة اللهفان » (١/ ٥٦) .

بيان وشرح ، فاعلم أن ههنا أربعة أمور : أمران حسيان وأمران معنويان ، فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلها حسيان ، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها معنويان ، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلا بهذا وهذا » .

والقلب الطاهر :ـ

همه كله في اللَّه وحبه كله له ، وقصده له ، وبدنه له ، وأعماله ونومه له ويقظته وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث ، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابّه ، وقرة عينه به وطمأنينته وسكونه إليه ، فهو كلما وجد من نفسه التفاتا إلى غيره تلا عليها : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾ فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده بصبغة العبودية ، صفة له وذوقًا لا تكلفًا ، فيأتي بها تودداً وتحببًا وتقربًا كما يأتي المحب المقيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله ، فكلما عرض له من ربه أمر أو نهي أحس من قلبه ناطقًا ينطق : « لبيك وسعديك ، إني سامع مطيع ممتثل ، ولك عليّ المنّة في ذلك ، والحمد فيه عائد إليك » .

القلب الطاهر أبيض أجرد فيه سراج يزهر :ـ

قال حذيفة بن اليمان ـ رضي اللَّه عنه ـ قال رسول اللَّه ﷺ : « **تُعرض الفتن على القلوب عرض الحصير عوداً عوداً فأى قلب أُشربها** [١] **نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة** [٢] **بيضاء ، حتي تعود القلوب علي قلبين : قلب أسود مرْبادًا** [٣] **كالكوز مُجخياً** [٤] **لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب**

(١) أُشربها : أي دخلت فيه دخولاً تامًا ، وحلَّت منه محل الشراب .
(٢) نُكتت نكتة : نُقطت نقطة .
(٣) الربدة : شيء من بياض يسير يخالط السواد .
(٤) المجخي : هو المنكوس المائل .

من هواه،وقلب أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض»[١] .

وصح عن حذيفة أنه قال : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن . . . »[٢] .

والقلب الأجرد أي المتجرد مما سوى اللّه ورسوله ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق ، فيه سراج يزهر وهو مصباح الإيمان .

فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي ، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته .

وحياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه ، قال تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...** ﴾[٣] ، فجمع بين الأصلين : الحياة والنور ، فبالحياة تكون قوته ، وسمعه وبصره ، وحياؤه وعفته ، وشجاعته وصبره ، وسائر أخلاقه الفاضلة ومحبته للحسن ، وبغضه للقبيح ، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات ، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات ، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه ، فالقلب الصحيح الحيّ إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ، ولم يلتفت إليها ، بخلاف القلب الميت ، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح ، كما قال عبد الله بن مسعود ـ رضي اللّه تعالى عنه ـ : « هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر » .

وحياة القلب لا تحصل إلا بإدراك الحق وإرادته وإيثاره ، فلما كان في القلب قوتان : قوة العلم و التمييز ، وقوة الإرادة والحب ، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ، ولا سعادة للقلب ولا صلاح

---

(١) رواه أحمد ومسلم .

(٢) « إغاثة اللهفان » (١/ ١٢) .

(٣) سورة الأنعام الآية (١٢٢) .

ولا نعيم إلا بأن يكون اللَّه هو إلهه ومعبوده وغاية مطلوبه ، وأحب إليه من كل ما سواه .

القلوب الطاهرة قلوب امتحنها اللَّه للتقوى :ـ

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[(١)] ، قال الألوسي في روح المعاني : « أخلصها للتقوىٰ ، أي جعلها خالصة لأجل التقوىٰ ، أو أخلصها لها ، فلم يبق لغير التقوىٰ فيها حق ، كأن القلوب خلصت ملكًا للتقوىٰ » .

والقلوب الطاهرة قلوب منيبة :ـ

قال اللَّه تبارك وتعالىٰ :﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[(٢)] فالذنوب والمعاصي تفسد القلب ، وتضعف توحيده ، وكلما ازداد العاصي خبثًا ازداد من اللَّه بعدًا ، ولهذا قال المسيح عليه السلام فيما رواه عنه الإمام أحمد في كتاب الزهد : « لا يكون البطالون حكماء ، ولا يلج الزناة ملكوت السماء » .

القلب الطاهر هو القلب السليم :ـ

قال تعالىٰ مادحًا خليله : ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[(٣)] ، وقال تعالىٰ ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[(٤)] ، فالقلب الطاهر «سلم من كل شهوة تخالف أمر اللَّه ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله ، فسلم في محبته مع تحكيمه لرسوله ، في خوفه ورجائه ، والتوكل عليه ، والإنابة

---

(١) سورة الحجرات الآية (٣) .
(٢) سورة ق الآية (٣٣) .
(٣) سورة الصافات الآية (٨٤) .
(٤) سورة الشعراء الآيتان (٨٨ ، ٨٩) .

إليه، والذل له ، وإيثار مرضاته في كل حال ، والتباعد من سخطه بكل طريق، هذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا للَّه وحده .

فالقلب الطاهر السليم : هو الذي سلم من أن يكون لغير اللَّه فيه شرك بوجه ما ، بل قد خصلت عبوديته للَّه تعالىٰ إرادة ومحبة ، وتوكلاً وإنابة ، وإخباتًا ، وخشية ورجاء ، وخلص عمله وأمره كله للَّه ، فإن أحبَّ أحبَّ في اللَّه ، وإن أبغض أبغض في اللَّه ، وإن أعطىٰ أعطىٰ في اللَّه ، وإن منع منع للَّه ،ولا يكفيه هذا حتىٰ يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلىٰ اللَّه عليه وآله وسلم ، فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا علي الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب ، وهي العقائد ، وأقوال اللسان ، وهي الخبر عما في القلب ، فيكون الحاكم عليه في هذا كله دِقِّه وجُلِّه إلىٰ ما جاء به الرسول ﷺ »[١] .

القلب السليم قلب مطمئن مخبت وجل ليِّن :

قال اللَّه تبارك وتعالىٰ : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٣] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ

(١) « إغاثة اللهفان » (١/ ٧ ـ ٨) .
(٢) سورة الرعد الآية (٢٨) .
(٣) سورة الأنفال الآية (٢) .
(٤) سورة الحج الآية (٥٤) .

جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[١] .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير** »[٢] ، أي في رقتها ، وتوكلها وخوفها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن القلب الحي يكون صاحبه حي فيه حياء يمنعه عن القبائح ، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب»[٣] .

طهارة القلب شرط في زكاته :

فزكاة القلب معنىٰ زائد عن طهارته ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾[٤] الآية ، وكذلك ترك الفواحش يزكو به القلب ، وكذلك ترك المعاصي ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾[٥] الآيات ، ،« هي التوحيد والإيمان الذي يزكو به القلب ، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوىٰ الحق من القلب ، وإثبات إلهية الحق في القلب ، وهو حقيقة « لا إله إلا اللَّه » وهذا أصل ما تزكو به القلب »[٦] .

فالقلب الطاهر لا فرح له ولا حياة ولا فلاح ولا نعيم إلا بتوحيده لربه ، فبه يطمئن ، وإليه يسكن ، وإليه يأوي ، وعليه يتوكل ، وبه يثق ، وإياه يرجو ، وله يخاف ، والالتفات إلىٰ غير اللَّه والتعلق بسواه داؤه ، والرجوع إليه دواؤه ، فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوىٰ اللَّه تعالىٰ

---

(١) سورة الزمر الآية (٢٣) .
(٢) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .
(٣) « أمراض القلوب وشفاؤها » لابن تيمية (ص١٤) .
(٤) سورة التوبة الآية (١٠٣) .
(٥) سورة فصلت الآيتان (٦ ـ ٧) .
(٦) « أمراض القلوب وشفاؤها » لابن تيمية (ص٦ ـ ٧) ، المكتبة السلفية .

أبدًا ، وفيه شعث لا يلمه غيرالإقبال عليه ، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له ، وعبادته وحده ، فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده ، فحينئذ يباشر روح الحياة ، ويذوق طعمها ، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار ، وله أُرسلت الرسل ونزلت الرسل، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاءًا وكفى بفوته حسرة وعقوبة .

ولله ما أحلى ربيع هذه القلوب وما أبها زينتها ، فقد كان من دعاء سيد الخلق ﷺ : « **اللّهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا** »[1] .

وقوله ﷺ في دعائه : « **اللّهم زيّنّا بزينة الإيمان** » وهي زينة القلب[2] .

لا مكان للغلّ والحقد والحسد في القلوب الطاهرة :

فالقلب الطاهر سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر ، وحب الدنيا والرياسة ، فسلم من كل آفة تبعده من اللّه ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطع عن اللّه ، فهذا القلب السليم في جنة معجلة عن الدنيا ، وفي جنة في البرزخ ، وفي جنة يوم المعاد ، ولا تتم له طهارته وسلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد ، وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهوى يناقض التجريد والإخلاص ، وهذه الخمسة حجب عن اللّه، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادًا لا تنحصر .

---

(١) جزء من حديث صحيح .

(٢) جزء من حديث عمار بن ياسر ، رواه النسائي ، والحاكم ، وصححه الألباني .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **خير الناس ذو القلب المحموم واللسان الصادق** » ، قيل : ما القلب المحموم ؟ قال : « **هو التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا حسد** » ، قيل : فمن على إثره ؟ قال : « **الذى يشنأ الدنيا ، ويحب الآخرة** » ، قيل : فمن على إثره ؟ قال : « **مؤمن فى خُلُقٍ حَسَن** »(١) .

قلوب سادات الطاهرين :

وقلَّما يخلو جسد من حسد ، ولكن اللئيم يبديه ، والكريم يخفيه ، قيل للحسن البصري : أيحسُدُ المؤمن ؟ فقال : ما أنساك إخوة يوسف لا أبا لك ؟ ولكن عمّه في صدرك فإنه لا يضرُّك ما لم تعد به يدًا أو لسانًا .

ومع أن المنافسة في الخير والغبطة مباحة ومحمودة إلا أن هناك حالة أكمل منها كما يوضحها كلام شيخ الإسلام ابن تيمية إذ قال ـ رحمه اللَّه ـ : « وعمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ نافس أبا بكر الصديق ـ رضي اللَّه عنه ـ في الإنفاق كما ثبت في « الصحيح » عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نتصدَّق ، فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت : الآن أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا ، قال : فجئت بنصف مالي ، قال : فقال لي رسول اللَّه ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك ؟** » قلت : مثله ، وأتى أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ بكل ما عنده ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك؟** » قال : أبقيت لهم اللَّه ورسوله ، فقلت : لا أسابقك إلى شيء أبدًا »(٢) .

---

(١) صحيح : روى شطره الأول ابن ماجه ، ورواه الحاكم ، والطبراني في « الكبير » ، وأبو نعيم في «الحلية» ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ، والسيوطي في « الجامع الكبير » ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٢٩١) .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والحاكم ، وابن أبي عاصم في « السنة » والبيهقي في «السنن» .

فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة ، لكن حال الصديق -رضي اللَّه عنه- أفضل منه ، وهو خال من المنافسة مطلقًا ، لا ينظر إلىٰ حال غيره ، وكذلك حال موسىٰ ﷺ في حديث المعراج : حصل له منافسة وغبطة للنبي ﷺ حتىٰ « بكىٰ لما تجاوزه النبي ﷺ ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : **أبكي لأن غلامًا بُعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل الجنة من أمتي** »[(١)] .

ورُوىٰ في بعض الألفاظ المروية في غير الصحيح : « **مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته : أكرمته وفضّلته ، قال : فرفعنا إليه فسلمنا عليه ، فردّ السلام فقال : من هذا معك يا جبريل ؟ قال : هذا أحمد ، قال : مرحبًا بالنبي الأمي الذي بلغ رسالة ربه ، ونصح لأمته ، قال : ثم اندفعنا فقلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى ابن عمران ، قلت : ومَنْ يُعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك. قلت : ويرفع صوته ؟ قال : إن اللَّه عز وجل قد عرف صدقه** » ، وعمر رضي اللَّه عنه كان مشبهًا بموسىٰ ، ونبينا ﷺ حاله أفضل من حال موسىٰ ، فإنه لم يكن عنده شيء من ذلك .

أبوعبيدة بن الجراح طاهر القلب بم استحقّ لقب « أمين هذه الأمة »؟ :

قال ابن تيمية : « وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه ، كانوا سالمين من جميع هذه الأمور ، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة وإن كان ذلك مباحًا ، ولذا استحق أبو عبيدة -رضي اللَّه عنه- أن يكون « أمين هذه الأمة » فإن المؤمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة علىٰ شيء مما ائتمن عليه كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته ، ولهذا يؤتمن علىٰ النساء والصبيان والخصيان ، ويؤتمن علىٰ الولاية الصغرىٰ من يُعرف

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

أنه لا يزاحم على الكبرى ، ويؤتمن على المال مَنْ يُعرف أنه ليس له غرض في أخذ شيء منه ، وإذا اؤتمن من في نفسه خيانة شُبِّه بالذئب المؤتمن على الغنم فلا يقدر أن يؤدي الأمانة في ذلك ، لما في نفسه من الطلب لما اؤتُمِن عليه »[١] .

رجل من أهل الجنة ذو قلب طاهر :

عن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « كنا جلوسًا مع رسول اللَّه ﷺ فقال : « **يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة** » فطلع رجل من الأنصار تنطف[٢] لحيته من وضوئه قد تعلق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد اللَّه بن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت[٣] أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت ؟ قال : نعم ، قال أنس : وكان عبد اللَّه يُحدِّث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعارّ[٤] وتقلب على فراشه ذكر اللَّه عز وجل وكبّر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد اللَّه : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد اللَّه إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثمَّ ، ولكن سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول لك ثلاث مرار : **يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة** ، فطلعت أنت الثلاث مرار ، فأردت أن آوي إليك لأنظر

---

(١) « أمراض القلوب وشفاؤها » (ص١٨ ـ ١٩) .
(٢) نطف الماء ينطف إذا قطر قليلاً .
(٣) لاحيت أي خاصمت .
(٤) تعارَّ : أي استيقظ .

ما عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول اللّه ﷺ ؟ فقال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غشًا ، ولا أحسدُ أحدًا على خير أعطاه اللّه إياه ، فقال عبد اللّه : هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق »[1] .

* * *

(١) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » ، وقال المنذري : إسناده على شرط البخاري ومسلم والنسائي ورواته احتج بهم أيضًا إلا شيخه سويد بن نصر وهو ثقة ، وكذا رواه أبو يعلى والبزار بنحوه وسمّى الرجل المبهم سعدًا ، وقال في آخره : فقال سعد : ما هو إلا ما رأيت يا بن أخي إلا أني لم أبت ضاغنًا على مسلم أو كلمة نحوها ، وذكره النسائي والبيهقي والأصبهاني ، وعند البيهقي أنه عبد اللّه بن عُمر لا ابن عَمرو .

البريئـــــة

أيـــديـــهم

البريئة أيديهم

الأيدي البريئة . . . الأيدي المتوضئة . . . التي أزالت بماء السماء وطهرها غبش الأرض عنها . . . . الأيدي التي لا تمتد بسوء إلى الناس وإنما هي دائمًا للخير وفي الخير .

الأيدي البريئة تعلم جنايات الأيدي ؛ وأن معظم الكبائر والمعاصي لها متعلق باليد قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾[2] .

الأيدي البريئة تخشى المساءلة يوم الحساب ويوم نطق الجوارح وتقدّر لهذا اليوم العقيم مكانته :

قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[4] .

• الأيدي البريئة لا تقتل النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق . . . كخير ولدي آدم .

قال تعالى : ﴿ **لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾[5] .

---

(١) سورة آل عمران الاية (١٨٢) .

(٢) سورة الروم الآية (٤١) .

(٣) سورة النور الآية (٢٤) .

(٤) سورة يس الآية (٦٥) .

(٥) سورة المائدة الآية (٢٨) .

تعلم قول رسول اللَّه ﷺ : « **الكبائر تسع ، أعظمهن إشراك باللّه، وقتل النفس بغير حق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، والفرار يوم الزحف ، وعقوق الوالدين ، واستحلال البيت الحرام ، قبلتكم أحياءً وأمواتًا** »(١) .

وقال ﷺ : « **الكبائر الإشراك باللّه ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس** »(*) .

تعلم حديث رسول اللَّه ﷺ : « **لزوال الدنيا أهون على اللّه من قتل مؤمن بغيرحق** »(٢) .

وقول رسول اللَّه ﷺ : « **أبغض الناس إلى اللّه ثلاثة : ملحد(٣) في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ، ومطِّلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه** »(٤) .

وقال ﷺ : « **لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها؛ لأنه أول من سنّ القتل** »(٥) .

• الأيدي البريئة لا تجني على نفسها وتعذب نفسها :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعنها يطعنها في النار** »(٦) .

وقال ﷺ : « **من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده يتوجأ(٧) بها في**

---

(١) حسن : أخرجه أبو داود ،والنسائي عن عمير ،وكذا أخرجه الطحاوي ، والحاكم في «المستدرك» والبيهقي في « سننه » ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع» رقم (٤٦٠٥) .

(*) رواه أحمد ، والبخاري ،والترمذي ، والنسائي عن ابن عمرو .

(٢) صحيح : أخرجه ابن ماجه عن البراء ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٠٧٨).

(٣) أي : الذي يرتكب فيه ما حرّمه اللَّه .

(٤) رواه البخاري عن ابن عباس .

(٥) أخرجه أحمد ، والبخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي، وابن ماجه ، عن ابن مسعود .

(٦) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

(٧) أي يطعن .

بطنه، في نار جهنم ، خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سمّا ، فقتل نفسه ، فهو يتحساه(١) **في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى**(٢) **من جبل ، فقتل نفسه فهو يتردّى في نار جنم خالداً مخلداً فيها أبداً »**(٣) .

● الأيدي البريئة لا تكتب الربا ولا تشهد عليه :

قال ﷺ : « **آكل الربا ، ومُوكِلُه ، وكاتبه ، وشاهداه ، إذا علموا ذلك ، والواشمة ، والموشومة للحسن ولاوى الصدقة والمرتد أعرابيًا بعد الهجرة ، ملعونون على لسان محمد يوم القيامة** »(٤) .

● الأيدي البريئة لا تخطّ شهادة الزور ولا تكتبها :

قال رسول اللّه ﷺ : « **أكبر الكبائر الإشراك باللّه ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور** »(٥) .

● الأيدي البريئة لا ترهب مسلمًا :

قال رسول اللّه ﷺ : « **إذا شهر المسلم على أخيه سلاحاً ، فلا تزال ملائكة اللّه تلعنه حتى يشيمه**(٦) **عنه** »(٧) .

قال رسول اللّه ﷺ : « **كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة : فالعينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك**

---

(١) أي يشربه .

(٢) أي : رمى بنفسه .

(٣) رواه أحمد ، والبخاري ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٤) صحيح : أخرجه النسائي ، عن ابن مسعود ، وكذا أخرجه ابن خزيمة في « صحيحه » ، والحاكم في « المستدرك » ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥) .

(٥) أخرجه البخاري عن أنس .

(٦) أي يغمد سيفه ويخفيه .

(٧) حسن : أخرجه البزار عن أبي بكرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٣٥) .

الفرج ويكذبه »(١) .

● الأيدي البريئة لا تبطش ولا تزني ولا تظلم ولا تفتك :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن الظلم ظلمات يوم القيامة** »(٢) .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من ضَرب بسوط ظلماً اقتُصّ منه يوم القيامة**»(٣) .

● الأيدي البريئة أبعد ما تكون عن الرشوة فقد قال رسول اللَّه ﷺ : «**لعنة اللَّه على الراشي ، والمرتشي** »(٤) .

● الأيدي البريئة بينها وبين السرقة كما بين المشرق والمغرب :

قال ﷺ : « **ألا إنما هي أربع : لا تشركوا باللَّه شيئاً ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم اللَّه إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا** »(٥) .

وفي الحديث : « **ملعون من سبّ أباه ، ملعون من سبّ أمه ، ملعون من ذبح لغير اللَّه ، ملعون من غيرّ تخوم**(٦) **الأرض ، ملعون من كمّه**(٧) **أعمى عن طريق، ملعون من وقع على بهيمة ، ملعون من عمل بعمل قوم لوط** »(٨) .

● الأيدي البريئة لا تضاهي خلق اللَّه ولا تصوّر :

---

(١) رواه مسلم ، وأحمد ، والحاكم عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، والترمذي عن ابن عمر .

(٣) صحيح : رواه البخاري في « الأدب المفرد » ، والبيهقي في « سننه » ، والطبراني في « الأوسط» عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٣٧٤) .

(٤) صحيح : أخرجه أحمد في « مسنده » ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في « الإرواء » رقم (٢٦٢١) وفي « صحيح الجامع » رقم (٥١١٤) .

(٥) صحيح : أخرجه أحمد ، والنسائي ، والحاكم عن سلمة بن قيس ، وصححه الحاكم في «المستدرك» ، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » رقم (١٧٥٩) ، و« صحيح الجامع » رقم (٢٦٤٠) .

(٦) معالمها وحدودها .

(٧) أي : أضلّ .

(٨) صحيح : أخرجه أحمد في « مسنده » عن ابن عباس ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٨٩١) .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **أشد النـاس عذابًا المصورون ، يُقـال لهم أحيُوا ما خلقتم** »[(١)] .

• وهي بريئة من حمل الخمر وعصرها وشربها :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ،وساقيها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ومشتريها ، وآكل ثمنها**»[(٢)] .

• وفي كبائر الأيدي قال رسول اللَّه : « **لعن اللَّه الواشمات ، والمستوشمات ، والنامصات ، والمتنمصات ، والمتفلجات**[(٣)] **للحسن ، المغيّرات خلق اللَّه** »[(٣)] .

• والأيدي البريئة لا تطفف الكيل والميزان :

قال رسول اللَّه ﷺ :

« **خمس بخمس ، ما نقض**[(٤)] **قوم العهد**[(٥)] **إلا سُلّط عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل اللَّه إلا فشا** [(٦)] **فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة** [(٧)] **إلا فشا فيهم الموت ، ولا طفّفوا الميكال إلا مُنعوا النبات وأُخذوا بالسنين** [(٨)] **، ولا منعوا**

---

(١) صحيح : روه أحمد في « مسنده » عن ابن عمر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٩٩٩) .

(٢) صحيح : أخرجه الحاكم في « المستدرك » وصححه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ، وابن حبان في « صحيحه » ، والضياء في « المختارة » عن ابن عباس ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٨٠٢) .

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود والمتفلّجة : هي التي توسّع بين أسنانها ؛ تبتغي بذلك الزينة .

(٤) أبطلوه وتركوا العمل به .

(٥) عهد اللَّه وعهد رسوله ﷺ .

(٦) انتشر . (٧) الزنا .

(٨) مفردها سَنَة وهي : الجدب والقطر .

الزكاة إلا حُبس عنهم القطر »[1] .

• الأيدي المتوضئة البريئة لا تمس نرداً ولا تعبث ولا تلهو .

• الأيدي المتوضئة البرئية لا تدبّج فتاوىٰ الزور وتدنّس شرف العلم : قال رسول اللَّهﷺ : « **إن أخوف ما أخاف على أمتي ، الأئمة المضلون** » .

• الأيدي البريئة . . . بريئة من فكر الزور والمحادة للَّه ورسوله فلا تخطّ بيمينها فكراً عفناً عقلانياً يغتال الأمة ، ولا تدبّج المدائح في مدح الظلمة والطواغيت .

سجّل بكفك في القرطاس ما كتبت   كلتا يديك به أمسيت مرهونا

• الأيدي البريئة الطاهرة تمد يدها بالخير ؛ تغيث المضطر والملهوف ، تصافح أهل الخير ، تبايع اللَّه ورسوله أن تكون دوماً مبسوطة بالخير والعون لكل محتاج : تهدي الأعمىٰ ، ترشد الضال ، تميط الأذىٰ عن الطريق ، تغرس الأشجار ، تحفر بئراً ، تزرع نخلاً ، تبني مسجداً ، تجهّز غازياً ، تجاهد المنافقين ، وتردّ صولة المارقين بما تخطّه ببنانها وهذا أخصّ الجهاد وأشرفه .

* * *

(١) حسن : أخرجه الطبراني في « الكبير » عن ابن عباس ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٣٢٤٠) .

الذين إذا ذكرت ذكروا بي

وإذا ذكروا ذكرت بهم

الذين إذا ذكرت ذكروا بي

وإذا ذكروا ذكرت بهم

بأبي وأمي أولياء اللَّه أهل اللَّه الذين قال اللَّه تعالىٰ فيهم : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[1] .

وقال فيهم رسول اللَّه ﷺ : « **أولياء اللَّه تعالى ، الذين إذا رُءوا ذُكر اللَّه تعالى** »[2] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن للَّه تعالى أهلين من الناس** ، قالوا من هم يا رسول اللَّه ؟ قال : « **أهل القرآن ، هم أهل اللَّه وخاصته** »[3] .

وللَّه در إقبال حين يقول :

الدين يحيا في سعادة أهله	**والكأس لا تبقى بغير الساقي**
أين الذين بنار حبك أرسلوا الأنـ	**ـوار بين محافل العشاق**
سكبوا الليالي في أنين دموعهم	**وتوضّأوا بمدامع الأشواق**
والشمس كانت من ضياء وجوههم	**تهدي الصباح طلائع الإشراق**[4]

(١) سورة يونس الآية (٦٢) .

(٢) صحيح : أخرجه الحكيم عن ابن عباس ، وكذا أخرجه ابن صاعد ، وأبو نعيم ، والديلمي، وصححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » رقم (١٦٤٦) ، و« صحيح الجامع » رقم (٢٥٨٧).

(٣) صحيح : أخرجه أحمد ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم عن أنس ، وأخرجه الطيالسي، وأبو نعيم في « الحلية » ، وابن نصر ، وابن عساكر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢١٦٥) .

(٤) من قصيدة « شكوىٰ » لمحمد إقبال ترجمة الشيخ الصاوي شعلان ـ انظر : « الصوفية في إلهامهم» (ط/ ١٦١) ـ طبع المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية .

ولله در من قال بلسان حالهم :

أرواحنـــا فـوق السـماء	مـــع الكـواكب ساريـــةْ
وقلوبنـــا مثـــل البـدور	بكل ليـــل زاهيـــة
ونفوســـــنا أنفاسُـــها	كالطيـب أمســتْ زاكيـة
ولسـاننـا بيت المعـــارف	والعلـــوم الراقيـــة
وكنـوزنـــا بقلوبنـــا	فيهـا المعـاني غاليـــة
وأعضـاؤنا طـربت بحبك	وهـي تـــذكر صافيـــة
والروح من وَجْدٍ عن الأغـ	ـيـار عاشـت نائيـــة
فنيـــتْ به عـنَ غيـــره	فاستـمسـكتْ بالباقيـــة
شـــرُفتْ به وتلـــذّذتْ	بشهـــوده في عافيـــة
إن كان جســمي بالفنـــاء	سقـوفـــه متـداعيـــة
فالروحَ بعـــد فنائـــه	في الخلد شمس ساميـــة

هم والله أجمل من نجوم السماء . . . وأين أنوار الكواكب من أنوار قلوب الصالحين .

أمرتقب النجوم من السماء	نجوم الأرض أبهى في الضياءِ
فتلك تبينُ وقتا ثم تخفى	وهذي لا تكــدّر بالخفـاء

هم حجج الله على خلقه ، ألبسهم النور الساطع من محبته ، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواصلته ، وأقامهم مقام الأبطال لإرادته ، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته، وطهّر سرائرهم بمراقبته، وطيّبهم بطيب أهل معاملته ، وكساهم حللاً من نسج مودّته ، ووضع على رءوسهم تيجان مسرته .

قد أقامهم علىٰ باب قربه ، وأجلسهم علىٰ كراسي أطباء أهل معرفته ، ثم قال : إن أتاكم عليل من فقدي فداووه ، أو آمن مني فحذِّروه ، أو راغب في مواصلتي فمنُّوه ، أو راحلٍ نحوي فزوِّدوه ، أو جبان في متاجرتي فشجّعوه ، أو آيس من فضلي فعِدُوه ، أو راجٍ لإحساني فبشّروه ، أو حسنُ الظنّ بي فباسطوه ، أو محب لي فواظبوه ، أو معظِّمٌ لقدري فعظِّموه ، أو مسيء بعد إحسان فعاتبوه .

همومهم في الجدّ والطلب ، وأرواحهم في النجاة والقرب ، يستقلّون الكثير من أعمالهم ، ويستكثرون القليل من نعم اللَّه عز وجل عليهم ، إن أنعم اللَّه عليهم شكروا ، وإن مُنِعوا صبروا . . . أذاقهم اللَّه طعم محبّته ، ونعّمهم بمناجاته ، فقطعهم ذلك عن الشهوات وجانبوا اللذات ، وداموا في خدمة ملك الأرض والسموات ، قد اعتقدوا الرضا قبل وقوع القضاء . . . طاب واللَّه عيشهم ودام نعيمهم سليمًا ، وغناهم في قلوبهم مقيمًا ، كأنهم نظروا بأبصار القلوب إلىٰ محجوب الغيوب فقطعوا كل محبوب ، وصار اللَّه جل جلاله هو المُنىٰ والمطلوب .

دعاهم إليه فأجابوه بالجدّ ودوام السير ، فلم يقم لهم اشتغال إذا استيقنوا دعوة الجبار ، فعندها غابت عن قلوبهم أسباب الفتنة بدواهيها ، وظهرت أسباب المعرفة بما فيها ، فصار مطيتهم إليه الرغبة ، وسائقهم الرهبة ، وحاديهم الشوق من المحبة ، حتىٰ أدخلهم في رقّ عبوديته ، وبصّرهم عظيم ربوبيته ، فليس تلحقهم فترة في نيّة ، ولا وَهن في عزمة ، ولا ضعف في خدمة ، ولا تأول في رخصة ، ولا ميل إلىٰ داعي غرّة .

نظر إليهم ربهم نظرة رحمته ، فنثر عليهم من خزائن الربوبية نثار كرامات الخصوصية ، فقاموا بحقيقة العبودية فأغناهم وقرّبهم وناداهم ، وأكرمهم ولطف بهم ودعاهم ، فأتوه حين سمعوا نداءه ، فأيّدهم وقوّاهم ،

واكتنفهم وآواهم ، حتىٰ أجابوه فلبّاهم ، وفي السرّ ناداهم ، وفي كل وقت ناجوه ، وحنّوا إلىٰ مولاهم .

لا يعرف أحدهم له ربًا سواه ، فأعطاه سؤله ومناه ، واصطفاه لخدمته وهداه ، ولمحبته ارتضاه ، ولمعرفته اجتباه ، وأجرىٰ بين يديه أنهاراً من الصدق والصفاء ، والتحقيق والحياء ، والمحبة والرضاء ، والخوف والرجاء ، والصبر والوفاء ، والشكر والافتقار والافتخار ، والتعظيم والتسليم وترك الاختيار ، يزيده اللَّه كل وقت من اللطائف ما عجز الواصفون عن وصفه وهو في قرب من مولاه ، مستوحش من دنياه ، اشتغل باللَّه عن النظر في عقباه ، فهو في أرغد عيش مع مولاه .

لا تخلو الأرض من قائم للَّه بحجة منهم ؛ لكيلا تبطل حجج اللَّه وبيّناته ، أولئك هم الأقلون عددًا ، الأعظمون عند اللَّه قدراً ، بهم يدفع اللَّه عن حُججه حتىٰ يؤدوها إلىٰ نظرائهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم علىٰ حقيقة الأمر ، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلىٰ ، أولئك خلفاء اللَّه في أرضه ، ودعاته إلىٰ دينه ، هاه هاه ! شوقًا إلىٰ رؤيتهم »[(١)] .

ما برح للَّه ـ عزّت آلاؤه ـ في البرهة بعد البرهة ، عباداً ناجاهم في فِكرهم ، وكلّمهم في ذات عقولهم ، فاستصبحوا بنور يقظة في الأبصار والأسماع والأفئدة ، يذكّرون بأيام اللَّه ، ويخوّفون مقامه ، بمنزلة الأدلّة في الفلوات[(٢)] من أخذ القصْد حمدوا إليه طريقه ، وبشّروه بالنجاة ، ومن

---

(١) من كلام علي بن أبي طالب ـ رضي اللَّه عنه ـ لكميل بن زيد النخعي . قال فيه الخطيب البغدادي : هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنىً ، وأشرفها لفظًا .

(٢) المفازات والقفار والصحاري .

أخذ يمينًا وشمالاً ذمّوا إليه الطريق وحذّروه الهلكة ، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات ، وأدلة تلك الشبهات ، أخذوا الذكر من الدنيا بدلاً ، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه ، يقطعون به أيام الحياة ، ويهتفون بالزواجرعن محارم اللَّه في أسماع الغافلين ، يأمرون بالقسط ويأتمرون به ، وينهوْن عن المنكر ويأتمرون به ، فكأنهم قطعوا الدنيا إلي الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك ، فكأنما اطّلعوا غيوبَ أهل البرزخ في طول الإقامة فيه ، وحقّقت القيامة عليهم عِدَاتها ، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا ، حتىٰ كأنهم يروْن ما لا يرىٰ الناس ، ويسمعون ما لا يسمعون .

فلوْ مثّلتهم لعقلك في مقاماتهم المحمودة ومجالسهم المشهودة ، وقد نشروا دواوين أعمالهم ، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم عن كل صغيرة وكبيرة أُمروا بها فقصّروا عنها ، أو نُهُوا عنها ففرّطوا فيها ، وحمّلوا ثقل أوزارهم ظهورَهم ، فنشجوا نشيجًا ، وتجاوبوا حنينًا ، يَعجُّون إلىٰ ربهم من مقام ندم واعتراف لرأيت أعلام هدىٰ ، ومصابيح دجىٰ ، قد حفّت بهم الملائكة ، وتنزّلت عَليهم السكينة ، وفُتحت لهم أبواب السماء ، وأُعدت لهم مقاعد الكرامات ، في مقام اطّلع اللَّه عليهم فيه ، فرضىٰ سعيهم ، وحمد مقامهم .

يتنسمون[1] بدعائه رَوْح التجاوز ، رهائن فاقة إلىٰ فضله ، وأُسارىٰ ذلة لعظمته .

جَرَح طول الأسىٰ قلوبهم ، وطولُ البكاء عيونهم .

لكل باب رغبة إلىٰ اللَّه منهم يد قارعة ، يسألون من لا تضيق لديه

---

(١) أي يتوقعون التجاوز بدعائهم له .
والروّح : النسيم .

المنادح[1] ولا يخيب عليه الراغبون .

كانوا قومًا من أهل الدنيا وليسوا من أهلها ، فكانوا فيها كمن ليس منها ، عملوا فيها بما يبصرون ، وبادروا فيها ما يحذرون ، تقلّبُ أبدانهم بين ظهرانيْ أهل الآخرة ، يرون أهل الدنيا يعظّمون موت أجسادهم ، وهم أشد إعظامًا لموت قلوب أحيائهم .

هم المتقون أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع ، غضّوا أبصارهم عمّا حرم اللَّه ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم .

نُزِّلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نُزّلت في الرخاء .

ولولا الأجل الذي كتب اللَّه عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقًا إلى الثواب ، وخوفًا من العقاب .

عَظُم الخالق في أنفسهم فصَغُر ما دونه في أعينهم ؛ فهم والجنّةُ كمن قد رآها فهم فيها منعّمون ، وهم والنار كمنْ قد رآها ؛ فهم فيها معذّبون ؛ قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة .

صبروا أيامًا قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسّرها لهم ربهم ، أرادتهم الدنيا فلم يُريدوها ، وأَسَرَتْهُم ففدوْا أنفسهم منها ، أما الليل فصافّون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً ، يُحزنُون به أنفسهم ، ويستثيرون دواء دائهم ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعًا ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقًا ، وظنّوا أنها نُصْب أعينهم ، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوْا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم

---

(١) المنادح : المواضع المتسعة .

وشهيقها في أصول آذانهم ، فهم حانون علىٰ أوساطهم ، مفترشون لجباههم وأكفّهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلىٰ اللّه تعالىٰ فكاك رقابهم .

وأما النهار فحلماء علماء ، أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف بَرْيَ القداح[١] ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضىٰ ، وما بالقوم من مرض ، ويقول قد خُولطوا[٢] ولقد خالطهم أمر عظيم ، لا يَرْضَوْن من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم مُتّهِمون ، ومن أعمالهم مشفقون .

فمن علامة أحدهم : أنك ترىٰ له قوة في دين ، وحزمًا في لين ، وإيمانًا في يقين ، وحرصًا في علم ، وعلمًا في حِلم ، وقصدًا في غنىٰ ، وخشوعًا في عبادة ، وتجمّلاً في فاقة ، وصبرًا في شدة ، وطلبًا في حلال ، ونشاطًا في هدىٰ ، وتحرّجًا عن طمع ، يعمل الأعمال الصالحة وهو علىٰ وَجَل ، يُمسي وهمّه الشكر ، ويصبح وهمّه الذكر ، يبيت حذرًا ، ويصبح فرحًا ، حذرًا لما حُذّر من الغفلة ، وفرحًا بما أصاب من الفضل والرحمة ، قرّة عَينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقىٰ .

تراه قريبًا أملهُ ، قليلاً زَلَلُهُ ، خاشعًا قلبهُ ، قانعة نفسهُ ، منزورًا أكلُه ، سهلاً أمرُه ، حَرِيزًا دينه[٣] ، ميّتة شهوتُه ، مكظومًا غيظُه ، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون .

---

(١) جمع قِدح وهوالسهم قبل أن يراش . وبراه : نحته أي : رقّق الخوف أجسامهم كما ترقق السهام بالنحت .

(٢) خولط في عقله : أي مازجه خلل فيه ، والأمر العظيم الذي خالط عقولهم هوالخوف الشديد من اللّه .

(٣) منزورًا أي : قليلاً ، حريزًا : حصينًا.

يعفو عن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيداً فحشُه ، ليّنًا قوله ، غائبًا منكره ، حاضراً معروفُه ، مقبلاً خيره ، مدبراً شره ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور .

لا يَحيفُ على مَن يُبغِضُ ، ولا يأثم فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه ، لا يُضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذُكِّر ، ولا ينابز بالألقاب، ولا يُضارُّ بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخلُ في الباطل، ولا يخرج من الحق .

إن صمت لم يغمّه صمته ، وإن ضَحِك لم يعلُ صوته ، وإن بُغي عليه صبر حتى يكون اللَّهُ هو الذي ينتقم له ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه .

بعدُه عمّن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوّه ممن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعُدُه بكِبرٍ وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخديعة » .

للَّه در أحدهم إذ يقول :

وقفتُ على نجوى الإله جوانحي — لذلك قلبي منزل كله ذكرُ
وأخليت قلبي من مناجاة غيره — فأصبح طوداً لا يزلزله الغيرُ
أسارع مشتاقا وأسكت هائماً — وأنطق إجلالاً وما عاقني سيرُ
ففي صحوتي شوقٌ وفي غفوتي هوى — وفي مشيتي علم وفي وقفتي سرٌّ
هُمُ الجواهر طبعاً لا يغيّرهم — مرّ الزمان وهُم من أهله الدررُ
ملائك اللَّه ترعاهم وتتبعهم — والفضل يحضرُ فيهم أينما حضروا
مَن أمّهم كان فضل اللَّه غامرهُ — وحيث منزلهم يستنزل المطرُ

أزكى القلوب وأسماها وأشرفها من بالهـداية والإيمـان يأتزرُ
والقانتون لهم في الحب إن صبروا روض من العزّ لم يذبل لهُ ثمـرُ
مياهـه الذكر والتقوى منابعه والعلم والدين والآيـات والعبـر
خلّ المعـارف للعشاق تقطفهـا إن كنتَ منهم فسرْ واسهر كما سهروا

نعم هذي صفات أهل اللَّه والمتقين :

قومٌ كرام السجايا أينما جلسوا يبقى المكان على آثارهم عطرا

نعم :

تشتاقكم كل أرض تنزلون بها كأنكم في بقاع الأرض أمطار
وتشتهي العين فيكم منظرًا حسنًا كأنكم في عيـون النـاس أقمار
لا أوحـش اللَّه ربعًا من زيارتكـم يا مَن لهم في الحشا والقلب تذكار

• **قال ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ** :

« النظر إلىٰ الرجل من أهل السنة يدعوا إلىٰ السنّة وينهىٰ عن البدعة عبادة »[1] .

• كان الناس إذا رأوا محمد بن سيرين داخلاً السوق سبّحوا اللَّه لمخايل النور التي علىٰ وجهه .

قال أبو عوانة : رأيت محمد بن سيرين في السوق ، فما رآه أحد إلا ذكر اللَّه[2] ، وكذا أيوب السختياني .

• **قال أبو زرعة الرازي** : سمعت أبا جعفر الجمّال يقول : أتينا وكيعًا

---

(١) « شرح أصول الاعتقاد » للالكائي (١/ ٥٥) .
(٢) « السير » (٤/ ٦١٠) ، و« المعرفة والتاريخ » للفسوي بنحوه (٢/ ٦٣) .

فخرج بعد ساعة وعليه ثياب مغسولة ، فلما بصرنا به ، فزعنا من النور الذي رأيناه يتلألأ من وجهه فقال رجل بجنبي : أهذا مَلَك ؟! فتعجَّبنا من ذلك النور [١] .

• ومحمد بن واسع كان وجهه كوجه الثكلى :

يقول جعفر بن محمد : كنت كلما قسى قلبي نظرت إلى وجه محمد ابن واسع .

• الفضل بن عياض :

قال شيخ الإسلام عبد اللّه بن المبارك : إذا نظرت إلي الفضيل ، جدّد لي الحزن ، ومقتُّ نفسي ، ثم بكى [٢] .

ابن المبارك سيد العلماء كما قال عنه الرشيد يقول هذا .

ابن المبارك الذي رآه أبو حاتم الفربري في المنام واقفًا على باب الجنة بيده مفتاح .

فقال له : ما يوقفك ههنا ؟

فقال : هذا مفتاح الجنة دفعه إليّ رسول اللّه ﷺ وقال : « **حتى أزور الربّ ، فكن أميني في السماء ، كما كنت أميني في الأرض** » .

ابن المبارك الذي ذكر البخاري في ترجمته لأبيه : « وصافح ابن المبارك» [٣] فهذه منقبة والد البخاري .

• الفضيل وأبو إسحاق الفزاري :

قال الفضيل بن عياض : « ربما اشتقت إلى المِصِّيصة ، ما بي فضل

---

(١) انظر : « السير » ترجمة وكيع (٩/ ١٤٠ ـ ١٦٨) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٤٣٨) .

(٣) انظر : « هدي الساري مقدمة فتح الباري » .

الرباط إلا أن أرىٰ أبا إسحاق ـ رحمه اللَّه ـ »[١] .

• وروىٰ الذهبي بإسناده في « السير » عن رجل من خراسان قال : عندنا بخراسان يظنون أن أحمد لا يشبه البشر يظنون أنه من الملائكة .

وقال آخر : نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة .

قال الذهبي : معلقًا : هذا غلو لا ينبغي ، لكن الباعث له حب ولي اللَّه في اللَّه .

قال المروزي : رأيت طبيبًا نصرانيًا خرج من عند أحمد معه راهب ، فقال : إنه سألني أن يجيء معي ليرىٰ أبا عبد اللَّه .

وأدخلت نصرانيًا علىٰ أبي عبد اللَّه ، فقال له : إني لأشتهي أن أراك منذ سنين ما بقاؤك صلاح للإسلام وحدهم ، بل للخلق جميعًا .

• **وسفيان الإمام ... سفيان الثوري :**

عن شعيب بن حرب قال : إني لأحب أنه يجاء غدًا بسفيان حجة من اللَّه علىٰ خلقه يقول لهم : لم تدركوا نبيّكم ، قد رأيتم سفيان[٢] .

• **الحافظ الأثري عبد الغني المقدسي :**

قال عنه محمد بن سلامة الحرّاني بأصبهان : كان الحافظ يصطف الناس في السوق ينظرون إليه ، ولو أقام بأصبهان مدة وأراد أن يملكها ملكها .

قال الضياء المقدسي : « كان إذا خرج للجمعة لا نقدر نمشي معه من كثرة الخلق ، يتبركون به ويجتمعون حوله »[٣] .

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٥٤١) .

(٢) انظر : ترجمة الثوري في « السير » (٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩) .

(٣) « السير » (٢١/ ٤٥٦ـ ٤٥٧) .

ومن عجـــب أني أحـنّ إليـــــهـم وأسأل شـــوقًا عنـــهـمُ وهمُ معـــي
وتبكيهم عيني وهـــم في سوادهـــا ويشـــكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

وقال المتيم عبد اللَّه بن خضر الرومي في شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية :

فارقتُ من كان يرويني برؤيته إذا تبدّى بدا ســرُّ العبـــادات
يروي الأحاديث عن سكّان كاظمة فيطرب الكون من طيب الروايـــات
ويُطنب الذكر في إحسان حُسنهمُ فيرقص القلب شوقًا نحو ســـاداتِ
هُمُ مرادي وهُم سؤلي وهم أملي وهم نهايـــة مقصـــودي وغاياتي
وهم سروري وهم سمعي وهم بصري وهم نعيمي وروضـــاني وجـنّاتي
وهم حياتي وهم أُنســي وهم شرفي وذكركم لم يـــزل في القلب جلواتي

أخي : حين تكون الصباحات منكفئة الشموس فتبدو مثل بئر عتمة ؛ فإن أفق الربانيين القانتين المحبين يبقى بهيًا . . ندي الضياء ، بينما أفق المارقين، يضجّ ظلمة ، حتى حين يكون غارقًا بمياه الشمس . . .

إن الهدى وحده الذي يسكب الندى والرحيق في الأرواح مهما ازدحمت الفضاءات بدخان الحرائق .

* * *

الذين يسبغون الوضوء
في المكاره

الذين يسبغون الوضوء في المكاره

« إذا قمت إلىٰ وضوئك فأيقن في نفسك واعزم في خاطرك علىٰ أن لهذا الماء سراً روحانيًا من أسرار الغيب والحياة ، وأنه رمز للسماء عندك ، وأنك إنما تتطهر به من ظلمات نفسك التي امتدت علىٰ أطرافك ، ثم سمّ اللَّه تعالىٰ ، ثم تَمَثَّل أنك غسلت يديك مما فيهما ومما تتعاطاه بهما من أعمال الدنيا ، وأنك آخذ فيهما من السماء لوجهك وأعضائك ؛ وقرِّر عند نفسك أن الوضوء ليس إلاّ مسحة سماوية تسبغها علىٰ كل أطرافك ليشعر بها جسمك وعقلك ، وأنك بهذه المسحة السماوية تستقبل اللَّه في صلاتك سماويًا لا أرضيًا .

فإذا أنت استشعرت هذا وعملت عليه وصار عادة لك ، فإن الوضوء حينئذ ينزل من النفس منزلة الدواء ، كلما اغتممت أو تكرّهت أو تسخطت أو غشيك حزن أو عرض لك وسواس ؛ فما تتوضأ علىٰ تلك النّية إلاغسلت الحياة وغسلت الساعة التي أنت فيها من الحياة .

وترىٰ الماء تحسبه هدوءاً ليّنًا لين الرضىٰ ، وإذا هو ينساب في شعورك وفي أحولك جميعًا »[1] .

● قال رسول اللَّه ﷺ : « **أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ، فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى[2] ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفيّ ، حتى وجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما في السموات وما في الأرض ، فقال : يا محمد ، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم ، في الكفّارات ، والدرجات ، والكفارات : المُكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي**

---

(١) « وحي القلم » لمصطفىٰ صادق الرافعي (٢/ ٩٨) .

(٢) أي الملائكة .

على الأقدام إلى الجماعات ، واسباغ الوضوء في المكاره ، قال : صدقت يا محمد! ومَنْ فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه ، وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللّهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي ، وترحمني وتتوب علي ، واذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون ، والدرجات : إفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام »[١] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **إسباغ الوضوء شطر**[٢] **الإيمان ، والحمد للّه تملأ الميزان ، والتسبيح والتكبير يملأ السماوات والأرض ، والصلاة نور ، والزكاة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها »**[٣] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **إسباغ الوضوء في المكاره ، وإعمال الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ يغسل الخطايا غسلاً »**[٤] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **ألا أدلكم على ما يكفّر اللّه به من الخطايا ، ويزيد في الحسنات ؟ إسباغ الوضوء على المكروهات ، وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة »**[٥] .

---

(١) صحيح : رواه عبد الرزاق في « مصنفه » ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي عن ابن عباس، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٩) .
(٢) شطر : نصف .
(٣) صحيح : رواه أحمد ، والنسائي وابن ماجه ، وابن حبان عن أبي مالك الأشعري ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٩٢٥) .
(٤) صحيح : رواه أبويعلى ، والحاكم في « المستدرك » ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن علي وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٩٢٦) .
(٥) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٦١٧) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ألا أدلكم على ما يمحو اللّه به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط** »(١) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفّارات، وثلاث درجات :**

فأما المهلكات : فشحٌ مطاع ، وهوىً متّبَع ، وإعجاب المرء بنفسه .

وأما المنجيات : فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية اللّه تعالى في السرّ والعلانية .

وأما الكفّارات : فانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوء في السبرات(٢) **، ونقل الأقدام إلى الجماعات .**

وأما الدرجات ،فإطعام الطعام وإفشاء السلام،والصلاة بالليل والناس نيام»(٣) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **كفارات الخطايا : إسباغ الوضوء علي المكاره ، وإعمال الأقدام إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة** »(٤) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا توضأ الرجل المسلم خرجت خطاياه من سمعه وبصره ويديه ورجليه ، فإن قعد قعد مغفوراً له** »(٥) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **ما من امرئ يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يصلي الصلاة إلا غُفر له ما بينه وبين الصلاة الأخرى حتى يصليها** »(٦) .

---

(١) رواه مسلم ومالك وأحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

(٢) السبرات : البرد الشديد .

(٣) حسن : واه الطبراني في « الأوسط » عن ابن عمر ،وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٠٤٥) .

(٤) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٤٨٩) .

(٥) حسن : رواه أحمد ، والطبراني في « الكبير » عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٤٤٨) .

(٦) صحيح : رواه النسائي وابن حبان عن عثمان ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٥٦٨٩) .

• وقال رسول اللَّه ﷺ: «ما من عبد مسلم توضأ فأسبغ الوضوء، ثم صلى للَّه في كل يوم ثنتيْ عشرة ركعة، تطوعاً غير فريضة، إلا بنى اللَّه له بيتاً في الجنة»[(١)].

• وقال رسول اللَّه ﷺ: « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلي ركعتين يُقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة »[(٢)].

• وقال رسول اللَّه ﷺ: « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ، ثم يقول حين يفرغ من وضوئه : أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيِّها شاء »[(٣)].

• وقال رسول اللَّه ﷺ: « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم صلى ركعتين لا يسهو فيهما غفر اللَّه له ما تقدّم من ذنبه »[(٤)].

• وقال رسول اللَّه ﷺ: « من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظافره »[(٥)].

• وقال رسول اللَّه ﷺ: « من توضأ مثل وضوئي هذا ، وقام فصلى ركعتين لا يُحدّث فيهما نفسه بشيء غُفِر له ما تقدّم من ذنبه »[(٦)].

• وقال رسول اللَّه ﷺ: « أنتم الغرّ المُحَجّلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء»[(٧)].

---

(١) رواه مسلم عن أم حبيبة .
(٢) رواه مسلم وأبو داود عن عقبة بن عامر .
(٣) رواه مسلم ، وأحمد ، وأبو داود والنسائي عن عمر .
(٤) حسن : رواه أحمد ، وأبو داود والحاكم في « المستدرك » عن زيد بن خالد الجهني ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع» رقم (٦١٦٥) .
(٥) رواه مسلم وأحمد عن عثمان .
(٦) صحيح : رواه النسائي عن عثمان ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦١٧٥) .
(٧) رواه مسلم عن أبي هريرة .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : «أمتي يوم القيامة غرٌ من السجود ، محجلون من الوضوء »[١] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٢] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ مبينًا أن الوضوء الحق مثل وضوئه فمن زاد فقد أساء قال ﷺ : « **هكذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وظلم** »[٣] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء أو تعدى وظلم** »[٤] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لا وضوء لمن لم يذكر اسم اللَّه عليه** »[٥] .

سيدنا بلال الطاهر دائماً المحافظ على وضوئه أبداً :

انظر إلىٰ هذه المنقبة العظيمة لبلال ـ رضي اللَّه عنه ـ وسببها الوضوء .

قال رسول اللَّه ﷺ : « **يا بلال حدّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، فإني سمعت دفّ نعليك بين يديّ في الجنة** » ، قال : « ما عملتُ عملاً أرجىٰ عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كُتب لي أن أصلي » رواه أحمد والبخاري ومسلم .

---

(١) صحيح : رواه الترمذي عن عبد اللَّه بن بسر ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٣٩٧).

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٣) حسن : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه عن ابن عمرو ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٠١٥) .

(٤) حسن : رواه أحمد ، وابن ماجه عن ابن عمر وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٩٨٩).

(٥) صحيح : رواه الترمذي عن سعيد بن زيد ، ورواه الترمذي في « العلل » عن أبي هريرة ، وأحمد والترمذي في « العلل » ، وابن ماجه والحاكم في « المستدرك » عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع » رقم (٧٥٧٣) .

وعند أحمد : « ما أحدثت إلا توضأت وصليت ركعتين » .

شيخ الإسلام عبد الغني المقدسي وحبه العجيب للوضوء :

كان ـ رحمه اللَّه ـ ربما توضأ سبع مرات أو ثمانيًا في الليل ، وقال : «ما تطيب لي الصلاة إلاّ ما دامت أعضائي رطبة» .

العالم الصالح الناسك ابن عنان المصري الشافعي لا يمكث على غير وضوء لحظة واحدة :

قال ـ رحمه اللَّه ـ : « لا أقدر أجلس على حدث قطّ ، وضوئي دائم ليلاً ونهاراً ، ولقد أصابتني جنابة مرة في ليلة باردة ، وكان على باب داري بركة جمد ظاهرها من البرد فنزلت فيها واغتسلت فوجدتها من شدة الهمة كأنها مُسخنه بالنار » وكان ـ رحمه اللَّه ـ إذا استنجى في الخلاء وأبطأ ماء الوضوء يرى أن يضرب يده في الحائط ويتيمم حتى يجئ الماء ولا يجلس على غير طهارة لحظة واحدة وكان يقول : « من ادّعى مجالسة اللَّه عز وجل وهويمكث على حدث لحظة واحدة فهو قليل الأدب »[١] .

الوضوء عون للمؤمن :

قال أبو موسى المديني : سمعتُ من يحكي عن قوّام السنة شيخ الإسلام إسماعيل التيمي في اليوم الذي قُدم بولده ميتًا، وجلس للتعزية أنه جدّد الوضوء في ذلك اليوم مرات نحوالثلاثين، كل ذلك يصلي ركعتين[٢] .

وللَّه در القائل :

---

(١) « الكواكب السائرة » (١/ ٣٩ـ ٤٠) .

(٢) انظر ترجمته في « السير » (٢٠/ ٨٠ـ ٨٨) .

إن الوضـــوء ينير كلّ دروبنـــا رمز لطهر النفس والوجـــدان
يشفي من الأحقاد يطفئ غيظنا برد اليقين وراحة الحيـــران
فاحرص على إســـباغه وأصوله تظفر برضوان من الرضـــوان
الغـرّ معرفـــون يـــوم قيامـة أثرُ السجود وحجلة السِّيقان
فاحــرص على طُهرٍ فنعم سلاحُه نهر الوضوء مطــهِّر الأدران[1]

* * *

(١) قصيدة «الوضوء» من ديوان «الحق المبين» لخيرالدين وانلي (ص١٥٤ـ١٥٥).

المحبـــون للــه

المحبون لله

المحبة هي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون ، وإليها شخص العاملون، وإلىٰ عَلَمِها شمّر السابقون وعليها تفانىٰ المحبون ، وبرَوْح نسَيمها تروّح العابدون ؛ فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرّة العيون ، وهي الحياة التي مَن حرمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذي مَن فقده فهو في بحار الظلمات ، والشفاء الذي مَن عُدِمه حلّت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام . . . ، تحمل أثقال السائرين إلىٰ بلاد لم يكونوا إلا بشقّ الأنفس بالغيها ، وتوصِّلهم إلىٰ منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها ، وتُبوِّئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها ، وهي مطايا القوم التي مسراهم علىٰ ظهورها دائمًا إلىٰ الحبيب ، وطريقهم الأقوم الذي يبلِّغهم إلىٰ منازلهم الأولىٰ من قريب .

تاللَّه لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ؛ إذْ لهم من معيّة محبوبهم أوفر نصيب .

فيالها من نعمة علىٰ المحبين سابغة !!

تاللَّه لقد سبق القوم السعاة ، وهم علىٰ ظهور الفرش نائمون ، وقد تقدّموا الرَّكْب بمراحل ، وهم في سيرهم واقفون .

مَنْ لي بمثل سيرك المدللِ تمشي رويداً وتجي في الأوّل[1]

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

(١) « مدارج السالكين » (٣/ ٦) .

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

وفي « الصحيحين » : عن أنس - رضي اللَّه عنه - عن النبي ﷺ قال : **«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم ، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»** .

● وفي « الصحيحين » أيضًا : أن عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - قال : يا رسول اللَّه ، واللَّه لأنت أحبّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : « **لا يا عمر ، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك** » . فقال : واللَّه لأنت أحبّ إليّ من نفسي ، فقال : « **الآن يا عمر** » .

ومعلوم أن محبة الرسول ﷺ تابعة لمحبة اللَّه عز وجل ، فما الظن بمحبة اللَّه عز وجل ؟ .

وفي « الصحيحين » عن أنس - رضي اللَّه عنه - ، عن النبي ﷺ قال : **«ثلاث مَن كُنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان : أن يكون اللَّه ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبّه إلا للَّه ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذْ أنقذه**

(١) سورة التوبة الآية (٢٤) .
(٢) سورة البقرة الآية (١٦٥) .
(٣) سورة المائدة الآية (٥٤) .

الله ، كما يكره أن يقذف في النار » .

وفي آخر حديث اختصام الملأ الأعلى الذي رواه معاذ بن جبل - رضي الله عنه - « قال : سل ، قلت : اللَّهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبّ المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت بقوم فتنة فتوفّني إليك غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب كل عمل يقربني إلى حبك » ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **إنها حق فادرسوها، ثم تعلموها** »[1] .

وفي « الصحيحين » عن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ ، قال : متى الساعة يا رسول اللَّه ؟ قال : « **ما أعددت لها ؟** » قال : ما أعددتُ لها من كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكني أحب اللَّه ورسوله ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « **أنت مع من أحببت** » .

وفي رواية للبخاري : فقلنا : ونحن كذلك ؟ قال : « **نعم** » ،قال أنس : ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا .

وفي رواية لمسلم : قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشدّ من قوله : « **أنت مع من أحببت** » .

قال أنس : فأنا أحب اللَّه عز وجل ورسوله ﷺ ، وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قال سمنون : « ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة ؛ لأن رسول اللَّه ﷺ قال : « **المرء مع من أحب** »[2] فهم مع اللَّه في الدنيا والآخرة .

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد ، والترمذي ، وقال : حسن صحيح ، وخرّجه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، وصححه الألباني في « صحيح الترمذي » رقم (٢٥٨٢) .

(٢) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أنس ، ورواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود .

قال إبراهيم بن أدهم : أعلى الدرجات أن يكون ذكر اللَّه عندك أحلى من العسل ، وأشهى من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف .

يا مَنْ يذكّرني بعهـد أحبّتـي　　طاب الحديث بذكرهم ويطيبُ
أعـد الحديث عليّ من جنباتـه　　إنّ الحديث عن الحبيب حبيبُ
ملأ الضلوع وفاضَ عن أجنابها　　قلب إذا ذُكر الحبيبُ يـذوبُ
ما زال يخفـق ضـارباً بجناحـه　　يا ليت شعري هل تطير قلوبُ

وللَّه در القائل :

خطـرات ذكري تستثير مودّتـي　　وأحس منها في القلـوب دبيباً
لا عضـو لي إلاّ وفيـه محبّـة　　فكأنّ أعضائي خُلِقـن قلـوباً

وكمال الحب في أن يحب المرء اللَّه عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، فبقدر ماينشغل بحب غير اللَّه ينقص منه حب اللَّه .

• ومرتبة الخلّة أعلى مقامات المحّبة ، وهي للخليلين محمد وإبراهيم صلى اللَّه عليهما وسلّم .

و«الخلة » : هي المحبة التي تخلّلتْ روح المحب وقلبه ، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب ، كما قيل :

قد تخللت مسلكَ الروح مني　　وبذا سُـمّي الخليلُ خليـلاً

وهذه المرتبة انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى اللَّه عليهما وسلم، كما صحّ عنه ﷺ أنه قال : « **لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً دون ربي ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن اللَّه اتخذ صاحبكم خليلاً** »[1] .

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود .

وقال ﷺ : « **لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً ، لاتخذت ابن أبي قحافة خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله** »[١] .

وقال ﷺ: « **إن الله اتخذني خليلاً ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً** »[٢] .

أطيب الحياة أن تكون محباً لله محبوباً :

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، عن النبي ﷺ قال : « **يقول الله عز وجلّ: مَنْ عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذ بي لأُعيذنه ، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته** »[٣] .

قال ابن القيم : « أطيب الحياة : حياة هذا العبد ؛ فإنه محب محبوب ، ومتقرّب إلىٰ ربه ، وربه قريب منه ، قد صار له حبيبه لفرط استيلائه علىٰ قلبه، ولهجه بذكره ، وعكوف همته علىٰ مرضاته ، بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله ، وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه ؛ فإن سمع سمع بحبيبه ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشىٰ مشىٰ به .

فإن صعب عليك فهْم هذا المعنىٰ ، وكون المحب الكامل المحبّة يسمع ويبصر ويبطش ويمشي بمحبوبه ، وذاته غائبة عنه ؛ فاضرب عنه صفْحًا وخلّ هذا الشأن لأهله .

خلّ الهـــــوى لأناسٍ يُعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبهُ

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود .

(٢) رواه مسلم والحاكم في « المستدرك » عن جندب بن سمرة .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » كتاب الرقائق باب التواضع .

إن المحب يشرع أولاً في التقربات بالأعمال الظاهرة ، وهي ظاهر التقرّب، ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب ، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكلّيته ، بروحه وقلبه ، وعقله وبدنه ، ثم يترقّى من ذلك إلى حال الإحسان ، فيعبد اللَّه كأنه يراه ، فيتقرّب إليه حينئذ من باطنه بأعمال القلوب ؛ من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخشية ، فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح ، والجود في محبة حبيبه بلا تكلّف ، فيجود بروحه ونفسه ، ونَفَسه وإرادته ، وأعماله لحبيبه حالاً لا تكلّفا .

فإذا وجد المحبّ ذلك فقد ظفر بحال التقرّب وسرّه وباطنه ، وإن لم يجده فهو يتقرّب بلسانه وبدنه وظاهره فقط ، فليدُم على ذلك ، وليتكلّف التقرّب بالأذكار والأعمال على الدوام فعساه أن يحظى بحال القرب .

ووراء هذا «القرب الباطن » أمرآخرأيضًا ، وهو شيء لا يعبّر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى اللَّه ؛ رسول اللَّه ﷺ عن هذا المعنى ؛ حيث يقول حاكيًا عن ربه تبارك وتعالى : « **مَنْ تقرّب مني شبراً تقرّبت منه ذراعًا، ومن تقرّب مني ذراعًا تقرّبت منه باعًا ، ومَن أتاني يمشي أتيته هرولة** » فيجد هذا المبحث في باطنه ذوْق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًا .

فذكر من مراتب القرب ثلاثة ، ونبّه به على ما دونها وما فوقها ، فذكر تقرّب العبد إليه بالبرّ ، وتقرّبه سبحانه إلى العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرّب الذراع ، فيجد ذوق تقرّب الربّ إليه باعًا ، فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني ؛ أسرع المشى حينئذ إلى ربه ، فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولة ، وها هنا منتهى الحديث ، منبّهًا على أنه إذا هرول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه ، فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء ، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم

تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، أو إحالة على المراتب المتقدّمة ، فكأنه قيل له : وقِس على هذا .

فعلى قدر ما تبذل منك متقربًا إلى ربك يتقرب إليك بأكثر منه ، وعلى هذا فلازم هذا التقرّب المذكور في مراتبه ؛ أيْ : من تقرّب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه ، وإرادته وأقواله وأعماله ؛ تقرّب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرّب عبده إليه .

ما زلتُ أنزلُ من ودادك منـــزلاً تتحيّرُ الألبـــاب عنـــد نزوله

وليس القرب في هذه المراتب كلها قرب مسافة حسيّة ولامُماسة ، بل هو قرب حقيقي ، والرب تعالى فوق سماواته على عرشه ، والعبد في الأرض ، وهذا الموضع هو سرّ السلوك وحقيقة العبودية .

ومِلاك هذا الأمر : هو قصد التقرّب أولاً ، ثم التقرّب ثانيًا ، ثم حال القرب ثالثًا ؛ وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب .

وحقيقة هذا الانبعاث : أن تفنى بمراده عن هواك ، وبما منه عن حظّك ، بل بضير ذلك هومجموع حظك ومرادك ، وقد عرفت أن من تقرّب إلى حبيبه بشيء جُوزي على ذلك بقرب هوأضعافه ، وعرفت أن أعلى أنواع التقرّب : تقرب العبد بجملته ـ بظاهره وباطنه ـ وبوجوده إلى حبيبه ، فمن فعل ذلك فقد تقرّب بكلّه ، ولم تبق منه بقيّة لغيرحبيبه ؛ كما قيل :

لا كان من لســـواك فيه بقيــةٌ يجد السبيـــل بها إليه العُـــذّلُ

وإذا كان المتقرّب إليه بالأعمال يعطي أضعاف ما تُقُرِّب به ، فما الظن بمن أُعطي حال التقرّب وذوقه ووجده ؟! فما الظنّ بمن تقرّب إليه بروحه ، وجميع إرادته ، وهمته وأقواله وأعماله؟!

وهذه الحياة : هي حياة الدنيا ونعيمها في الحقيقة ، فمن فقدها ففقْده لحياته الطبيعية أولى به .

هذي حياة الفتى فإن فُقِدتْ ففقده للحياة أليقُ به

فلا عيش إلا عيش المحبين الذين قرّت أعينهم بحبيبهم ، وسكنت نفوسهم إليه ، واطمأنت قلوبهم به ، واستأنسوا بقربه ، وتنعّموا بحبه ، ففي القلب فاقة لا يسدّها إلا محبة اللَّه والإقبال عليه والإنابة إليه ، ولا يلّم شعثه بغير ذلك ألبتة ، ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم، وآلام وحسرات ؛ فإنه إن كان ذا همة عالية تقطّعت نفسه على الدنيا حسرات ، فإن همته لا ترضى فيها بالدون، وإن كان مهينًا خسيسًا فعيشه كعيش أخس الحيوانات ، فلا تقرّ العيون إلا بمحبة الحبيب الأول .

أبو بكر الصديق يسبق الأمة بحبه للّه :

عن بكر المزني قال : ما فاق أبو بكر أصحاب محمد ﷺ بصوم ولا صلاة؛ ولكن بشيء وقر في قلبه .

قال إبراهيم : بلغني عن ابن عليّة أنه قال : في عقيب هذا الحديث : الذي كان في قلبه الحب للّه عز وجلّ والنصيحة لخلقه[١] .

ابن عمر يسأل اللّه حبه :

كان ابن عمر يدعو على الصفا والمروة وفي مناسكه : « اللّهم اجعلني ممن يحبك ، ويحب ملائكتك ، ويحب رسلك ، ويحب عبادك الصالحين، اللّهم حببني إليك وإلى ملائكتك ، وإلى رسلك وإلى عبادك الصالحين »[٢] .

---

(١) « استنشاق نسيم الأنس » لابن رجب الحنبلي (ص١٣) ـ المكتب الإسلامي .
(٢) المصدر السابق (ص٤١) .

والعباس عمّ النبي ﷺ يوصي ابنه حبر القرآن بحب اللَّه :

عن عبد اللَّه بن إبراهيم القرشي قال : لما نزل بالعباس بن عبد المطلب الموت قال لابنه عبد اللَّه : إني موصيك بحب اللَّه وحب طاعته ، وخوف اللَّه وخوف معصيته ، وإنك إذا كنت كذلك لم تكره الموت متى أتاك [1] .

وحكيم بن حزام سيد شعاره الحب :

كان ـ رضي اللَّه عنه ـ يطوف بالبيت ويقول : لا إله إلا اللَّه ، نعم الربّ ونعم الإله ، أحبّه وأخشاه [2] .

قال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه أحبّه ، وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا وتروّحه في الآخرة .

سيروا إلى ربكم بحبه سيراً جميلاً :

قال خُليد العصري : يا إخوتاه : هل منكم من أحد لا يحبّ أن يلقى حبيبه ؟ ألا فأحبوا ربكم عز وجل وسيروا إليه سيراً جميلاً ، لا مصعداً ولا مميلاً [3] .

وللَّه در القائل :

أروحُ وقد ختمتُ على فؤادي ... بحبِّك أنْ يحلَّ به سواكا
فلو أني استطعتُ غضضتُ طرفي ... فلم أنظر به حتى أراكا
أحبُّك لا ببعضي بلْ بكلّيّ ... وإنْ لم يُبْقِ حبُّك لي حِراكا
وفي الأحباب مختصٌّ بوجْدٍ ... وآخرُ يدّعِيَ معه اشتراكا

---

(١) « استنشاق نسيم الأنس » (ص١٢٨) .
(٢) المصدر السابق (ص١٢٩) .
(٣) المصدر السابق (ص١٢٧ ، و« حليه الأولياء » (٢/ ٢٣٢) ، و« صفة الصفوة » (٣/ ٢٣٧) .

وكلٌّ يـدعي حبـّا لـــربي وربي لا يُقـرّ لهم بـذاكـا
إذا اشتبكتْ دمـوعٌ في خـدودٍ تبيّـن مَـن بكى ممّـنْ تباكـا
فأما من بكـى فيـذوبُ وَجـداً وينطق بالهوى من قـد تباكـا

قال نعيم بن صبيح السعدي : همم الأبرار متصلة بمحبة الرحمن ، وقلوبهم تنظر إلىٰ موضع العزّ من الآخرة بنور أبصارهم .

ضيغم بن مالك السيد المحب الوَجِل :

قال ـ رحمه اللَّه ـ يومًا لمولىٰ له : « منعني ـ واللَّه ـ حب اللَّه من الاشتغال بحبّ غيره ، ثم سقط مغشيّا عليه »[(١)] .

« وكان رحمه اللَّه يقول هو ساجد : إلهي ، كيف عزَفَتْ قلوب الخليقة عنك ؟! وربما أصابته الفترة ، فإذا وجد ذلك اغتسل ، ثم دخل بيتًا فأغلق بابه وقال : إلهي ، إليك جئت . . . فيعود إلىٰ ما كان من الركوع والسجود .

قالت له أمه ذات يوم : ضيْغَم . . . قال : لبيك يا أماه .

قالت : كيف فرحك بالقدوم علىٰ اللَّه؟ فصاح صيْحة لم يسمعوه صاح مثلها قط ، وسقط مغشيّا عليه فجلست العجوز تبكي عند رأسه وتقول : بأبي أنت !! ما تستطيع أن نذكر بين يديك شيئًا من أمر ربك »[(٢)] .

فتح الموصلي :

قال المعافىٰ بن عمران ياقوتة العلماء : « كلّمت فتْحًا الموصلي في شيء، فقال : لم تترك المحبة للَّه في قلوب أوليائه موضعًا لمحبة غيره » .

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٣) .
(٢) « صفة الصفوة » (٣/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) .

وعتبة الغلام سيد من سادات المحبين :

« قال سليم الحنيف : رمقتُ عُتبة ذات ليلة ، فما زاد ليلته تلك على هذه الكلمات : إن تعذبني فإني لك محب ، وإن ترحمني فإني لك محب، فلم يزل يرددها ويبكي حتى طلع الفجرُ .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول : تُراك مولاى تعذب محبيك وأنت الحي الكريم؟!

قال عنبسة الخواص : فلم يزل يرددها حتى واللَّه أبكاني .

وكان عتبة ـ رحمه اللَّه ـ يقول : من عرف اللَّه أحبه ، ومن أحبّ اللَّه أطاعه ، ومَن أطاع اللَّه أكرمه ، ومن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه في جواره فطوباه وطوباه وطوباه ، فلم يزل يقول : وطوباه حتى خرّ ساقطًا مغشيًا عليه »[1] .

كلاب بن جري المحب :

كان ـ رحمه اللَّه ـ يقول في سجوده : وعزتك ، لقد خالط قلبي من محبتك ما يكلّ لساني عمّا أجد منه في نفسي .

يحيى بن معاذ أنموذج عال للمحب الغالي :

للَّه دره وهو يقول : « عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟! ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ؟! وحبه يدهش العقول فكيف وده؟! ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه ؟!

وقال : مثقال خردلة من الحبّ أحب إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب .

---

(١) « حلية الأولياء » (٦/ ٢٣٤ـ٢٣٦) .

وقال : قلب المحب يهيم بالطيران، وتكلمه لدغات الشوق والخفقان .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ : « لو أدركت القلوب كنه المحبّة لخالقها ، لانخلعت مفاصلها وَلَهًا ، ولطارت الأرواح إليه من أبدانها دهشًا ، سبحان من أغفل الخليقة عن كنْه هذه الأشياء ، وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأشياء » .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ : أولياؤه أُسراءُ نعمه ، وأصفياؤه رهائن كرمه ، وأحباؤه عبيدُ منَنه ، فهم عبيد محبة لا يُعتقون ، ورهائن كرم لا يُفكّون ، وأسراء نعم لا يُطلَقون .

قال ـ رحمه اللَّه ـ :

طرب الحبّ على الحبِّ مع الحبِّ يدومْ

عجبـــا لمــن رأينـــا ... هُ علـى الحب يلـــومْ

حـول حبّ اللَّه مـا عشـ ... ـتُ مع الشوقِ أحـــومْ

وبـــه أقعدُ مــا عشـ ... ـتُ حيــاتي وأقـــومْ

* * *

وقال ـ رحمه اللَّه ـ

نفسُ المحبِّ إلى الحبيب تَطلّـــعُ ... وفؤادهُ من حبـه يتقطّــعُ

عزٌّ الحبيب إذا خــلا في ليلـــه ... بحبيبه يشكو إليه ويضـــرَعُ

ويقـومُ في المحراب يشكو بثّـــهُ ... والقلـبُ منه إلى المحبة ينـزعُ

* * *

وانظر إليه كيف يستمطر الدمع حين يقول :

أموت بدائي لا يُصــاب دوائيــا ... ولا فــرجٌ ممَّا أرى في بلائيـــا

يقولون يحيي جُنَّ من بعد صحـَّة ولا يعلم العذّال ما في حشائيا
إذا كان داء المرء حب مليكـــــه فمن غيره يرجو طبيباً مداويّــا
ذروني وشأني لا تزيدوا كربتــــي وخلّوا عناني نحو مولى المواليـا
ألا فاهجروني وارغبوا في قطيعتي ولا تكشفوا عمّا يجنّ فؤاديــا
كلوني إلى المولى وكفّوا ملامتــي لآنس بالمولى على كل مابيــــا

* * *

سمنون وما أدراك ماسمنون ؟!

قال له بعض الخلفاء : يا سمنون ، كيف وصلتَ إليه ؟ قال : ما وصلتُ حتىٰ عملتُ ستة أشياء : أمَتُّ ما كان حيّا وهو النفس ، وأحييتُ ما كان ميّتًا وهو القلب ، وشاهدت ما كان غائبًا وهو الآخرة ، وغيّبت ما كان شاهدًا وهو الدنيا ، وأبقيْت ما كان فانيًا وهو المرادُ ، وأفنيتُ ما كان باقيًا وهو الهوىٰ ، واستوحشت مما تأنسون ، وأنست مما تستوحشون .

قال ـ رحمه اللَّه ـ :

لقد كان يسبي القلبَ في كلِّ ليلةٍ ثمانون بلْ تسعون نفسًا وأرجــحُ
يهيمُ بهـــذا ثـــم يألفُ غيــــرَهُ ويــسلُوهُمُ من فوره حين يُصبــحُ
وقــد كان قلبي خاليًا قبلَ حُبِّكُمْ وكان بحبِّ الخلقِ يلهو ويمــرحُ
فلمـــا دعا قلبي هـــواك أجابَــه فلستُ أراهُ عن خبائك يَبــْرَحُ
حُرِمْتُ مُنائي منك إن كنتُ كاذبًا وإنْ كنتُ في الدنيا بغيرك أفــرحُ
وإنَ كان شيءٌ في الوجود سواكمُ يَقَرُّ به القلبُ الجريحُ ويفــــرحُ
إذا لعبتْ أيدي الهـــوى بمُحبكم فليس له عن بابكمُ متزَحْـــزَحُ

فإن أدركتْهُ غربـــةٌ عن دياركـم فحبُّكم بـين الحشا ليس يَبْـرحُ
وكمْ مشترٍ في الخلقِ قد سـام قلبُهُ فلم يـره إلا لحبـك يَصلـحُ
هوى غيركم نارٌ تلـظَّى ومَحْبَـسٌ وحُبُّكُمُ الفردوسُ بل هو أَفْسَحُ

* * *

الجنيد : جبرك اللَّه يا تاج العارفين :

قال الكتاني : جرت مسألة المحبة بمكة أيام الموسم ، فتكلم فيها الشيوخ ، وكان الجُنيد أصغرهم سنّا ، فقالوا : هات ما عندك يا عراقي .

فأطراق رأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : « عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبَه أنوار هيبته ، وصفا شربه من كأس ودّه ، وانكشف له الجبّار من أستار غيْبه ، فإن تكلمّ فباللَّه ، وإن نطق فعن اللَّه ، وإن تحرّك فبأمر اللَّه ، وإن سكت فمع اللَّه ؛ فهو باللَّه وللَّه ومع اللَّه » ، فبكى الشيوخ وقالوا : « ما على هذا مزيد، جبرك اللَّه يا تاج العارفين » .

أرواح المحبين :

اعلم يا أخي أن أرواح المحبين خرجت بالعبادة من أبدان العادات ، وهي في حواصل طيْرالشوق ، ترفرف على أطلال الوجْد ، وتسرحُ في رياض الأنس ؛ هؤلاء عندهم شغل عن كل شيء سوى محبوبهم ، ما ترى عيونهم إلا « فبي يسمع وبي يُبصر » .

قال أحد الصالحين : سبحان من أخرج قلوب المشتاقين في رياض الطاعة بين يديه ، سبحان من أوصل الفهم إلى عقول ذوي البصائر ، فهي لا تعتمد إلا عليه ، سبحان من أورد حياض المودة نفوس أهل المحبة ، فهي لا تحنّ إلا إليه».

وقال أحدهم : إن للَّه عز وجل ـ عبّادًا قدح في قلوبهم زندَي الشوق والمَوْق ، فأرواحهم تسرح في الملكوت ، وتنظر ما ذُخِر لها في حُجُب الجبروت ؛ أولئك قوم آووا إلىٰ كنف محبته ورحمته » .

ذو النون المحب المشتاق :

قال ـ رحمه اللَّه ـ « إن للَّه عبادًا ملأ قلوبهم من صفاء محض محبته ، وهيّج أرواحهم بالشوق إلىٰ رؤيته ، سبحان موفِّقهم ومُؤنسِ وحشتِهم وطبيب أسقامهم ، إلهي ، لك تواضعت أبدانهم منك إلىٰ الزيادة ، وانبسطت أيديهم إلىٰ ما طيَّبت به عيشهم وأدمْتَ به نعيمهم ، بك أنِست محبة المحبين وعليك معوَّل شوق المشتاقين » .

هم الذين خدموه خدمة الأبرار الذين تدفّقت قلوبهم ببره وعاملوه ببره .

ذهبت الآلام عن أبدانهم لما أذاقهم من حلاوة مناجاته ، ولما أفادهم من ظرائف الفوائد من عنده .

هاموا بالشوق فلا يحطوُّن رحال الهمّ إلا بفِناء محبوبهم ، فلو رأيتهم لرأيت أقوامًا أزعجهم الهَمّ عن أوطانهم ، فهممهم إلىٰ مولاهم سائرة ، وقلوبهم إليه من الشوق طائرة .

فداخل هموم القوم للخلق وحشة   فصاح بهم أنس الجليل إلى الذكـر

فأجسادهم في الأرض هونًا مقيمةٌ   وأرواحهم تسري إلى معدن الفخـرِ

فهذا نعيم القـوم إن كنت تبتغي   وتعقلُ عن مولاك آداب ذوى القـدْرِ

حتى لا يدّعي الخليّ حرقة الشجيّ :

قيل للبيضاء بنت الفضل : هل للمحب للَّه دلائل يُعرف بها ؟ فقالت : والمحب للسيد لا يخفىٰ ، لو جهد المحب للسيد أن يخفىٰ ما خفي .

فقيل لها : صفيه ، قالت : لو رأيت المحب للَّه ـ عز وجل ـ لرأيت عجبًا ؛ من والهٍ ما يقرّ على الأرض ، طائر مستوحش ، أنسه في الوحدة ، قد مُنع الراحة ، طعامه الحبّ عند الجوع ، وشرابه الحب عند الظمأ ، لا يملّ من طول الخدمة للَّه تعالىٰ .

• وقال أبو عبد الرحمن المغازلي : لا يُعطىٰ طريق المحبة غافل ولا ساه ، المحب للَّه عز وجل طائر القلب ، كثير الذكر ، متسبِّبٌ إلىٰ رضوانه بكل سبيل .

وقال محمد بن النضر الحارثي : ما يكاد يملّ القربة إلى اللَّه عز وجل محب للَّه عز وجل ، ولا يكاد يسأم من ذلك .

• وقال ابن عيينة : لا تبلغون ذروة هذا الأمر حتىٰ لا يكون شيء أحب إليكم من اللَّه عز وجل ، فمن أحبّ القرآن فقد أحبّ اللَّه .

• وقال عروة البارقي : حبّ اللَّه عز وجل : حب القرآن ، وحب رسول اللَّه ﷺ العمل بسنته .

• قال الحسن ـ رحمه اللَّه ـ : ادعىٰ قوم علىٰ عهد رسول اللَّه ﷺ فابتلاهم اللَّه بهذه الآية ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (١) .

قال أحد العباد : إذا سئم البطالون من بطالتهم ، فلن يسأم محبوّك من مناجاتك وذكرك .

• وكان عبد العزيز بن سليمان العابد يقول في كلامه : أنت أيها المحبّ تزعم أن محبتك للَّه تحقيق ، أما واللَّه لو كنت كذلك لضاقت عليك الأرض بما رحبت حتىٰ تصل إلىٰ رضا حبيبك ، وإلىٰ النظر إلىٰ وجهه في

---

(١) سورة آل عمران الآية (٣١) .

دار كبريائه وعزّه .

• قال مسلم بن يسار : ما تلذّذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة اللَّه عز وجل ، عجبتُ للخليقة كيف أنست بسواك !! بل عجبتُ للخليقة كيف استنارت قلوبهم بذكر سواك ؟ .

وكان أبو محمد حبيب العجمي يخلو في بيته ، ثم يقول : من لم تقرّ عينه بك فلا قرّت ، ومن لم يأنس بك فلا أنِس .

قال أحمد بن أبي الحواري : دخلتُ على أبي سليمان فرأيته يبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟

قال : « ويحك يا أحمد ! إذا جنّ الليل ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، افترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وأشرف الجليل جلّ جلاله عليهم » .

للَّه در من تلذذ بكلامه ، واستروح إلى مناجاته ، وهو مطلع عليهم في خلواتهم يسمع أنينهم ، ويرى بكاءهم وحنينهم ، فإذا وردوا القيامة عليه أسفر لهم عن وجهه ومنحهم رياض قدسه .

قريب الوجد ذو مرمى بعيد عن الأحرار منهم والعبيدِ
غريب الوصف ذو علم غريب كأن فؤاده زبر الحديدِ
لقد عزت معانيه وجلّتْ عن الأبصار إلا للشهيد
يرى الأعياد في الأوقات تجري له في كل يومٍ ألفُ عيد

هنيئاً لمن أضحى وأنت حبيبه ولو أن لوعات الغرام تذيبه
وطوبى لصبٍّ أنت ساكن سرّه ولو بان عنه إلفه وقريبُهُ
وما ضرّ صبّا أن يبيتَ وماله نصيب من الدنيا وأنت نصيبُه
ومن تك راض عنه في طيّ غيبه فما ضرّه في الناس من يستغيبُه

فيا علة في الصدر أنت شفاؤها ويا مرضاً في القلب أنت طبيبه
عُبيدك في باب الرجا متضرّع إذا لمْ تُجبه أنت من ذا يُجيبه
بعيدٌ عن الأوطان يبكي بذلة وهل ذاق طعم الذلّ إلا غريبه
تصدّق على مَنْ ضاع منه زمانه ولم يدر حتى لاح منه مشيبه[1]

* * *

(١) «استنشاق نسيم الأنس» (ص١٠٤).

الذين يغضبــون

لمحــارم الله إذا اســتحلت

الذين يغضبون لمحارم الله إذا استحلت

« والذين يغضبـــون لمحـــارمي إذا استُحِلَّتْ ، كما يغضب النمر إذا حَرِب»[1] .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **المؤمن يغار واللَّه أشد غيْراً** »[2] .

وقال النبي ﷺ : « **أتعجبون من غيْرة سعد ؟ ! لأنا أغير منه ، واللَّه أغيـــر منـــي** »[3] .

والغيرة المحمودة هي غيرة العبد لربه لا عليه ، وهي نوعان : « غيرة من نفسه ، وغيرة من غيره ، فالتي من نفسه : أن لا يجعل شيئًا من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربه ، والتي مِن غيره : أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون ، ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاوِنون .

وغيرة العبد من نفسه : أهم من غيرته من غيره ، فإنك إذا غِرْت من نفسك صحّتْ لك غيرتك للَّه من غيرك ، وإذا غِرْت له من غيرك ، ولم تغرْ من نفسك ، فالغيرة مدخولة معلولة ولا بد . . فتأملها وحقق النظر فيها»[4] .

قال ابن القيم : « ومِلاك الغيرْة وأعلاها ثلاثة أنواع : غيرة العبد لربه أن تنتهك محارمه وتُضيَّع حدوده ، وغيرته على قلبه أن يسكن إلى غيره

---

(١) أي إذا اشتد غضبه .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) «مدارج السالكين » (٣/ ٤٤) .

وأن يأنس بسواه ، وغيرته على حُرمته أن يتطلع إليها غيره ، فالغيرة التي يحبها اللَّه ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة ، وما عداها فإنها من خِدع الشيطان»[1] .

لَهْفي على محارم اللَّه :-

لهفي على شرع اللَّه المعطّل المغيب عن ديار المسلمين يستبدل بقوانين الغرب الكافر .

لهفي على القرآن عطلت أحكامه وغاب نوره .

لهفي على السنة انمحى نورها وقلّ اتباعها في زمن علا فيه شأن الذوق والمواجيد .

لهفي على بدع ومنكرات يُدافع عنها .

لهفي على عقيدة الصحابة يُقَدَّمُ عليها العقل وعلم الكلام ومنطق أرسطو .

لهفي على أحاديث الرسول ﷺ تردّ بالهوى والعقل والذوق .

لهفي على أنوار الخلافة التي ضاعت ، وظلام الطواغيت الذي انتشر .

لهفي على العبودية للَّه استبدلوها بمظاهر الشرك من دعاء غير اللَّه والاستغاثه بغير اللَّه . . ماذا بقي من الإسلام في دياره ؟!

لهفي على أعراض المسلمات في البوسنة والهرسك وكوسوفوا وفلسطين وكشمير والفلبين تنتهَك ، وتغتصب الطاهرات حتى بعد موتهن .

رب وامعتصماه انطلقت ... ملء أفواه الصبايا اليُتَّمِ
صادفت أسماعنا لكنها ... لم تصادف نخوة المعتصمِ

---

(١) «روضة المحبين» لابن القيم (ص٣٢٠) .

لَهْفِي على الإسلام من أشياعه ... لَهْفِي على القرآن والإيمان
لَهْفِي عليه تنكّرت أعلامُهُ ... إلا على الخِرِّيتِ في ذا الشّأن
لَهْفِي عليه أصبحتْ أنوارُه ... محجوبةً عن سالكٍ حيران
لَهْفِي عليه أصبحتْ أنصارُهُ ... في قلّةٍ في هذه الأزمان
لَهْفِي عليهم أصبحوا في ضَيْعة ... أنوارهم تَخْفَى على العميان
لَهْفِي عليهم أُوْجدوا في أمة ... قَنعت من الإسلام بالعُنْوان
لا يُعْرَفُ المعروفُ فيما بيننا ... والنُّكْرُ مألوفٌ بلا نكران
تَرَكَ المنابرَ مَنْ يقومُ بحقها ... من كل ذي لَسْنٍ وذي عرفان
ونزا عليها سَفْلَةٌ يا ليتهم ... قد أُدْرِجُوا من قَبْلُ في الأكفان
كم يأمرون بمُحْدَثات فوقها ... تقضي على سُنَنٍ سُنِنّ حسان
تبكي المنابرُ منهمُوا وتَوَدُّ لَوْ ... تَنْدَكُّ تحتهمُ إلى الأركان
ثكلتهمُ الآباءُ إنَّ حياتَهُمْ ... موتٌ لِسُنَّة خاتَم الأديان
لا يرجعون لآيةٍ أو سنةٍ ... أو سيرةِ الماضين بالإحسان
بل يرجعون لرأيِ من أَلْقَوْا لهم ... بأزِمّة التقليد والأَرْسَان
وكذاك يرجعُ من تَصَوّفَ فيهمُوا ... للذوق ولِتَخَيُّلٍ شيطاني
وكذا رءوسهم الطغاة فإنهم ... لم يرفعوا رأساً بذا الفرقان
ما حكَّمُوا فيهم شرائعَ دينهم ... والعدلُ فيها قائمُ الأركان
بل حكموا في الناس آراءً لهم ... من وحي شيطانٍ أخي طغيان
وَيْحَ الشريعة من مَشَايِخِ جُبَّةٍ ... واللابسين لنا مُسُوكَ الضّأن
ورءوسُ سُوْءٍ لا اهتمامَ لهم ... بدينٍ قامَ أو قد خرّ للأذقان

***

لهفي على ديار كرّمها اللّه في كتابه تستباح لقتلة الأنبياء وإخوان القردة والخنازير .

لهفي على أوامر اللّه التي يستهان بها ، من التهاون بالفرائض والسنن، لهفي على مسرى الرسول ﷺ تُركت لليهود بعرض حقير .

لا يعلم إلا اللّه ما سيكون إن لم يأمر الربانيون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والوحل والحضيض الذي تعيش فيه الأمة يدمي القلوب والعيون، والمسلمون ينحدرون من هاوية إلى هاوية ، ويتهافتون من خراب إلى خراب ، ألِفت الأمة الآثام ، حتى أمست جزءاً من كيانها تتمسك به وتدافع عنه ، حالهم مثل حال الأمم التي قال اللّه عز وجل فيها : ﴿ **تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ** ﴾[1] .

جعل القبيح في عيونهم حسنًا ، والمرّ في مذاقهم حلواً ، وكرّه لهم الاستقامة ووحي السماء ، فهم لا يرتضون إلا ما ابتدعوا ، ولا يقبلون عنه بديلاً .

كان القذر الجنسي يتم في خفاء ، ثم صار يبدو على استحياء ،ثم تواضع عليه الرعاع ،ثم صار قانونًا يُعمل به ، ثم انعقدت مؤتمرات عالمية تدعوا إليه ولا ترى فيه عوجًا فمن يُعرّي هؤلاء العراة ويفضحهم غيرة لدين الله ومحارمه .

ناشئة حديثة تكره اللّه ورسوله ، وتنقم على الإسلام ووحيه و تريد باسم العلمانية أن تعيدنا إلى جاهلية عمياء .

من لهؤلاء الأقزام يصدهم غيرة لدين اللّه إلا الجبال الشم من الربانيين الذين ذاقوا حلاوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاستعذبوا ما

---

(١) سورة النحل الآية (٦٣) .

يلاقون، ابتغاء وجه ربهم الأعلى .

يا جيل المصاحف .. يا خمير الأرض .. يا غرس الشهادة

أكلت مواسمنا الجنادب ، واستبدّ بنا الحواة ، وغادرتنا آخر السحب الحميمة في السماء ...

يا جيل المصاحف .. يا أصحاب الغيرة لدين الله لكَمْ تباطأ في الرحيل عن القرى عام الرّمادة .

أخي : عزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم، آمر بالمعروف ساع في سد هذه الثُلْمة ، متكفل بعملها متقلد لتنفيذها، مجدد لهذه السنة الدائرة ، ناهض بأعبائها ، متشمر في إحيائها ، مستأثر من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدٌ بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها .

قال تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (١) .

أهل الغيرة على دين الله يواجهون هبوط الأرواح وكلل العزائم ، يعلمون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبودية ودينونة لله وغيرة على محارمه في أبهى صورها .

● والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغيرة على محارم الله صيانة للأمة من أن يعبث بها كل ذي هوى ، وكل ذي شهوة .

● بدون الغيرة على محارم الله تتحول الحياة إلى مستنقع آسن : حكم بغير شرع الله ، اقتصاد يقوم على الربا ، مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة

---

(١) سورة آل عمران الآية (١١٠) .

إلا في حالة الإكراه ، ولا يُعاقب حتىٰ في حالة الإكراه بشريعة اللَّه ، وخمور يُباح تداولها ، ولا يُعاقب شاربها إلا علىٰ حالة السكر البيّن في الطريق العام ، وحتىٰ هذه لا يُعاقب فيها بحدّ اللَّه ، وشذوذ ، . . بل وسب لدين اللَّه ورسـوله .

عن عبد الله بن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا تقوم الساعة حتى يأخذ اللَّه شريطته من أهل الأرض ، فيبقى فيها عَجَاجة لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا** »[(١)] .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إنها ستأتي علي الناس سنون خدّاعة ، يصدق فيها الكاذب ، ويُكذّب فيها الصادق ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويُخوّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة** »[(٢)] ، قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « **السفيه يتكلم في أمر العامّة** »[(٣)] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : « من أشراط الساعة ـ أن يعلو التُّحوتُ الوعولَ» أكذلك يا عبد اللَّه بن مسعود سمعتَه من حِبِّي ؟ قال : نعم ورب الكعبة ، قلنا : وما التُّحوتُ ؟ قال « فسول الرجال ، وأهل البيوت الغامضة ، يُرفعون فوق صالحهم ، والوعول أهل البيوت الصالحة »[(٤)] .

أهل الغيرة لا يُبقون علىٰ منكر وهم قادرون علىٰ تغييره ، ولا يقعدون عن

---

(١) إسناده صحيح : رواه أحمد في « مسنده » (١١/ ١٨١ ـ ١٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .
شريطته : أي أهل الخير والدين ، والأشراط من الأضداد يقع علىٰ الأشراف والأراذل .
والعجاجة والعجاج : الأراذل ، ومن لا خير فيهم .

(٢) الرُّويبضة : تصغير الرابضة ، وهو العاجز الذي بطن عن معالي الأمور ، وقعد عن طلبها ، والتافه الخسيس الحقير.

(٣) إسناده جيد : رواه أحمد في « مسنده » ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٥/ ٣٧ ـ ٣٨) : إسناده حسن ومتنه صحيح ،وقال ابن كثير في « النهاية في الفتن والملاحم » : هذا إسناد جيد .

(٤) رواه الطبراني في « الأوسط » ، وقال الهيثمي : في الصحيح بعضه ، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث وهو ثقة .

معروف وهم قادرون على تحقيقه .

قال رسول اللّه ﷺ : « **أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة** »[(١)] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **أحب الأعمال إلى الله إيمان بالله ، ثم صلة الرحم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** »[(٢)] .

• وقال ﷺ : « **إن من أمتي قوماً يُعطْون مثل أجور أولهم ، ينكرون المنكر**»[(٣)] .

• وقال ﷺ : « **إذا عُمِلت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرَضِيَها كان كمن شهدها** »[(٤)] .

• وقال ﷺ : « **ما من قوم يعمل فيهم المعاصي ، هم أعز وأكثر ممن يعمله ، ثم لم يغيِّروه ، إلا عمّهم اللّه تعالى منه بعقاب** »[(٥)] .

• وقال رسول اللّه ﷺ : « **والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن اللّه أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم** »[(٦)] .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في « الكبير » عن سلمان وقبيصة وابن عباس ،ورواه أبونعيم في «الحلية» عن أبي هريرة وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٠٣١) .

(٢) حسن : رواه أبو يعلي في « مسنده » عن رجل من خثعم ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع» رقم (١٦٦) .

(٣) صحيح : رواه أحمد في « مسنده » عن رجل ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٢٢٢٤).

(٤) حسن : رواه أبو داود عن العرس بن عميرة ، وحسنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٨٩) .

(٥) صحيح : رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن جرير ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٧٤٩) .

(٦) حسن : رواه أحمد والترمذي عن حذيفة ، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٧٠٧٠).

أمثلة وضيئة شفافة في الغيرة :ـ

الإمام القدوة أبو الوليد : عبادة بن الصامت :

عن قبيصة بن ذؤيب ، أن عبادة أنكر على معاوية شيئًا ، فقال : لا أساكنك بأرض ، فرحل إلى المدينة ، قال عمر : ما أقدمك ؟ فأخبره بفعل معاوية ، فقال له : ارحل إلى مكانك ، فقبّح اللَّه أرضًا لست فيها وأمثالك، فلا إمرة له عليك [١] .

أبو أيوب الأنصاري ينكر عَلَى من ؟ عَلَى عبد اللَّه بن عمر !!

عن سالم بن عبد اللَّه بن عمر قال : أعرستُ ، فدعا أبي الناس ، فيهم أبو أيوب ، وقد ستروا بيتي بجُنادي أخضر ، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسه ، فنظر فإذا البيت مُستّر ، فقال : يا عبد اللَّه ، تسترون الجُدُر ؟ فقال أبي : واستحيا : غلبنا النساء يا أبا أيوب ، فقال : مَن خشيت أن تغلبه النساء، فلم أخشَ أن يغلبنكَ ، لا أدخل لكم بيتًا ، ولا آكل لكم طعامًا [٢] .

ابن أم مكتوم يقتل من تؤذيه في النبي ﷺ :ـ

عن عبد اللَّه بن معقل قال : نزل ابن أم مكتوم على يهودية بالمدينة كانت تَرْفُقه وتؤذيه في النبي ﷺ ، فتناولها فضربها فقتلها ، فرُفع ذلك إلى النبي ﷺ فقال : أما واللَّه إن كانت لترفقني ، ولكن آذتني في اللَّه ورسوله، فقال النبي ﷺ : « **أبعدها فقد أبطلتُ دمها** » [٣] .

---

(١) « سير أعلام النبلاء » (٢/ ٧) .

(٢) إسناده قوي : أخرجه الطبراني ، والذهبي في « السير » (٢/ ٤٠٨-٤٠٩) .
والجنادي : هو جنس من الأنماط والثياب يستر بها الجدران .

(٣) أخرجه أبو داود وابن سعيد ، وضعفه الألباني في « ضعيف أبي داود » (٩٣٧) وصححه الألباني في « إرواء الغليل » (١٢٥١) .

والصحابي الأعمىٰ الذي قتل أم ولد له كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه فينهاها فلا تنتهي فقتلها وقال للنبي ﷺ : « يارسول اللَّه . . كانت تشتمك ، وتقع فيك ، فأنهاها فلا تنتهي ، وأزجرها فلا تنزجر ، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين ، وكانت بي رفيقة ، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذت المِغْول[1] فوضعته في بطنها واتكأت عليها حتىٰ قتلتها ، فقال النبي ﷺ : « **ألا اشهدوا أن دمها هدر** »[2] .

عبد اللَّه بن مغفل يقول لمن يخالف السنة : لا أكلمك أبدًا :

أخرج الشيخان عن عبد اللَّه بن بريدة أن عبد اللَّه بن مغفل رأىٰ رجلاً يخذف فنهاه ، وقال: إن رسول اللَّه ﷺ نهىٰ عن الخذف، وقال: « **إنه لا يرد الصيد ، ولا ينكأ العدو ، ولكنه يكسر السن ويفقأ العين** » فرآه بعد ذلك يخذف ، فقال : أحدثك عن رسول اللَّه ﷺ ثم تخذف ، واللَّه لا أكلمك أبدًا » .

● وعن عمران بن حُصَين ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**الحياء خير كله** » فقال بشير بن كعب : إنا نجد في بعض الكتب : أن منه سكينة ووقارًا ، ومنه ضعفًا ، فغضب عمران بن حصين حتىٰ احمرت عيناه، وقال : أحدثك عن رسول اللَّه ﷺ وتعارض فيه ، وفي رواية «وتحدثني عن صحفك» ولفظ ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » قال عمران : أحدثك عن رسول اللَّه ﷺ وتجيء بالمعاريض ، لا أحدثك بحديث ما عرفتك ، فقالوا : يا أبا نُجيد إنه طيب الهوىٰ . . وإنه . . وإنه ، فلم يزالوا به حتىٰ سكن .

● وحبر القرآن وترجمانه ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ يقول : أيها

---

(١) سيف قصير دقيق .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود والنسائي ، وصححه الألباني في « صحيح أبي داود » .

الناس ، توشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول لكم : قال رسول اللَّه ﷺ وتقولون : قال أبو بكر وعمر !!

• وروىٰ مسلم عن عبد اللَّه بن عمر قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « **لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنّكم** » .

قال سالم بن عبد اللَّه : فقال بلال بن عبد اللَّه : واللَّه لنمنعهن ، قال سالم : فأقبل عليه عبد اللَّه ، فسبّه سبًّا سيئًا ، ما سمعته سبّه مثله ، وقال : أخبرك عن رسول اللَّه ﷺ وتقول : واللَّه لنمنعهن ؟!

• لما قتل هشام بن عبد الملك غيلان الدمشقي ببدعته كتب إليه رجاء بن حيوة : « بلغني أنه دخلك من قبل غيلان وصالح ، فأقرّ باللَّه ، لقتلهما ، أفضل من قتل ألفين من الترك والديلم » .

• والحسن البصري الغيور علىٰ السنّة يقول : « من وقّر صاحب بدعة فقد سعىٰ في هدم الإسلام » .

• وابن أبي ذئب يحدث ابن سماك بن فضل الشهابي بحديث رسـول اللَّـه ﷺ ، فقال له ابن سمّاك : يا أبا الحارث أتأخذ بهذا ؟ فضرب صدره وصاح عليه صياحًا كثيراً ، ونال منه ، وقال : أحدثك عن رسول اللَّه ﷺ وتقول : تأخذ به ؟! نعم آخذ به ، وذلك الفرض عليّ وعلىٰ من سمعه .

• وقال رجل لسفيان الثوري : رجل يكذّب بالقدر ، أأصلي وراءه ؟ قال : لا تقدموه ، قال : هو إمام القرية ، ليس لهم إمام غيره ، قال : لا تـقـدمـوه ، لا تقدموه وجعل يصيح .

• وابن المبارك يقول : « إنا نحكي كلام اليهود والنصارىٰ ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية » .

• وأبو إسحاق الفزاري : هو الذي أدّب أهل الثغر وعلّمهم السنة ،

وكان يأمر وينهىٰ ، وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه .

« يروىٰ أن هارون الرشيد أخذ زنديقًا ، فقال الرجل : أين أنت من ألف حديث وضعتها ؟ قال : فأين أنت يا عدو اللَّه من أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك يتخللانها ، فيخرجانها حرفًا حرفًا » ، وما هذا إلا غيرة للسنّة .

● وأيوب السختياني سيد شباب أهل البصرة : يقول له رجل من أهل الأهواء : أُكلمك كلمة ، قال : لا ، ولا نصف كلمة .

● وسأل رجل الشافعي عن مسألة فقال : روي عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا ؛ فقال السائل : يا أبا عبد اللَّه أتقول بهذا ؟ فارتعد الشافعي واصفر لونه وقال : ويحك ، أي أرض تقلّني ، وأي سماء تظلني ، إذا رويت عن رسول اللَّه ﷺ شيئًا فلم أقل به ؟! نعم ، علىٰ الرأس والعينين ، علىٰ الرأس والعـينين .

وفي رواية : أرأيت في وسطي زِنّارًا ؟ أتراني خرجت من الكنيسة ؟! أقول : قال النبي ﷺ وتقول لي : أتقول بهذا ؟ أروي عن رسول اللَّه ﷺ ولا أقول به ؟ !!

● وقال ـ رحمه اللَّه ـ : حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويحملوا علىٰ الإبل ، ويطاف بهم في العشائر ، ينادىٰ عليهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل علىٰ الكلام .

وقال أيضاً : مذهبي في أهل الكلام تقنيع رءوسهم بالسياط ، وتشريدهم في البلاد .

قال الذهبي : هذا النَّفَس الزكيّ متواتر عن الشافعي .

ودخل الشافعي علىٰ المأمون وعنده بشرا لمريسي ، فقال المأمون : أتدري من هذا ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين ، قال : هذا بشرالمريسي ، قال : فقال

الشافعي لبشر : أدخلك اللّه أسفل السافلين ، مع فرعون وهامان وقارون .

• وشيخ المحدثين وقامع البدع يزيد بن هارون الذي خافه المأمون فما أظهر بدعة خلق القرآن .

قال المأمون : لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت أن القرآن مخلوق .

• وإمام أهل السنة لما قالوا له : ذكروا لابن قُتيلة بمكة أصحاب الحديث فقال : قوم سوء ، فقام الإمام أحمد وهو ينفض ثوبه ويقول : زنديق زنديق زنديق . . ودخل بيته .

• والفضيل بن عياض يقول : من جلس مع صاحب بدعة في طريق ، فجز في طريق غيره ، وقال : من عظم صاحب بدعة ، فقد أعان على هدم الإسلام ، ومن تبسّم في وجه مبتدع ، فقد استخف بما أنزل اللّه على محمد ﷺ .

• ودخل عبد العزيز الكناني على ابن أبي دؤاد في مرضه وقال له : لم آتك عائداً ، بل لأحمد اللّه أن سجنك في جلدك .

الأوزاعي يصدع عبد اللّه بن علي بمرّ الحق :ـ

رحم اللّه الأوزاعي إمام الشام :

لما فرغ عبد اللّه بن علي عمّ السفّاح من قتل بني أميّة ، وكان قتل يومئذ نيّفًا وسبعين ، أرسل إلى الأوزاعي ، ودخل الأوزاعي مجلس عبد اللّه وجعل يتخطى القتلى ، قال الأوزاعي : « قلت لأصدقنه ، واستبسلت للموت » .

فقال عبد اللّه : « يا أوزاعي ، ما تقول في دماء بني أمية؟ قلت : جاءت الآثار عن رسول اللّه ﷺ أنه : «**لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث**» الحديث .

فنكت بالخيزرانة نكتًا شديدًا ، وأطرق مليّا ، ثم رفع رأسه ، فقال : يا أوزاعي ، ما تقول في أموال بني أميّة ؟

فقلت : إنْ كانت لهم حرامًا فهي عليك حرام ، وإن كانت لهم حلالاً فما أحلها اللَّه لك إلا بحقها » . . . وقام الأوزاعي .

قال ـ رحمه اللَّه ـ « فقمتُ ، فجعلتُ لا أخطو خطوة إلاّ قلت : إن رأسي يقع عندها » .

قال الذهبي في « السير » (٧/ ١٢٥) : « قد كان عبد اللَّه بن علي ملكًا جبّارًا، سفّاكًا للدماء ، صعب المراس ، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمرّ الحق كما ترىٰ ، لا كخلْقٍ من علماء السوء ، الذين يُحسِّنون للأمراء ما يقتحمونه من الظلم والعسْف ، يقلبون لهم الباطل حقًا ـ قاتلهم اللَّه ـ أو يسكتون مع القدرة علىٰ بيان الحق » .

الثوري إمام الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يبول الدم إن لم ينكر :

قال ـ رحمه اللَّه ـ : إني لأرىٰ الشيء يجب عليّ أن آمر فيه وأنهىٰ فأبول دمًا[١] .

ويقول : إني لأرىٰ المنكر ، فلا أتكلم ، فأبول أكدم دمًا[٢] .

قال يحيىٰ بن أبي غُنَيّة : ما رأيت رجلاً قطّ أصفق وجها في اللَّه عز وجل من سفيان الثوري[٣] .

قال عبد اللَّه بن المبارك : إن سفيان دخل علىٰ أبي جعفر ، فقال : حاجتك؟

---

(١) « الجرح والتعديل » لابن أبي حاتم (١/ ١٢٤) .
(٢) « السير » (٧/ ٢٥٩) .
(٣) « الجرح والتعديل » (١/ ١٠٨) .

فقال : حاجتي أن لا تدعوني حتى آتيك ، وأبو جعفر أبو جعفر .

فقال سفيان الثوري : أُدخلت على المهدي ، فقلت له : انظر إلى عمر ابن الخطاب .

فقال : عمر كان له أصحاب . فقلت : فعمر بن عبد العزيز ، فقد كان في فتنة وفي ما كان فيه ، فما تكلّم بشيء إلاّ صار سنّة .

فقال : إن لم أطق ؟ فقلت : اجلس في بيتك .

ابن أبي ذئب إمام قوّال بالحق :

قال فيه الإمام أحمد بن حنبل : كان يُشبّه بسعيد بن المسيب .

فقيل لأحمد : خلّف مثله ؟ قال : لا ، ثم قال : كان أفضل من مالك ، إلا أن مالكًا أشدّ تنقية للرجال منه .

وقال أحمد : هو أورع أقوْل بالحق من مالك [(١)] .

قال ابن أبي ذئب للمنصور : قد هلك الناس ، فلوْ أَعَنْتهم من الفيء .

فقال : ويلك ، لولا ما سددتُ من الثغور ، لكنت تُؤتي في منزلك فُتذبح .

فقال ابن أبي ذئب : قد سدّ الثغور ، وأعطى الناس مَن هو خير منك : عمر - رضي اللّه عنه - فنكّس المنصور رأسه - والسيف بيد المسيب - ثم قال : هذا خير أهل الحجاز .

قال أحمد بن حنبل : ابن أبي ذئب ثقة - قد دخل على أبي جعفر المنصور ، فلم يَهُلْه أن قال له الحق ، وقال : الظلم ببابك فاش ، وأبو جعفر أبو جعفر .

---

(١) « السير » (٧/ ١٤٠ ، ١٤٢) .

الإمام العمري الأمّار بالمعروف :

قال مصعب الزبيري : ما أدركت بالمدينة رجلاً أهيب منه ، وقدم الكوفة ليُخوّف الرشيد باللَّه ، فرجفت لمجيئه الدولة ، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف ، ما زاد من هيْبته ، فردّ من الكوفة .

عبد اللَّه بن عبد العزيز العمري الذي يقول للرشيد : إن الرجل ليُسرف في ماله ، فيستحقّ الحَجر عليه ، فكيف بمن أسرف في مال المسلمين ! ثم مضى وهارون يبكي[١] .

كرز بن وَبَرَة يأمر بالمعروف فيضربونه حتى يغشى عليه :

عن ابن فُضيل عن أبيه أو عن نفسه ، قال : كان كُرز إذا خرج أمر بالمعروف ، فيضربونه حتى يغشى عليه[٢] .

شيخ الإسلام ابن أنعم الإفريقي يقول للسّفاح : جئت لأُعْلِمُك الجور ببلدنا فإذا هو يخرج من دارك:

الإمام القدوة عبد الرحمن بن زيد بن أنعم الإفريقي قاضي إفريقية وعالمها .

كان الثوري يعظمه جداً .

قال إسماعيل بن عيّاش : ولي السفاح ، فظهر جور بإفريقية ، فوفد ابن أنعم على أبي جعفر مُشتكيًا ، ثم قال : جئت لأُعلمك بالجور ببلدنا ، فإذا هو يخرج من دارك !! فغضب ، وهمّ به .

قال له : كيف لي بأعوان ؟ قال : أفليس عمر بن عبد العزيز كان يقول : الولي بمنزلة السوق ، يُجلب إليه ما ينفق فيه[٣] .

---

(١) « صفة الصفوة » (٢/ ١٨٢) .
(٢) « السير » (٦/ ٨٥) .
(٣) « السير » (٦/ ٤١٢) .

شيخ الإسلام أبو نعيم ، الفضل بن دُكين :

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل : قام للَّه بأمر لم يُقم به كبير أحد[١] .

وقال عنه : تراحم به سفيان بن عيينة لما أدخل على الوالي ليمتحنه - أي في القرآن مخلوق أم لا - فقال : « أدركت الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ ، الأعمش فمَن دونه ، يقولون : القرآن كلام اللَّه ، وعنقي أهون من زرّي هذا .

فقام إليه أحمد بن يونس ، فقبّل رأسه - وكان بينهما شحناء - وقال : جزاك اللَّه من شيخ خيراً[٢] .

ابن حنبل إمام أهل السنة نسيج وحده في الغيرة على محارم اللَّه :

مَن في الناس كأحمد ، وكل موقف يتضاءل دون موقفه وثباته في فتنة خلق القرآن ، وثبتت الأمة بثبات إمامها ، يقول للخليفة : « ايتوني بشيء من كلام اللَّه أو سنة رسوله ﷺ » ويضرب بسياط لو ضرب بها فيل لبرك وهو الشيخ الطاعن في السن .

عن علي بن أبي صالح السوّاق قال : كنّا في وليمة باب القبر قال : فجاء أحمد بن حنبل ، فلما دخل نظر إلى كرسي عليه فضة فخرج فلحقه صاحب المنزل ، فنفض يده في وجهه وقال : زيّ المجوس ، زيّ المجوس وخرج »[٣] .

* * *

الإمام البويطي القائل : لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون

---

(١) « السير » (١٠/ ١٤٩) ، و« تاريخ بغداد » (١٢/ ٣٤٩) .
(٢) « تاريخ بغداد » (١٢/ ٣٤٩) ، و« مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي (ص٤٨١) .
(٣) « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي (ص٣٤٨ - ٣٤٩) .

أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم :

سيد الفقهاء يوسف بن يحيى البويطي صاحب الشافعي .

امتحنه والي مصر في محنة خلق القرآن فلم يجُب ، وكان الوالي حسن الرأي فيه ، فقال له : قل فيما بيني وبينك .

قال : إنه يقتدي بي مائة ألف ، ولا يدرون المعنى !! فأمر به فحمل إلى بغداد .

قال الربيع بن سليمان : رأيته على بغل فى عنقه غُلّ ، وفي رجليه قيد ، وبينه وبين الغل سلسلة فيها لبنة - طوبة - وزنها أربعون رطلاً ، وهو يقول : «إنما خلق اللَّه الخلق بـ « كن » ، فإذا كانت مخلوقة ، فكأنّ مخلوقًا خُلق بمخلوق ، ولئن دخلتُ عليه لأصدُقنَّه - يعني الواثق - ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم »[1] .

والإمام نعيم بن حماد يُدفن في قيوده ويقول : « إني مخاصم » :

كان - رحمه اللَّه - شديداً في الرد على الجهمية ، حُمل إلى العراق مع البويطي مقيدَيْن .

قال ابن يونس : حُمل على القول بتلك الفرية ، فامتنع أن يجيب ، فسجن ومات في سجنه وجرّ بأقياده ، فألقي في حفرة ، ولم يكفّن ، ولم يُصل عليه - وأوصى نعيم بن حماد أن يدفن في قيوده وقال : « إني مخاصم» .

* * *

---

(١) « السير » (١٠/ ٦١٠) .

الإمام أحمد بن نصر الخزاعي :

كان أمّاراً بالمعروف ، قوّالاً بالحق ، من أكابر العلماء العاملين .

حُمل من بغداد إلى سامرّاء مقيّدا ، وجلس له الواثق ، فقال له : ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام اللَّه .

قال : أفمخلوق هو ؟ قال : كلام اللَّه . قال : فترى ربك يوم القيامة؟ قال : كذا جاءت الرواية . . . فدعا الواثق بالسيف ، وقام ، وقال : إني لأحتسب خُطاي إلى هذا الكافر ، فضرب عنقه ، بعد أن مدوا له رأسه بحبل ، وهو مقيّد .

شيخ الإسلام ابن الحطيئة وغيرته الشديدة على السنّة :

قال شجاع المدلجي ـ وكان من خيار عباد اللَّه ـ : كان شيخنا ابن الحطيئة شديداً في دين اللَّه فظّا غليظًا على أعداء اللَّه ، ولقد كان يحضر مجلسه داعي الدعاة[1] مع عظم سلطانه ، ونفوذ أمره ، فما يحتشمه ، ولا يكرمه ، ويقول : أحمق الناس في مسألة كذا وكذا : الروافض ؛ خالفوا الكتاب والسنة ، وكفروا باللَّه ، وكنتُ عنده يومًا في مسجده بشرق مصر ، وقد حضره بعض وزراء المصريين ـ أظنه ابن عباس ـ فاستسقى في مجلسه ، فأتاه بعض غلمانه بإناء فضة ، فلما رآه ابن الحطيئة وضع يده على فؤاده ، وصرخ صرخة ملأت المسجد ، وقال : واحَرّها على كبدي ، أتشرب في مجلس يُقرأ فيه حديث رسول اللَّه ﷺ في آنية الفضة ؟! لا ، واللَّه لا تفعل ، وطرد الغلام ، فخرج ، وطلب الشيخ كوزاً قد تثلم ، فشرب واستحيى من الشيخ ، فرأيته واللَّه ـ كما قال اللَّه ﴿**يتجرَّعُهُ ولا يَكَادُ يُسيغُهُ**﴾[2][3] .

(١) قاضي الرافضة الفاطمين : قاضي الخليفة الفاطمي العاضد .

(٢) سورة إبراهيم الآية (١٧) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٢٠/٣٤٦) .

شيخ الإسلام الهروي الأنصاري طود شامخ في الدفاع عن السنة :

قال الذهبي : « كان سيفًا مسلولاً علىٰ المتكلمين ، له صولة وهيبة واستيلاء علىٰ النفوس ببلده يعظمونه . . . وكان طودًا راسيًا في السنّة ، لا يتزلزل ولا يلين ، وقد امتحن مرات وأُوذي ، ونفي من بلده .

قال ابن طاهر : سمعته يقول : عُرضت علىٰ السيف خمس مرات ، لا يُقال لي : ارجع عن مذهبك ، لكن يقال لي : اسكت عمّن خالفك ، فأقول : لا أسكت [(١)] .

وقال الحافظ أبو النضر الفامي : كان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بكر الزمان ، وواسطة عقد المعاني ، وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع المحاسن ، منها نصرة الدين والسنة ، من غير مداهنة ولا مراقبة لسلطان ولا وزير .

شيخ الإسلام بنان الحمّال وغيرته على دين اللّه :

« من يضرب بعبادته المثل ، وقد امتحن في ذات اللّه فصبر ، وارتفع شأنه .

نقل أبو عبد الرحمن السلمي في « محن الصوفية » أن بنانًا الحمال قام إلىٰ وزير خُمارويه صاحب مصر ـ وكان نصرانيًا ـ فأنزله عن مركوبه ، وقال : لا تركب الخيل وغَيِّرْ ، كما هو مأخوذ عليكم في الذمة ، فأمر خمارويه بأن يُؤخذ ويُوضع بين يدي سَبُع ، فطرح ، فبقي ليلة ، ثم جاءوا والسبع يلحسه وهو مستقبل القبلة ، فأطلقه خمارويه واعتذر إليه .

قال أبو علي الروذباري : كان سبب دخولي مصر حكاية بنان الحمّال ؛ وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف ، فأمر به أن يُلقىٰ بين يدي سبع ،

---

(١) « سير أعلام النبلاء » .

فجعل السبع يشمه ولا يضرّه ، فلما أُخرج من بين يدي السبع ، قيل له : ما الذي كان في قلبك حين شمّك ؟ قال : كنت أتفكّر في سؤر السباع ولعابها»(١) .

مثال غالٍ وأنموذج عالٍ في الغيرة : الحافظ عبد الغني المقدسي :

قال عنه الضياء المقدسي :

« أخبرني خالي موفق الدين ، قال : كان الحافظ عبد الغني جامعًا للعلم والعمل ، وكمّل اللَّه فضيلته بابتلائه بأذىٰ أهل البدعة وعداوتهم .

قال الضياء : كان لا يرىٰ منكرًا إلا غيّره بيده أو بلسانه ، وكان لا تأخذه في اللَّه لومة لائم ، وقد رأيته يهريق خمرًا ، فجبذ صاحبه السيف فلم يخف منه ، وأخذه من يده ، . . . وكثيرًا ما كان بدمشق ينكر ويكسر الطنابير والشبّابات ، قال خالي الموفق : كان الحافظ لايصبر علىٰ إنكار المنكر إذ رآه . .

وسمعت أبا بكر بن أحمد الطحّان ، قال : كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلت لهم طنابير ، وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ الطنابير فكسّرها .

قال : فحدثني الحافظ ، قال : فلما كنت أنا وعبد الهادي عند حمّام كافور ، إذا قوم كثير معهم عِصِيّ فخففت المشي ، وجعلت أقول : « حسبي اللَّه ونعم الوكيل » ، فلما صرت علىٰ الجسر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ماكسرت لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر ، قال : فإذا فارس يركض فترجّل ، وقبّل يدي ، وقال : الصبيان ما عرفوك ، ـ وكان قد وضع اللَّه له هيبة في النفوس ـ »(٢) .

---

(١) « السير » (١٤/ ٤٨٨ـ ٤٨٩) .

(٢) « السير » (٢١/ ٤٥٣ـ ٤٥٥) .

قال أبو بكر الطحّان : كان في دولة الأفضل فجعلوا الملاهي عند الدّرج ـ درج جيرون ـ فجاء الحافظ فكسّر شيئًا كثيراً ، ثم صعد المنبر يقرأ الحديث ، فجاء رسول القاضي يأمره بالمشي إليه ليناظره في الدف والشبابة، فقال : ذاك عندي حرام ، ولا أمشي إليه ، ثم قرأ الحديث ، فعاد الرسول ، فقال : لابدّ من المشي إليه ، أنت قد بطّلت هذه الأشياء على السلطان .

فقال الحافظ : ضرب اللَّه رقبته ورقبة السلطان .

فمضى الرسول وخفنا ، فما جاء أحد »[١] .

ولقد ناظر الفقهاء ، وغار لعقيدة أهل السنة وصدع بها فبدّعوه وكفّروه وهمّوا أن يقتلوه .

العماد المقدسي يغشى عليه من الضرب لما أمر بالمعروف :

قال عنه الضياء المقدسي : « كان قويا في أمر اللَّه ، ضعيفًا في بدنه ، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم ، أمّاراً بالمعروف ، لايرى أحداً يُسيء في صلاته إلاّ قال له ، وعلّمه .

قال : وبلغني أنه أتى فسّاقًا ، فكسّر ما معهم ، فضربوه حتى غُشي عليه ، فأراد السلطان ضربهم ، فقال : إن تابوا ولازموا الصلاة فلا تُؤذهم وهم في حِلّ . فتابوا »[٢] .

البربهاري شيخ وقته الداعي إلى الأثر :

كان قوّالاً بالحق ، داعية إلى الأثر ، لا يخاف في اللَّه لومة لائم ، وكان له ـ رحمه اللَّه ـ مجاهدات ومقامات في الدين ، وكانت له المنزلة

---

(١) « السير » (٢١/ ٤٥٥ـ٤٥٦) .

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٢٢/ ٤٩ـ٥٠) .

الرفيعة في قلوب الناس .

قال أبو يعلى عنه : « شيخ الطائفة في وقته ، ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع ، والمباينة لهم باليد واللسان » .

وقال ابن الجوزي : « جمع العلم والزهد . . . وكان شديداً على أهل البدع » .

وقال ابن كثير : « كان شديداً على أهل البدع والمعاصي » .

قال البربهاري ـ رحمه اللَّه ـ : « مثل أصحاب البدع مثل العقارب ، يدفنون رءوسهم وأبدانهم في التراب ، ويخرجون أذنابهم ، فإذا تمكّنوا لدغوا ، وكذلك أهل البدع ، فهم مختفون بين الناس ، فإذا تمكنوا بلغوا ما يريدون»[١] .

شيخ الإسلام ابن تيمية : شيخ مشايخ الإسلام في الغيرة للسنة :

حامل راية الدعوة إلى الكتاب والسنة ، وإرجاع الإسلام إلى منابعه الصحيحة .

نصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين ، وأُوذي في ذات اللَّه من المخالفين ، وأُخيف وسجن في نصر السنة المحمدية حتى مات في سجنه ، وأعلى اللَّه مناره .

قال عنه الحافظ المزي : « ما رأيت أحداً أعلم بكتاب اللَّه وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه »[٢] .

قال عنه أبو حفص البزار : « وأما ما خصه اللَّه تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم ، وأهل الأهواء في أهوائهم ، وما ألفه في دحض

(١) « طبقات الحنابلة » (٢/ ٤٤) .
(٢) « الرد الوافر » لابن ناصر الدين الدمشقي (ص١٢٩) ـ المكتب الإسلامي .

أقوالهم، وتزييف أمثالهم وأشكالهم وإظهار عوارهم وانتحالهم ، وتبديد شملهم وقطع أوصالهم . . . حتىٰ انكشف قناع الحق » .

وقال ابن فضل اللَّه العمري : « أخمد من أهل البدع كل حديث وقديم، ولم يكن فيهم إلا من يجفل عنه إجفال الظليم ، ويتضاءل لديه تضاؤل الغريم»[١] .

ومن غيرته للسنة ومذهب أهل الحديث وعقيدة السلف الصالح :

● دحض مناهج الفلاسفة والمتكلمين ، ورد علىٰ الأشاعرة وتأويلهم، وكان لهم منه أوفر نصيب .

● وردّ علىٰ القدرية والشيعة ، وأفحم النصارىٰ في كتابه « الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح » .

● وهاجم ضلاّل الصوفية والاتحادية وأصحاب وحدة الوجود . . . رد علىٰ ابن الفارض وابن عربي والعفيف التلمساني والصدر القونوي وابن سبعين ، وألف « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

● وتصدىٰ للأحمدية والرفاعية ، وتحدىٰ زعمهم أنه يدخلون النيران، وضربهم أنفسهم بالسيوف والسهام ، تحداهم أن يدخل معهم النار التي يزعمون دخولهم فيها ، وأنها تحرقهم إن شاء اللَّه ولا تحرقه ، وتحدّاهم بمحضر نائب السلطنة فتابوا علىٰ يديه وللَّه دره وهو يقول لنائب السلطنة عن الأحوال الشيطانية لمبتدعة الرفاعية لما سأله : فبأي شيء تبطل هذه الأحوال؟ فقال له : بهذه السياط الشرعية ، فأعجب الأمير وضحك ، وقال : إي واللَّه، بالسياط الشرعية تبطل هذه الأحوال الشيطانية ، كما قد جرىٰ مثل ذلك لغير واحد ، ومن لم يُجب إلىٰ الدين بالسياط

---

(١) « الرد الوافر » (ص٩٦) .

الشرعية فبالسيوف المحمدية .

وأمسك ابن تيمية بسيف الأمير وقال : هذا نائب رسول اللَّه ﷺ وغلامه، وهذا السيف سيف رسول اللَّه ﷺ ، فمن خرج عن كتاب اللَّه وسنة رسوله ضربناه بسيف اللَّه .

ابن قيم الجوزية الصادق في غيرته وعهده مع اللَّه :

يقول ـ رحمه اللَّه ـ في نونيته مناجيًا ربه ومعاهدًا له :

فوحق نعمتك التي أوليتني ... وجعلت قلبي واعيَ القرانِ
لأجاهدنَّ عداك ما أبقيتني ... ولأجعلنَّ قتالَهم دَيْـدَاني
ولأفضحنَّهُم على رُوس الملا ... ولأَفْرِيَنَّ أديمَهم بلساني
ولأكْشِفَنَّ سرائرًا خفيتْ على ... ضعفاء خلقكَ منهمُ ببيانَ
ولأتبعنهم إلى حيث انتهوا ... حتى يُقالَ أبعدُ عبادانَ
ولأرجمنهمُ بأعلام الهدى ... رَجْم المريد بثاقب الشهبانَ
ولأقعدن لهم مراصدَ كيدِهم ... ولأحْصُرَنَّهم بكل مكان
ولأجعلن لحومهم ودماءهم ... في يوم نصرك أعظم القربانَ
ولأحملن عليهم بعساكر ... ليست تَفِرُّ إذا التقى الزحفانَ
بعساكر الوحيين والفطرات بالـ ... معقول والمنقول بالإحسان
ولأنصحن اللَّه ثم رسوله ... وكتابه وشرائع الإيمان
إن شاء ربي ذا يكون بحوله ... إن لم يشأ فالأمر للرحمن [١]

ولقد صدق في عهده مع ربه أيما صدْق ، ووفى أعظم توفية أسكنه اللَّه فسيح جنته .

---

(١) « النونية » لابن القيم .

• • أين الغاضبون ؟ هذي ديار المسلمين تبكي :

أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتزّ إنسان
يا من لذلة قوم بعد عزّهم أحال حالهمُ كفرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عُبْدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوانُ
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رُبَّ أم وطفلٍ حيل بينهما كما تفرّق أرواح وأبدانُ
وطفلةٍ مثل حسن الشمس إذ طلعتْ كأنما هي ياقوت ومرجانُ
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيرانُ
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان[1]

• • ومأساة البوسنة ترويها طفلة :

في عالمٍ قطع الرقابَ وأشعل النيران في صدر العذارى المؤمنات
في عالم أعطى الكلاب الحق في عرض البنات
الآن يا مولاي في صمت المنابر
يشرب الأوغاد دم المسلمين
الآن يأكل ثدي أمي ألف نخّاسٍ
ويشرب من دمائي ألف قوّادٍ
ويعبث في مآذننا ضلال المفسدينْ
آلان أرحل في قطار الموت ألعن كل خائن

---

(١) من قصيدة أبي البقاء الرندي في « رثاء الأندلس » انظرها كاملة في « نفح الطيب » (٦/ ٢٧٩ - ٢٨١).

من خان يوماً مسجداً من باع آلاف المآذن

* * *

• • وقبلها وبعدها القدس والمسجد الأقصى :

أعيني لا تَرْقَى من العَبرات صلي في البكا الآصالَ بالبكُرات
لعلّ سيولَ الدمعِ يُطفئُ فيضُها توقُّدَ ما في القلب من جمرات
ويا قلبُ أسْعِرْ نار وجدكَ كلما خبت بادّكارٍ يبعثُ الحسرات
ويا فمُ بُحْ بالشجو منك لعلّهُ يُرَوِّحُ ما ألقى من الكرُبات
على المسجد الأقصىَ الذى جلّ قَدْره على موطنِ الإخبات والصلوات
على منزلِ الأملاكِ والوحي والهدى على مَشهدِ الأبدالِ والبَدَلات
على سُلم المعراج والصخرة التي أنَافَتْ بما في الأرض من صَخَرات
على القبلة الأولى التي اتجهت لها صلاةُ البرايا في اختلاف جهات
على خير معمورٍ وأكرم عامرٍ وأشرفِ مبْنِيٍّ لخير بناة
وما زال فيه للنبيين معبدٌ يوالون في أرجائه السَجَدات
عفا المسجد الأقصى المباركُ حوله الـ رفيعُ العماد العالي الشرفات
عفا بعدما كان للخير موسماً وللبرِ والإحسان والقربات
يُوافي إليه كلٌّ أشعثَ قانتٍ لمولاه برٍ دائمِ الخَلَوات
خلا من صلاة لا يَملُّ مُقيمها تُوشّح بالآيات والسوَرات
خلا من حنين التائبين وحزنهم فمن بين نَوّاحٍ وبين بُكاة
لتبك على القدسِ البلادُ بأسرها وتعلنُ بالأحزان والتّرحات
لتبك عليها مكةٌ فهي أختها وتشكو الذي لاقت إلى عرفاتَ
لتبك على ما حل بالقدس طيبةٌ وتشرحه في أكرم الحجرات
فمن لي بِنواح ينحن على الذي شجاني بأصوات لهن شجاة

يُرَدِّدْن بيتًا للخزاعي قاله يُؤَبِّنُ فيه خيرة الخيرات
مدارسُ آياتٍ فلتْ من تلاوةٍ ومنزلُ وحي مُقعفَرُ العَرَصاتِ[١]

* * *

(١) القصيدة لشهاب الدين يعقوب بن محمد المجاور من كتاب «بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية» لعبد الجليل حسن (ص٢٤٠ ـ ٢٤٢) ـ دار البشير .

الذين يعمرون المساجد

الذين يعمرون المساجد

سبق الكلام على من يعمرون المساجد تحت قوله ﷺ : « **ورجل قلبه معلق بالمسجد** » .

عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « **إن للمساجد أوتاداً ، الملائكة جُلساؤهم ، إن غابوا يفتقدونهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن كانوا في حاجة أعانوهم** »[(1)] .

جليس المسجد على ثلاث خصال : أخ مستفاد أو كلمة محكمة أو رحمة منتظرة » .

وعن عبد اللَّه بن سلام ـ رضي اللَّه عنه ـ : « إن للمساجد أوتاداً هم أوتادها لهم جلساء من الملائكة ، إن غابوا سألوا عنهم ، وإن كانوا مرضى عادوهم ، وإن كانوا في حاجة أعانوهم »[(2)] .

قال الرافعي ـ رحمه اللَّه ـ في « وحي القلم » :

« المسجد في حقيقته هو موضع الفكرة الواحدة الطاهرة ، المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع ، هو فكر واحد لكل الرءوس ، ومن ثَمّ فهو حلّ واحد لكل المشاكل ، وكما ينشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدّم ، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله » .

ويقول ـ رحمه اللَّه ـ :

« ما المسجد بناءً ولا مكانًا كغيره من البناء والمكان ، بل هو تصحيح

---

(١) إسناده حسن : أخرجه أحمد في « المسند » رقم (٩٤١٤) ، وقال الدكتور الحسيني هاشم : إسناده حسن (١٨/ ١١٠) .

(٢) صحيح : أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٩٨) وقال : صحيح على شرط الشيخين موقوف ولم يخرجاه .

للعالَم الذي يموج من حوله ويضطرب ؛ فإن في الحياة أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها ، وهذه كلها يمحوها المسجد إذ يجمع الناس مرارا في كل يوم على سلامة الصدر ، وبراءة القلب ، وروحانية النفس ، ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة مُسبغة على حدود جسمها من أعلاه وأسفله شعار الطهر الذي يُسمَّى الوضوء ، كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد »[١] .

وقال : « إنما يتلقى المسجد من يدخله لساعته التي يدخله فيها ، ولو أنه حاسبه عن أمس وأول منه وما خلا من قبل ، لطرده من العتبة ! إن المسجد يا بني إنما يقول لداخله : ادخل في زمني ودَعْ زمنك ، وتعال إليّ أيها الإنسان الأرضيّ ، لتتحقق أن فيك حاسّة من السماء وجئني بقلبك وفكرك ، ليشعرا ساعة أنهما فيّ لا فيك »[٢] .

عن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه لينادي يوم القيامة : أين جيراني ، أين جيراني ؟ قال : فتقول الملائكة : ربنا ! ومن ينبغي أن يجاورك ؟ فيقول : أين عمّار المساجد ؟** »[٣] .

* * *

(١) « وحي القلم » لمصطفى صادق الرافعي (١/ ٣١٧ـ٣١٨) .
(٢) « وحي القلم » (٢/ ١٢٣) .
(٣) سنده جيد : رواه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » (١٦/ ١) ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٧٢٨) .

المستغفرون بالأسحار

المستغفرون بالأسحار

• في كل الليل تهبّ الرياح ، ولكن لنسيم السحر خاصيّة ما أظنه تعطّر إلا بأنفاس المستغفرين ، فلنَفَس المحب عطر ينمّ على قدر طيبه .

قال اللّه تعالىٰ : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) .

قال أبو السعود : « هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم » .

وفي بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه »(٢) .

« ينزلون أنفسهم في الأسحار منزلة العاصين فيستغفرون استصغاراً لقدرهم واستحقاراً لفعلهم »(٣) .

• وقال تعالىٰ : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾(٤) .

قال القاسمي : « والاستغفار يحتمل طلب المغفرة بالذكر بقولهم : ربنا اغفر لنا ، وطلب المغفرة بالفعل ، أي بالأسحار يأتون بفعل آخر طلباً للغفران وهو الصلاة والأول أظهر والثاني عند المفسرين أشهر »(٥) .

قال العلامة ابن جرير بعد ذكر الأقوال في تأويل هذه الآية : ـ

---

(١) سورة الذاريات الآيتان (١٧ ـ ١٨) .

(٢) « تفسير أبي السعود » (٥/ ١٠١) .

(٣) « لطائف الإشارات » للقشيري (٦/ ٣١) .

(٤) سورة آل عمران الآية (١٧) .

(٥) « محاسن التأويل » للقاسمي (ص٥٥٢٧) .

« وأولى هذه الأقوال : قول من قال : هم السائلون ربهم أن يستر عليهم فضيحتهم بها ، وأظهر معاني ذلك أن تكون مسألتهم إياه بالدعاء ، وقد يحتمل معناه تعرّضهم لمغفرته بالعمل والصلاة غير أن أظهر معانيه ما ذكرنا من الدعاء »(١) .

« والاستغفار بالأسحار يلقي ظلالا رفّافة ندية عميقة . . . الاستغفار بالأسحار في الفترة التي يصفو فيها الجوّ ويرق ويسكن ، وتترقرق فيها خواطر النفس وخلجاتها الدفينة ، فإذا انضمت إليها صورة الاستغفار ألقت تلك الظلال المناسبة في عالم النفس وفي ضمير الوجود سواء »(٢) .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني :

« إن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ ، وإن الدعاء في ذلك الوقت مجاب »(٣) .

● عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **لن يُنجي أحداً منكم عمله** » قالوا : وأنت يا رسول اللّه ؟ قال : « **ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمته ، سدّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا** »(٤) .

وفي موضع آخر من البخاري : « **إن الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين أحداً إلا غلبه ، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة** »(٥) .

---

(١) « تفسير الطبري » (٦/ ٢٦٤ ـ ٢٦٧) طبعة دار المعارف .
(٢) « ظلال القرآن » (٣/ ٥٩) الطبعة الأولى عيسى الحلبي .
(٣) « فتح الباري شرح صحيح البخاري » (٣/ ٣٨) .
(٤) رواه البخاري ومسلم .
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان (١٠/ ١٥) ، والنسائي .

والدُّلجة والإدلاج : سير آخر الليل ، والمراد به هاهنا العمل في آخر الليل وهو وقت الاستغفار .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : «**من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة اللَّه غالية ، ألا إن سلعة اللَّه الجنة**»[١] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أقرب ما يكون الربّ من العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر اللَّه في تلك الساعة فكُن** »[٢] .

قال المناوي : « صفة الجوف على أن ينصف الليل ويجعل لكل نصف جوف ، والقرب يحصل في جوف النصف الثاني فابتداؤه يكون من الثلث الأخير »[٣] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : « **أفضل الساعات جوف الليل الأخير** »[٤] .

● وقال ﷺ : « **أفضل الساعات جوف الليل الآخـر** »[٥] .

● وعن ثوبان ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن للَّه تبارك وتعالى ديكاً براثنه**[٦] **في الأرض السفلى ، وعنقه مثني تحت العرش** ،

---

(١) صحيح : أخرجه الترمذي ، والحاكم في « المستدرك » ، وعبد بن حميد ، والعقيلي في «الضعفاء»، وأبو نعيم في « الحلية » ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب ؛ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (٦٠٩٨) .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذي واللفظ له ، والنسائي ، والحاكم في « المستدرك » ، وابن خزيمة عن عمرو بن عبسة ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وقال الحاكم : على شرط مسلم، وأقرّه الذهبي ، وصححه البغوي ، والألباني في « صحيح الجامع» رقم (١١٨٤) و«صحيح الترغيب » (٦٢٤) و« تخريج المشكاة» .

(٣) « فيض القدير » للمناوي (٢/ ٦٩) .

(٤) صحيح : أخرجه الطبراني في « الكبير » عن عمرو بن عبسة ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١١١٧) .

(٥) صحيح : رواه أحمد ، وصححه الألباني في « الصحيحة » رقم (٥٥١) (جـ٢/ ٨٣) .

(٦) جمع برثن ، وهي من السباع والطير بمنزلة الأصابع من الإنسان .

وجناحاه في الهواء يـــخفق[1] بهما سحر كلّ ليلة ؛ سبّحوا القدوس ، ربنا الرحمن لا إله غيره »[2] .

● عن زيد بن خالد ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا تسبّوا الديك فإنه يوقظ للصلاة** »[3] .

قال الطيبي : « إن العادة جرت بأنه يصرخ صرخات متتابعة عند طلوع الفـــجر ، وفي الثلث الأخير وقت قيامه ﷺ . . . فيذكر الناس بصراخه للصلاة .

وفي حديث عائشة : « كان إذا سمع الصارخ قام فصلى » والصارخ الديـــــك ، رواه البخاري ومسلم والنسائي .

وعن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت : « إن كان رسول اللَّه ﷺ ليوقظه

---

(١) يخفق بهما : أي يحرّكهما ، « النهاية » (٢/ ٥٥) .

(٢) صحيح لغيره : أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » ، والسيوطي في « الوديك في أخبار الديك » (ص٥) وعزاه إلى جعفر الفريابي في « فضل الذكر » وأبو الشيخ في « العظمة » ، وفي إسناده ضعف .

قال السيوطي بعد أن ساقه في « اللآلي المصنوعة » (١/ ٦١) « من رواية أبي الشيخ : أيوب بن سويد روى له أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وضعفه أحمد وجماعة ، وباقي رجاله ثقات»اهـ.

وله شاهد من حديث صفوان بن عسّال موقوفًا أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ٨١)، رقم (٧٣٩١) بسنده عن عاصم بن بهدلة عن زر عنه : . . . قال : « إن للَّه ديكا رأسه تحت العرش وجناحه في الهواء ، وبراثنه في الأرض ، فإذا كان في الأسحار وأدبار الصلوات خفق بجناحه وصفّق بالتسبيح ، فتصيح الديكة فتجيبه بالتسبيح » قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ١٣٤) : « وعاصم بن بهدلة ضعيف وقد حسن حديثه » اهـ . وحديثه في « الصحيحين » مقرون ، فبهذا الشاهد يصح الحديث ، لا سيما هناك عدة أحاديث في هذا المعنى .

(٣) إسناده صحيح : رواه أبو داود ، وأخرجه النسائي مسندًا ومرسلاً كما قال المنذري ، وصحح إسناده النووي في « الأذكار » و« الرياض » ، وصححه المناوي وحسّنه السيوطي والألباني في «صحيح الجامع » رقم (٧١٩١) و« تخريج المشكاة » رقم (٤١٣٦) .

الله عز وجلّ بالليل فما يجيء السحر حتى يفرغ من حزبه»[(١)] .

قال لقمان لابنه : يا بنيّ ، لا يكون الديك أكيس منك ينادي بالأسحار وأنت نائم .

قم بنا يا أخي لما نتمنّى وأطرد النوم بالعزيمة عنّا
قم فقد صاحت الديوك ونادتْ لا تكون الديوك أطرب منّا

وفي « الزهد » لابن حنبل : « إن داود سأل جبريل فقال : يا جبريل أي الليل أفضل ؟ قال : يا داود ما أدري إلاّ أن العرش يهتز من السحر » .

ورُوي أنه لما قال أبناء يعقوب له : ﴿ **استغفر لنا** ﴾ أخّرهم إلى السحر بقوله : ﴿ **سوف أستغفر لكم** ﴾ .

قال سفيان : إن للّه ريحًا مخزونة تحت العرش تهبّ عند الأسحار فتحمل الأنين والاستغفار .

يا نسيم الريح من كاظمة شدّ ما هجت الأسى والبرحا
الصّبا إن كان لابدّ الصبا إنها كانت لقلبي أروحا
اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قرّبت من نزحا
وارحموا صبّا إذا غنىّ بكم شرب الدمع وعاف القدحا

قال الشيخ حسن البنا ـ رحمه اللّه ـ : « أمامك كل يوم لحظة بالغداة ، ولحظة بالعشيّ ، ولحظة في السحر تستطيع أن تسمو فيها كلها بروحك الطهور إلى الملأ فتظفر بخير الدنيا والآخرة .

أخي : لن تحلّ في جوار الجبّار حتى تحلّ بضائع الأسحار .

- أرواح الأسحار أقوات الأرواح .
- قلوب المحبين جمرة تحت فحمة الليل كلما هبّ عليها نسيم السحر

(١) إسناده حسن : رواه أبو داود في الصلاة باب وقت قيام النبي ﷺ ، وسكت عنه المنذري وقال الشيخ عبد القادر الأرناءوط : إسناده حسن ، انظر : « التعليق على شرح السنة » .

التهبت وأجّج ما فيها من شوق إلى اللّه عز وجل .

• مالت بالقوم ريح السحر ميل الشجرة بالأغصان ، فهزّ منهم الخوف أفنان القلوب ، فانتثرت الأفنان ، فاللسان يتضرّع ، والعين تدمع ، والوقت بستان ، خلوتهم بالحبيب تشغلهم عن نعم ونعمان ، سورهم أساورهم والخشوع تيجان ، خضوعهم حلاهم فما درٌّ ولا مرجان .

• ريح الأسحار ركابيّ الرسائل ، ونسيم الفجر ترجمان الجواب .

فيا ريح الصبا اقترحي على الأحشاء واحتكمي
أراك نَسمْت تختبرين ما عهدي وما ذممي
فهذي في يدي كبدي وذا في وجنتيّ دمي

• يا من كان له قلب فانقلب ، يا من كان له وقت مع اللّه فذهب ، دعاء السحر يستوحشُ لك ، وصيام النهار يُعاتبك .

قلت لليل هل بجوفك سر أنبئني ما أروع الأسرار
قال ما ضاء في ظلامي سر كدموع المنيب في الأسحار

• لو شممت رحيق الأسحار لاستفاق منك قلبك المخمور يا نائمًا طول الليل . . . كنت تستطيب رياح الأسحار وما تغيّر المحب عز وجل ، كنت مع الرعيل الأول فما الذي ردّك إلى الساقة ؟ .

• يا نائمًا طول الليل ما تحسّ برد السحر ، لقد دلّت أغاريد الحمام على دنوّ الفجر ، صاح الديك فلم تنتبه ، وأعاد فلم تفق ، فقوي ضرب الجناحيْن لطمًا على غفلتك .

• أرواح الأسحار لا يستنشقها مزكوم غفلة ، إنها لتأتي بألطاف الحبيب ثم تعود تطلب رسالة ألا من مستغفر فأغفر له .

• لو رأيت رياح الأسحار تحرك أشجار القلوب فتقع ثمار المحبة .

يا لذة خلوهم بالحبيب ، ويا وفور نصيبهم من ذلك النصيب .

• قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه يمهل حتى إذا كان ثلث الليل الآخر نزل إلى السماء الدنيا فنادى : هل من مستغفر ؟ هل من تائب ؟ هل من سائل ؟ هل من داع ؟ حتى ينفجر الفجر** »[١] .

• وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه يمهل حتى إذا ذهب من الليل نصفه أو ثلثاه قال : لا يسألن عبادي غيري ، من يسألني استجب له ، من يسألني أعطه ، من يستغفرني أغفر له حتى يطلع الفجر** »[٢] .

هبّت رياح وصالهم سحـــراً ... لحدائق الأشــــواق في قلبـــي
واهتزّ عود الوصل من طــربٍ ... وتســاقطت ثمـــر من الحـبِّ
ومضت خيول الهجر ســادرة ... مطــرودة بعســاكر القـــرب
وبدت شموس الوصل خــارقة ... بشعـاعها لســرادق الحَجْـب
وصفــا لنا وقت أضـــاء بـــه ... وجه الرّضا عن ظلمة العتْـــب[٣]

قفِ في السحر على أقدام الذل وقل : يا أيها العزيز قد مسّنا وأهلنا الضرّ ، اقعد على جانب وادي السحر فلعلّ إبل القوم تمرّ بك « منهم تعلّمت الحمام النوح والإبل الحنينا » وآسف المتقاعد عنهم ، واحسرة العبيد منهم .

واعجبا ! رسائل الأسحار تُحمل ولا يدري بها الفلك ، وأجوبتها ترد إلى الأسرار ولا يعلم بها المَلَك .

صحائفنـــــا إشــــارتنــــا ... وأكثـــر رســـلنا الحـــرق

---

(١) رواه أحمد في « مسنده » ، ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة معا .
(٢) صحيح : أخرجه ابن ماجه عن رفاعة الجهني ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » رقم (١٩١٣) ، و« الإرواء » (٤٤٩) .
(٣) « التبصرة » (ج٢/ ٣٢٥) .

لأن الكُتب قد تُقرا بغير الدمع لا نشقُ

رياح الأسحار تحمل أنين المذنبين وأنفاس المحبين وقصص التائبين ، ثم تعود بردّ الجواب .

فازوا بالفخر وحمدوا عند الصباح السرىٰ ، وما عند أهل الغفلة والنوم خبرٌ مما جرىٰ .

يا نفس قومي فقد نام الورى إن تبغي الخير فذو العرش يرى
وأنت يا عين دعي عنك الكرى عند الصباح يحمد القوم السرى(١)

• يا هذا ، إذا حضر قلبك فنسيم السحر يذكّرك ، وإن غاب قلبك فمائة ألف نبيّ لا يوصلون التذكرة إليك .

ولي ألف باب قد عرفت سبيله ولكن بلا قلب إلى أين أذهبُ

إن لم تكن مع القوم في السحر ، تلمّح آثار الحبيب عليهم وقت الضحىٰ ، ترىٰ في صحائف الوجوه سطور القبول بمداد الأنوار « وجوه زهاها الحسنُ أن تتبرقعا » .

قاموا في السحر علىٰ قدم الاعتذار ، ثم تساندوا إلىٰ رواحل البكاء والاستغفار ، رفعوا رسائل الجوىٰ فعاد جواب الأبرار .

• وآسفىٰ متىٰ رحلوا ؟ ليت شعري أين نزلوا ؟ .

• أما تستنشق ريح السحر ؟! أما تجدُ برد الفجر ؟!

يا مطولاً بالقيام مستلذا بالمنام
قمْ فقد فاتك يا مغبون أرباح الكرام
وخلَوْا دونك بالمولى وفازوا بالمرام
وكذا يسبقك القوم إلى دار السلام

---

(١) « لطائف المعارف » لابن رجب (٤٢ ـ ٤٣) .

• يا نائمًا طول الليل سارت الرفقة ، طلعت شمس المشيب وما انتهيت من الرقدة ، لو قمت وقت السَّحر رأيت طريق العبّاد قد غصّ بالزحام ، ولو وردت ماء مدين وجدت عليه أمة من الناس يسقون ، وأسحرة ليل القوم ما أضواها ، قاموا على أقدام التحير بين كنّ الحذر ، وشارع الشوق، سترهم ذيل الليل تحت مخيّم الظلام .

سقوا بمياه أعينهم هناك الضال والرّنْدا

بأنفاس كبرق في أنين يشبه الرعدا

• عن نافع « أن ابن عمر كان يحيي الليل صلاة ، ثم يقول : يا نافع أسحرنا فيقول : لا فيعاود ، فإذا قال : نعم ، قعد يستغفر اللَّه حتى يصبح »(١) .

• وتمثّل محمد بن نافع في السحر ببيت من الشعر فرفع هرم بن حيّان عليه السوط وجلده على الظهر قائلاً له : « أفي هذه الساعة التي ينزل فيها الرحمن ويستجاب فيها الدعاء تتمثّل بالشعر »(٢) .

• وكان لأبي مسلم الخولاني سوط يعلقه في مسجده ، فإذا كان السحر ونعس أو ملّ أخذ السوط وضرب ساقيه ، ثم قال : لأنت أولى بالضرب من شر الدواب »(٣) .

• وقال ابن أيوب السختياني عنه : كان يجهر بالقرآن من الليل ، وكان يقوم بالسحر الأعلى .

• وكان البخاري ـ رحمه اللَّه ـ يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة يوتر منها بواحدة كما قال خادمه محمد بن أبي حاتم الورّاق .

---

(١) سنده جيد : أخرجه الطبراني في « المعجم » ، وأبو نعيم في « الحلية » ، وابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٣٤٩) ، وقال : « سنده جيد » .

(٢) « الزهد » لابن حنبل (ص٢٣٢) .

(٣) « مختصر قيام الليل » (ص٢٨) .

• وكانت عجردة العمية تحيي الليل صلاة ، فإذا كان السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالي بتبكير الدلج إلى ظلم الأسحار يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك إلهي لا بغيرك أسألك أن تجعلني في أول زمرة السابقين إليك ، وأن ترفعني إليك في درجة المقرّبين ، وأن تلحقني بعبادك الصالحين ، فأنت أكرم الكرماء ، وأرحم الرحماء ، وأعظم العظماء » ، ثم تخرّ ساجدة فلا تزال تبكي وتدعو في سجودها حتى يطلع الفجر فكان ذلك دأبها ثلاثين سنة [1] .

• وكانت حبيبة العدوية تقبل على صلاتها بالليل ، فإذا كان السحر قالت : اللَّهم وهذا الليل قد أدبر ، وهذا الصباح قد أسفر ، فليت شعري هل قبلت مني ليلتي فأُهنَّى ، أم رددتها عليّ فأُعَزَّى ، فوعزّتك لهذا دأبي ودأبك أبدًا ما أبقيتني ، وعزّتك لو انتهرتني ما برحت عن بابك ، ولا وقع في قلبي غير جودك وكرمك » [2] .

• وعمرة امرأة حبيب العجمي تنبهه في السحر وتقول : « قم يا سيدي فقد ذهب الليل وجاء النهار ، وبين يديك طريق بعيد ، وزاد قليل ، وقوافل الصالحين قد سارت قدّامنا ونحن قد بقينا » [3] .

• قال الأوزاعي ـ رحمه اللَّه ـ : « كان السلف إذا صدع الفجر أو قبله بشيء ، كأنما على رءوسهم الطير مقبلين على أنفسهم حتى لو أن حميمًا لأحدهم قد غاب عنه حينًا ، ثم قدم ما التفت إليه » .

• وكان أحد الصالحين في بعض المغازي يحيي الليل حيث كان على ظهر دابته ، أو على الأرض وكان إذا نظر إلى الفجر يلمع ضوءه قال : « يا إخوتاه عند بلوغ الماء يفرح الواردون بتعجيل الرواح » .

• وكان عمير بن حبيب يقول لأهله : « يا أهلاه ! الدُّلجة الدُّلجة . . . إنه مَنْ يُسبق إلى الماء يظمأ ، . . . يا أهلاه ، الدلجة الدلجة . . . إنه من

(١) « صفة الصفوة » (٤/ ٣١) .
(٢) « صفة الصفوة » (٤/ ٣٢) .
(٣) « صفة الصفوة » (٤/ ٣٥) .

يُسبق إلىٰ الظل يضحىٰ .

وقال يحيىٰ بن معاذ : « دواء القلب خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتفكر، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرّع عند السحر ، ومجالسة الصالحين »[١] .

● قال الحسن بن عرفة ليزيد بن هارون : يا أبا خالد : ما فعلت العينان الجميلتان ؟

قال : ذهب بهما بكاء الأسحار .

● وكان عتبة الغلام يبكي من السحر بكاءً شديداً ويقول لما يُسأل في ذلك : « إني والله ذكرت يوم العرض على الله » ، ثم يقول وقد غشي عليه : «قطّع ذكر يوم العرض على الله أوصال المحبين » ويقول : « تراك مولاي تعذّب محبيك وأنت الحي الكريم »[٢] .

● وقال أبو عاصم العبّاداني عن عابد من بني سعد : كان يصلي الليل والنهار لايكاد يفتر ، فإذا كان السحر احتبىٰ ، واستقبل البحر فجعل يبكي وينوح علىٰ نفسه ، فإذا أحسّ بإنسان أمسك ، قال : فخرجت ذات ليلة إلىٰ الساحل فإذا أنا بصوته وإذا هو يبكي ويقول في بكائه :

ألا يا عينُ ويحك أسعديني بطول الدّمـــع في ظلم الليالي
لعلك في القيامة أن تفوزي بخير الدهر في تلك العـــلالي[٣]

● وكان أحد العبّاد يقوم الليل حتىٰ إذا برق عمود الصبح وثب قائماً علىٰ قدميه ونادىٰ بأعلىٰ صوته : ذهب الليل ، وأقبل النهار بدواهيه ، ولم أقض من خدمتك وطراً، خسر من أتعب لغيرك بدنه وألجأ إلىٰ سواك همه»[٤] .

---

(١) « صفة الصفوة » (٤/ ٩٢) .
(٢) « صفة الصفوة »(١/ ٣٧٠ ، ٣٧١) .
(٣) « صفة الصفوة »(٤/ ٥٩) .
(٤) « صفة الصفوة »(٤/ ٤٠٧ ، ٤٠٨) .

• وكان خليفة العبدي يقوم الليل يصلي حتى يطلع الفجر ، وكان يدعو في السحر يقول : « هب لي إنابة إخبات ، وإخبات منيب ، وزيّني في خَلقك بطاعتك ، وحسّني لديك بحسن خدمتك ، وأكرمني إذا وفد إليك المتقون ،فأنت خير مسئول وخير معبود وخير مشكور وخير محمود» .

وكان إذا دعا في السحر يقول: « قام البطّالون وقمت معهم ، قمنا إليك ونحن متعرّضون لجودك ، فكم من ذي جرم قد صفحت له عن جرمه، وكم من ذي كرب عظيم قد فرجت له عن كربه ، وكم من ذي ضرّ كبير قد كشفت له عن ضرّه ، فبعزتك ما دعانا إلى مسألتك بعدما انطوينا عليه من معصيتك إلا الذي عرّفتنا من جودك وكرمك ، فأنت المؤمَّل لكل خير ، والمرجوّ عند كل نائبة »[1] .

• وكان بعض الصالحين يقوم الليل فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : «يا أيها الركب المعرسون ، أكلّ هذا الليل ترقدون ؟! ألا تقومون فترحلون؟ فإذا سمع الناس صوته وثبوا من فرشهم ، فيسمع مِن هنا باك ، ومِن هنا داعٍ ، ومِن هنا تال ، ومن هنا متوضئ ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : « عند الصباح يحمد القوم السرى »[2] .

* * *

---

(١) « حلية الأولياء » (٦/ ٣٠٣ـ٣٠٤) .

(٢) « لطائف المعارف» (ص٤٢) .

العلمـــاء الربانيـــون

العلمـــــاء الربانيون

العلماء العاملين ممن يظلهم اللَّه في ظله . كما قال البخاري[1] :

قال أبو المظفّر محمد بن أحمد بن حامد بن إبراهيم البخاري : لما عُزِل أبو العباس الوليد بن إبراهيم بن زيد الهمذاني عن قضاء الريّ ورد بخارىٰ سنة ثماني عشرة وثلاث مائة لتجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل محمد بن عبيد اللَّه البلعمي فنزل في جوارنا ، قال : فحملني معلّمي أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الخُتُّلي إليه ، وقال له : أسألك أن تحدّث هذا الصبيّ بما سمعت من مشايخك ـ رحمهم اللَّه ـ فقال : ما لي سماع ، قال : فكيف وأنت فقيه ، فما هذا ؟ قال : لأني لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسي إلىٰ طلب الحديث ، ومعرفة الرجال ، ودراية الأخبار ، وسماعها ، فقصدت محمد بن إسماعيل البخاري ببخارىٰ صاحب « التاريخ » والمنظور إليه في معرفة الحديث ، فأعلمته مُرادي ، وسألته الإقبال عليّ بذلك . فقال لي : يا بنيّ لا تدخل في أمر إلاّ بعد معرفة حدوده والوقوف علىٰ مقاديره . قال : فقلت له : عرِّفني حدود ما قصدتُ له ومقادير ما سألتك عنه . قال : اعلم أن الرجل لا يصير مُحَدِّثًا كاملاً في حديثه إلا بعد أن يكتب أربعًا مع أَرْبع كأربع مثل أربع في أربع عند أربع بأربع علىٰ أربع عن أربع لأربع ، وكل هذه الرباعيات لا تتم بأربع مع أربع ، فإذا تمّتْ له كلها هانت عليه أربع ، وابتلي بأربع ، فإذا صبر علىٰ ذلك أكرمه اللَّه تعالىٰ في الدنيا بأربع وأثابه في الآخرة بأربع .

قال : قلت له : فسِّر لي ـ رحمك اللَّه ـ ما ذكرت من أحوال هذه

---

(١) قصة لا تثبت عن أستاذ الأستاذين الإمام البخاري .

الرُّباعّيات عن قلب صافٍ بشرح كافٍ ، وبيانٍ شافٍ طلبًا للأجر الوافي .

قال : نعم .

أما الأربعة التي تحتاج إلى كِتْبَتِها فهي : أخبار رسول اللَّه ﷺ وشرائعه، والصحابة ومقاديرهم ، والتابعين وأحوالهم ، وسائر العلماء وتواريخهم ، مع أسماء الرجال وكُناهم ، وأمكنتهم ، وأزمنتهم ، كالتحميد مع الخطب ، والدعاء مع التَّرسل ، والبسملة مع السور ، والتكبير مع الصلوات ، مثل المُسنَدات ، والمُرْسلات ،والموقوفات ، والمقطوعات في صغره ، وفي إدراكه ، وفي شبابه، وفي كهولته ، عند شغله ، وعند فراغه، وعند فقره وعند غناه، بالجبال ، والبحار ، والبلدان والبراري ، على الأحجار والأصواف والجلود والأكتاف ، إلى الوقت الذي يمكنه نقلها إلى الأوراق عمن هو فوقه وعن من هو مثله وعمّن هو دونه، وعن كتاب أبيه ، يتيقّن أنه بخط أبيه دون غيره لوجه اللَّه تعالى طالبًا لمرضاته ، والعمل بما وافق كتاب اللَّه منها ، ونشرها بين طالبيها ومُحبيها والتأليف في إحياء ذكره بعده ، ثم لا تتم له هذه الأشياء إلا بأربع التي هي من كسب العبد أعني : معرفة الكتابة ، واللغة ، والصرف ، والنحو ؛ مع أربع هي من إعطاء اللَّه عز وجل ، أعني : الصحّة والقدرة والحِرْص والحفظ ، فإذا تمّتْ له هذه الأشياء هان عليه أربع : الأهل ، والولد ، والمال، والوطن ، وابتلي بأربع : بشماتة الأعداء ، وملامة الأصدقاء ، وطعن الجهلاء ، وحسد العلماء ؛ فإذا صبر على هذه المحن أكرمه اللَّه تعالى في الدنيا بأربع : بعزّ القناعة ، وبهيبة النفس ، وبلذّة العلم ، وبحياة الأبد .

وأثابه في الآخرة بأربع : بالشفاعة لمن أراد من إخوانه ،وبظل العرش حيث لا ظلّ إلا ظله ، وبسقي من أراد حوض نبيه محمد ﷺ ، وبجوار

النبيين في أعلىٰ عليين في الجنة .

فقد أعلمتك يا بنيّ مجملاً جميع ما كنتُ سمعتُ من مشايخي متفرّقًا في هذا الباب ، فأقبل الآن علىٰ ما قصدتني له ، أوْ دَع .

قال : فهالني قوله وسكتّ متفكراً ، وأطرقت نادمًا ، فلما رأىٰ ذلك مني .

قال : فإنْ لا تُطق احتمال هذه المشاق كلها فعليك بالفقه الذي يُمكنك تعلّمه وأنت في بيتك قارّ ساكن لا تحتاج إلىٰ بُعْد الأسفار وطيّ الديار ، وركوب البحار ، وهو مع ذا ثمرة الحديث ، وليس ثواب الفقيه بدون ثواب المحدِّث في الآخرة ولا عزّه بأقلّ من عزّ المحدِّث .

فلما سمعت ذلك نقص عزمي في طلب الحديث ، وأقبلت علىٰ علم ما أمكنني علمه بتوفيق اللَّه ومَنِّه ، فلذلك لم يكن عندي ما أُمليه علىٰ هذا الصبي يا إبراهيم ، فقال : يا أبا إبراهيم : إن هذا الحديث الذي لا يُوجد عند أحدٍ غيرك خير من ألف حديث يوجد مع غيرك »[1] .

هذه الرباعيات مشهورة لها ذكر في كتب التاريخ وشروح الحديث وعلم المصطلح ، ذكرها السيوطي والقسطلاني والسخاوي ومحمد حبيب الشنقيطي . أنكرها وحكم عليها بالوضع الحافظ ابن حجر فقال : « قلبي نافر من صحتها ، غير مستعد لقبولها تلوح أمارات الوضع عليها وتلمع إشارات التلفيق فيها . . . أما قول القائل الذي في آخرها إن هذا خير من ألف حديث ، فكذب لا مزيد عليه »[2] .

(١) «تهذيب الكمال» للمزي (٢٤/ ٤٦١ ـ ٤٦٤) تحقيق بشّار عوّاد معروف ـ طبع مؤسسة الرسالة .

(٢) « الجواهر والدرر » (١/ ٣٠٧ـ٣٠٨) ، واستنكرها الأبياري ، والسيد أحمد صقر .

فصل خاص

بطلاب العلم

فصل خاص بطلاب العلم

متن الحديث وسنده

أ ـ تخريج الحديث :

• أخرجه مالك في « الموطأ » كتاب الشعر ، باب (ما جاء في المتحابين في اللَّه) .

• وأخرجه البخاري في « الصحيح » كتاب الأذان : باب (من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد) (٢/ ١٤٣) حديث رقم (٦٦٠ ـ مع « فتح الباري »)[١] .

• وفي كتاب الزكاة : باب (الصدقة باليمين) (٣/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣) حديث رقم (١٤٢٣)[٢] .

• وفي كتاب الرقائق : باب (البكاء من خشية اللَّه عز وجل) (١١/ ٣١٢) حديث رقم (٦٤٧٩) وأورده مختصراً جداً[٣] .

• وكتاب الحدود باب (فضل من ترك الفواحش) (١٢/ ١١٢) حديث رقم (٦٨٠٦)[٤] .

• ومسلم في « الصحيح » : كتاب الزكاة باب (فضل إخفاء الصدقة) (٢/ ٧١٥) حديث رقم (١٠٣١)[٥] .

• والنسائي : في « السنن الكبرىٰ » في كتاب القضاء وكتاب الرقائق ،

---

(١) « فتح الباري » (٢/ ١٤٣) .
(٢) « فتح الباري » (٣/ ٢٩٣) .
(٣) « فتح الباري » (١١/ ٣١٢) .
(٤) « فتح الباري » (١٢/ ١١٢) .
(٥) « شرح مسلم » (٧/ ١٢٠) .

كما في « تحفة الأشراف » (٩/ ٣٢٢) .

وفي « المجتبىٰ » : كتاب أداب القضاة باب (الإمام العادل) (٨/ ٢٢٢) .

• وأخرجه الترمذي في « الجامع » كتاب الزهد باب (ما جاء في الحب في اللّٰه) (٤/ ٥٩٨-٥٩٩) .

• وأحمد في « مسنده » (٢/ ٤٣٩) .

• وابن المبارك في « الزهد » (١٣٤٢) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧/ ٩-١٠) رقم (٤٤٦٩ - مع الإحسان) .

• والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » كتاب الصلاة ، باب (فضل المساجد) (٣/ ٦٥) .

وكتاب قتال أهل البغي : باب (فضل الإمام العادل) (٨/ ١٦٢) .

وكتاب الزكاة : باب (فضل صدقة السر) (٤/ ١٩٠) ، كما خرجه في « الأربعين الصغرىٰ » وفي « الآداب » .

• وأبو نعيم في « فضل العادلين » .

وابن أبي حاتم في « العلل » (٢/ ٤٠٧-٤٠٨) .

• وخرجه أيضًا البيهقي في « الأسماء والصفات » ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» وابن زنجويه في « الأموال » كلهم عن مالك .

• **سند الحديث** :

• رواه مالك بالشك بين أبي سعيد أو أبي هريرة .

• والبخاري لم تختلف روايته . عن أبي هريرة فقط .

• ومسلم له رواية عن غير مالك إلىٰ أبي هريرة ، ورواية أخرىٰ عن طريق مالك بالشك بين أبي سعيد وأبي هريرة ، أي وافق مالكًا .

• والنسائي يرويه عن أبي هريرة فقط .

• والترمذي عن طريق مالك وبرواية الشك كذلك ، ورواية أخرىٰ عن عبيد اللَّه بن عمر من غير طريق مالك وعن أبي هريرة فقط .

فتكون كل الروايات عن غير طريق مالك بالجزم عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - ، وطريق مالك فقط في « الموطأ » هي التي فيها الشك بين أبي سعيد وأبي هريرة ، بينما لم يذكره أحد عن طريق أبي سعيد .

• ولقد أورد الزرقاني في شرحه علىٰ الحديث أنه جاء عن مالك بثلاث حالات سوىٰ ما في « الموطأ » :

١ - إفراد أبي هريرة . ٢ - إفراد أبي سعيد . ٣ - اشتراكهما معًا بالواو .

ولكنه ناقشها ، وهي كالآتي :

١ - رواه في « الموطأ » بالشك .

٢ - مصعب الزبيري وموسىٰ بن طارق ، فجعلاه عنهما بواوالعطف ، وشذّا في ذلك عن أصحاب مالك ، قاله الحافظ ، وذكر أبو عُمر أن أبا معاذ البلخي عن مالك تابعهما في روايته بالواو وقال :

٣ - ورواية زكريا بن يحيىٰ الوقاد ، عن ابن وهب وابن القاسم ويوسف ابن عمر بن يزيد ، كلهم ، عن مالك ، عن خبيب ، عن حفص ، عن أبي سعيد وحده .

٤ - ورواه عبيد اللَّه بن عمر ، عن حفص بن عاصم ، عن خاله خبيب ، عن جده حفص ، عن أبي هريرة وحده .

قال الحافظ في « الأمالي » : المحفوظ عن مالك بالشك ، ورواية زكريا خطأ ، والمحفوظ عن حفص بن عاصم ، عن أبي هريرة وحده ، وكذلك أخرجه الشيخان والنسائي من طريق عبيد اللَّه وهو أحد الحفاظ الأثبات وخبيب خاله وحفص جده ولم يشك فروايته أولىٰ .

وتابعه مبارك بن فضالة عن خبيب . أخرجه الطيالسي ، وقال في

«الفتح» : والظاهر أن عبيد اللَّه حفظه لكونه لم يشك فيه ، لكونه من رواية خاله وجده[1] .

فمالك شارك الجميع في أبي هريرة وخالف الجميع في أبي سعيد ، فكأنه معه زيادة ، مما يعطي السند قوة ، لا أن يُسبب له ضعفًا ، ويكفي وجوده في هذه المراجع الأم بالنسبة للحديث : البخاري ومسلم والنسائي والترمذي و« مسند أحمد » .

كما أن الروايات الأخرىٰ عن مالك عن أبي سعيد وأبي هريرة بواو العطف ، وعن أبي سعيد وحده قد ساقها ابن عبد البر مع رواية أو التي للشك المثبتة في « الموطأ »[2] وكلها بطريق حفص بن عاصم أيضًا .

مبحث ألفاظ الحديث وحصرها :

قال الشيخ عطية سالم في كتابه «في ظلال عرش الرحمن» (١٩ـ ٢٣) :

يتضح من إيراد النصوص المتقدمة لهذا الحديث ، أنه توجد مغايرات في بعض ألفاظه بزيادة أونقص ، أو استبدال لفظ مكان آخر ، أو صنف من السبعة بدل صنف آخر . كما يتضح أيضًا وجود مغايرة في ترتيبه ونسق الأصناف السبعة ، من تقديم بعضها علىٰ بعض وذلك كالآتي :

أولاً : في ألفاظه : ونقدمها جملة جملة :

الأولى : « سبعة يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

هذه الجملة ساقها مالك في « الموطأ » ووافقه البخاري ومسلم والترمذي في الموضعين الأولين ، أما الموضع الثالث فزاد فيها : « يوم

---

(١) « شرح الزرقاني علىٰ الموطأ » (٤/ ٣٤٣) .
(٢) « التمهيد » لابن عبد البر (٢/ ٢٨٠) .

القيامة» وهي عند النسائي فقال : « **سبعة يظلهم اللّه يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله** » ولم يأت لفظ العرش في رواية من تلك الروايات كما ترىٰ .

إثبات لفظ العرش :

ساق ابن عبد البر في « التمهيد » هذه الجملة بثلاث روايات ، وهي كالآتي :

١ ـ الرواية الأولىٰ : « **سبعة يظلهم اللّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله** » . وهي عن أبي هريرة وأبي سعيد .

٢ ـ « **سبعة في ظل اللّه يوم لا ظل إلا ظله** » ، وهي كذلك بأو ، عنهما .

٣ ـ « **سبعة يظلهم اللّه في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله** » ، وهذه عن أبي سعيد وحده ، فتكون لفظة : « **عرشه** » ثابتة عند ابن عبد البر في «التمهيد» ، وسندها عنده كالآتي : أخبرنا علي بن إبراهيم قال : حدثنا الحسن بن رشيق قال حدثنا أبو محمد سعيد بن أحمد بن زكرياء ، كاتب العمري زكرياء بن يحيىٰ الوقاد ، حدثنا عبد اللَّه بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم ويوسف ابن عمر بن يزيد كلهم يقول : حدثني مالك بن أنس ، عن خبيب إلىٰ آخر السند .

وذكر الزرقاني لفظة (العرش) قال : في حديث سلمان عن سعيد بن منصور بإسناد حسن : « **سبعة يظلهم اللّه في ظل عرشه** » .

فالمغايرة هنا : بزيادة : يوم القيامة ، ولفظ : عرشه .

الثانية :

أ ـ « **إمام عادل** » هذه الجملة منكرة الطرفين ، رواية « الموطأ » ووافقه عليها البخاري في المكان الرابع ، وكذلك هي عند الترمذي والنسائي .

ب ـ « **الإمام العادل** » : بتعريف الطريفين : رواية البخاري في أول إيراد

الحديث ووافقه عليها مسلم .

جـ ـ « **إمام عدل** » : بالنعت بالمصدر ، رواية البخاري في الموطن الثاني من إيراد الحديث .

د ـ «**إمام مُقسط في رعيته**» : من روايات السيوطي في «الجامع الصغير» .

والمغايرة هنا بين تنكير وتعريف الطريفين ، وإمام عادل وإمام عادل وإمام مقسط .

الثالثة :

أ ـ « **شاب نشأ في عبادة اللّه** » : رواية « الموطأ » ووافق عليها البخاري في الموطن الثاني ، وفي الموطن الرابع ، والنسائي وزاد : (**عز وجل**) .

ب ـ « **شاب نشأ في عبادة ربه** » للبخاري في الموطن الأول .

جـ ـ « **شاب نشأ بعبادة اللّه** » لمسلم وللترمذي .

والمغايرة هنا في عبادة اللّه ، في عبادة ربه ، وبعبادة اللّه بالباء .

الرابعة :

أ ـ « **ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه** »: هذه رواية «الموطأ» (**بالمسجد**) بالباء .

ب ـ «**ورجل قلبه معلق في المسجد** »: للبخاري في (الرابع) في المسجد .

جـ ـ «**ورجل قلبه معلق في المساجد** »: بالجمع للبخاري في (الأول) ومسلم .

د ـ « **ورجل معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه** » : بدون ذكر القلب لمسلم .

هـ ـ « **ورجل كان قلبه معلقاً بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه** » : بزيادة

(**كان**) للترمذي .

و ـ « **ورجل قلبه معلق بالمساجد من شدة حبه إياها** » : للترمذي أيضًا .

ز ـ « **ورجل كان قلبه معلقاً في المسجد** » . للنسائي .

والمغايرة هنا بين أفراد المسجد وجمعه ، وتعدي معلق : بالباء أو في .

الخامسة :

أ ـ « **ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا على ذلك وتفرقا** » : « للموطأ » .

ب ـ « **ورجلان تحابا في الله عز وجل** » . للنسائي .

جـ ـ « **ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»: البخاري في الأولى، ولمسلم .

د ـ « **ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وتفرقا** » . البخاري في الثاني .

هـ ـ « **ورجل يحب رجلاً لا يحبه إلا لله** » . للسيوطي .

والمغايرة هنا في الاجتماع والتفرق ، وتثنية (رجل) مع (تحابا) ، وإفراده وصدور الحب منه هو .

السادسة :

أ ـ « **ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه** » : الترمذي و« للموطأ » لبخاري الأول والثاني ولمسلم .

ب ـ « **ورجل ذكر الله في خلاء** » : للبخاري في الرابعة ، وللنسائي .

جـ ـ « **وعين بكت من خشية الله** » : للسيوطي .

المغايرة هنا : في « **رجل** » وفي « **عين** » و« **خالياً** » وفي « **خلاء** » .

السابعة :

أ ـ « **ورجل دعتــه امــرأة ذات حسب وجمــال فقال : إني أخــاف الله** » « للموطأ » .

ب ـ « **ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها** » : النسائي .

جـ ـ « **ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله** » : للبخاري في الرابع ومسلم .

د ـ « **ورجل دعته ذات حسب وجمال** » : بدون ذكر امرأة للترمذي .

هـ ـ « **ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال** » : للبخاري في الأولى .

و ـ « **ورجل عرضت عليه نفسها ذات منصب وجمال فتركها لجلال الله**» : وهذه للسيوطي .

والمغايرة هنا في الحسب والمنصب ،وطلبت ، وعرضت ، وذكر المرأة وحذفها .

الثامنة :

أ ـ « **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه** » : «للموطأ» وللبخاري في الثاني والرابع وللترمذي .

ب ـ « **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه** » : للنسائي .

جـ ـ « **ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه** » : للبخاري في الأول .

د ـ « **ورجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لم تعلم شماله ما أنفقت يمينه** » : في « التمهيد » .

هـ ـ « **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله** » : لمسلم بإسناد الإنفاق لشماله .

و ـ « **ورجل يعطي الصدقة بيمينه فيكاد يخفيها عن شماله** » :

والمغايرة هنا بين : ما تنفق وأنفقت ، ودلالة تنفق على التكرار أكثر، وبين أنفقت يمينه وأنفقت شماله ، وأنفقت شماله أدخل في

الإخفـاء، وبين أنفقت وصنعت .

• المغايرة في ألفاظ الحديث وأصنافه :

لم تقع مغايرة في الأصناف السبعة التي وردت في الحديث إلا عند السيوطي ، فقد زاد ونقص فيما أورد زيادة على الرواية المتفق عليها .

في الرواية الأولى :

أ ـ أنقص : « **شاب نشأ في عبادة الله** » .

و« **رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه** » .

ب ـ وذكر بدلاً منهما : « **ورجل كان في سرية مع قوم فلقوا العدو فانكشفوا فحمى آثارهم حتى نجا ونجوا أو استشهد** » .

وفي الرواية الثانية :

أ ـ حذف شاب ، وإمام عادل ، ورجل تصدق .

ب ـ وذكر : « **ورجل غض عينه عن محارم الله** » و « **عين حرست في سبيل الله** » .

* * *

ترتيب الحديث في إيراد جمله السبع من حيث التقديم والتأخير

• قال الشيخ عطية سالم :

لا شك أن لترتيب الحديث أثرًا في ربط المعاني وأوجه الدلالة ، وإن كانت تلك الأصناف السبعة كلها مغايرة بعضها لبعض ، وكل قسم منها قائم بذاته ، مستقل عن غيره ، لو أفرد بنفسه .

ولكن للترتيب صلة بالتعليل والسببية ، وهو مقصد بلاغي عظيم ، له

أثره في الحديث النبوي الشريف ، كما له الأثر البالغ في القرآن الكريم .
وقد لاحظنا تقديمًا وتأخيراً وذلك كالآتي :

أولاً : اتفقوا على تقديم الإمام العادل ، والتثنية بالشاب الناشئ في عبادة اللَّه .

ثانيًا : جاء الصنف الثالث : التعلق بالمسجد عند الجميع ، ما عدا موضعًا للبخاري هو الرابع ، جاء محله « ذكر اللَّه خاليًا » .

ثالثًا : جاء الصنف الرابع : الحب في اللَّه عند الجميع ، ما عدا البخاري في الموضع الرابع جاء محله المسجد .

رابعًا : الصنف الخامس : جاء الذكر عند مالك والترمذي ، والحب عند البخاري في الرابع بينما جاءت المرأة عند البخاري في الأول والثاني ، وعند مسلم .

خامسًا : جاء الصنف السادس : المرأة عند مالك والبخاري في الرابع والترمذي ، بينما جاءت الصدقة عند البخاري في الأول ومسلم .

سادسًا : جاء الصنف السابع : الصدقة عند مالك والبخاري في الرابع والترمذي ، بينما جاء الذكرعند البخاري في الأول ومسلم .
فمسلم والبخاري متفقان تمامًا في الترتيب بدءًا بالإمام العادل ، وختمًا بذكر اللَّه تعالى .
ومالك والترمذي متفقان تمامًا بدءًا بالإمام وختمًا بالصدقة .
ومعلوم أن رواية الترمذي عن طريق مالك فلم يختلف معه في الترتيب وعلى هذا فإنا بدراسة الحديث وظهور الارتباط بين الأصناف فإننا نختار تقديمه على حسب ترتيب الشيخين البخاري ومسلم ، لاتفاقهما عليه من

جهة ، ولظهور قوة الربط وبيان وجه السببية للأصناف بعضها لبعض على ما سيأتي إن شاء اللّٰه .

ولبيان صورة الترتيب نقدم هذا الجدول باختصار :

الأصناف / الرواة	مالك	البخاري	(٢)	(٤)	مسلم	الترمذي	النسائي
١) الإمام	=	=	=	=	=	=	=
٢) الشاب	=	=	=	=	=	=	=
٣) المساجد	=	=	=	الذكر خاليًا	المساجد	=	الذكر خاليًا
٤) الحب في الله	=	=	=	المساجد	الحب في الله	=	المساجد
٥) الذكر خاليًا	=	امرأة	=	الحب في الله	امرأة	الذكر	الحب في الله
٦) امرأة	=	صدقة	=	امرأة	صدقة	امرأة	امرأة
٧) صدقة	=	الذكر	=	صدقة	الذكر	صدقة	تصدق

تفرد مالك بترتيبه : اتفق البخاري في (١) و(٢) مع مسلم . ٣ـ واتفق النسائي مع البخاري في (٤) ووافق الترمذي مالكًا لأنه عن طريقه رواه .

نص الحديث على ترتيب البخاري في الموضعين ومسلم :

« سبعة يظلهم اللّٰه في ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

١ ـ الإمام العادل .

٢ ـ وشاب نشأ في عبادة ربه .

٣ ـ ورجل قلبه معلق في المسجد .

٤ ـ ورجلان تحابا في اللّٰه اجتمعا عليه وتفرقا عليه .

٥ ـ ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف اللّٰه .

٦ ـ ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .

٧ـ ورجل ذكر اللَّه خاليًا ففاضت عيناه »[1] .

نظم من يظلهم الله في ظله

قال العلاّمة أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل في نظمه للسبعة الذين يظلهم اللَّه في ظله :

وقال النبيُّ المصطفى إنّ سبعةً يُظِلّهم اللَّه الكريمُ بفضله
مُحِبٌّ عفيفٌ ناشيءٌ متصدقٌ وباكٍ مُصَلٍّ والإمامُ بعدلَه

وزاد ابن حجر سبعًا فقال :

وزِدْ سبعةً إظلالُ غازٍ وعونُه وإنظارُ ذي عُسْرٍ وتخفيفُ حَمْله
وحامي غُزَاةٍ حينَ ولّوا وعوْن ذي غرامة حقٍّ مَعْ مُكاتِبِ أهلِه[2]

ونظمها مرة أخرىٰ فقال :

وزد سبعة إظلال غاز وعونه وإنظار ذي عسر وتخفيف حمله
وإرفادُ ذي غُرْمٍ وعون مكاتب وتاجر صدق في المقال وفعله

ونظمها مرة أخرىٰ فقال في السبعة الثانية :

وتحسين خُلُق مع إعانة غارم خفيف يدٍ حتى مُكاتب أهلِهِ

وزاد سبعة في بيتين آخرين :

وزد سبعة : حُزْنٌ ومشيٌ لمسجدٍ وكُرهُ وضوءٍ ثم مُطعِمُ فضله
وآخذُ حقٍّ باذلٌ ثُمَّ كافِلٌ وتاجرُ صدقٍ في المقال وفعله

---

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (٢٤ـ٢٦) .

(٢) « فتح الباري » (٢/ ١٤٤) ، و« تنوير الحوالك » (٣/ ١٢٨) ، و« شرح الزرقاني على الموطأ» (٤/ ٣٤٧) .

ولقد أورد السيوطي نظم ابن حجر للأربع سبعات التي نوّه عنها في «الفتح» والتي أودعها جزء « الأمالي » .

ثم زاد ما تحصل له من سبعات له هو وذلك كالآتي :

أولاً : ما هو لابن حجر ونصه :

وزدْ سبعةً إظلالَ غازٍ وعونَه ... وإنظارَ ذي عسرٍ وتخفيفَ حملِه
وحامي غزاة حين ولّوْا وعونَ ذي ... غرامةِ حقٍ مع مُكاتبِ أهلِه

قال - أي ابن حجر - : ثم تتبعت فجمعت سبعة أخرىٰ ، ثم سبعة أخرىٰ ، ولكن أحاديثها ضعيفة ، ونظمت ذلك فقلت :

وزد مع ضَعْفٍ سبعتين إعانةً ... لأخْرَقَ مع أخذٍ لحقٍ وبذلِه
وكُرْهُ وضوءٍ ثم مشيٌ لمسجدٍ ... وتحسينُ خُلق ثم مُطْعِم فَضْلَه
وكافل ذي يُتْمٍ وأرملةٌ وَهَتْ ... وتاجرُ صدقٍ في المقال وفعلَه
وحزنٌ وتصبيرٌ ونصحٌ ورأفةٌ ... تُربّعُ بها السبعاتُ من فيض فضلِه

أ - قلت - أي السيوطي - : وقد تتبعت فوجدت سبعة ، ثم سبعة ، ثم سبعة ، وقد نظمتها فقلت :

وزدْ مع ضعْفٍ من يَضيفُ وعونِه ... لأيتامها ثم القريبُ بوصلِه
واعلمْ بأنَّ اللَّهَ معه وحبه ... إجلالِه والجوع من أهل حبلِه
وزهدٌ وتفريحٌ وغَضٌ وقوةٌ ... صلاةٌ على الهادي وإحياء فعلِه
وتركُ الربا مع رشوةِ الحكم والزنا ... وطفلٌ وراعي الشمس ذكْراً وظلَّه
وصومٌ وتشييعٌ لَميْتٍ عبادةٌ ... فَسبِّعْ بها السبعاتِ يا زينَ أصلِه

* * *

ب ـ ثم تتبعت فوجدت سبعة ، ثم سبعة ، وقد نظمتها فقلت ـ أي السيوطي ـ :

وزدْ سبعتين الحبُّ للّه بالغًا وتطهيرُ قلبٍ والغضوبَ لأجله
وحبٌّ عليٍّ ثم ذكرُ إنابة وأمرٌ ونهيٌ والدُّعاءُ لِسُبْله
وكمنْ أوَّلَ الأنعام يقرأ غداته ومُستغفرُ الأسحارِ يا طيبَ فعلهِ
وبِرٌّ وتركُ النَّمِ والحَسَدِ الذي يَشينُ الفتى فاشكرْ لجامع شمله

جـ ـ قال ـ أي السيوطي ـ : ثم تتبعت فوجدت سبعة أخرىٰ تتمة سبعين وقد نظمتها فقلت :

وزدْ سبعةً قاضي حوائجَ خلقهِ وعبدٌ تقيٌّ والشهيدُ بقتله
وأمٌّ وتعليمٌ أذانٌ وهجرة فتمّتْ لها السبعونَ من فيضِ فضلهِ

فأبو شامة نظم السبعة التي في الحديث ، وابن حجر أضاف إليها ثلاث سبعات فبلغت أربع سبعات ، والسيوطي أضاف ست سبعات فبلغ الجميع عشر سبعات بسبعين صنفًا .

• قال القسطلاني في « إرشاد الساري » (٣/ ٢٢) :

« عدّها شيخنا الحافظ السخاوي في جزء فبلغت مع هذه السبعة ثنتين وتسعين بتقديم الفوقية ، ثم ذكرها القسطلاني بأسانيدها كلها مبينًا درجة كل حديث فيها ، بينما قال محمد بن عبد الباقي الزرقاني في « شرحه علىٰ الموطأ » : إن السخاوي أوصلها إلىٰ أربعة وتسعين . . . وقال : « وقد كنت لخّصت تأويل السخاوي في وريقات ، ونظمت هذه الخصال تذييلاً علىٰ بيتيْ أبي شامة وأبيات الحافظ فقلت :

نظم الزرقاني :

أتى في الموطأ والصحيحين سبعةٌ يُظلُّهم اللّه الكريمُ بظله
أشار لهم نظمًا إمامُ زمانه أبو شامة إذ قال فى بيت وصلهِ

محبٌّ عفيفٌ ناشيءٌ متصدِّقٌ وباكٍ مُصلٍ والإمامُ بعدله
وزادَ عليه العسقلانيُّ (١) بعدهُ ثلاثًا من السبعات نظمًا بقوله
وزد سبعةً إظلالُ غازٍ وعونهُ وإنظارُ ذي عُسْرٍ وتخفيفُ حِمْلِه
وحامي غزاةٍ حين ولَّوا وعونُ ذي غرامةِ حقٍّ مع مُكَاتِبِ أهله
وزدْ مع ضَعْفٍ سبعتين إعانةً لأخرق مع أخذٍ لحقٍ وبذله
وكرهِ وُضوءٍ ثم مشيٍ لمسجدٍ وتحسينِ خُلْقٍ ثم مُطعمِ فضله
وكافلِ ذي يُتمٍ وأرملةٍ وَهَتْ وتاجرِ صدقٍ في المقالِ وفعله
وحزنٍ وتصبيرٍ ونُصْحٍ ورأفةٍ تُربِّعُ بها السبعاتُ من فَيْضِ فضله
وقد زادَها ستًا (٢) بضَعْفٍ ولم تقعْ منظمةً منه فخذْ نظمَ جمله
فحبُّ عليٍّ ثم تركٌ لرشوةٍ زنًا وربَّما حكمٌ لغيرٍ كمثله
ومِن أوّلِ الأنعامِ آيُ ثلاثةٍ عقيبَ صلاةِ الصبحِ غايةَ نفله
وأوصلَها الشيخُ السخْاويُّ أربعًا وتسـ ـعين مع ضَعْفٍ لإسناد جُلَّه
مُراقبُ شمسٍ للمواقيتِ ساكت بحلمٍ وعن علم يقولُ وعقله
ومَنْ حفظَ القرآنَ حالةَ صغرهِ وفي كُبرٍ يتلو وحاملُ كُلَّه
مريضٌ وتشييعٌ لميتٍ عبادةً شهيدٌ ومن في أحُدٍ فازَ بقتله
وعلمٌ بأن اللَّهَ معه وتاجرٌ أمينٌ بلا مدحٍ وذمٍ لرحله
ومَنْ لم يمد اليد نحوَ مُحَرَّمٍ عليه ولم ينظرْ إلى غير حلّه
ومُحسنُ طُعْمٍ للفقيرِ مُصْدِقٌ على معسرٍ تركُ الغريمِ لعُسْره

---

(١) يعني الحافظ ابن حجر العسقلاني .

(٢) يعني العسقلاني زادها ستة أصناف ولم ينظمها مع الأربع سبعات وهي التي جاءت في قوله : فحب عليٍّ . . . إلى قراءة أول الأنعام .

وكافلةٌ أيتامَها بعد زوجها ومشبعُ جوعٍ ثم واصلُ أهله
محبٌّ الأناسي للجلالِ مُؤَذِّنٌ ومن لم يخفْ في اللّه لومًا لعذله
كذا رحمٌ ثم الأمانةُ بعدها خيارُ ذوي التوحيد طيّبُ فعله
مفرِّجُ كربٍ ثم مُحيي لسنةٍ مُصلٍّ على الهادي كثيرًا بأجله
قِرانٌ وهل الجوع خوفًا وصائمٌ ثلاثَة عشر من رجبٍ حَوْله
من يقرأ الإخلاصَ من بعد مغربٍ ثلاثينَ في ثنتين من بعد نفله
وأطفالُ ذي الأيمان نجُل نبيِّنا وغيرُ حسودٍ لا يَعقُّ لأصله
وطاهرُ قلبٍ ليس يمشي نميمةً بريءٌ ومكْلُوفٌ بحبٍّ لربّه
منيبٌ ومذكورٌ بذكر إلهه لحرمته غضبانَ داعٍ لسبله
وأمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ لمنكرٍ وذِكْرٌ بقلبٍ مع لسانٍ لنُبْله
ومستغفرُ الأسحارِ عُمَّارُ مسجدٍ كذلك صوّامٌ مُعَلِّمُ طفله
ومَنْ يذكرِ الرحمنَ مع ذكرهم له كذا أنبياءُ اللّه مع أهل صفوه
خليلُ إله العرشِ فاطمةٌ كذا عليٌّ ونجلاهُ وخاتَمُ رُسْله
عليه صلاةٌ مع سلام به نُرى بحرمتهِ يومَ القيامة بظلّه

ونظم الزرقاني هذا هو آخر جمع لكل ما تقدم ، حيث تضمّن ما جمعه من قبله وبلغت أربعًا وتسعين صنفًا .

بيان لحقيقة تلك الزيادات :

« إن من يقتصر على نظم الزرقاني يجد الآتي :

أ ـ لم يعز للسيوطي شيئًا .

ب ـ عزا لابن حجر ستة أصناف ونظمها هو ، بينما هي مما زاده السيوطي .

جـ - ضمن ما عزاه للسخاوي كل ما هو للسيوطي فحصل بذلك تداخل ولبس .

والذي يظهر أن الحقيقة هي :

١ - زاد ابن حجر ثلاث سبعات فبلغت ٤ X٧ = ٢٨ .

٢ - زاد السيوطي (٦) سبعات فصارت ٦ X ٧= ٤٢ ، ٢٨= ٧٠ ، فيكون الباقي وهو حوالي (٢٤) من زيادة السخاوي .

« **تنبيه أول** » :

إن إيصالها إلىٰ هذا العدد المذكور - نيف وتسعين - إنما هو فضلاً عن ضعف أسانيد الكثير منها - فإنه يوجد بعضها متداخلاً مع غيره ، أو مكرراً معه ، والاختلاف مع مكرره في شكلية بسيطة جداً مثل :

إنظار المعسر والتخفيف عنه مع عون ذي غرامة ومكاتب .

ومثل : رجل قلبه معلق بالمساجد مع ، مشي لمسجد ، ومراقب شمس للمواقيت وعمار مسجد ، إلىٰ مثل ذلك .

« **تنبيه ثان** » :

يلاحظ من نظم الزرقاني وكأنه لم يطلع علىٰ نظم السيوطي للسبعات التي توصل إليها ونظمها بنفسه حتىٰ أوصل العدد إلىٰ سبعين صنفًا ، كما جاء في تنوير الحوالك له .

لأنه ذكر أولاً السبعة ونظم أبي شامة إياها ، ثم جاء بثلاث سبعات ابن حجر التي نظمها هو - أي ابن حجر - وذكر ستة أصناف لابن حجر زيادة علىٰ الثلاث سبعات ، إلا أن ابن حجر لم ينظمها ، فنظمها الزرقاني تابعة لما زاده ابن حجر .

ثم انتقل من ابن حجر إلىٰ السخاوي ، ولم يذكر نظمًا للسيوطي ، بل

ولا أي ذكر للسيوطي في نظمه هذا .

« **تنبيه ثالث** » :

أ ـ إن الأصناف الستة التي عزاها الزرقاني لابن جحر ونظمها عنه في بيتين كلِّها موجودة ضمن ما زاده السيوطي ونظمه بنفسه .

ب ـ كما أن ما زاده السيوطي ذكره الزرقاني مضافًا للسخاوي .

وعلىٰ كل فإن مجموع ما تحصل من الأصناف ينوف علىٰ التسعين ، ولكن مع مراعاة ما نص عليه كل من ابن حجر في السبعة الرابعة له ، وما نص عليه الزرقاني في زيادات السخاوي من ضعف الأسانيد .

أي أن السبعة الأولىٰ متفق عليها كما تقدم ، وثلاث السبعات لابن حجر بأسانيد لا بأس بها في مثل ذلك ، وما بعد هذه السبعات الأربع فضعيفة الأسانيد »[1] .

***

أهم الكتب المؤلفة في هذا الباب :

١ ـ جزء للحافظ ابن حجر العسقلاني سمّاه « معرفة الخصال الموصلة إلىٰ الظلال » ذكره في « فتح الباري شرح صحيح البخاري » (٢/ ١٤٤) ، وذكره في « إنباء الغمر » (٣/ ٦٢) في حوادث سنة ٨١٨هـ ، وذكرها في أماليه من أول المجلس التاسع والتسعين ، إلي آخرالمجلس الخامس بعد المائة والذي يليه .

٢ ـ جزء للحافظ السخاوي ، سمّاه بـ « الاحتفال بجمع أولي الظلال » ذكره في « الضوء اللامع » (٨/ ١٨) ، وذكره في تخريجه لـ « أحاديث العادلين » .

(١) « في ظلال عرش الرحمن » (ص٣٧ـ٣٩) ، وسيأتي تعقيب لي علىٰ هذا الكلام في نهاية الكتاب .

٣ ـ « تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش » للحافظ السيوطي تحقيق أخينا الحبيب مشهور حسن محمود سليمان ، نضّر اللّه وجهه ، وجعله من الربانيين .

٤ ـ « بزوغ الهلال في الخصال الموجبه للظلال » للسيوطي وهو مختصر لـ « تمهيد الفرش » .

٥ ـ تلخيص الزرقاني في « شرحه للموطأ» (٤/ ٣٤٧) لتأليف السخاوي .

٦ ـ « منيل البش فيمن يظلهم اللّه بظل العرش » لأبي عبد اللّه سيدي محمد مصطفى ماء العينين ابن الشيخ محمد فاضل بن قامين الشريف الحسني الإدريسي الشنقيطي جمع ما ساقه القسطلاني في « إرشاد الساري بشرح البخاري » .

٧ ـ كتاب « في ظلال عرش الرحمن » لفضيلة الشيخ عطية محمد سالم ـ حفظه اللّه ـ .

٨ ـ « سبعة في ظل عرش الرحمن » لفضيلة الشيخ عبد الحميد كشك ـ رحمه اللّه ـ .

* * *

الأحـــاديث الضعيفـــة

والموضـــوعة

الأحاديث الضعيفة والموضوعة

(١) عن عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول :

« **أظلّ اللّه عبداً في ظله ، يوم لا ظلّ إلا ظله ، أنظر معسراً ، أو ترك لغارم** » .

إسناده ضعيف : أخرجه أحمد في « المسند » (١/ ٧٣) ، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/ ٨٠) وإسناده ضعيف جداً .

فيه العباس بن الفضل الأنصاري .

قال النسائي في « الضعفاء والمتروكين » : متروك الحديث ، وقال ابن معين : « ليس بشيء » .

انظر : « ميزان الاعتدال » (٢/ ٣٨٥) ، وقال البخاري في « التاريخ الكبير » (٧/ ٥) : (منكر الحديث) .

● وفيه أيضًا هشام بن زياد القرشي .

قال فيه البخاري في « التاريخ الكبير » (٨/ ٢٠٠) : (ضعيف عن أبيه وأمه) .

وقال النسائي في « الضعفاء والمتروكين » : متروك الحديث .

وقال ابن حبان : يروي الموضوعات عن الثقات ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (١٠١٩) و« الضعيفة » رقم (٢٨١٧) .

(٢) عن يعلي بن شدَّاد بن أوس عن أبيه ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول :

« **من أنظر معسراً ، أو تصدّق عليه، أظله اللّه في ظله يوم القيامة** » .

إسناده ضعيف : رواه الطبراني في « المعجم الأوسط » .

فيه يحيىٰ بن سلام الإفريقي : ضعيف ، انظر : ترجمته في « ميزان الاعتدال » (٤/ ٣٨٠ ـ ٣٨١) و«الضعفاء والمتروكين » (٣/ ١٩٦) لابن الجوزي، و« الكامل في الضعفاء » لابن عدي (٧/ ٢٧٠٨) .

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤/ ١٣٤) : فيه يحيىٰ بن سلام الإفريقي ، وهو ضعيف وفيه أيوب بن نهيك : ضعّفه أبو حاتم وغيره .

وقال الأزدي : متروك .

(٣) عن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال :

« **من أنظر معسراً ، أظله اللَّه في ظله يوم القيامة** » .

إسناده ضعيف : قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤/ ١٣٤) : رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه يحيىٰ بن عبد الملك النوفلي ، وهو ضعيف .

قال أبو حاتم الرازي : منكر الحديث ، لا أدري من هو أو مَن أبوه .

انظر : « الكامل في الضعفاء » ، و« ميزان الاعتدال » (٤/ ٤١٤) .

(٤) عن كعب بن عُجْرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **من أنظر مُعسراً ، أو يسّر عليه ، أظله اللَّه في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله** » .

إسناده ضعيف : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » و« المعجم الصغير» ، و« الأوسط » .

قال الهيثمي : فيه عُبيدة بن مُعتّب وهو متروك .

وقال الطبراني عقبه في « الصغير » : « لا يروىٰ عن كعب إلا بهذا الإسناد، تفرّد به الفضل » .

(٥) عن أبي الدرداء ـ رضي اللَّه عنه ـ عن النبي ﷺ قال :

« **من أنظر معسراً ، أو وضع عنه ، أظله اللَّه في ظله يوم القيامة** » .

إسناده ضعيف :رواه الطبراني في « الكبير » .

فيه خالد بن عبد الرحمن المخزومي قال عنه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤/ ١٣٤) : « خالد مجمع على ضعفه » .

(٦) عن أسعد بن زراة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **مَن سرّه أن يظله اللَّه يوم لا ظـل إلا ظله ، فليُيَسِّرْ على مُعسِرٍ ، أو ليضع عنه** » .

إسناده ضعيف : أخرجه الطبراني في « الكبير » ، وفيه عاصم بن عبيد اللَّه ضعيف ، ولم يدرك أسعد ، كذا قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤/ ١٣٤) .

(٧) عن جابر بن عبد اللَّه ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **ثلاث من كُنّ فيه ، أظله اللَّه تحت عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله : الوضوء على المكاره ، والمشي إلى المساجد في الظلم ، واطعام الجائع** » .

(**ضعيف**) : أخرجه أبو الشيخ في « الثواب » والأصبهاني في « الترغيب» وفيه عبد اللَّه بن إبراهيم الغفاري ، قال فيه أبو داود : شيخ منكر الحديث ، وقال الدارقطني : حديثه منكر ، وقال الساجي : منكر الحديث .

وقال الحاكم : روى عن جماعة من الضعفاء أحاديث موضوعة لا يرويها غيره .

والحديث ضعّفه الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٢٥٤٧) .

(٨) عن جابر ـ رضي اللَّه عنه ـ مرفوعًا :

« **من أطعم الجائع حتى يشبع ، أظله اللَّه تحت ظل عرشه** » .

(**ضعيف**) : أخرجه الطبراني في « مكارم الأخلاق » بإسناد الحديث

السابق، وعزاه الزرقاني في « شرح الموطأ » (٤/ ٣٤٥) للطبراني وقال : «إشباع الجائع أخصّ من مطلق إطعامه » .

(**٩**) عن أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة** » .

(**ضعيف**) : أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » ، والأصبهاني في «الترغيب» .

تفرّد به يحيى بن شبيب ، وهو منكر الحديث متهم عند الأئمة .

قال الألباني في « ضعيف الجامع » (٢٥٠١) : موضوع .

(**١٠**) عن أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **التاجر الصدوق تحت ظل العرش يوم القيامة** » .

(**موضوع**) : أخرجه الأصبهاني في « ترغيبه » عن أنس ، وحكم عليه بالوضع الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٢٥٠١) .

(**١١**) « **التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء** » .

(**ضعيف**) : أخرجه الترمذي في « سننه » ، والحاكم ، والدارقطني في «السنن» ، والبغوي في « شرح السنة » والدارمي في « السنن » وقال : لا علم لي به أن الحسن سمع من أبي سعيد .

وقال الحاكم : من مراسيل الحسن .

وضعّفه الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٢٥٠٠) .

(**١٢**) « **التاجرالأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة** » .

(**ضعيف**) : أخرجه ابن ماجه ، والدارقطني ، والبيهقي في « سننه »

والحاكم في « المستدرك » ، وابن أبي حاتم في « العلل » وقال : « قال أبي : هذا حديث لا أصل له » .

وكلثوم ضعيف الحديث ، قال فيه أبو داود : منكر الحديث .

وقال الذهبي في « المستدرك على المستدرك » (٦/٢) : ضعفه أبو حاتم .

وضعَّف الحديث ابن القطّان ، والألباني في « ضعيف الجامع الصغير» رقم (٢٤٩٨) .

(١٣) عن جابر بن عبد اللّه ـ رضي اللّه عنهما ـ قال : أشهد لسمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول :

« أظله اللّه في ظله يوم القيامة ، من أنظر معسراً ، أو أعان أخْرَق » .

(**ضعيف**) : أخرجه الطبراني في « الأوسط » ، وفي « مكار الأخلاق » .

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٣٤/٤) : « فيه عبد اللّه بن سعيد ابن أبي سعيد المقبري وهو متروك » .

(١٤) عن جابر بن عبد اللّه ـ رضي اللّه عنهما ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« من كفل يتيماً أو أرملة أظله اللّه في ظله يوم القيامة » .

(**ضعيف**) : أخرجه الطبراني في « مكارم الأخلاق » ، وابن شاهين في «الترغيب» وفيه إسماعيل بن إبراهيم : مجهول ، والخليل بن مرة : قال السيوطي : ضعّفه الأكثر ، وقال البخاري : منكر الحديث ، وضعفه يحيىٰ ابن معين ، وضعفه السيوطي وابن حجر .

(١٥) عن ابن مسعود ـ رضي اللّه عنه ـ : عن النبي ﷺ قال :

« قال داود عليه السلام : يا رب ، ما جزاء من أعال أرملة أو يتيماً ابتغاء

مرضاتك ؟ قال : أظله في ظلي ، يوم لا ظـل إلا ظلي » .

(**ضعيف**) : أخرجه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » ، وابن عساكر في « تاريخه » وفيه جسر بن فرقد ، ضعّفه البخاري في « الضعفاء الصغير » وفي « التاريخ الكبير » وضعّفه النسائي في « الضعفاء والمتروكين»، وقال ابن معين : ليس بشيء وفيه جعفر بن جسر قال العقيلي : حدّث بمناكير ، وكذا قال ابن عدي وضعفه أيضًا السيوطي .

وبكر عن ابن مسعـود منقطـع ، والحديث ضعفـه السـيوطي ، وابن حجر العسقلاني .

(**١٦**) عن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **إن اللَّه تعالى ، قال لموسى : إن أحببتَ أن تسكنَ في ظل عرشي ، يوم لا ظل إلا ظلي ، فكن لليتيم كالأب الرحيم ، وكن للأرملة كالزوج العطوف** » .

(**ضعيف**) : أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » ، وابن أبي عاصم في «السنة» .

والحديث ضعفه ابن حجر والسيوطي ، وقال الألباني في « تخريج السنة » لابن أبي عاصم (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) : « إسناده ضعيف جدًا ، بل موضوع ، لوائح الوضع عليه ظاهرة ، وآفته أبو أيوب الخبائري » .

(**١٧**) عن علي ـ رضي اللَّه عنه ـ مرفوعًا :

« **إن سيد التجّار من لزم التجارة التي دلّ اللَّه عليها من الإيمان باللَّه ورسوله وجهاد في سبيله ، فمن لزم البيع والشراء فلا يذم إذا اشترى ولا يحمد إذا باع ، وليصدق الحديث ، ويؤد الأمانة ، ولا يتمنى للمؤمنين الغلاء ، فإذا كان كذلك كان أحد السبعة الذين في ظل العرش** » .

(**ضعيف**) : أورده أبو الشيخ في « الثواب » بسند ضعيف كما قاله الزرقاني والسخاوي .

(**١٨**) عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« **أوحى اللّه إلى إبراهيم عليه السلام : يا خليلي ، حسِّنْ خلقك ولوْ مع الكفار ، وتدخل مداخل الأبرار ، وإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه ، أن أظله تحت عرشي ، وأسقيه من حظيرة قدسي ، وأدنيه من جواري** » .

(**ضعيف**) : رواه الطبراني في « الأوسط » ، وابن عدي في « الكامل » وزاد السيوطي نسبته إلى الحكيم الترمذي .

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٨/ ٢٠ ـ ٢١) : « رواه الطبراني في «الأوسط» ، وفيه مؤمل بن عبد الرحمن الثقفي ، وهو ضعيف » ، وضعفه السيوطي ، ومؤمل الثقفي قال فيه أبو حاتم : ضعيف .

وأخرجه الأصبهاني في « الترغيب » من طريق كادح بن رحمة عن أبي أمية ، وكادح واه قال فيه الأزدي وغيره : كذّاب ، وقال ابن حبان : كثير المناكير في روايته ، فاستحق بهذا الترك .

(**١٩**) عن عائشة ـ رضي اللّه عنها ـ قالت : قال رسول اللّه ﷺ :

« **أتدرون من السابقون إلى ظل اللّه يوم القيامة** » ؟ قالوا : اللّه ورسوله أعظم .

قال : « **الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم** » .

(**ضعيف**) : أخرجه أحمد في « المسند » و« الزهد» ، وأبو نعيم في «الحلية»، والديلمي في « مسند الفردوس » ، وابن منيع في « مسنده »

والبيهقي في «الشعب» .

قال ابن حجر : ولم أره إلا من حديث ابن لهيعة وحاله معروف .

وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (١٠١) ،و« تخريج المشكاة» (٣٧١١) .

(٢٠) عن أبي ذر ـ رضي اللَّه عنه ـ رفعه : « **إني موصيك بوصية فاحفظها لعلها تنفعك ، زر القبور تذكرك الآخرة . قلت : بالليل ؟ قال : لا ، بالنهار أحيانًا ، ولازم غسل الموتى فإن في معاينة جسد خاوٍ موعظة بليغة ، وصلِّ على الجنائز لعل ذلك يحزنك ، فإن الحزين في ظل اللَّه معرض لكل خير ، وجالس المساكين وسلم عليهم ، وكُل مع صاحب البلاء ، إيمانًا وتواضعًا، والبس الخشن من الثياب ، وتزيَّن لعبادة ربك أحيانًا ولا تعذب شيئًا مما خلق اللَّه بالنار** » .

(**ضعيف**) : رواه الحاكم وابن عساكر وابن شاهين في « الترغيب » ، وابن أبي الدنيا في كتاب « القبور » .

قال الذهبي في « التلخيص » : منكر ، ويحيى لم يدرك أبا مسلم ، أو أن أبا مسلم رواه عن رجل مجهول .

وقال الحافظ ابن حجر : غريب وفيه ضعف ، وخفيت علته على الحاكم فاستدركه .

وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٣١٧٠) .

(٢١) « **طوبى للسابقين إلى ظل اللَّه**» ... « **الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سئلوه بذلوه، والذى يحكمون للناس بحكمهم لأنفسهم** » .

(**ضعيف**) : أخرجه الحكيم الترمذي عن عائشة ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٣٦٣٥) .

(٢٢) عن أبي بكر الصديق ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول :

« الوالي العادل المتواضع ظل اللّه ورمحه في الأوض ، فمن نصحه في نفسه وفي عباد اللّه ، حشره اللّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ومن غشه في نفسه وفي عباد اللّه، خذله اللّه يوم القيامة » .

(**ضعيف**) : أخرجه ابن شاهين في « الترغيب » ، والأصبهاني في «الترغيب» ، وأبو النعيم في « فضل العادلين » ، وابن عساكر في أماليه ، والديلمي في « الفردوس » ، والسهمي في « تاريخ جرجان » . ومدار الحديث على سليمان بن رجاء ، وهو مجهول ، فالحديث ضعيف ، وأبو نُصَيْرة مستور .

(**٢٣**) عن أبي بكر وعمران بن حصين قالا : قال رسول اللّه ﷺ :

« قال موسى لربه : ماجزاء من عزّى الثكلى ؟ قال : « أظله في ظلي ، يوم لا ظلّ إلا ظلي » .

(**ضعيف**) : أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » رواه عنه الديلمي وضعفه السيوطي ، والألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٤٠٧١) .

(**٢٤**) عن أبي بكر ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال النبي ﷺ :

« من سرّه أن يقيه اللّه من فور جهنم يوم القيامة ، ويجعله في ظله ، فلا يكن غليظاً على المؤمنين ، وليكن بهم رحيماً » .

(**ضعيف**) : رواه أبونعيم في « الحلية » ، وأخرجه البيهقي في «الشعب» ، وأبو الشيخ في « الثواب » والحسن بن سفيان ، وأبو بكر بن بلال في «مكارم الأخلاق» ، والطيالسي في « الترغيب » بلفظ .

« من أراد أن يظله اللّه بظله ، فلا يكن على المؤمنين غليظاً ، وليكن بالمؤمنين رحيماً »

ومهاجر بن غانم المذحجي مجهول ، والحديث ضعفه السيوطي .

(**٢٥**) عن أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

«ثلاثة في ظل العرش يوم القيامة ، يوم لا ظل إلا ظله : واصل الرحم ، يزيد اللّه في رزقه ، ويمدّ في أجله ، وامرأة مات زوجها وترك عليها أيتاماً صغاراً ، فقالت : لا أتزوج ، أقيم على أيتامى ، حتى يموتوا أو يغنيهم اللّه ، وعبد صنع طعاماً فأضاف ضيفه ، وأحسن نفقته ، فدعا عليه اليتيم والمسكين ، فأطعمهم لوجه اللّه» .

(**ضعيف**) : أخرجه أبو الشيخ في « الثواب » ، والأصبهاني في «الترغيب» والطبسي في « الترغيب » ، والديلمي في « الفردوس » ، ومداره على يزيد الرقاشي : قال النسائي : متروك ، وقال أحمد : منكرالحديث ، وقال ابن معين : في حديثه ضعف ، وقال الدارقطني : ضعيف .

وفيه الهيثم بن جماز : ضعفه ابن معين ، وترك أحمد والنسائي حديثه .

(**٢٦**) عن أبي أمامة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« ثلاثة في ظل اللّه يوم القيامة ، رجل حيث توجّه ، علم أن اللّه معه ، ورجل دعته امرأة إلى نفسها ، فتركها من خشية اللّه ، ورجل يحب الناس لجلال اللّه » .

(**ضعيف جداً**) : أخرجه الطبراني في « الكبير » ، والديلمي في «الفردوس»

وفيه بشر بن نمير ، قال فيه أحمد والبخاري : منكر الحديث .

وقال الدارقطني والهيثمي فيه : متروك .

وقال الألباني : ضعيف جداً ، انظر : « ضعيف الجامع » رقم (٢٥٨٠) .

(٢٧) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« أهل الجوع في الدنيا ، هم الذين يقبض الله أرواحهم ، وهم الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا ، وإن شهدوا لم يعرفوا ، أخفياء في الدنيا ، معرفون في السماء ، إذا رآهم الجاهل ظنّ بهم سقماً ، وما بهم سقم إلا الخوف من الله ، يستظلون يوم القيامة ، يوم لا ظل إلا ظله » .

(**ضعيف**) : أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » .

وفي الحديث : إسحاق بن سعيد أبو سلمة الدمشقي : قال أبو حاتم : مجهول ، وقال الدارقطني : منكر الحديث ، وقال الذهبي : ضعّفوه .

ومكحول لم يلق أبا هريرة كما قال ابن أبي حاتم في « المراسيل » (ص١٦٦) .

(**٢٨**) عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا :

« أقرب الناس إلى الله ، من طال جوعه وعطشه وخوفه ، الأخفياء الأبرياء ، الذين إذا شهدوا لم يعرفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا » .

(**ضعيف**) : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ، وأخرج الطبراني نحوه في «المعجم الكبير» ، وأخرجه الحاكم في « المستدرك » .

وقال الذهبي : « فيه أبو قحذم ، قال أبو حاتم : لا يكتب حديثه ، وقال النسائي : ليس بثقة » .

وفي الحديث إشارة إلى الإظلال .

(**٢٩**) عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب أهل بيته ، وعلى قراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله » .

(**ضعيف جداً**) : أخرجه أبو نصر عبد الكريم الشيرازي في « فوائده » والديلمي في « مسند الفردوس » ، وابن النجار عن علي .

وفيه : علي بن العباس بن الوليد البجلي المقانعي ، متهم في دينه ، ذكر ابن الأثير في « اللباب » أنه كان يبيع الخمر بالكوفة .

والحديث قال الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٢٥١) : ضعيف جدًا .

(**٣٠**) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« سبعة يظلهم اللَّه تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله : إمام مقسط ، ورجل لقيته امرأة ذات منصب وجمال ، فعرضت نفسها عليه ، فقال : إني أخاف اللَّه رب العالمين ، ورجل تعلّم القرآن في صغره ، فهو يتلوه في كبره ، ورجل تصدّق بصدقة بيمينه فأخفاها عن شماله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل لقي رجلاً ، فقال له : إني أحبك في اللَّه ، ورجل ذكر اللَّه بين يديه ، ففاضت عيناه خشية من اللَّه » .

(**ضعيف**) : أخرجه البخاري في « التاريخ الصغير » ، والبيهقي في «شعب الإيمان » ، وأبو نعيم في « فضل العادلين » ، والخطيب في « تاريخ بغداد » .

(**٣١**) عن ابن عمر ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« ثلاثة يتحدثون في ظل العرش آمنين ، والناس في الحساب : رجل لم تأخذه في اللَّه لومة لائم ، ورجل لم يمدّ يديه إلى ما لا يحلّ له ، ورجل لم ينظر إلى ما حرّم اللَّه عليه » .

(**ضعيف**) : أخرجه الأصبهاني في « ترغيبه » ، وعنبسة بن

عبد الرحمن متروك متهم ، والحديث ضعّفه السيوطي ، والألباني في « ضعيف الجامع الصغير » رقم (٢٦٠٦) .

(**٣٢**) عن سلمان الفارسي ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **جلساء اللّه غداً أهل الورع والزهد في الدنيا** » .

(**ضعيف**) : أخرجه الديلمي في « الفردوس » ، وعزاه السيوطي إلى ابن لال .

وضعّف المناوي إسناده ، وفيه إشارة إلى الإظلال .

(**٣٣**) عن أبي الدرداء ـ رضي اللَّه عنه ـ قال :

« **قال موسى بن عمران عليه السلام : يا رب من يساكنك في حظيرة القدس ، ومن يستظل بظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك ؟ قال : أولئك الذين لا تنظر أعينهم في الزنا ، ولا يبتغون في أموالهم الربا ، ولا يأخذون على أحكامهم الرشا ، أولئك طوبى لهم وحسن مآب** » .

(**غريب**) : أخرجه البيهقي وابن عساكر ، وأخرج نحوه أبو نعيم في «الحلية» وقال الحافظ ابن حجر : غريب ، وليس في روايته من اتفق على تركه ، وما كان أبو الدرداء يأخذ عن أهل الكتاب ، فالظاهر أن لحديثه حكم الرفع .

(**٣٤**) عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **ثلاثة يظلهم اللّه في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله : التاجر الأمين ، والإمام المقتصد ، وراعي الشمس بالنهار** » .

(**ضعيف**) : أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » من طريق الحاكم .

قال المناوي : فيه جماعة مجاهيل .

وضعفه السيوطي والمناوي والألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٢٦١١).

(٣٥) وعن أنس بن مالك - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **ثلاثة تحت عرش اللَّه يوم لا ظل إلا ظله : من فرّج عن مكروب أمتي ، ومن أحيى سنتي ، ومن أكثر الصلاة عليّ** » .

بلا سند : أخرجه الديلمي في « الفردوس » ، وبيّض له في « مسنده » فلم يذكر له إسناداً .

(٣٦) عن علي بن أبي طالب - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **السابقون إلى ظل العرش يوم القيامة طوبى لهم** » قيل يا رسول اللَّه ، ومَن هم؟ قال : « **هم شيعتك يا عليّ ومحبوك** » .

(**ضعيف جداً**) : أخرجه أبو سعيد السكري ، فيه سليمان الملطي رماه الدارقطني بالكذب ، وسلم بن ميمون الخوّاص : ضعيف ، قال أبو حاتم : لا يكتب حديثه ، وقال العقيلي : له مناكير لا يتابع عليها .

(٣٧) عن أنس - رضي اللَّه عنه - مرفوعًا :

« **إذا خرج المسلم من بيته يعود أخاه المسلم خاض فى الرحمة إلى حقويه ، فإذا جلس عنده غمرته الرحمة ، وكان المريض في ظل عرشه والعائد في ظل عرشه** » .

(**ضعيف**) : رواه أبو يعلى في حديث طويل ، وفيه عبّاد بن كثير ضعيف متروك لغفلته وإن كان صالحًا ، نقله الزرقاني في « شرحه للموطأ » عن السخاوي .

(٣٨) عن أنس - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« الصائمون يُنفخُ من أفواههم ريح المسك ، ويوضع لهم يوم القيامة مائدة تحت العرش ، فيأكلون منها والناس في شدة » .

(**ضعيف**) : أخرجه ابن أبي الدنيا في « كتاب الجوع » وفيه رجل مبهم ، وأخرجه السهمي في « تاريخ جرجان » (ص٤٧٨) وذكر المبهم ، وسماه ، وهو : يزيد الرقاشي ، وهو ضعيف .

(**٣٩**) عن أبي الدرداء - رضي اللَّه عنه - مرفوعًا :

« يُوضع للصائم تحت العرش مائدة من ذهب مكللة بالدّر والجوهر ، عليها من أنواع أطعمة الجنة وأشربتها وثمارها ، فهم يأكلون ويشربون ويتنعمون ، والناس في شدة الحساب» .

(**موضوع**) : أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » ، وأخرج نحوه أبو الشيخ في « الثواب » والديلمي في « الفردوس » من حديث ابن عباس .

وفيه أبو عصمة نوح بن أبي مريم الجامع وهو كذاب وضّاع ، وشهر ابن حوشب : ضعيف .

(**٤٠**) عن سعيد بن المسيب قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول اللَّه أخبرني بجلساء اللَّه ، يوم القيامة ؟

قال : **« هم الخائفون المتواضعون ، الذاكر ، واللَّه كثيراً »** ، قال : يا نبي اللَّه ، أفهُم أول الناس يدخلون الجنة ؟ قال : « لا » ، قال : فمن أول الناس يدخل الجنة؟ قال : **« الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة ، فيخرج إليهم منها ملائكة، فيقولون : ارجعوا إلى الحساب ، فيقولون : على ما نحاسب !! واللَّه ما أفيضت علينا أموال ، نقبض فيها ، ولا نبسط ، وما كنا أمراء ، فنعدل أو نجور ، بل جاءنا أمر اللَّه، فعبدناه ، حتى أتانا اليقين »** .

(**ضعيف**) : أخرجه ابن المبارك في « الزهد» ، وأبو نعيم في « الحلية » .

والحديث مرسل فإن سعيد بن المسيب لم يدرك النبي ﷺ .

(٤١) عن ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قال :

« **من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى ﴿ ويعلم ما تكسبون﴾، نزل إليه أربعون ألف ملك ، تُكتب له مثل أعمالهم ، ونزل إليه ملك من فوق سبع سماوات ، ومعه مرزبّة من حديد ، فإن أوحى الشيطان في قلبه شيئاً من الشر ، ضربه ضربةً ، حتى يكون بينه وبينه سبعون حجاباً ، فإذا كان يوم القيامة ، قال اللَّه تعالى : (أنا ربك ، وأنت عبدي ، امشِ في ظلي ، واشرب من الكوثر ، واغتسل من السلسبيل، وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب)** .

(**منكر جداً**) : أخرجه طلحة بن علي بن صقر ، والسلفي : وقال السيوطي في « الدر المنثور » (٣/ ٢٤٥) : سنده واه .

والمتهم به إبراهيم بن إسحاق الصيني ، قال الدارقطني متروك ، وقال الأزدي : زائغ .

وقال ابن حجر في « لسان الميزان » (١/ ٣٠) عن الحديث : منكر جداً .

(٤٢) عن أنس بن مالك - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **الشهداء ثلاثة : رجل خرج بنفسه وماله ، محتسباً في سبيل اللَّه ، لا يريد أن يقاتل ولا يُقتل ، يُكثِّر سواد المسلمين ، فإن مات أو قُتل ، غفرت له ذنوبه كلها ، وأجير من عذاب القبر ، ويؤمن من الفزع الأكبر ، ويزوج من الحور العين ، ويوضع على رأسه تاج الوقار والخلد.**

والثاني : خرج بنفسه وماله محتسباً ، يريد أن يقتل ولا يُقتل ، فإن مات أو قُتل ، كانت ركبته مع إبراهيم خليل الرحمن بين يدي اللَّه تبارك وتعالى ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

والثالث : خرج بنفسه وماله ، محتسباً ، يريد أن يَقتل ويُقتَل ، فإن مات أو

قُتل ، جاء يوم القيامة ، شاهراً سيفه ، واضعه على عاتقه ، والناس جاثون على الركب ، يقولون: ألا أفسحوا لنا ، حتى يأتوا منابر من نور تحت العرش ، فيجلسون عليها ، ينظرون كيف يُقضى بين الناس » .

(**ضعيف**) : أخرجه البزار ، وابن عساكر في « الأربعون في الحث على الجهاد » ، والبيهقي ، والأصبهاني في « الترغيب » .

وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٥/ ٢٩١) : « رواه البزار وضعّفه بشيخه محمد بن معاوية ، فإن كان هو النيسابوري فهو متروك ، وفيه أيضًا : مسلم بن خالد الزنجي وهوضعيف » .

ورواه بأطول منه الحارث وقال عقبه : هذا حديث موضوع .

وقال البوصيري : رواه الحارث بسند ضعيف لضعف يزيد الرقاشي وداود بن المحبّر .

(**٤٣**) عن أبي سعيد ـ رضي اللَّه عنه ـ مرفوعًا :

« **من صام في رجب ثلاثة عشر يوماً وضع اللّه له يوم القيامة مائدة في ظل العرش يأكل منها والناس في شدة** » .

(**ضعيف جداً**) : أخرجه ابن ناصر في « أماليه » .

وقال الزرقاني نقلاً عن السخاوي : هو شديد الوهْي .

(**٤٤**) عن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ مرفوعًا :

« **يُؤتى يوم القيامة بالمتقاعسين والمبتذلين** » قالوا : يا رسول اللَّه ، ومَنْ هم؟ قال : « **أما المبتذلون : فهم الذين تركوا مهج دمائهم للّه فهراقوها شاهري سيوفهم، يتمنون على اللّه عز وجل يوم القيامة لا يردّ لهم حاجة، وأما المتقاعسون: فهم أطفال المؤمنين اشتد عليهم الموقف، فيتصايحون، فيقول اللّه : يا جبريل**

ما هذا الصوت؟ وهو أعلم بذلك ، فيقول جبريل : رب أطفال المؤمنين اشتد عليهم الموقف .

قال فيقول : أظلهم تحت ظل عرشي فيظلهم ، ثم يقول : يا جبريل أدخلهم الجنة ، فيرتعون فيها ، فيسوقهم جبريل فيصيحون كما يصيحون الخرفان إذا عزلت أمهاتها ، فيقول : يا جبريل وهو بذلك أعلم ما حالهم ؟

قال : يا رب يريدون الآباء والأمهات ، فيقول الله عز وجل : أدخل الأباء والأمهات مع أطفالهم جنتي ورحمتي » .

(**ضعيف**) : أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » ، وقال الزرقاني نقلاً عن السخاوي : ضعيف ولبعضه شواهد .

(**٤٥**) عن ابن عباس - رضي الله عنه - مرفوعًا :

« **اللَّهم اغفر للمعلمين ، وأطل أعمارهم ، وأظلهم تحت ظلك ، فإنهم يعلمون كتابك المنّزل** » .

(**ضعيف**) : أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » ، قال الخطيب : أبو الطيب محمد الفَرُّخان : غير ثقة .

قال الزرقاني في « تلخيصه » للسخاوي : قال بعض الحفاظ : هذا موضوع .

(**٤٦**) عن علي - رضي الله عنه - رفعه :

« **من صلى ركعتين بعد ركعتي المغرب قرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمس عشـرة مرة جـاء يوم القيـامة ؛ فقيل : هذا من الصديقين، فيجوزهم ، فيقال : هذا من الشهداء ، فيجوزهم ، فيقـال : هـذا من النبييـن ، فيجوزهم ، فيقال : هذا من الملائكـة ، فيجـوزهم ، فلا**

يحجب حتى ينتهي إلى العرش ».

(**موضوع**) : أخرجه الحارث بن أبي أسامة ، وقال الزرقاني والسخاوي : منكر .

وقال ابن حجر في « المطالب العالية » (١/ ١٥٢) : هذا حديث موضوع .

قال البوصيري : رواه الحارث عن الحسن بن قتيبة وهو متروك .

(**٤٧**) عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - : أن رسول اللَّه ﷺ قال :

« **الشهداء عند اللّه على منابر من ياقوت ، في ظل عرش اللّه يوم لا ظل إلا ظله على كثيب من مسك فيقول لهم الرب : ألم أوف لكم وأصدقكم ؟ فيقولون: بلى وربنا** » .

(**ضعيف**) : أخرجه العقيلي في « الضعفاء الكبير » ، وفيه إسحاق بن عبد اللَّه بن أبي فروة ، قال الإمام أحمد : لا تحلّ الرواية عنه ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٣٤٤٦) .

(**٤٨**) عن أبي الدرداء - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **خلق اللّه تعالى الجن ثلاثة : أصناف :**

صنف حيات وعقارب وخَشاش الأرض ، وصنف كالريح في الهواء ، وصنف عليهم الحساب والعقاب .

وخلق اللّه الإنس ثلاثة أصناف :

صنف كالبهائم ، قال اللّه تعالي : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ ... الآيات.

وصنف أجسادهم أجساد بني آدم ، وأرواحهم أرواح الشياطين .

وصنف فى ظل اللّه ، يوم لا ظل إلا ظله » .

(**ضعيف**) : أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » ، وابن أبي الدنيا في « مكائد الشيطان » وابن مردويه ، وأبو الشيخ في « العظمة » ، وضعّفه السيوطي والسخاوي والزرقاني ، والألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٢٨٣٨) .

(**٤٩**) عن ابن عمر - رضي اللَّه عنهما - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **إن للّه عباداً اختصّهم لنفسه ، لقضاء حوائج الناس ، وآلى على نفسه ، أن لا يعذبهم بالنار ، فإذا كان يوم القيامة ، أجلِسوا على منابر من نور ، يحادثون اللّه ، والناس في الحساب** » .

(**ضعيف**) : أخرجه الطبراني في « الكبير » ، وأبو نعيم في « الحلية » .

وفيه : أحمد بن طارق الوابشي قال فيه الهيثمي « مجمع الزوائد » (٨/ ١٩٢) : لم أعرفه ، وعبد اللَّه بن زيد بن أسلم : ضعيف .

وأخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » ، وفيه عبد اللَّه بن إبراهيم بن أبي عمرو الغفاري : متروك .

(**٥٠**) عن عبد الرحمن بن عوف - رضي اللَّه عنه - مرفوعًا :

« **ثلاثة تحت ظل العرش يوم القيامة : القرآن يحاج العباد ، والأمانة ، والرحم ينادي : ألا من وصلني وصله اللّه ، ومن قطعني قطعه اللّه** » .

(**ضعيف**): أخرجه أبو الشيخ والديلمي ، وقال العقيلي : لا يصح إسناده ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٢٥٧٦)[1] .

---

(١) ولفظه : ثلاثة تحت العرش يوم القيامة : القرآن له ظهر وبطن يحاج العباد ، والرحم تنادي : صل من وصلني واقطع من قطعني ، والأمانة .

(**٥١**) وفي مناقب علي - رضي اللَّه عنه - مرفوعًا :

« **إنه يسير يوم القيامة بلواء الحمد وهو حامله ، والحسن عن يمينه ، والحسين عن يساره ، حتى يقف بين النبي ﷺ وبين إبراهيم في ظل العرش** » .

(**ضعيف**) : أخرجه أحمد وهو ضعيف ، ولوء الحمد بين رسول اللَّه ﷺ .

(**٥٢**) عن سلمان - رضي اللَّه عنه - مرفوعًا :

« **إذا كان يوم القيامة ضربت لي قبة حمراء عن يمين العرش ، وضُربت لإبراهيم قبة من ياقوتة خضراء عن يسار العرش ، وضربت فيما بيننا لعلي قبة من لؤلؤة بيضاء ، فما ظنك بحبيب بين خليلين !!** » .

أخرجه الحاكم .

(**٥٣**) عن أبي موسىٰ الأشعري - رضي اللَّه عنه - مرفوعًا :

« **أنا وعليّ وفاطمة والحسن والحسين يوم القيامة في قبة تحت العرش** » .

أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » .

(**٥٤**) عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« **سبعة يظلهم اللَّه تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله :**

رجل قلبه معلق بالمساجد .

ورجل دعته امرأة ذات منصب ، فقال : إني أخاف اللَّه .

ورجل غضّ عينه عن محارم اللَّه .

وعين حرست في سبيل اللَّه ، وعين بكت من خشية اللَّه » .

(**ضعيف**) : أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ، وضعّفه الألباني في

« ضعيف الجامع » رقم (٣٢٣٨) .

(**٥٥**) عن أنس - رضي اللّه عنه - قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« **يقول اللّٰه عز وجلّ : قرّبوا أهل لا إله إلا اللّه من ظل عرشي فإني أحبهم**».

أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » .

(**٥٦**) عن أبي سعيد - رضي اللّه عنه - مرفوعًا :

« **إذا كان يوم القيامة جئ بكراسي من ذهب مكللة بالدر والياقوت ، مفروشة بالسندس والإستبرق ، ثم يضرب عليها قباب من نور ، ثم ينادي منادٍ أين المؤذنون ؟ فيقومون وهم أطول الناس أعناقًا ، فيقال لهم : اجلسوا على تلك الكراسي تحت تلك القباب ، حتى يفرغ اللّه من حساب الخلائق ، فإنه لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** » .

(**ضعيف جدًا**) : أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » وسنده ضعيف جدًا كما قال الزرقاني والسخاوي .

(**٥٧**) عن ابن عمر - رضي اللّه عنهما - مرفوعًا :

« **إذا كان يوم القيامة ، وُضعت منابر من ذهب - ولفظ الدارقطني [من نور] - عليها قباب من فضة ، مفضضة بالدر والياقوت والزمرد ، وجلالها السندس والإستبرق ، ثم يجاء بالعلماء ، فيجلسون عليها ، ثم ينادي منادي الرحمن : أين من حمل إلى أمة محمد علمًا - يريد به وجه اللّه ؟ اجلسوا على هذه المنابر ، فلا خوف عليكم حتى تدخلوا الجنة** » .

(**ضعيف**) : أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ، والدارقطني في « الأفراد » ، فيه إسماعيل بن يحيى وهو ضعيف ، سيء الحال جدًا .

(٥٨) عن سهل بن حنيف قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« من أعان مجاهداً في سبيل اللّه ، أو غارماً في عسرته ، أو مكاتباً في رقبته، أظله اللّه في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله » .

(**ضعيف**) : أخرجه أحمد في « مسنده » ، والطبراني في «المعجم الكبير» ، والحاكم في « المستدرك » .

قال الهيثمي في « المجمع » (٥/ ٢٨٣) : « عبد اللّه بن سهل بن حنيف لم أعرفه » ومدار طرق الحديث عليه ، وكذا في « ذيل الكاشف » لأبي زرعة العراقي ، وانظر : « العلل » لابن أبي حاتم (١/ ٣٢٦) ، وضعّفه الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٥٤٥٦) ، وصحح الحديث الحافظ ابن حجرالعسقلاني والسيوطي .

(٥٩) عن أبي هريرة ـ رضي اللّه عنه ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« سبعة في ظل العرش ، يو لا ظل إلا ظله :

رجل ذكر اللّه ، ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ومن شدة حبه إياها ، ورجل يحب عبداً لا يحبه إلا للّه ، وإمام مقسط في رعيته ، ورجل يُعطي الصدقة بيمينه، يكاد يخفيها عن شماله ، ورجل عرضت عليه امرأة نفسها ذات منصب وجمال ، فتركها لجلال اللّه ، ورجل كان في سرية مع قوم ، فلقوا العدو ، فانكشفوا ، فحمى آثارهم ، حتى نجوا ، ونجى أو استشهد » .

(**ضعيف ؟؟؟**) : أخرجته أم الفضل بيتبي الهَرْثمية في جزئها .

قال شيخ الإسلام ابن حجر : هذا حديث حسن ، غريب جداً في غالب ألفاظه ، والخصلة السابعة فيه أشد غرابة .

وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٣٢٣٦) .

(٦٠) عن ابن عمر ـ رضي اللّه عنهما ـ قال :

« ثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة ، لا يهولهم الفزع ، ولا يفزعون حين يفزع الناس : رجل تعلمّ القرآن فقام به يطلب وجه اللّه وما عنده ، ورجل نادى في كل يوم وليلة خمس صلوات يطلب وجه اللّه وما عنده ، ومملوك لم يمنعه رق الدنيا من طاعة ربه » .

(**ضعيف**) : رواه الطبراني في « الكبير » ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » رقم (٢٥٧٧) .

(٦١) **« ثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة ، يغبطهم الأولون والآخرون : عبد أدّى حق اللّه وحق مواليه ، ورجل يؤم قوماً وهم له راضون ، ورجل ينادي بالصلوات الخمس في كل يوم وليلة »** .

(**ضعيف**) : رواه أحمد في « مسنده » والترمذي عن ابن عمر ، وضعفه الألباني في « تخريج المشكاة » رقم (٦٦٦) و« ضعيف الجامع » رقم (٢٥٧٨) ، وضعفه الشيخ شاكر في تحقيقه للمسند .

* * *

خاتمــــــة

يا إخوتـــــــاه !

مَنْ يُسْبَقُ إلى الظل يَضْحَى

خاتمة

إخوتاه ! آن لنا أن نضع القلم بعد أن طوّفنا بكم فيمن يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله .

أحدنا يؤثر الظل على هجير الشمس في دار الدنيا فكيف لا نؤثره في الآخرة ؟!

أفلا يستحقّ الأمر سباقًا شديدًا إنه من يُسبَق إلى الظل يضحى . . .

أترضى بأن تبقى المُخلَّفَ بعدهم صريع الأماني والغرامُ ينازعُ

على نفسه فليبكِ من كان باكيًا أيذهب وقتٌ وهوَ باللهو ضائع

أصناف كريمة لا تقف عند حد السبعة بل تزيد بالأحاديث الحسنة والصحيحة :

١ ـ إمام عادل .

٢ ـ شاب نشأ في عبادة اللَّه عز وجل .

٣ ـ رجل قلبه معلق بالمسجد ، إذا خرج منه ، حتى يعود إليه .

٤ ـ رجلان تحابا في اللَّه ، فاجتمعا على ذلك ، وافترقا عليه .

٥ ـ ورجل ذكر اللَّه خاليًا ، ففاضت عيناه .

٦ ـ ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال إني أخاف اللَّه .

٧ ـ ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .

٨ ، ٩ ـ من أنظر معسرًا ، أو وضع عنه .

١٠ ، ١١ ، ١٢ ـ من أعان مجاهدًا في سبيل اللَّه ، أو غارمًا في عسرته ، أو مكاتبًا في رقبته ، صححه الحافظ ابن حجر وضعّفه الألباني .

١٣ ـ من أظل رأس غاز .

١٤ ـ رجل كان في سرية فانكشفوا ، فحمىٰ آثارهم ، حتىٰ نَجُوا ، ونجىٰ ، أو اشتشهد .

١٥ ـ من أعتق رقبة .

١٦ ـ التاجر الصدوق .

١٧ ـ النبيون وهم علىٰ رأس من يظلهم اللَّه فىٰ ظل عرشه .

١٨ ـ الصديقون .

١٩ ـ الشهداء المجاهدون بأموالهم وأنفسهم .

٢٠ ـ المؤمن المقتول ظلمًا .

٢١ ـ ذراري المسلمين الذي ماتوا قبل الحُلُم .

٢٢ ـ المتقون كاملوا الإيمان .

اثنان وعشرون صنفًا يسبقون إلىٰ ظلال العرش فأين أنت منهم . . . هل سمت بك همتك أن تكون واحدًا منهم . . . إن لم تكن أول من يستظل بظل اللَّه ؟ . . مطلب يستحقّ المنافسة ، وأفق يستحقّ السباق ، وغاية تستحقّ الغلاب .

ما في الخيام أخو وجد يُريحك إن	**بثثته بعض شـأن الحب فاغترب**
واسر في غمرات الليل مهتـديًا	**بنفحة الطيب لا بالعـود والحطب**
وعاد كل أخي جبن ومَعجـزة	**وحارب النفس لا تلقيك في الحرَب**
وخذ لنفسك ظلاً تستـظل به	**يوم اقتسام الورى الظـلال بالرتب**

● **أخي :**

يا مختار القدر . . . يا وعاء البدائع . . . يا من غُذّي بلبان البر ، وقُلِّب بأيدي الأيادي ، يا زرعًا تهمي عليه سُحُب الألطاف .

قد هيّئوك لأمر لـو فطـنت له	**فأربأ بنفسك أن تـرعى مع الهمل**

يا إخوتاه ... هجير دنيانا الكالحة يأخذ بالقلوب والأنفاس . أما آن لنا أن نسابق إلىٰ الظلال الظليلة . . . واللَّه لو ضاع منا نَفَس واحد في غير هذه الغاية لغبنا وما ربحنا ، فما الفوز إلا أن تستظل بهذا الظل ، أن تكون ممن يضحك اللَّه إليه . . . أن تكون أقرب الناس مكانةً من ربك .

اللَّهم اجعل لنا أوفر نصيب من هذا الظل . . . اللَّهم إنا قد دللنا عبادك وحبّبناهم في هذه المرتبة فلا تحرمنا بلوغها . . . يا مَن لا تضيق عنده المنادح ولا يخيب عليه الراغبون . .

اللَّهم إليك أفضت قلوبنا ، ومُدَّت أعناقنا ، وشخصت أبصارنا لكريم وجزيل كرمك .

إلهي أنت الأبد فلا أمد لك ، وأنت المنتهىٰ فلا محيص عنك ، وأنت الموعد فلا منجىٰ منك إلا إليك . . . ألجأنا إلىٰ كرمك هجير دنيانا فلا تخاطبنا بذنوبنا ولا تقايسنا بأعمالنا ، وانشر علينا ظلك يوم لا ظل إلا ظلك ، وأرنا سحائب رحمتك ، وارونا من حوض رسولك ﷺ ريًا تحيي بها موات قلوبنا ، واجعلنا من أهل الغرف في أعلىٰ عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اجعلنا ممن تدخلهم ظلاً ظليلاً . . . هبنا ظل شجرة طوبىٰ .

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

الفقير إلىٰ رحمة ربه
والمشتاق إلىٰ ظل عرشه
السيد بن حسين العفاني
جمهورية مصر العربية
محافظة بني سويف
مركز بني سويف
قرية بني عفان

عنوان آخر لمن أراد المراسلة أو استدرك أشياءً
جمهورية مصر العربية
محافظة بني سويف
مدينة بني سويف
صندوق بريد ١٢٣
دكتور سيد بن حسين بن عبد اللَّه العفاني

فهرس أطراف الحديث

فهرس أطراف الحديث

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
ألا أدلك على ما هو أكثر من ذكرك اللَّه الليل مع النهار ؟	٢/ ٧٧
ألا أدلكم على ما يكفر اللَّه به الخطايا ؟	١/ ٣٠٥
ألا أدلكم على ما يمحو اللَّه به الخطايا ؟	١/ ٣٠٥
ألا اشهدوا أن دمها هدر	٢/ ٣٧٣
ألا إنما هي أربع لا تشركوا باللَّه شيئًا	٢/ ٣١٦
ألا رجل يمنح أهل بيت ناقة تغدوا بإناء وتروح بإناء	٢/ ٢٨
ألا يرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟	١/ ٢٤٧
الذي يخنق نفسه يخنقها في النار	٢/ ٣١٤
اللَّهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا	٢/ ٣٠٦
اللَّهم زينا بزينة الإيمان	٢/ ٣٠٦
اللَّهم من ولي من أمتي شيئًا فشق عليها فاشقق عليه	١/ ٧٠
أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم	٢/ ٧٤
أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا	١/ ٧٩، ٨٢
أما ترضى أن يكون مع ابني إبراهيم يلاعبه	٢/ ٢٧٧
أمتي يوم القيامة غر من السجود	٢/ ٣٣٨
أمرنا النبي بسبع ونهانا عن سبع	١/ ٣٣
إن أبواب الخير لكثيرة التسبيح والتحميد	٢/ ٢٩
إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون	١/ ٧٧
إن أرواح الشهداء في جوف طير خضر	٢/ ٢٦٦
إن أرواح الشهداء في طير خضر	٢/ ٢٦٧
إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو	٢/ ٣٥
إن أفضل عباد اللَّه يوم القيامة الحمادون	٢/ ٧٦

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
إن المقسطين عند اللَّه على منابر من نور	١/ ٦٩
إن ملكًا بباب من أبواب الجنة يقول	٢/ ١٥
إن من أمتي قومًا يعطون مثل أجور أولهم	٢/ ٣٧١
إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن	١/ ٢٤٧
إن المؤمن ليؤجر في إماطة الأذى عن الطريق	٢/ ٢٩
أنا زعيم ببيت في ربض الجنة	١/ ٣٥٥
الأنبياء إخوة	١/ ٣٦
أنت عتيق اللَّه من النار	٢/ ٢٦٦
انتدب اللَّه لمن خرج في سبيله لا يخرجه	٢/ ٢٠٢
أنتم الغر المحجلون يوم القيامة	٢/ ٣٣٨
أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً	٢/ ١٢
إنكم ستحرضون على الإمارة وإنها ستكون	١/ ٧٥
إنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة	١/ ٣٠٥
إنما الأعمال بالنيات	٢/ ١٠٤
إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم	١/ ٧٩
إنما الإمام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به	١/ ٧٠
إنما الدين النصحية	١/ ٣٥٩
إنه خلق كل إنسان من بني آدم	٢/ ٢٧
إنه خير لكما من خادم	٢/ ١١٨
إنه لي من فرس عربي إلا يوذن	٢/ ٨٩
إنه ليستغفر للعالم من في السموات	٢/ ٨٩
إنه لا يرد الصيد ولا ينكأ العدو	٢/ ٣٧٣

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
كرهت أن أذكر اللَّه إلا على طهر	٢/ ١٠٦
كفارات الخطايا	٢/ ٣٣٧
كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس	٢/ ١٩
كل سلامى من الناس عليه صدقة	٢/ ٣١
كل قرض صدقة	٢/ ١٨٢
كل معروف صدقة	٢/ ٢٦
كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك	٢/ ٢٦
كل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة	٢/ ٢٦
كل ميت يختم على عمله إلا المرابط	٢/ ٢٦٨
كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان	٢/ ٧٦
كنا عند النبي فمرت سحابة فقال : ما هذا ؟	١/ ٥١
كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فأمكم	١/ ٢٣٥
﴿ل﴾	
لأعطين الراية غدًا رجلاً يحبه اللَّه ورسوله	١/ ٢٤٧
لأن أقعد مع قوم يذكرون اللَّه من صلاة الغداة	٢/ ٧٥
لأن أقول سبحان اللَّه والحمد للَّه	٢/ ٧٨
لتملأن الأرض جوراً وظلمًا فإذا ملئت جوراً	١/ ٢٣٤
لتملأن الأرض ظلمًا وعدوانًا ثم ليخرجن رجل	١/ ٢٣٤
لزوال الدنيا أهون على اللَّه من قتل مؤمن	٢/ ٢٨٩
لعن اللَّه الراشي والمرتشي في الحكم	١/ ٧٩
لما خلق اللَّه الأرض جعلت تميد وتكفأ فأرساها	٢/ ١٨
لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره اللَّه عليه	٢/ ٣٤
لقد عجب اللَّه من صنيعكما يضيفكما الليلة	٢/ ٣٨

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتى به يوم القيامة	١/ ٧٦
ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتى به يوم القيامة	١/ ٧٦
من من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح	١/ ٧٨
ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيتصدق بها	٢/ ٣٣
ما من رجل يصلي عليه مائة إلا غفر له	٢/ ٧٩
ما من رجل يلي أمر عشرة فما فوق ذلك إلا أتى اللَّه	١/ ٧٦
ما من عبد يسترعيه اللَّه يموت يوم يموت وهو غاش	١/ ٧٨
ما من عبد مسلم توضأ فأسبغ الوضوء	٢/ ٣٣٨
ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه	٢/ ٣٣٨
ما من مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب	١/ ٣٦٧
ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا	٢/ ٣٢
ما من مسلم يقرض مسلمًا قرضًا مرتين	٢/ ١٨٢
ما من قوم يعمل فيهم المعاصي	٢/ ٣٧١
ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء	٢/ ٣٣٨
ما من ملبٍ يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله	٢/ ٨٨
ما من يوم طلعت شمسه إلا وكان بجنبتيها ملكان	٢/ ١٧
ما نقصت صدقة من مال	٢/ ٢٣
ما هذا ؟	٢/ ٢٥٩
الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة	٢/ ٩٢
ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد	٢/ ٢٦٨
مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان	٢/ ١٧
مثل البيت الذي يذكر اللَّه فيه	٢/ ٧٢
المرء في صلاة ما انتظرها	١/ ٣٠٦

الحديث	الصفحة
المرء مع من أحب	٢/ ٣٤٧
المستشار مؤتمن	١/ ٣٦٠
المسجد بيت كل مؤمن	١/ ٢٩٣
المسلم أخو المسلم	١/ ٣٥٨
ملعون من سب أباه ملعون من سب أمه	٢/ ٣١٦
من أجل سلطان اللَّه أجله اللَّه يوم القيامة	١/ ٧٠
من أحب أن يجد طعم الإيمان	١/ ٣٢٨
من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل	٢/ ١٢٢
من أحب للَّه وأبغض للَّه	١/ ٣٢٧
من أذن لثنتي عشرة سنة وجبت له الجنة	١/ ٣١٦
من استطاع منكم أن يكون له خبء من عمل صالح فليفعل	٢/ ١٣٨
من استغفر للمؤمنين والمؤمنات	١/ ٣٦٦
من أشراط الساعة أن تعلو التحوت	٢/ ٣٧٠
من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد لا يصلي	١/ ٢٩٤
من أطاعني فقد أطاع اللَّه	١/ ٧٠
من اطلع في بيت قوم بغير إذن	١/ ٤٢٩
من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم	١/ ٤٢٩
من اطلع في دار قوم بغير إذنهم	١/ ٤٢٩
من أظل رأس غاز أظله اللَّه يوم القيامة	٢/ ١٨٨
من أعان مجاهداً في سبيل اللَّه أو غارمًا	٢/ ٢٠١
من أعتق رقبة مسلمة أعتق اللَّه له	٢/ ٢٢٤
من أعتق رقبة مؤمنة أعتق اللَّه بكل إرب منها	٢/ ٢٢٤
من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداؤه من النار	٢/ ٢٢٥

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
﴿هـ﴾	
هذا الوضوء فمن زاد على هذا	٢/ ٣٣٩
هذان السمع والبصر يعني أبا بكر وعمر	١/ ٨٨
هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين	١/ ٨٨
هكذا الوضوء فمن زاد على هذا	٢/ ٣٣٩
هل أبقيت لأهلك شيئًا ؟	٢/ ١٨٨
هم قوم تحابوا بروح اللَّه على غير أموال	١/ ٣٢٩
﴿و﴾	
واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيف	٢/ ٢٦٩
والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف	٢/ ٣٧١
والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم	٢/ ١٣٦
والذي نفسي بيده لولا أن رجال من المؤمنين	٢/ ٢٧٠
والذين نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم	١/ ٢٣٥
والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا	١/ ٣٧٧
والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى	٢/ ٣٤٦
واللَّه لينزلن ابن مريم حكمًا عادلاً فليكسرن الصليب	١/ ٢٣٦
واللَّه لا أدري وأنا رسول اللَّه ما يفعل بي ولا بكم	٢/ ١٣٧
وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم	٢/ ٢٥
وأنا آمركم بخمس أمرني اللَّه بهن السمع والطاعة	٢/ ٢٥
وأي دواء أدوى من البخل ؟!	٢/ ٣٨
وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني	١/ ٣٢٩
ولقد كنا نسمع تسبيح	٢/ ٨٨

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
يا معشر التجار إن هذا البيع يحضره اللغو والحلف	٢/ ٢٥٠
يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج	١/ ٤٣٦
يأتي المقتول متعلقًا رأسه باحدىٰ يديه	٢/ ٢٨٨
يجتمعون يوم القيامة فيقال أين فقراء هذه الأمة ؟	٢/ ٢٨٢
يخرج عنق من النار يتكلم فيقول : وكلت اليوم	٢/ ٢٨٩
يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير	٢/ ٣٠٥
يصبح علىٰ كل سلامىٰ من ابن آدم صدقة	٢/ ٢٧
يصبح علىٰ كل سلامىٰ من أحدكم صدقة	٢/ ٢٧
يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة	٢/ ٣٠٩
يعرق الناس يوم القيامة حتىٰ يذهب عرقهم في الأرض	١/ ١٤
يقول ابن آدم : مالي مالي وهل لك يا ابن آدم	٢/ ١٩
يقول اللَّه : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني	٢/ ٧٤
يقول اللَّه : أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه	٢/ ٧٣
يقول اللَّه : من عادىٰ لي وليًا	٢/ ٣٤٩
يقول العبد : مالي مالي وإن له من ماله ثلاثًا	٢/ ١٩
يقوم أحدهم في رشحه إلىٰ نصف أذنيه	١/ ١٤
يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال لا يعده	١/ ٢٣٥
يوضع لهم منابر من نور مظلل عليهم بالغمام	٢/ ٢٨٢

* * *

فهرس المراجع

فهرس المراجـــــع

[أ ـ التفسير]

١ ـ « تفسير الطبري » لابن جرير الطبري ـ مطبعة : مصطفى البابي الحلبي .

١ مكرر ـ « تفسير الطبري » لابن جرير ـ طبع دار المعارف ـ تحقيق : محمود شاكر وأحمد شاكر .

٢ ـ « تفسير الطبري » للإمام القرطبي ـ كتاب الشعب .

٣ ـ « تفسير ابن كثير » للحافظ ابن كثير ـ كتاب الشعب .

٤ ـ « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم » للعلاَّمة الألوسي ـ دار الفكر .

٥ ـ « أضواء البيان » للشّنْقيطي ـ مكتبة ابن تيمية .

٦ ـ « في ظلال القرآن » سيد قطب ـ دار الشروق .

٧ ـ « محاسن التأويل » للقاسمي .

٨ ـ « مفاتيح الغيب » للفخر الرازي .

٩ ـ « تفسير المنار » لمحمد رشيد رضا .

[ب ـ السنة وعلومها]

١٠ ـ « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » للحافظ ابن حجر العسْقلاني ـ طبعة السلفية .

١١ ـ « شرح مسلم للنووي » للإمام محيي الدين النووي ـ دار الشعب .

١٢ ـ « تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي » طبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

١٣ ـ « صحيح سنن الترمذي » للألباني ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج .

١٤ ـ « صحيح سنن أبي داود » للألباني ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج .

١٥ ـ « صحيح سنن النسائي » للألباني ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج .

١٦ ـ « صحيح سنن ابن ماجه » للألباني ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج .

١٧ ـ « مسند أحمد بن حنبل » تحقيق : الشيخ أحمد محمد شاكر ـ طبع دار المعارف .

١٨ ـ « الفتح الرباني بترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني على أبواب البخاري » للشيخ الساعاتي ـ دار إحياء التراث العربي .

١٩ ـ « أطراف مسند الإمام أحمد بن حنبل » للإمام ابن حجر العسقلاني ـ تحقيق : د/ زهير الناصر ـ دار ابن كثير .

٢٠ ـ « المنهج الأسعد في ترتيب أحاديث مسند الإمام أحمد » عبد الله ناصر عبد الرشيد ـ دار طيبة .

٢١ ـ « صحيح الأدب المفرد » للألباني .

٢٢ ـ « مشكل الآثار » للطحاوي .

٢٣ ـ « الجامع لشعب الإيمان » للبيهقي ـ الطبعة الهندية .

٢٤ ـ « جامع الأصول » لابن الأثير ـ دار الفكر .

٢٥ ـ « المختارة » للضياء المقدسي .

٢٦ ـ « الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان » علاء الدين بن بلبان ـ تحقيق : شعيب الأرناءوط ـ مؤسسة الرسالة .
٢٧ ـ « مسند أبي يعلىٰ الموصلي » أبو يعلىٰ الموصلي ـ تحقيق : حسين سليم أسد ـ دار المأمون .
٢٨ ـ « الجرح والتعديل » لابن أبي حاتم الرازي ـ طبع الهند .
٢٩ ـ « تذكرة الحفاظ » للذهبي .
٣٠ ـ « المعرفة والتاريخ » للفسوي .
٣١ ـ « النهاية في غريب الحديث والأثر » ابن الأثير .
٣٢ ـ « تهذيب الكمال » للمزِّي ـ مؤسسة الرسالة .
٣٣ ـ « وفيات الأعيان » لابن خلكان .
٣٤ ـ « تهذيب التهذيب » لابن حجر العسقلاني .
٣٥ ـ « لسان الميزان » لابن حجر العسْقلاني .
٣٦ ـ « أخبار أصبهان » لأبي نعيم الأصبهاني .
٣٧ ـ « الأنساب » للسمعاني .
٣٨ ـ « المعجم المفهرس لأطراف الأحاديث التي خرجها الألباني » سليم الهلالي ـ دار ابن الجوزي .
٣٩ ـ « السُّنن » لسعيد بن منصور .
٤٠ ـ « فضائل الصحابة » لأحمد بن حنبل .
٤١ ـ « تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف » للحافظ المزِّي ـ المكتب الإسلامي .
٤٢ ـ « السُّنة » لابن أبي عاصم ـ تحقيق : الألباني ـ المكتب الإسلامي .
٤٣ ـ « كنز العمال » .
٤٤ ـ « المسْتجاد من فعلات الأجواد » الدارقطني ـ تحقيق : محمود حدَّاد .

٤٥ ـ « الموطَّأ » لمالك بن أنس ـ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
٤٦ ـ « ضعيف الجامع الصغير » للألباني ـ المكتب الإسلامي .
٤٧ ـ « صحيح ابن خزيمة » تحقيق د / مصطفى الأعظمي والألباني ـ المكتب الإسلامي .
٤٨ ـ « مجمع الزوائد » للهيثمي ـ مكتبة القدسي .
٤٩ ـ « المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية » لابن حجر العسقلاني ـ المكتب الإسلامي .
٥٠ ـ « صحيح الترغيب والترهيب » للشيخ الألباني ـ المكتب الإسلامي .
٥١ ـ « صحيح الجامع الصغير » للشيخ الألباني ـ المكتب الإسلامي .
٥٢ ـ « فيض القدير » للمناوي .
٥٣ ـ « مشكاة المصابيح » للتبريزي ـ تحقيق : الشيخ الألباني ـ المكتب الإسلامي .
٥٤ ـ « السلسلة الصحيحة » للشيخ الألباني ـ المكتب الإسلامي .
٥٥ ـ « إرواء الغليل » للشيخ الألباني ـ المكتب الإسلامي .
٥٦ ـ « شرح السنة » للإمام البغوي ـ تحقيق : شعيب الأرناءوط وزهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي .
٥٧ ـ « المستدرك » للحاكم .
٥٨ ـ « المُصنَّف » لعبد الرزَّاق الصَّنعاني .
٥٩ ـ « المُصنَّف » لابن أبي شيبة ـ طبع الهند .
٦٠ ـ « السنن الكبرىٰ » للبيهقي .
٦١ ـ « المعْجم الكبير » للطبراني ـ تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي ـ وزارة الأوقاف العراقية .

٦٢ ـ « المعْجم الأوسط » للطبراني ـ طبع دار الحرمين .
٦٣ ـ « مختصر العلو » للذهبي ، الألباني ـ المكتب الإسلامي .
٦٤ ـ « صحيح الوابل الصيب » لابن القيم ـ سليم الهلالي ـ دار ابن الجوزي .
٦٥ ـ « التمهيد » لابن عبد البر .
٦٦ ـ « رياض الصالحين » للنووي تحقيق الألباني ـ المكتب الإسلامي .
٦٧ ـ « تهذيب الأسماء واللغات » للنووي .
٦٨ ـ « إرشاد الساري » للقسطلاني .

[جـ ـ عقيدة]

٦٩ ـ « شرح أصول الاعتقاد » اللالكائي ـ دار طيبة .
٧٠ ـ « الرد الوافر » لابن ناصر الدين الدمشقي ـ المكتب الإسلامي .
٧١ ـ « النونية » لابن القيم ـ مكتبة ابن تيمية .
٧٢ ـ « كتاب العظمة » لأبي الشيخ ـ دار العاصمة .
٧٣ ـ « مجموع فتاوىٰ ابن تيمية » مكتبة ابن تيمية .
٧٤ ـ « الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة » لابن قيم الجوزية ـ تحقيق : د/ علي الدخيل اللّٰه ـ دار العاصمة .

[د ـ تاريخ وسير وتراجم]

٧٥ ـ « تاريخ بغداد » الخطيب البغدادي .
٧٦ ـ « تاريخ دمشق » ابن عساكر .
٧٧ ـ « البداية والنهاية » ابن كثير ـ دار الريان للتراث .
٧٨ ـ « سير أعلام النبلاء » الذهبي ـ مؤسسة الرسالة .
٧٩ ـ « حلية الأولياء » أبو نعيم الأصبهاني .

٨٠ـ « صفة الصفوة » ابن الجوزي .
٨١ـ « طبقات الشافعية الكبرىٰ » ابن السبكي ـ تحقيق : د/ عبد الفتاح الحلو .
٨٢ـ « تاريخ الإسلام » للذهبي .
٨٣ـ « الطبقات الكبرىٰ » لابن سعد .
٨٤ـ « معرفة القرّاء الكبار » الذهبي ـ تحقيق : شعيب الأرناءوط ـ مؤسسة الرسالة .
٨٥ـ « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي .
٨٦ـ « توالي التأسيس في مناقب ابن إدريس » ابن حجر العسقلاني .
٨٧ـ « مناقب الشافعي » للبيهقي ـ تحقيق : السيد أحمد صقر ـ دار التراث .
٨٨ـ « طبقات الحنابلة » لأبي يعلىٰ الحنبلي .
٨٩ـ « ذيل طبقات الحنابلة » ابن رجب الحنبلي .
٩٠ـ « عيون الروضتين في أخبار الدولتين » لأبي شامة ـ مؤسسة الرسالة .
٩١ـ « سلسلة معارك الإسلام الفاصلة » لبشاميل ـ دار الفكر .
٩٢ـ « الإصابة » لابن حجر العسقلاني ـ دار الكتاب العربي .
٩٣ـ « عبد الرحمن الناصر لبسام العسيلي ـ دار النفائس .
٩٤ـ « رجال من التاريخ » لعلي الطنطاوي .
٩٥ـ « البدر الطالع » للشوكاني .
٩٦ـ « الطريق إلىٰ دمشق » لأحمد عادل كمال .
٩٧ـ « صور من حياة التابعين » ـ عبد الرحمن الباشا .
٩٨ـ « ولاة مصر وقضاتها » للكندي ـ مؤسسة الكتب الثقافية .

٩٩ ـ « العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية » للحافظ ابن عبد الهادي ـ دار الكتب العلمية .

١٠٠ ـ « خلفاء الرسول » لخالد محمد خالد ـ دار الجيل .

١٠١ ـ « رجال حول الرسول » خالد محمد خالد ـ دار الريان للتراث .

١٠٢ ـ « مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » لابن الجوزي ـ تحقيق : د/ زينب القاروط ـ دار الكتب العلمية .

١٠٣ ـ « تاريخ الخلفاء » للسيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة .

١٠٤ ـ « نفح الطيب » المقري .

١٠٥ ـ « الأرك » لشوقي عماد خليل ـ دار الفكر .

١٠٦ ـ « مناقب عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي . تحقيق : نعيم زرزور ـ دار الكتب العلمية .

١٠٧ ـ « تبصرة الحكام » لابن فرحون .

١٠٨ ـ « فتوح البلدان » للبلاذري .

١٠٩ ـ « مناقب الشافعي » للرازي .

١١٠ ـ « نزهة الفضلاء في تهذيب سير أعلام النبلاء » ـ لمحمد حسن عقيل ـ دار الأندلس ـ جدة .

١١١ ـ « سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز » لابن رجب ـ دار ابن حزم .

١١٢ ـ « الدرر الكامنة » لابن حجر .

١١٣ ـ « الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزي .

١١٤ ـ « المختار المصون من أعلام القرون » لمحمد حسن عقيل ـ دار الأندلس .

١١٥ ـ « تاريخ المدينة » لابن شبة .
١١٦ ـ « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » لفضل اللّه المحبي .
١١٧ ـ « استجابات إسلامية لصرخات أندلسية » لمحمد حسن عقيل ـ دار الأندلس .
١١٨ ـ « خير الدين بربروس » لبسام العسلي ـ دار النفائس .
١١٩ ـ « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » لعبد الحي الندوي .

[هـ ـ الرّقائق]

١٢٠ ـ « الفوائد » لابن القيم . مكتبة الجامعة .
١٢١ ـ « مفتاح دار السعادة » ابن القيم ـ دار الكتب العلمية .
١٢٢ ـ « مدارج السالكين » ابن القيم ـ تحقيق : محمد حامد الفقي ـ طبعة أنصار السنة .
١٢٣ ـ « إغاثة اللهفان » لابن القيم ـ تحقيق : محمد حامد الفقي ـ دار العدل بالإسكندرية .
١٢٤ ـ « الوابل الصَّيِّب » لابن قيم الجوزية ـ طبع السلفية .
١٢٥ ـ « طريق الهجرتين » ابن القيم ـ طبع السلفية .
١٢٦ ـ « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » ابن القيم ـ مطبعة المدني .
١٢٧ ـ « اللطف في الوعظ » لابن الجوزي .
١٢٨ ـ « المدهش » لابن الجوزي .
١٢٩ ـ « لطائف المعارف » ابن رجب الحنبلي ـ طبع مؤسسة الريان ، ودار ابن حزم ، ودار الفتح .
١٣٠ ـ « الزهد والرقائق » لابن المبارك .
١٣١ ـ « الزهد » لابن حنبل .

١٣٢ ـ « الزّهْد » لهنَّاد بن السَّري ـ تحقيق : عبد الرحمن الفريوائي ـ دار الخلفاء للكتاب الإسلامي .
١٣٣ ـ « التبصرة » لابن الجوزي .
١٣٤ ـ « مختصر قيام الليل » للمقريزي .
١٣٥ ـ « التخويف من النار » ابن رجب الحنبلي ـ مكتبة الإيمان .
١٣٦ ـ « كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء » لمحمد فهمي عبد اللطيف ـ دار الاعتصام .
١٣٧ ـ « لباب الآداب » لأسامة بن منقذ ـ مكتبة السنة .
١٣٨ ـ « الإخوان » لابن أبي الدنيا ـ دار الاعتصام .
١٣٩ ـ « النصيحة في الأذكار والأدعية الصحيحة » لمحمد إسماعيل المقدم ـ مكتبة الإيمان .
١٤٠ ـ « تحفة الذاكرين » للسيوطي .
١٤١ ـ « الرقة والبكاء » لابن أبي الدنيا .
١٤٢ ـ « صلاح الأمة في علو الهمة » للمؤلف .
١٤٣ ـ « رهبان الليل » د/ حسين العفاني ـ مكتبة العلم بجدة ، مكتبة ابن تيمية (المؤلف) .
١٤٤ ـ « موارد الظمآن في محبة الرحمن » د/ سيد العفاني ـ مكتبة الصحابة بجدة (المؤلف) .
١٤٥ ـ « الجزاء من جنس العمل » د/ سيد حسين العفاني ـ مكتبة ابن تيمية (المؤلف) .
١٤٦ ـ « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ابن قيم الجوزية ـ دار الكتاب العربي .
١٤٧ ـ « ذم الهوىٰ » ابن الجوزي ـ تحقيق : مصطفىٰ عبد الواحد ـ دار

الكتب الإسلامية .
١٤٨ ـ « الصوفية في إلهامهم » لحسن كامل الملطاوي ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
١٤٩ ـ « استنشاق نسيم الأنس » لابن رجب ـ المكتب الإسلامي .
١٥٠ ـ « الحكمة الخالدة » لابن مسكويه .
١٥١ ـ « له الأسماء الحسنى » للدكتور أحمد الشرباصي ـ دار الجيل .
١٥٢ ـ « الطريق إلى اللّه » [الصدق] لأبي سعيد الخرّاز ـ دار الإنسان .
١٥٣ ـ « روضة الزاهدين » لعبد الملك الكليب .
١٥٤ ـ « الشفاء من مواعظ الملوك والخلفاء » لابن الجوزي ـ مؤسسة شباب الجامعة .
١٥٥ ـ « تلبيس إبليس » لابن الجوزي .
١٥٦ ـ « المواعظ والمجالس » لابن الجوزي .
١٥٧ ـ « من قصص الماضين في حديث سيد المرسلين » لمشهور حسن سليمان ـ دار الهجرة .
١٥٨ ـ « إتحاف السادة المتقين » للزبيدي .
١٥٩ ـ « الجواب الكافي » لابن القيم .
١٦٠ ـ « الحب في اللّه » لأحمد فريد .
١٦١ ـ « تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش » للسيوطي .
١٦٢ ـ « في ظلال عرش الرحمن » للشيخ عطية محمد سالم .
١٦٣ ـ « سبعة في ظل عرش الرحمن » للشيخ عبد الحميد كشك .

[و ـ اللغة والشعر]

١٦٤ ـ « لسان العرب » لابن منظور .
١٦٥ ـ « السحاب الأحمر » لمصطفى صادق الرافعي .

١٦٦ ـ « التيار الإسلامي في الشعر العباسي » .
١٦٧ ـ ديوان « الحق المبين » لخير الدين وانلي .
١٦٨ ـ ديوان « نداء الحق » لأحمد الصديق ـ دار الضياء .
١٦٩ ـ « وحي القلم » لمصطفى صادق الرافعي .
١٧٠ ـ « بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية » لعبد الجليل حسن ـ دار البشير .

* * *

فهرس الموضوعـــــات

فهرس الموضوعـــــات

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع **الصفحة**

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع **الصفحة**

الموضـــوع **الصفحة**

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

* * *